سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١٢٣)

شرح الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية

للحافظ المحقق
شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية
تغمده الله بواسع رحمته ورضوانه وأسكنه فسيح جناته

لفضيلة الشيخ العلامة
محمد بن صالح العثيمين
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

المجلد الأول

من إصدارات
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

ح مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية، ١٤٣٤هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العثيمين، محمد بن صالح
شرح الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية لابن قيّم الجوزية./
محمد بن صالح العثيمين - الرياض، ١٤٣٤هـ
٤مج؛ (سلسلة مؤلفات الشيخ ابن عثيمين؛ ١٢٣)
ردمك: ٤ ـ ٦٢ ـ ٨٠٣٦ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨ (مجموعة)
١ ـ ٦٣ ـ ٨٠٣٦ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨ (ج١)
١ ـ العقيدة الإسلامية ٢ ـ التوحيد ٣ ـ أهل السنّة
أ. العنوان ب. السلسلة
ديوي ٢٤٠ ١٤٣٤/١٠٢٢٧

الطبعة الأولى
محرم ١٤٣٥هـ

يُطلب الكتاب من:
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية
المملكة العربية السعودية
القصيم ـ عنيزة ـ ٥١٩١١ ص. ب: ١٩٢٩
هاتف: ٠١٦/٣٦٤٢١٠٧ ـ ناسوخ: ٠١٦/٣٦٤٢٠٠٩
جوّال: ٠٥٥٣٦٤٢١٠٧
www.ibnothaimeen.com
info@binothaimeen.com

شرح الكافية الشافية

في الانتصار للفرقة الناجية

(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَقْدِيمٌ

إنَّ الحمدَ لله، نحمدُهُ ونَسْتعينُه ونَسْتغفرُه، ونَعوذُ بالله من شُرور أَنْفُسنا ومن سيِّئات أعمالِنا، مَن يَهْده اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَن يُضْلِلْ فَلا هادِيَ له، وأَشْهَد أن لا إلَهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ لَه، وأَشْهَد أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه، أرسلَه اللهُ بالـهُدَى ودِين الحَقِّ؛ فبلَّغَ الرِّسالة، وأدَّى الأمانةَ، ونَصَح الأمَّةَ، وجاهَد في الله حَقَّ جِهادِه حتَّى أتاهُ اليَقينُ فصَلواتُ الله وسلامُه عليهِ وعلَى آلِه وأصحابِه ومَن تَبِعهم بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّين، أَمَّا بَعْدُ:

فقد كان مِن الأعمال الجليلة لصاحِب الفَضيلة شيخِنا الوالد محمَّد بن صالح العُثَيْمِين -رحمه الله تعالى-، أنه اعتنى عنايةً بالغةً بالمُتون العلميَّة وشَرْحها والتَّعْليق عَلَيها وتَوْضيحها وتَقْريبها لطُلاب العِلم والدَّارسين والبَاحِثِين، وذلك بأُسلوبه المتميِّز بالوُضوح والتَّأصيل المنهجي وجَودة السَّبك بلا تكلُّف ولا تَعقيد.

وكان من اختياراته في العَقيدة من المتون المتقدِّمة: قراءته للنُّونيَّة وهي: «الكـافِيَة الشَّـافِيَة في اعْتِقـاد الفِـرْقة النَّاجِيَـة»، للحافِظ العـلَّامة شَمْس الدِّين

أبي عَبْدالله محمَّد بن أبي بَكْر، ابن قَيِّم الجوزيَّة، المتوفَّى بدمشق عام (٧٥١هـ)[(١)]، تغمَّده الله بواسِع رَحمته ورِضوانه، وأَسْكنه فَسِيح جنَّاته، وجَزاه عن الإسلام والمسلمين خَير الجَزاء.

وفي شَهر ذي الحِجَّة من عام (١٣٩١هـ) شَرَع -رحمه الله- في تَدْوين قراءةٍ عِلميةٍ لتلك القَصِيدة «الرَّائعة» -كما كان يَصِفُها في كلِّ مناسبة-، وكَتَب بخطِّه مختاراتٍ من أبياتها، جَعَلها فُصُولًا متنوعة، وقد أُضِيفت إلى آخِر هذا الكتاب تَتْميمًا للفائدة، كما جَلَس-رحمه الله- في حَلقاتٍ متعدِّدة لشَرْحها ضِمْن دُروسه العِلميَّة التي كان يَعْقِدها للطُّلاب في جامِعِه بعُنَيْزة، وكان أوَّل الشُّروحات المسجَّلة صوتيًّا لفضيلته -رحمه الله- تلك الدُّروس التي كانت خلالَ الفترة من (١٤٠٨-١٤١٢هـ)، وقد شَمِلت مَتْن النُّونية كاملًا.

وفي حَجِّ عام (١٤١٧هـ) بادَر الشَّيخ الدُّكتور علي بن عبدالعزيز الشبل -أثابه الله- باقتراح إلى فضيلة شيخنا العلامة الوالد محمد بن صالح العثيمين -رحمه الله- للشُّروع في العمل اللازم لطباعة ذلك الشَّرح المسجَّل، فوافَقَه على ذلك؛ على أن يَتِم عَرْض المادة المفرَّغة على فضيلته قبل النَّشر، ثم طلب منه تأجيلَ إعداد ذلك الشَّرح للطباعة؛ لعزمه -بمشيئة الله تعالى- على إعادة شرح النُّونية شرحًا مفصَّلًا، وقد تحقَّق ذلك فِعْلًا -ولله الحمد والشكر- فكان الشَّرحَ الأخيرَ، وهو المسجَّل خلال الفَترة من (١٤١٩هـ) حتى وفاته -رحمه الله- عام (١٤٢١هـ)،

(١) ترجم له الكثيرون؛ انظر: (ذيل طبقات الحنابلة) لابن رجب -رحمه الله- (٥/ ١٧٠)، (الدرر الكامنة) لابن حَجَر العسقلاني -رحمه الله- (٤/ ٢١)، (البدر الطالع) للشَّوْكاني -رحمه الله- (٢/ ١٤٣)، (شذرات الذهب) لابن العماد الحنبلي -رحمه الله- (٦/ ١٦٨)، (الأعلام) للزركلي -رحمه الله- (٦/ ٥٦)، وغيرهم.

وقد بدأ فيه -رحمه الله- بـ(**فصل: في أقسام التَّوحيد والفَرق بين توحيد المرسلين وتوحيد النُّفاة المُعَطِّلين**) إلى آخر المنظُومة، ثم عاد بشَرحها من أوَّلها حتى بلغ قول النَّاظِم -رحمه الله-:

وَاللهُ أَعْلَمُ بِالمُرَادِ بِقَوْلِهِ
وَرَسُولُهُ المَبْعُوثُ بِالفُرْقَانِ(١)

وإنفاذًا للقَواعد والضَّوابِط والتَّوْجيهات الَّتِي قرَّرها فَضِيلة الشَّيخ الوالِد محمَّد بن صالح العُثَيْمِين -رحمَهُ اللهُ تعالَى- لإِخْراج تُراثِه العِلْمي قَامَ القِسْم العِلْمِيُّ بـ(**مؤسَّسة الشَّيخ محمَّد بن صالح العُثَيْمِين الخَيْرِيَّة**) بتَهْيِئَة وإِعْداد تلك الشُّروحات للمنظومة، وتَخْريج أحاديثها وتَجْهيزها للطِّباعة والنَّشر، وقد تَفضَّل الشَّيخ الدُّكتور: (**علي بن عبدالعزيز الشبل**) -مَشْكورًا- بمراجعتها، وضَبَط مَتْنَ النُّونية من خلال ثِنْتي عشرة نُسخة تجمَّعت لديه بالإضافة إلى تَقْريراتِ فَضِيلة الشَّيخ الشَّارح -رحمه الله- أَثْناء الدَّرْس بالتَّنْويه على الفُرُوق بين النُّسَخ.

وفي هذا الشَّأن كَتَب الشيخ الدكتور علي بن عبدالعزيز الشبل -حفظه الله- إفادةً عِلْميَّة مُجْمَلة هذا نَصُّها:

[تنويه مجمل بالنُّسخ:

١- نُسخة بِرْلِين وهي المنوَّهَة عنها بـ(الأصل)، وهي منسوخة سنة (٧٧٠هـ)، أي: بعد وفاة ابن القيم -رحمه الله- بـ١٩ سنة، وتقع في ١٦٦ لوحة،

(١) البيت رقم (١١٧٧).

بخط نَسْخيٍّ واضح، وصُورتها بجامعة الإمام محمَّد بن سُعود الإسلاميَّة، برقم ٧٠٨٧ف.

٢- نُسخة الإفتاء في الرياض، وأَصْلها مِن مكتبة سَماحة الشيخ محمَّد بن إبراهيم آل الشيخ -رحمه الله-، وهي محفوظة بمكتبة الرياض، برقم ٨٦/٣٤٧، ومنسوخة سنة (٧٨٢هـ)، أي: بعد وفاة ابن القيم -رحمه الله- بـ٣١ سنة، وتقع في ١٢٦ ورقة.

٣- نُسخة السَّفَّارينيَّة، وعليها تَمَلُّك عبد القادر بن الشيخ محمد السَّفَّاريني الحَنْبلي -رحمه الله-، وهي محفوظة بمكتبة بِرْلين بألمانيا، ومنسوخة سنة (١٢٠٧هـ)، وتقع في ١٣٧ ورقة، وصُورتها بجامعة الإمام محمَّد بن سُعود الإسلاميَّة، برقم ٧١٠١ ف.

٤- نُسخة الظَّاهرية: وهي ضِمن المجموع الكبير «الكواكِب الدَّرَارِي»، ومنسوخة سنة (٨٢٨هـ)، في ١٣١ ورقة، وصُورتها بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، برقم ٢٩٥٣ف.

٥- نُسخة ابن سَحْمان الأولى، وهي نُسخة جيِّدة مُقابلة على نُسختين، وبها حواشٍ تَصْحيحيَّة ذات قِيمة عالية؛ محفوظ أصلها لدَى أُسْرتنا بمكتبة الجَدِّ الشيخ صالح الحمد الشبل -رحمه الله-، ومنسوخة سنة (١٣٠٦هـ) بخط الشيخ سليمان بن سَحْمان -رحمه الله-، في ١٥١ ورقة، وجملة أبياتها (٥٨٥٩) بيتًا، ومضبوطة بالشَّكل كلها سنة (١٣١٤هـ).

٦- نُسخة ابن سَحْمان الثانية، وتقع في ١٥٣ ورقة، وقد نُسخت في المحرم (١٣٠٨هـ)، وفِلْمها في جامعة الإمام محمَّد بن سُعود الإسلاميَّة، برقم ٦٥٨٠ف، وهي مصوَّرة عن أصلها بحائل.

٧- نُسخة التَّيْمُورية، وهي بدار الكُتُب المصرية، برقم ١٧٠ عقائد تيمور، ومنسوخة سنة (٧٦٨هـ)، مجرَّدة عن التَّصْويبات، وفيها ١٥٦ورقة.

وهذه النُّسَخ هي النُّسَخ الأصلية للمقابلة والمراجعة، وأما بقية النُّسخ فمُسانِدة وهي:

٨- نُسخة بُرَيْدة، وتقع في ١٣٥ ورقة، بمكتبة بُرَيدة العامَّة، بخط محمَّد بن عبد العزيز -رحمه الله-، وهي نسخة مضبوطة بالشَّكْل.

٩- نُسخة الإفتاء الثانية، في الرياض، وتقع في ١٥٤ ورقة، مجهولة المصدر، وهي برقم ٣٣٣.

١٠- نُسخة مكتبة آل يَعْقوب، بحائل، في ١٨٤ لوحة، منسوخة سنة ١١٦٩هـ، وآلت إليهم وَقْفًا من حُمود العبيد الرشيد -رحمه الله-.

١١- المطبوعة ضِمن شرح الشَّيخ أحمد بن إبراهيم بن عِيسى -رحمه الله-، المسمَّى «توضيح المقاصد وتَصحيح القواعد في شرح قصيدة الإمام ابن القيِّم».

١٢- المطبوعة ضِمن شرح الشيخ محمَّد خَليل هَرَّاس -رحمه الله- على النُّونية]. انتهى ما كتبه الشَّيخ الدُّكتور علي بن عبدالعزيز الشبل، فجزاه الله خيرًا على جهده المشكور وعَمَله الجليل.

نَسْأل اللهَ تعالَى أن يَجْعل هذا العملَ خالصًا لوجهِه الكَريم؛ نافِعًا لعِبادِه، وأن يجزِيَ فَضِيلةَ شيخِنا عَنِ الإسلام والمسلِمين خَيْر الجَزَاء، ويُضاعِفَ لهُ المثُوبَة والأَجْرَ، ويُعْلِيَ دَرَجَتَهُ في المَهْدِيِّينَ، إنَّه سَمِيعٌ قَرِيبٌ مُجِيبٌ.

وَصَلَّى اللهُ وسلَّم وبارَك علَى عبدِه ورسولِه، خاتَمِ النَّبيِّين، وإِمام المُتَّقِين، وسيِّد الأوَّلينَ والآخِرينَ، نبيِّنا محمَّد، وعلَى آلِه وأصحابِه والتَّابعينَ لهم بإِحْسانٍ إِلَى يوم الدِّين.

القِسْمُ العِلْمِيُّ
فِي مُؤَسَّسَةِ الشَّيْخ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحٍ العُثَيْمِين الخَيْرِيَّةِ
غُرَّةَ شَعْبان ١٤٣٤هـ

* * *

نبذة مختصرة عن
العلاَّمة محمد بن صالح العثيمين
١٣٤٧- ١٤٢١هـ

نسبه ومولده:

هو صاحب الفضيلة الشيخ العالم المحقق، الفقيه المفسّر، الورع الزاهد، محمد بن صالح بن محمد بن سليمان بن عبد الرحمن آل عثيمين من الوهبة من بني تميم.

ولد في ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان المبارك عام ١٣٤٧هـ في عنيزة -إحدى مدن القصيم- في المملكة العربية السعودية.

نشأته العلمية:

ألحقه والده رحمه الله تعالى -ليتعلم القرآن الكريم عند جدّه من جهة أمه المعلِّم عبد الرحمن بن سليمان الدامغ -رحمه الله -، ثمَّ تعلَّم الكتابة، وشيئًا من الحساب، والنصوص الأدبية في مدرسة الأستاذ عبدالعزيز بن صالح الدامغ -حفظه الله-، وذلك قبل أن يلتحق بمدرسة المعلِّم علي بن عبد الله الشحيتان -رحمه الله تعالى- حيث حفظ القرآن الكريم عنده عن ظهر قلب ولـمَّا يتجاوز الرابعة عشرة من عمره بعد.

وبتوجيه من والده -رحمه الله- أقبل على طلب العلم الشرعي، وكان فضيلة الشيخ العلَّامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي -رحمه الله- يدرِّس العلوم

الشرعية والعربية في الجامع الكبير بعنيزة، وقد رتَّب اثنين[١] من طلبته الكبار؛ لتدريس المبتدئين من الطلبة، فانضم الشيخ إلى حلقة الشيخ محمد بن عبد العزيز المطوع -رحمه الله- حتى أدرك من العلم في التوحيد، والفقه، والنحو ما أدرك.

ثم جلس في حلقة شيخه العلَّامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله، فدرس عليه في التفسير، والحديث، والسيرة النبوية، والتوحيد، والفقه، والأصول، والفرائض، والنحو، وحفظ مختصرات المتون في هذه العلوم.

ويُعدّ فضيلة الشيخ العلَّامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي -رحمه الله- هو شيخه الأول؛ إذ أخذ عنه العلم؛ معرفةً وطريقةً أكثر مما أخذ عن غيره، وتأثر بمنهجه وتأصيله، وطريقة تدريسه، واتِّباعه للدليل.

وعندما كان الشيخ عبد الرحمن بن علي بن عودان -رحمه الله- قاضيًا في عنيزة قرأ عليه في علم الفرائض، كما قرأ على الشيخ عبد الرزاق عفيفي -رحمه الله- في النحو والبلاغة أثناء وجوده مدرّسًا في تلك المدينة.

ولما فتح المعهد العلمي في الرياض أشار عليه بعضُ إخوانه[٢] أن يلتحق به، فاستأذن شيخَه العلَّامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي -رحمه الله- فأذن له، والتحق بالمعهد عامي ١٣٧٢-١٣٧٣هـ.

ولقد انتفع -خلال السنتين اللّتين انتظم فيهما في معهد الرياض العلمي- بالعلماء الذين كانوا يدرِّسون فيه حينذاك ومنهم: العلَّامة المفسِّر الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، والشيخ الفقيه عبدالعزيز بن ناصر بن رشيد، والشيخ المحدِّث عبد الرحمن الإفريقي -رحمهم الله تعالى-.

---

(١) هما الشيخان محمد بن عبد العزيز المطوع، وعلي بن حمد الصالحي رحمهما الله تعالى.

(٢) هو الشيخ علي بن حمد الصالحي رحمه الله تعالى.

وفي أثناء ذلك اتصل بسماحة الشيخ العلَّامة عبد العزيز بن عبد الله بن باز -رحمه الله-، فقرأ عليه في المسجد من صحيح البخاري ومن رسائل شيخ الإسلام ابن تيمية، وانتفع به في علم الحديث والنظر في آراء فقهاء المذاهب والمقارنة بينها، ويُعدُّ سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز -رحمه الله- هو شيخه الثاني في التحصيل والتأثُّر به.

ثم عاد إلى عنيزة عام ١٣٧٤هـ وصار يَدرُسُ على شيخه العلَّامة عبد الرحمن ابن ناصر السعدي، ويتابع دراسته انتسابًا في كلية الشريعة، التي أصبحت جزءًا من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلاميّة، حتى نال الشهادة العالية.

تدريسه:

توسَّم فيه شيخه النّجابة وسرعة التحصيل العلمي فشجّعه على التدريس وهو ما زال طالبًا في حلقته، فبدأ التدريس عام ١٣٧٠هـ في الجامع الكبير بعنيزة.

ولّما تخرَّج من المعهد العلمي في الرياض عُيِّن مدرِّسًا في المعهد العلمي بعنيزة عام ١٣٧٤هـ.

وفي سنة ١٣٧٦هـ توفي شيخه العلَّامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي -رحمه الله تعالى- فتولّى بعده إمامة الجامع الكبير في عنيزة، وإمامة العيدين فيها، والتدريس في مكتبة عنيزة الوطنية التابعة للجامع؛ وهي التي أسسها شيخه -رحمه الله- عام ١٣٥٩هـ.

ولما كثر الطلبة، وصارت المكتبة لا تكفيهم؛ بدأ فضيلة الشيخ -رحمه الله- يدرِّس في المسجد الجامع نفسه، واجتمع إليه الطلاب وتوافدوا من المملكة وغيرها حتى كانوا يبلغون المئات في بعض الدروس، وهؤلاء يدرسون دراسة

تحصيل جاد، لا لمجرد الاستماع، وبقي على ذلك، إمامًا وخطيبًا ومدرسًا، حتى وفاته -رحمه الله تعالى-.

بقي الشيخ مدرِّسًا في المعهد العلمي من عام ١٣٧٤هـ إلى عام ١٣٩٨هـ عندما انتقل إلى التدريس في كلية الشريعة وأصول الدين بالقصيم التابعة لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وظل أستاذًا فيها حتى وفاته- رحمه الله تعالى -.

وكان يدرِّس في المسجد الحرام والمسجد النبوي في مواسم الحج ورمضان والإجازات الصيفية منذ عام ١٤٠٢هـ، حتى وفاته -رحمه الله تعالى-.

وللشيخ -رحمه الله- أسلوب تعليمي فريد في جودته ونجاحه، فهو يناقش طلابه ويتقبل أسئلتهم، ويُلقي الدروس والمحاضرات بهمَّة عالية ونفسٍ مطمئنة واثقة، مبتهجًا بنشره للعلم وتقريبه إلى الناس.

آثاره العلمية:

ظهرت جهوده العظيمة -رحمه الله تعالى- خلال أكثر من خمسين عامًا من العطاء والبذل في نشر العلم والتدريس والوعظ والإرشاد والتوجيه وإلقاء المحاضرات والدعوة إلى الله -سبحانه وتعالى-.

ولقد اهتم بالتأليف وتحرير الفتاوى والأجوبة التي تميَّزت بالتأصيل العلمي الرصين، وصدرت له العشرات من الكتب والرسائل والمحاضرات والفتاوى والخطب واللقاءات والمقالات، كما صدر له آلاف الساعات الصوتية التي سجلت محاضراته وخطبه ولقاءاته وبرامجه الإذاعية ودروسه العلمية في تفسير القرآن الكريم والشروحات المتميزة للحديث الشريف والسيرة النبوية والمتون والمنظومات في العلوم الشرعية والنحوية.

وإنفاذًا للقواعد والضوابط والتوجيهات التي قررها فضيلته -رحمه الله تعالى- لنشر مؤلفاته، ورسائله، ودروسه، ومحاضراته، وخطبه، وفتاواه ولقاءاته، تقوم مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية -بعون الله وتوفيقه- بواجب وشرف المسؤولية لإخراج كافة آثاره العلمية والعناية بها.

وبناءً على توجيهاته -رحمه الله تعالى- أنشئ له موقع خاص على شبكة المعلومات الدولية[1]، من أجل تعميم الفائدة المرجوة -بعون الله تعالى- وتقديم جميع آثاره العلمية من المؤلفات والتسجيلات الصوتية.

أعماله وجهوده الأخرى:

إلى جانب تلك الجهود المثمرة في مجالات التدريس والتأليف والإمامة والخطابة والإفتاء والدعوة إلى الله -سبحانه وتعالى- كان لفضيلة الشيخ أعمال كثيرة موفقة منها ما يلي:

- عضوًا في هيئة كبار العلماء في المملكة العربية السعودية من عام ١٤٠٧هـ إلى وفاته.
- عضوًا في المجلس العلمي بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في العامين الدراسيين ١٣٩٨-١٤٠٠هـ.
- عضوًا في مجلس كلية الشريعة وأصول الدين بفرع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في القصيم ورئيسًا لقسم العقيدة فيها.
- وفي آخر فترة تدريسه بالمعهد العلمي شارك في عضوية لجنة الخطط والمناهج للمعاهد العلمية، وألّف عددًا من الكتب المقررة بها.

---

(١) www.binothaimeen.com

- عضوًا في لجنة التوعية في موسم الحج من عام ١٣٩٢هـ إلى وفاته -رحمه الله تعالى- حيث كان يلقي دروسًا ومحاضرات في مكة والمشاعر، ويفتي في المسائل والأحكام الشرعية.
- ترأس جمعية تحفيظ القرآن الكريم الخيرية في عنيزة من تأسيسها عام ١٤٠٥هـ إلى وفاته.
- ألقى محاضرات عديدة داخل المملكة العربية السعودية على فئات متنوعة من الناس، كما ألقى محاضرات عبر الهاتف على تجمعات ومراكز إسلامية في جهات مختلفة من العالم.
- من علماء المملكة الكبار الذين يجيبون على أسئلة المستفسرين حول أحكام الدِّين وأصوله عقيدة وشريعة، وذلك عبر البرامج الإذاعية من المملكة العربية السعودية وأشهرها برنامج (**نور على الدرب**).
- نذر نفسه للإجابة على أسئلة السائلين مهاتفة ومكاتبة ومشافهة.
- رتَّب لقاءات علمية مجدولة، أسبوعية وشهرية وسنوية.
- شارك في العديد من المؤتمرات التي عقدت في المملكة العربية السعودية.
- ولأنه يهتم بالسلوك التربوي والجانب الوعظي اعتنى بتوجيه الطلاب وإرشادهم إلى سلوك المنهج الجاد في طلب العلم وتحصيله، وعمل على استقطابهم والصبر على تعليمهم وتحمل أسئلتهم المتعددة، والاهتمام بأمورهم.
- وللشيخ -رحمه الله- أعمال عديدة في ميادين الخير وأبواب البرّ ومجالات الإحسان إلى الناس، والسعي في حوائجهم وكتابة الوثائق والعقود بينهم، وإسداء النصيحة لهم بصدق وإخلاص.

مكانته العلمية:

يُعَدُّ فضيلة الشيخ -رحمه الله تعالى- من الراسخين في العلم الذين وهبهم الله -بمنّه وكرمه- تأصيلًا ومَلَكة عظيمة في معرفة الدليل واتباعه واستنباط الأحكام والفوائد من الكتاب والسنّة، وسبر أغوار اللغة العربية معانِيَ وإعرابًا وبلاغة.

ولما تحلَّى به من صفات العلماء الجليلة وأخلاقهم الحميدة والجمع بين العلم والعمل أحبَّه الناس محبة عظيمة، وقدّره الجميع كل التقدير، ورزقه الله القبول لديهم واطمأنوا لاختياراته الفقهية، وأقبلوا على دروسه وفتاواه وآثاره العلمية، ينهلون من معين علمه ويستفيدون من نصحه ومواعظه.

وقد مُنح جائزة الملك فيصل -رحمه الله تعالى- العالمية لخدمة الإسلام عام ١٤١٤هـ، وجاء في الحيثيات التي أبدتها لجنة الاختيار لمنحه الجائزة ما يلي:

- **أولًا**: تحلِّيه بأخلاق العلماء الفاضلة التي من أبرزها الورع، ورحابة الصدر، وقول الحق، والعمل لمصلحة المسلمين، والنصح لخاصتهم وعامتهم.
- **ثانيًا**: انتفاع الكثيرين بعلمه؛ تدريسًا وإفتاءً وتأليفًا.
- **ثالثًا**: إلقاؤه المحاضرات العامة النافعة في مختلف مناطق المملكة.
- **رابعًا**: مشاركته المفيدة في مؤتمرات إسلامية كثيرة.
- **خامسًا**: اتباعه أسلوبًا متميزًا في الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وتقديمه مثلًا حيًّا لمنهج السلف الصالح؛ فكرًا وسلوكًا.

عقِبُه:

له خمسة من البنين، وثلاث من البنات، وبنوه هم: عبد الله، وعبد الرحمن، وإبراهيم، وعبد العزيز، وعبد الرحيم.

وفاته:

تُوفي -رحمه الله- في مدينة جدّة قبيل مغرب يوم الأربعاء الخامس عشر من شهر شوال عام ١٤٢١هـ، وصُلِّي عليه في المسجد الحرام بعد صلاة عصر يوم الخميس، ثم شيّعته تلك الآلاف من المصلّين والحشود العظيمة في مشاهد مؤثرة، ودفن في مكة المكرمة.

وبعد صلاة الجمعة من اليوم التالي صُلِّي عليه صلاة الغائب في جميع مدن المملكة العربية السعودية.

رحم الله شيخنا رحمة الأبرار، وأسكنه فسيح جناته، ومَنَّ عليه بمغفرته ورضوانه، وجزاه عما قدّم للإسلام والمسلمين خيرًا.

القِسْمُ العِلْمِيُّ

فِي مُؤَسَّسَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحِ العُثَيْمِينَ الخَيْرِيَّةِ

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الكتاب

قال ابنُ القيِّم -رحمه الله-: «الحمدُ لله الذي شَهِدَتْ له بِالرُّبوبيَّةِ جميعُ مخلوقاتِه، وأَقَرَّتْ له بالعُبوديَّةِ جميعُ مَصنوعاتِه، وَأَدَّتْ له الشَّهادةَ جميعُ الكائناتِ أَنَّه اللهُ الذي لا إلهَ إلَّا هو بما أَوْدَعَهَا مِن لَطيفِ صُنْعِهِ وبَديعِ آياتِه، وسبحان الله وبحمدِهِ، عَدَدَ خَلْقِهِ، وَرِضَا نَفْسِه، وَزِنَةَ عَرْشِه، ومِدَادَ كَلِماتِه، ولا إلهَ إلَّا اللهُ الأحدُ الصَّمدُ الذي لا شريكَ له في رُبوبيَّتِه، ولا شَبيهَ له في أفعالِه، ولا في صفاتِه، ولا في ذاتِه».

الشــرحُ

قَال الشَّارِحُ رَحمه اللهُ تعالَى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين وأُصلي وأُسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدِّين، أما بعد:

القصيدةُ النُّونيَّةُ معروفةٌ بـ**(الكافِيَة الشَّافِيَة في اعتقادِ الفِرْقةِ النَّاجِية)**، فهي كتابٌ ذَكَرَ فيه المؤلِّفُ -رحمه الله- عقيدةَ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ في نظمٍ رقيقٍ وشَيِّقٍ، والإنسانُ إذا حَفِظَ هذه النُّونيَّةَ، وصار في الخَلْوَةِ يَتَرَنَّمُ بها، انتفع بها وَرَقَّ بها قَلْبُه،

فهي قصيدةٌ مهمَّةٌ ينبغي حِفظُها، ومَن كان صاحبَ هِمَّةٍ فإنَّه يسهلُ عليه حفظُها، ولذا أنا أشيرُ بحِفْظِها، وكان شيخُنا عبد الرحمن بن سَعْدِي -رحمه الله- يتمثَّلُ بأبياتِها أحيانًا عند المناسبةِ، فهي في الحقيقةِ كَنزٌ ثمينٌ، نسأَلُ اللهَ تعالى أن ينفعَنا بها، وأن يَرْزُقَنا عِلمًا نافعًا، وعملًا صالحًا.

قَوْلُهُ: «**الحمدُ لله الذي شَهِدَتْ له بربوبِيَّتِه جميعُ مخلوقاتِه**» هذه شَهادةٌ فِعْلِيَّةٌ، فكُلُّ المخلوقاتِ تشهدُ بأنَّه الرَّبُّ عزَّ وجلَّ لأنَّ هذا المخلوقَ لا بُدَّ له مِن خالقٍ، قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ﴾؟ [الطور:٣٥]، الجواب: لا هذا، ولا هذا.

إِذَنْ فلا بُدَّ مِن خالقٍ، فجميعُ المخلوقاتِ شَهِدَتْ بِرُبُوبِيَّةِ الله عزَّ وجلَّ وأنَّه تعالى الرَّبُّ الخالقُ الحكيمُ المُبدعُ، قال اللهُ تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَـٰنِ مِن تَفَـٰوُتٍ﴾ [الملك:٣].

قَوْلُهُ: «**أَقَرَّتْ له بالعُبوديَّةِ جميعُ مصنوعاتِه**» كُلُّ المصنوعاتِ تُقِرُّ له بالأُلُوهيَّةِ (**بالعُبوديَّةِ**)، فإن أراد المؤلِّفُ -رحمه الله- العُبوديَّةَ الكَونيَّةَ، فلا شكَّ أنَّها عامَّةٌ، لأنَّ جميعَ المصنوعاتِ مُقِرَّةٌ لله تعالى بالعُبوديَّةِ الكَونيَّة، لا تَخْرُجُ عن ذلك أبدًا، قال اللهُ تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَـٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم:٩٣]، ولذلك تجدُ أكبرَ الرُّؤساءِ في أكبرِ الدُّولِ خاضعًا للمرضِ إذا أَصابَهُ، ومَن الذي أَصابَهُ به؟ اللهُ عزَّ وجلَّ خاضعًا للموتِ إذا أخَذه، ومَن الذي قَدَّرَ عليه الموتَ؟ اللهُ عزَّ وجلَّ.

إِذَنْ العُبوديَّةُ الكَونيَّةُ لا يُسْتَثْنَى منها أحدٌ.

أمَّا العُبوديَّةُ الشَّرْعيَّةُ فيُسْتَثْنَى منها الكافرُ، فالكافرُ لم يُقِرَّ بعُبوديَّتِهِ، بل قال الكافرون للرَّسولِ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ-: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص:٥].

إِذَنْ إذا أَثْبَتْنَا أنَّ الخَلقَ مصنوعٌ، فهل نُثْبِتُ أنَّ اللهَ صانعٌ؟

الجواب: نعم، لأنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل:٨٨]، لكنَّه ليس مِن أسمائِه، بل يُخْبَرُ به عنه، وتجد المتكلِّمين دائمًا في كلامِهم يُعَبِّرونَ عن الخالقِ بـ(**الصَّانع**)، وهذا وإن كان حقًّا، لكنَّه لا ينبغي، بل التَّعبيرُ بـ(**الخالق**) هو الموافقُ للقرآنِ، قال اللهُ تعالى: ﴿ٱلْخَـٰلِقُ ٱلْبَارِئُ﴾ [الحشر:٢٤].

قَوْلُهُ: «**وَأَدَّتْ له الشَّهادةَ جميعُ الكائناتِ أنَّه اللهُ الذي لا إلهَ إلَّا هو بما أَوْدَعَها من لطيفِ صُنْعِه، وبديعِ آياتِه**»، ولهذا يقولُ الشَّاعرُ:

فَوَا عَجَبًا كَيْفَ يُعْصَى الإِلَهُ ... أَوْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ الجَاحِدُ

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ ... تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدُ[1]

لأنه لا منازِعَ له، يفعلُ في خَلْقِه ما يشاءُ، وهذا يدلُّ على أنَّه عزَّ وجلَّ واحدٌ.

قَوْلُهُ: «**وسُبحان الله وبحمدِه**» هذا جمعٌ بين التَّنزيهِ عن كُلِّ ما لا يليقُ بِه، وإثباتِ الكمالِ له، فبالحمدِ ثَبَتَ له الكمالُ، بمعنى أنَّه يُحْمَدُ على كَمالِه، وبالتَّسبيحِ ثَبَتَ له عزَّ وجلَّ التَّنزيهُ عن كُلِّ نَقْصٍ، والتَّسبيحُ والتَّحميدُ يُقْرَنانِ دائمًا، لأنَّ بهما الكمالَ المُطْلَقَ.

قَوْلُهُ: «**عَدَدَ خَلْقِه، ورِضَا نَفْسِه وزِنَةَ عَرْشِه ومِدَادَ كَلِماتِه**» بيانٌ لمقدارِ هذا

---

(١) البيتان لأبي العَتَاهِيَة، كما في التمثيل والمحاضرة للثعالبي (ص:١١).

الحمدِ وكيفيَّتِهِ، فـ(**عَدَدَ خَلْقِه**) بالكَميَّة، و(**رِضَا نَفْسِه، وَزِنَةَ عَرْشِه، وَمِدَادَ كلماتِه**) هذا بالكَيْفيَّة، وإن كان مِدادُ الكلماتِ قد يكونُ بالكَميَّةِ أيضًا.

قَوْلُهُ: «الأَحَدُ الصَّمَدُ» (**الأَحَدُ**): أي: المُتَفَرِّدُ، و(**الصَّمدُ**): القولُ الذي يجمعُ كُلَّ ما قِيلَ فيها: أنَّه الغنيُّ بِذَاتِه، الذي افْتَقَرَتْ له جميعُ مخلوقاتِه، فهو غنيٌّ عن جميعِ المخلوقاتِ، وجميعُ المخلوقاتِ كُلُّها مُفْتَقِرَةٌ له.

قَوْلُهُ: «لَا شَبِيهَ لَهُ فِي أَفْعَالِهِ، وَلَا فِي صِفَاتِهِ، وَلَا فِي ذَاتِهِ» هذه ثلاثةُ أشياءَ لا شبيهَ لله تعالى فيها، وهي: أفعالُه وصفاتُه وذاتُه.

أوَّلًا: الفِعلُ: فَمَثَلًا: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤] فِعْلٌ، لكن هل هو يُشْبِهُهُ استواؤنا على السَّريرِ، وعلى البَعِيرِ؟ الجواب: لا، وكذلك: «**يَنْزِلُ إِلَى السَّماءِ الدُّنْيا**»[1]. هل يُشْبِهُه نُزولُنا مِن السَّطحِ إلى الأرضِ؟ الجوابُ: لا.

ثانيًا: الصِّفات مِثل: العِلم والسَّمعِ والقُدْرة والعِزَّة، أيضًا لا تُشْبِهُه صفاتُنا، فنحن عندنا عِلمٌ وقُدْرةٌ وسَمعٌ وبَصرٌ وعِزَّةٌ وحِكْمةٌ، لكن لا تُشْبِهُ ما لله تعالى مِن ذلك.

ثالثًا: الذَّات، فذواتُ المخلوقين لا تُشْبِهُ ذاتَ الخالقِ عزَّ وجلَّ.

واعلم أنَّ كلمةَ (**ذات**) تُطْلَقُ على عَين الشَّيء، لكن هذا الإطلاقُ هل هو لُغَويٌّ أو مُحْدَثٌ؟ قال بعضُهم: إنَّه مُحْدَثٌ، وإنَّما في اللُّغةِ لا تُطْلَقُ على ذاتِ الشَّيء، وإنَّما تُطْلَقُ على الجهةِ، وعلى الحالِ، وأن تكونَ بمعنى (**صاحبة**)، فتقولُ مثلًا: (**هذه امرأةٌ ذاتُ مالٍ**) أي: صاحبةُ مالٍ، قال اللهُ تعالى: ﴿وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل، والإجابة فيه، رقم (٧٥٨).

بَيۡنِكُمۡ﴾ [الأنفال:١] أي: الحال التي بَيْنَكم أَصْلِحُوها، وقال النَّبِيُّ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ-: «لَمْ يَكْذِبْ إِبْرَاهِيمُ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- إِلَّا ثَلَاثَ كَذَبَاتٍ: ثِنْتَيْنِ مِنْهُنَّ فِي ذَاتِ الله»[1]. أي: في جانبِه وجهتِهِ.

وقال خُبَيْبٌ[2] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَذَلِكَ فِي ذَاتِ الإِلَهِ»[3]. أي: في جانبِه وجِهتِهِ.

لكن اسْتُعْمِلَت استعمالًا شائعًا عند العلماءِ، حتَّى صارت حقيقةً عُرفيَّةً، فاسْتُعْمِلَتْ في مقابلِ الصِّفةِ، فاستعملوها بمعنى نفسِ الشَّيءِ، وعينِ الشَّيءِ، فكما تقولُ العربُ: (هذا زيدٌ عينُه)، و(هذا زيدٌ نفسُه)، يكونُ: (وهذا زيدٌ ذاتُه)، وصار الآن استعمالًا شائعًا لا يُنْكَرُ، ولهذا قال المؤلِّفُ -رحمه الله-: (فِي صِفَاتِه وَذَاتِهِ).

وقوله: «وَلَا شَبِيهَ لَهُ فِي أفعالِه» هذا مِن بابِ التَّجوُّزِ، وما قاله شيخُه -رحمه الله- من التَّعبيرِ بِنَفْيِ التَّمثيلِ أَوْلَى، يعني: الذي ينبغي أَلَّا نُعبِّرَ بلفظِ (التَّشبيه)، بل نُعبِّر بلفظِ (التَّمثيلِ)، لأنَّ ذلك هو الذي جاء في القرآنِ الكريمِ، قال اللهُ تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [الشورى:١١]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ [النحل:٧٤]، أمَّا (التَّشبيهُ) وإن كان يُرَادُ به معنى (التَّمثيل)، لكنَّه لا يساوي نفيَ التَّمثيلِ، وعلى هذا فنقول: التَّعبيرُ بنفي التَّمثيلِ أَوْلى مِن وُجوهٍ:

الأوَّل: أنَّه الذي جاء به القرآنُ، وكُلَّما وَافَقَ كلامُ الإنسانِ ما عَبَّرَ به القرآنُ

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾، رقم (٣١٧٩)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب من فضائل إبراهيم الخليل ﷺ، رقم (٢٣٧١).

(٢) هو خبيب بن عدي بن مالك بن عامر الأنصاريّ الأوسيّ، شهد بدرًا واستشهد في عهد النبيّ ﷺ. انظر ترجمته في: الإصابة (٢/ ٢٢٥).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب هل يستأسر الرجل ومن لم يستأسر، ومن ركع ركعتين عند القتل، رقم (٢٨٨٠).

والسُّنَّةُ فهو أَوْلى، لأَنَّه كلامٌ مُحْكَمٌ.

الثَّاني: أنَّ نفيَ التَّشبيهِ مُجْمَلٌ في الواقعِ، لأنَّ هناك أناسًا يَدَّعون أنَّ مَنْ أَثْبَتَ لله صِفةً فهو مُشَبِّهٌ، فأهلُ التَّعطيلِ يُسَمُّون أهلَ الإثباتِ مُشَبِّهَةً، فإذا قلنا: (**مَعَ نَفْيِ التَّشبيهِ**) وقد تَقَرَّرَ في ذهنِ الإنسانِ أنَّ إثباتَ الصِّفاتِ تشبيهٌ فُهِمَ مِن هذا اللفظِ نفيُ الصِّفاتِ.

الثَّالث: أنَّ نفيَ التَّشبيهِ لا يصحُّ، لأنَّه إن أُرِيدَ به مُطْلَقُ التَّشبيهِ فهو غيرُ صحيحٍ، لأنَّه لا بُدَّ مِن اشتراكِ الخالقِ والمخلوقِ في أصلِ الصِّفةِ، وهو نوعٌ مِن التَّشبيهِ، لكنَّهما يختلفان في كيفيَّتِها.

فمثلًا (**العِلمُ**)، لله عزَّ وجلَّ عِلمٌ، وللإنسانِ عِلمٌ، لا بُدَّ مِن هذا، فهما اشتركا في أصلِ العِلمِ وهو نوعٌ مِن الشَّبَهِ، فإذا أراد بذلك نفيَ مُطْلَقِ التَّشبيهِ فهذا غَلَطٌ، لأنَّه لا بُدَّ مِن اشتباهٍ، أعني: اشتراكًا في أصلِ المعنى، فهذا لا بُدَّ منه، لكن يختلفان في الكيفيَّةِ والعمومِ والشُّمولِ، وما أشبه ذلك، وإن أراد به التَّشبيهَ المُطْلَقَ قال: (**مِنْ غَيْرِ تَشْبِيهٍ**) أي: (**التَّشبيه المطلق**)، فهذا لَغْوٌ مِن القولِ لا قيمةَ له، لأنَّه لا أحدَ ممَّن يُثْبِتُ الخالقَ والمخلوقَ يقولُ: إنَّ الخالقَ مِثلُ المخلوقِ مِن كُلِّ وجهٍ.

إِذَنْ يكونُ نفيُنا للتَّشبيهِ إذا أردنا التَّشبيهَ المُطْلَقَ يكونُ لَغْوًا مِن القولِ، لأنَّه لا حاجةَ إليه كما لا حاجةَ أن نقولَ: (**السَّماءُ فَوْقَنا، والأرضُ تَحْتَنا**)، ولا أن نقولَ كما قال النَّاظمُ:

كَأَنَّـنَا وَالسَّمَاءُ مِـنْ حَوْلِنَـا قَوْمٌ جُلُوسٌ حَوْلَـهُمْ مَـاءُ[1]

---

(١) البيت في الكشكول، لبهاء الدين الحارثي (١/ ٢٦١) بلا نسبة.

إِذَنْ نفيُ التَّمثيلِ أَوْلى لهذه الوجوهِ الثَّلاثةِ، وهذا الذي قرَّره شيخُ الإسلامِ -رحمه الله- حين ناظر مَنْ ناظره في (**العقيدة الواسطيَّة**)[1].

* * *

«واللهُ أكبرُ عَدَدَ ما أَحَاطَ به عِلمُه، وَجَرى به قَلَمُه، وَنفَذَ فيه حُكْمُه مِن جميعِ بَرِيَّاتِه، وَلَا حَولَ وَلَا قوَّةَ إلَّا بالله، تَفْويضَ عَبْدٍ لَا يملكُ لنفسِه ضَرًّا ولا نَفْعًا، وَلَا مَوْتًا وَلَا حَياةً، ولا نُشُورًا، بَلْ هُو بالله، وإلى الله في مَبَادي أمرِه ونِهاياتِه».

الشــرحُ

قَوْلُهُ: «**تَفْويضَ**»: منصوبةٌ بفعلٍ محذوفٍ، يعني: أُفَوِّضُ ذلك تفويضَ عبدٍ.

قَوْلُهُ: «**بل هو بالله وإلى الله**» أي: بالله وُجودًا، فوجودُ الإنسانِ بالله، (**وإلى الله**) غايةً، فإنَّ مرجعَ العبدِ إلى الله -تبارك وتعالى- مهما طَالَتْ به الحياةُ مَرْجِعُه إلى ربِّه -تبارك وتعالى- قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم:٤٢].

* * *

«وأشهدُ أن لا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، ولا صاحبةَ له، ولا ولدَ له، ولا والدَ له، ولا كُفْءَ له، الذي هو كما أَثْنَى على نفسِه، وفوق ما يُثْنِي عليه أحدٌ مِن جميعِ بَرِيَّاتِه، وأشهدُ أن محمَّدًا عبدُه ورسولُه، وأَمِينُه على وَحْيِه، وَخِيرَتُه مِن بَرِيَّتِه، وسَفِيرُه بَيْنَه وبين عِبادِه، وحُجَّتُه على خَلْقِه، أرسله بالهُدى ودِينِ الحقِّ بين يَدَي السَّاعةِ بشيرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى الله بإذنِه، وسِراجًا مُنيرًا، أرسله على حين فَتْرَةٍ مِن الرُّسلِ، وَطُمُوسٍ مِن السُّبُلِ، ودُروسٍ مِن الكُتبِ، والكُفْرُ قد اضْطَرَمَتْ نارُه،

---

(١) المناظرة على العقيدة الواسطيَّة، مطبوعةٌ عقب الواسطيَّة، المجلد الثَّالث من مجموع الفتاوى.

وتَطَايَرَ في الآفاقِ شَرَارُه، وقد استوجب أهلُ الأرضِ أن يَحُلَّ بهم العِقابُ، وقد نَظَرَ الجبَّارُ -تبارك وتعالى- إليهم فَمَقَتَهُم عَرَبَهم وعَجَمَهم، إلَّا بَقايا مِن أهلِ الكتابِ».

الشــرحُ

قَوْلُهُ: «وسفيرُه بين عبادِه» السَّفيرُ يعني: الرَّسولَ، ومِن ذلك سُفَرَاءُ الدُّولِ، لأنَّهم واسطةٌ بين دُوَلِهم، وبين الدُّولِ الأخرى.

قَوْلُهُ: «أرسله بالهدى ودِينِ الحقِّ» اعلم أنَّ الهُدَى في هذا الموضعِ هو العِلْمُ النَّافعُ، وأنَّ دِينَ الحقِّ هو العملُ الصَّالحُ، لكنَّ الهُدَى في غيرِ هذا الموضعِ ينقسمُ إلى: هُدَى توفيقٍ، وهو العملُ الصَّالحُ، وإلى هُدَى عِلمٍ، وهو البيانُ والإرشادُ.

قَوْلُهُ: «والكُفْرُ قد اضْطَرَمَتْ نارُه» الكُفرُ بالضَّمِّ: مبتدأٌ، فهذه جملةٌ جديدةٌ.

* * *

«وقد استند كُلُّ قومٍ إلى ظُلْمِ آرائِهم، وحَكَمُوا على الله سبحانه بمقالاتِهم الباطلةِ وأهوائِهم، وليلُ الكفرِ مُدْلَهِمٌّ ظلامُه، شديدٌ قَتَامُه، وسَبيلُ الحَقِّ عافيةٌ آثارُها، مَطمُوسةٌ أعلامُها، فَفَلَقَ اللهُ سبحانه بمحمَّدٍ ﷺ صُبْحَ الإيمانِ، فأضاء حتَّى ملأ الآفاقَ نُورًا، وأَطْلَعَ به شمسَ الرِّسالةِ في حَنادسِ الظُّلَمِ سِراجًا مُنيرًا، فَهَدَى به مِن الضَّلالةِ، وعَلَّمَ به مِن الجَهالةِ، وبَصَّرَ به مِن العَمَى، وأَرْشَدَ به مِن الغَيِّ، وكَثَّرَ به بعد القِلَّةِ، وأَعَزَّ به بعد الذِّلَّةِ، وَأَغْنَى به بَعْد العَيْلَةِ، وَاسْتَنْقَذَ به مِن الهَلَكَةِ، وفَتَحَ به أَعْيُنًا عُمْيًا، وآذانًا صُمًّا، وقُلوبًا غُلْفًا، فَبَلَّغ الرِّسالةَ، وأَدَّى الأمانةَ، ونَصَحَ الأُمَّةَ، وَجَاهَدَ في الله حَقَّ جِهادِه، وعَبَدَ اللهَ حتَّى أتاه اليقينُ مِن ربِّه، وَشَرَحَ اللهُ له صَدرَه،

وَرَفَعَ له ذِكْرَه، وَوَضَعَ عنه وِزْرَه، وجَعَلَ الذِّلَّةَ والصَّغَارَ على مَنْ خَالَفَ أَمْرَه، وَأَقْسَمَ بحياتِه في الكتابِ المُبِين، وقَرَنَ اسمَه باسْمِه، فإذا ذُكِرَ ذُكِرَ معه، كما في الخُطَبِ والتَّشهُّدِ والتَّأذين، فلا يَصِحُّ لأحدٍ خُطْبَةٌ، ولا تَشَهُّدٌ، ولا أذانٌ، ولا صلاةٌ حتَّى يشهدَ أنَّه عبدُه ورسولُه شَهادةَ اليَقِينِ، فصلَّى اللهُ وملائكتُه وأنبياؤُه ورسلُه وجميعُ خَلْقِه عليه، كما عَرَّفَنَا بالله، وهَدَانَا إليه وسَلَّمَ تسليمًا كثيرًا».

الشــرحُ

ابن القيِّم -رحمه الله- قَلمُه سيَّالٌ، ومِن نِعْمَةِ الله على العبدِ أن يكونَ قلمُه سيَّالًا، ويكونَ كلامُه منتظمًا ومتآلفًا، لأنَّ بعضَ النَّاسِ لو أراد أن يكتبَ مِثل هذه الخُطْبَةِ رُبَّما يمكثُ شهرًا في كتابتِها، هذا إنْ كَتَبَها، وقد لا يستطيعُ، وبعضُ النَّاسِ يَمُنُّ اللهُ عليه، فيكون عنده انطلاقٌ في القولِ والكتابةِ، وبعضُ النَّاسِ تجده قويًّا في كتابتِهِ عَيِيًّا في خطابِه، وبعضُ النَّاسِ بالعكسِ.

وقد حدَّثني شيخُنا محمَّد بن عبد العزيز المطوِّع -رحمه الله- فقال: إنَّني سَمِعْتُ السَّيِّدَ محمَّد رشيد رضا -رحمه الله تعالى- صاحب (المنار) وهو يتكلَّمُ في المسجد الحرامِ، لكنَّه يقولُ: إنَّ كلامَه رديءٌ -في خطابِه- مع أنَّ كتاباتِه مِن أرقى الكتاباتِ.

ولكن فضلُ الله يؤتيه مَنْ يشاءُ، والنَّاسُ يختلفون.

قَوْلُهُ: «وَفتَحَ به أعينًا عُميًا، وآذانًا صُمًّا، وقلوبًا غُلْفًا» الغُلْفُ: المُغَلَّف عليه ومنه: غِلَافُ الشَّيءِ يُطْوَى عليه فيخفى، فالقلوبُ قلوبٌ مُفَتَّحةٌ قابلةٌ للحقِّ مطمئنَّةٌ به، وقلوبٌ مُغَلَّفَةٌ -والعياذُ بالله- قد رَانَ عليها ما كان يكسبُ صاحبُها، وخُتِمَ عليها، وطُبِعَ عليها، فلا ينفعُها شيءٌ، نعوذُ بالله من هذا.

قَوْلُهُ: «وَكَشَفَ الغُمَّةَ» ليس المرادُ بالغُمَّةِ الغَمَّ الذي يصيبُ الإنسانَ، بل المرادُ الغُمَّةُ التي كان غطَّاها أهلُ الكتابِ على الدِّين، وقالوا: إنَّ اللهَ ثالثُ ثلاثةٍ، وما أشبه ذلك، فالرَّسولُ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- كَشَفَهَا وَبيَّنَهَا.

قَوْلُهُ: «وَشَرَحَ اللهُ صدرَه، وَرَفَعَ له ذِكْرَه، ووَضَعَ عنه وِزْرَه» اللهُ أكبرُ، رَفَعَ اللهُ له ذِكْرَه -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- فهو يُذْكَرُ مع ذِكْرِ الله، مَنْ شَهِدَ أن لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأنَّ محمَّدًا رسولُ الله، وفي الأذانِ، في كُلِّ يومٍ خَمْسَ مرَّاتٍ على الأقلِّ يُشْهَدُ له بالرِّسالةِ على أعالي الأمكنةِ، فله ذِكْرٌ في العباداتِ، لأنَّ مِن شرطِ العبادةِ الإخلاصَ لله عزَّ وجلَّ والثَّاني: المتابعةَ للرَّسولِ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّم- فأنت في عبادتِك تستحضرُ أنَّك تابعٌ للرَّسولِ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- فيكونُ ذِكْرُ الرَّسولِ في قلبِك، وإن لم تَقُلْهُ بلسانِك، وهذا لا شكَّ أنَّه مِن رَفْعِ الذِّكْرِ، ثُمَّ الرَّفعُ الأعظمُ يكونُ يومَ القيامةِ حين يلحقُ النَّاسَ مِن الـهَمِّ والغَمِّ ما لا يطيقون، فيذهبون إلى آدمَ ونوحٍ وإبراهيمَ وموسى وعيسى -عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ- يطلبون أن يشفعوا لهم عند الله، فلا أحدَ يشفعُ إلَّا محمَّدٌ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّم[1]- وهذا مُسْتَفَادٌ مِن قولِ الله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح:١-٤].

قَوْلُهُ: «أَقْسَمَ بحياتِه في الكتابِ المبين» أَقْسَمَ بحياتِه في قولِه تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر:٧٢].

قَوْلُهُ: «وَقَرَنَ اسْمَه باسمِه» وهذا ليس دائمًا، بل في بعضِ الأحيانِ، ولهذا كَرِهَ العلماءُ أن يقولَ الإنسانُ عند الذَّبحِ: (**بِسْمِ الله، وَصَلَّى اللهُ على محمَّدٍ**)، لأنَّ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قول الله: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾، رقم (٤٤٧٦)، ومسلم كتاب: الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، رقم (١٩٣).

المقامَ مقامُ إخلاصٍ وعبادةٍ، إنَّما في بعضِ الأشياءِ قَرَنَ اللهُ تعالى اسمَ رسولِه باسمِه -سبحانه وتعالى-.

قَوْلُهُ: **«فلا يَصِحُّ لأحدٍ خُطْبَةٌ... حتَّى يشهدَ أنَّه عبدُه ورسولُه»** وهذا القولُ هو الصَّحيحُ أنَّ الخُطْبَةَ لا تَصِحُّ إلَّا بالشَّهادَتَيْنِ، وإن كان الفقهاءُ -رحمهم اللهُ- لم يشترطوا ذلك، لكنَّ قولَهم ضعيفٌ.

إِذَنْ الصَّحيحُ أنَّه لا بُدَّ في الـخُطْبَةِ مِن الشَّهادةِ لله عزَّ وجلَّ بالتَّوحيدِ ولرسولِه -صلَّى اللهُ عليه وعلى آله وسلَّم- بالرِّسالة.

وهذه أَضِفْهَا إلى المعلوماتِ في الفقهِ، بمعنى أنَّك إذا مَرَرْتَ بشروطِ الخُطْبَةِ في بابِ صلاةِ الجمعةِ فأَضِفْ إليها ذلك، وقد اختار شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ وتلميذُه ابنُ القيِّم أنَّه لا بُدَّ أن تشتملَ الـخُطْبَةُ على الشَّهادَتَيْنِ: شهادةِ أن لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأنَّ محمَّدًا رسولُ الله.

* * *

«أمَّا بَعْدُ: فإنَّ اللهَ -جلَّ ثناؤه وتَقَدَّسَتْ أسماؤه- إذا أراد أن يُكْرِمَ عَبْدَه بمعرفتِه، ويجمعَ قلبَه على محبَّتِه، شَرَحَ صدرَه لِقَبُولِ صِفاتِه العُلَى، وتلقِّيها مِن مِشْكَاةِ الوحي، فإذا وَرَدَ عليه شيءٌ منها قَابَلَهُ بالقَبولِ، وتلقَّاه بالرِّضى والتَّسليمِ، وأَذْعَنَ له بالانقيادِ، فاستنار به قلبُه، واتَّسع له صدرُه، وامتلأ به سُرورًا ومحبَّةً، وَعَلِمَ أنَّه تعريفٌ مِن تعريفاتِ الله تعالى تَعَرَّفَ به إليه على لسانِ رسولِه، فَأَنْزَلَ تلك الصِّفةَ مِن قَلبِه مَنزلةَ الغذاءِ أعظمَ ما كان إليه فاقةً، ومنزلةَ الشِّفاءِ أشدَّ ما كان إليه حاجةً، فاشتدَّ بها فرحُه، وعَظُمَ بها غِنَاهُ، وقَوِيَتْ بها معرفتُه، واطْمَأَنَّتْ إليها نَفْسُه، وسَكَنَ إليها قلبُه، فَجَالَ من المعرفةِ في ميادينِها، وأَسَامَ عَيْنَ بَصِيرتِه

بين رياضِها وبَساتِينِها، لتيقُّنِه بأنَّ شَرَفَ العِلمِ تابعٌ لشَرَفِ مَعلُومِه، ولا مَعلُومَ أعظمُ وأجلُّ ممَّن هذه صفتُه، وهو ذو الأسماءِ الحُسْنَى، والصِّفاتِ العُلَى، وأنَّ شرفَه أيضًا بحسب الحاجةِ إليه».

الشـرحُ

قَوْلُهُ: «فإذا وَرَدَ عليه شيءٌ منها قَابَلَهُ بالقَبُولِ، وتَلَقَّاهُ بالرِّضى والتَّسليمِ...» وهذه واللهِ هي التِّجارةُ الرَّابحةُ أنَّه إذا وَرَدَ شيءٌ مِن صفاتِ الله فَتَلَقَّهَا بالتَّسليمِ، لا تَقُل: لِـمَ؟ وكيف؟ وهل يمكن؟ بل أَقِرَّ بها بدونِ تردُّدٍ.

فإذا بَلَغَكَ أنَّ اللهَ -تبارك وتعالى- يَنزِلُ إلى السَّماءِ الدُّنيا، فقل: **(ينزِلُ)** سَمْعًا وقَبولًا، ولا تعترض، ولا تَقُل: كيف ينزلُ وهو فوق السَّمواتِ وهو العَلِيُّ الأعلى، وعُلُوُّه مِن لازمِ ذاتِه؟ لا تَقُل هكذا، ولا تقلْ: كيفَ ينزلُ في ثُلُثِ الليلِ، وثلثُ الليلِ يختلفُ ويتنقَّلُ؟ فإنَّ هذا يفتحُ عليك بابَ الشَّرِّ الذي لا نهايةَ له، ثُمَّ في النِّهايةِ تُنْكِر ولا بُدَّ، لكن إذا قُلْتَ: **(سَمِعْنَا وصَدَّقْنَا وآمنَّا، وربُّنا ليس كَمِثلِه شيءٌ)**، انْشَرَحَ صدرُك، وسَلِمْتَ مِن المُعارَضاتِ، وسَلِمْتَ مِن الشُّكوكِ التي يُلقيها الشَّيطانُ في قلبِك، وما ضَرَّ أولئك المتكلِّمين الذين نَفَوْا ما أَثْبَتَهُ اللهُ لنفسِه إلَّا مِثْلُ هذا حيث حَكَّمُوا عُقولَهم الفاسدةَ الخَرِبَةَ، حتىَّ نَفَوْا كثيرًا مِن صفاتِ الله عزَّ وجلَّ بهذه الشُّبهةِ.

ولا شكَّ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ إذا أراد أن يُكْرِمَ عبدًا شَرَحَ صدرَه لقَبولِ ما وَصَفَ اللهُ به نفسَه في كتابِه، أو على لسانِ رسولِه ﷺ، فتلقَّاها بالتَّسليمِ والفرحِ والسُّرورِ، وازداد إيمانًا بالله عزَّ وجلَّ وتعظيمًا له، لأنَّه كُلَّما ازدادت معرفةُ الإنسانِ باللهِ في صفاتِه وآياتِه، فلا شكَّ أنَّه يزدادُ محبَّةً وتعظيمًا لربِّه، عكس أهلِ الباطلِ

-والعياذُ بالله- الذين إذا جاءتهم مثلُ هذه الصِّفاتِ ذهبوا يمينًا وشمالًا في التَّعطيلِ والتَّحريفِ، حتَّى يَبْقَوْا وهم على شكٍّ فيما وَصَفَ اللهُ به نَفْسَه، وفرقٌ كبيرٌ بين هذا وهذا.

فعليك يا أخي إن كنت تريدُ السَّلامةَ والإيمانَ واليقينَ وانشراحَ الصَّدرِ أن تقولَ: (**هكذا قال رسولُ الله ﷺ**)، وهو معصومٌ مِن الكذبِ على الله عزَّ وجلَّ وهو معصومٌ مِن أن يقولَ على الله ما لا يَعلمُ، وهو يَعلمُ ما يقولُ، وهو أنصحُ الخَلقِ للخَلقِ.

وكذلك أصحابُه رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ لم يقابلوا هذا بالاعتراضِ، فهم يعلمون أنَّ اللهَ فوق كُلِّ شيءٍ، وأنَّ عُلُوَّه مِن لوازمِ ذاتِه، يعلمون هذا أشدَّ ممَّا نعلمُ، ومع ذلك لم يقولوا: (**يا رسولَ الله، كيف ينزلُ وهو فوقَ كُلِّ شيءٍ؟**).

لم يقولوا ذلك، وهم أحرصُ منَّا على معرفةِ حقائقِ صفاتِ الله عزَّ وجلَّ وهم أيضًا إذا وجَّهوا السُّؤالَ يُوَجِّهونَه إلى أعلمِ النَّاسِ بالله عزَّ وجلَّ ومع ذلك أَمْسَكُوا، لأنَّ صُدُورَهم منشرحةٌ، فكُلُّ ما صَحَّ عن رسولِ الله أخذوه بالتَّسليمِ، وكُلُّ ما قاله اللهُ عن نفسِه في الكتابِ أخذوه بالتَّسليمِ، فإيَّاك والإيراداتِ، لا أن تورِدَها أنت على نفسِك، ولا أن تورِدَها على غيرِك ممَّن يَفُوقُك عِلمًا، اترك هذا إن كنت تريدُ السَّلامةَ، أمَّا إن كنت تريدُ الهلاكَ، فإنَّك كالذي يسبحُ في ماءٍ عميقٍ، وهو لم يتعلَّم السِّباحةَ، فهذا مَآلُه لِلغَرَقِ وإن كان سيطفو بِقَدْرِ ما عنده مِن النَّفَسِ، لكن في النِّهايةِ يموتُ.

فمثلًا: إذا عَلِمَ الإنسانُ أنَّ اللهَ تعالى سميعٌ تَقَرَّبَ إلى الله بكُلِّ قولٍ، لأنَّ اللهَ يَسمعُه، سواء أكان جَهرًا أم سِرًّا، وإذا عَلِمَ أنَّ اللهَ تعالى بصيرٌ تَقَرَّبَ إليه بكُلِّ فِعلٍ، فتكون حركاتُه وسكناتُه كُلُّها مقرونةً بصفاتِ الله عزَّ وجلَّ.

إذا عَلِمَ أنَّ اللهَ غفورٌ تَعَرَّضَ لمغفرتِه، ولم يتَّكِلْ على الأمانيِّ الباطلةِ، ولم يَقُلْ: إذا كان غفورًا فاللهُ غفورٌ يغفرُ لي زلَّاتي، لا، بل يَتَعَرَّضُ للمغفرةِ بطلبِ المغفرةِ، وفِعلِ المُكفِّراتِ مِن الذُّنوبِ، وما أشبه ذلك.

إذا عَلِمَ أنَّه عزَّ وجلَّ الحيُّ القيُّومُ الذي تقومُ به المخلوقاتُ، فإنَّه لن يلجأَ إلَّا إليه، وإذا عَلِمَ أنَّه أحدٌ صَمَدٌ، صَمَدَ إليه، وسأله حاجاتِه، وهَلُمَّ جرًّا.

فالحقيقةُ أنَّ فلاحَ الإنسانِ وسعادتَه، وانشراحَ صدرِه هو بإيمانِه، وإقرارِه بأسماءِ الله تعالى وصفاتِه وتعبُّدِه لله بها، ولهذا قال النَّبِيُّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آله وسلَّم- في الأسماءِ الحُسْنَى: «**إِنَّ لله تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْـجَنَّةَ**»[1]. إحصاؤها لفظًا، وإحصاؤها معنًى، وإحصاؤها عَملًا، وتعبُّدًا لله بها أي: بمقتضاها.

والمؤلِّفُ -رحمه الله- ذكر هذه المقدِّمةَ كاستهلالٍ لما يريدُ أن يبدأَ به، وهذه تُسَمَّى عند أهلِ البلاغةِ (**براعة الاستهلال**)، وهي أن يأتيَ الإنسانُ بمقدِّمةٍ تشيرُ إلى موضوعِ البحثِ، كما أنَّ هناك براعةَ اختتامٍ، أن يأتِيَ بكلامٍ بما يُشْعِرُ أنَّه سوف يختتمُه، ولـمَّا كانت هذه القصيدةُ في الصِّفاتِ بدأ المؤلِّفُ -رحمه الله تعالى- بهذه المقدِّمةِ.

قَوْلُهُ: «**...بأنَّ شرفَ العلمِ تابعٌ لشرفِ معلومِه**» وهذه قاعدةٌ مفيدةٌ، وهي: (**العلمُ يَشْرُفُ بِشَرَفِ المعلومِ**)، فإنَّ شَرَفَ العِلمِ بشَرَفِ معلومِه، ومعلومٌ أنَّ أشرفَ شيءٍ، وأعلى شيءٍ هو معرفةُ الله تعالى بأسمائِه وصفاتِه، ولهذا كان عِلمُ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الشروط، باب ما يجوز من الاشتراط والثنيا في الإقرار، والشروط التي يتعارفها الناس بينهم، رقم (٢٥٨٥)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب في أسماء الله تعالى وفضل من أحصاها، رقم (٢٦٧٧).

التَّوحيدِ هو الفقهَ الأكبرَ، كما يُسمِّيه العلماءُ، فالعلمُ بمعرفةِ الله تعالى بأسمائِه وصفاتِه هو الفقهُ الأكبرُ، أمَّا علمُ أحكامِه المتعلِّقةِ بأفعالِ عِبادِه، فهو فِقْهٌ أصغرُ بالنِّسبةِ إلى الفقهِ.

فإذا قال قائلٌ: إنَّ النَّبيَّ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- قال: «**مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ**»[1]. قلنا: وأيُّ فِقهٍ أعظمُ مِن الفِقهِ في أسماءِ الله وصفاتِه؟!

قَوْلُهُ: «**وأنَّ شَرَفَه أيضًا بحسبِ الحاجةِ إليه**» يَشْرُفُ العِلمُ بِشَرَفٍ آخرَ أيضًا، وهو حاجةُ النَّاسِ إليه، فكُلَّما احتاج النَّاسُ إلى العِلمِ كان طلبُه أشرفَ مِن طلبِ غيرِه، لأنَّ العِلمَ الذي لا يُحْتَاجُ إليه مَضْيَعَةٌ للوقتِ، ولا شرفَ في هذا العلمِ.

إِذَنْ المؤلِّفُ -رحمه الله- أفادنا بأنَّ العِلمَ يَشْرُفُ بأمرين: شَرَفِ المعلومِ، وحاجةِ النَّاسِ إليه.

* * *

«**وليست حاجةُ الأرواحِ قطُّ إلى شيءٍ أعظمَ منها إلى معرفةِ بارِئها وفاطِرِها، ومحبَّتِهِ وذِكْرِه، والابتهاجِ به، وطلبِ الوسيلةِ إليه والزُّلفى عنده، ولا سبيلَ إلى هذا إلَّا بمعرفةِ أوصافِه وأسمائِه، فكُلَّما كان العبدُ بها أعلمَ، كان بالله أَعْرَفَ، وله أطْلَبَ، وإليه أقربَ، وكُلَّما كان لها أَنْكَرَ، كان بالله أجهلَ، وإليه أكْرَهَ، ومنه أبْعَدَ.**

واللهُ تعالى يُنْزِلُ العبدَ مِن نَفْسِه حيثُ يُنْزِلُه العبدُ مِن نَفْسِه، فمن كان لِذِكرِ أسمائِه وصفاتِه مُبْغِضًا، وعنها مُعْرِضًا نافرًا ومُنَفِّرًا، فاللهُ له أشدُّ بُغضًا، وعنه

(١) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين، رقم (٧١)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب النهي عن المسألة، رقم (١٠٣٧).

أعظمُ إعراضًا، وله أكبرُ مَقْتًا، حتَّى تعودَ القلوبُ على قَلْبَيْنِ: قلبُ ذِكْرُ الأسماءِ والصِّفاتِ قُوتُه وحياتُه، ونعيمُه وقُرَّةُ عَيْنِه، لو فَارَقَهُ ذِكْرُهَا ومحبَّتُها ساعةً لَاسْتَغَاثَ: «يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»[١]. فَلِسَانُ حالِه يقولُ:

يُـرَادُ مِـنَ الْقَلْـبِ نِسْـيَانُكُمْ ... وَتَأْبَى الطِّبَاعُ عَـلَى النَّاقِـلِ[٢]

ويقولُ:

وَإِذَا تَقَاضَـيْتَ الفُـؤَادَ تَنَاسِـيًا ... أَلْفَيْتَ أَحْشَـائِي بِـذَاكَ شِـحَاحَا[٣]

ويقولُ:

إِذَا مَرِضْـنَا تَـدَاوَيْنَا بِـذِكْرِكُمُ ... فَنَـتْرُكُ الـذِّكْرَ أَحْيَانًـا فَنَنْـتَكِسُ[٤]

ومن المُحَالِ أن يَذْكُرَ القلبُ مَنْ هو مُحَارِبٌ لصفاتِه، نافرٌ مِن سماعِها، مُعْرِضٌ بِكُلِّيَّتِهِ عنها، زَاعِمٌ أنَّ السَّلامةَ في ذلك، كَلَّا واللهِ، إنْ هو إلَّا الجهالةُ والخُذْلَانُ، والإعراضُ عن العزيزِ الرَّحيمِ، فليس القلبُ الصَّحيحُ قطُّ إلى شيءٍ أَشْوَقَ منه إلى معرفةِ ربِّه تعالى وصِفاتِه وأفعالِه وأسمائِه، ولا أفرحَ بشيءٍ قَطُّ كَفَرَحِهِ بذلك، وكَفَى بالعبدِ خُذْلانًا أن يُضْرَبَ على قلبِه سُرَادِقُ الإعراضِ عنها، والنُّفرةُ والتَّنفيرُ والاشتغالُ بما لو كان حقًّا لم ينفع إلَّا بَعد معرفةِ الله تعالى والإيمانِ به وبصفاتِه وأسمائِه».

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب القدر، باب تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء، رقم (٢٦٥٤).

(٢) البيت للمتنبي، كما في محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، للراغب الأصفهاني (١/ ٣٣٩).

(٣) البيت لابن الفارض، كما في الكشكول (٢/ ١٦٧).

(٤) البيت لزين الدين الصفدي، كما في مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، لشهاب الدين العمري (١٢/ ٤٧٨).

الشرحُ

هذه مشكلةٌ تقعُ لبعضِ النَّاسِ، يقولُ: (لا فائدةَ من البحثِ في أسماءِ الله وصفاتِه، اتركونا مِن هذا البحثِ، هذا شيءٌ فَرَغَ النَّاسُ منه)، وفي الحقيقةِ لا يقولُ ذلكَ إلَّا إنسانٌ -كما قال ابنُ القيِّم رحمه الله- على خَطَرٍ عظيمٍ، لأنَّ معرفةَ أسماءِ الله وصفاتِه هي قُوتُ القَلبِ ورُوحُه، ولا يمكنُ للإنسانِ أن يُحِبَّ اللهَ غايةَ المحبَّةِ، ويُعَظِّمَ اللهَ غايةَ التَّعظيمِ إلَّا بمعرفةِ أسمائِه وصفاتِه، وقد حَثَّ النَّبيُّ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- على ذلك حتَّى قال: «**إِنَّ لله تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ**»[1]. وهذا عِوَضٌ عظيمٌ، فالجنَّةُ ليست بالأمرِ الهيِّن، فما تكونُ إلَّا لشيءٍ هو أعظمُ الأشياءِ، ثُمَّ إنَّ الرَّسولَ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- لم يُعيِّن لنا هذه الأسماءَ، ولو عَيَّنَها لنا لَسَقَطَ عنَّا كثيرٌ مِن المَئُونةِ ولم نتعبْ في تحصيلِها، ولكن جَعل ذلك للبحثِ والنَّظرِ، واستخلاصِها مِن كتابِ الله، وسُنَّةِ رسولِه ﷺ، حتَّى يُعْرَفَ مَنْ هو حريصٌ عليها ممَّن ليس بحريصٍ.

ونظيرُ هذا إخفاءُ ليلةِ القدرِ، ولو شاء اللهُ عزَّ وجلَّ لبيَّنها لِعِبادِه بِعَيْنِها، ولكنَّه -سبحانه وتعالى- أراد أن يَعْلَمَ مَنْ هو حريصٌ مِن عبادِه ممَّن ليس بحريصٍ، هذا مِن وَجْهٍ، ومِن وَجْهٍ آخرَ لأجْل أن يَكثُرَ ثوابُهم في الأعمالِ في جميعِ ليالي العَشْرِ.

كذلك أيضًا ساعةُ الإجابةِ في كُلِّ ليلةٍ أخفاها، فهذه السَّاعةُ «**لَا يُوَافِقُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ يَسْأَلُ اللهَ خَيْرًا إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ**»[2]. وهذا بِقَطعِ النَّظرِ عن الذي يكونُ وقتَ النُّزولِ الإلهيِّ، وكذلك ساعةُ الجمعةِ لم يبيِّنْها اللهُ، لكنَّ أرجاها مُبَيَّنٌ.

---

(١) سبق تخريجه (ص:٣٢).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الطلاق، باب الإشارة في الطلاق والأمور، رقم (٤٩٨٨).

هكذا أيضًا بالنِّسبة لأسماءِ الله عزَّ وجلَّ يقولُ بعضُ النَّاسِ: دَعُونَا مِن الأسماءِ، دَعُونَا مِن الصِّفاتِ، هذا شيءٌ انقضى، فلا تُوجَدُ الآن جَهْمِيَّةٌ ولا مُعتزلةٌ، ولا، ولا...، فنقول: هذا غيرُ صحيحٍ، بل يُوجَدُ الآن جهميَّةٌ ومعتزلةٌ وأشاعرةٌ، وماتُرِيديَّةٌ، فهذا موجودٌ.

وأيضًا إن لم يكن ذلك موجودًا، فلماذا نتركُ البحثَ في أسماءِ الله وصفاتِه، حتَّى نكونَ جاهلين؟! هذا ليس بصحيحٍ.

أيضًا البحثُ مع الجهميَّةِ[1] والمُعْتَزِلَةِ[2] مفيدٌ في البحثِ مع الشُّيوعيِّين والمُلحِدِينَ والزَّنادقةِ، لأنَّ هناك مقدِّماتٍ مَذكورةً في مناظرةِ هؤلاء تفيدُ طالبَ العِلمِ في مناظرةِ الشُّيوعيِّين والزَّنادقةِ والمُلْحِدِينَ، فعلى كُلِّ حالٍ كما قال ابنُ القيِّمِ -رحمه الله- في هذه المقدِّمة: (**لا ينبغي لنا أن ندعَ البحثَ في أسماءِ الله وصفاتِه**)، فينبغي لنا أن نبحثَ، ولكن لا على سبيلِ أهلِ التَّحريفِ، ولكن على سبيلِ السَّلفِ، وأئمَّةِ الأُمَّةِ، نتلقَّاها بالقَبولِ والتَّسليمِ، مع اعتقادِنا أنَّ كُلَّ ما وَصَفَ اللهُ

(١) هم أصحاب جَهْم بن صفوان، وهو مِن الجَبرية الخالصة، ظهرت بدعته بِتِرْمِذَ، وقتَلَه سَلْم بن أَحْوَز المازني بِمَرْو في آخر مُلك بَني أُمية، وافق المُعْتَزِلَة في نفي الصفات الأزلية، وزاد عليهم بأشياء:
منها قوله: لا يجوز أن يُوصف الباري تعالى بِصِفَةٍ يُوصَف بها خَلْقُه، لأن ذلك يقضي تشبيها، فنفى كونَه حيًّا عالمًا، وأثبت كونَه: قادرًا، فاعلًا، خالقًا، لأنه لا يوصف شيء مِن خَلقِه بالقُدْرَة والفِعل والخَلق. الملل والنِّحَل للشهرستاني (١/ ٨٦).

(٢) المعتزلة فرقة إسلامية نشأت في أواخر العصر الأموي، وازدهرت في العصر العباسي، وقد اعتمدت على العقل المجرد في فهم العقيدة الإسلامية لتأثُّرِها ببعض الفلسفات المستوردة، مما أدى إلى انحرافها عن عقيدة أهل السنة والجماعة، وقد أُطلِق عليها أسماء مختلفة منها: المعتزلة، والقَدَرية، والعدلية، وأهل العدل والتوحيد، والمقتصدة والوَعيدية. انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة (١/ ٦٤).

به نفسَه فإنَّه لا يُشْبِهُ شيئًا مِن أوصافِ المخلوقين أبدًا، قال اللهُ تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

قَوْلُهُ: «لَاسْتَغَاثَ: يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ» يعني: لاسْتَغَاثَ بهذا الدُّعاءِ قائلًا: «يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»[(١)]. فالإنسانُ إذا رأى مِن قلبِه إعراضًا فليلجأْ إلى الله بهذا الدُّعاءِ حتَّى لا يَزيغَ القلبُ ويَزِلَّ، فالإنسانُ ينبغي له دائمًا أن يدعوَ بهذا الدُّعاءِ مفتقرًا إلى الله عزَّ وجلَّ عالمًا بأنَّه -سبحانه وتعالى- هو القادرُ على هدايتِهِ وزَيْغِه.

* * *

«والقلبُ الثَّاني: قلبٌ مضروبٌ بِسِيَاطِ الجَهَالِةِ، فهو عن معرفةِ ربِّه ومحبَّتِه مَصْدُودٌ، وطريقُ معرفةِ أسمائِه وصفاتِه كما أُنْزِلَتْ عليه مَسْدُودٌ، وقد قَمَشَ شُبَهَهَا من الكلامِ الباطلِ، وارتوى مِن ماءِ آجِنٍ غيرِ طائلٍ، تَعِجُّ منه آياتُ الصِّفاتِ وأحاديثُها إلى الله عَجِيجًا، وتَضِجُّ منه إلى مَنْزِلِها ضَجِيجًا مما يَسُومُها تحريفًا وتَعطيلًا، ويُؤَوِّلُ مَعانِيَها تغييرًا وتَبْدِيلًا، قد أَعَدَّ لدَفْعِها أنواعًا مِن العُدَدِ، وهَيَّأَ لِرَدِّها ضُرُوبًا مِن القوانين، وإذا دُعِيَ إلى تحكيمِها أَبَى واسْتَكْبَرَ وقَالَ: تلك أدلةٌ لفظيَّةٌ، لا تفيدُ شيئًا مِن اليقينِ.

قَدْ اتخذ التَّأويلَ جُنَّةً يَتَتَرَّسُ بها مِن مواقعِ سِهامِ السُّنَّةِ والقرآنِ، وجَعَلَ إثباتَ صفاتِ ذي الجلالِ تجسيمًا وتشبيهًا، يَصُدُّ به القلوبَ عن طريقِ العِلمِ والإيمانِ، مُزْجَى البضاعةِ مِن العِلمِ النَّافعِ الموروثِ عن خَاتَمِ الرُّسلِ والأنبياءِ، لكنَّه مليءٌ بالشُّكوكِ والشُّبَهِ والجِدالِ والمِراءِ، خَلَعَ عليه الكلامُ الباطلُ خِلْعَةَ الجَهلِ

(١) أخرجه مسلم: كتاب القدر، باب تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء، رقم (٢٦٥٤).

والتَّجهيلِ، فهو يَتَعَثَّرُ في أذيالِ التَّكفيرِ لأهلِ الحديثِ، والتبديعِ لهم والتَّضليلِ، قد طَافَ على أبوابِ الآراءِ والمذاهبِ يتكفَّفُ أربابَها، فانثَنى بأَخْسِّ المواهبِ والمَطَالِبِ، عَدَلَ عن الأبوابِ العاليةِ الكفيلةِ بنهاية المرادِ، وغايةِ الإحسانِ، فابتُلِيَ بالوقوفِ على الأبوابِ السَّافلةِ المَلِيئَةِ بالخَيْبةِ والحرمان، وقد لَبِسَ حُلَّةً منسوجةً مِن الجهلِ والتَّقليدِ والشُّبهةِ والعِنادِ، فإذا بُذِلَتْ له النَّصيحةُ، ودُعِيَ إلى الحقِّ، أَخَذَتْهُ العِزَّةُ بالإثمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ ولبِئْسَ المِهَادِ.

فما أعظمَ المصيبةَ بهذا وأمثالِه على الإيمانِ، وما أشدَّ الجنايةَ به على السُّنَّةِ والقرآنِ، وما أحبَّ جهادَه بالقلبِ واليدِ واللسانِ إلى الرَّحمنِ، وما أثقلَ أجرَ ذلك الجهادِ في الميزان، والجهادُ بالحُجَّةِ والبَيانِ مُقَدَّمٌ على الجهادِ بالسَّيفِ والسِّنانِ، ولهذا أَمَرَ به تعالى في السُّورِ المكِّيَّةِ، حيث لا جهادَ باليدِ إنذارًا وتَعذيرًا، فقال تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان:٥٢]، وأَمَر تعالى بجهادِ المنافقين، والغِلْظَةِ عليهم، مع كَوْنِهم بين أَظْهُرِ المسلمينَ في المُقَامِ والمَسيرِ، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [التوبة:٧٣]، فالجهادُ بالعِلمِ والحُجَّةِ جهادُ أنبياء الله ورُسلِه وخاصَّتهِ مِن عِبادِه المَخْصوصين بالهدايةِ والتَّوفيقِ والاتِّفاقِ، و«مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ، وَلَمْ يُحَدِّثْ نَفْسَهُ بِغَزْوٍ، مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنَ النِّفَاقِ»[1]. وكَفَى بالعَبدِ عَمًى وخُذلانًا أن يرى عَسَاكِرَ الإيمانِ، وجنودَ السُّنَّةِ والقرآنِ، قد لَبِسُوا للحَربِ لَأْمَتَهُ، وأَعَدُّوا له عُدَّته، وأخذوا مَصَافَّهم، ووقفوا مَواقفَهم، وقد حَمِيَ الوَطِيسُ، ودارت رَحَى الحربِ، واشتدَّ القتالُ، وتَنَادت الأقرانُ: النِّزالَ النِّزالَ، وهو في الملجأِ والمغاراتِ والمُدَّخَلِ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب ذم من مات، ولم يغز، ولم يحدث نفسه بالغزو، رقم (١٩١٠).

مع الـخَوالفِ كَمِينٌ، وإذا سَاعَدَ القَدَرُ وعَزَمَ على الـخروجِ قَعَدَ فوق التَّلِّ مع النَّاظرين، ينظرُ لمن الدَّائرةُ، ليكونَ إليهم مِن المتحَيِّزين، ثُمَّ يأتِيهم وهو يُقْسِمُ باللهِ جَهْدَ أيمانِه: إنِّي كُنْتُ معكم، وكُنْتُ أتمنَّى أن تكونوا أنتم الغالبين.

الشـرحُ

قَوْلُهُ: «والقَلبُ الثَّاني: قلبٌ مَضروبٌ بِسِياطِ الجَهَالَةِ، فهو عن معرفةِ ربِّه ومحبَّتِه مَصْدُودٌ... إلخ» كلامُ المؤلِّفِ هنا كُلُّه يَنْصَبُّ على أهلِ التَّعطيلِ مِن المُعتزلةِ والجَهميَّةِ والأشعريَّة وغيرِهم، وكُلٌّ منهم ينالُه مِن هذه الأوصافِ بِقَدْرِ تعطيلِه جزاءً وِفَاقًا، فالمُعَطِّلُ تعطيلًا مَحْضًا يستحقُّ جميعَ هذه الأوصافِ، والمُعَطِّلُ تعطيلًا دون ذلك يستحقُّ ما يستحق مِن هذه الأوصافِ، ولا شكَّ أنَّ هذا جنايةٌ على النُّصوصِ، وعلى ربِّ العالمين أن يُحَرَّفَ كتابُه، وكلامُ رسولِه ﷺ إلى مَعانٍ لـم يُرِدْها اللهُ ورسولُه لمجرَّدِ اتِّباعِ الهوى في المجتهدين منهم، والتَّقليدِ الأعمى في المقلِّدين منهم.

ولا تقولوا: إنَّ المؤلِّفَ -رحمه الله- قد بَالَغَ وأَسْرَفَ، لأنَّه قد عَاصَرَهُمْ ونَاظَرَهم وأتعبوه وأتعبهم، فهو ليس مِثلَنا الآن، ليس عندنا مَنْ يجادلُنا في هذا، أو يناظِرُنا فيه، لكن هو وشيخُه -رحمه الله- صَارَتْ لهما مجالاتٌ عظيمةٌ مع هؤلاء المُعطِّلةِ المبتدعة، فكانوا يستحقُّون أن يُوصَفُوا بهذه الأوصافِ، لأنَّهم -في الحقيقةِ- قد أتعبوه، ولكن الحمدُ لله بما أعطاهما اللهُ تعالى من العِلمِ والإيمانِ والعقلِ والفَهْمِ استطاعا أن يُسَيْطِرَا على الموقفِ، وأن يجعلا أولئك تحت أقدامِهما كما كان أهلُ السُّنَّةِ بالأوَّل تحت أقدامِ أولئك، كما سيشيرُ إليه المؤلِّفُ -رحمه الله- في هذه القصيدةِ.

قَوْلُهُ: «وإذا دُعِيَ إلى تحكيمِها أَبَى واسْتكْبَرَ وَقالَ: تلك أدلَّةٌ لفظيَّةٌ لا تفيدُ شيئًا من اليقينِ» هذه قاعدةٌ عندهم والعياذُ بالله، فأهلُ الكلامِ يقولون: هذه أدلَّةٌ لفظيَّةٌ لا تفيدُ اليقينَ لاحتمالاتِها، ويأتون للألفاظِ باحتمالاتٍ بعيدةٍ لا تُرَادُ بها، فيقولُ مثلًا: (**العرشُ**) له عدَّةُ مَعانٍ، و(**الاستواءُ**) له عدَّةُ مَعانٍ، و(**اليدُ**) لها عِدَّةُ معانٍ، وهكذا، فيَشُكُّون ويُشَكِّكون -والعياذُ باللهِ- ويقولون: هذه أدلَّةٌ لفظيَّةٌ لا تفيدُ اليقينَ، سبحان الله!

إِذَنْ هذا معناه أنَّ الدِّينَ كُلَّه ليس يَقينًا، فإذا كانت آياتُ الصِّفاتِ وأحاديثُها لا تُفيدُ اليقينَ فما الذي يُفيدُ؟! لكن اللَّهُمَّ اهْدِنَا فيمن هَدَيْتَ، ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور:٤٠].

قَوْلُهُ: «وَجَعَلَ إثباتَ صِفاتِ ذي الجَلالِ تَجسيمًا وتَشبيهًا، يَصُدُّ به القُلوبَ عن طريقِ العلمِ والإيمانِ» هم يقولون: أنتم أيُّها المُثْبِتَةُ مُجَسِّمَةٌ، إذا قلتم: لله يدٌ حقيقيَّةٌ، يأخذُ بها، ويَقبضُ ويبسطُ، فأنتم مُجَسِّمَةٌ، وغَرَضُهم بهذا التَّنفيرُ عن إثباتِ أنَّ لله يَدًا حقيقيَّةً، أو يقولون: إنَّكم مُشَبِّهَةٌ، وهذا أيضًا مِن أَجْلِ التَّنفيرِ عن الطَّريقِ السَّليمِ، كما قال الكافرون: ﴿هَـٰذَا سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [ص:٤]، هذا شاعرٌ، هذا مجنونٌ، سواءٌ بِسَواءٍ، فالطَّريقُ واحدةٌ، وإن اختلفت المواضعُ.

قَوْلُهُ: «والجهادُ بالحُجَّةِ واللسانِ مُقَدَّمٌ على الجهادِ بالسَّيفِ والسِّنانِ» اللهُ أكبرُ! كلامٌ عجيبٌ! الجهادُ بالعلمِ مُقَدَّمٌ على الجهادِ بالسَّيفِ، وهذا يعني أنَّ العِلمَ مُقَدَّمٌ على الجهادِ بالسَّيفِ، وهو كذلك، وطلبُ العِلمِ مِن حيثُ هو أفضلُ مِن الجهادِ.

فمثلًا: خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِن شُجعان المسلمين، كم قُتِلَ على يدِه مِن

الكفار، وأبو هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دونه بكثيرٍ، ومع ذلك أيُّهما الذي بَقِيَ ذِكْرُه وانتفع النَّاسُ به كثيرًا؟ الجواب: أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولهذا فإنَّ العِلمَ لا يَعْدِلُه شيءٌ، كما قال الإمامُ أحمدُ -رحمه الله-: «العلمُ لا يعدلُه شيءٌ لمن صَحَّتْ نيَّتُه»[1]، وصدق -رحمه الله- الآن مثلًا الإمامُ الشَّافعيُّ، والإمامُ أحمدُ، وشيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ وغيرُهم مِن الأئمَّةِ يُدَرِّسُونَ لنا وهم في قبورِهم، بل بيننا وبينهم بلادٌ شاسعةٌ، وأما الشُّجعان الذين قاتلوا، ونَفَعَ اللهُ بهم، وفَتَحَ بهم البلادَ لا ينفعوننا مِثلَهم.

فالحقيقةُ أنَّ العِلمَ لا يُدْرِكُ فضلَه أحدٌ إلَّا إذا تأمَّل، ورأى أنَّ مَنْ عَامَلَ اللهَ بالصِّدقِ في العلمِ فَعَمِلَ به وعَلَّمَهُ ونَشَرَه، ودعا النَّاسَ إليه فاللهُ تعالى يرفعُ ذِكْرَه، لكن قد تقولُ لشخصٍ مِن النَّاسِ: **جهادُك بالسَّيفِ أفضلُ**، وتقولُ لآخرَ: **جهادُك بالعلمِ أفضلُ**، لكن لو نظرنا إلى الأَمْرَين جميعًا قلنا: الجهادُ العلميُّ أفضلُ، لأنَّ جهادَ العِلمِ تستقيمُ به الأُمَّةُ، وتحيا به المِلَّةُ، وجهادَ السَّيفِ المقصودُ به صَدُّ الأعداءِ وإذلالُهم، حتَّى يكونَ الدِّينُ لله عزَّ وجلَّ.

قَوْلُهُ: «وَمَنْ مَاتَ وَلَـمْ يَغْزُ وَلَـمْ يُحَدِّثْ نَفْسَهُ بِالغَزْوِ مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنَ النِّفَاقِ» وهل هذا عامٌّ؟ الجوابُ: إذا جَعَلْنَا الغزوَ عامًّا لكُلِّ ما يُسَمَّى غزوًا -حتَّى جهاد النَّفْسِ وحتَّى العلم- فلا بُدَّ أن يكونَ في قَلبِه شُعبةٌ مِن النِّفاقِ إن لم يُحَدِّثْ نَفْسَه بالغَزْو، وإن كان ظاهرُه أنَّ المرادَ غزوُ الكُفَّارِ، والجهادُ قد لا يطرأُ على البالِ خصوصًا في أيَّامِ الرُّكودِ، لكن في أيَّامِ الحركاتِ يطرأُ، كما في هذه الأيَّامِ مع اليهودِ والنَّصارى.

* * *

(١) هذا القول حكاه علاء الدين أبو الحسن علي بن سليمان الصالحي الحنبلي، في كتاب الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف (٤/ ١٢٣)، دون قوله: «لمن صحت نيته».

«فَحَقِيقٌ بمَن لنَفْسِه عنده قَدْرٌ وقِيمةٌ ألَّا يبيعَها بأَخَسِّ الأثمانِ، وألَّا يُعَرِّضَها غدًا بين يَدَي الله ورسولِه لمواقفِ الخِزْي والهَوَانِ، وأن يُثَبِّتَ قَدَمَه في صفوفِ أهلِ العِلمِ والإيمانِ، وألَّا يَتَحَيَّزَ إلى مقالةٍ سوى ما جاء في السُّنَّةِ والقرآنِ.

فكأنْ قد كُشِفَ الغِطَاءُ، وانجَلى الغُبارُ، وأَبَانَ عن وُجوهِ أهلِ السُّنَّةِ مُسْفِرَةً ضَاحِكَةً مُسْتَبْشِرَةً، وعن وجوهِ أهلِ البدعةِ عليها غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ، يومَ تَبْيَضُّ وُجوهٌ وتَسْوَدُّ وُجوهٌ، قال ابنُ عبَّاس: «تَبْيَضُّ وُجُوهُ أهلِ السُّنَّةِ والجماعة، وَتَسْوَدُّ وجوهُ أهلِ البدعةِ والفِرْقَةِ الضَّالَّةِ»[(١)].

فَوَاللهِ لَـمُفَارَقَةُ أهلِ الأهواءِ والبدعِ في هذه الدَّارِ أسهلُ مِن مُرَافَقَتِهم إذا قيل: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ [الصافات:٢٢]، قال أميرُ المؤمنين عمرُ بنُ الخطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وبعده الإمامُ أحمدُ -رحمه الله تعالى-: «أزواجُهم: أَشْبَاهُهم ونُظَرَاؤُهم»[(٢)].

وقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ [التكوير:٧] فَجَعَلَ صاحبَ الحقِّ مع نظيرِه في درجتِه، وصاحبَ الباطلِ مع نَظِيرِه في درجتِه، هُنَالِكَ -وَاللهِ- يَعَضُّ الظَّالِمُ على يديه إذا حَصَلَتْ له حقيقةُ ما كان في هذه الدَّارِ عليه، يقولُ: ﴿يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ [الفرقان:٢٧-٢٩]».

الشـرحُ

قَوْلُهُ: «وألَّا يُعَرِّضَهَا غدًا بين يَدَي الله ورسولِه لمواقفِ الخِزي والهَوَانِ»

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير (٣٩٥٠) دون قوله: «وتَسْوَدُّ وجوهُ أهلِ البدعةِ والفُرْقَةِ». وحكاه ابن كثير بتمامه في التفسير (٢/ ٩٢).

(٢) أخرجه بنحوه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٦٧)، وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

الوقوفُ بين يدي الله أمرٌ ظاهرٌ، فنحن سَنَقِفُ بين يَدِي الله عزَّ وجلَّ كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق:٦]، سوف تُلَاقِي ربَّك، وسوف يُحَاسِبُك حسابًا يسيرًا إن كنت مِمَّنْ أُوتِيَ كتابَه بيمينِه، أو بالعكس.

أمَّا (بَيْنَ يَدِي رسولِ الله -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ-)، فهذا يُحْمَلُ على أنَّ المعنى أنَّ الرَّسولَ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- سيشهدُ بأنَّه بَلَّغَ أُمَّتَهُ البلاغَ المُبِينَ كما قال اللهُ تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة:١٤٣]، وإذا شَهِدَ أنَّه بَلَّغَ البلاغَ المُبِينَ فقد شَهِدَ على أُمَّتِه، فإنَّ مَنْ خَالَفَ مقتضى هذه الشَّهادةِ فهو في خِزيٍ وعارٍ، نسألُ اللهَ العافيةَ.

قَوْلُهُ: «وَتَسْوَدُّ وجوهُ أهلِ البدعةِ والفِرْقَةِ الضَّالَّةِ»، وفي نسخةٍ: **(تَسْوَدُّ وجوهُ أهلِ البدعةِ والفُرْقَة والضَّلالةِ)**، فمع **(الضَّالَّة)** نقولُ: **(الفِرْقَة)**، ومع **(الضَّلالة)** نقولُ: **(الفُرْقَة)**، وهما متلازمان، لأنَّ أهلَ البِدعِ متفرِّقون، وأهلَ السُّنَّةِ مجتمعون.

* * *

فصـــل

«وَكَانَ مِن قَدَرِ الله وقضائِه أن جَمَعَ مجلسَ المذاكرةِ بين مُثْبِتٍ للصِّفاتِ والعُلوِّ ومعَطِّلٍ لذلك، فَاسْتَطْعَمَ المُعَطِّلُ المُثْبِتَ الحديثَ استطعامَ غيرِ جائعٍ إليه، ولكن غَرَضُه عَرْضُ بضاعتِه عليه، فقال له: ما تقولُ في القرآنِ ومسألةِ الاستواءِ؟ فقال المُثْبِتُ: نقولُ فيهما ما قال ربُّنا -تبارك وتعالى- وما قاله نبيُّنا محمد ﷺ، نَصِفُ اللهَ تعالى بما وَصَفَ به نفسَه، وبما وَصَفَهُ به رسولُه، مِن غيرِ تحريفٍ، ولا تعطيلٍ، ومن غيرِ تشبيهٍ، ولا تمثيلٍ، بل نُثْبِتُ له -سبحانه وتعالى- ما أَثْبَتَهُ لنفسِه مِن الأسماءِ والصِّفاتِ، وننفي عنه النَّقائصَ ومشابهةَ المخلوقاتِ، إثباتًا بلا تمثيلٍ، وتنزيهًا بلا تعطيلٍ، فمَنْ شَبَّهَ اللهَ بِخَلْقِه فقد كَفَرَ، ومَنْ جَحَدَ ما وَصَفَ اللهُ به نفسَه فقد كَفَرَ، وليس ما وَصَفَ اللهُ به نفسَه، أو وَصَفَهُ به رسولُه تشبيهًا، فالمُشَبِّهُ يعبدُ صنمًا، والمُعَطِّلُ يعبدُ عَدَمًا، والموحِّدُ يعبدُ إلهًا واحدًا صمدًا ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

والكلامُ في الصِّفاتِ كالكلامِ في الذَّاتِ، فكما أنَّا نُثْبِتُ ذاتًا لا تُشْبِهُ الذَّواتِ، فكذا نقولُ في صفاتِه: إنَّها لا تُشْبِهُ الصِّفاتِ، فليس كمِثلِه شيءٌ، لا في ذاتِه، ولا في صفاتِه، ولا في أفعالِه، فلا نُشَبِّهُ صفاتِ الله بصفاتِ المخلوقين، ولا نُزيلُ عنه -سبحانه- صفةً مِن صفاتِه لأجلِ تشنيعِ المُشَنِّعين وتلقيبِ المفترين، كما أنَّا لا نُبْغِضُ أصحابَ رسولِ الله ﷺ لتسميةِ الرَّوافضِ لنا نَوَاصِبَ، ولا نُكَذِّبُ بِقَدَرِ الله تعالى ونَجْحَدُ كمالَ مشيئتِه وقُدرتِه لتسميةِ القَدَرِيَّةِ لنا مُجْبِرَةً، ولا نَجْحَدُ صفاتِ ربِّنا -تبارك وتعالى- لتسميةِ الجهميَّةِ والمُعْتَزِلَةِ لنا مُجَسِّمَةً مُشَبِّهَةً حَشْوِيَّةً، كما قيل:

فَإِنْ كَانَ تَجْسِيمًا ثُبُوتُ صِفَاتِهِ ... فَإِنِّي بِحَمْدِ اللهِ لَهَا مُثْبِتُ

إلى:

فَإِنْ كَانَ تَجْسِيمًا ثُبُوتُ صِفَاتِهِ ... لَدَيْكُمْ فَإِنِّي اليَوْمَ عَبْدٌ مُجَسِّمُ[١]

ورَضِيَ اللهُ عن الشَّافعيِّ إذ يقولُ:

إِنْ كَانَ رَفْضًا حُبُّ آلِ مُحَمَّدٍ ... فَلْيَشْهَدِ الثَّقَلَانِ أَنِّي رَافِضِي

وقَدَّسَ اللهُ روحَ القائلِ، وهو شيخُ الإسلامِ ابنُ تَيْمية إذْ يقولُ:

إِنْ كَانَ نَصْبًا حُبُّ صَحْبِ مُحَمَّدٍ ... فَلْيَشْهَدِ الثَّقَلَانِ أَنِّي نَاصِبِي

الشرحُ

قَوْلُهُ: «وَكَانَ مِن قَدَرِ الله وقضائِه أن جَمَعَ مجلسَ المذاكرةِ بين مُثْبِتٍ للصِّفاتِ والعُلوِّ، وبين معطِّلٍ لذلك» هذا يَحْتَمِلُ أن تكونَ قَطْعِيَّةً، ويَحْتَمِلُ أن تكونَ على سبيلِ التَّمثيلِ، لأنَّه يجوزُ أن يُضْرَبَ المَثَلُ في مِثْلِ هذا كما يَضربُ اللهُ تعالى في القرآنِ الأمثالَ في مِثل ذلك، قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ [الزمر:٢٩]، وقال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُۥنَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النحل:٧٥-٧٦].

(١) هذان البيتان أوردهما ابن القيم -رحمه الله- في العديد من كتبه، لكن دون عزو.

قَوْلُهُ: «نَصِفُ اللهَ بما وَصَفَ به نَفْسَه، وبما وَصَفَهُ به رسولُه» وهذا حقٌّ في الثُّبُوتِ.

قَوْلُهُ: «مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ» يعني: لا نُحَرِّفُ النُّصوصَ، ولا نُعَطِّلُ معناها، ولا نُعَطِّلُ صفاتِ الله، وهذا في النَّفي يشملُ شَيْئَيْنِ:

الأوَّل: تعطيلُ النُّصوصِ عن معانيها.

الثَّاني: تعطيلُ الله عزَّ وجلَّ عن صِفاتِه التي دَلَّتْ عليها هذه النُّصوصُ.

أمَّا التَّحريفُ فهو التَّغييرُ، ومنه: (حَرَفْتُ الدَّابَّةَ عن جهةِ سَيْرِها) أي: أَمَلْتُهَا وَغَيَّرْتُهَا، وهو ثلاثةُ أنواعٍ:

الأوَّل: تحريفٌ لفظيٌّ لا يُغَيِّرُ المعنى كقول القارئ: (الحمدُ لله رَبَّ العالمين)، فهذا تحريفٌ لفظيٌّ مُغَيِّرٌ للمعنى، لكنَّه لا يجوزُ، لأنَّ اللهَ -سبحانه وتعالى- لم يَتكلَّمَ بالقرآنِ على هذا الوجهِ.

الثَّاني: تَحريفٌ لفظيٌّ يُغيِّرُ المعنى، مِثل: (صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتُ عَلَيْهِم)، أو يقرأ فيقول: (أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الُمستَقِيمَ)، لأنَّ (أَهْدِنَا) يعني: (أَعْطِنَا هَدِيةً)، ومثل أن يقرأَ: (وكَلَّمَ اللهَ مُوسَى تكليمًا)، والصَّوابُ: (كَلَّمَ اللهُ)، لكنَّه حَرَّفَ بناءً على مذهبِه، لأجل أن يكونَ الكلامُ من موسى، ولذا لـمَّا قال النَّافي بأنَّ القراءةَ هي: (وَكَلَّمَ اللهَ موسى تكليمًا)، قال له الُمثْبِتُ: ما تقولُ في قولِه تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾؟ [الأعراف:١٤٣]، فهو هنا لا يستطيعُ أن يقولَ: (الهاء) في (كَلَّمَهُ): فاعلٌ، لأنَّ الهاءَ بإجماعِ أهلِ اللغةِ ضميرُ نصبٍ، فَبُهِتَ الذي كَفَرَ.

فقال: إذن معنى ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾ [النساء:١٦٤] أي: جَرَّحَهُ بمخالبِ الحكمةِ، لأنَّ الكَلْمَ بمعنى الجَرْحِ، ومنه ما جاء في الحديثِ: «لا يُكْلَمُ أَحَدٌ

فِي سَبِيلِ الله، وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِه...»(١)، والكَلْمُ هنا بمعنى الجَرْح.

قلنا: سبحان الله العظيم! هذا مُنْكَرٌ، لأَنَّه لا يمكنُ أن يُطْلَقَ التَّكليمُ بمعنى الجَرْحِ إلَّا بقرينةٍ، ولا قرينةَ هنا، ثُمَّ هل لله عزَّ وجلَّ وحاشاه، هل له أظفارٌ يُجَرِّحُه بها؟! أنت الآنَ فَرَرْتَ مِن شيءٍ أَثْبَتَهُ اللهُ لنفسِه، وَوَقَعْتَ في أقبحَ منه.

الثَّالث: التَّحريفُ المعنويُّ، وهذا ما أَكْثَرَهُ عند أهلِ الكلامِ! قالوا: إنَّ ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤] يعني: **(استولى على العرشِ)**، فهم أَبْقَوُا اللفظَ على ما هو عليه، ولكن قالوا معناه: **(استولى)**، فهنا عَطَّلُوا النَّصَّ عن مدلولِه، وعَطَّلُوا اللهَ عن صفةِ الاستواءِ، فصار تعطيلُهم من وَجْهَيْنِ:

الوجه الأَوَّل: تعطيلُ النَّصِّ عن مدلولِه.

الوجه الثَّاني: تعطيلُ الله عن صفةِ الاستواءِ.

واعلم أنَّ أهلَ التَّأويلِ جَنَوْا على النُّصوصِ من وَجْهَيْنِ:

الوجه الأَوَّل: نفيُهم المعنى الظَّاهر من سياقِها، أي: نفيُ ما دَلَّتْ عليه، وهذه جنايةٌ، أن تُلْوَى أعناقُ النُّصوصِ إلى معنًى آخرَ.

الوجه الثَّاني: إثباتُ معنًى لم يُرِدْه اللهُ عزَّ وجلَّ ونعلمُ أنَّه غيرُ مرادٍ، لأنَّ القرآنَ نَزَلَ بلسانٍ عربيٍّ مبينٍ، فتأمَّل حالَ هؤلاء، نسألُ اللهَ العافيةَ، وألَّا يُزِيغَ قلوبَنا، كيف وَقَعُوا في الفخِّ مِن حيثُ لا يشعرون.

قَوْلُهُ: «مِنْ غَيْرِ تَشْبِيهٍ وَلَا تَمْثِيلٍ» لَمَّا قَرَنَهَا بالتَّمثيلِ، فمُرادُه بالتَّشْبِيهِ التَّكييفُ، يعني: أيضًا أهلُ السُّنَّةِ والجماعةِ لا يُكَيِّفُونَ صِفاتِ الله أبدًا، لأَنَّه لا سبيلَ إلى

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب من يجرح في سبيل الله عزَّ وجلَّ، رقم (٢٨٠٣). ومسلم: كتاب الإمارة، باب فضل الجهاد والخروج في سبيل الله، رقم (١٨٧٦).

ذلك، ولهذا قال الإمامُ مالكٌ -رحمه الله-: «الكَيْفُ مجهولٌ غيرُ معقولٍ»[1]، فهم لا يُكَيِّفونَ، لأنَّهم لو كَيَّفُوا لكان قولهُم على الله بلا عِلمٍ، إذ إنَّ اللهَ أَخْبَرَنَا عن الصِّفاتِ، ولم يخبرْنا عن الكيفيَّةِ.

قَوْلُهُ: «**وَلَا تَمْثِيلٍ**» أي: ولا يُمَثِّلون صِفاتِ الله بصفاتِ الخَلقِ، لا يمكن أن يتصوَّروا أنَّ وَجْهَ الله مِثلُ وَجْهِ المخلوقِ أبدًا، ولا عَيْنَه، لكن يُثْبِتُونَ العينَ ويقولون: اللهُ أعلمُ بكيفيَّتِها، فصار مذهبُ أهلِ السُّنَّةِ جامعًا بين إثباتٍ ونفيٍ.

قَوْلُهُ: «**إثباتًا بلا تمثيلٍ**» رَدٌّ على الممثِّلةِ، لأنَّ المُمثِّلَةَ غَلَوْا في الإثباتِ.

قَوْلُهُ: «**وتَنْزِيهًا بِلَا تَعْطِيلٍ**» ردٌّ على المعطِّلةِ، لأنَّ المعطِّلةَ غَلَوْا في النَّفي، فَنَفَوْا ما دلَّت عليه النُّصوصُ غُلُوًّا في التَّنزيهِ، أمَّا أهلُ السُّنَّةِ فهم بين هؤلاء وهؤلاء، والحمدُ لله.

قَوْلُهُ: «**فَمَنْ شَبَّهَ اللهَ بِخَلْقِه فقد كَفَرَ، وَمْن جَحَدَ ما وَصَفَ اللهُ به نفسَه فقد كَفَرَ، وليس ما وَصَفَ اللهُ به نفسَه، أو وَصَفَهُ به رسولُه تَشْبِيهًا**» هذه العبارةُ هي نصُّ عبارةِ نُعَيْم بن حَمَّادٍ الخُزَاعيِّ -رحمه الله[2]- شيخِ البخاريِّ، قال: «مَنْ شَبَّهَ اللهَ بخلْقِه فقد كَفَرَ، وَمْن جَحَدَ ما وَصَفَ اللهُ به نفسَه فقد كَفَرَ، وليس فيما وَصَفَ اللهُ

(١) أخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٣/ ٤٤١).

(٢) هو نعيم بن حماد بن الحارث بن همام بن سلمة بن مالك، الإمام، العلَّامة، الحافظ، أبو عبد الله الخزاعي، المروزي، صاحب التصانيف. قال صالح بن مسمار: سمعت نعيم بن حماد يقول: أنا كنت جَهْمِيًّا، فلذلك عرفت كلامهم، فلما طلبت الحديث، عرفت أن أمرهم يرجع إلى التعطيل. قال محمد بن سعد: طلب نعيم الحديث كثيرًا بالعراق والحجاز، ثم نزل مصر، فلم يزل بها حتى أشخص منها في خلافة أبي إسحاق -يعني: المعتصم- فسئل عن القرآن، فأبى أن يجيب فيه بشيء مما أرادوه عليه، فحبس بسامراء، فلم يزل محبوسًا بها حتى مات في السجن، سنة ثمان وعشرين ومائتين. انظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء (١٠/ ٥٩٦).

به نَفْسَه، أو رسولُه تشبيه»[١].

قَوْلُهُ: «كما أنَّا لا نُبْغِضُ أصحابَ رسولِ الله ﷺ لتسميةِ الرَّوافضِ لنا نَوَاصِبَ» الرَّوافضُ لهم قاعدةٌ باطلةٌ تقولُ: «مَنْ لم يَكرهْ أبا بكرٍ وعُمرَ فقد أَبْغَضَ عليًّا»، أو «مَنْ أَحَبَّ أبا بكرٍ وعُمرَ فقد أَبْغَضَ عليًّا»، فيقولون: أنتم الذين تُحِبُّون أبا بكرٍ وعمرَ والصَّحابةَ نواصبُ، والنَّواصبُ هم الذين يَنْصِبون العداوةَ لآلِ البيتِ، فكُلُّ مَنْ أَبْغَضَ آلَ البيتِ فهو نَاصِبِيٌّ، وعلى ذلك فالخوارجُ نواصبُ.

لكن نحن لا نُبْغِضُ آلَ البيتِ ونرى أنَّ الواحدَ منهم يَفْضُلُ غيرَه بِقُربِه مِن الرَّسولِ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آله وسلَّم- ولكنَّنا لا نكرهُ الصَّحابةَ، بل نُحِبُّ الصَّحابةَ ونَزِنُ لهم بالقِسطِ.

أمَّا الرَّوافضُ، فالقاعدةُ عندهم أنَّ مَنْ أَحَبَّ أبا بكرٍ وعُمرَ فقد أَبْغَضَ عَلِيًّا، وكأنَّ القُلوبَ لا تتحمَّلُ أن تُحِبَّ هؤلاء وهؤلاء.

هم الآن يُسَمُّون أهلَ السُّنَّةِ الذين يُحِبُّونَ الصَّحابةَ كُلَّهم يُسَمُّونهم نواصبَ تشنيعًا، كما أنَّ أهلَ التَّعطيلِ الذين يُنكرون الصِّفاتِ يُسَمُّونهم ممَثِّلَةً، مُشَبِّهَةً، مُجَسِّمَةً، وما أشبهَ ذلك.

قَوْلُهُ: «وَلا نُكَذِّبُ بِقَدَرِ الله، ولا نجحدُ كمالَ مشيئتِه وقدرتِه لتسميةِ القَدَرِيَّةِ لنا مُجْبِرَةً» القَدَرِيَّةُ هم الذين يقولون: إنَّ اللهَ -سبحانه وتعالى- لا عَلاقَةَ له في فعلِ العبدِ، ومَن أَثْبَتَ أنَّ فِعلَ العبدِ بمشيئةِ الله فهو جَبْرِيٌّ.

قَوْلُهُ: «...فَإِنِّي اليَوْمَ عَبْدٌ مُجَسِّمٌ» وهذه هي العِزَّةُ في الدِّين، يعني: لا يَهُمُّنا أن تقولوا: مُجَسِّمٌ، أو غيرُ مُجَسِّمٍ، فإن كان إثباتُ الصِّفاتِ تجسيمًا، فأنا مُجَسِّمٌ.

---

(١) انظر: شرح العقيدة الطحاوية (ص:٩٤).

فصل

«وَأَمَّا القرآنُ فَإِنِّي أقولُ: إنَّه كلامُ الله مُنَزَّلٌ غيرُ مخلوقٍ، منه بَدَأَ وإليه يعودُ، تَكَلَّمَ اللهُ به صِدْقًا، وسَمِعَه منه جَبْرَائِيلُ حقًّا، وبَلَّغَهُ محمَّدًا ﷺ وحيًا، وأنَّ ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ [مريم:١] و﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ﴾ [الشُّورى:١-٢] و﴿الٓر﴾ [يونس:١] و﴿قٓ﴾ [ق:١] و﴿نٓ﴾ [القلم:١] عينُ كلامِ الله تعالى حقيقةً، وأنَّ اللهَ تَكَلَّمَ بالقرآنِ العربيِّ الذي سَمِعَهُ الصَّحابةُ مِن رسول الله ﷺ جميعَه كلامُ الله، وليس قولَ البَشَرِ، ومَنْ قَالَ: إنَّه قولُ البَشَرِ، فقد كَفَرَ، واللهُ يُصْلِيه سَقَرَ، ومَنْ قال: ليس لله في الأرضِ كلامٌ فقد جَحَدَ رسالةَ محمَّدٍ ﷺ، فإنَّ اللهَ بَعَثَهُ يُبَلِّغُ عنه كلامَه، والرَّسولُ إنَّما يُبَلِّغُ كلامَ مُرْسِلِه، فإذا انْتَفَى كلامُ المُرْسِلِ انْتَفَتْ رسالةُ الرَّسولِ».

الشرحُ

نحن الآن في مَقامِ مُناظَرةٍ بين مُعَطِّلٍ ومُثْبِتٍ، وهذا رأيُ المُثبتِ في كلامِ الله، والظَّاهرُ أنَّ هذا واقعٌ مع ابنِ القيِّم نفسِه، وأنَّه حَصَلَ بينه وبين المُعَطِّلِ مناظرةٌ فتكلَّم بهذا الكلامِ، وما بَعْدَه بهذا الأسلوبِ البَديعِ، وذلك فضلُ الله يؤتيه مَنْ يشاءُ، واللهُ ذو الفضلِ العظيمِ.

قَوْلُهُ: «وَأَمَّا القرآنُ فَإِنِّي أقولُ: إنَّه كلامُ الله مُنَزَّلٌ غيرُ مخلوقٍ» نقولُ في القرآنِ: القرآنُ كلامُ الله تعالى مُنَزَّلٌ غيرُ مخلوقٍ، ولا يكفي قولُنا: (مُنَزَّلٌ) فقط، بل نقولُ: (غيرُ مخلوقٍ)، لئلَّا يقولَ قائلٌ: هذا المطرُ مُنَزَّلٌ كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا﴾ [ق:٩]، وبهيمةُ الأنعامِ مُنَزَّلَةٌ، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ

ﭐلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖ﴾ [الزمر:٦]، وهذا الحديدُ مُنَزَّلٌ، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد:٢٥]، فلا بُدَّ أن نقولَ: (**غَيْرُ مخلوقٍ**) حتَّى لا يقولَ قائلٌ: إنَّ قولَكم: إنَّه مُنَزَّلٌ لا يمنعُ أن يكونَ مخلوقًا، ونقولُ: إنَّه غيرُ مخلوقٍ، لأنَّه كلامٌ، والكلامُ صِفةُ المتكلِّمِ، وصفةُ المخلوقِ مخلوقةٌ، وصفةُ الخالِقِ غيرُ مخلوقةٍ، ولهذا كان السَّلفُ يقولون: (**إنَّه كلامُ الله مُنَزَّلٌ غيرُ مخلوقٍ**).

قَوْلُهُ: «منه بَدَأَ» يعني أنَّ اللهَ تعالى هو الذي تَكَلَّمَ به ابتداءً، لم يتكلَّم به جبريلُ، ولا محمَّدٌ -عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ-.

قَوْلُهُ: «**وإليه يعودُ**» أي: يرجعُ، ولكن ما معنى العَوْد هنا، هل هو عَوْدٌ حِسِّيٌّ، أو عَوْدٌ حُكْمِيٌّ، أو هما؟ الجوابُ: هو عَوْدٌ حِسِّيٌّ، لأنَّه يُنْزَعُ في آخرِ الزَّمانِ، حتَّى لا يَبْقَى منه شيءٌ، لا في صدورِ الرِّجالِ، ولا في المصاحفِ، وهذا حين يُعْرِضُ النَّاسُ عنه إعراضًا كُلِّيًّا، فإنَّه يُنْزَعُ مِن بين أيديهم، لأنَّ القرآنَ أعظمُ وأجَلُّ مِن أن يَبْقَى بين قومٍ لا يقيمون له وزنًا، أو يدوسونه بأرجلِهم -والعياذُ بالله- كما أنَّ الكعبةَ إذا أَعْرَضَ النَّاسُ عنها وامتهنوها سَلَّطَ اللهُ عليها (ذو السُّوَيْقَتَيْنِ) مِن الحبشةِ، يهدمُها حَجرًا حَجرًا حتَّى يُلقِيَها في البحرِ[1]، وذلك إذا عَتَا النَّاسُ فيها، ولم يُقَدِّروها حقَّ قَدْرِهَا، وهذا عَوْدٌ حسِّيٌّ.

وأمَّا المعنويُّ أي: يعودُ إليه حُكْمًا بمعنى أنَّه لا يُنْسَبُ إلى غيرِ الله، فلا يُقَالُ: القرآنُ كلامُ جبريلَ، ولا كلامُ محمَّدٍ، وإنَّما هو كلامُ الله عزَّ وجلَّ فهو يعودُ إليه

---

(١) بدلالة حديث النبي ﷺ: «يُخَرِّبُ الكَعْبَةَ ذُو السُّوَيْقَتَيْنِ مِنَ الحَبَشَةِ». أخرجه البخاري: كتاب الحج، باب قول الله تعالى: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلۡكَعۡبَةَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِ﴾، رقم (١٥١٤)، ومسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل، رقم (٢٩٠٩).

وَصْفًا وحُكْمًا، لأنَّ الكلامَ إنَّما يُضَافُ حقيقةً إلى مَنْ تكَلَّمَ به أوَّلا إلى مَنْ بَلَّغَهُ، فلو قلتَ:

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ .... (١)

فهل هذه القصيدةُ لك أم أنَّها لامرئ القيسِ(٢)؟ الجوابُ: لامرئ القيسِ.

وكذلك ولو قلتَ:

بَانَتْ سُعَادُ فَقَلْبِي اليَوْمَ مَتْبُولُ .... (٣)

فهل هي لك أم أنَّها لكعبِ بن زُهيرٍ(٤)؟ الجوابُ: لكعبِ بن زُهيرٍ.

إِذَنْ إذا قلنا: (**هذا القرآنُ كلامُ الله**)، فهو كلامُ الله يُنْسَبُ إلى الله عزَّ وجلَّ ويدلُّك لهذا أنَّ اللهَ نَسَبَهُ مرَّةً إلى جبريلَ، ومرَّةً إلى محمَّدٍ، ولا يمكنُ أن يكونَ كلامٌ واحدٌ منسوبًا لاثنين، لكن يُنْسَبُ إليهما على سبيلِ التَّبليغِ، فجبريلُ بَلَّغَهُ محمَّدًا، ومحمَّدٌ بَلَّغَهُ أُمَّتَه، قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير:١٩-٢١]، فالمرادُ بالرَّسولِ هنا جبريلُ، وأمَّا قولُه تعالى:

---

(١) انظر: جمهرة أشعار العرب، لأبي زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي (ص:٥١).

(٢) هو امرؤ القيس بن حُجْر بن الحارث الكِندي، مِن بني آكِل المرار: أشهر شعراء العرب على الإطلاق، يماني الأصل، مولده بِنَجْد، أو بِمِخْلاف السَّكَاسِك باليمن، اشتُهِر بلَقَبِه، واختلف المؤرخون في اسمه، فقيل: حُنْدُج، وقيل مُلَيْكة وقيل عَديّ، وكان أبوه مَلِك أَسَدٍ وغَطَفَانَ. انظر ترجمته في: الأعلام للزركلي (٢/ ١١).

(٣) انظر: المصدر السابق (ص:٦٣٢).

(٤) هو كعب بن زهير بن أبي سُلْمى -واسمه رَبِيعَة- بن رِياح بن قُرْط بن الحارث بن مازن المزني الشاعر المشهور، صحابيٌّ معروف، قال قصيدته (بانت سعاد) بين يدي النبي ﷺ فكساه النبيّ -صلّى اللهُ عليه وعلى آله وسلم- بُرْدَة له، فاشتراها معاوية مِن وَلَدِه، فهي التي يَلْبَسُها الخُلَفاء في الأعياد. انظر ترجمته في: الإصابة لابن حجر (٥/ ٤٤٣).

﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ﴾ [الحاقة:٤٠-٤٢] فالمرادُ به محمَّدٌ ﷺ، إذن القرآنُ كلامُ الله.

قَوْلُهُ: «تكَلَّمَ اللهُ به صِدْقًا، وسَمِعَهُ منه جَبْرَائِيلُ حقًّا» أفادنا المؤلِّفُ أنَّ جبريلَ لم يَتلقَّه مِن اللَّوحِ المحفوظِ، وإنَّما سَمِعَهُ مِن الله، والقولُ بـ**(أنَّ اللهَ تكَلَّمَ به ثُمَّ أنْزَلَهُ إلى بيتِ العِزَّةِ في السَّماء الدُّنيا)** هذا في النَّفسِ منه شيءٌ، وإن كان يُرْوَى عن ابنِ عبَّاسٍ[1] رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا فالذي يظهرُ أنَّ اللهَ يتكلَّمُ بالقرآنِ حين إنزالِه، وقولُه تعالى: ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ﴿٢١﴾ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ﴾ [البروج:٢١-٢٢] يَحْتَمِلُ أنَّ المعنى: **(في اللَّوحِ المحفوظِ ذِكْرُه)** كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء:١٩٦]، ومعلومٌ أنَّ القرآنَ نَفْسَه ليس في زُبُرِ الأوَّلين، إنَّما الذي في زُبُرِ الأوَّلين هو ذِكْرُه، فيَحْتمل أنَّ الذي في اللَّوحِ المحفوظِ هو أنَّ القرآنَ سيكونُ ويُنَزَّلُ على محمَّدٍ ﷺ، وما أشبه ذلك، فيكونُ المرادُ بكونِه في اللَّوحِ المحفوظِ ذِكْرَه، لكن يُضْعِفُ هذا الشَّيءَ نحوُ قولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة:٧٧-٧٩]، فإنَّ ظاهرَه أنَّ القرآنَ نفسَه كُتِبَ في نفسِ اللَّوحِ المحفوظِ، واللهُ على كُلِّ شيءٍ قديرٌ، فقد يكتبُه اللهُ في اللَّوحِ المحفوظِ، ولكن لا يتكلَّم به إلَّا عند إنزالِه.

قَوْلُهُ: «وَبَلَّغَهُ محمَّدًا ﷺ وَحْيًا، وأنَّ ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ [مريم:١] و﴿حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ﴾ [الشُّورى:١-٢] و﴿الٓر﴾ [يونس:١] و﴿قٓ﴾ [ق:١] و﴿نٓ﴾ [القلم:١] **عينُ كلامِ الله حقيقةً...»** المؤلِّفُ -رحمه اللهُ- كَرَّرَ هذا، لأنَّ مِن النَّاسِ مَن اخْتَلَفَ في هذا القرآنِ، فالجهميَّةُ قالوا: **(القرآنُ كلامُ الله مُنَزَّلٌ، لكنَّه مخلوقٌ، وأُضِيفَ إلى الله على سبيلِ التَّشريفِ، فإضافتُه إضافةُ تشريفٍ وخَلْقٍ، وليست إضافةَ صفةٍ إلى موصوفِها)**.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (١٥١٢٩)، وابن جرير (٣/ ١٨٨).

وقالت الأشاعرةُ: (إنَّ القرآنَ عبارةٌ عن كلامِ الله، خَلَقه اللهُ عزَّ وجلَّ ليُعَبِّرَ عمَّا في نفسِه).

وهم في الحقيقةِ قد تَلَاقَوْا مع المُعْتَزِلَةِ فيما ذهبوا إليه، بل قد يكونُ المُعْتَزِلَةُ خيرًا منهم مِن بعضِ الوجوهِ، لأنَّ المُعْتَزِلَةَ يقولون: (هذا الذي بين أيدينا في المصحفِ هو كلامُ الله حقًّا)، وأولئك يقولون: (ليس كلامَ الله، ولكنَّه عبارةٌ عن كلامِ الله)، والكُلُّ قد اتَّفَقَ أنَّ ما بين أيدينا في المصحفِ مخلوقٌ، لكنَّ المُعْتَزِلَةَ قالوا: (هو كلامُ الله)، وأولئك قالوا: (هو عبارةٌ عن كلام الله)، لأنَّ الأشاعرةَ مِن أصولِ مذهبِهم الباطلة أنَّ الكلامَ هو المعنى القَائِمُ بالنَّفسِ، وليس هو الحرفَ والصَّوتَ، وقالوا: مُستحيلٌ أن يتكلَّمَ اللهُ بحرفٍ وصوتٍ، فانظر كيف خَالَفُوا اللُّغةَ وحَكَمُوا على الله تعالى بعقولِهم الفاسدةِ؟!

* * *

«ونقولُ: إنَّ اللهَ فوقَ سمواتِه مُسْتَوٍ على عَرْشِه، بائنٌ مِن خَلْقِه، ليس في مخلوقاتِه شيءٌ من ذاتِه، ولا في ذاتِه شيءٌ مِن مخلوقاتِه، وإنَّه تعالى إليه يصعدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ، وتَعْرُجُ الملائكةُ والرُّوحُ إليه، وإنَّه يُدَبِّرُ الأمرَ من السَّماءِ إلى الأرضِ ثُمَّ يعرجُ إليه، وإنَّ المسيحَ رُفِعَ بذاتِه إلى الله، وإنَّ رسولَ الله ﷺ عُرِجَ به إلى الله حقيقةً، وإنَّ أرواحَ المؤمنين تصعدُ إلى الله عند الوفاةِ، فَتُعْرَضُ عليه، وَتقِفُ بين يديه، وإنَّه تعالى هو القاهرُ فوق عبادِه، وهو العليُّ الأعلى، وإنَّ المؤمنين والملائكةَ المُقَرَّبين يخافون ربَّهم مِن فوقِهم، وإنَّ أيديَ السَّائلين تُرْفَعُ إليه، وحوائجَهم تُعْرَضُ عليه، فإنَّه -سبحانه- هو العَليُّ الأعلى بكُلِّ اعتبارٍ».

الشرحُ

هذه القطعةُ في بيانِ صفةِ العُلوِّ الذَّاتيِّ، والاستواءِ على العرشِ، فنقول: إنَّ اللهَ تعالى فَوْقَ عرشِه مُستوٍ عليه، وفوقَ جميعِ المخلوقاتِ، بائنٌ مِن خَلْقِه، وفَسَّرَ البَيْنُونةَ بقوله: (**لَيْسَ في مخلوقاتِه شيءٌ مِن ذاتِه، ولا في ذاتِه شيءٌ مِن مخلوقاتِه**)، وليست البينونةُ عدمَ المماسَّةِ مَثلًا، هذا لا نعلمُه، فلو قال قائلٌ: (**إنَّ اللهَ استوى على العرشِ**)، هل هو مُماسٌّ للعرشِ، أو غيرُ مُماسٍّ؟ نقولُ: اللهُ أعلمُ.

إِذَنْ ما معنى البَيْنُونة التي جاءت في كلامِ السَّلفِ؟

معناها نفيُ الحُلُولِ، فليس شيءٌ حالًّا مِن المخلوقاتِ في ذاتِه، وليس شيءٌ من ذاتِه حالًّا في المخلوقاتِ، لأَنَّه فوقَ كُلِّ شيءٍ، وبهذا نَعرفُ أنَّ اللهَ تعالى إذا نَزَلَ إلى السَّماءِ الدُّنيا، لا تكونُ السَّمواتُ الأخرى فوقَه، إذ لو كانت فوقَه لكان حالًّا في المخلوقاتِ، وهذا مستحيلٌ، فإنَّه لا يُحيطُ به شيءٌ مِن مخلوقاتِه أبدًا، بل هو فوقَ كُلِّ شيءٍ.

قد تَعْجِزُ عن تصوُّرِ هذا الأمرِ، ولكن لا غرابةَ، فنحن عاجزون عن تصوُّرِ كُلِّ صفاتِ الله عزَّ وجلَّ وليس لنا شَرْعًا أن نتصوَّرَها، يعني: نحن عاجزون قَدَرًا عن تصوُّرِها، ولا يحقُّ لنا شرعًا أن نتصوَّرَها، لأنَّ تصوُّرَها معناه محاولةُ إثباتِ التَّكييفِ، وهذا أمرٌ ممتنعٌ، فمهما قَدَّرْتَ في نفسِك مِن شيءٍ، فاللهُ تعالى أعظمُ وأجَلُّ، ولهذا ليس لنا الحقُّ في أن نتفكَّرَ في ذاتِ الله عزَّ وجلَّ وصفاتِه، لأنَّ الوصولَ إليه أمرٌ مستحيلٌ، فعلى هذا نقولُ: إنَّ اللهَ تعالى لا يَحِلُّ في شيءٍ مِن مخلوقاتِه، ولا يَحِلُّ فيه شيءٌ مِن مخلوقاتِه، وهذا هو معنى البينونة التي عَبَّرَ عنها السَّلفُ في قولِـهم: (**بَائِنٌ من خَلْقِهِ**).

وأمَّا العُلوُّ فهو ثابتٌ أيضًا لله عزَّ وجلَّ لأنَّه العليُّ العظيمُ الأعلى، قال اللهُ تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى:١]، وقال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر:١٠]، وقال تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج:٤]، وقال تعالى: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء:١٥٨]، وعُرِجَ بالرَّسولِ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- إلى الله، وكُلُّ هذا يدلُّ على علوِّه -سبحانه وتعالى- كُلُّ هذه المعاني لا تكونُ إلَّا للعُلُوِّ، هكذا أَثْبَتَ الموحِّدُ، أَثْبَتَ الموحِّدُ أنَّ القرآنَ كلامُ الله حقيقةً، وأنَّ اللهَ تعالى فوقَ عرشِه بَائِنٌ مِن خَلْقِه، ننظر ماذا كان موقفُ المُعَطِّلِ؟

* * *

«فَلَمَّا سَمِعَ المُعَطِّلُ منه ذلك أَمْسَكَ، ثُمَّ أَسَرَّهَا في نفسِه، وخلا بشياطينِه وبَنِي جِنْسِه، وأَوْحَى بعضُهم إلى بعضٍ زُخْرُفَ القولِ غُرورًا، وأصنافَ المكرِ والاحتيالِ، ورَامُوا أمرًا يُسْتَحْمَدُون به إلى نُظَرائِهم مِن أهلِ البِدعِ والضَّلالِ، وعقدوا مجلسًا بيَّتوا في مساءِ ليلته ما لا يرضاه اللهُ مِن القولِ، واللهُ بما يعملون محيطٌ، وأَتَوْا في مجلسِهم ذلك بما قَدَرُوا عليه مِن الـهَذَيَانِ واللَّغطِ والتَّخليطِ، ورَامُوا استدعاءَ المُثْبِتِ إلى مجلسِهم الذي عقدوه، ليجعلوا نُزُلَه عند قُدومِه عليهم ما لَفَّقُوه مِن الكذب ونَمَّقُوه، فَحَبَسَ اللهُ -سبحانه- عنه أيديَهم وألسنتَهم، فلم يتجاسروا عليه، وَرَدَّ اللهُ كيدَهم في نُحورِهم، فلم يَصِلُوا بالسُّوءِ إليه، وخَذَلَهُمُ المطاعُ فمزَّق ما كتبوه مِن المحاضرِ، وَقَلَبَ اللهُ قُلوبَ أوليائِه وجُنْدِه عليهم مِن كُلِّ بَادٍ وحَاضِرٍ، وأخرجَ النَّاسُ لهم مِن المُخَبَّآتِ كَمَائِنَها، ومِن الجَوائِفِ والـمُنَقِّلات دَفَائِنَها.

وقَوَّى اللهُ جَأْشَ المُثْبِتِ، وثَبَّتَ قَلْبَه ولسانَه، وشَيَّدَ بالسُّنَّةِ المحمَّديَّةِ بُنْيَانَهُ، فَسَعَى في عَقدِ مجلسٍ بَيْنَه وبَيْنَ خُصُومِه عند السُّلطانِ، وحَكَّمَ على نَفْسِه كُتُبَ

شُيوخِ القومِ السَّالفين، وأئمَّتِهم المتقدِّمين، وأنَّه لا يَسْتَنْصِرُ مِن أهلِ مَذْهَبِه بكتابٍ، ولا إنسانٍ، وأنَّه جَعَلَ بينه وبينكم أقوالَ مَنْ قلَّدتموه، ونُصوصَ مَنْ على غيرِه مِن الأئمَّةِ قدَّمتموه، وصَرَّحَ المُثْبِتُ بذلك بَيْنَ ظهْرَانَيْهم، حتَّى بَلَّغَهُ دانِيهم لِقَاصِيهم، فلم يُذْعِنُوا لذلك، واسْتَعْفَوْا مِن عَقْدِه، فَطَالَبَهُمْ المُثْبِتُ بواحدةٍ مِن خِلالٍ ثلاثٍ: مناظرةٍ في مَجْلِسٍ عامٍّ على شَرِيطةِ العِلْمِ والإنصافِ، تُحْضَرُ فيه النُّصوصُ النَّبويَّةُ، والآثارُ السَّلفيَّةُ، وكُتُبُ أئمَّتِكم المتقدِّمين مِن أهلِ العِلمِ والدِّينِ، فقيل لـهم: لا مَرَاكِبَ لكم تُسَابِقُونَ بها في هذا المَيْدَانِ، وما لكم بِمُقَاوَمَةِ فُرْسَانِه يَدَان، فدعاهم إلى مُكَاتبتِه بما يَدْعُونَ إليه، فإن كان حقًّا قَبِلَهُ، وشَكَرَكُمْ عليه، وإن كان غيرَ ذلك سَمِعْتُم جوابَ المُثْبِتِ، وتَبَيَّنَ لكم حقيقة ما لَدَيْه، فَأَبَوْا ذلك أَشَدَّ الإباءِ، واسْتَعْفَوْا غايةَ الاستعفاءِ، فدعاهم إلى القيامِ بين الرُّكنِ والمَقَامِ قيامًا في مواقفِ الابتهالِ حَاسِري الرُّؤوسِ، نسألُ اللهَ أن يُنْزِلَ بَأْسَه بأهلِ البِدَعِ والضَّلالِ.

وظنَّ المُثْبِتُ -واللهِ- أنَّ القومَ يُجِيبون إلى هذا، فَوَطَّنَ نَفْسَه عليه غايةَ التَّوطينِ، وَبَاتَ يُحَاسِبُ نفسَه، وَيَعْرِضُ ما يُثْبِتُه ويَنْفِيه على كلامِ ربِّ العالمين، وعلى سُنَّةِ خَاتَمِ الأنبياءِ والمرسلين، ويتجرَّدُ عن كُلِّ هَوًى يُخَالِفُ الوحيَ المُبِينَ، وَيَهْوِي بصاحبِه في أسفلِ السافلين، فلم يُجِيبوا إلى ذلك أيضًا، وَأَتَوْا مِن الاعتذارِ بما دَلَّ على أنَّ القومَ ليسوا مِن أُولِي الأيدِي والأبصارِ، فحينئذٍ شَمَّرَ المُثْبِتُ عن سَاقِ عَزْمِه، وعَقَدَ لله مجلسًا بَيْنَه وبَيْنَ خَصْمِه، يَشْهَدُه القريبُ والبعيدُ، ويَقِفُ على مَضْمُونِه الذَّكِيُّ والبَلِيدُ، وجَعَلَهُ عقدَ مجلسِ التَّحكيمِ بين المُعَطِّلِ الجَاحِدِ، والمُثْبِتِ المَرْمِيِّ بالتَّجْسيمِ».

الشرحُ

الظَّاهرُ لي مِن كلامِه هذا أنَّه يريدُ أن يقولَ: إنَّه مُثْبِتٌ، ويُحاكِمُ أهلَ التَّعطيلِ، فَدَعَاهم إلى هذه الخصالِ الثَّلاثِ فَأَبَوْا، دَعَاهُم إلى المناظرةِ مُقابلةً وَجهًا لوجهٍ، فَأَبَوْا وامتنعوا عن الحضورِ إلى عالِـمٍ حقٍّ يَحْكُمُ بينهم، ثُمَّ دَعَاهم إلى الكتابةِ بأن يكتبَ لهم، ويكتبوا له، فامتنعوا أن يكتبَ لهم المُثْبِتُ دليلَ ما أَثْبَتَ، لأنَّهم يعرفون أنَّهم لا طاقةَ لهم بِنَفْيِه، ثُمَّ دَعَاهم إلى المُبَاهلةِ[1] بين الرُّكنِ والمَقَامِ، لأنَّه إذا تَبَاهَلَ القومُ حَقَّت العقوبةُ على مَنْ كان على خطأٍ، ولكنَّهم أَبَوْا، فلَمَّا رأى أنَّ الأمورَ كُلَّها تَعَذَّرَتْ، وأنَّهم أَبَوْا كُلَّ الثَّلاثِ، كَتَب هو مُناظرةً بَيْنَه وبَيْنَ أهلِ التَّعطيلِ في القصيدةِ الآتية، ليَحْكُمَ الإنسانُ بما يراه مِن خلالِ هذه القصيدةِ لِـمَنْ يكونُ الصَّوابُ.

قَوْلُهُ: «**نَسْأَلُ اللهَ أن يُنْزِلَ بأسَه بأهلِ البدعِ والضَّلالِ**» هذا ليس دعاءً منه، لأنَّه هنا يحكي القضيَّةَ، فيقول: إذا أَبَيْتُم هذا نذهبُ إلى مكَّةَ، ونَقِفُ بين الرُّكنِ والمَقَامِ، ونَبْتَهِلُ إلى الله عزَّ وجلَّ.

وكما شَاهَدْنَا قوَّةَ أُسلوبِ المؤلِّفِ -رحمه الله- وبيانِه وفصاحتِه، وكُلُّ كُتُبِه على هذا النَّحوِ تجدُها في غايةِ ما يكونُ مِن البَيانِ والفصاحةِ والسَّلاسةِ، حتَّى إنَّ الإنسانَ إذا قرأها، أو صار يُرَاجِعُهَا لا يَمَلُّ، نسألُ اللهَ تعالى أن يغفرَ له، وأن يَجْزِيَه خيرًا.

* * *

---

(١) المُبَاهَلَة المُلاعَنَة، وهو أن يجتمع القوم إذا اختلفوا في شيء فيقولوا لعنة الله على الظالم منا. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: بهل.

«وقد خَاصَمَ في هذا المجلسِ باللهِ، وحَاكَمَ إليه، وَبَرِئ إلى الله مِن كُلِّ هَوًى وبدعةٍ وضلالةٍ، وتَحَيُّزٍ إلى فئةٍ غيرِ رسولِ الله ﷺ، وما كان أصحابُه عليه، واللهُ سبحانه المسئولُ أَلَّا يَكِلَه إلى نَفْسِه، ولا إلى شيءٍ مِمَّا لَدَيْه، وأن يُوَفِّقَه في جميعِ حالاتِه لما يُحِبُّه ويرضاه، فإنَّ أَزِمَّةَ الأمورِ بِيَدَيه، وهو يَرْغَبُ إلى مَنْ يَقِفُ على هذه الحُكُومةِ أن يقومَ لله قيامَ مُتَجَرِّدٍ عن هَواه، قاصدًا لِرِضَى مَوْلاه، ثُمَّ يقرأَها مُتفكِّرًا، ويُعِيدَها ويُبديَها مُتدبِّرًا، ثُمَّ يَحكُمَ فيها بما يُرْضِي اللهَ ورسولَه وعِبادَه المؤمنين، ولا يقابلَها بالسَّبِّ والشَّتمِ كَفِعْلِ الجاهلين والمعاندين، فإن رَأَى حقًّا قَبِلَهُ، وشَكَرَ عليه، وإن رأى باطلًا رَدَّه على قائلِه، وأهدى الصَّوابَ إليه، فإنَّ الحقَّ لله ورسولِه، والقصدُ أن تكونَ كلمةُ السُّنَّةِ هي العُلْيَا جهادًا في الله، وفي سبيلِه، واللهُ عند لسانِ كُلِّ قائلٍ وقَلبِه، وهو المُطَّلِعُ على نيَّتِه وكَسْبِه، وما كان أهلُ التَّعطيلِ أولياءَه، إنْ أولياؤه إلَّا المتَّقون المؤمنون المُصدِّقون، ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة:١٠٥]».

الشـرحُ

قَوْلُهُ: «وهو يَرْغَبُ إلى مَنْ يَقِفُ على هذه الحُكُومَةِ أن يقومَ لله قيامَ مُتَجَرِّدٍ عن هَوَاه، قاصدًا لِرِضَى مولاه» هو يَرْغَبُ مِمَّن سَمِعَ هذه الحُكُومَةَ -ويريد بهذا القصيدةَ النُّونيَّةَ- إلى مَنْ يَقِفُ على هذه الحكومةِ أن يقومَ لله قيامَ مُتَجَرِّدٍ عن هواه... إلخ، نسأَلُ اللهَ أن يجعلَنا كذلك.

قَوْلُهُ: «فإنَّ الحَقَّ لله ورسولِه، والقصدُ أن تكونَ كلمةُ السُّنَّةِ هي العُلْيَا جهادًا في الله، وفي سبيلِه» وذلك كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت:٦٩].

قَوْلُهُ: «قال اللهُ تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة:١٠٥]»، فاللهُ عزَّ وجلَّ يرى ذلك بكتابِه، ويرى ذلك بِعَيْنِه -سبحانه وتعالى-.

وقوله: ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾ يعني: يراه الرَّسولُ بحسَبِ سُنَّتِه، لأنَّ سُنَّةَ الرَّسولِ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- تَحْكُمُ على القولِ بأنَّه حقٌّ، أو صِدقٌ، فكأنَّه رآه.

* * *

فصـل

«وهذه أَمثالٌ حِسَانٌ مَضرُوبةٌ للمُعَطِّلِ والمُشَبِّهِ والمُوَحِّدِ، ذَكَرْتُهَا قَبْلَ الشُّروعِ في المقصودِ، فَإِنَّ ضَرْبَ الأمثالِ ممَّا يَأنسُ به العَقلُ لتقريبِها المَعقولَ مِن المشهودِ، وقد قال تعالى وكلامُه المُشْتَمِلُ على أعظمِ الحُجَجِ، وقَواطِعِ البراهين: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٣]، وقد اشْتَمَلَ منها على بضعةٍ وأربعينَ مَثَلًا، وكان بعضُ السَّلفِ إذا قَرَأَ مَثَلًا لم يفهمْه يشتدُّ بكاؤه ويقولُ: لَسْتُ مِن العَالِمِينَ، وسَنُفْرِدُ لها -إن شَاءَ اللهُ- كتابًا مستقِلًّا متضمِّنًا لأسرارِها ومعانيها، وما تَضَمَّنَتْهُ مِن فُنونِ العِلمِ وحَقَائقِ الإيمانِ، واللهُ المُسْتَعَانُ، وعليه التُّكْلانُ»

الشـرحُ

قَوْلُهُ: «وهذه أمثالٌ حِسَانٌ مضروبةٌ للمُعَطِّلِ والمُشَبِّهِ والمُوَحِّدِ»، فهؤلاء ثلاثةٌ: مُعَطِّلٌ، ومُشَبِّهٌ -يعني: مُمَثِّلًا- ومُوَحِّدٌ.

قَوْلُهُ: «وقد اشْتَمَلَ منها على بضعةٍ وأربعينَ مَثَلًا»، وهذه فائدةٌ أنَّ أمثالَ القرآنِ بِضْعَةٌ وأربعونَ مَثَلًا، والبِضْعَةُ ما بين الثَّلاثةِ إلى التِّسعةِ، فأمثالُ القرآنِ -سواء أمثال الدُّنيا، أو الآخرةِ، أو الأعمال الصَّالحة، أو العامل، أو غير ذلك- كُلُّها تَبْلُغُ بِضْعَةً وأربعين مَثَلًا، مع أنَّ القرآنَ أَبْيَنُ الكلامِ وأوضَحُه، ومع ذلك فإنَّ اللهَ -سبحانه وتعالى- قد أَكْثَرَ فيه مِن ضَربِ الأمثالِ، وقال: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٣]، و﴿ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾ يعني: ذَوِي العِلْمِ، و﴿ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾

هنا جمعُ مذكَّرٍ سالـمٌ، لكن هل هو جَمْعٌ مِن (عَامِرٍ) أو مِن (مُذْنِبٍ)؟ الجوابُ: مِن (مُذْنِبٍ)، لأنَّ هذا وصفٌ[١].

قَوْلُهُ: «**وَسَنُفْرِدُ لها كتابًا مُسْتَقِلًّا مُتَضَمِّنًا لأسرارِها ومعانيها...**» والحمدُ لله أنَّ اللهَ -سبحانه وتعالى- قد يَسَّرَ له فوَفَى بها وَعَدَ، فله كتابٌ مستقِلٌّ اسمُه: (**أمثالُ القرآنِ**).

* * *

«**المَثَلُ الأوَّلُ: ثِيابُ المُعطِّلِ مُلَطَّخَةٌ بِعَذِرَةِ التَّحريفِ، وشَرابُه مُتَغَيِّرٌ بنجاسةِ التَّعطيلِ، وثيابُ المُشَبِّهِ مُتَضَمِّخَةٌ بِدَمِ التَّشبيهِ، وشرابُه مُتَغَيِّرٌ بِفَرْثِ التَّمثيلِ، والمُوَحِّدُ طاهرُ الثَّوبِ والقلبِ والبدنِ، يخرجُ شرابُه** ﴿مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [النحل:٦٦].

الشـرحُ

قَوْلُهُ: «**ثيابُ المُعَطِّلِ مُلَطَّخَةٌ بِعَذِرَةِ[٢] التَّحريفِ**» وهذا بالنِّسبةِ إلى استعمالِهِم النُّصوصَ، فإنَّ المُعَطِّلَ لم يستعملْها استعمالَ السَّلفِ في إجرائِها على ظاهرِها، بل كان يُحَرِّفُهَا.

قَوْلُهُ: «**وشرابُه مُتَغَيِّرٌ بنجاسةِ التَّعطيلِ**» هذا باعتبارِ عقيدتِه.

فالأوَّلُ باعتبارِ استعمالِه للنُّصوصِ، والثَّاني باعتبارِ عقيدتِه، فإنَّه مُعَطِّلٌ للنُّصوصِ.

---

(١) انظر في ذلك قولَ ابنُ مالكٍ -رحمه الله- في ألفيَّتِه:

وَارْفَعْ بِوَاوٍ، وبِيَا اجْرُرْ وَانْصِبِ   سَالِـمَ جَمْعِ (عَامِرٍ) وَ(مُذْنِبِ)

(٢) العَذِرَة: الغائط. انظر: لسان العرب، مادة: عذر.

قَوْلُهُ: «وثيابُ المُشَبِّهِ مُتَضَمِّخَةٌ[١] بدَمِ التَّشبيهِ، وشرابُه مُتَغَيِّرٌ بِدَمِ التَّمثيلِ»
والظَّاهِرُ أيضًا أنَّ المُشَبِّهَ عنده تحريفٌ للنُّصوصِ، فإنَّه مُحَرِّفٌ لها بلا شَكٍّ، لأنَّ التَّحريفَ إخراجُ اللفظِ عمَّا يُرَادُ به، والمُشَبِّهُ أخرجه عمَّا يُرَادُ به بلا شَكٍّ، فإنَّ اللهَ لـم يُرِدْ بهذه النُّصوصِ أن يُثْبِتَ مماثلتَه للمخلوقين، بل أراد أن يُبيِّنَ كمالَ صفاتِهِ -سبحانه وتعالى- التي لا يمكنُ أن تُشْبِهَ صفاتِ المخلوقين.

ولقد بَيَّنَّا فيما سبقَ أنَّ كُلَّ صفةٍ أَضَافَهَا اللهُ لنفسِه فإنَّها لا تحتاجُ إلى أن نقولَ: إنَّ اللهَ لا يماثلُه فيها شيءٌ، ولا نحتاجُ أن نستدلَّ بالآيةِ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، بل نقولُ: بمجرَّدِ إضافتِها إلى الله، فإنَّ فيها دَلالةً على أنَّها ليست كَصِفَةِ المخلوقين، فمثلًا: تُضَافُ (اليدُ) إلى (البعير)، وتُضَافُ إلى (الذَّرَّةِ)[٢]، ولا يمكنُ أن يفهمَ أحدٌ أنَّ يدَ (الذَّرَّةِ) مُمَاثِلةٌ ليَدِ (البعيرِ)، فهل يلزمُ أن تقولَ: إنَّ للذَّرَّةِ يدًا، وليست كَمِثلِ يدِ البعيرِ؟ لو قُلْتَ ذلك لاستخفَّ النَّاسُ بعقلِك، لأنَّ ذلك معروفٌ، وإذا قال اللهُ تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾، فَأَضَافَ اليدَ إليه، فهل يمكنُ أن نفهمَ أنَّها كـ(يدِ) المخلوقِ؟ الجوابُ: لا، بلا شَكٍّ، فيكون ذِكْرُ الأدلَّةِ التي تدلُّ على نفيِ المُماثلةِ مِن بابِ التَّوكيدِ كما سبق.

فأقولُ: إنَّ المُمَثِّلَ أيضًا ثوبُه مُتَضَمِّخٌ بدمِ التَّحريفِ، لأنَّ أدلَّةَ الكتابِ والسُّنَّةِ في صِفاتِ الله لا تدلُّ على التَّشبيهِ قطعًا.

* * *

---

(١) أي متلطخة. انظر النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: ضمخ.
(٢) واحدة الذَّرّ، وهو النَّملُ الأحمرُ الصَّغير. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: ذرر.

«المَثَلُ الثَّاني: شجرةُ المُعَطِّلِ مَغروسةٌ ﴿عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ [التوبة:١٠٩]، وشَجَرةُ المُشَبِّهِ قد ﴿ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ [إبراهيم:٢٦]، وشجرةُ المُوَحِّدِ ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم:٢٥]».

الشـرحُ

وهذا المَثَلُ واضحٌ أيضًا، فشَجَرةُ المُعَطِّلِ مغروسةٌ متمكِّنةٌ، لكنَّها على شَفَا[1] جُرُفٍ[2]، أدنى شيءٍ يَجْرُفُها ويُسْقِطُها، أمَّا المُشَبِّهُ المُمَثِّلُ فقد اجْتُثَّتْ مِن فوقِ الأرضِ ما لها مِن قرارٍ، أي: وُضِعَتْ وَضعًا على الأرضِ، فالأُولى غائِرةٌ عروقُها، لكنَّها على شَفَا جُرُفٍ، وهذه عروقُها خارجةٌ بارزةٌ.

والسَّببُ في ذلك أنَّ المُعَطِّلَ يَدَّعِي أنَّه هو العاقلُ، وأن هذا هو مقتضى الأدلَّةِ، وأنَّ هذا مَثَلًا يُنَزِّه اللهُ عنه، فظاهرُ مذهبِه التَّنزيهُ، بخلاف المُشَبِّه، فكُلُّ إنسانٍ يمكنُه أنْ يَرُدَّ عليه، لأنَّه يقولُ: اللهُ مِثْلي، أو مِثْل فلانٍ، أو فلانٍ، بخلاف ذاك، فإنَّه مُمَوِّهٌ.

أما المُوَحِّدُ فإنَّ شجرتَه أصلُها ثابتٌ وفَرْعُها في السَّماءِ، لا تَعْصِفُها الرِّياحُ، ولا تُغَيِّرُها القلاقلُ، بل هي ثابتةٌ، وفرعُها في السَّماءِ عالٍ، فليست كشجرةِ المُشَبِّهِ اجْتُثَّتْ مِن فوق الأرضِ، ولا كشجرةِ المُعَطِّلِ التي بُنِيَتْ على شَفَا جُرُفٍ هَارٍ.

* * *

(١) الشَّفا: حَرْفُ كلِّ شيءٍ. انظر: تاج العروس، مادة: شفي.
(٢) الـجُرُفُ مَا أَكَلَ السيلُ مِنْ أَسْفَل شِقِّ الْوَادِي والنَّهر. انظر: لسان العرب، مادة: جرف.

«المَثَلُ الثَّالثُ: شجرةُ المُعَطِّلِ شجرةُ الزَّقُّومِ، فالحُلُوقُ السَّليمةُ لا تبْلَعُها، وشجرةُ المُشَبِّهِ شجرةُ الحَنْظَلِ، فالنُّفوسُ المستقيمةُ لا تَتْبَعُهَا، وشجرةُ المُوَحِّدِ طُوبَى «يسيرُ الرَّاكبُ في ظِلِّها مئة عامٍ لا يَقْطَعُهَا»»(١).

الشـرحُ

وهذا المَثَلُ واضحٌ أيضًا.

* * *

«المَثَلُ الرَّابعُ: المُعَطِّلُ قد اتخذ قَلْبَهَ لِوقايةِ الحرِّ والبردِ كَبَيْتِ العنكبوتِ، والمُشَبِّهُ قد خُسِفَ بِعقْلِه، فهو يَتَجَلْجَلُ في أرضِ التَّشبيهِ إلى البَهْموتِ، وقلبُ المُوَحِّدِ يطوفُ حولَ العَرشِ ناظرًا إلى الحَيِّ الذي لا يموتُ»

الشـرحُ

الأوَّل: (المُعَطِّلُ) قد بنى له بيتًا، لكنَّه كَبَيتِ العنكبوتِ، وبيتُ العنكبوتِ كما قال ربُّنا عزَّ وجلَّ: ﴿أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ﴾ [العنكبوت:٤١].

الثَّاني: (المُشَبِّهُ) قد خُسِفَ به، فهو يَتَجَلْجَلُ في أرضِ التَّشبيهِ إلى البَهَمُوتِ، والظاَّهرُ أنَّ (البَهَمُوت) الأرضُ العميقةُ التي يَنْبَهِمَ مَنْ يقعُ فيها، ولا يُعْلَمُ له حالٌ، ولا خبرٌ، فهو إذن غيرُ متبوعٍ، وغيرُ مَرْضِيٍّ، ولا يُنْظَرُ إلى كلامِه إطلاقًا.

الثَّالثَ: (المُوَحِّدُ) فيقول: إنَّ قلبَه يطوفُ حولَ العرشِ، ناظرًا إلى الحيِّ الذي لا يموتُ، فهو مُرْتَفِعٌ بقلبِه يَطَّلِعُ إلى الله -سبحانه وتعالى- ببصيرتِه كُلَّ حينٍ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، رقم (٦١٨٦)، ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مئة عام لا يقطعها، رقم (٢٨٢٧).

«المَثَلُ الخَامسُ: مِصْبَاحُ المُعَطِّلِ قد عَصَفَتْ عليه أَهْوِيةُ التَّعطيلِ فَطُفِئَ وما أَنَارَ، ومِصْبَاحُ المُشَبِّهِ قد غَرِقَتْ فَتِيلَتُه في عَسكَرِ التَّشبيهِ، فلا يُقْتَبَسُ منه الأنوارُ، ومصباحُ المُوَحِّدِ ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ [النور:٣٥]».

الشرحُ

قَوْلُهُ: «قد غَرِقَتْ فَتِيلَتُه في عَسْكَرِ التَّشبيهِ»، وفي نسخةٍ: (فِي عَكَرِ التَّشبيهِ)، وهي الصَّحيحةُ، المُعَطِّلُ أَوْقَدَ المصباحَ يَظُنُّ أَنَّه ينفعُه، ولكن جاء الهواءُ فأطفأه، والمُشَبِّهُ لم يُوقِدْ أصلًا، لأَنَّه وَضَعَ الفتيلةَ في عَكَرِ الزَّيْتِ، ولم يَستَفِدْ شيئًا، وعَكَرُ الزَّيتِ هو ما يكونُ عليه، بحيث يطفو على الزَّيتِ، فلا تَصِلُ الفَتِيلةُ إلى أسفلَ.

* * *

«المَثَلُ السَّادسُ: قلبُ المُعطِّلِ مُتَعَلِّقٌ بالعَدَمِ، فهو أَحْقَرُ الحَقِيرِ، وقَلْبُ المُشَبِّهِ عابِدُ الصَّنمِ الذي قد نُحِتَ بالتَّصويرِ والتَّقديرِ، والمُوَحِّدُ قلبُه مُتَعَبِّدٌ لِـمَنْ ليس كَمِثْلِه شيءٌ وهو السَّميعُ البصيرُ».

الشرحُ

المُمَثِّلُ يَعْبُدُ صَنمًا، والمُعَطِّلُ يعبدُ عَدَمًا، وكُلٌّ منهما خبيثٌ، ولذا نقولُ: كُلُّ مُمَثِّلٍ في الواقعِ مُعَطِّلٌ، وكُلُّ مُعَطِّلٍ مُمَثِّلٌ أيضًا، ولا نقولُ: (وليس كُلُّ...)، لكن كيف يكونُ المُمَثِّلُ مُعَطِّلًا؟ الجوابُ: نقولُ: هوَ مُعَطِّلٌ مِن وُجوهٍ ثلاثةٍ:

الأوَّل: أنَّه عَطَّلَ اللهَ مِن كَمالِه الواجبِ، حيث شَبَّهَه بالمخلوقِ، فإنَّ تشبيهَ الكاملِ بالنَّاقصِ يجعلُه ناقصًا، فتَمْثِيلُه تعطيلٌ لله عزَّ وجلَّ.

الثَّاني: أنَّه عَطَّلَ النَّصَّ الذي أَثْبَتَ به الصِّفةَ، فإنَّ النَّصَّ الذي أَثْبَتَ به الصِّفةَ -أو المُماثَلة على زَعْمِه- قد عَطَّلَه، لأنَّ النَّصَّ إنَّما دَلَّ على صفةٍ تليقُ بالله، فإذا أَثْبَتَ به التَّمثيلَ عَطَّلَه عن مُرَادِه بلا شَكٍّ، ولم يُرِدِ اللهُ عزَّ وجلَّ حينما وَصَفَ نَفْسَهُ بما وَصَفَ به نَفْسَه أن يَفْهَمَ عبادُه أنَّه مُماثِلٌ لِخَلْقِه أبدًا، إنَّما أراد المعنى والصِّفةَ التي تليقُ به.

الثَّالث: أنَّ المُمَثِّلَ عَطَّلَ كُلَّ نصٍّ يدلُّ على نفي التَّمثيلِ، فهو عَطَّلَ قولَه تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشُّورى:١١]، لأنَّه قال: إنَّ مِثْلَه شيْء، وعَطَّلَ قولَه تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم:٦٥]، واستكبر عن قولِه تعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [النحل:٧٤]، وما أَشْبَهَ ذلك، فصار المُمَثِّلُ مُعَطِّلًا مِن وُجوهٍ ثلاثةٍ.

والمُعَطِّلُ مُشَبِّهٌ أيضًا مِن وَجْهَيْنِ:

الوجه الأوَّل: أنَّه إذا نَفَى صِفةً عن الله، فَإنَّه شَبَّهَه بِمَنْ خلا مِن تلك الصِّفَةِ، فمثلًا إذا قال: (**ليس اللهُ بسميعٍ**) يعني: ليس له سَمْعٌ، شَبَّهَه بالأَصَمِّ، وإذا قال: (**إنَّ اللهَ لا يَنزِلُ، ولا يَستَوِي، ولا يَفْعلُ**) شَبَّهَه بالأَشَلِّ الذي ليس له فِعْلٌ، وإذا قال: (**ليس له عينٌ**) شَبَّهَه بالأعمى، وهكذا، فهو بِنَفْيِه مُشَبِّهٌ.

الوجه الثَّاني: أنَّه إنَّما عَطَّلَ لاعتقادِه أنَّ هذه الأدلَّةَ تدلُّ على التَّشبيهِ، يقولُ مَثَلًا: إثباتُ اليدِ معناها المَثِيلُ، وإثباتُ العَينِ معناها المَثِيلُ، وهكذا، فمِن أَجْلِ ذلك أُنْكِرُ هذه الصِّفةَ، حتَّى لا أقعَ في التَّمثيلِ، فيقول شيخُ الإسلامِ: «مَثَّلُوا أَوَّلًا، وعطَّلوا آخِرًا»(١). وبهذا نعرفُ -والعياذُ بالله- أنَّ كِلَا الطَّريقَيْنِ سيِّئٌ، وأنَّ كُلَّ واحدٍ منهما أَخَذَ مِن الباطلِ بنصيبٍ.

---

(١) انظر: الفتوى الحموية (ص:٢٦٧).

«المَثَلُ السَّابعُ: نُقُودُ المُعَطِّلِ كُلُّها زُيوفٌ، فلا تَرُوجُ علينا، وبضاعةُ المُشَبِّهِ كَاسِدَةٌ، فلا تَنْفَقُ لَدَيْنَا، وتجارةُ المُوَحِّدِ يُنَادَى عليها يومَ العَرْضِ على رؤوسِ الأشهادِ: ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَا﴾».

الشـرحُ

الزُّيوفُ: هي المغشوشةُ، والزَّيْفُ: العَيبُ، والمعنى أنَّ المُعَطِّلَ عنده نقودٌ، ولكنَّها كُلَّها مَعِيبةٌ، والمُمَثِّلُ نُقُودُه كاسِدةٌ، أي: رَخِيصةٌ لا تساوي شيئًا، وكأنَّ المؤلِّفَ -رحمه اللهُ- يرى أنَّ المُعَطِّلَ عنده مِن الحرصِ، وعَرَضِ التِّجارة أكثرُ ممَّا عند المُشَبِّهِ، وأنَّ النَّاسَ أيضًا يَغتَرُّون به أكثرَ مِن المُشَبِّهِ، ولهذا تجدون التَّعطيلَ في الأُمَّةِ كثيرًا، لكنَّ التَّشبيهَ لم تَثْبُتْ عليه قدمٌ، حتى إنَّ بعضَهم يقولُ: إنَّ مذهبَ التَّشبيهِ كان في الأوَّلِ، وأنَّه بعد ذلك زال وانْمَحَى مِن الوجودِ.

أمَّا تجارةُ المُوَحِّدِ، فإنَّ كُلَّ النَّاسِ يرغبُها، وإذا ظَفَر بها قال: ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَا﴾.

* * *

«المَثَلُ الثَّامنُ: المُعَطِّلُ كَنَافِخِ الكِيرِ، إمَّا أن يُحْرِقَ ثيابَك، وإمَّا أن تجدَ منه رِيحًا خَبِيثةً، والمُشَبِّهُ كَبَائِعِ الخَمْرِ، إمَّا أن يُسْكِرَكَ، وإمَّا أن يُنَجِّسَكَ، والمُوَحِّدُ كبائعِ المِسْكِ، إمَّا أن يُحْذِيَكَ، وإمَّا أن يَبِيعَك، وإمَّا أن تَجِدَ منه رائحةً طيِّبةً».

الشـرحُ

قَوْلُهُ: «المُشَبِّهُ كَبَائِعِ الخَمْرِ، إمَّا أن يُسْكِرَكَ، وإمَّا أن يُنَجِّسَكَ» هذا بناءً على المشهورِ عند أهلِ العلمِ مِن أنَّ الخَمرَ نَجِسَةٌ، أمَّا على ما أختارُه، فَنَجَاسَتُها مَعنويَّةٌ.

«المَثَلُ التَّاسِعُ: المُعَطِّلُ قد تخَلَّفَ عن سَفِينةِ النَّجاةِ، ولم يَرْكَبْها، فأَدْرَكَهُ الطُّوفانُ، والمُشَبِّهُ قد انكسرت به في اللُّجَّةِ، فهو يُشاهِدُ الغَرَقَ بِالعِيَانِ، والمُوَحِّدُ قد رَكِبَ سَفِينَةَ نوحٍ، وقد صَاحَ به الرُّبَّان: ﴿ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

«المَثَلُ العَاشِرُ: مَنْهَلُ المُعَطِّلِ ﴿كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ فَرَجَع خَاسِئًا حَسِيرًا، ومَشْرَبُ المُشَبِّهِ مِن ماءٍ قد تَغَيَّرَ طَعْمُه ولَوْنُه ورِيحُه بالنَّجاسةِ تغييرًا، ومَشْرَبُ المُوَحِّدِ ﴿مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾».

وقد سَمَّيْتُها بـ(الكافِيَة الشَّافية في الانتصارِ للفِرقةِ النَّاجية)، وهذا حينُ الشُّروعِ في المحاكمةِ، واللهُ المُسْتَعَانُ، وعليه التُّكْلانُ، ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلَّا بالله».

الشَّرحُ

قَوْلُهُ: «وهذا حينُ الشُّروعِ في المحاكمةِ» (حينُ) كقولِه تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾، فالظَّرفُ قد يتسلَّطُ عليه الفِعلُ، فيصحُّ أن يُسْنَدَ ويُسْنَدَ إليه.

وهذه الأمثالُ عجيبةٌ تدلُّ على قُدْرَةِ المؤلِّف -رحمهُ اللهُ- على صِياغةِ الأساليبِ والألفاظِ، فكَوْنُه يجمعُ هذا الجمعَ يَدُلُّ على أنه عجيبٌ.

***

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

١- حُكْمُ الْـمَحَبَّةِ ثَابِتُ الْأَرْكَانِ ... مَا لِلصُّدُودِ بِفَسْخِ ذَاكَ يَدَانِ

٢- أَنَّى وَقَاضِي الْحُسْنِ نَفَّذَ حُكْمَهَا ... فَلِذَا أَقَرَّ بِذَلِكَ الْخَصْمَانِ

٣- وَأَتَتْ شُهُودُ الْوَصْلِ تَشْهَدُ أَنَّهُ ... حَقٌّ جَرَى فِي مَجْلِسِ الْإِحْسَانِ

٤- فَتَأَكَّدَ الْحُكْمُ الْعَزِيزُ فَلَمْ يَجِدْ ... فَسْخُ الْوُشَاةِ إِلَيْهِ مِنْ سُلْطَانِ

٥- وَلِأَجْلِ ذَا حُكْمُ الْعَذُولِ تَدَاعَتِ الْـ ... أَرْكَانُ مِنْهُ فَخَرَّ لِلْأَذْقَانِ

٦- وَأَتَى الْوُشَاةُ فَصَادَفُوا الْحُكْمَ الَّذِي ... حَكَمُوا بِهِ مُتَيَقَّنَ الْبُطْلَانِ

٧- مَا صَادَفَ الْحُكْمُ الْمَحَلَّ وَلَا هُوَ اسْـ ... ـتَوْفَى الشُّرُوطَ فَصَارَ ذَا بُطْلَانِ

٨- فَلِذَاكَ قَاضِي الْحُسْنِ أَثْبَتَ مَحْضَرًا ... بِفَسَادِ حُكْمِ الْهَجْرِ وَالسُّلْوَانِ

٩- وَحَكَى لَكَ الْحُكْمَ الْمُحَالَ وَنَقْضَهُ ... فَاسْمَعْ إِذَنْ يَا مَنْ لَهُ أُذُنَانِ

١٠- حُكْمُ الْوُشَاةِ بِغَيْرِ مَا بُرْهَانِ ... إِنَّ الْمَحَبَّةَ وَالصُّدُودَ لَدَانِ

١١- وَاللهِ مَا هَذَا بِحُكْمٍ مُقْسِطٍ ... أَيْنَ الْغَرَامُ وَصَدُّ ذِي هِجْرَانِ[1]؟!

١٢- شَتَّانَ بَيْنَ الْحَالَتَيْنِ فَإِنْ تُرِدْ ... جَمْعًا فَمَا الضِّدَّانِ يَجْتَمِعَانِ

---

(١) في نسخة الإفتاء «الهجران»، معرف بـ(ال).

١٣- يَـا وَالِـهًا هَانَـتْ عَلَيْـهِ نَفْسُـهُ ... إِذْ بَاعَهَـا غَبْنًـا بِكُـلِّ هَـوَانِ

١٤- أَتَبِيـعُ مَـنْ تَهْـواهُ نَفْسُـكَ طَائِعًـا ... بِالصَّـدِّ وَالتَّعْـذِيبِ وَالْـهِجْرَانِ؟!

١٥- أَجَهِلْتَ أَوْصَافَ الْـمَبِيْعِ وَقَـدْرَهُ ... أَمْ كُنْتَ ذَا جَهْـلٍ بِـذِي الْأَثْـمَانِ؟!

١٦- وَاهًـا لِقَلْـبٍ لَا يُفَـارِقُ طَـيْرُهُ الْـ ... أَغْصَـانَ قَائِمَـةً عَـلَى الْكُثْبَـانِ

١٧- وَيَظَـلُّ يَسْـجَعُ فَوْقَهَـا وَلِغَـيْرِهِ ... مِنْهَـا الـثِّمَارُ، وكُـلُّ قِطْـفٍ دَانِ

١٨- وَيَبِيتُ يَبْكِي وَالْـمُوَاصِلُ ضَاحِكٌ ... وَيَظَـلُّ يَشْـكُو وَهْـوَ ذُو شُـكْرَانِ

١٩- هَـذَا وَلَـوْ أَنَّ الْـجَمَالَ مُعلَّـقٌ ... بِـالنَّجْمِ هَـمَّ إِلَيْـهِ بِـالطَّيَرَانِ

الشـرحُ

ذَكَر ابنُ القَيِّم -رحمه الله- بعد الْـمُقدمة أنَّ هذا حِينُ الشُّرُوع في المحاكمة، فبدأ بهذا النَّظْمِ العجيب الغريب الذي يُظْهِر فيه التَّغَزُّلَ، وهذا مِن شأن الشُّعراء إذا أرادوا الدخول في شيء مُهِمٍّ أتوْا بما يدلُّ على التَّغَزُّل مِن أَجْل أن تتهيأ النَّفْسُ، وتستعد لِفَهْم ما يقع بَعْدَ ذلك، وقد جاء مِثْلُ ذلك بين يَدي النَّبيِّ ﷺ في قول الشاعر: بَانَتْ سُعَادُ... إلخ[1]، لأنَّ حُضورَ النَّفْس بِمِثل هذه الأوصاف، وهذا التَّعلُّق يُهَيِّؤُها لِيُلقَى إليها أمرٌ مطلوب.

والمسألة هنا ليست بالـهَيِّنة، فالمسألة محاكمةٌ بين أهل الإثبات، وأهل التَّعطيل، فالقصيدة كُلُّها محاكمةٌ بين أهل الإثبات، وأهل التَّعطيل، ولذلك قَدَّم لها المؤلف هذه المقدمة العظيمة.

(١) أخرجه الحاكم (٣/ ٦٧٠)، والبيهقي (٢١١٤٢).

فالخلاصة: أنَّ المؤلف ذَكَر المحبة وشئونها، ثم ذكر بعد ذلك المحبوب لينتقل إلى المقصود، فقال -رحمه الله-:

١- حُكْمُ الْـمَحَبَّةِ ثَابِتُ الْأَرْكَانِ ... مَا لِلصُّدُودِ بِفَسْخِ ذَاكَ يَدَانِ

٢- أَنَّى وَقَاضِي الْـحُسْنِ نَفَّذَ حُكْمَهَا ... فَلِذَا أَقَرَّ بِذَلِكَ الْـخَصْمَانِ

قَوْلُهُ: «حُكْمُ الْـمَحَبَّةِ ثَابِتُ الْأَرْكَانِ» يعني أنَّ له حبيبًا يُحِبُّه، محبّةً ثابتةً لا تتغيّر.

قَوْلُهُ: «مَا للصُّدُودِ بِفَسْخِ ذَاكَ» أي: بِفَسْخ ذاك الحُكم.

قَوْلُهُ: «يَدَانِ» أي: قُدْرة.

إِذَنْ هو تصوَّرَ الآن أنَّ له حبيبًا يُحِبُّه، وأنَّ صُدودَ هذا الحبيب قد يَفسخ الحكم، وهو ثبوت أركان المحبة.

لكنه يقول: لا يمكن، فهي مَحَبَّة عظيمة، حتى لو صدَّ الحبيب، فإنها ثابتة لا تتغيّر.

قَوْلُهُ: «أَنَّى» أي: كيف يمكن أن يَفْسَخَ الصُّدودُ هذه الأركانَ؟

قَوْلُهُ: «وَقَاضِي الْـحُسْنِ نَفَّذَ حُكْمَهَا» قاضي الحُسن أي: تصوَّرَ أنَّ هناك قاضيًا حَسَنَ القضاء نفَّذ الْـحُكم، وهو ثُبُوت أركان المحبة.

قَوْلُهُ: «الخَصْمَانِ» الخصمان اللذان بين أيدينا الآن هما المحبّة والصُّدُود، لما حكم القاضي بأنه لا يمكن أن يَفْسخ الصُّدودُ حُكمَ المحبّة، أَقَرَّ الخصمان بذلك أنه لا يمكن.

٣- وَأَتَتْ شُـهُودُ الْوَصْـلِ تَشْـهَدُ أَنَّـهُ ... حَـقٌّ جَـرَى فِي مَجْلِـسِ الْإِحْسَـانِ

بعد أن ذَكَر المحبَّةَ، وأنَّ الصُّدُود لا يمكن أن يَفْسَخَهَا، قال:

«**وَأَتتْ شُهُودُ الوَصْلِ**» أي: بَيْنَ الحبيب والمحبوب.

«**تَشْهَدُ أَنَّهُ حَقٌّ جَرَى فِي مَجْلِسِ الْإِحْسَانِ**» وإذا كانت شُهود الوَصْل تشهد بأَنَّه حَقٌّ، صار هذا يزيد الحُكمَ ثباتًا ورُسوخًا، ولا سيما وأنه جرى في مجلس الإحسان.

والإحسانُ -كما هو معلوم- مرتبةٌ فوْقَ العَدْل كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ [النحل:٩٠].

٤- فَتَأَكَّـدَ الْـحُكْمُ الْعَزِيـزُ فَلَـمْ يَجِـدْ ... فَسْـخُ الوُشَـاةِ إِلَيْـهِ مِـنْ سُـلْطَانِ

قَوْلُهُ: «**فَتَأَكَّدَ الْـحُكْمُ الْعَزِيزُ**» هذا التأكُّد مِن جِهة حُكم القاضي، ومِن جِهة الشُّهود.

قَوْلُهُ: «**الوُشَاةِ**» أي: النَّمامين الذين يُريدون إفساد النَّاسِ بِنَقْلِ كلام بعضهم في بعض.

٥- وَلِأَجْلِ ذَا حُكْمُ الْعَذُولِ تَدَاعَتِ الْـ ... أَرْكَـانُ مِنْـهُ فَخَـرَّ لِلْأَذْقَـانِ

قَوْلُهُ: «**الْعَذُول**» أي: اللائم، والمعنى: بعدما ثبت الحُكم على هذا الوجه صار اللومُ على محبَّة هذا الحبيب، تداعت له الأركانُ، ولم يَثْبُت.

٦- وَأَتَى الوُشَاةُ فَصَادَفُوا الْحُكْمَ الذِي ... حَكَمُـوا بِـهِ مُتَـيَقَّنَ الْـبُطْلَانِ

قَوْلُهُ: «**الوُشَاةُ**» أي: النَّمامون، حيث أتوا ليفسدوا الحُكم الأول، فوجدوا أنه لا طاقة لهم بذلك، ووجدوا أنَّ ما حكموا به -وهو الوشاية- مُتيقَّن البطلان.

٧- مَا صَادَفَ الحُكْمُ المَحَلَّ وَلَا هُوَ اسْـــ ـــتَوْفَى الشُّـــرُوطَ فَصَـارَ ذَا بُطْلَانِ

لأنَّ مِن شَرْطِ صِحة الحُكمِ ونَفَاذِ الحُكمِ أن يُصادفَ مَحَلَّه، بأن يكون المحكوم عليه قابلًا، وأن تتم الشروط، وهؤلاء الوُشَاةُ حُكمهم ما صادف المحلَّ، ولا استَوفى الشروط.

٨- فَلِذَاكَ قَاضِي الْـحُسْنِ أَثْبَتَ مَحْضَرًا بِفَسَـادِ حُكْـمِ الْــهَجْرِ وَالسُّـلْوَانِ

قَوْلُهُ: «قَاضِي الحُسْنِ» أي: الحاكم الذي سبق الكلام عليه، فقاضي الحُكم أثبت مَحْضَرًا بفساد حُكم الهَجْر والسُّلوان، والمَحْضَرُ هو ما نُسَمِّيه بالصَّكِّ، كتب قاضي الحُسن صَكًّا أنه لا يمكن أن يَسْلُوَ عن محبوبه، ولا أن يَهْجُرَه.

٩- وَحَكَى لَكَ الحُكْمَ المُحالَ وَنَقْضَـهُ فَاسْـمَعْ إِذَنْ يَـا مَـنْ لَـهُ أُذُنَـانِ

معناه أن قاضيَ الحُسنِ الذي أثبت أنَّ حُكم المحبة ثابتٌ حكى لك الحُكم.

قَوْلُهُ: «وَنَقْضَهُ» أي الذي يَصدُر مِن الوُشَاة.

١٠- حُكْـمُ الوُشَـاةِ بِغَـيْرِ مَـا بُرْهَـانٍ إِنَّ الْــمَحبَّةَ وَالصُّـدُودَ لَـدَانِ

يعني: أنهما ضِدَّان لا يمكن أن يجتمعا، فالمحبةُ إذن ثابتةٌ، وليس لها مُعارض، فَبَطَل حُكْمُ الوُشَاة الذين يحاولون التفريق.

١١- وَاللهِ مَـا هَـذَا بِحُكْـمٍ مُقْسِـطٍ أَيْنَ الْغَـرامُ وصَـدُّ ذِي هِجْـرَانٍ؟!

١٢- شَـتَّانَ بَـيْنَ الْـحَالَتَيْنِ فَـإِنْ تُـرِدْ جَمْعًـا فَـمَا الضِّـدَّانِ يَجْتَمِعَـانِ

قَوْلُهُ: «وَاللهِ ما هَذَا بِحُكْمٍ مُقْسِطٍ» أي: حُكم الوُشَاة الذين يحاولون التفريق بين الحبيب ومحبوبه.

قَوْلُهُ: «أَيْنَ الغَرَامُ وصَدُّ ذِي هِجرَانِ» يعني: كيف يمكن أن يكون الغرام؟ و(الغَرَامُ) هو المحبة اللازمة، و(صَدُّ ذِي هِجرَانِ) لا يمكن، لأنَّ الغرام ينافي الصَّدَّ.

١٣- يَـا وَالِـهًا هَانَـتْ عَلَيْـهِ نَفْسُـهُ إِذْ بَاعَهَـا غَبْنًـا بِكُـلِّ هَـوَانِ

قَوْلُهُ: «الوَالِه» هو شديدُ المَحبَّة، أو شديدُ التَّحيُّر، والأول أظهرُ في هذا السياق.

قَوْلُهُ: «هَانَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ إِذْ بَاعَهَا غَبْنًا بِكُلِّ هَوَانِ»، لأنَّ الغالب أنّ الإنسان المغْرمَ يَخْضَعُ لِـخَلِيلِه، ويُوافقه على الحَسَنِ والسَّيِّءِ، فالذي تَهُونُ عليه نَفْسُه يبيعها بكل هَوان.

١٤- أَتَبِيـعُ مَـنْ تَهْـواهُ نَفْسُـكَ طَائِعًـا بالصَّـدِّ وَالتَّعْـذِيبِ وَالهِجْـرَانِ؟!

والاستفهامُ هنا للإنكار!

١٥- أَجَهِلْتَ أَوْصَافَ الْـمَبِيْعِ وَقَـدْرَهُ؟ أَمْ كُنْـتَ ذَا جَهْـلٍ بِـذِي الْأَثْـمَانِ؟

قَوْلُهُ: «أَوْصَافَ الْـمَبِيْعِ» هذا باعتبار النوع.

قَوْلُهُ: «وَقَدْرَهُ» باعتبار الكيفية.

قَوْلُهُ: «أَمْ كُنْتَ ذَا جَهْلٍ بِذِي الْأَثْمَانِ» يعني: أم أنت جاهلٌ بالثَّمَنِ الذي بَذَلْتَ تَظُنُّهُ رفيعًا وهو رخيص.

١٦- وَاهًـا لِقَلْـبٍ لَا يُفَـارِقُ طَـيْرُهُ الْـ أَغْصَـانَ قَائِمَـةً عَـلى الْكُثْبَـانِ

قَوْلُهُ: «وَاهًا» كلمةُ تَوجُّعٍ يعني: يتوجَّع لهذا القَلْبِ الذي طَيرُه لا يفارق الأغصان.

قَوْلُهُ: «قَائِمةً» أي: الطَّيْر على الكُثْبَان.

١٧- وَيَظَـلُّ يَسْـجَعُ فَوقَهَـا وَلِغَـيْرِهِ مِنْهَـا الـثِّمارُ وكُـلُّ قِطْـفٍ دَانِ

يعني: هذا الطير يَسْجَعُ على الأغصان، فالقلبُ مُوجَعٌ، والثِّمار لِغَيْرِه، كأنه يقول -رحمه الله-: إنَّ مِن أشدِّ البلاء أن يتعلق القلبُ بشيء، وتكُونَ الثمارُ لغيره.

١٨- وَيَبِيتُ يَبْكِي وَالْـمُوَاصِلُ ضَاحِكٌ وَيَظَـلُّ يَشْـكُو وَهْـوَ ذُو شُـكْرانِ

وهذا حقٌّ، فإذا كان الإنسان متعلِّقًا بِحَبِيبه، وَحَصَلَ منه هِجْرَان، وصَادَقَ آخرَ، فإنَّ الأوَّل يَبْكِي، والثانيَ ضَاحِكٌ.

قَوْلُهُ: «وَيَظَلُّ يَشْكُو، وَهْوَ ذُو شُكْرانِ»، وفي نسخة: «وَهْوَ ذُو هِجْرَانِ» والثانية أقرب للصواب، أنه يشكو وهو مَهْجُور، لأنَّ حبيبه قد صَدَّ عنه.

١٩- هَـذَا وَلَـوْ أَنَّ الْـجَمَالَ مُعَلَّـقٌ بِـالنَّجْمِ هَـمَّ إِلَيْـهِ بِـالطَّيَرَانِ

والكلام -كما قلنا- غَزَلٌ، فيقول: لو أنَّ مَحْبُوبَهُ الجَميلَ مُعَلَّق بالنجم، لَهَمَّ إليه بالطَّيَرانِ لِيَصِلَ إليه.

* * *

٢٠- لله زَائِـرَةٌ بِلَيْـلٍ لَـمْ تَخَـفْ عَسَسَ الْأَمِيرِ وَمَرْصَدَ السَّجَّانِ

٢١- قَطَعَتْ بِـلَادَ الشَّـامِ ثُـمَّ تَيَمَّمَـتْ مِـنْ أرْضِ طَيْبَـةَ مَطْلَـعِ الْإِيـمَانِ

٢٢- وأَتَتْ عَلَى وَادِي الْعَقِيقِ فَجَاوَزَتْ مِيقَاتَـهُ حِـلًّا بِـلَا نُكْـرَانِ

٢٣- وَأَتَتْ عَلَى وَادِي الْأَرَاكِ وَلَـمْ يَكُنْ قَصْـدًا لَـهَا فَـأَلَا بِـأَنْ سَـتَرَانِي

٢٤- وَأَتَـتْ عَـلَى عَرَفَـاتِ ثُـمَّ مُحَسِّـرٍ وَمِنًـى فَكَـمْ نَحَرَتْـهُ مِـنْ قُرْبَـانِ؟!

٢٥- وأَتَتْ عَلَى الْـجَمَرَاتِ ثُمَّ تَيَمَّمَتْ ذاتَ السُّـتُورِ وَرَبَّـةَ الْأَرْكَـانِ

٢٦- هذَا وَمَا طَافَـتْ وَلَا اسْـتَلَمَتْ وَلَا ... رَمَـتِ الجِْـمَارَ وَلَا سَـعَتْ لِقِـرَانِ

٢٧- وَرَقَتْ عَلَى أَعْلَى الصَّـفَا فَتيَمَّمَـتْ ... دَارًا هُنَالِـكَ لِلْمُحِـبِّ[1] الْعَـانِي

٢٨- أَتَـرَى الـدَّلِيلَ أَعَارَهَـا أَثْوَابَـهُ ... وَالرِّيحَ أَعْطَتْهَا مِنَ الْـخَفَقَانِ؟!

٢٩- وَاللهِ لَـوْ أَنَّ الـدَّلِيلَ مَكَانَهَـا ... مَـا كَـانَ ذَلِـكَ مِنْـهُ فِي إِمْكَـانِ

٣٠- هَذَا وَلَوْ سَـارَتْ مَسِيرَ الـرِّيحِ مَـا ... وَصَـلَتْ بِـهِ لَـيْلًا إِلَى نُعْـمَانِ

٣١- سَـارَتْ وَكَـانَ دَلِيلَـهَا فِي سَـيْرِهَا ... سَـعْدُ السُّـعُودِ، وَلَـيْسَ بِالـدَّبْرَانِ

٣٢- وَرَدَتْ جِفَارَ الـدَّمْعِ وَهْـيَ غَزِيـرَةٌ ... فَلِذَاكَ مَـا احْتَاجَـتْ وُرُودَ الضَّـانِ

٣٣- وَعَلَتْ عَلَى مَتْنِ الْـهَوَى وَتَـزَوَّدَتْ ... ذِكْرَ الْـحَبِيبِ وَوَصْـلَهُ الْـمُتَدَانِي

٣٤- وَعَـدَتْ بِزَوْرَتِهَـا فَأَوْفَـتْ بِالَّـذِي ... وَعَـدَتْ وَكَـانَ بِمُلْتَقَـى الْأَجْفَـانِ

٣٥- لَـمْ يَفْجَـأِ الْـمُشْتَاقَ إِلَّا وَهْـيَ دَا ... خِلَـةُ السُّـتُورِ بِغَـيْرِ مَـا اسْـتِئْذَانِ

٣٦- قَالَتْ وَقَدْ كَشَفَتْ نِقَابَ الْحُسْنِ مَا ... بِالصَّـبْرِ لِي عَـنْ أَنْ أَرَاكَ يَـدَانِ

٣٧- وَتَحَـدَّثَتْ عِنْـدِي حَـدِيثًا خِلْتُـهُ ... صِـدْقًا وَقَـدْ كَـذَبَتْ بِـهِ الْعَيْنَـانِ

٣٨- فَعَجِبْتُ مِنْهُ وَقُلْتُ مِنْ فَرَحِـي بِـهِ ... طَمَعًـا وَلَكِـنَّ الْـمَنَامَ دَهَـانِي

٣٩- إِنْ كُنْـتِ كَاذِبَـةَ الَّـذِي حَـدَّثْتِنِي ... فَعَلَيْـكِ إِثْـمُ الْكَـاذِبِ الْفَتَّـانِ

٤٠- جَهْـمِ بْـنِ صَـفْوَانٍ وَشِـيعَتِهِ الْأُلَى ... جَحَدُوا صِـفَاتِ الْـخَالِقِ الـدَّيَّانِ

(١) في عدد من النسخ المخطوطة: «للمحِثّ»، وهما سائغان.

٤١- بَلْ عَطَّلُوا مِنْهُ السَّمَوَاتِ الْعُلَى ... وَالْعَرْشَ أَخْلَوْهُ مِنَ الرَّحْمَنِ

٤٢- ونَفَوْا كَلَامَ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ ... وَقَضَوْا لَهُ بِالْخَلْقِ وَالْحِدْثَانِ

٤٣- قَالُوا وَلَيْسَ لِرَبِّنَا سَمْعٌ وَلَا ... بَصَرٌ وَلَا وَجْهٌ فَكَيْفَ يَدَانِ؟!

٤٤- وَكَذَاكَ لَيْسَ لِرَبِّنَا مِنْ قُدْرَةٍ ... وَإِرَادَةٍ أَوْ رَحْمَةٍ وَحَنَانِ

٤٥- كَلَّا وَلَا وَصْفٌ يَقُومُ بِهِ سِوَى ... ذَاتٍ مُجَرَّدَةٍ بِغَيْرِ مَعَانِ

٤٦- وَحَيَاتُهُ هِيَ نَفْسُهُ، وكَلَامُهُ ... هُوَ غَيْرُهُ، فاعْجَبْ لِذَا الْبُهْتَانِ

٤٧- وَكَذَاكَ قَالُوا مَا لَهُ مِنْ خَلْقِهِ ... أَحَدٌ يَكُونُ خَلِيلَهُ النَّفْسَانِي

٤٨- وَخَلِيلُهُ الْمُحْتَاجُ عِنْدَهُمُ وَفِي ... ذَا الْوصْفِ يَدْخُلُ عَابِدُ الْأَوْثَانِ

٤٩- فَالْكُلُّ مُفْتَقِرٌ إِلَيْهِ لِذَاتِهِ ... فِي أَسْرِ قَبْضَتِهِ ذَلِيلٌ عَانِ

٥٠- وَلِأَجْلِ ذَا ضَحَّى بِجَعْدٍ خَالِدُ الْـ ... ـقَسْرِيُّ يَوْمَ ذَبَائِحِ الْقُرْبَانِ

٥١- إِذْ قَالَ: إِبْرَاهِيمُ لَيْسَ خَلِيلَهُ ... كَلَّا وَلَا مُوسَى الْكَلِيمَ الدَّانِي

٥٢- شَكَرَ الضَّحِيَّةَ كُلُّ صَاحِبِ سُنَّةٍ ... لله دَرُّكَ مِنْ أَخِي قُرْبَانِ

الشرحُ

٢٠- لله زَائِرَةٌ بِلَيْلٍ لَمْ تَخَفْ ... عَسَسَ الْأَمِيرِ وَمَرْصَدَ السَّجَّانِ

٢١- قَطَعَتْ بِلَادَ الشَّامِ ثُمَّ تَيَمَّمَتْ ... مِنْ أَرْضِ طَيْبَةَ مَطْلَعِ الْإِيمَانِ

٢٢- وأَتَتْ عَلَى وَادِي الْعَقِيقِ فَجَاوَزَتْ ... مِيقَاتَهُ حِلًّا بِلَا نُكْرَانِ

٢٣- وَأَتَتْ عَلَى وَادِي الْأَرَاكِ وَلَمْ يَكُنْ قَصْدًا لَهَا فَأَلَّا بِأَنْ سَتَرَانِي
٢٤- وَأَتَتْ عَلَى عَرَفَاتِ ثُمَّ مُحَسِّرٍ وَمِنًى فَكَمْ نَحَرَتْهُ مِنْ قُرْبَانِ؟!
٢٥- وأَتَتْ عَلَى الْجَمَرَاتِ ثُمَّ تَيَمَّمَتْ ذاتَ السُّتُورِ وَرَبَّةَ الْأَرْكَانِ
٢٦- هذَا وَمَا طَافَتْ وَلَا اسْتَلَمَتْ وَلَا رَمَتِ الْجِمَارَ وَلَا سَعَتْ لِقِرَانِ
٢٧- وَرَقَتْ عَلَى أَعْلَى الصَّفَا فَتَيَمَّمَتْ دَارًا هُنَالِكَ لِلْمُحِبِّ الْعَانِي
٢٨- أَتَرَى الدَّلِيلَ أَعَارَهَا أَثْوَابَهُ وَالرِّيحَ أَعْطَتْهَا مِنَ الْخَفَقَانِ؟!
٢٩- وَاللهِ لَوْ أَنَّ الدَّلِيلَ مَكَانَهَا مَا كَانَ ذَلِكَ مِنْهُ فِي إِمْكَانِ
٣٠- هَذا وَلوْ سَارَتْ مَسِيرَ الرِّيحِ مَا وَصَلَتْ بِهِ لَيْلًا إِلَى نُعْمَانِ
٣١- سَارَتْ وَكَانَ دَلِيلَهَا فِي سَيْرِهَا سَعْدُ السُّعُودِ، وَلَيْسَ بِالدَّبْرَانِ
٣٢- وَرَدَتْ جِفَارَ الدَّمْعِ وَهْيَ غَزِيرَةٌ فَلِذَاكَ مَا احْتَاجَتْ وُرُودَ الضَّانِ
٣٣- وَعَلَتْ عَلَى مَتْنِ الْهَوَى وَتَزَوَّدَتْ ذِكْرَ الْحَبِيبِ وَوَصْلَهُ الْمُتَدَانِي
٣٤- وَعَدَتْ بِزَوْرَتِهَا فَأَوْفَتْ بِالَّذِي وَعَدَتْ وَكَانَ بِمُلْتَقَى الْأَجْفَانِ
٣٥- لَمْ يَفْجَأِ الْمُشْتَاقَ إِلَّا وَهْيَ دَا خِلَةُ السُّتُورِ بِغَيْرِ مَا اسْتِئْذَانِ
٣٦- قَالَتْ وَقَدْ كَشَفَتْ نِقَابَ الْحُسْنِ مَا بِالصَّبْرِ لِي عَنْ أَنْ أَرَاكَ يَدَانِ

لما ذكر -رحمه الله- المحبوبةَ، وكيف طوَت هذه الفَيافِي[1] مِن الشام إلى المدينة، إلى مواضعِ النُّسُك: عرفاتٍ والمُحَسِّر ومِنًى، وعَمِلت كُلَّ الأشياء وَسَعَتْ،

(١) هي البَرارِي الواسِعة، جَمْعُ فَيْفَاء. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: فيف.

ومع ذلك ما طابت نفسُها حتى وَصَلَت إلى حبيبها، وهو يراها كأنه في المنام بين النوم واليقظة، ويحدِّثها، يقول:

٣٧- وَتَحَــدَّثَتْ عِنْــدِي حَــدِيثًا خِلْتُــهُ صِــدْقًا وَقَــدْ كَــذَبَتْ بِــهِ الْعَيْنَــانِ

٣٨- فَعَجِبْتُ مِنْهُ وَقُلْتُ مِنْ فَرَحِي بِـه طَمَعًــا وَلَكِــنَّ الْــمَنَامَ دَهَــانِي

كما أنَّ هؤلاء المُعطِّلة يتحدثون للناس حديثًا يظنه الغبيُّ صِدقًا، ولكنه كَذِبٌ، ولهذا قال لها:

٣٩- إنْ كُنْــتِ كَاذِبَــةَ الَّــذِي حَــدَّثْتِنِي فَعَلَيْــكِ إِثْــمُ الْكَــاذِبِ الْفَتَّــانِ

٤٠- جَهْمِ بْنِ صَـفْوَانٍ[1] وشِـيعَتِهِ الْأُلَى جَحَدُوا صِـفَاتِ الْــخَالِقِ الـدَّيَّانِ

قَوْلُهُ: «الكَاذِبِ الفَتَّانِ»: هو جَهْمُ بن صَفوان، وأيهما أعظم: كَذِبُها، أو كَذِبُ الجَهْم بنِ صفوان؟ الجواب: طبعًا، كذِبُ الجهمِ بن صفوان، فالجهمُ قد جمَع بين هاتين الرَّذِيلَتين: الكَذِب والفتنة، فقد كذب على اللهَ عزَّ وجلَّ وكَذَّب اللهَ أيضًا، لأنه قال: إنَّ الله تعالى ليس له صفات، وفتَن العَالَمَ بما عنده مِن الشبهات.

لكن انظر إلى حُسْن تَخَلُّص المؤلف -رحمه الله- وانتقالِه مِن هذه القِصة العجيبة التي تجعل الإنسانَ يَسِيرُ بِقَلْبِه مِن الشام إلى المدينة إلى مكة إلى المَشاعِر، ثُمَّ في النهاية ننتقل هذا الانتقالَ الذي هو في الحقيقة مَطلبٌ عظيم، لكن لا نشعر به، فننتقل مِن أمورٍ مُصَوَّرة أنها حِسِّيَّة إلى أُمورٍ مَعْنَوِيَّة بهذه السُّهولة، وهذا فضل الله

(١) **جهم بن صفوان هو**: أبو مُحْرِز السَّمَرْقَندِي، رأس الجَهْمِيَّة مِن أكذَبِ الناس على الله تعالى وأَعْظَمِهم فتنةً وضلالةً في الدِّين، وكان مِن أعظم الناس نفيًا لصفات الله تعالى وأسمائه، قال الذهبي في الميزان: ما علمته روى شيئًا، لكنه زرع شرًّا عظيمًا، هلكَ زمن التابعين سنة (١٢٨هـ). [الشارح]. وانظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء (٦/ ٢٠٤).

يؤتيه مَن يشاء، والمؤلف -رحمه الله- معروف بأنه قويٌّ جِدًّا في أُسلوبه، حتى إنَّ أساليبه -رحمه الله- تَدخُل في الإنسان كما يَدخُل النومُ للرَّجُل السهران.

والجَهْم بن صفوان هذا لا بُدَّ أن نعرف أنه مِن تِرْمِذَ[1]، وأنه تلَّقى مقالة التَّعطيل عن الجَعْد بنِ دِرْهم[2]، والجَعْد بن دِرهم هو أول مَنْ قال بالتعطيل.

فالجعدُ تكلَّم في مسألتين فقط: إن الله لم يتخذ إبراهيم خليلًا، ولم يُكَلِّم موسى تكليمًا، ثم أخذها عنه الجهمُ بنَ صفوانَ، وصار يناظر بهما، ويدعو إلى هذا المذهب، وانتشر المذهبُ على يده، فلهذا نُسِب إليه، وصار يُسَمَّى مذهب الجهميّة، لا مذهب الجعديّة، لأنه هو الذي نَشَره، وهو مبنيٌّ على تعطيل صفات الله، فأول ما كان أنهم عَطَّلُوا صِفات الله، ثم غَلَوْا فَعَطَّلوا الأسماءَ والصفاتِ، ثم غَلَوْا وعَطَّلوا كُلَّ ما يدل على ثبوت، ثم غَلَوْا وعَطَّلُوا كُلَّ ما يدُلُّ على ثبوتٍ، أو انتفاء، وقالوا: لا يصح أن يُوصَف اللهُ بِنَفْيٍ، ولا إثباتٍ.

فقال: إن الله -سبحانه وتعالى- (لم يتخذ إبراهيم خليلًا)، و(لم يكلِّم موسى تكليمًا)، لأنَّ (الخليلَ) مأخوذ مِن الخُلَّة، والخُلَّةُ عندهم -أي عند المُعَطِّلة- مأخوذة من الخِلَّة -بالكسرة- بمعنى الحَاجَة، فاتخذ إبراهيم خليلًا، أي: محتاجًا إلى رَبِّه.

---

(١) مدينة مشهورة مِن أُمَّهات المُدن، والمشهور مِن أهل هذه البلدة أبو عيسى محمد بن عيسى بن سَوْرَة الترمذي الضرير، صاحب الصحيح، أحد الأئمة الذين يُقتدَى بهم في علم الحديث. انظر: معجم البلدان (٢/ ٢٦).

(٢) الجعد هو: الجعد بن درهم من الموالي، مبتدع، له أخبار في الزندقة، سكن الجزيرة -يعني العراق- وأخذ عنه مروان بن محمد، أو تَأَدَّب عليه في صغره، قُتِلَ (سنة ١١٨). [الشارح]. انظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء (٦/ ١٥١)، تاريخ الإسلام (٤/ ٢٣٨)، ميزان الاعتدال (١/ ترجمة ١٤٨٢)، لسان الميزان (٢/ ترجمة ٤٢٧)، النجوم الزاهرة لابن تغري بردي (١/ ٣٢٢).

قال: (ولم يكلِّم موسى تكليمًا)، لأنَّ الكلام -عندهم- مخلوقٌ، فلم يَصْدُر مِن الله تعالى كلامٌ، هذا أولُ ما نَشَأ التَّعْطِيلُ.

ومعلوم أنَّ هذين الأَصْلَيْن: انتفاءُ المحبة، وانتفاءُ الكلامِ يَسْقُطُ بهما كلُّ الدِّينِ، لأنَّ العَابِدِين لله تعالى إنما يَعْبُدونه مَحَبَّةً، ويعبدونه بكلامه الذي هو شَرْعُه، فإذا بَطَلَ هذا وهذا، فلن يبقى شيء، فَمِن أَجْلِ هذه المصيبة العظيمة حَصَلَ ما حَصَلَ.

قَوْلُهُ: «الأُلَى» بمعنى: الذين.

قَوْلُهُ: «جَحَدُوا صِفَاتِ الخَالِقِ الدَّيَّانِ» أي: أنكَرُوها.

واعلم أنَّ جَحْدَ الصفاتِ نوعان: تكذيبٌ، وتأويل.

أما التكذيب: فهذا كُفر لا إشكال فيه، ولا يجوز أن يتوقَّفَ فيه أحد، مِثل أن يقول: إنَّ الله لم يَسْتَوِ على العَرْش، ولم يُؤِّول، أو: إنَّ الله تعالى لم يَخْلُق الخَلْق، ولم يؤوِّل، وهذا لا شك أنه كفر.

وأمَّا جحد التأويل: فيُنْظَر، إذا كان للتأويل مَساغٌ في اللغة العربية، فإنه لا يَكْفُر، لكن يكون فاسقًا، وإذا لم يكن له مَسَاغٌ، فهو كالجاحد جَحْدَ تكذيبٍ.

فمثلًا هذا رجل قال: والله لا أشتري خُبزًا، وذهب واشترى خُبزًا، فقلنا: عليك كفارة يمين، قال: لا، أنا ما قصدت خُبزًا، بل قَصَدْتُ بَعيرًا، فهذا لا يُقبل أبدًا، لأنَّ هذا لا يمكن في اللغة العربية، أمَّا إذا كان يمكن فنَعَم.

كما قال الحَرِيري في مَقَامَاته[1]:

وَطالَمَا مَرَّ بِي كَلْبٌ وفِي فَمِهِ ... ثَوْرٌ ولكنَّه ثَوْرٌ بِلَا ذَنَبِ

(١) انظر: مقامات الحريري (ص:٤٧٦).

هل يمكن أن يكون ثورٌ بِفَمِ الكلب؟ الجواب: لا، ولكن له تأويل، لأنَّ الثور يطلق في اللغة العربية على قُرْصٍ مِن اللَّبَن الجَافِّ، وهذا ممكن، أما شيءٌ لا يمكن، فلا نَقْبَل التأويل فيه، فيكون كَجَحْدِ التكذيبِ.

ومثله أيضًا مَن قال في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر:٢٢] قال: إنَّ الله لا يجيء، فهذا جَحْد تكذيبٍ، فيكون كُفرًا، وإذا قال: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ يعني: جاء أمر ربك، فهذا إنكارُ تأويلٍ.

فهم جَحَدُوا صِفَاتِ الخالِقِ الدَّيَّانِ، وقالوا: إنَّ الله ليس له صفة.

سبحان الله! فالله سَمَّى نفسَه بأنَّه سميعٌ، بصيرٌ، عليمٌ، قالوا: أبدًا، ما له صِفَة.

فقاعدتهم: (**كل وَصْفٍ يَتَّصِفُ به الإنسان، فاللهُ لا يَتَّصِفُ به**) لماذا؟

قالوا: لأنه إذا اتَّصف بِوَصْفٍ يَتَّصِفُ به المخلوق فهذا تشبيهٌ، والله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١].

فإذا قيل لهم: ما تقولون في الصفات الموجودة؟ قالوا: هذه الصفات تعبير عن الذات، فَصِفَاتُه هي ذاته، ليست معنًى آخرَ سِوى الذاتِ، فعطّلوا صفات الله عزَّ وجلَّ بهذه الحجة الباطلة.

يقول -رحمه الله-:

٤١- بَلْ عَطَّلُوا مِنْهُ السَّمَوَاتِ الْعُلَى وَالْعَرْشَ أَخْلَوْهُ مِنَ الرَّحْمَنِ

هم ينكرون شيئين: العُلُوَّ والاستِوَاء.

أنكروا عُلُوَّ الله عزَّ وجلَّ وقالوا: لا يمكن أن يَعْلُوَ، لأننا لو أثبتنا عُلُوَّه لَزِمَ مِن ذلك أن يكون جِسْمًا، والأجسام عندهم مُتَمَاثلة.

وأنكروا أيضًا استواءه على العرش، قالوا: ما استوى على العرش، لأنه لو استوى على العرش لكان محدودًا على محدود، لأنَّ العرش محدود له قوائم، فإذا قلت: (استوى عليه) لزم أن يكون محدودًا على محدود، وهذا يقتضي تمثيل الخالق بما له حَدٌّ، هذه شُبَهُهُم.

لكن يقول في الرَّدِّ عليهم: إنَّ الله أثبت أنه استوى على العَرْش، ولُزُوم ألَّا يكون مُسْتَوِيًا عليه إلا المَحْدُود، هذا إنما هو بالنسبة للمَخلوق، أما بالنسبة للخَالق، فقد قال الله -سبحانه وتعالى-: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

٤٢- ونَفَوْا كَلَامَ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ وَقَضَوْا لَهُ بِالْخَلْقِ وَالْحِدْثَانِ

قالوا: الله لا يتكلّم، وإنما يَخْلُق كلامَه فيُسْمَع، وقالوا: إن الله تعالى كلَّم موسى، أي: خَلَقَ أصواتًا سَمِعَها موسى نُسِبَتْ إلى الله عزَّ وجلَّ.

ونِسْبَتُها إلى الله عزَّ وجلَّ مِن باب التشريف والتكريم، كَنَاقَةِ الله، وبَيْتِ الله، وما أَشْبَهَ ذلك.

ولولا أنَّ هذا قِيلَ ما صدَّقنا، إذ كيف يكون كلامُ الرَّبِّ عزَّ وجلَّ مَخْلُوقًا وهو صِفَةٌ مِن صِفَاتِه؟!

أنت الآن عندما تتكلَّم، هل هو كَمِثْل ما لو عَجَنْتَ عَجِينَةً؟ الجواب: لا.

فالكلام صفة المتكلِّم، هم قالوا: إنه مخلوق، لأننا لو أثبتنا أنه يتكلَّم لَزِمَ قِيامُ الحوادث به، لأنَّ الكلام -كما نعلم- حادث، فقولنا: (**بسم الله الرحمن الرحيم**)، البَاءُ قَبْلَ السِّين، والسِّينُ قَبْلَ المِيم، فهُو حادث، ولا يَقُومُ الحَادِثُ إلَّا بِحَادِثٍ، إذن امْحُ كونَ الكلام مِن صِفات الله عزَّ وجلَّ.

انظر كيف زيَّن لهم الشيطان ذلك؟!

نردُّ عليهم بأنَّ الله تعالى أَثْبَت أنه يُكَلِّم، فقال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾ [النساء:١٦٤] وقد قرأها بعضهم (وكَلَّمَ اللهَ موسى) فجَعَلَ المتكلِّمَ موسى، ولكنهم بُهتوا حين قيل لهم اقرؤوا قول الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف:١٤٣] فلا يستطيعون، لكن مع ذلك أصرُّوا على باطلهم -والعياذ بالله- والله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور:٤٠] وقال: ﴿مَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ﴾ [الأعراف:١٨٦].

قَوْلُهُ: «وَقَضَوْا لَهُ بالـخَلْقِ والـحِدْثَانِ» يقول ابن القيم -رحمه الله-[1] في مواضعَ مِن كلامه: القول بأنَّ القرآن مخلوق يُبْطِلُ الشريعةَ كُلَّها، لأنه إذا كان مخلوقًا صار عبارةً عن أصواتٍ كأصوات الرَّعْد، ليس فيها أمرٌ، ولا نهيٌ، ولا خبرٌ، ولا استخبارٌ، أو صار حروفًا إِنْ كُتِب، وكأنها نُقُوش على باب، فكلمة (قُل) لا تَدُلُّ على أَمْرٍ، وكلمة (لا تفعل) لا تدل على نهي، إنما خَلَقَ الله هذه النُّقُوش.

وهذا كما قال ابن القيم إذا قلنا: كلام الله مخلوق، بَطَلَ الأمر والنهي، ولا شريعةَ، ولا خَبَرَ، ولا قَصص، وقالوا أيضًا:

٤٣- قَـالُوا وَلَـيْسَ لِرَبِّنَـا سَـمْعٌ وَلَا بَصَـرٌ وَلَا وَجْـهٌ فَكَيْـفَ يَـدَانِ؟!

يعني: ليس له سمعٌ، ولا بصرٌ، لكن كيف ذلك والله تعالى يقول: ﴿وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ [المجادلة:١] قال: هذا سَمِعَ بذاته، لا بمعنًى هو السمع، ولا بِوَصْفٍ هو السمع، فهو سَمِيعٌ بذاته، بَصِيرٌ بذاته، أي أنَّ السمعَ والبصرَ هو الذات.

(١) انظر -على سبيل المثال-: مختصر الصواعق المرسلة (ص:٣٥٧).

فهو يقول: لأنك لو أثبتَّ لله صفةً قديمةً لَزِمَ مِن ذلك تَعَدُّدُ القُدماء، فلو قلت: (لله سَمْعٌ قَديم) يعني: لم يكن حَادثًا، بَصَرٌ قديم، عِلْم قديم، قُدْرَة قديمة، لزم تَعَدُّدُ القُدَمَاء.

وهذا كلام في الحقيقة لا يُعْقَلُ أصلًا، فضلًا عن أن يكون حقًّا.

قَوْلُهُ: «فكيف يدان» يعني: فكيف يكون له يدان؟

وقَوْلُهُ: «فَكَيْفَ يدان» يعني: كيف الثنتان؟! والشيء إذا ثُنِّي معناه أنه مُقَدَّر، يعني: المفرد قد يكون المراد به الجِنس، فَيَعُمُّ أكثر، لكن **(يدان)** محدود، كيف يكون لله **(يدان)**؟!

فنحن نقول في الرَّدِّ عليهم: إنَّ الله أثبت لنَفْسِه سَمْعًا وَبَصْرًا ووجهًا ويَدَيْن، وَلَسْنَا أَعْلَمَ بالله مِن نَفْسِه، بل هو عزَّ وجلَّ أعلمُ بِنَفْسِه وبِغَيْرِه.

٤٤- وَكَـذَاكَ لَـيْسَ لِرَبِّنَـا مِـنْ قُـدْرةٍ وَإِرَادَةٍ أَوْ رحْمَـــةٍ وَحَنَـــانِ

أيضًا يقولون: إنَّ الله ليس له قُدْرَة، فإذا قيل لهم: الله على كلِّ شيء قدير؟

قالوا: (قدير بذاته)، ليس له وصف هو القُدْرَة، وليس له أيضًا إرادة، أو رحمة وحنان، والحنان أَلْطَفُ مِن الرحمة.

٤٥- كَـلَّا وَلَا وَصْـفٌ يَقُـومُ بِـه سِـوَى ذَاتٍ مُجَـــرَّدَةٍ بِغَـــيْرِ مَعَـــانِ

هذا مذهب الـجَهْمِيَّة الذين يقولون: لا يمكن أن تَصِف الله بأيِّ صِفَة، لا ثُبُوتِيَّة، ولا سَلْبِيَّة، وهؤلاء هم الغُلَاة، ووافقهم على ذلك المُعْتَزِلَة، إلَّا أنَّ المُعْتَزِلَة أثبتوا الحياة والعِلْم والقُدْرة، لأنه لا يمكن أن يقومَ الخَلْقُ إلَّا بذلك.

٤٦- وَحَيَاتُـهُ هِـيَ نَفْسُـهُ، وكَلَامُـهُ هُـوَ غَـيْرُهُ، فاعْجَبْ لِـذَا الْبُهْتَانِ

حياتُه نَفْسُه، وسَمْعُه نَفْسُه، وبَصَرُه نَفْسُه، أما كلامه فيقول المؤلف: (كَلَامُه هوَ غيرُه) لماذا؟ لأنَّه مخلوقٌ عندهم، والمخلوق غيرُ الخالق.

قَوْلُهُ: «فاعْجَبْ لِذَا البُهْتَانِ» أَمَرَ أن نعجب، ونحن نمتثل أمره، أَيُّ فَرْقٍ بَيْنَ الكلامِ، وبَيْنَ الحياةِ والعِلْمِ والقُدْرَة؟ يقولون: الكلام غير الله، لأنه مخلوق مُنْفَصِل، وأما الحياة والعِلْم والقُدْرَة، فهي نَفْسُ الله دون زيادة في المعنى.

٤٧- وَكَـذَاكَ قَـالُوا مَـا لَـهُ مِـنْ خَلْقِـهِ أَحَـدٌ يَكُـونُ خَلِيلَـهُ النَّفْسَـانِي

٤٨- وَخَلِيلُـهُ الْـمُحْتَاجُ عِنْـدَهُمْ وَفِي ذَا الْوَصْفِ يَـدْخُلُ عَابِـدُ الْأَوْثَـانِ

٤٩- فَالْكُـلُّ مُفْتَقِـرٌ إِلَيْـهِ لِذَاتِـهِ فِي أَسْرِ قَبْضَـتِهِ ذَلِيـلٌ عَـانِ

قالوا: إنَّ الله عزَّ وجلَّ لا خَلِيلَ له، فلا يُمكِنُ أن يَتَّخِذ خَليلًا، لأنهم نَفَوْا أَصْلَ المحبة، وقالوا: إنَّ الله لا يُحِبُّ، ولا يُحَبُّ، لماذا؟ قالوا: لأنَّ المَحَبَّة لا تكون إلَّا بين شيئين مِن جِنسٍ واحدٍ، ومَعْلومٌ الفَرْقُ بينَ الخَالِقِ والمَخْلُوق.

لكن هل كلامهم هذا معقول أو محسوس؟ الجواب: لا، فالمحبةُ تكون بين شيئين مِن جنسٍ واحدٍ، وتكون بين شيئين بينهما أعظمُ الفُرُوق.

الآن نحن نشاهد أننا نُحِبُّ بعضَ الأدواتِ دونَ بعضٍ، إنسانٌ مَثَلًا عنده قَلَمٌ سَهْلُ السَّيْر، ما يَتَقَطَّع، وقَلَمٌ آخَرُ بالعكس، والمحبةُ تكون للأَوَّلِ.

وهذا شخص عنده نَاقَةٌ -مثلًا- ذَلُولٌ حَبِيبَةٌ، ونَاقَةٌ صَعْبَةٌ، أَيُّهما أحبُّ إليه؟ الجواب: الذَّلُول.

وآخر عنده سَيَّارَة مِن أَفْخَم السَّيَّارات، وسَيَّارَة مِن أَرْدَأِ السَّيَّارَات، أَيُّهما أَحَبُّ إليه؟ الجواب: الأُولَى، وليس هناك تناسب.

فهم أنكروا -سبحان الله- المَحْسُوسَ فَضْلًا عن المعقول، إذا لم يكن له محبة، فلا خُلَّة، لأنَّ الخُلَّة أَعْلَى أنواع المحبة، ولهذا لا نَعْلَمُ أنها ثبتت إلا لاثنين فقط مِن المخلوقات، وهما: محمد وإبراهيم -صلَّى الله عليهما وسلَّم- ولا يجوز أن نقول في أحدٍ غيرهما: إنه خَلِيلُ الله، لأنَّ هذا وَصْفٌ خَاصٌّ.

هم يقولون: إنَّ معنى الخُلَّة: الفَقْر، فَخَلِيلُ الله، أي: مُفْتَقِرٌ إلى الله عزَّ وجلَّ. أَخَذُوهَا مِن الخِلَّة -بالكسرة- وقالوا: خليل الله يعني: مفتقرا.

إذا كان هكذا، يقول ابن القيم -رحمه الله-: «**وَخَليلُهُ المُحتَاجُ عِنْدَهُمْ**» يعني معنى الخليل: المحتاج.

«**وفِي ذَا الوصْفِ يَدْخُلُ عَابِدُ الأَوْثَانِ**» أي: يكون المشركون أَخِلَّاء لله عزَّ وجلَّ الفسَّاقُ أَخِلَّاءُ لله، لأنَّ الكُلَّ محتاجٌ لله عزَّ وجلَّ.

٥٠- وَلِأَجْلِ ذَا ضَحَّى بِجَعْدٍ خَالِدُ الْـ ... ـقَسْرِيُّ[1] يَوْمَ ذَبَائِحِ الْقُرْبَانِ

٥١- إِذْ قَالَ: إِبْرَاهِيمُ لَيْسَ خَلِيلَهُ ... كَلَّا وَلَا مُوسَى الْكَلِيمَ الدَّانِي

أصلُ التَّعطيل: إِنْكَارُ هاتين الصّفتين وهما: الخُلَّة والكلام.

بعد ذلك توسَّع التعطيل، وإنَّما صار الأصلُ نَفْيَ هاتين الصّفتين، لأنَّ بهما بُطْلَان الشَّرْع مِن أَصْلِه، إذ إِنَّ الكلامَ هُو أساسُ الشرائع، والمحبة أساسُ العِبادة،

(١) خالد القسري هو: خالد بن عبد الله القَسْرِيّ، من بَجِيلَة، أحد خطباء العرب، وأجوادهم، ولَّاه هشام بن عبد الملك العراقَيْن: (البصرة والكوفة)، ولد (سنة ٦٦هـ)، وتوفي (سنة ١٢٦هـ). [الشارح]. انظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء (٦/ ١٤٥).

فلا بدَّ مِن المحبة، والتَّعظيم للمعبود، وإلَّا فلا عِبادة.

ولذلك لما أنكر ذلك الجَعْدُ بنُ دِرْهَمٍ خَرَجَ خالدُ بنُ عبد الله القَسْرِيّ -رحمه الله- بالـجَعْد في عيد الأضحى، وكان مِن عَادَةِ الـخُلفاء أنهم يخرجون بالضَّحايا يذبحونها في مُصَلَّى العِيد، كَما فَعَل نَبِيُّنا ﷺ[١].

فخرج به مُوَثَّقًا، وخطب الناسَ، وقال: «أيها الناسُ ضَحُّوا تَقَبَّلَ اللهُ ضحاياكم، فإني مُضَحٍّ بالجَعدِ بن دِرْهَم». فهذا حُكْمٌ، وعَلَّله بقوله: إنه قال: «إنَّ الله لم يتخذ إبراهيم خليلًا، ولم يُكَلِّم موسى تكليمًا» ثم نَزَل فَذَبَحه، والناسُ يَنْظُرون[٢].

٥٢- شَكَرَ الضَّحِيَّةَ كُـلُّ صَـاحِبِ سُـنَّةٍ ... لله دَرُّكَ مِـــنْ أَخِـــي قُرْبَــانِ

يقول ابن القيم: إنَّه شكرَ الضحيةَ كُلُّ صاحبِ سُنَّةٍ، ونحن نَشْكُر هذه الضَّحية، ونرى أنَّه مصيبٌ، وأنه إذا كانت البَعِير كبيرةَ الجِسم تُجْزِئُ عن سَبعة، فهذا عن ملايين، لأنَّ الله -سبحانه وتعالى- هَتَك سِتْرَه، وبَيَّن أَمْرَه، ورجعَ عن رَأْيِه ما لا يُحصيهم إلَّا الله عزَّ وجلَّ وعليه فإننا نشكر كُلَّ حاكمٍ أَعْدَمَ مُبتَدِعًا كافرًا يُفسد الدِّينَ، كما فعل خالدُ القَسْرِيُّ -رحمه الله- بهذا المبتدع.

* * *

(١) كما في خطبة النبي ﷺ يوم العيد: «إِنَّ أَوَّلَ مَا نَبْدَأُ مِنْ يَوْمِنَا هَذَا أَنْ نُصَلِّيَ، ثُمَّ نَرْجِعَ، فَنَنْحَرَ فَمَنْ فَعَلَ فَقَدْ أَصَابَ سُنَّتَنَا». أخرجه البخاري: كتاب العيدين، باب سنة العيدين لأهل الإسلام، رقم (٩٠٨).

(٢) الحكاية أوردها الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٩/ ٣٨٢).

فصل

٥٣- وَالعَبْدُ عِنْدَهُمُ فَلَيْسَ بِفَاعِلٍ ... بَلْ فِعْلُهُ كَتَحَرُّكِ الرَّجَفَانِ

٥٤- وَهُبُوبِ رِيحٍ أَوْ تَحَرُّكِ نَائِمٍ ... وَتَحَرُّكِ الْأَشْجَارِ لِلْمَيَلَانِ

٥٥- وَاللهُ يُصْلِيهِ عَلَى مَا لَيْسَ مِنْ ... أَفْعَالِهِ حَرَّ الْحَمِيمِ الْآنِ

٥٦- لَكِنْ يُعَاقِبُهُ عَلَى أَفْعَالِهِ ... فِيهِ تَعَالَى اللهُ ذُو الْإِحْسَانِ

٥٧- وَالظُّلْمُ عِنْدَهُمُ الْمُحَالُ لِذَاتِهِ ... أَنَّى يُنَزَّهُ عَنْهُ ذُو السُّلْطَانِ؟

٥٨- وَيَكُونُ مَدْحًا ذَلِكَ التَّنْزِيهُ مَا ... هَذَا بِمَعْقُولٍ[١] لَدَى الْأَذْهَانِ

الشرحُ

هذه الأبيات السِّتَّة فيها بَيَانُ ضلالِ الجَهْمِيَّة، وهو أنَّ العَبْدَ عندهم مُجْبَرٌ على عَمَلِه، ليس بفاعلٍ، ولا يُنْسَبُ الفعلُ إليه، ولا يُمْدَحُ على حُسْنَى، ولا يُذَمُّ على سُوءٍ، لأَنَّه ليس له إرادة، وليس له اختيار، بل فِعلُه -كما ذُكِرَ- مِثْلُ تَحَرُّك الرَّجَفَان[٢]، وهُبوب الريح، أو تحرُّك النائم، أو تحرُّك الأشجار مِن الهواء، ومع ذلك يُصليه اللهُ تعالى النَّارَ على ما ليس بِفِعْلِه، وهذا عندهم ليس بِظُلْم، لأنهم يقولون: إنَّ الظُّلم مُحالٌ لِذَاته، يعني لا يُتَصَوَّرُ أنَّ اللهَ يَظْلِم، لا لأَنَّه مُنَزَّهٌ عن

(١) في مطبوعة الهراس، وبعض النسخ: «بمقبول».

(٢) الرَّجَفانُ: الاضْطِرابُ الشديد. انظر: لسان العرب، مادة: رجف.

الظُّلْم لِكَمَال عَدْلِه، ولكن لأنه لا يمكن أن يَقَعَ منه ظُلم، لأنه يتصرف في خَلْقِه، فهو لا يتصرف في شيء غير مخلوق له، لا يتصرف في مُلْكِ غيره، فهو إذا عاقبَ المحسنَ أَشَدَّ العِقاب، وأثابَ المسيءَ أفضلَ الثوابِ، فليس هذا ظلمًا، لماذا؟

لأنَّ الظُّلم مُحالٌ في حقِّ الله، ووجهُ استحالَتِه عندهم: أنَّ الله -سبحانه وتعالى- يتصرف في مُلْكِه، والمتصرف في مُلْكِه كما يشاء ليس بِظَالِمٍ.

فَعَلَى رأيهم هذا، لا يُثْنَى على الله عزَّ وجلَّ بأنه لا يَظْلِمُ، ولا يُثْنَى عليه بأنه ليس بظلَّام، لماذا؟

الجوابُ: لأنَّ وُقوعَ الظُّلم مِنه مُحال، فإذا كان مُحالًا فكيف يُقال: إِنَّه مُنَزَّه عن الظُّلْم، لأَنَّه لا ظُلمَ أصلًا، ولهذا قال المؤلف -رحمه الله-: (**أَنَّى يُنَزَّه عَنْهُ ذُو السُّلطَانِ؟!**) يعني: كيف يُنَزَّه عن الظلم؟! والظلم مُحال، إنه لو أراد أن يَظْلِم ما ظَلَمَ.

إِذَنْ هم يقولون:

أولًا: العبد ليس بِفَاعِلٍ، ولكنه مُجْبَرٌ على الفِعل، فتحرُّكُه الاختياري كتحرُّكِه الاضطراري، فحركته بِيَدِه -إشارةً إلى بعيدٍ، أو قريبٍ- كحَرَكَة يد المُرتَعِش الذي لا يملِك إيقافَها.

ثانيًا: لو عَذَّب رَبُّنا أفضلَ النَّاس وأطوعَهم له لم يكن ظالمًا، لأنَّ الظُّلم في حقِّ الله مُحَال، إذ إنَّ الظُّلمَ تَصَرُّف المتصرِّف في حقِّ غيرِه، وهذا لا يُتَصَوَّرُ في حقِّ الله، فليس بِظُلْم، لأنَّ أيَّ شيءٍ يقعُ مِن الله ليس بظُلْم.

وعلى رأيهم هل يكون اللهُ عزَّ وجلَّ مُنزَّهًا عن الظُّلم، ومُثْنًى عليه بذلك؟ الجواب: لا، لأنَّ هذا -أصلًا- شيءٌ مُحَال.

ونحن نقول: إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لا يَظْلِم لِكَمَال عَدْلِه، والظُّلْم مُمْكِنٌ في حَقِّه، وذلك بِأَن يُثِيبَ العاصيَ، ويُعاقبَ المُطيعَ، وهذا ظُلم.

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه:١١٢]، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧-٨].

لو أنَّه -وحَاشَاهُ مِن ذلك- عذَّبَ المُطِيعَ لكان هذا ظُلمًا، لأنه وَعَدَ المُطِيعَ بالثواب والحُسنى، فإذا أَخْلَف صَار هذا ظُلمًا!.

الخلاصة: أنَّ مَذْهَبَ الجَهْمِيَّة في أفعالِ العِبادِ أنهم مُجْبَرُون عليها، لا إرادة لهم، وأنَّ حَرَكَاتِهم الاختيارية بمنزلة تحرُّك الأشجار في الهواء.

فإذا قيل لهم: تَعْذِيبُهم على ذلك ظُلْمٌ، قالوا: لا، الظُّلم هو الشيء المستحيل، وهذا لا يستحيل، لأنَّ الظلم أَنْ يتصرف الإنسانُ في حقِّ غيره، أو مُلْكِ غيره، وهذا بالنسبة لله مستحيل، لأنَّ كلَّ شيء مِلْكُه، فإذن لا ظُلم، لأنه تصرف في مُلْكِه.

لكن بماذا نردُّ عليهم؟

نقول: هذا التفسير الذي ذكرتموه للظلم لا يُثْنَى به على أحدٍ، لأنَّ المُحَال لا يُمْدَحُ الإنسانُ عليه، لا إيجادًا، ولا عَدَمًا مع أنَّ الله عزَّ وجلَّ يقول: «**يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي**»[1]. وهذا يدل على إمكانه، لكنَّ اللهَ حَرَّمه على نَفْسِه، لِكَمَالِ عَدْلِه.

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٧٧).

والله عزَّ وجلَّ نَزَّهَ نَفْسَه عن الظلم مُتَمَدِّحًا بذلك، فلو كان مُحالًا لِذَاته لَصَار نفيُ الظُّلْمِ عن الله تَنْزِيهًا له عَمَّا لا يليق به، ولَصَار عَبثًا لا فائدة منه، وهذا الأمر ظاهر.

أما الرَّدُّ عليهم في قولهم: (إِنَّ الإنسانَ مُجْبَر) فليس هذا مَوْضِعَه، إنما الكلام أن نفهمَ مذهَبهم، وكُلُّ إنسانٍ يَعْرِف أنَّ فِعْلَه باختياره، لكن هناك أشياء ليست باختيار الإنسان، كالموت والمرض، لكنَّ الأفعال الاختيارية التي يفعلها باختياره، كعملٍ صالحٍ، أو عملٍ سَيِّءٍ، كقولٍ، أو فِعلٍ، هذا باختياره.

ولهذا لو أمسكنا واحدًا مِن هؤلاء وضربناه ضربًا مُبَرِّحًا شديدًا، وقال: لماذا تضربونني؟ أنتم أخطأتم عَلَيَّ؟ نقول له: هذا بِغَيْرِ اختيارٍ مِنَّا، هذا أمرٌ مُقَدَّر، والمُقدَّر ما لنا عنه، أيرضى بهذا، أو ما يرضى؟ الجواب: ما يرضى.

وعمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أميرُ المؤمنين، لمِا جيء إليه بِسَارِقٍ، فأمَرَ بِقَطعِ يده -كما ذُكِرَ عنه- فَقَالَ لَهُ: مَا حَمَلَكَ عَلَى هَذَا؟ قَالَ: الْقَدَرُ قَالَ: فَضَرَبَهُ أَرْبَعِينَ سَوْطًا، وَقَالَ: «قَطَعْتُ يَدَكَ لِسَرِقَتِكَ، وَضَرَبْتُكَ لِفِرْيَتِكَ عَلَى الله»[1].

فالمهمُّ أنَّ هذا القولَ لا يمكن أن يستقيم عليه أحدٌ عاقلٌ إطلاقًا، ولو أننا قُلنا به لَفَسدت السموات والأرض، وكان كُلُّ إنسان يَزني ويَسرق ويَقتل، ويَشرب الخمر، ثم لا يُلام عليه، ولا يُقال له شيء، لأنه بغير اختياره، وبغير إرادته.

* * *

(١) أخرجه الرامَهُرمُزِي في المحدث الفاصل (ص:٣١٧)، والخطيب في الجامع لأخلاق الراوي (٢/ ١٦٩).

فصل

٥٩- وَكَذَاكَ قَالُوا: مَا لَهُ مِنْ حِكْمَةٍ ... هِيَ غَايَةٌ لِلْأَمْرِ وَالْإِتْقَانِ

٦٠- مَا ثَمَّ غَيْرُ مَشِيئَةٍ قَدْ رَجَّحَتْ ... مِثْلًا عَلَى مِثْلٍ بِلَا رُجْحَانِ

٦١- هَذَا وَمَا تِلْكَ الْمَشِيئَةُ وَصْفَهُ ... بَلْ ذَاتُهُ أَوْ فِعْلُهُ قَوْلَانِ

٦٢- وَكَلَامُهُ مُذْ كَانَ غَيْرًا كَانَ مَخْـ ... ـلُوقًا لَهُ مِنْ جُمْلَةِ الْأَكْوَانِ

الشرحُ

هذه الأبيات الأربعة فيها مِن ضلال هؤلاء الجَهْمِيَّة، حيث قالوا: إنَّ الله -سبحانه وتعالى- ليست له حكمة، قالوا: لأنَّ الحِكمةَ غَرَضٌ باعثٌ على الفِعل، والله عزَّ وجلَّ ليس له غَرَضٌ، فهو مُنَزَّهٌ عن الغَرَض، ولهذا مِن ألفاظهم السائدة الباطلة قولهم: «**إنَّ الله مُنَزَّهٌ عن الأَبْعَاضِ والأَعْرَاضِ والأَغْرَاضِ**» ومُرادهم بالأبعاض: الوجه واليد والعين، وما أشبه ذلك.

وبالأعراض أي: الصِّفات، فيقولون: هو مُنَزَّهٌ عن الصِّفَاتِ، لأنَّ الصفاتِ أعراضٌ لا تقوم إلَّا بأجسام.

والأغراض يعني: الحِكْمة، فالله يَفْعَل الشيء لمجرد المشيئة فقط.

فالجَهْمِيَّة يقولون: إنَّ اللهَ يفعلُ الأشياءَ كُلَّها، يَخْلُقُ نارًا وجَنَّةً، ويُعَذِّب هذا ويُكْرِمُ هذا، وما أشبه ذلك، بدون حِكمة، بل مُجَرَّد مَشيئة، شاء أن يَفْعَلَ فَفَعَلَ، لماذا؟ قالوا: هكذا شاء.

مع أنَّ القرآن والسُّنَّة مملوءان مِن إثباتِ حِكمةِ الله عزَّ وجلَّ سواءً في أفعاله، أم في تشريعاته، هذا بالإضافة إلى اسمه الحكيم، وبالإضافة إلى وَصْفِه بالحِكمة، كما قال الله تعالى: ﴿حِكْمَةٌ بَٰلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ [القمر:٥] وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ [الأنبياء:١٦] وقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [ص:٢٧] وقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الحجر:٨٥] فنفَى اللهُ عنه الباطلَ، وأثبتَ الحقَّ.

ولـمَّا ذَكَرَ المواريثَ قال تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟﴾ [النساء:١٧٦] فالحِكمة هنا (حتى لا نضل)، وكذلك في الأمور القَدَرِيّة يبيِّنُ الله عزَّ وجلَّ أنَّه فَعَلَهَا لحِكْمةٍ عظيمةٍ، فقال تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [القصص:٧٣] فأحكامُه الكونية والقَدَرِيّة كُلُّها مُقْتَرِنةٌ بالحِكمة، قال تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ [الإنسان:٢٩]، وقال: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان:٣٠].

ولا شَكَّ أَنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ موصوفٌ بالحِكمة، وأنَّ أحكامَه الكونية والشرعية مقرونةٌ بالحِكمة أيضًا، ولا نعلمُ أفعالًا تنتفي عنها الحِكمة إِلَّا وهي أفعال سَفَهٍ، فالذي يأكل تمْرًا، ويأكل جَمْرًا، يشرب ماءً عَذْبًا، وماءً مُرًّا، كل شيء إذا سألته: لماذا فعلتَ ذلك؟ فيقول: هذا ما أُريده، فهذا لا شَكَّ أنه سَفِيهٌ.

فانظر لَـمَّا فَرُّوا مِن ثُبُوت الحِكمة لَزِمَهُم شَرٌّ مما فَرُّوا منه، وهو القول بالسَّفَه، وهذا لازم لهم.

وقالوا أيضًا: إنه يَفْعَلُ ويُرَجِّحُ شيئًا على شيء بدون سببٍ للترجيح، ولهذا قال: **(مَا ثَمَّ غيرُ مَشِيئةٍ قَدْ رَجَّحَتْ مِثْلًا عَلَى مِثْلٍ بِلَا رُجْحَانِ)**، يعني: رجَّح شيئًا على شيء.

قَوْلُهُ: «بِلَا رُجْحَانِ» أي: بلا سَبب لترجيحه، فالله عزَّ وجلَّ يفعل ما يشاء بِدُونِ حِكْمَة.

وسبحان الله! ما أعمَى قُلوبَهم! فما أكثرَ ما يَذْكُرُ الله عزَّ وجلَّ الحِكمةَ من أسمائه وأوصافه، ومع ذلك يقولون: إنَّ الله ليست له حِكمة، يُرَجِّحُ ما شاء على ما شاء مِن مشروعاته ومفعولاته بلا رجحان.

كذلك أيضًا قالوا: نفسُ المشيئةِ ليستْ وصفَه، فلا يُوصف اللهُ بأنَّ له مشيئة، بل المشيئة إمّا: الفعل المُشَاء، وإِمَّا أنَّ المشيئة لا تَعْدُو ذاتَه، فهي ذاتُ الله، أو فِعْلُه، على قولين.

وكُلُّ إنسانٍ يعلمُ أنَّ المشيئةَ ليست الذات، وليست الفِعل، بل المشيئة مع القُدرة هي التي يكون بها الفعل.

كذلك أيضًا قالوا: هل تقولون: إنَّ كلام الله هو اللهُ أو لا؟ نقول: كلامُ الله غيرُ الله.

يقولون: إذا قلتم: بأنَّه غيرُ الله لَزِمَ أن يكونَ مخلوقًا، لأنه ما ثَمَّ إلَّا خالقٌ، أو مخلوق، فإذا قلتم: كلامُ الله ليس هو الله، لَزِم أن يكونَ مخلوقًا، وكذلك المشيئة ليست وَصْفًا، ولكنها مخلوقة.

وقولهم هذا بناءً على تفسيرهم الثاني الذي يقول: إنَّ المشيئة هي الفعل، فتكون المشيئةُ هنا أُطْلِقَتْ على الفعل، كما أَطْلَقَ كلامَه المضاف إليه على ما خَلَقَه في الشجرة، أو في موسى، أو ما أشبه ذلك.

لكن لماذا يقولون ذلك؟ الجواب: لأنهم لا يرون أن الله يتَّصفُ بشيء مِن الصفات، فأصلُ الصفات عندهم ممتنعٌ، فإمَّا ذاتٌ، وإما مفعول.

ومن المعروف أنَّ المُعْتَزِلَة والجَهْمِيَّة أيضًا يُنكرون صفات الله عزَّ وجلَّ حتى الأسماء الدالة على المعاني يُنكرون معانيَها.

فيقولون: مثلًا: الكلامُ ليس وَصْفًا لله، لأنه ليس له وَصْفٌ، فهل هو الله، أو غير الله؟ الجواب: هو غير الله بلا شَكٍّ، إذن هو مخلوق.

ونحن نقول: هو غير الله، لكنه وَصْفُ الله، إذ إنَّ الكلَام وَصْفُ المتكلِّم، وإذا كان وَصْفًا لله فالصِّفَةُ لها حُكمُ الموصوف أي: تابعة له، ليست مخلوقة، وَإِنْ كانت الصِّفة غير الموصوف -في الواقع- لكنها ليست غيرًا منفصلًا، إذ إنها وَصْفُ المَوْصُوف.

* * *

٦٣- قَالُوا: وإقْرَارُ الْعِبَادِ بِأَنَّهُ ... خَلَّاقُهُمْ هُوَ مُنْتَهَى الْإِيمَانِ

٦٤- وَالنَّاسُ فِي الْإِيمَانِ شَيْءٌ وَاحِدٌ ... كَالْمُشْطِ عِنْدَ تَمَاثُلِ[1] الْأَسْنَانِ

٦٥- فَاسْأَلْ أَبَا جَهْلٍ وَشِيعَتَهُ وَمَنْ ... وَالَاهُمُ مِنْ عَابِدِي الْأَوْثَانِ

٦٦- وَسَلِ الْيَهُودَ وكُلَّ أَقْلَفَ مُشْرِكٍ ... عَبَدَ الْمَسِيحَ مُقَبِّلَ الصُّلْبَانِ

٦٧- وَاسْأَلْ ثَمُودَ وَعَادَ بَلْ سَلْ قَبْلَهُمْ ... أَعْدَاءَ نُوحٍ أُمَّةَ الطُّوفَانِ

٦٨- وَاسْأَلْ أَبَا الْجِنِّ اللَّعِينَ أَتَعْرِفُ الْـ ... ـخَلَّاقَ أَمْ أَصْبَحْتَ ذَا نُكْرَانِ؟

٦٩- وَاسْأَلْ شِرَارَ الْخَلْقِ أَعْنِي أُمَّةً ... لُوطِيَّةً هُمْ نَاكِحُوا الذُّكْرَانِ

٧٠- وَاسْأَلْ كَذَاكَ إِمَامَ كُلِّ مُعَطِّلٍ ... فِرْعَونَ مَعْ قَارُونَ مَعْ هَامَانِ

---

(١) في نسخة الظاهرية، وغيرها: «تمايل»، وما في الأصل أظهر.

٧١- هَلْ كَانَ فِيهِمْ مُنْكِرٌ لِلْخَالِقِ الرْ رَبِّ الْعَظِيمِ مُكَوِّنِ الْأَكْوَانِ

٧٢- فَلْيَبْشَرُوا مَا فِيهِمُ مِنْ كَافِرٍ هُمْ عِنْدَ جَهْمٍ كَامِلُو الْإِيمَانِ

الشرحُ

وهذا أيضًا مِن صُوَرِهم الفاسدة: أنَّ الإيمان هو الإقرار بالرَّبِّ فقط، فإذا أَقَرَّ الإنسان بِقَلْبِه أنَّ للكون ربًّا خالقًا، فهو مؤمنٌ كاملُ الإيمان، وهذا غُلُوٌّ فَاحِشٌ في الإرجاء.

فالأقوال عندهم ليست إيمانًا، فقول: (لا إله إلا الله) ليست مِن الإيمان، والأفعال ليست إيمانًا، فالصلاة ليست مِن الإيمان، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر ليس مِن الإيمان، وإماطة الأذى عن الطريق ليست مِن الإيمان، فالإيمان هو إقرارُ الإنسان بربوبية الله عزَّ وجلَّ فقط، بل غايةُ الإيمان الاعتراف بأنَّ الله هو الخالق، ثُمَّ مع ذلك يمنعون الزيادة والنقص فيه، ويقولون: الإيمان لا يَزيد، ولا يَنقُص، فيستوي أَفْسَقُ عِبَادِ الله بِأَتْقَى عِبَادِ الله في الإيمان، ولهذا يقول -رحمه الله-:

٦٣- قَالُوا: وإقْرَارُ الْعِبَادِ بِأَنَّهُ خَلَّاقُهُمْ هُوَ مُنْتَهَى الْإِيمَانِ

قَوْلُهُ: «مُنْتَهَى الْإِيمَانِ» أي: غايةُ الإيمان، وسبحان الله أن يكون هذا الإقرار هو الغاية، مع أنه لا يُنكِره أحد إلَّا مُكَابَرَةً.

٦٤- وَالنَّاسُ فِي الْإِيمَانِ شَيْءٌ وَاحِدٌ كَالْمُشْطِ عِنْدَ تَمَاثُلِ الْأَسْنَانِ

قَوْلُهُ: «وَالنَّاسُ فِي الْإِيمَانِ شَيْءٌ وَاحِدٌ»، فَأَتْقَى الناسِ، وَأَشْقَى الناس كُلُّهم شيء واحد في الإيمان، ولا يمكن أن نقول: هذا إيمانه أَعْلَى مِن إيمان هذا، أو أَزْيَدُ

أَوْ أَكْمَلُ، لأنَّ الإيمانَ عندهم واحدٌ، وهو الإقرار.

أما المِشْطُ فمعروف.

يقول ابن القيم -رحمه الله- على هذا الرأي الفاسد الباطل:

٦٥- فَاسْأَلْ أَبَا جَهْلٍ وَشِيعَتَهُ وَمَنْ ... وَالَاهُمُ مِنْ عَابِدِي الْأَوْثَانِ

اسألهم: هل هم يُقرّون بالرَّبِّ، أو لا يُقرّون؟

الجواب: يُقرِّون، وَكَمْ مِن آيةٍ في القرآن يُقِرُّون، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف:٨٧]، وقال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان:٢٥]، قال: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون:٨٦-٨٧] وهكذا يُقِرُّون بهذا، ويقولون عن أصنامهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ﴾ [الزمر:٣].

٦٦- وَسَلِ الْيَهُودَ وكُلَّ أَقْلَفَ مُشْرِكٍ ... عَبَدَ الْـمَسِيحَ مُقبِّلَ الصُّلْبَانِ

قَوْلُهُ: «وَسَلِ اليهُودَ» اليهود أيضًا اسألهم هل يُقرِّون بالله أو لا؟

الجواب: يُقرِّون.

وَقَوْلُهُ: «وَكُلَّ أَقْلَفَ مُشْرِكٍ عَبَدَ الْـمَسِيحَ مُقبِّلَ الصُّلْبَانِ» يعني بذلك النصارى، فالنصارى لا يَرَوْن الخِتَان، ويتساهلون جدًّا في النجاسات، ولا يُقيمون لها وَزْنًا، واليهود على العكس، اليهود يُغْلُون جِدًّا في النجاسات، حتى إنه عندهم إذا تَنَجّس الثوبُ فلا يَطْهُر، فلا بُدَّ مِن أن يَقرِضَ المحلّ الذي أصابته النجاسة، والنصارى بالعكس، يبول الإنسان على سراويله وثوبه، ولا يهمه، ولهذا قال: (وَكُلَّ أَقْلَفَ مُشْرِكٍ عَبَدَ الْـمَسِيحَ مُقبِّلَ الصُّلْبَانِ).

ومن ضلال النصارى أنَّ الصليب الذي يدَّعون أنَّ عيسى -عليه السلام- قُتِلَ، ثم صُلِبَ عليه مُقدَّسٌ عندهم، ومقتضى العقل أن يكونَ مُهَانًا، فلو كان عندهم عُقُول لكانوا إذا رَأَوُا الصليب كَسَرُوه، لأنَّ نَبِيَّهُم صُلِب عليه، لكن لِـجَهْلِهِم وضَلالهم وسَفَاهَة عُقُولهم يُقَدِّسُون الصليب.

٦٧- وَاسْأَلْ ثَمُودَ وَعَادَ بَلْ سَـلْ قَـبْلَهُمْ أَعْـــدَاءَ نُـــوحٍ أُمَّـــةَ الطُّوفَـــانِ

٦٨- وَاسْأَلْ أَبَا الْجِنِّ اللَّعِينَ أَتَعْـرِفُ الْــ ـــخَلَّاقَ أَمْ أَصْـبَحْتَ ذَا نُكْـرَانِ؟

كل هؤلاء لو سألتهم لَأَقَرُّوا بِرُبُوبِيَّة الله، حتى إبليس يسأل رَبَّه فيقول: ﴿رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ [ص:٧٩]، ويُقْسِمُ بعزَّةِ الله: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [ص:٨٢] فهو يُقِرُّ بالله، ويُقِرُّ بِعِزَّتِه، ويُقِرُّ بسلطانه، فَسُكُوتُه إقرار، لأنَّه في مقامٍ آخر كان يَرُدُّ على موسى، قال الله تعالى: ﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنۡ حَوۡلَهُۥٓ أَلَا تَسۡتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء:٢٣-٢٦] فهل هو مؤمنٌ عند الجَهْمِ؟ الجواب: نعم، مؤمنٌ كاملُ الإيمان مِثْلُ إيمان جبريلَ. نسأل الله العافية.

قَوْلُهُ: «وَاسْأَلْ أَبَا الْـجِنِّ اللَّعِينَ» الفَعِيل بمعنى مَفْعُول، يعني: المَلعُون، لأنَّ الله قال له: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ﴾ [ص:٧٨] أي: حقَّت عليه.

٦٩- وَاسْــأَلْ شِرَارَ الْـخَلْقِ أَعْنِـي أُمَّــةً لُوطِيَّـــةً هُـــمْ نـــاكِحُوا الـــذُّكْرَانِ

قَوْلُهُ: «شِرَارَ الـخَلْقِ» أي: مِن حَيْثُ هذه الفَعْلة الشَّنِيعَة القبيحة، فإنه ما سبقهم بها أَحَدٌ مِن العالَمِين، وهي نِكاح الذُّكْران، وتَرْك النِّسْوَان، ولهذا وَبَّخَهُم نَبِيُّهم -عليه الصلاة والسلام- فقال: ﴿أَتَأۡتُونَ ٱلذُّكۡرَانَ مِنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم﴾ [الشعراء:١٦٥-١٦٦].

وهم لا يفعلون هذا بمقتضى الشَّهْوة الطبيعية، ولهذا يقول لهم: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء:١٦٦]، وفي آية: ﴿مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف:٨١].

٧٠- وَاسْأَلْ كَذَاكَ إِمَامَ كُلِّ مُعَطِّلٍ فِرْعَونَ مَعْ قَارُونَ مَعْ هَامَانِ

قَوْلُهُ: «**فِرْعَونَ مَعْ قَارُونَ مع هامان**» هؤلاء: ثلاثة: أما قارونُ فهو مِن قوم مُوسى -عليه السلام- قال الله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾ [القصص:٧٦] أعطاه الله تعالى أموالًا عظيمة، مَفَاتِح هذه الأموال -يعني مفاتح الخزائن-، تَنُوءُ أي: تَثْقُل بالعُصْبَة أُولِي القُوَّة.

وأما هَامَانُ فهو وَزِيرُ فِرعونَ، وفِرعَونُ رأسُ الكَفَرَة.

اسألهم: هل يؤمنون بالله أو لا يؤمنون؟ الجواب: يؤمنون بالله ويُقِرُّون، لكن كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل:١٤] حتى إنَّ موسى يقول لِفِرْعَوْنَ: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء:١٠٢]، ولم يَقُلْ: (كذبتَ، ما عَلِمْتُ) بل سَكَتَ مُقِرًّا رَغْمًا عَنْ أَنْفِه.

٧١- هَلْ كَانَ فِيهِمْ مُنْكِرٌ لِلْخَالِقِ الرْ رَبِّ الْعَظِيمِ مُكَوِّنِ الْأَكْوَانِ

الجواب: لا، إذن بَنَى عليه قَوْلَه - رحمه الله -:

٧٢- فَلْيَبْشَرُوا مَا فِيهِمُ مِنْ كَافِرٍ هُمْ عِنْدَ جَهْمٍ كَامِلُو الْإِيمَانِ

هذا مذهب الجَهْمِيَّة في الإيمان، أنَّ الإيمان هو إقرار القَلْبِ بأنَّ اللهَ تعالى خَالِقُ الأكْوَانِ فقط.

وهل يَزيد، أو يَنقُص؟ الجواب: لا يَزيد، ولا يَنقُص، ولهذا عِنْدَهُم أَتْقَى الناسِ، وَأَشْقَى الناسِ على حَدٍّ سَواء في الإيمان.

وابن القيم -رحمه الله- لم يأتِ بالأدلة التي تَدلُّ على زيادة الإيمان ونقصانه، بل أتى لهم بِدَلِيلٍ واقعٍ، لا يمكنُ إنكارُه، وأنهم إِنْ قالوا: (هؤلاء مؤمنون كاملو الإيمان)، كَفَرُوا، وإن قالوا: (إنهم غير مؤمنين) خُصِموا.

■ فما هو الإيمان عند أَهْل السُّنَّة؟

الإيمانُ عند أهل السُّنَّة يشملُ أربعةَ أشياء: الإقرار بالقَلب، وقول اللسان، وعَمَل الجوارحِ، وعمل القَلب، وَوَرَدَ عن البعض: أنَّ الإيمان هو القَوْل والعَمَل فقط.

وهذا لا بأس به، ويُفصَّل فيُقال: إنَّ مُرَادَهم قولُ القَلبِ واللسانِ، وعَمَلُ القَلبِ واللسانِ والجَوَارِح، وهذا في (العقيدة الواسطية)[1] كذلك، حيث قال: «والدِّينُ قولٌ وعمَلٌ» ثم فَصَّل، ودَلِيلُهم -والحمد لله- مَعروفٌ.

أما دُخول إقرار القَلب بالإيمان فَلَهُ أَدِلَّة منها:

أنَّ النبيَّ -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- لَـمَّا سأله جبريل عن الإيمان فقال: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»[2].

وأما أقوالُ اللسانِ، وأفعالُ الجوارحِ، وأعمالُ القلوبِ، فَدَلَّ عليها قولُ النبيِّ ﷺ: «الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، أَعْلَاهَا قَوْلُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ». وهذا قولُ اللسانِ «وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ». وهذا فِعل الجَوَارِح «وَالْـحَيَاءُ شُعْبَةٌ

(١) انظر: العقيدة الواسطية (ص:١١٣).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ، رقم (٥٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الإيمان ما هو، رقم (٩).

مِنَ الإِيمَانِ»[1]. وهذه أعمال القلوب.

فقولُ القلبِ يعني: الإقرار، وعَمَلُه يعني: فِعْله، فَمَثَلًا: (التَّوَكُّل) هذا عَمَلٌ، لأنَّ القَلْبَ يَتَحرَّك، والرجاءُ والخوف، وما أَشْبَه ذلك، أما مُجَرَّد الإقرار الذي هو التصديق، فهذا عِندَهم قولُ القَلبِ، فهذا هو الفَرْقُ.

* * *

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب أمور الإيمان، رقم (٩)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها، رقم (٣٥).

فصل

٧٣- وَقَضَى بِأَنَّ اللهَ كَانَ مُعَطَّلًا ... والْفِعْلُ مُمْتَنِعٌ بِلَا إِمْكَانِ

٧٤- ثُمَّ اسْتَحَالَ وَصَارَ مَقْدُورًا لَهُ ... مِنْ غَيْرِ أَمْرٍ قَامَ بالدَّيَّانِ

٧٥- بَلْ حَالُهُ سُبْحَانَهُ فِي ذَاتِهِ ... قَبْلَ الْحُدُوثِ وَبَعْدَهُ سِيَّانِ

الشرحُ

٧٣- وَقَضَى بِأَنَّ اللهَ كَانَ مُعَطَّلًا ... والْفِعْلُ مُمْتَنِعٌ بِلَا إِمْكَانِ

الفاعل في قوله: «**وَقَضَى بِأَنَّ اللهَ كَانَ مُعطَّلًا**» هو جهمٌ وأتباعُه.

وهذا أيضًا مِن ضَلال جَهْمٍ، حيث يقول: إنَّ تَسَلْسُل الحوادثِ في الماضي مستحيل، كما أن تَسَلْسُلَها في المستقبل مستحيل، ويُعَلِّل ذلك بقوله: لو قلنا بجواز التَّسَلْسُل في الماضي والمستقبل لَزِمَ أن يكون هناك قديمان مُسْتَوِيَان: الرَّبُّ عزَّ وجلَّ والصِّفَة التي هي فِعْلُه.

وكذلك قال في الآخرة، لا يمكن أن تَتَسَلْسَل في الآخرة، لأنه يلزم أن تكون الحوادثُ مِثلَ الله تعالى بأنها الآخرة.

فكان الفعل -على زَعْمه- في حقِّ الله تعالى مستحيلًا، ثم صار ممكنًا، وهذا لا شَكَّ أنه نَقْصٌ في الخالق عزَّ وجلَّ أن يكون أولًا لا يستطيع أن يفعل -بل فِعْلُه مستحيل- ثم استحال هذا المستحيلُ وصار مُمْكِنًا، وكذلك يُقَال في تسلسل الحوادث في المستقبل.

فنقول: مهما كان، إذا قلنا: بتَسَلْسُل الحَوادث فَلَسْنَا نقول: بقِدَم حادثٍ بِعَيْنِه، ومعنى قولنا: (التَّسَلْسُل) أي: ما مِن مخلوقٍ إلَّا وقَبْلَهُ مخلوق إلى ما لا نهاية.

ونقول: إنَّ لله تعالى مخلوقات قَبْلَ السمواتِ والأرض، لكنها غيرُ معلومة لنا عقلًا، ولا منقولة إلينا سَمْعًا، لأننا نؤمن بأنَّ اللهَ لم يَزَل فَعَّالًا، ولا يزال فعَّالًا، ثم مَهْمَا قَدَّرت، فإنه لا يمكن أن يُساويَ المفعولُ الفاعلَ، فلا بُدَّ مِن ثلاثة أشياء: فاعل، وفِعْل، ومفعول.

وأَيُّهم الأَقْدَم؟ الجواب: الفَاعلُ، ثم كان منه الفِعْل، ثم كان مِن الفِعْل المفعول.

فَمَهْمَا قُلْنا بِتَسَلْسُل الحَوَادِث في الماضي، فلا يمكن أن تكون مُساوِيةً للخالق، فالفَاعِل لا بُدَّ أن يكونَ سابقًا على الفِعل الذي هو وَصْفُه، ثُمَّ على المفعول.

هو يقول: لا يمكن قِدَمُ الفِعْل، ولا قِدَمُ المفعول، لأننا لو قُلنا بهذا لَزِم تَسَاوِي الخالق مع المخلوق.

فنقول: هذا مِن جَهْلِك وسَفَهِك، فأيُّ إنسانٍ عاقلٍ تسألُه: أيُّها أسبقُ الفَاعِل، أو الفِعْل، أو المفعول؟ سيقول: الفَاعِل، ولا شَكَّ.

وعلى كلِّ تقدير، فاللهُ تعالى هو «الأَوَّلُ الّذِي لَيْسَ قَبْلَهُ شَيْءٌ»[1]. كما قال النَّبيُّ ﷺ، وهو يقول: لا يمكن.

وقولُهُ هذا يستلزم أن يكونَ اللهُ -أَوَّلًا- مُعَطَّلًا، لا يمكن أن يَفعل، ثُمَّ فَعل،

(١) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع، رقم (٢٧١٣).

فصار قادرًا، بمعنى أنه أتى زَمَنٌ على الرَّبِّ عزَّ وجلَّ وهو غيرُ قَادِر على الفِعل، ثم بعد ذلك صار قادرًا على الفِعْل بِدُون سَبَب.

فيُقال: أنت الآن وَصَفْت الله بالعَجْز أَوَّلًا، ثُمَّ وَصَفْتَه بالقُدْرة ثانيًا.

فما الذي جَعَلَه أولًا عاجزًا، ثُمَّ جَعَلَه ثانيًا قَادرًا؟!، بل نقول: هو قادرٌ على كلِّ شيء في كُل وَقْتٍ، وفي كلِّ حِينٍ.

الآن الزمان الذي نحن فيه، والذي لا نَعْلَمُ أَوَّلَه، أليس يتعاقب؟ فكُلُّ لحظةٍ تَعْقُبُ الأُخرى، فَتَتَسَلْسُلُ هذه الآنَاتِ والأوقاتِ إلى ما لا نِهَايةَ له في الأَزَل، كذلك فيما يُسْتَقْبَل.

وعلى ذلك نسألُ هذا فنقول له: هل الفِعْلُ في حَقِّ الله قَبْلَ الفِعْل كَمالٌ أو نَقْصٌ؟

فإن قال: إنه كَمالٌ، قلنا: إذن الفِعلُ نقصٌ، وإن قال: نقصٌ، قلنا: خُصِمْتَ، فإذن ليس عاجزًا عَن الفِعْل أبدًا في أيِّ لَحْظَة مِن اللَّحظات، لا الأَزَلِيَّةِ، وَلَا الأَبَدِيَّة.

وأمّا القول بأنَّ الله تعالى كان قادرًا فَلَم يَفْعَلْ -لمقتضى حِكْمَتِه- ثُمَّ فَعَل ربما نُجَوِّزه، كما قاله بعضُ أهلِ العِلم بأنَّ التَّسَلْسُل في الماضي مُمْتَنِع، ولكن الصحيح أن التَّسَلْسُل في الماضي والمستقبل جائز، وواجبٌ بإخبار الله، فهو جائزٌ عقلًا، لكنه واجبٌ شَرْعًا بِحَسَب ما أخبر الله به.

ثُمَّ مع ذلك يقول: القُدْرَة ليست وَصْفًا زائدًا عن ذاته، فهو قادرٌ بذاته لا بِقُدرةٍ، لأنه يمنع الصفات، وهذا الكلام لولا أنه ذُكِر ما كُنَّا نظنُّ أنَّ أحدًا يتصوّره، فَضْلًا عن أن يقول به، ويَعْتَقِده في ربِّه عزَّ وجلَّ.

٧٤- ثُمَّ اسْتَحَالَ وَصَارَ مَقْدُورًا لَهُ ... مِنْ غَيْرِ أَمْرٍ قَامَ بالدَّيَّانِ

أي: مِن غيرِ سَبَبٍ، فما الذي جَعَلَه مَثَلًا قَبْلَ نِصْفِ ساعةٍ مُستحيلًا، ثُمَّ جاء وصار مُمكِنًا؟! بل يقول:

٧٥- بَلْ حَالُهُ سُبْحَانَهُ فِي ذَاتِهِ ... قَبلَ الْحُدُوثِ وَبَعْدَهُ سِيَّانِ

لأنه لا يرى أَنَّ وَصْفًا يقوم بالله.

* * *

٧٦- وَقَضَى بِأَنَّ النَّارَ لَمْ تُخْلَقْ وَلَا ... جَنَّاتِ عَدْنٍ، بَلْ هُمَا عَدَمَانِ

٧٧- فَإِذَا هُمَا خُلِقَا لِيَوْمِ مَعَادِنَا ... فَهُمَا عَلَى الْأَوْقَاتِ فَانِيَتَانِ

٧٨- وَتلَطَّفَ الْعَلَّافُ[1] مِنْ أَتْبَاعِهِ ... فَأَتَى بِضِحْكَةِ جَاهِلٍ مُجَّانِ

٧٩- قَالَ: (الْفَنَاءُ يَكُونُ فِي الحَرَكَاتِ لَا ... فِي الذَّاتِ)، وَاعَجَبًا لِذَا الْهَذَيَانِ!

الشرحُ

يقول: إن الجَهْمَ كما مَنَع التَّسَلْسُلَ في الماضي مَنَعَهُ في الْمُسْتَقْبَل، وقد تَقَدَّم أَنَّ عَقِيدَتَنا أنه ما مِن مَخْلُوق إِلَّا وَقَبْلَهُ مَخْلُوقٌ، إلى ما لا نِهَايَة له، ولا نُحِيط بذلك عِلْمًا، ونقول: ما مِن مَخْلُوق إِلَّا وَبَعْدَهُ مَخْلُوقٌ، إلى ما لا نهايةَ له.

فَعَقِيدَتُنا القولُ بالتَّسَلْسُل مَاضِيًا ومُسْتَقْبَلًا، وهذا لا يمكن أن يكون فيه

(١) **العَلَّاف**: هو محمد بن الهُذَيْل بن عبد الله العَلَّاف العبدي، مولى عبد القيس، من أئمة الْمُعْتَزِلَة، وُلد (سنة ١٣٥هـ) بالبصرة، واشتُهِر بِعِلْم الكَلام، وتوفي (سنة ٢٣٥هـ)، إذن عُمِّرَ مئة سنة. [الشارح]. انظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء (٨/ ٥٢٩).

إشراك مع الله أبدًا، وهم يقولون: التَّسَلْسُل ممنوعٌ في الماضي، وفي المستقبل، فأفعالُ الله في الماضي ليست دائمةً، وأفعالُه في المستقبل ليست دائمةً.

ومِن زَلَّاتِه وسَقَطَاتِه أيضًا قوله: الجنة والنار غير موجودتين الآن، وهذا لا شَكَّ أنه تكذيبٌ للقرآن والسُّنَّة، إذ يَلْزَمُ على قوله هذا أنَّ كُلَّ ما أَخبر به الرسولُ ﷺ عن الجَنَّة وما رأى فيها، والنارِ وما رأى فيها أنَّ كُلَّه كَذِبٌ، أو تَخَيُّلاتٌ خُيِّلت للرسول -عليه الصلاة والسلام- وليست بحقيقة.

ويقول أيضًا: إنهما تَفْنَيَانِ فيما بَعْدُ، ولَيْسَتَا مُؤبَّدتَيْن.

٧٦- وَقَضَى بِأَنَّ النَّارَ لَمْ تُخْلَقْ وَلَا ... جَنَّاتِ عَدْنٍ، بَلْ هُمَا عَدَمَانِ

فهُما الآن عَدَمَان، لكن متى تُخْلَقَان عنده؟ الجواب: تُخْلَقَانِ يومَ القيامة.

٧٧- فَإِذَا هُمَا خُلِقَا لِيَوْمِ مَعَادِنَا ... فَهُمَا عَلَى الْأَوْقَاتِ فَانِيَتَانِ

يعني حتى إذا خُلِقَا يوم القيامة فَهُمَا يَفنيَانِ لا يَبْقَيَانِ، لماذا؟ لأنه يمنع التَّسَلْسُل في الماضي والمستقبل، إذ لا بُدَّ مِن نِهايةٍ في الأَوَّل، وفي الآخِر، فليس هناك استمرارٌ لِفَاعِلِيَّة الرَّبِّ، لا أولًا، ولا آخرًا، فاللهُ عزَّ وجلَّ كان مُعَطَّلًا، وسيكون في الآخِر مُعَطَّلًا.

٧٨- وَتلَطَّفَ الْعَلَّافُ مِنْ أَتْبَاعِهِ ... فَأَتَى بِضِحْكَةِ جَاهِلٍ مَجَّانِ

جاء رَجُلٌ يقال له (**العَلَّاف**) وتَلَطَّف، فأتى بشيء مُضْحِكٍ.

قَوْلُهُ: «**فَأَتَى بِضِحْكَةِ جَاهِلٍ مَجَّانِ**» أي: بِدُونِ عِوَضٍ.

٧٩- قَالَ: (الْفَنَاءُ يَكُونُ فِي الحَرَكَـاتِ لَا فِي الذَّاتِ)، وَاعَجَبًا لِذَا الْـهَذَيَانِ!

حيثُ جاء هذا العَلَّاف، وهو كَاسْمِهِ (**عَلَّاف**)، وقال: أنا لا أقولُ بِمَنْعِ التَّسَلْسُل، لكنَّ المَمْنُوع تَسَلْسُلُ الحَرَكَات، أما الأعيانُ فتَبْقَى، فالجَنَّةُ والنارُ تَبْقَيَانِ، وسَاكِنُوهُمَا يَبْقُونَ، لكنَّ حَرَكَاتِهم تَفْنَى.

قَوْلُهُ: «**وَاعجَبًا لِذَا الـهَذَيانِ!**» يعني: اعجب لـهَذَا الـهَذَيَان.

* * *

اسمع تفسير ابن القيم -رحمه الله- في قوله:

٨٠- أَيَصِيرُ أَهْـلُ الْـخُلْدِ فِي جَنَّـاتِهِمْ وَجَحِـيمِهِمْ كَحِجَـارَةِ الْبُنْيَـانِ؟!

٨١- مَا حَالُ مَنْ قَـدْ كَـانَ يَغْشَـى أَهْلَـهُ عِنْـدَ انْقِضَـاءِ تَحَـرُّكِ الْـحَيَوانِ

٨٢- وَكَذَاكَ مَا حَالُ الَّـذِي رَفَعَـتْ يَـدَا هُ أُكْلَـةً مِـنْ صَـحْفَةٍ وَخِـوَانِ

٨٣- فَتَنَاهَتِ الْـحَرَكَاتُ قَبْلَ وُصُولِـهَا لِلْفَـمِّ عِنْـدَ تَفَـتُّحِ الْأَسْـنَانِ

٨٤- وَكَذَاكَ مَا حَالُ الَّـذِي امْتَـدَّتْ يَـدٌ مِنْـهُ إِلَى قِنْـوٍ مِـنَ الْقِنْـوَانِ

٨٥- فَتَنَاهَتِ الحَرَكَاتُ قَبْلَ الْأَخْذِ هَـلْ يَبْقَـى كَـذَلِكَ سَـائِرَ الْأَزْمَـانِ

٨٦- تَبًّـا لِـهَاتِيكَ الْعُقُـولِ فَإِنَّهَـا وَالله قَـدْ مُسِـخَتْ عَـلَى الْأَبْـدَانِ

٨٧- تَبًّا لِـمَنْ أَضْحَى يُقَـدِّمُهَا عَـلَى الْـ آثَـارِ وَالْأَخْبَـارِ وَالْقُـرْآنِ

الشـرحُ

يقول على مَذْهَبِ العَلَّاف المُضْحِك:

٨٠- أَيَصِيرُ أَهْـلُ الْـخُلْدِ فِي جَنَّـاتِهِمْ وَجَحِـيمِهِمْ كَحِجَـارَةِ الْبُنْيَـانِ؟!

إذا قُلنا: إنَّ الحركاتِ تَفْنَى والذواتِ تَبْقَى، يَبْقَى أهلُ الجَنَّةِ كالأحجار، وأهلُ النار كالأحجار، لا يتحركون، ولا يأكلون، ولا يَشربون، ولا يَتكلّمون، لماذا؟ لأنَّ المُحال هو أَبَدِيَّةُ الحَرَكَات، أما الذواتُ فَلا يَمتنع.

٨١- مَا حَالُ مَنْ قَدْ كَانَ يَغْشَى أَهْلَهُ   عِنْدَ انْقِضَاءِ تَحَرُّكِ الْـحَيَوانِ

ما حال مَنْ كان على زوجته، أو على حُورِيَّةٍ مِن الحُورِ العِينِ؟ الجواب: فإنه يبقى عليها دائمًا وأَبَدًا متطابِقَيْن إلى ما لا نِهاية له، وذلك على مَذْهَبِه.

ويقول:

٨٢- وَكَذَاكَ مَا حَالُ الَّذِي رَفَعَتْ يَدَا   هُ أُكْلَةً مِنْ صَحْفَةٍ وَخِوَانِ

ما حال مَنْ أَخَذَ الأُكْلَة ورَفَعَها؟ تبقى يدُه هكذا دائمًا وأبدًا، والأُكْلَة بِيَدِه دائمًا، وذلك لانقطاع الحركات.

٨٣- فَتَنَاهَتِ الْـحَرَكَاتُ قَبْلَ وُصُولِهَا   لِلْفَمِّ عِنْدَ تَفَتُّحِ الْأَسْنَانِ

الفَمُ مَفْتُوحٌ الآنَ، يَرْتَقِبُ وُصولَ اللُّقْمَة، لكن الشكوى لله.

انقطعت الحركات، فَبَقِيَت اليَدُ مع مَأْكُولِها مَرْفُوعةً، والفمُ مفتوحًا إلى أَبَدِ الآبِدين، سبحان الله!

٨٤- وَكَذَاكَ مَا حَالُ الَّذِي امْتَدَّتْ يَدٌ   مِنْهُ إِلَى قِنْوٍ مِنَ الْقِنْوَانِ

٨٥- فَتَنَاهَتِ الحَرَكَاتُ قَبْلَ الْأَخْذِ هَلْ   يَبْقَى كَذَلِكَ سَائِرَ الْأَزْمَانِ

الجواب: نعم يبقى، وهو رافعٌ يَدَيْهِ يأخذ الثَّمَرَة، فانتهت الحَرَكات، فيبقى على هذا أبد الآبدين.

قَوْلُهُ: «إِلَى قِنْوٍ مِنَ الْقِنْوَانِ» أي: إلى الثَّمَر.

٨٦- تَبًّا لِهَاتِيكَ الْعُقُولِ فَإِنَّهَا ... وَالله قَدْ مُسِخَتْ عَلَى الْأَبْدَانِ

وصَدَقَ -رحمه الله تعالى- إذ كيف يجرؤ عَالِمٌ مِن العلماء أن يقول هذا في حقِّ الله، أو في حَقِّ عِباد الله؟! حتى أهل النار الذين يُعَذَّبُون بالنار عندما يُرْفَعُ السَّوْطُ لِضَرْبِهِم، وتنتهي الحركات فَيَقِفُ.

وَقَوْلُهُ: «مُسِخَتْ عَلَى الْأَبْدَانِ» يعني: أُزِيلَت مِن الأبْدان، أَبْدَان بلا عُقُول، ويَا لَيْتَهُم رَضُوا بهذه العُقُول السَّخِيفَة، فَأَشَدُّ مِن ذلك قوله:

٨٧- تَبًّا لِمَنْ أَضْحَى يُقَدِّمُهَا عَلَى الْـ ... آثَارِ وَالْأَخْبَارِ وَالْقُرْآنِ

قَوْلُهُ: «الآثار» ما رُوِي عن الصحابة.

قَوْلُهُ: «الأخبار» أي: عن الرسول صلى الله عليه وسلم.

قَوْلُهُ: «القرآن» كلام الله عزَّ وجلَّ.

وقَدَّمَ الأَدْنَى على الأَعْلَى مِن أَجْلِ الرَّوِيِّ[1]، كما أنَّ الله تعالى قَدَّمَ هارونَ على موسى في سُورةِ طه مِن أَجْلِ تَنَاسُب الآيات فقال تعالى: ﴿بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [طه:٧٠]، وفي الآية الأخرى: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف:١٢٢] فالتَّنَاسُب أمرٌ يُسَوِّغُ شيئًا لا ينبغي في حال عَدَمِ المُنَاسَبَة.

والخلاصة: أنَّ الجَهْم بن صَفْوَان يَمْنَعُ التَّسَلْسُل في الماضي والمستقبل، ويقول: تَفْنَى النارُ بِمَنْ فيها، والجَنَّة بِمَنْ فيها.

---

(١) الروي هو آخر حرف صحيح في البيت، وعليه تُبنى القصيدة، وإليه تَنْتَسِب، فيقال: قصيدة مِيمية، أو نُونِيَّة، أو عَيْنِيَّة، إذا كان الرَّوِيُّ فيها مِيمًا، أو نُونًا، أو عَيْنًا. انظر: علم العروض والقافية، لعبد العزيز عتيق (ص:١٣٦).

وأمَّا العَلَّاف فَتَلَطَّف ليكون وَسَطًا -على زعمه- بينَ أَهْلِ السُّنَّة والجَهْمِيَّة، وقال: لا نقول كما تقول الجَهْمِيَّة في فَنَاءِ الذَّوَات والحركات، ولا نقول بِبَقَاءِ الحَرَكَات والذَّوَات، كما قال أهلُ السُّنَّة، ولكن نكون وَسَطًا بينهما، فنقول: تَفْنَى الحركاتُ دُونَ الذوات.

* * *

فصل

٨٨- وَقَضَى بِأَنَّ اللهَ يَجْعَلُ[1] خَلْقَهُ عَدَمًا ويقْلِبُهُ وُجُودًا ثَانِي

٨٩- الْعَرْشُ وَالْكُرْسِيُّ وَالْأَرْوَاحُ وَالْ أَمْلَاكُ وَالْأَفْلَاكُ وَالْقَمَرَانِ

٩٠- وَالْأَرْضُ وَالْبَحْرُ الْمُحِيطُ وَسَائِرُ الْ أَكْوَانِ مِنْ عَرَضٍ وَمِنْ جُثْمَانِ

٩١- كُلٌّ سَيُفْنِيهِ الْفَنَاءَ الْمَحْضَ لَا يَبْقَى لَهُ أَثَرٌ كَظِلٍّ فَانِي

٩٢- وَيُعِيدُ ذَا الْمَعْدُومَ أَيْضًا ثَانِيًا مَحْضَ الْوُجُودِ إِعَادَةً بِزَمَانِ

الشرحُ

وهذا أيضًا مِن ضَلَالِه، إذ يقول: إنَّ الله تعالى يُعْدِمُ الخَلقَ كُلَّه عَدَمًا مَحْضًا، فإذا كان يومُ القِيامةِ أَنْشَأَهُ مِن جديدٍ، وعلى هذا فالذي يُنَعَّم ويُعَذَّب ليس بني آدم الموجودين، لأنَّ بني آدم الموجودين يُعْدَمُون عَدَمًا مَحْضًا، ولا يُمْكِنُ أن يُعَادُوا، ولكنَّ الله يُنْشِئُ أَقْوَامًا آخرين.

والسموات والأرضُ تُعْدَم نهائيًا، ولا يَبْقَى لها في الوجود أثر، ثم يَخْلُق الله أَرْضًا ثانية، وَسَمَاءً ثانيةً، وشمسًا ثانيةً، وقمرًا ثانيًا.

فالجنة والنار -مِن الأصل- غير مَوْجُودَتَيْن عنده، ولهذا ما تكلَّم عليهما ابن القيم، وَتَكَلَّم على ما هو موجود الآن، فهذا الموجود يُعْدَمُ عَدَمًا مَحْضًا، ثم يُؤتَى

(١) في مطبوعة الهراس وبعض النسخ: «يعدم» والأصل أولى.

بِبَدَلِه، وكُلُّ هذا بِناءً على أَصْلِه الخَبِيث، وهو عَدَمُ التَّسَلْسُل، ثم قال -رحمه الله-:

٨٨- وَقَضَى بِأَنَّ اللهَ يَجْعَلُ خَلْقَهُ عَدَمًا ويقْلِبُهُ وُجُودًا ثَانِي

قَوْلُهُ: «عَدَمًا» أي: عَدَمًا مَحْضًا.

وَقَوْلُهُ: «وُجُودًا ثَانِي» أصله أن يُقَال: (وجودًا ثانيًا)، لكن أَلْجَأَتْهُ ضَرُورَةُ النَّظْم. إلى ذلك.

٨٩- الْعَرْشُ وَالْكُرْسِيُّ وَالْأَرْوَاحُ وَالْـ أَمْلَاكُ وَالْأَفْلَاكُ وَالْقَمَرَانِ

٩٠- وَالْأَرْضُ وَالْبَحْرُ المُحِيطُ وَسَائِرُ الْـ أَكْوَانِ مِنْ عَرَضٍ وَمِنْ جُثْمَانِ

قَوْلُهُ: «القَمَرَانِ» يعني: الشمس والقمر.

قَوْلُهُ: «مِنْ عَرَضٍ، وَمِنْ جُثْمَانِ» (العَرَض): الأوصاف، و(الجُثْمان): الأجساد.

٩١- كُلٌّ سَيُفْنِيهِ الْفَنَاءَ الْـمَحْضَ لَا يَبْقَى لَهُ أَثَرٌ كَظِلٍّ فَانِي

قَوْلُهُ: «الْـمَحْضَ» يعني: الكامل.

وَقَوْلُهُ: «كَظِلٍّ» يعني: طَلَعَتْ عَلَيْه الشمسُ وأَفْنَتْه.

٩٢- وَيُعِيدُ ذَا الْـمَعْدُومَ أَيْضًا ثَانِيًا مَحْضَ الْوُجُودِ إِعَادَةً بِزَمَانِ

قَوْلُهُ: «إِعَادَةً بِزَمَانِ» يعني: يأتي بِبَدَلِهِم نِهَائِيًّا، وعلى هذا فَمَن اسْتَحَقَّ الثوابَ في الدُّنْيا لا يُثابُ في الآخِرَة، لأنَّ غَيْرَه يُثابُ، ومَنِ استحقَّ العِقَابَ لا يُعَاقَبُ، بل يُعاقَبُ غَيْرُه! فَهَنِيئًا لأهل المعاصي أنهم لا يُعَاقَبُونَ، حيثُ يُنْشِئُ اللهُ أَقْوَامًا آخَرِينَ، وحُجَّتُه باطِلَةٌ بِلَا شَكٍّ.

يقول: لأنَّ الله يقول: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص:٨٨]، ويقول: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن:٢٦-٢٧].

فنقول: هذا مِن زَيْغِك، وهذه الآيةُ -وإن كانت مُشْتَبِهَةً- فهناك آياتٌ أُخْرَى تَدُلُّ على أنَّ نَفْسَ المَخْلُوقِ يُعَادُ، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم:٢٧]، وهو -سبحانه وتعالى- يُبَدِّلُ الأرضَ غيرَ الأرض، لكنْ إِبْدَالُ صِفَةٍ، لا إِبْدَالُ عَيْنٍ، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم:٤٨]، لأنَّ الله تعالى قال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ﴾ [طه:١٠٥] أيُّ جِبَالٍ هي مَوجودة، أو مَعْدُومة؟ الجواب: موجودة ﴿فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه:١٠٥-١٠٧]، وقال في السموات: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا﴾ [الطور:٩] فهذا تبديلٌ، لأنها الآن لا تَمُورُ، ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ﴾ [المعارج:٨] وهي الآن ليست كذلك، فالإعادةُ إعادةُ صِفةٍ، لا إعادةِ عَيْنٍ.

خلاصة هذا البحث: أنَّ هذا الرجل -وهو الجهم- زَعَمَ أَنَّ المَعَاد يومَ القِيامة ليس لهذه الأجسام، وأنَّ هذا الخَلْق الموجودَ المُشَاهَد الآن يَفْنَى يومَ القيامةِ فَنَاءً كاملًا، ولا يوجد منه شيء أبدًا كَالظِّلِّ تَنْسَخُه الشمسُ، هل يَبْقَى ظِلًّا؟

الجواب: لا يبقى شيء، ثم يُعِيدُ الله تعالى الخَلْقَ مِن جَدِيد، فيُعِيدُ الحيوانَ، والإنسانَ، والبهائمَ، والوُحوشَ، وهكذا.

أيضا السمواتُ يُعِيدُها مِن جديدٍ، والأرض يُعِيدُها مِن جَديد، والكواكبُ يُعِيدُها مِن جديد، فكُلُّ شيءٍ يُعادُ مِن جَدِيدٍ، لماذا؟ قال: لأنَّ هذا هو مَعْنَى التبديل، فأنت إذا قلت: أَبْدِل لي هذه الحَقِيبَةَ بهذا الكِتَاب، فالحقيبةُ تَنْتَقِلُ مِنِّي إليك، والكتاب يَنْتَقِل منك إِلَيَّ، فالبَدِيلُ غيرُ المُبْدَل منه، والله يقول: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم:٤٨].

ولا شكَّ أنَّ هذا القول باطلٌ، والتبديل الذي ذَكَرَهُ الله عزَّ وجلَّ ليس تبديلَ ذات بذات، لكنه تبديلُ وصفٍ بوصفٍ، واستشهد المؤلفُ لذلك بقوله تعالى: ﴿بَدَّلْنَهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء:٥٦] قال: إنَّ الجِلْدَ بَاقٍ، لكنه نَضِجَ مِنَ النَّارِ ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء:٥٦]، فَهِيَ لَـمَّا نَضِجَتْ نَشَأَتْ مِن جَدِيدٍ، وهِيَ هِيَ.

واستدلَّ أيضًا بأنَّ الله تعالى يَطْوي السموات، ويَطْوِي الأرضين، والطَّيُّ للمعدوم غيرُ ممُكِن، واستدلَّ أيضًا بأنه لو كان خَلْقًا جديدًا لَعُذِّب مَنْ لا يَستحقُّ العَذَاب، ونَجَا مَنْ يستحقُّ العذاب، لأنَّ هذا الكافر عُدِم نهائيًا، وجاء كافرٌ جديد بدلًا منه، وعَذَّبنا هذا الكافر.

وهذا غير معقول، ولا يمكن أنَّ الله عزَّ وجلَّ يخلُق أقوامًا يُعذّبهم، وأقوامًا يُنَعِّمهم بِدُون أيّ عمل.

* * *

٩٣- هَذَا الْـمَعَادُ وَذَلِكَ الْـمَبْدَا لَـدَى ... جَهْـمٍ، وَقَـدْ نَسَـبُوهُ لِلْقُـرْآنِ

٩٤- هَذَا الَّذِي قَـادَ ابْـنَ سِـينَا[1] وَالْأُلَى ... قَـالُوا مَقَالَتَـهُ إِلَى الْكُفْـرَانِ

٩٥- لَـمْ تَقْبَـلِ الْأَذْهَـانُ ذَا وَتَوَهَّمُـوا ... أَنَّ الرَّسُـولَ عَنَـاهُ بِـالْإِيمَانِ

٩٦- هَـذَا كِتَـابُ اللهِ أَنَّـى قَـالَ ذَا ... أَوْ عَبْـدُهُ الْـمَبْعُوثُ بِالْبُرْهَـانِ

---

(١) ابن سِينَا: هو الحسين بن عبد الله بن سينا، فيلسوف، له تصانيف في الطِّبِّ وغيره، كان مِن أهل دعوة الحاكم العُبَيْدِي، معروفًا بالإلحاد، وُلِد في إحدى قُرَى بُخَارَى (سنة ٣٧٠)، وتوفي في سَفَرِه إلى هَمَدَانَ (سنة ٤٢٨)، وكان يُلَقَّبُ المُعَلِّم الثالث للفلاسفة، وسَيُذكر المُعَلِّمُ الأول لهم لاحقًا في هذا الكتاب إن شاء الله. [الشارح]. انظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء (١٧/ ٥٣١).

٩٧- أَوْ صَحْبُهُ مِنْ بَعْدِهِ أَوْ تَابِعٌ ... لَهُمُ عَلَى الْإِيمَانِ وَالْإِحْسَانِ

الشرحُ

٩٣- هَذَا الْمَعَادُ وَذَلِكَ الْمَبْدَا لَدَى ... جَهْمٍ، وَقَدْ نَسَبُوهُ لِلْقُرْآنِ

٩٤- هَذَا الَّذِي قَادَ ابْنَ سِينَا وَالْأُلَى ... قَالُوا مَقَالَتَهُ إِلَى الْكُفْرَانِ

يقول -رحمه الله تعالى-: إنَّ هذا المبدأ والمعاد عند جَهْمٍ ليس هناك تَسَلْسُل، لا في الماضي، ولا في المستقبل، وذَكَر أنَّ هذا هو الذي قادَ ابنَ سِينَا والأُلَى قالوا مَقَالَتَه إلى الكُفْران، وهذا صريحٌ في أنَّ ابنَ سِينَا كَافِرٌ، وهو عند بعض أَقْوَامِنَا مِن أَبْرَزِ أعلام الإسلام، ويُقَدِّسُونه، وربما يُسَمُّون بعض المدارس باسمه، وهذا مِن الجَهْل، ولا أظنُّ أنهم يَعْلَمُون أنه وَصَل في فلسفته وَطِبِّه إلى الكُفر، ولو عَلِمُوا بذلك ما رَضُوا، فما رَضُوا أن يُقَدَّس، ولا أن تكونَ المدارسُ باسمه.

المُهم أنَّ ابن القيم -رحمه الله- صَرَّح بأنه كافر، وكذلك شَيْخُه ابن تيمية -رحمه الله- صَرَّح بأنَّ ابن سينا المُقَدَّس عند العَرَب كَافِرٌ، نسأل الله العافية.

فالذي يُنْكِر المَعَاد الجُثْماني لا شَكَّ في كُفْرِه، وقولُه هذا كلامُ المشركين، وأما ما ذُكِر عنه مِن أنه تَابَ قَبْلَ مَوْتِه، فإن ثَبَت هذا بسندٍ صحيح، نقول: الحمد لله أنه تابَ فتابَ الله عليه، وإلَّا فالأصلُ بَقَاءُ ما كانَ على ما كانَ.

٩٥- لَمْ تَقْبَلِ الْأَذْهَانُ ذَا وَتَوَهَّمُوا ... أَنَّ الرَّسُولَ عَنَاهُ بِالْإِيمَانِ

فَأَذْهَانُهم ما قَبِلَت هذا، ولا رَضِيَتْ به، وظَنُّوا أنَّ هذا هو الذي عَنَاه الرسول ﷺ، يعني: لم تَقْبَل التَّسَلْسُل، وظنوا أنَّ هذا هو الذي عَنَاهُ الرسول

-صلى الله عليه وعلى آله وسلم-، بقوله: «أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ»[1].

فيقول -رحمه الله-: أرونا إذا كان الرسول ﷺ جاء به.

٩٦- هَــذَا كِتَــابُ الله أَنَّــى قَــالَ ذَا ... أَوْ عَبْــدُهُ الْــمَبْعُوثُ بِالْبُرْهَــانِ

٩٧- أَوْ صَــحْبُهُ مِــنْ بَعْــدِهِ أَوْ تَابِــعٌ ... لَــهُمُ عَـلَى الْإِيـمَانِ وَالْإِحْسَـانِ

قَوْلُهُ: «البُرهَانِ» أي السُّنَّة.

قَوْلُهُ: «أو صَحْبُه» أي: أقوال الصحابة مِن بَعْدِه، أو تَابع لهم على الإيمان والإحسان، فكُلُّهم لم يقولوا بهذا القول، فكيف يَتَوَهَّمُ واهمٌ أنَّ هذا ما جاء به النبي ﷺ؟!

* * *

٩٨- بَـلْ صَرَّحَ الْـوَحْيُ الْـمُبِينُ بِأَنَّـهُ ... حَقًّـا مُغَـيِّرُ هَـذِه الْأَكْـوَانِ

٩٩- فَيُبَـدِّلُ اللهُ السَّـمَوَاتِ الْعُـلَى ... وَالْأَرْضَ أَيْضًـا، ذَانِ تَبْـدِيلَانِ

١٠٠- وَهُمَا كَتَبْدِيلِ الْـجُلُودِ لِسَاكِنِي النْـ ... ـنِـيرَانِ عِنْـدَ النُّضْـجِ مِـنْ نِـيرَانِ

١٠١- وَكَـذَاكَ يَقْـبِضُ أَرْضَـهُ وَسَـمَاءَهُ ... بِيَدَيْـهِ مَـا الْعَـدَمَانِ مَقْبُوضَـانِ

١٠٢- وَتُحَـدِّثُ الْأَرْضُ الَّتِـي كُنَّـا بِهَـا ... أَخْبَارَهَـا فِي الْـحَشْرِ لِلـرَّحْمَنِ

١٠٣- وَتَظَلُّ تَشْـهَدُ وَهْـيَ عَـدْلٌ بِالَّـذِي ... مِـنْ فَوقِهَـا قَـدْ أَحْـدَثَ الـثَّقَلَانِ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع، رقم (٢٧١٣).

١٠٤- أَفَيَشْهَدُ الْعَدَمُ الَّـذِي هُـوَ كَاسْـمِهِ لَا شَيْءَ، هَـذَا لَـيْسَ فِي الْإِمْكَـانِ

الشـرحُ

٩٨- بَـلْ صَرَّحَ الْـوَحْيُ الْـمُبِينُ بِأَنَّـهُ حَقًّـا مُغَـيِّرُ هَـذِهِ الْأَكْـوَانِ

بيَّنَ -رحمه الله- في هذه المقطوعة أنَّ الوحيَ المُبِينَ يعني: القرآن الكريم الذي جعله الله تعالى تبيانًا لكل شيء (**بأنه حقًّا مُغَيِّرُ هذه الأكْوَانِ**)، وليس يأتي بأكوانٍ أُخْرى، كما قال الجهم، بل إنه يُغَيِّرُها.

٩٩- فَيُبَـدِّلُ اللهُ السَّـمَوَاتِ الْعُـلَى وَالْأَرْضَ أَيْضًـا، ذَانِ تَبْـدِيلَانِ

قَوْلُهُ: «**ذانِ تَبْديلان**» أحدُهما: للسماء، والثاني: للأرض، قال الله تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ [إبراهيم:٤٨].

لكن هل هذا التبديل بمعنى التغيير، أو بمعنى إيجاد أرضٍ أُخرى، وسماء أُخرى؟

الجواب: الأول، لأنه لو كانت أرضًا جديدة وسماءً جديدة ما صحَّ أن يُقال: إنها بُدِّلَت، لأنَّ الأرضَ الجديدةَ غيرُ الأُولى، والسماءَ الجديدة غيرُ الأُولى، فكيف يقول: الله يبدل الأرضَ غير الأرض والسموات، ثم نقول: هذه أرضٌ جديدة، وهذه سماءٌ جديدة؟! هذا لا يمكن.

إِذَنْ التبديلُ يكونُ تبديلَ صِفَة، أي: تَتَغَيَّر الصِّفَة، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾ [المعارج:٨-٩].

والأرض يبدلـها الله عزَّ وجلَّ فتكون قاعًا صَفْصَفًا، لا تَرَى فيها عِوَجًا ولا أَمْتًا(١).

ولما قيل لبعض الناس: كيف يَصِحُّ أن نَدْعُوَ للمرأة ونحن نصلِّي عليها: «اللَّهُمَّ أَبْدِلْـهَا زَوْجًا خَيْرًا مِنْ زَوْجِهَا»(٢). والله يقول في القرآن: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ [الطور:٢١]، ويقول عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝٧ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ [غافر:٧-٨]؟

والجواب عن هذا: أنَّ المرادَ إبدالُ صفاتِه لا إبدال ذاته، لأنَّ الزوج في الدنيا قد يكون مسيئًا إلى زوجته غاية الإساءة، ومتعبًا لها، فنسأل الله أن يُبدلَها بِزَوْجٍ غيرِ زوجها مِن حَيثُ الصِّفات، وهذا جوابٌ واضح.

يقول:

١٠٠- وَهُمَا كَتَبْدِيلِ الْـجُلُودِ لِسَاكِنِي النْـ ... نِـيرَانِ عِنْـدَ النُّضْـجِ مِـنْ نِـيرَانِ

أهل النار -نسأل الله العافية- تَنْضَجُ جُلودُهم، ولا يبقى فيها إحساسٌ مِن العذاب، لأنَّ الشيء إذا نَضِجَ لا يُحِسُّ بالنار، فإذا نَضِجَت -والعياذ بالله- أُعيدت نَفْس الجُلود، فَتَدُبُّ فيها الحياة مِن جديد ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء:٥٦] اللهمَّ أَجِرْنَا مِن النار.

(١) أي: لَا انْخفاضَ فِيهَا، وَلَا ارْتِفَاع. التاج: أمت.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الجنائز، باب الدعاء للميت في الصلاة، رقم (٩٦٣).

وليس المعنى أنَّ الجُلودَ الأُولى تَنْفَسِخ، ثم يُخْلَق جلدٌ جديد، لا، بَل المعنى أنَّ الجِلد الأول الذي نَضِجَ مِنَ النار حتى صَارَ لا يُحِسُّ يُبَدَّل، بمعنى أنه يُعَادُ وَصْفُه، لا ذاته، لِيَذُوقُوا العذاب.

وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا﴾ يُفِيد التَّكْرار، وأنَّ هذا دَأْبُهم أبدًا.

١٠١- وَكَـذَاكَ يَقْـبِضُ أَرْضَـهُ وَسَـمَاءَهُ بِيَدَيْـهِ مَـا الْعَـدَمَانِ مَقْبُوضَـانِ

وهذا صحيح، قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ﴾ [الزمر:٦٧].

لو كانت عُدِمت الأرض الأُولى، وجِيء بأُخرى ما صارت هذه الأرض التي أشار الله إليها قَبْضَةً له، ولهذا قال: (**ما العدمان مقبوضان**).

وَقَوْلُهُ: «**مَا العَدَمَانِ مَقْبُوضَانِ**» وهذا مِن حيثُ الإعراب فيه إشكال، وهو أنَّ (ما) في هذا السياق تَعْمَلُ عَمَلَ (ليس)، تَرْفَع الاسمَ، وتَنْصِب الخَبَر، فكيف نُجِيب عن هذه الجُملة مِن شيخٍ عالمٍ بالعربية؟

إن قلت: جَرَى على لُغة (تميم)، فلا يَصِحُّ، لأنَّ اللغات تغيَّرت، ولا يُقْبَلُ بعد تَغَيُّر اللغات مِن أحدٍ يَلْحَنُ، فيقول: أنا على لُغَة تميم، أو على لغة جُشَم، أو ما أشبه ذلك.

وإن قلت: إنه على لُغَةِ مَن يُلزِم المثنى الألفَ مُطلقًا، قلنا أيضًا: هذا غيرُ مقبول، لأنه بعدَ تَغَيُّر اللغة لا يُقْبَلُ لأحدٍ يخالف لغة قريش.

وإن قلت: الضرورة! فالجواب: نعم، للضرورة.

١٠٢- وَتُحَــدِّثُ الْأَرْضُ الَّتِــي كُنَّــا بِهَــا أَخْبَارَهَــا فِي الْــحَشْرِ لِلــرَّحْمَنِ

قَوْلُهُ: «كُنَّا بِهَا» الباء بمعنى (في)، أو بمعنى (على)، أي: كُنَّا عليها، أو فيها.

١٠٣- وَتَظَلُّ تَشْــهَدُ وَهْــيَ عَــدْلٌ بِالَّــذِي مِــنْ فَوقِهَــا قَــدْ أَحْــدَثَ الــثَّقَلَانِ

الله أكبر! جَمادٌ ويُوصَف بأنه عَدْلٌ، يعني: مقبولُ الشَّهادة، فالأرضُ التي نحن عليها الآن تَشْهَد علينا بما عَمِلْنا، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة:٤-٥] أَوْحَى أن تُحدِّث أخبارها فتقول: عَمِلَ عَلَيَّ فلانٌ كذا في يوم كذا، تقول ذلك وهي جَمادٌ.

لكن لا تستغرب يا أخي! إذا أَمَرَ اللهُ شيئًا امتثَلَ لِـمَا قال، قال تعالى: ﴿ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت:١١] فلا تستغرب أنَّ اللهَ يقول يوم القيامة للأرض: اشهدي، فتَشْهَدُ بما عُمِلَ عليها مِنْ خيرٍ وشرٍّ.

إن كنت في أقصى حُجْرَةٍ مُظْلِمَة، فإنَّ الأرض سوف تَشْهَدُ عليك بما عَمِلْت، جِلْدُك يَشهَدُ عليك، يَدَاك، رِجْلاك تَشْهَد عليك، الملائكةُ الكرام يشهدون، ربُّ العالمين -وكفى به شهيدًا- يشهد كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [التوبة:١٠٧] فليس هناك مَفَرٌّ.

١٠٤- أَفَيَشْهَدُ الْعَدَمُ الَّــذِي هُــوَ كَاسْــمِهِ لَا شَيْءَ، هَــذَا لَــيْسَ فِي الْإِمْكَــانِ

قَوْلُهُ: «أَفَيَشْهَدُ الْعَدَمُ الَّذِي هُوَ كَاسْمِهِ؟» الجواب: لا.

إذا كانت هذه الأرض سوف تُعْدَمُ ويُؤْتَى بأرضٍ جديدة كيف تشهد؟!

ولذا قال: «لَا شَيْءَ، هَذَا لَيْسَ فِي الْإِمْكَانِ»، فالأدلة -والحمد لله- واضحةٌ على بُطلانِ هذا المذهب أنه ليس هناك إعادةٌ لِـمَا قد وُجِد، وإنما يَحْدُثُ شيءٌ آخرُ معلومٌ.

ولذا يقول تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ [الروم:٢٧] أي: نَفْس الخَلْق، لكنَّ ابن القيم -رحمه الله- يُكْثِر مِن الأدلة حتى يَرْسَخَ الحُكْم في الذهن.

* * *

١٠٥- لَكِنْ تُسَوَّى ثُمَّ تُبْسَطُ ثُمَّ تَشْـ ـهَدُ ثُمَّ تُبْدَلُ وَهْيَ ذَاتُ كِيَانِ

١٠٦- وَتُمَدُّ أَيْضًا مِثْلَ مَدِّ أَدِيمِنَا مِنْ غَيْرِ أَوْدِيَةٍ وَلَا كُثْبَانِ

١٠٧- وَتقِيءُ يَوْمَ الْعَرْضِ مِنْ أَكْبَادِهَا(١) كَالْأُسْطُوَانِ نَفَائِسَ الْأَثْمَانِ

١٠٨- كُلٌّ يَرَاهُ بِعَيْنِهِ وَعِيَانِهِ مَا لِامْرِئٍ بِالْأَخْذِ مِنْهُ يَدَانِ

١٠٩- وَكَذَا الْجِبَالُ تُفَتُّ فَتًّا مُحْكَمًا فَتَعُودُ مِثْلَ الرَّمْلِ ذِي الْكُثْبَانِ

١١٠- وَتَكُونُ كَالْعِهْنِ الَّذِي أَلْوَانُهُ وَصِبَاغُهُ مِنْ سَائِرِ الْأَلْوَانِ

١١١- وَتُبَسُّ بَسًّا مِثْلَ ذَاكَ فَتَنْثَنِي مِثْلَ الْهَبَاءِ لِنَاظِرِ الْإِنْسَانِ

الشرح

يقول -رحمه الله-:

١٠٥- لَكِنْ تُسَوَّى ثُمَّ تُبْسَطُ ثُمَّ تَشْـ ـهَدُ ثُمَّ تُبْدَلُ وَهْيَ ذَاتُ كِيَانِ

قَوْلُهُ: «لَكِنْ تُسَوَّى» يعني: الأرض، يُسَوِّيها عزَّ وجلَّ.

قَوْلُهُ: «ثُمَّ تُبْسَطُ، ثُمَّ تَشْهَدُ، ثم تُبْدَلُ وَهْيَ ذَاتُ كِيانِ»، المؤلف يريد أن يُكَرِّرَ الدليلَ على أنَّ الأرض هي الأرض، لكنها تُبَدَّل بصفاتها.

---

(١) في نسخة الحلبي «ذا أكبادَها».

١٠٦- وَتُمَـدُّ أَيْضًـا مِثْـلَ مَـدِّ أَدِيمِنَـا مِـنْ غَـيْرِ أَوْدِيَـةٍ وَلَا كُثْبَـانِ

قَوْلُهُ: «أَدِيمِنَا» الأَدِيم هو الجِلد.

قَوْلُهُ: «مِنْ غَيْرِ أَوْدِيَةٍ وَلَا كُثْبَانِ» الأودية: مجاري للماء، والكثبان: الشيء العالي.

١٠٧- وَتقِيءُ يَوْمَ الْعَـرْضِ مِـنْ أَكْبَادِهَـا كَالْأُسْـطُوَانِ نَفَـائِسَ الْأَثْـمَانِ

قَوْلُهُ: «تقيءُ» يعني: يخرج منها كما يخرج القَيْءُ مِن الفَمِ.

وَقَوْلُهُ: «وَتقيءُ مِنْ أَكْبَادِهَا كَالْأُسْطُوَانِ نَفائِسَ الْأَثْمَانِ» الأثمان النفيسة: الذهب، تَقِيئُه يومَ القيامة، ولكن لا نَعْلَم كيف ذلك؟ إنما نشهد بأنها كالذي يتقيَّأ، فيَخرُج منها هذا الذَّهب مِثلَ الأسطوان، ولعلَّ هذا -والله أعلم- مِن أَجْل ألَّا يبقى في الأرض مَعْدِن، وأَنْفَسُ المعادن هو الذهب.

١٠٨- كُـلٌّ يَـرَاهُ بِعَيْنِـهِ وَعِيَانِـهِ مَـا لِامْـرِئٍ بِالْأَخْـذِ مِنْـهُ يَـدَانِ

قَوْلُهُ: «عينه» أي: العَين البَاصِرَة.

قَوْلُهُ: «عيانه» أي معاينته، يعني أنه يراه بعينٍ تُبصِرُ وتَرَى، وكم مِن عَينٍ لا تُعَايِن!

قَوْلُهُ: «مَا لِامْرِئٍ بِالْأَخْذِ مِنْهُ يَدَانِ» هذا الذهب الذي يخرج مِن الأرض كالقَيء لا يستطيع أحدٌ أن يأخذَه، لأنَّ يوم القيامة ليس فيه تصرّف، فالإنسان لا يتصرف فيه كيفما يشاء، فهم مُدَبَّرون تمامًا، لا خِيار لهم، فلا أحدَ يستطيع أن يجلس ليستريح، ولا أحد يَتَّقِي بأحد، ولا أحد يأخذ مِن هذا الذهب، لأنه لا خيار له في ذلك اليوم.

١٠٩- وَكَـذَا الْجِبَـالُ تُفَـتُّ فَتًّـا مُحْكَـمًا ... فَتَعُـودُ مِثْـلَ الرَّمْـلِ ذِي الْكُثْبَـانِ

الجبالُ الصُّمُّ الصَّلْبَة العظيمة تكون يوم القيامة مِثلَ كُثْبَان الرمل كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ [المزمل:١٤].

١١٠- وَتَكُـونُ كَـالْعِهْنِ الَّـذِي أَلْوَانُـهُ ... وَصِـبَاغُهُ مِـنْ سَـائِرِ الأَلْـوَانِ

قَوْلُهُ: «الْعِهْن»: هو الصُّوف المنفُوش، والصُّوف المنفُوش كالقُطن المنفُوش، لا شيء، تُقبض على حجم إنسان بيدٍ واحدة.

١١١- وَتُـبَسُّ بَسًّـا مِثْـلَ ذَاكَ فَتَنْثَنِـي ... مِثْـلَ الْـهَبَاءِ لِنَـاظِرِ الإِنْسَـانِ

الله أكبر، تكون هباءً يَتَطاير، وما هو الهَبَاء؟ هو أنك حينما ترى الكَوَّة[1] تدخل منها الشمس، فترى في الأشِعَّة أشياءَ تَتَطَايَر، وهذه الجبال -سبحان الله العظيم- تكون كالهَبَاء تتطاير، ولا شك أنَّ هذا سيكون عن حَدَثٍ عظيمٍ، كما وَصَفَه الله عزَّ وجلَّ فقال: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج:١].

ونحن الآن نسمع بالزلازل، وهي ليست بشيء بالنسبة ليوم القيامة، قريبًا وقعت زلازل في تُركيا في الأسبوع الماضي، وبقِيَت (٥٤) ثانية، ودَمَّرت مئات البيوت والقُرى والمُدن في أقلّ مِن نصف دقيقة.

سبحان الله! تفجَّرت الأرض، المجاري تفجَّرت، الأسلاك تقطَّعت، كل شيء في لحظة، وما ظنك لو كنت تشاهد هذا الغبار الذي يتصاعد مِن البيوت، ومِن الأرض، ومِن الأودية، ثُمَّ ما أعقب ذلك مِن اشتعال النيران، وأمَّا يوم القيامة، فهو أشدُّ مِن هذا بكثير.

---

(١) الكَوَّةُ: الخَرْق في الحَائِطِ ونحوه. التاج: كوو.

فالجبالُ الصُّمُّ الصَّلْبة الشامخة تَنْدَكُّ، تكون رملًا، تكون كَثِيبًا وتكون هَبَاء، ولهذا قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا﴾ [الطور:١٠] أي: سَيْرًا عَظيمًا سريعًا هباءً يطير في السماء.

وكان الناس في أول الأمر إذا رأوا النَّعْش ارْتَاعُوا وخافوا، وخشعوا، أمَّا الآن فقد قَسَت القُلوبُ، والسبب في ذلك الغفلة عن دِين الله عزَّ وجلَّ ومِن أحسنِ ما يُلَيِّنُ القُلوبَ كثرةُ قِراءة القرآن الكريم بِتَدَبُّر، ولذا يقول ابن عبد القويِّ -رحمه الله-:

وَحَافِظْ عَلَى دَرْسِ الْقُرْانِ فَإِنَّهُ ... يُلَيِّنُ قَلْبًا قاسِيًا مِثْلَ جَلْمَدِ[1]

وصدق -رحمه الله-، قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر:٢١]. نسأل الله أن يُلَيِّن قُلوبَنا على الحقّ.

* * *

١١٢- وَكَذَا الْبِحَارُ فَإِنَّهَا مَسْجُورَةٌ ... قَدْ فُجِّرَتْ تَفْجِيرَ ذِي سُلْطَانِ

١١٣- وَكَذَلِكَ الْقَمَرَانِ يَأْذَنُ رَبُّنَا ... لَهُمَا فَيَجْتَمِعَانِ يَلْتَقِيَانِ

١١٤- هَذِي مُكَوَّرَةٌ، وَهَذَا خَاسِفٌ ... وكِلَاهُمَا في النَّارِ مَطْرُوحَانِ

١١٥- وَكَوَاكِبُ الْأَفْلَاكِ[2] تُنْثَرُ كُلُّهَا ... كَلَآلِئٍ نُثِرَتْ عَلَى مَيْدَانِ

١١٦- وَكَذَا السَّمَاءُ تُشَقُّ شَقًّا ظَاهِرًا ... وَتَمُورُ أَيْضًا أَيَّمَا مَوَرَانِ

١١٧- وَتَصِيرُ بَعْدَ الْإِنْشِقَاقِ كَمِثْلِ هَـ ... ـذَا الْمُهْلِ أَوْ تَكُ وَرْدَةً كَدِهَانِ

---

(١) انظر القصيدة بكاملها في الآداب الشرعية والمنح المرعية، لمحمد بن مفلح الحنبلي (٣/ ٥٩٠).
(٢) في نسخة برلين السفارينية: «الأملاك».

الشـرحُ

يريد -رحمه الله- هنا أن يؤكِّدَ أنَّ التبديل ليس إنشاء خَلْقٍ جديدٍ، لكنه اختلاف صفات، فالبِحار تُسَجَّر كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير:٦] واختُلف في معنى سُجِّرت: هل المعنى: (مُلئت نارًا)، أو المعنى: (فُجِّرت)، كما في الآية الثانية؟

الجواب: كلا الوجهين مُحتَمل، وإن رجَّحنا فإننا نرجِّح أنها تمتلئ نارًا، حتى تكون كُلّ آية قد دلَّت على معنًى غير ما دلَّت عليه الأخرى.

* * *

١١٨- وَالْعَـرْشُ وَالْكُـرْسِيُّ لَا يُفْنِـيهِمَا ... أَيْضًـا، وَإِنَّهُـمَا لَـمَخْلُوقَانِ

١١٩- وَالْـحُورُ لَا تَفْنَى كَـذلِكَ جَنَّـةُ الْـ ... ـمَأْوَى وَمَـا فِيهَـا مِـنَ الْوِلْـدَانِ

١٢٠- وَلِأَجْـلِ هَـذَا قَـالَ جَهْـمٌ: إِنَّهَـا ... عَـدَمٌ وَلَـمْ تُخْلَـقْ إِلَى ذَا الْآنِ

١٢١- وَالْأَنْبِيَـاءُ فَـإِنَّهُمْ تَحْـتَ الثَّـرَى ... أَجْسَـامُهُمْ حُفِظَـتْ مِـنَ الدِّيـدَانِ

١٢٢- مـا لِلْـبِلَى بِلُحُـومِهِمْ وَجُسُـومِهِمْ ... أَبَـدًا، وَهُـمْ تَحْـتَ الـتُّرَابِ يَـدَانِ

١٢٣- وَكَذَاكَ عَجْبُ الظَّهْرِ لَا يَبْلَى، بَـلَى ... مِنْـهُ تُرَكَّـبُ خِلْقَـةُ الْإِنْسَـانِ

١٢٤- وَكَـذَلِكَ الْأَرْوَاحُ لَا تَـبْلَى كَـمَا ... تَـبْلَى الْـجُسُومُ وَلَا بِـلَى اللُّحْـمَانِ

١٢٥- وَلِأَجْلِ ذَلِكَ لَـمْ يُقِرَّ الْـجَهْمُ بِالْـ ... أَرْوَاحِ خَارِجَـةً عَـنِ الْأَبْـدَانِ

١٢٦- لَكِنَّهَـا مِـنْ بَعْـضِ أَعْـرَاضٍ بِهَـا ... قَامَـتْ، وَذَا فِي غَايَـةِ الْـبُطْلَانِ

الشـرحُ

١١٨- وَالْعَـرْشُ وَالْكُـرْسِيُّ لَا يُفْنِيهِمَا أَيْضًـا، وَإِنَّهُـمَا لَـمَخْلُوقَانِ

يقول -رحمه الله تعالى-: إنَّ مما يدلُّ على تَسَلْسُل الحَوادث، وبَقَاء بعض المخلوقات: العَرْش والكرسيّ لا يُفنيهما أبدًا، وإنهما لمخلوقان، يعني: إنهما مخلوقان، ومع ذلك لا يفنيان، فالتَّسَلْسُل فيهما بحسب المستقبل، لكنَّ أَعْيَانَهُمَا كانت عدمًا، ثُمَّ خَلَقَهُمَا الله عزَّ وجلَّ.

وفي هذا نصٌّ صريح مِن المؤلف -رحمه الله- على أنَّ العرش غير الكرسيّ، فما هو العرش، وما هو الكرسيّ؟

المشهور أنَّ الكرسيَّ هو موضع قدمَي الله عزَّ وجلَّ صحَّ ذلك عن ابن عباس[1] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أما العرش فهو أعظم وأعظم، وهو الذي استوى عليه الرحمن -جلَّ وعلَا- وقد جاء في الحديث: «**أنّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ، وَالأَرْضِينَ السَّبْعَ لِلْكُرَسِيّ كَحَلْقَةٍ أُلْقِيَتْ فِي فَلَاةٍ مِنَ الأَرْضِ**»[2].

وماذا تكون الحَلْقة بالنسبة للفَلاة؟ الجواب: لا شيء.

وإنَّ فضلَ العَرش على الكرسيّ كَفَضْلِ الفَلاة على هذه الحلقة، ولهذا وصف اللهُ العرشَ بأنه عظيم بـ(الـ) فقال: ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [التوبة:١٢٩] وهما لا يَفْنَيَان، خلقهما الله تعالى للبقاء أبدًا.

---

(١) أخرجه ابن خزيمة في التوحيد (١/ ٢٤٨)، والحاكم (٢/ ٢١٠) وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٩٢٨).

(٢) أخرجه ابن حبان (٢/ ٧٧)، وسعيد بن منصور في التفسير (٣/ ٩٥٢).

١١٩- وَالْحُورُ لَا تَفْنَى كَذلِكَ جَنَّةُ الْـ ـمَأْوَى وَمَا فِيهَا مِنَ الْوِلْدَانِ

كذلك الحور والوِلدان في الجنة لا تَفْنيَان، خَلَقَهُما الله تعالى للبقاء أبد الآبدين.

١٢٠- وَلِأَجْلِ هَذَا قَالَ جَهْمٌ: إِنَّهَا عَدَمٌ وَلَمْ تُخْلَقْ إِلَى ذَا الْآنِ

يعني أنَّ الجنة عَدَمٌ، والحُور عَدَمٌ، والوِلدان عَدَمٌ، ولا تُخْلَقُ إِلَّا يوم القيامة، ثُمَّ في النهاية أيضًا تَفْنَى، لأنه لا يرى تسلسل الحوادث.

١٢١- وَالْأَنْبِيَاءُ فَإِنَّهُمْ تَحْتَ الثَّرَى أَجْسَامُهُمْ حُفِظَتْ مِنَ الدِّيدَانِ

١٢٢- ما لِلْبِلَى بِلُحُومِهِمْ وَجُسُومِهِمْ أَبَدًا، وَهُمْ تَحْتَ التُّرَابِ يَدَانِ

الله أكبر! أجسام الأنبياء في الأرض محفوظة مِن الدِّيدان، لا تأكلها الأرض، حرَّم الله على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء[1]، وفي هذا دليل على أنَّ الأمرَ أمرُ الله عزَّ وجلَّ وأنَّ كلَّ الكون يَسِيرُ بأمر الله، فالأرض التي مِن طبيعتها أن تأكل الأجسام، لا تأكلُ أجسامَ الأنبياء، والذي قال لِنَارِ إبراهيمَ -عليه الصلاة والسلام- ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء:٦٩] -والنار تُحرِق وتُهلِك، فصارت بردًا وسلامًا- قادرٌ على أن يُحرِّم على الأرض أن تأكل أجسادَ الأنبياء، ولذلك لو كُشف عن أي نبيٍّ مِن الأنبياء لَوُجِدَ كأنه ماتَ اليومَ، لا تأكله الأرض.

---

(١) كما في حديث: «إِنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ حَرَّمَ عَلَى الْأَرْضِ أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ». أخرجه أبو داود: كتاب الجمعة، باب فضل يوم الجمعة وليلة الجمعة، رقم (١٠٤٧)، والنسائي: كتاب الجمعة، باب إكثار الصلاة على النبي ﷺ يوم الجمعة، رقم (١٣٧٤)، وابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب فضل الجمعة، رقم (١٠٨٥).

يقول -رحمه الله-:

١٢٣- وَكَذَاكَ عَجْبُ الظَّهْرِ لَا يَبْلَى، بَلَى ... مِنْهُ تُرَكَّبُ خِلْقَةُ الْإِنْسَانِ

قَوْلُهُ: «بَلَى» كلمة (بَلَى) هنا تكثر في كلام المؤلف، وجاء مِثلها في القرآن، وهي بمعنى: (بل) في مثل هذا التركيب، وهذا أيسرُ مِن أن نُقَدِّرَ أنها جوابٌ لما مضى.

ثُمَّ استأنف فقال: (بَلَى مِنْهُ تُرَكَّبُ خِلْقَةُ الْإِنْسَانِ).

وعَجْبُ الذَّنَب، هو عبارةٌ عن حَبَّةٍ صغيرة في منتهى عُصْعُص الظَّهْر، وهذه -بإذن الله- لا تأكلها الأرضُ أبدًا، بل تبقى، حتى لو نُبِش القَبرُ وحُرِث، لا بُدَّ أن تبقى، لأنها يومَ القيامةِ تكون كالبَذْرَة للجسم، منها يُكَوَّن الجِسم، سبحان الله! واللهُ على كل شيء قدير.

١٢٤- وَكَذَلِكَ الْأَرْوَاحُ لَا تَبْلَى كَمَا ... تَبْلَى الْجُسُومُ وَلَا بِلَى اللُّحْمَانِ

الأرواح لا تَبْلَى، فقد خَلَقَها اللهُ عزَّ وجلَّ للبقاء، فها هنا الآن العرش، والكرسيّ، والحُور، وأجساد الأنبياء، وعَجْبُ الذَّنَب، والسادس: الأرواح، كُلُّ هذه لا تفنَى ولا تَبْلَى.

قال:

١٢٥- وَلِأَجْلِ ذَلِكَ لَمْ يُقِرَّ الْجَهْمُ بِالْـ ... أَرْوَاحِ خَارِجَةً عَنِ الْأَبْدَانِ

١٢٦- لَكِنَّهَا مِنْ بَعْضِ أَعْرَاضٍ بِهَا ... قَامَتْ، وَذَا فِي غَايَةِ الْبُطْلَانِ

يقول جهم: لا توجد رُوحٌ تخرج مِن البَدَنِ، وتَدخُل فيه، فالروحُ عَرَضٌ مِن الأعراض، يعني مِثل ما يمرض البَدَن، ويَتَحَرَّك ببطء، وما أشبه ذلك، يَعْتَرِيه

عَرَضٌ، أي: مرضٌ شديدٌ فيمُوت.

فالموت عنده ليس معناه أنَّ هناك رُوحًا تخرج مِن البَدَن وتبقى، لكنه يرى أنَّ الموت والحياة وَصْفَانِ للبَدَنِ أي: عَرَضَان، كما يَعْرِض المرضُ والصِّحة، فهي وَصْفٌ مِن الأوصاف كالطُّول والقِصَر والحُمْرَة والسواد والبياض، ويقول: ليس هناك رُوحٌ تَخْرُج وتُنَعَّم أو تُعَذَّب في القبر، ولا نَعِيم في الجَنَّة لها، لأنَّ التَّسَلْسُل عنده ممنوع.

ولكنَّ هذا لا شَكَّ أنه مخالفٌ لما جاء به الكتابُ والسُّنَّة، قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر:٤٢]، وقال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام:٦١].

والإنسان إذا مات يرى روحَه خارجةً مِن بَدَنِه، كما قال النَّبيُّ ﷺ: «إِنَّ الرُّوحَ إِذَا قُبِضَ تَبِعَهُ البَصَرُ»[1]. ولذلك يَشْخَصُ البَصَرُ، لأنه يَرى رُوحَه خارجة مِن جَسَدِه.

أما الجهم فيقول: لا تُوجَد رُوحٌ تخرج، أو تدخل، فالموتُ عبارةٌ عن فَقْدِ الحياة، فهذا الجسم الذي يتحرك الآن، ويسيرُ ويجيء، يفقد هذه الحركة.

ثم قال -رحمه الله-:

* * *

١٢٧- فَالشَّأْنُ لِلْأَرْوَاحِ بَعْدَ فِرَاقِهَا ... أَبْدَانَهَا[2] -وَالله- أَعْظَمُ شَانِ

١٢٨- إِمَّا عَذَابٌ أَوْ نَعِيمٌ دَائِمٌ ... قَدْ نُعِّمَتْ بِالرَّوْحِ وَالرَّيْحَانِ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجنائز، باب في إغماض الميت والدعاء له إذا حُضِرَ، رقم (٩٢٠).

(٢) في أكثر الأصول: «أبداننا».

١٢٩- وَتَصِيرُ طَيْرًا سَارِحًا مَعْ شَكْلِهَا ... تَجْنِي الثِّمَارَ بِجَنَّةِ الْحَيَوانِ

١٣٠- وَتَظَلُّ وَارِدَةً لِأَنْهَارٍ بِهَا ... حَتَّى تَعُودَ لِذَلِكَ الْجُثْمَانِ

١٣١- لَكِنَّ أَرْوَاحَ الَّذِينَ اسْتُشْهِدُوا ... فِي جَوْفِ طَيْرٍ أَخْضَرٍ رَيَّانِ

١٣٢- فَلَهُمْ بِذَاكَ مَزِيَّةٌ فِي عَيْشِهِمْ ... وَنَعِيمِهِمْ لِلرُّوحِ[1] وَالْأَبْدَانِ

١٣٣- بَذَلُوا الْجُسُومَ لِرَبِّهِمْ فَأَعَاضَهُمْ ... أَجْسَامَ تِلْكَ الطَّيْرِ بِالْإِحْسَانِ

١٣٤- وَلَهَا قَنَادِيلٌ إِلَيْهَا تَنْتَهِي ... مَأْوَى لَهَا كَمَسَاكِنِ الْإِنْسَانِ

١٣٥- فَالرُّوحُ بَعْدَ الْمَوْتِ أَكْمَلُ حَالَةً ... مِنْهَا بِهَذِي الدَّارِ فِي جُثْمَانِ[2]

١٣٦- وَعذَابُ أَشْقَاهَا أَشَدُّ مِنَ الَّذِي ... قَدْ عَايَنَتْ أَبْصَارُهَا[3] بِعِيَانِ

١٣٧- وَالْقَائِلُونَ بِأَنَّهَا عَرَضٌ أَبَوْا ... ذَا كُلَّهُ، تَبًّا لِذِي نُكْرَانِ

الشرحُ

ذكر -رحمه الله- أحوال الروح فقال:

١٢٧- فَالشَّأْنُ لِلْأَرْوَاحِ بَعْدَ فِرَاقِهَا ... أَبْدَانَهَا -وَالله- أَعْظَمُ شَانِ

ولا أحدَ يتصوّر كيف يكون نعيمُ الروح، أو عذابُها بعد فِراقِها البَدَن؟ فشأنُ الروح عظيمٌ، أعظمُ شأنٍ، كما قال -رحمه الله-.

(١) في الشرح: «بالروح».
(٢) في نسخة الإفتاء: «جسمان».
(٣) في نسخة الحلبي: «أبصارنا».

١٢٨- إِمَّـــا عَـــذَابٌ أَوْ نَعِـــيمٌ دَائِـــمٌ قَـــدْ نُعِّمَـــتْ بِـــالرَّوْحِ وَالرَّيْحَـــانِ

وهذه روح المُقَرَّبين، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ [الواقعة:٨٨-٨٩] اللهم اجعلنا منهم يا ربَّ العالمين.

١٢٩- وَتَصِيرُ طَـيْرًا سَـارِحًا مَـعْ شَـكْلِهَا تَجْنِـي الـثِّمَارَ بِجَنَّـةِ الْـحَيَوانِ

الأرواح تكون طيورًا تَسْرَح في الجنة مع شكلها، وتَجْنِي مِن ثمرات الجنة.

قَوْلُهُ: «بِجَنَّةِ الْـحَيَوَانِ» أي: بجنة الحياة العظيمة الدائمة، فالألفُ والنون للمبالغة، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ [العنكبوت:٦٤] أي: الحياة العظيمة.

١٣٠- وَتَظَـــلُّ وَارِدَةً لِأَنْهَـــارٍ بِهَـــا حَتَّـــى تَعُـــودَ لِـــذَلِكَ الْـــجُثْمَانِ

فهي تأكل مِن الثمار، وتشرب مِن الأنهار، وتكون على صورةِ طيرٍ، حتَّى يَهُونَ عليها التنقُّلُ في جنات النعيم، حتى تعود إلى جسمها يومَ القيامة عَوْدًا لا خُروج بَعْدَه، لأنَّ الإنسان إذا بُعث يوم القيامة فلا مَوْتَ، لكنَّ أرواحَ الشهداء غير أرواح بقية المؤمنين، ولذا قال:

١٣١- لَكِـــنَّ أَرْوَاحَ الَّـــذِينَ اسْتُشْـــهِدُوا فِي جَـــوْفِ طَـــيْرٍ أَخْضَـــرٍ رَيَّـــانِ

الرُّوح في جوفِ طيرٍ أخضرَ رَيَّانَ، يعني: مملوءًا حَيَوِيَّةً وخُضْرَةً مِن أَحْسَن ما يكون منظرًا وحَرَكة.

١٣٢- فَلَهُـــمْ بِـــذَاكَ مَزِيَّـــةٌ فِي عَيْشِـــهِمْ وَنَعِـــيمِهِمْ لِلـــرُّوحِ وَالْأَبْـــدَانِ

وذلك كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًاۢ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران:١٦٩].

١٣٣- بَذَلُوا الْـجُسُومَ لِـرَبِّهِمْ فَأَعَاضَـهُمْ ... أَجْسَـامَ تِلْـكَ الطَّـيْرِ بِالْإِحْسَـانِ

١٣٤- وَلَـهَا قَنَادِيـلٌ إِلَيْهَـا تَنْتَهِـي ... مَـأْوَى لَـهَا كَمَسَـاكِنِ الْإِنْسَـانِ

الشهداء تكون أرواحهم في جوفِ طيورٍ خُضرٍ تَسْرَحُ حيثُ شاءت(١)، ولكن لها قَناديلُ مُعَلَّقة بالعرش تأوِي إليها، كما تأوِي الطيور إلى أوكارها.

وبيَّن المؤلفُ -رحمه الله- الحكمةَ مِن ذلك بأنَّ هؤلاء بَذَلُوا أجسادَهم لله عزَّ وجلَّ في الجهاد في سبيل الله، حتى قُتِلوا، فأَبْدَلَ اللهُ تعالى أرواحَهم بَدَلَ الأجساد التي خَرَجَت منها بِهَذِه القَناديل المُعَلَّقة تحتَ العرش، ولهذا قال: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران:١٦٩].

والفَرْق بين أرواح الشهداء، وأرواح المؤمنين أنَّ أرواح الشهداء لها قناديلُ مُعَلَّقة تحت العرش، وتلك ليس لها، وكذلك هناك فرق، وهو أنَّ ظاهِر السُّنة أنَّ أرواحَ المؤمنين غيرُ أرواح الشهداء، فأرواح المؤمنين هي نفسُها طير، وهذه أرواحٌ في جوف الطير، فهي أعظمُ تكريمًا من الأول.

١٣٥- فَالرُّوحُ بَعْدَ الْـمَوْتِ أَكْمَـلُ حَالَـةً ... مِنْهَـا بِهَـذِي الـدَّارِ فِي جُـثْمَانِ

يعني أنَّ الروحَ إذا فارقت البَدَنَ -وهي مِن أرواح المؤمنين- فإنها أكملُ حالةً منها في اتصالها بالبَدَن في الدنيا.

وانظر إلى كلام الله عزَّ وجلَّ في آية مِن القرآن حيث قال: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى:١٦-١٧] وهذا مُطْلَق.

---

(١) كما في حديث الشهداء: «أَرْوَاحُهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ، لَـهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ، تَسْرَحُ مِنَ الْـجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ». أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب بيان أن أرواح الشهداء في الجنة، وأنهم أحياء عند ربهم يرزقون، رقم (١٨٨٧).

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [النساء:٧٧] وهذا مُقيَّد.

وقال الله لنبيه: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الضحى:٤].

فهذه ثلاثُ مراتبَ: المرتبة الأولى بالنسبة للآخرة مِن حيثُ إنَّها خيرٌ مِن الدنيا مِن حيثُ هي، ثُمَّ مَنْ يتمتع بهذا الخير، وهو مَن اتقى، ثم مَنْ شُهِدَ له بأنه سيتمتع بِعَيْنِه وهو الرسول ﷺ: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾ وهذا مِن شهادة الله تعالى لنبيِّه ﷺ أنَّ الآخرةَ خيرٌ له مِن الأُولى.

١٣٦- وَعذَابُ أَشْقَاهَا أَشَدُّ مِنَ الَّذِي ... قَدْ عَايَنَتْ أَبْصَارُهَا بِعِيَانِ

إي -والله- أَشدُّ، عذابُ الأشقى مِن الأرواح أشدُّ مِن عذاب الدنيا كلها، ألم تعلموا أنَّ نارَ الآخرة «فُضِّلَتْ عَلَى نَارِ الدُّنْيَا بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا؟»[1] فكُلُّ نار الدنيا مِن أولها إلى آخرها، نارُ الآخرةِ أشدُّ بِتِسْعَةٍ وسِتِّين جزءًا، نسأل الله العافية.

١٣٧- وَالْقَائِلُونَ بِأَنَّهَا عَرَضٌ أَبَوْا ... ذَا كُلَّهُ، تَبًّا لِذِي نُكْرَانِ

القائلون بأنها عَرَضٌ يقولون: ليس هناك رُوحٌ تَخرج مِن الجسد تُعَذَّبُ وتُنَعَّم، وغاية ما حصل للبدن تغيُّرٌ مِن حياةٍ إلى موتٍ، كما يتغيّر مِن صحةٍ إلى مرضٍ.

* * *

١٣٨- وَإِذَا أَرَادَ اللهُ إِخْرَاجَ الْوَرَى ... بَعْدَ الْمَمَاتِ إِلَى الْمَعَادِ الثَّانِي

١٣٩- أَلْقَى عَلَى الْأَرْضِ الَّتِي هُمْ تَحْتَهَا ... وَاللهُ مُقْتَدِرٌ وَذُو سُلْطَانِ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة النار، وأنها مخلوقة، رقم (٣٠٩٢)، ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في شدة حر نار جهنم، رقم (٢٨٤٣).

١٤٠- مَطَـرًا غَلِيظًـا أَبْيَضًـا مُتَتَابِعًـا ... عَشْـرًا وَعَشْـرًا بَعْـدَهَا عَشْـرَانِ

١٤١- فَتَظَـلُّ تَنْبُـتُ مِنْـهُ أَجْسَامُ الْـوَرَى ... وَلُـحُومُهُم كَمَنَابِـتِ الرَّيْحَـانِ

١٤٢- حَتَّـى إِذَا مَـا الأُمُّ حَـانَ وِلَادُهَـا ... وَتَمَخَّضَـتْ فَنِفَاسُـهَا مُتَـدَانِي

١٤٣- أَوْحَى لَـهَا رَبُّ السَّمَا[1] فَتَشَـقَّقَتْ ... فَبَـدَا الْـجَنِينُ كَأَكْمَـلِ[2] الشُّـبَّانِ

١٤٤- وَتَخَلَّـتِ الأُمُّ الْوَلُـودُ وَأَخْرَجَـتْ ... أَثْقَالَـهَا أُنْثَـى وَمِـنْ ذُكْـرَانِ

الشـرحُ

أشار المؤلف -رحمه الله- إلى كيفية بَعْثِ الله الوَرَى، وقد ذكر الله -سبحانه وتعالى- أنَّ بَعْثَ الناس كإنزال المَطَر على الأرض، قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ [ق:٩-١١] وأمثال هذه الآية كثير.

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت:٣٩].

١٣٨- وَإِذَا أَرَادَ اللهُ إِخْـرَاجَ الْـوَرَى ... بَعْـدَ الْـمَمَاتِ إِلَى الْـمَعَادِ الثَّانِي

١٣٩- أَلْقَى عَلَى الأَرْضِ الَّتِي هُـمْ تَحْتَهَـا ... وَاللهُ مُقْتَـدِرٌ وَذُو سُـلْطَانِ

١٤٠- مَطَـرًا غَلِيظًـا أَبْيَضًـا مُتَتَابِعًـا ... عَشْـرًا وَعَشْـرًا بَعْـدَهَا عَشْـرَانِ

---

(١) في بعض الأصول: «الورى».

(٢) في نسخة الإفتاء: «كأجمل».

فله عزَّ وجلَّ السُّلْطة الكاملة على كلِّ الخَلق، وله القُدرة التامة.

وأشبه ما له في هذا الوصف مَنِيُّ الرجال غليظًا أبيضًا.

وقال: (أبيضًا) بالصَّرْف لضرورة الشِّعر.

قَوْلُهُ: «مُتَتَابِعًا عَشْرًا وَعَشْرًا بَعْدَهَا عَشْرَانِ» يعني: أربعين يومًا، وهو يمطر الأرض ليلًا ونهارًا، وفي هذه الأربعين يَصِل الماء إلى قَعْر القُبور فتَنْبُت الأجسامُ، فكما نَبتَت بِمَنِيِّ الرِّجال أولًا تَنْبُت الآن بهذا المطر.

١٤١- فَتَظَلُّ تَنْبُتُ مِنْهُ أَجْسَامُ الْوَرَى ... وَلُحُومُهُمْ كَمَنَابِتِ الرَّيْحَانِ

كالأرض مثلًا التي فيها حُبُوب الرَّيحان، إذا أتاها المطر بدأت تَنْبُت.

١٤٢- حَتَّى إِذَا مَا الْأُمُّ حَانَ وِلَادُهَا ... وَتَمَخَّضَتْ فَنِفَاسُهَا مُتَدَانِي

قَوْلُهُ: «حَانَ» يعني: قرُب، والمراد بـ(الأمّ) هنا الأرض.

١٤٣- أَوْحَى لَهَا رَبُّ السَّمَا فَتَشَقَّقَتْ ... فَبَدَا الْجَنِينُ كَأَكْمَلِ الشُّبَّانِ

إذا كمل الناس في قبورهم مِن هذا الماء أوحى الله للأرض أن تتشقق عن أجسامها، فإذا تَشَقَّقَت عن أجسامها، يقول -رحمه الله-: (فَبَدَا الْجَنِينُ كَأَكْمَلِ الشُّبَّانِ).

١٤٤- وَتَخَلَّتِ الْأُمُّ الْوَلُودُ وَأَخْرَجَتْ ... أَثْقَالَهَا أُنْثَى وَمِنْ ذُكْرَانِ

الآن تَخَلَّت عن الناس، وخرج الناس على ظَهْرِها، ثُمَّ يوحي الله إلى إسرافيلَ أن يَنْفُخَ في الصُّورِ، فينفُخُ في الصُّورِ النَّفْخَة الثانية، وأما النَّفْخَةُ الأُولى فيموت الناس الموجودون، فتَخْرُج الأرواح مِن هذا الصُّورِ بعد أن اجتمعَت فيه،

وتذهب كُلُّ رُوحٍ إلى جَسَدِها التي كانت تَعْمُرُه في الدنيا، لا تخطئه أبدًا، وهذا مع كثرة العَالَم، لأنَّ الله أمَرَها أن تذهب إلى أجسادها، ولا مَفَرَّ لها مِن أَمْرِ الله عزَّ وجلَّ فإذا ذَهَبَت إلى أجسادها فإذا هم قِيَامٌ ينظرون.

وكُلُّ ذلك بإذن الله وإرادَتِه وقُدْرَتِه، قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات:١٣-١٤] وقال تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس:٥٣] الأول والأخير، والصغير والكبير، والذَّكر والأُنثى، بِصَيْحَةٍ واحدة يَحْضُرُون إلى الله عزَّ وجلَّ للقضاء بينهم، وهذا هو الحقُّ، وهو المعقول المؤيَّد بالمنقول.

أما جَهْمٌ وأَتْبَاعُه، فإنهم -في الحقيقة- على شَفَا[1] جُرُفٍ[2] هَارٍ، انْهَارَ بهم في مهاوي الضلال، والعياذ بالله.

* * *

١٤٥- وَاللهُ يُنْشِئُ خَلْقَهُ فِي نَشْأَةٍ ... أُخْرَى كَمَا قَدْ قَالَ فِي الْفُرْقَانِ

١٤٦- هَذَا الَّذِي جَاءَ الكِتَابُ وَسُنَّةُ الْهَـ ... ـادِي بِهِ، فَاحْرِصْ عَلَى الْإِيمَانِ

١٤٧- مَا قَالَ: إِنَّ اللهَ يُعْدِمُ خَلْقَهُ ... طُرًّا كَقَوْلِ الْجَاهِلِ الْحَيْرَانِ

الشرحُ

تقَدَّم أنَّ ابن القيم -رحمه الله- كَرَّر، وأَبْدَى، وأَعَادَ في الأدلة الدَّالَّة على أنَّ الخَلْق لا يُسْتَبْدل بِخَلْق آخرَ غير الأول، ولكنه يُعَادُ كما كان، قال:

---

(١) الشَّفا: حَرْفُ كلِّ شيءٍ. انظر: تاج العروس، مادة: شفي.
(٢) الـجُرُفُ مَا أَكلَ السيلُ مِنْ أَسْفَلِ شِقِّ الْوَادِي والنَّهر. انظر: لسان العرب، مادة: جرف.

١٤٥- وَاللهُ يُنْشِـــئُ خَلْقَـــهُ فِي نَشْـــأَةٍ　　أُخْـرَى كَـمَا قَـدْ قَـالَ فِي الْفُرْقَـانِ

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [النجم:٤٧] والنشأة لا تعني إبدال الأوَّلِ بِآخَرَ، بدليل قول الله -تبارك وتعالى- في أطوار الحمل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون:١٢-١٤] فبقوله تعالى: ﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾ تَمَّ الجسم الآن، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ وذلك بعد نَفْخ الرُّوح فيه، لأنه صار الآن حَيًّا.

فهل قوله: ﴿أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ معناه: أَعْدَمْنَا الأوَّلَ، وأنشأنا جديدًا؟ الجواب: لا، ولكن تبدَّلت أوصافه، كذلك قول الله -سبحانه وتعالى-: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [النجم:٤٧] يعني: البَعْث، والبَعْث ليس معناه إعدام الأول، ثُمَّ إنشاء خلق آخر.

١٤٦- هَذَا الَّذِي جَاءَ الكِتَابُ وَسُنَّةُ الْهَـ　　ـادِي بِـهِ، فَـاحْرِصْ عَـلَى الْإِيـمَانِ

١٤٧- مَـا قَـالَ: إِنَّ اللهَ يُعْـدِمُ خَلْقَـهُ　　طُـرًّا كَقَـولِ الْـجَاهِلِ الْـحَيْرَانِ

قَوْلُهُ: «مَا قَالَ» الضمير يعود على الله عزَّ وجلَّ يعني ما قال الله: (**إِنَّ اللهَ يُعْدِمُ خَلْقَهُ طُرًّا كَقَوْلِ الْـجَاهِلِ الْـحَيْرَانِ**).

وَقَوْلُهُ: «**الْـجَاهِلِ الْـحَيْرَان**» المراد به: الجَهْمُ بن صَفوان.

الأصول التي تقدَّمت في مذهب جَهْمٍ ينبغي للإنسان أن يُقَيِّدَها فيقول: خالف في كذا، وفي كذا في الإيمان، وفي الصفات، وفي إعادة الخَلق، فيُقَيِّدها

في دَفْتَرٍ خاصٍّ، حتى لا يذهب عليه العِلم، وكُلُّ إنسان وقُدرته، وكُلُّ إنسان وأسلوبه، المهم ألَّا تكون مجرد قراءة، تقول مثلًا ذكر ابن القيم -رحمه الله تعالى- مثلًا أُصُول مَذْهَب الجَهْمِيَّة التي خالفوا بها أهل السُّنَّة والجماعة، ثم تُذْكر، حتى تكون مرجعًا.

* * *

فصل

١٤٨- وَقَضَى بِأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِفَاعِلٍ ... فِعْلًا يَقُومُ بِهِ بِلَا بُرْهَانِ

١٤٩- بَلْ فِعْلُهُ الْمَفْعُولُ خَارِجَ ذَاتِهِ ... كَالْوَصْفِ غَيرِ الذَّاتِ فِي الْحُسْبَانِ

١٥٠- وَالْجَبْرُ مَذْهَبُهُ الَّذِي قَرَّتْ بِهِ ... عَيْنُ الْعُصَاةِ وَشِيعَةُ الشَّيْطَانِ

١٥١- كَانُوا عَلَى وَجَلٍ مِنَ الْعِصْيَانِ إِذْ[1] ... هُوَ فِعْلُهُمْ، والذَّنْبُ لِلْإِنْسَانِ

١٥٢- وَاللَّوْمُ لَا يَعْدُوهُ إِذْ هُوَ فَاعِلٌ ... بِإِرَادةٍ وَبِقُدْرَةِ الْحَيَوَانِ

١٥٣- فَأَرَاحَهُمْ جَهْمٌ وَشِيعَتُهُ مِنَ اللْـ ... ـلَوْمِ الْعَنِيفِ وَمَا قَضَوْا بِأَمَانِ

١٥٤- لَكِنَّهُمْ حَمَلُوا ذُنُوبَهُمُ عَلَى ... رَبِّ الْعِبَادِ بِعِزَّةٍ وَأَمَانِ

١٥٥- وَتَبَرَّؤُوا مِنْهَا، وَقَالُوا: إِنَّهَا ... أَفْعَالُهُ مَا حِيلَةُ الْإِنْسَانِ

الشرحُ

١٤٨- وَقَضَى بِأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِفَاعِلٍ ... فِعْلًا يَقُومُ بِهِ بِلَا بُرْهَانِ

١٤٩- بَلْ فِعْلُهُ الْمَفْعُولُ خَارِجَ ذَاتِهِ ... كَالْوَصْفِ غَيرِ الذَّاتِ فِي الْحُسْبَانِ

قَوْلُهُ: «وَقَضَى بِأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِفَاعِلٍ...» وهذا أيضًا مِن أُصولِه الخَبيثة.

---

(١) في نسخة الشرح: «ذا».

قَوْلُهُ: « **بِلَا بُرْهَانِ**» أي: بلا دليل.

يقول جهمٌ: إِنَّ الله ليس بفاعلٍ فِعلًا يقوم به، يعني: ليس بِخَالِقٍ خلقًا هو وَصْفُه، ولا بِسَامِعٍ سَمْعًا هو وَصْفُه، بل خَلْقُه مَخْلُوقُه، فيكون مخلوقٌ بلا خَلْق، مخلوق لله، لكن بلا خَلْقٍ هو فعلُ الله.

ومِن المعلوم أنه يوجد خَالِقٌ، وخَلْق وهُو فِعل الخَالِق، ومخلوقٌ، وهو بائنٌ مُنْفَصِل.

فالجهم يقول: إنَّ الله -سبحانه وتعالى- لَيْس بخالقٍ بِخَلْقٍ هو وَصْفُه، لماذا؟

الجواب: لأنه ينفي الصفات، فيقول: لا يُوصَفُ اللهُ بِخَلْقٍ، والخَلْق عنده مَصْدَرٌ بمعنى اسم المفعول، أي: إنه مَخْلُوقٌ، والعَجَب أنه يُقِرُّ بخالقٍ، ولا يُقِرُّ بِخَلْقٍ، ويُقِرُّ بمخلوقٍ، فالواسطةُ بينهما عنده مَنْفِيَّةٌ.

قَوْلُهُ: «**بَلْ فِعْلُهُ المَفْعُولُ خَارِجَ ذَاتِهِ**» ويجوز (خارجُ).

وَقَوْلُهُ: «**بَلْ فِعْلُهُ الْـمَفْعُولُ خَارِجَ ذَاتِهِ**» يعني: حَالَ كَوْنِه خَارِجَ ذَاتِه، لأنَّ المفعول -كما نعلم- ليس في الذات، فأنت إذا صَنَعْت طعامًا، فالطَّعامُ ليس وَصْفَكَ، وليس ذاتَك أيضًا، ولكنه شيءٌ خارجٌ ليس بالذات، ولا بالصفات.

قَوْلُهُ: «**كَالْوَصْفِ غَيرِ الذَّاتِ فِي الحُسْبَانِ**» يعني: كما يقول أيضًا: إنَّ الوصفَ غيرُ الذات، ولكننا لا نُثبِتُ الوَصْف، لأننا لو أثبتنا الوَصْف لأَثْبَتْنَا قُدَمَاء مُتَعَدِّدين: سمعًا قديمًا، بَصرًا قديمًا، قُدْرَةً قديمة، عِلمًا قديمًا، وهذا يقتضي تَعَدُّد الآلهة، لأنَّ أخصَّ وَصْفٍ للإله -عِنْدَهُم- هو القِدَم.

وتَضَمَّنَ البيتان أنّ الله -سبحانه وتعالى- ليس بفاعلٍ فِعلًا يقوم به، فليس بخالقٍ خَلْقًا يقوم بذاته، وليس بِمُسْتَوٍ استواءً يَقُوم بذاته، وليس بآتٍ يومَ القيامة إتيانًا يقوم بذاته، وليس بنازلٍ إلى السماء الدنيا نُزُولًا يَقُوم بذاته، وليس بِرَازِقٍ رِزْقًا يَقُوم بذاته، فلا يَقُوم بذاته فِعْلٌ أبدًا، لماذا؟ قال: لأنَّ هذه الأفعال حوادثُ، ولو قامت بالرَّبِّ عزَّ وجلَّ لكان حَادِثًا، لأنَّ الحوادث لا تقومُ إلا بِحَادِثٍ.

انظر كيف جَعَلَ التَّعْطِيلَ في قالب التَّنْزِيه؟! فالذي يَسْمَعُ هذا الكلام يقول: نعم، هذا صحيحٌ وطَيِّبٌ، لكنه -في الحقيقة- ليس تَنْزِيهًا، بل هو تعطيلٌ لكمال الله عزَّ وجلَّ فيقول: إنَّ الله -سبحانه وتعالى- لا يَفْعَلُ فِعْلًا يقوم به، ثُمَّ يقول: إنَّ الإنسان أيضًا لا يَفْعَل فِعْلًا يَقُومُ به.

١٥٠- وَالْـجَبْرُ مَذْهَبُهُ الَّـذِي قَـرَّتْ بِـهِ ... عَـيْنُ الْعُصَـاةِ وَشِـيعَةُ الشَّـيْطَانِ

الجَبْر هو مذهب الجَهْمِيَّة، ومعنى الجبر: أَنَّ الإنسان مُجْبَرٌ على عَمَلِه، كقول القائل:

أَلْقَاهُ فِي الْيَمِّ مَكْتُوفًا وَقَالَ لَهُ: ... إِيَّاكَ إِيَّاكَ أَنْ تَبْتَـلَّ بِالْـمَاءِ[1]

فالجَبْر مذهبُ جَهْمٍ، الإنسان العاصي يَزْنِي ويَسْرِق، ويشرب الخَمر، ويَقْتُل النَّفْس بِغَير حقٍّ، يقول الجَهم: إنه مُجْبَر على عَمَلِه أي: بِغَيْر اختيارٍ منه.

وهل يؤاخذ عليه وهو مُجْبَر؟ قال: نعم يُؤاخذ، والله تعالى إذا آخَذَه على ذَنْبِه وهو مُجْبَرٌ فَلَيْس بِظَالِـمٍ، لأنَّ الظُّلْم عنده -كما سبق- مُحَال ممتنع لذاته، لأنه إن فَعَلَ شيئًا فَعَلَه في مُلْكِه.

---

(١) البيت في نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، لشهاب الدين التلمسان (٥/ ٢٩٢) بلا نسبة.

فلذلك الآن أهلُ المعصية، وشِيعةُ الشيطان الذين يأخذون بِوَحْيِ الشيطان سوف تَقَرُّ أَعْيُنُهم بهذا المذهب، لأنهم يقولون: نحن الآن مُجْبَرون، ما لنا ولكم، فكما أنَّ الإنسان لا يُغيِّر لَوْنَه، ولا يُغَيِّر صُورَته، ولا يُغَيِّر طُولَه ولا قِصَرَه، فكذلك لا يُغَيِّر عَمَلَه، لأنه مُجْبَرٌ عليه.

وهل هذا مَذْهَبٌ؟ الجواب: لا، والله ليس بِمَذْهَبٍ، ولا أحدَ يقول به، أَيُّ عاقلٍ يمكن أن يقول: حَرَكَةُ يدي هكذا كَصُورَتِي، ليس لي فيها تَصَرُّف، لا أحد يقول بهذا، الصُّورَةُ ليس للإنسان فيها تَصَرُّفٌ، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [آل عمران:٦] فليس للإنسان تَصَرُّفٌ فيها: جَمِيل قَبِيح، طَوِيل قَصِير، أَسْوَد أبيض، ليس له تصرُّف فيها.

هو يقول: نَفْسُ الفِعل ليس فيه تَصَرُّف، فالطائعُ والعاصي كلاهما يَفعل بِغَير اختياره.

والله لو حَدَّثْتَ عَجُوزًا بهذا الكلام، لقالت: ما هذا الكلام؟! ومع ذلك هؤلاء يَدَّعون أنهم أهلُ العَقْل، وأنَّ هذا مُقتَضَى العقل، لأنَّ الرَّبَّ هو الرَّبُّ يفعل ما يشاء، فنقول: نعم، الرَّبُّ يفعل ما يشاء، لكنه أعطى المخلوق إرادةً وقُدْرةً ومشيئة.

يقول:

١٥١- كَانُوا عَلَى وَجَلٍ مِنَ الْعِصْيَانِ إِذْ ... هُوَ فِعْلُهُمْ، والذَّنْبُ لِلْإِنْسَانِ

١٥٢- وَاللَّوْمُ لَا يَعْدُوهُ إِذْ هُوَ فَاعِلٌ ... بِإِرَادةٍ وَبِقُدْرَةِ الْحَيَوَانِ

الضمير في قَوْلِهِ: «كانُوا» يَعُود على العُصاة وشِيعَة الشيطان.

وَقَوْلُهُ: «إِذْ» في نسخة: «ذا» أي: العِصيان الذي هو فِعلهم، والذَّنْب لمن؟ الجواب: للإنسان.

فالإنسان فاعلٌ بإرادة وفاعل بِقُدْرَة، ولولا الإرادة لم يَفعل، ولولا القُدرة لم يَفعل أيضًا، فهَل الإنسان -مثلًا- إذا كان لا يريد القيام، ولكنه يُريد أن يجلس، ويَبقى عند صاحِبه ليتحدث معه، هل يقوم؟ الجواب: لا، لأنه ما أراد، وكذلك لو أراد القيام، ولكن أصابه شَلَل، فهل يمكن أن يقوم؟ الجواب: لا يقوم.

إِذَنْ فِعْلُ الإنسان بإرادةٍ وقُدرة، وما دام بإرادته وقُدرته فاللَّوم عليه وَحدَه إذا عصى، فالعُصاة خائفون وَجِلُون، لأنهم يعلمون أنهم يفعلون المعصية بإرادتهم وقدرتهم، وأنَّ اللَّوْم يلحقهم.

١٥٣- فَأَرَاحَهُمْ جَهْـمٌ وَشِـيعَتُهُ مِـنَ اللْـ ... لَـوْمِ الْعَنِيـفِ وَمَـا قَضَـوْا بِأَمَـانِ

أي قال جهم لهم: استريحوا، ولا تخافوا، لا عليكم، أنتم مُجْبَرون على هذا، هل أحدٌ منكم قَصِير يستطيع أن يرفع قامَتَه؟ أو طويلٌ يستطيع أن يُنزِل قَامَتَه؟ الجواب: لا، وهذا نَفْس الشيء، استريحوا، اعصُوا، ازنُوا، اسرِقوا، اشْرَبوا الخمر، لا عليكم، لأنَّ الإنسان مُجْبَر.

وهذا الذي يقوله ابن القيم -رحمه الله- ليس تَخَيُّلًا، بل هو واقعٌ، فهُم يرون أنَّ الإنسان مُجبَرٌ، ليس له إرادة إطلاقًا، وأظنُّ أنه قَبْلَ أن يسمع أحدٌ هذا القول الباطل، أنه لا يُظَنُّ أن تَرْسُخَ قدم إنسان على هذا القول، فكلٌّ يمشي بإرادته، يسافر بإرادته، ويُقيم بإرادته، ويقرأ بإرادته، ويمتنع بإرادته، فلا أحد يُنكر هذا.

ومع أن الجَهْمِيَّة أراحوهم مِن اللَّوْم، لكنهم ما أَمَّنُوهم مِن العِقاب، لأنَّ اللهَ سيعذبهم وهم ليس عليهم لَوْمٌ، لكن يعذبهم، لأنَّ الظُّلْم في حقه مستحيل، فهو

رتَّب العُقوبة على هذا الفِعل، وهؤلاء أُجبِروا على فِعله، وله أن يعاقبهم على شيء يُجْبَرُون عليه، لهذا قال: (وَما قَضَوْا بِأَمَانِ)، يعني: ما أَمَّنوهم مِن العقوبة مع أنهم مُجْبَرون.

١٥٤- لَكِنَّهمْ حَمَلُوا ذُنُوبَهُمُ عَلَى رَبِّ الْعِبَادِ بِعِزَّةٍ وَأَمَانِ

١٥٥- وَتَبَرَّؤُوا مِنْهَا، وَقَالُوا: إِنَّهَا أَفْعَالُهُ مَا حِيلَةُ الْإِنْسَانِ

يقولون - نسأل الله العافية -: إنَّ أفعالك هي أفعالُ الله، ما لك فيها حِيلَة، فأنت مُجْبَرٌ عليها، فانظر إلى هذا التناقض! يرفعون اللَّومَ عنهم، لأنهم مُجبَرون، ويُوجِبُون العِقَاب لهم، لأنه لا ظُلمَ، فالله لا يَظْلِم أحدًا، فانظر كيف التناقض؟! وكان المفروض أن يكون اللَّوْم على الله عزَّ وجلَّ، ولذلك ألزمهم به ابن القيم -رحمه الله-.

يقال: إنَّ رجلًا سارقًا قُدِّمَ إلى أمير المؤمنين عمرَ بنِ الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فحَكَم بِقَطْعِ يَدِه لِتَمام الشروط، وَقَالَ لَهُ: مَا حَمَلَكَ عَلَى هَذَا؟ قَالَ: الْقَدَرُ -يريد أن يحتجَّ بالقَدَر- فَضَرَبَهُ أَرْبَعِينَ سَوْطًا، وَقَالَ: «قَطَعْتُ يَدَكَ لِسَرِقَتِكَ، وَضَرَبْتُكَ لِفِرْيَتِكَ عَلَى الله»[1].

وبذلك يكون أَلْقَمَه حَجَرًا، مع أنَّ أمير المؤمنين يَقْطَع يَدَه بقَدَر الله، وشرع الله، وهو يسرق بِقَدَرِ الله، لا بِشَرْع الله، لكنَّ أميرَ المؤمنين عَدَل عن الحُجَّة الشرعية إلى الحُجَّة القَدَرِيَّة إلزامًا له بما أَقَرَّ به أنه سرق بِقَدَر الله، فُتقطعُ يدُه بِقَدَر الله.

---

(١) أخرجه الرامَهُرمُزِي في المحدث الفاصل (ص:٣١٧)، والخطيب في الجامع لأخلاق الراوي (٢/ ١٦٩).

١٥٦- مَا كَلَّفَ الْجَبَّارُ نَفْسًا وُسْعَهَا ... أَنَّى وَقَدْ جُبِرَتْ عَلَى الْعِصْيَانِ؟!

١٥٧- وَكَذَا عَلَى الطَّاعَاتِ أَيْضًا قَدْ غَدَتْ ... مَجْبُورَةً فَلَهَا إِذَنْ جَبْرَانِ

١٥٨- وَالْعَبْدُ فِي التَّحْقِيقِ شِبْهُ نَعَامَةٍ ... قَدْ كُلِّفَتْ بِالْحَمْلِ وَالطَّيَرَانِ

١٥٩- إِذْ كَانَ صُورَتُهَا تَدُلُّ عَلَيهِمَا ... هَذَا وَلَيْسَ لَهَا بِذَاكَ يَدَانِ

١٦٠- فَلِذَاكَ قَالَ بِأَنَّ طَاعَاتِ الْوَرَى ... وَكَذَاكَ مَا فَعَلُوهُ مِنْ عِصْيَانِ

١٦١- هِيَ عَيْنُ فِعْلِ الرَّبِّ لَا أَفْعَالُهُمْ ... فَيَصِحُّ عَنْهُمْ عِنْدَ ذَا نَفْيَانِ

١٦٢- نَفْيٌ لِقُدْرَتِهِمْ عَلَيْهَا أَوَّلًا ... وَصُدُورِهَا مِنْهُمْ بِنَفْيٍ ثَانِي

الشرحُ

هذا مترتبٌ على قوله بالجبر، فيقول الناظم -رحمه الله-:

١٥٦- مَا كَلَّفَ الْجَبَّارُ نَفْسًا وُسْعَهَا ... أَنَّى وَقَدْ جُبِرَتْ عَلَى الْعِصْيَانِ؟!

١٥٧- وَكَذَا عَلَى الطَّاعَاتِ أَيْضًا قَدْ غَدَتْ ... مَجْبُورَةً فَلَهَا إِذَنْ جَبْرَانِ

وعلى هذا يُرفَع التكليف، إذا كان مُجْبرًا على العصيان، وهو لا يستطيع أن يَنْفَكَّ منه، ولا طاقة له به، صار يُنفى عنه اللَّوْم.

فإن قيل: ما الفَرْقُ بين كلامِ جَهْمٍ هذا، والكلام بِوَحْدَةِ الوُجود عند الصوفية؟

الجواب: إذا قلنا: إنَّ أفعال العِباد هي أفعالُ الله، فهذا طريقٌ قريبٌ جدًّا إلى القول بِوَحْدَة الوجود، كما قال القائل:

وَكُلُّ كَلَامٍ فِي الْوُجُودِ كَلَامُهُ سَوَاءٌ عَلَيْنَا نَثْرُهُ وَنِظَامُهُ

قَوْلُهُ: «وَكُلُّ كَلَامٍ فِي الوجُودِ كَلَامُه» يعني: الله عزَّ وجلَّ.

ولا شك أنَّ هذا طريق إلى وَحْدَة الوجود.

١٥٨- وَالْعَبْدُ فِي التَّحْقِيقِ شِبْهُ نَعَامَةٍ قَدْ كُلِّفَتْ بِالْحَمْلِ وَالطَّيَرَانِ

النعامة إذا رأيتَها رأيت جِسمًا كبيرًا، ورأيتَ لها جناحين، تُكَلَّف بأنْ يُحْمَل عليها كما يُحْمَلُ على البعير وتطير، فهَل هذا ممكن؟ الجواب: غير ممكن!

مثلًا: واحِدٌ عنده نَعامة، ذهبَ يُحَمِّلُها أكياسًا مِن الأمتعة، ويقول: طيري، فلا تَقْدِرُ أن تَحمِلَ، ولا أنْ تَطِير، لأنَّ العبد عند الجَهْم كالنعامة كُلِّف ما لا يستطيع، فإذا فَعَل فِعْلًا فالفاعل هو الله عزَّ وجلَّ.

١٥٩- إِذْ كَانَ صُورَتُهَا تَدُلُّ عَلَيهِمَا هَذَا وَلَيْسَ لَهَا بِذَاكَ يَدَانِ

قَوْلُهُ: «إِذْ كَانَ صُورَتُها تَدُلُّ عَلَيهِمَا» أي: صورتها تدلُّ على الحَمْل والطيران، فتدلُّ على الحَمْل لأنها كبيرة، وعلى الطيران، لأنَّ لها أجنحة.

وَقَوْلُهُ: «هَذَا وَليسَ لَـهَا بِذَاكَ يَدَانِ» يعني: ليس لها قُوَّة.

١٦٠- فَلِذَاكَ قَالَ بِأَنَّ طَاعَاتِ الْوَرَى وَكَذَاكَ مَا فَعَلُوهُ مِنْ عِصْيَانِ

١٦١- هِيَ عَيْنُ فِعْلِ الرَّبِّ لَا أَفْعَالُهُمْ فَيَصِحُّ عَنْهُمْ عِنْدَ ذَا نَفْيَانِ

١٦٢- نَفْيٌ لِقُدْرَتِهِمْ عَلَيْهَا أَوَّلًا وَصُدُورِهَا مِنْهُمْ بِنَفْيٍ ثَانِي

يعني ينفي القُدرة فيقول: الإنسان ليس بقادرٍ على عَمَلِه، وهل هذا صحيح؟ هل هو قادرٌ على عَمَلِه، أو غير قادر؟ الجواب: هو قادر له قُدْرَةٌ، أعطاه الله إيَّاها.

وهل هو الفاعل، أو غيره؟ الجواب: هو الفاعل.

هو يقول: لا قُدرةَ، ولا فاعِلَ، لا قُدْرَة، لأنه مُجْبَرٌ، ولا فاعِلٌ، لأنَّ فِعْلَه عينُ فِعل الرَّبِّ عزَّ وجلَّ.

إِذَنْ ما هما النفيان؟ بَيَّنَهما بأنهما نفيُ القُدْرَة، ونَفْيُ صُدُورِها منهم.

* * *

١٦٣- فَيُقَالُ: مَا صَامُوا وَلَا صَلَّوْا وَلَا ... زَكَّوْا وَلَا ذَبَحُوا مِنَ الْقُرْبَانِ

١٦٤- وَكَذَاكَ مَا شَرِبُوا وَمَا قَتَلُوا وَلَا ... سَرَقُوا وَلَا فِيهِمْ غَوِيٌّ زانِي

١٦٥- وَكَذَاكَ لَمْ يَأْتُوا اخْتِيَارًا مِنْهُمُ ... بِالْكُفْرِ وَالْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ

١٦٦- إِلَّا عَلَى وَجْهِ الْمَجَازِ لِأَنَّهَا ... قَامَتْ بِهِمْ كَالطَّعْمِ وَالْأَلْوَانِ

١٦٧- جُبِرُوا عَلَى مَا شَاءَهُ خَلَّاقُهُمْ ... مَا ثَمَّ ذُو عَوْنٍ وَغَيْرُ مُعَانِ

١٦٨- وَالْكُلُّ مَجْبُورٌ وَغَيْرُ مُيَسَّرٍ ... كَالْمَيْتِ أُدْرِجَ دَاخِلَ الْأَكْفَانِ

الشرحُ

١٦٣- فَيُقَالُ: مَا صَامُوا وَلَا صَلَّوْا وَلَا ... زَكَّوْا وَلَا ذَبَحُوا مِنَ الْقُرْبَانِ

على مذهب الجَبر، لا يقال: إنَّ الإنسان هو المصلِّي، وهو الصائم، وهو المزكّي، وهو الدَّاعي، وهو المتقرِّب إلى الله بالذبح، إِلَّا على سبيل المجاز، لأنَّ فاعل هذه الأشياء حقيقةً هو الله عزَّ وجلَّ نسأل الله العافية. اللهمّ ربنا لا تُزِغ قلوبنا بعد إذ هديتنا.

فليَحْمَد المسلم رَبَّه إذ لم يجعله هكذا، لأنَّ هؤلاء رجالٌ لهم قلوب، ولهم فَهْمٌ، وأذكياء، ومع ذلك ضَلُّوا هذا الضلال البعيد.

إذا قام الإنسان يصلِّي يقول: هذا غير مُصَلٍّ، فَمَنِ المُصَلِّي؟ يقول: الله عزَّ وجلَّ فنقول: لكنَّ الكُلَّ يقول: إنَّ هذا الإنسان صَلَّى، قال: هذا مَجَازٌ، فَنِسْبَة الصلاة إليه مَجَاز، لأنَّها قامت به، وهي فِعل الرَّبِّ.

١٦٤- وَكَذَاكَ مَا شَرِبُوا وَمَا قَتَلُوا وَلَا سَرَقُوا وَلَا فِيهِمْ غَوِيٌّ زَانِي

١٦٥- وَكَذَاكَ لَمْ يَأْتُوا اخْتِيَارًا مِنْهُمُ بِالْكُفْرِ وَالْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ

يقول: المؤمن مَجْبُور على الإيمان، والكافر مَجْبُور على الكُفر.

١٦٦- إِلَّا عَلَى وَجْهِ الْمَجَازِ لِأَنَّهَا قَامَتْ بِهِمْ كَالطَّعْمِ وَالْأَلْوَانِ

طعمُ التَّمْر حُلوٌ طَيِّب، وطعمُ الشَّرْي[1] شديد المرارة، هذا الطعم الذي قام بالتمر وبالشَّرْي متقابلان، هل هو باختيار الشَّرْي والتمر؟ الجواب: لا، هكذا فِعلُ العَبدِ، كما يقومُ الطَّعم في المطعوم، يقوم الفِعل في الفاعل بالنسبة للعبد.

١٦٧- جُبِرُوا عَلَى مَا شَاءَهُ خَلَّاقُهُمْ مَا ثَمَّ ذُو عَوْنٍ وَغَيْرُ مُعَانِ

قَوْلُهُ: «جُبِرُوا عَلَى مَا شَاءَهُ خَلَّاقُهُمْ» قال: **(جبروا)** لم يقل: جُبلوا، ولو قال: **(جُبلوا)** صَحَّ، فالإنسان يُجْبلُ على الخُلُق الطَّيِّب، وعلى الخُلُق الرديء، وعلى العمل الصالح، وعلى العمل السيِّء، فهذه جِبِلَّة، ولهذا لما قال النبيُّ ﷺ لأَشَجِّ عبد القيس: «إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ: الْحِلْمُ، وَالْأَنَاةُ». قَالَ: يَا رَسُولَ الله،

---

(١) الشَّرْي -بالتَّسْكين-: الحَنْظَلُ، يقالُ: هو أَحْلَى مِن الأرْي، وأَمَرُّ مِن الشَّرْي. انظر: تاج العروس، مادة: شري.

أَخُلُقَيْن تَخَلَّقْتُ بِهِمَا أَمْ جَبَلَنِي اللهُ عَلَيْهِمَا، قَالَ: «بَلْ جَبَلَكَ اللهُ عَلَيْهِمَا»، قَالَ: الحَمْدُ لله الَّذِي جَبَلَنِي عَلَى خَلَّتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ وَرَسُولُهُ[1]. فأقرّ الجَبْل، لكنَّ الجبرَ لا يُقَرّ.

هو يقول: إنهم مُجْبرون.

قَوْلُهُ: «**مَا ثَمَّ ذُو عَوْنٍ، وَغَيْرُ مُعَانِ**» يعني: لا يوجد مُعِين، ولا مُعَانٌ، فالمُعِين هو الله عزَّ وجلَّ والمُعَانُ: الخَلْق، فهو يقول: هما شيءٌ واحد، يعني: أفعال الخَلْق هي أفعالُ الله، فَعَلَيْه قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ مِن قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥]، على زَعْمِه ليس لها فائدة، لأنَّ الفِعلَ فِعلُ الله.

١٦٨- وَالْكُلُّ مَجْبُورٌ وَغَيْرُ مُيَسَّرٍ ... كَالْمَيْتِ أُدْرِجَ دَاخِلَ الْأَكْفَانِ

الميت -أحسَنَ اللهُ لي ولكم الخاتمة- يُؤخذ جُثَّة مِن سَريرِ غُسله إلى أكفانه ويُدرَج، فهل هذا باختياره؟ الجواب: ليس باختياره، فهو يقول: الإنسان في أفعاله كالميت يُدْرَجُ داخل أكفانه.

لكن لو قال قائل: إنَّ الإنسان مُجْبَرٌ، والدليل قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال:١٧] فما الجواب؟

الجواب أن نقول: إنَّ قوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾ أي: ما أَوْصَلْت مَرْمِيَّك إليه، وقوله: ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾ بالفِعل، فالرسول رَمَى على وُجُوهِهم التُّرابَ وهذا فِعْل، لكن هل أَوْصَله؟ التُّراب ليس له نُفُوذٌ في الهواء كنُفُوذِ الحَجَر، ولذا فما يُوصَل، أَمَّا الحَجَر ربما يُوصِلُه الإنسان إلى ثلاثمئة ذِرَاع، لكن التراب ما يمكن.

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الأدب، باب في قبلة الرجل، رقم (٥٢٢٥)، وأصل الحديث عند مسلم: كتاب الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله ورسوله، وشرائع الدين، والدعاء إليه، رقم (١٧).

إِذَنْ (رميت) الأولى بمعنى: أَوصلتَ، والثانية: (الفعل)، الثالثة «وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ»: الإيصال.

العجب أنَّ الغاز المُسَيِّل للدموع أَصْلُه هذه المسألة، وهو رَمْيُ التراب إلى عيون المشركين، لأنه لما رمى الترابَ صار كُلُّ واحدٍ مَشْغولًا بعينه، أو نقول: إنَّ الغاز المسيل للدموع مأخوذ مِن هذا، فالأصول الأصيلة تجد لها أَصلًا في الشريعة مِن قَبْلُ.

* * *

١٦٩- وَكَذَاكَ أَفْعَالُ الْـمُهَيْمِنِ لَـمْ تَقُـمْ أَيْضًـا بِـهِ خَوْفًـا مِـنَ الْـحَدَثَانِ

١٧٠- فَـإِذَا جَمَعْـتَ مَقَالَتَيْـهِ أَنْتَجَـا كَـذِبًا وَزُورًا وَاضِـحَ الْبُهْتَـانِ

١٧١- إِذْ لَيْسَـتِ الْأَفْعَـالُ فِعْـلَ إِلَـهِنَا وَالـرَّبُّ لَـيْسَ بِفَاعِـلِ الْعِصْـيَانِ

١٧٢- فَـإِذَا انْتَفَـتْ صِـفَةُ الْإِلَـهِ وَفِعْلُـهُ وَكَلَامُـهُ وَفَعَائِـلُ الْإِنْسَـانِ

١٧٣- فَهُنَـاكَ لَا خَلْـقٌ وَلَا أَمْـرٌ وَلَا يُـوَحْيٌ وَلَا تَكْلِيـفُ عَبْـدٍ فَـانِي

الشـرحُ

١٦٩- وَكَذَاكَ أَفْعَالُ الْـمُهَيْمِنِ لَـمْ تَقُـمْ أَيْضًـا بِـهِ خَوْفًـا مِـنَ الْـحَدَثَانِ

أفعال المُهَيْمِن لا يصحُّ أن تُنْسَب إليه، يعني: كُلّ الصفات الفِعلية لا تُنْسَبُ إلى الله، فخَلْقُه بمعنى مَخْلُوقِه، وسَمعُه بمعنى مَسْمُوعِه، وهُلمَّ جرًّا.

قَوْلُهُ: «خَوْفًا مِنَ الْـحَدَثَانِ» يعني: خوفًا مِن أن تقوم به الحَوادث، والحوادثُ لا تقوم إِلَّا بحادثٍ، هذه قاعدتهم المهدومة، فنَفَى أيضًا أن تقوم الأفعال بالله،

وهذا مِن الغرائب، أفعال العباد بالنسبة لله أفعال الله، وأفعال الله لا تُنْسَبُ إلى الله، فهذا شيء عجيب، فانظر إلى هذا الهَذَيَان الذي ما فَوْقَه هَذَيَان!!

هذه المذاهب لولا أنَّ الذين ينقلونها ثقاتٌ: كابن القيم وابن تيمية -رحمهما الله- ما صَدَّقنا، لكن هم -جزاهم الله خيرًا- خَضُّوا لنا المَخِيضَ[1] فأظهروا الزُّبْد، فهم قرأوا كُتُب هؤلاء وَمَحَّصُوها وعَرَفُوها ونقلوها إلينا صافيةً، فهم -والله- ثقاتٌ، ثقاتٌ في نَقْلِهم، وثقاتٌ في فَهمهم أيضًا، لأنه ربما يُطالع الإنسانُ كتابَ شخص، ولا يعرف معناه، فَيَنقُل عنه ما لا يريد، لكنهم ثقاتٌ في النقل، وثقاتٌ في الفَهم.

فنقول: إن هذا المذهب لا يكاد يتصوّره عاقل، فضلًا عن أن يعتقده في رَبِّه.

١٧٠- فَــإِذَا جَمَعْــتَ مَقَالَتَيْــهِ أَنْتَجَــا ... كَــذِبًا وَزُورًا وَاضِــحَ الْبُهْتَــانِ

قَوْلُهُ: «كذبًا» أي: كذبًا في قولهم: إنَّ أفعالَ العباد أفعالُ الله.

قَوْلُهُ: «وَزُورًا» كذلك، وهو أقبح الكذب، ونَفيُهم أفعالَ الله عن نفسه أيضًا كذبٌ وزورٌ.

١٧١- إِذْ لَيْسَــتِ الْأَفْعَــالُ فِعْــلَ إِلَــهِنَا ... وَالــرَّبُّ لَــيْسَ بِفَاعِــلِ الْعِصْــيَانِ

١٧٢- فَــإِذَا انْتَفَــتْ صِــفَةُ الْإِلَــهِ وَفِعْلُــهُ ... وَكَلَامُــــهُ وَفَعَائِــــلُ الْإِنْسَــــانِ

١٧٣- فَهُنَــــاكَ لَا خَلْــــقٌ وَلَا أَمْــــرٌ وَلَا ... يــوَحْيٌ وَلَا تَكْلِيــفُ عَبْــدٍ فَــانِي

يعني: أنَّ أفعال الله ليست فِعْلَه.

---

(١) مَخَضَ اللبنَ يَمْخَضُه ويَمْخِضُه ويَمْخُضُه مَخْضًا، فهو مَمْخُوضٌ ومَخِيضٌ: أَخذ زُبْده، وَقَدْ تَمَخَّضَ، والمَخِيضُ والمَمْخُوض: الذي قد مُخِضَ وأُخذ زُبدُه. انظر: لسان العرب، مادة: مخض.

قَوْلُهُ: «**والرَّبُّ لَيْسَ بِفَاعِلِ الْعِصْيَانِ**» إذا نَفَى فِعلَ العبد وقيامَه بالعبد، وأنه قائم بالله، ثم نَفَى فِعْل الله، وقال: إنَّ الله لا تقوم به الأفعال خَوفًا مِن قيام الحوادث به، والحوادث -على زعمه- لا تقوم إلَّا بحادثٍ.

إِذَنْ انتفى فِعل الرَّبِّ عن الرَّبِّ، وانتفى فِعل العبدِ عن العبدِ، يعني أنَّ العبد لا يفعل، والرَّبّ لا يفعل، إذن لم يبقَ شيء، إذن لا شرعَ، ولا وَحْيَ، ولا قرآن، وهذا من اللوازم.

وقد تَقَدَّم في (القواعد المثلى)[1]: هل لازم المذهب مذهبٌ أو لا؟ وقلنا: أمَّا ما كان لازمًا مِن كلام الله، وكلام رسوله فهو حقٌّ، وأمَّا ما كان لازمًا مِن أقوال العلماء ومذاهبهم، فليس بمذهبٍ لهم لجَوَاز أن يلتزموا به فيكون مَذهبًا لهم، أو لا يلتزموا به، فلا يكون مذهبًا لهم، وسَبَق بيانُ سبب عدم التزامهم.

إِذَنْ هؤلاء -والعياذ بالله- نَفَوْا فِعل قيام الأفعال بالله، ونَفَوْا قيام الأفعال بالإنسان، وبذلك أبطَلوا القَدَر والشرع، وأبطلوا الحِكمة، وقد سبق أنهم لا يُثبِتون لله حِكْمةً.

فإذا كان الإنسان يفعل بغير اختياره، إذن كيف نمدحُ المُطيع، وكيف نذم العاصي؟! كيف نعاقب العاصي، وكيف نُثِيب المطيع؟! وإذا كان الله لم يَقُم به فِعلٌ، فأين كلامُه؟ وأين فِعلُه؟ وأين خَلْقُه؟ وأين تَدْبِيرُه؟

إِذَنْ يلزم على قولهم نفيُ الشرائع كُلِّها، وإبطالُ القَدَر والشرع، فهُم يَرَوْن أنَّ فِعل الله هو المفعول فقط، أمَّا أن يكونَ فِعلٌ قائمٌ به فلا، فهو مخلوق بلا خَلقٍ قائمٍ بالله، واللهُ خالقٌ بلا وصفٍ قائمٍ به، بل خالق، أي: له مخلوق.

---

(١) انظر: القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى، للمصنف (ص:١٣).

هم ينكرون فِعل الله الذي هو مُتَّصِف به، وهذا أكبر تناقض

ولا شك أنَّ القول الذي لا يَقبل العقلُ سِواه هو ما دلَّ عليه الكتابُ والسنةُ، فلا شك أنَّ الله موصوفٌ بالأفعال، وأنَّ الأفعال وصفُه -سبحانه وتعالى- قائمٌ به، ولا يلزم مِن حُدوث الفِعل حُدوثُ الفاعل بلا شَكٍّ.

وهل يمكن مفعولٌ بلا فِعل؟ الجواب: أبدًا، وهل يمكن أن يوجدَ قَصرٌ مبنيٌّ بدون بِنَاءٍ مِن بَانِيه؟ الجواب: أبدًا، فالمفعول يلزم منه سَبْقُ الفِعل، وإلَّا لَـمَا حَصَل المطلوب، ونقول أيضًا: إنَّ الإنسان هو الفاعل، ولو لم يكن هو الفاعل لَكَان الرَّجل إذا زَنَى لَذَهَبْنا لواحدٍ لم يَزْنِ، لأنَّ هذا ما فعل.

فنقول: الذي دلَّ عليه الكتاب والسنة هو أنَّ للإنسان فِعلًا قائمًا به يُحْمَدُ عليه وَيُذَّم، ويُثَابُ، ويُعَاقَب، ويَصِل به إلى الدرجات العُلَى، أو إلى الدَّرْك الأسفلِ مِن النار، هذا لا شكَّ فيه، وهو مقتضى العقل والشرع.

* * *

١٧٤- وَقَضَـى عَلَى أَسْمَائِهِ بِحُدُوثِهَا ... وَبِخَلْقِهَا مِنْ جُمْلَةِ الْأَكْوَانِ

١٧٥- فَانْظُرْ إِلَى تَعْطِيلِهِ الْأَوْصَافَ وَالْـ ... أَفْعَالَ وَالْأَسْمَاءَ لِلرَّحْمَنِ

١٧٦- مَاذَا الَّذِي فِي ضِمْنِ ذَا التَّعْطِيلِ مِنْ ... نَفْيٍ وَمِنْ جَحْدٍ وَمِنْ كُفْرَانِ

الشرحُ

١٧٤- وَقَضَـى عَلَى أَسْمَائِهِ بِحُدُوثِهَا ... وَبِخَلْقِهَا مِنْ جُمْلَةِ الْأَكْوَانِ

١٧٥- فَانْظُرْ إِلَى تَعْطِيلِهِ الْأَوْصَافَ وَالْـ ... أَفْعَالَ وَالْأَسْمَاءَ لِلرَّحْمَنِ

ابن القيم -رحمه الله- يقول: «**وَقَضَى**» يعني: جهمًا.

أسماء الله -تبارك وتعالى- قديمة تَسمَّى بها -جلَّ وعلا-، واستأثر بِعِلْم بعضها عن خَلْقه، وأظهَر ما يحتاج الناسُ إليه مِن أسمائه وعَرَّفهم بها، وهي قديمة.

والجهم يقول: أسماء الله حادثةٌ مخلوقةٌ، كما أنَّ كلامَه حادثٌ مخلوقٌ.

فعندنا الأسماء والصفات والأفعال، أمَّا الأسماء فنَفَى قِدَمَها، وقال: إن أسماء الله مخلوقة، وليست قَدِيمة، خَلَقَها كما خَلَق السموات والأرض.

وهو هنا أخطأ أو أصاب؟ الجواب: أخطأ.

فهو قال: إنَّ أسماءَ الله عزَّ وجلَّ مخلوقة، وليست قديمة بِقِدَمِه، قال: لأنَّ الاسم غير المُسَمَّى.

نقول: وهل صحيح أنَّ الاسم غيرُ المُسَمَّى؟

الجواب: إن قلت: (**نعم**) أخطأت، وإن قلت: (**لا**) أخطأت، بل فيه تفصيل:

١- إن أردت بالاسم اللفظَ الدَّالَّ على مُسَمَّاه فهو المُسمَّى، أنا إذا قلت: (**ادعُ لي زيدًا**)، فإنَّك تدعو نفْس زيد، وهو المسمَّى بهذا الاسم، فهو هو.

٢- أما إذا أُرِيد بالاسم الحروف الدالة على مُسَمَّاه، فهذا غيرُه بلا شَكٍّ، ولهذا إذا كتبت: (**زيد قام**)، وضَرَبْتَ حُروف (**زيد**) ضَربًا مُبْرِحًا، **فهل** (**زيد**) الذي (**عندي**) هل يقول: أوجعتني؟ الجواب: لا، لأنَّ الاسم غير المسَمَّى، لكن لو أقول: (**ادْعُ زيدًا**)، فهذا المسمَّى لا شك، قال الله تعالى: ﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ﴾ [غافر:١٤] والمراد مُسَمَّى هذا الاسم، ولا يحتمل اللفظ غيره.

لكن لو قلت: (**اكتب الله**)، فالمرادُ الاسمُ، يعني: الحروف الدَّالَّة على مسمَّاه.

فعَلَى هذا هم يقولون: إنَّ أسماء الله مخلوقه، لأنها غيرُه، فتَسَمَّى الله بها بعد أن لم يكن له اسم -والعياذ بالله- فكان مُعَطَّلًا عن الأسماء والأوصاف، وعن الأفعال، فلم يَبْقَ شيء.

إِذَنْ كان عَدَمًا، ثُمَّ صار موجودًا، والعياذ بالله.

ثُمَّ أتى إلى الأوصاف فقال: لا يمكن أن يُوصفَ بِصِفةٍ، لأننا لو وصفناه بصفةٍ قديمةٍ لَزِم تَعَدُّد القُدَماء، وهذا شِرك.

فانظر كيف صَاغَهُ بِقَالَبِ التنزيه؟!

وأتى إلى الأفعال فقال أيضًا: لا يمكن أن يَفْعَل، فلا يَقْدِر أن يستويَ على العرش، ولا أن ينزل إلى السماء الدنيا، ولا أن يَخْلُق، حتى الخَلْق حَوَّلَه إلى المخلوق (المفعول) فلا فِعْل.

فهو الآن نفى الأسماء والصفات والأفعال، ماذا بقي؟ لم يَبْقَ شيء.

لكن ماذا نقول نحن في هذا الأمر في الأسماء والصفات؟

نقول: إنَّ الله لم يَزَل، ولا يَزَال بأسمائه وصفاته، فأسماؤه وصفاتُه قديمةٌ بِقِدَمِه، صحيح أنَّ أنواع الصفات الفِعلية، أو أفرادها هي التي تكون حادثةً، فمَثلًا الاستواء على العرش كان حادثًا، والنُّزول إلى السماء الدنيا حادثٌ، والكلام باعتبار آحاده حادث، أمَّا الصفات الذاتية، فهي قديمة بِقِدَمِ الرَّبِّ عزَّ وجلَّ وكذلك الأسماء.

لكن انظر كيف صوَّر ابن القيم -رحمه الله وجزاه الله خيرًا، وجمعنا به في جنات النعيم- كيف صوَّر هذا؟

١٧٦- مَاذَا الَّذِي فِي ضِمْنِ ذَا التَّعْطِيلِ مِنْ نَفْيٍ وَمِنْ جَحْدٍ وَمِنْ كُفْرَانِ

قَوْلُهُ: «مَاذَا الَّذِي فِي ضِمْنِ ذَا التَّعْطِيلِ»؟ الجواب: ما الذي فيه؟ فيه كُلُّ شيء: كُفْرٌ وجَحْدٌ وتَعْطيلٌ.

* * *

١٧٧- لَكِنَّهُ أَبْدَى الْـمَقَالَةَ هَكَذَا فِي قَالَبِ التَّنْزِيهِ لِلرَّحْمَنِ

١٧٨- وَأَتَى إِلَى الْكُفْرِ الْعَظِيمِ فَصَاغَهُ عِجْلًا لِيَفْتِنَ أُمَّةَ الثِّيرَانِ

١٧٩- وَكَسَاهُ أَنْوَاعَ الْـجَوَاهِرِ وَالْـحُلَى مِنْ لُؤْلُؤٍ صَافٍ وَمِنْ عِقْيَانِ

١٨٠- فَرَآهُ ثِيرَانُ الْوَرَى فَأَصَابَهُمْ كَمُصَابِ إِخْوَتِهِمْ قَدِيمَ زَمَانِ

١٨١- عِجْلَانِ قَدْ فَتَنَا الْعِبَادَ بِصَوْتِهِ إِحْدَاهُمَا وَبِحَرْفِهِ ذَا الثَّانِي

الشرحُ

١٧٧- لَكِنَّهُ أَبْدَى الْـمَقَالَةَ هَكَذَا فِي قَالَبِ التَّنْزِيهِ لِلرَّحْمَنِ

قَوْلُهُ: «لَكِنَّهُ أَبْدَى الْـمَقَالَةَ هَكَذَا» يعني بالنَّفْيِ.

قَوْلُهُ: «فِي قَالَبِ التَّنْزِيهِ لِلرَّحْمَنِ» يعني: جَعَل هذا مِن باب التنزيه لله عزَّ وجلَّ فقال: الأسماء حادثةٌ، ليست قديمةً فهي مخلوقةٌ، والأوصاف مُنَزَّهٌ عنها، لأنه لو كان هناك صفة لَتَعَدَّدَ القُدَماء، والأفعال لا يمكن، لأنه لو قامت به الأفعال لكانَ حَادثًا.

هذا كُلُّه لو سمعه أحد مِن العوامِّ لظَنَّ أنَّ هذا جيِّد، وأنه حقيقة، لأنه صاغه في قالَب التنزيه للرحمن.

١٧٨- وَأَتَـى إِلَى الْكُفْـرِ الْعَظِـيمِ فَصَـاغَهُ عِجْــلًا لِيَفْـتِنَ أُمَّـــةَ الثَّـــيرَانِ

١٧٩- وَكَسَاهُ أَنْـوَاعَ الْـجَوَاهِرِ وَالْــحُلَى مِــنْ لُؤْلُــؤٍ صَــافٍ وَمِــنْ عِقْيَـانِ

صحيح، أتى إلى الكفر الصريح وجَعَله (**عِجْلًا**)، يشير إلى عِجل بني إسرائيل حينما جَعَل السَّامِرِيُّ مِن حُلِيِّهم عِجْلًا، وجَعَل داخِلَه مُجَوَّفًا، ومِن عند فَمِه ضَيِّقًا، فصاروا يُولُّونه الرِّيح، فتأتي مِن دُبُرِه، وتخرج مِن فَمِه لها صَوتٌ، ومعروفٌ أنَّ الريحَ إذا دخلَت مِن واسعٍ، وخَرَجَت مِن ضيِّقٍ يكون لها صوتٌ.

على كل حال لعلَّه جَعَل له تعاريج، أو أشياءَ مِن صُنعه، حتى إذا خرجت مِن فَمِه صارتْ كَخُوارِ الثَّوْرِ، والذي صنَع هذا هو السَّامريُّ -قَبَّحَه الله-، صنع هذا الحُلِيّ عِجْلًا بَعْدَما ذَهَب موسى لميقاتِ ربِّه، واستَخْلَف عليهم هارون -عليه الصلاة والسلام-.

ونَعلم أنَّ موسى -عليه السلام- كان ميعادُه ثلاثين لَيْلَة، وأَتَمَّها الله بِعَشْرٍ، فصارت أربعين ليلة، فلما تَـمَّتِ الثلاثون ولم يَأْتِ، صَنَع السامِرِيُّ هذا العِجل، وقال لهم: هذا هو إلهكم وإله موسى، لكنَّ موسى ضَلَّ، فقد ذَهَب، وتأَخَّر عن الموعد الذي وَعَدَنا فَضَيَّع إِلَـهَه، وهذا العِجْلُ إلـهُه، فإذا هَبَّت الريح دَخَلَت جَوْفَه، ثم خَرَجَت مِنْ ضَيِّقٍ، فصار له خُوارٌ، قال الله تعالى: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ [طه:٨٨].

الجَهْم جَعَل مقالته كَثَوْر بني إسرائيل، أَبْدَاها مُزَيَّنة مُزَخْرَفةً، أعطاه الله بيانًا يتكلَّم، ويَصنع الكلام كما شاء، قد أُلين له الكلام، فأظهر هذه المقالةَ التي هي التعطيل المحض، أظهَرَها على أنها تنزيهٌ لله عزَّ وجلَّ فَقَبِلَها الثيران، وأما الرجال، فَلَم يَقْبَلُوها.

وعلى هذا فنقول: الجَهْمِيَّة كُلُّهم ثِيران، وحُقَّ لهم، بل الثيران أحسنُ منهم، قال تعالى: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان:٤٤].

ونحن -والحمد لله- لا نقول: ادَّعَوْا عليه بلا بَيِّنَة، بل هذه مقالاتُه تَدُلُّ على أنهم ثِيرَانُ الوَرى.

وَقَوْلُهُ: «العِقْيَان» يعني: الذهب.

١٨٠- فَـرَآهُ ثِـيرَانُ الْـوَرَى فَأَصَـابَهُمْ كَمُصَـابِ إِخْـوَتِهِمْ قَـدِيمَ زَمَـانِ

قَوْلُهُ: «فَرَآهُ ثِيرَانُ الْوَرَى» أي: الذين لا يفهمون، فالذين تَبِعُوا هذا القولَ ثيرانٌ، لأنهم تَبِعوا هذا القول، وافتُتِنوا به، فهو أظهرَ لهم هذا القول على أنه تنزيهٌ للرَّب، والرَّبُّ حَاشَاهُ أن يفعل، وحَاشَاهُ أن يكون له وَصْفٌ، حَاشَاهُ أن يكون له أسماءٌ قديمة، فَأُعجبوا به، وأخذوا به، ولولا هذا ما أخذ بمقالته واحدٌ مِن الناس، لكن التَّمْوِيه.

قَوْلُهُ: «كَمُصَابِ إِخْوَتِهِمْ قَدِيمَ زَمَانِ» أي: بني إسرائيل، فهُم عَبَدُوا العِجْل، واتخذوه إلـهًا، ومع أنهم يعرفون أنه لا يَصلح أن يكون إلـهًا، لأنَّ الله عزَّ وجلَّ قال: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [طه:٨٩] فهو لا يتكلَّم، ولا يَرُدُّ عليهم، ولا يَضُرُّهم، ولا يَنْفَعُهُم، كيف يكون إلـهًا؟!

ثم قال:

١٨١- عِجْـلَانِ قَـدْ فَتَنَـا الْعِبَـادَ بِصَـوْتِهِ إِحْـدَاهُمَا وَبِحَرْفِـهِ ذَا الثَّـانِي

قَوْلُهُ: «عِجْلَانِ قَدْ فَتَنَا الْعِبَادَ» عِجْلان: العِجْلُ الأولُ: عِجلُ بني إسرائيل مِنَ الذَّهَب، والثاني: عِجْلُ الجَهْم بن صفوان مِن الكلام المُزَخْرَف والمُزَيَّف،

يقول: (فَتَنَا الْعِبَادَ بِصَوْتِهِ إِحْدَاهُمَا) أيهما الذي بِصَوْتِه؟ الجواب: عِجْل بني إسرائيل.

قَوْلُهُ: «وَبِحَرفِهِ ذَا الثَّانِي» (حرفه) يعني: كلامه، فهذا بالتحريف، أي: بتحريف الكَلِم عن مواضعه، وتزويقِ الكلام الذي يَحْسَبُه الظمآنُ ماءً، حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا.

فقَوْلُهُ: «ذا الثاني» يعني: جهمًا، فجَهْمٌ صاغ الكلامَ في قالَب التنزيه، والعِبادُ مَفْطُورون على تنزيه الله، لكنهم جاهلون، فَغَرَّهم هذا.

* * *

١٨٢- وَالنَّـاسُ أَكْثَـرُهُمْ فَأَهْـلُ ظَـوَاهِرٍ   تَبْـدُو لَـهُمْ لَيْسُـوا بِأَهْـلِ مَعَـانِي

١٨٣- فَهُـمُ الْقشُـورُ وَبِالْقُشُـورِ قِـوَامُهُمْ   وَاللُّـبُّ حَـظُّ خُلَاصَـةِ الْإِنْسَـانِ

١٨٤- وَلِـذَا تَقَسَّـمَتِ الطَّوَائِـفُ قَوْلَـهُ   وَتَوَارَثُـوهُ إِرْثَ ذِي السُّـهْمَانِ

١٨٥- لَـمْ يَـنْجُ مِـنْ أَقْوَالِـهِ طُـرًّا سِـوَى   أَهْـلِ الْـحَدِيثِ وَشِـيعَةِ الْقُـرْآنِ

١٨٦- فَتَـبَرَّؤُوا مِنْهَـا بَـرَاءَةَ حَيْـدَرٍ   وَبَـرَاءَةَ الْـمَوْلُودِ مِـنْ عِمْـرَانِ[1]

١٨٧- مِـنْ كُـلِّ شِـيعِيٍّ خَبِيـثٍ وَصْـفُهُ   وَصْـفُ الْيَهُـودِ مُحَلِّـلِي الْـحِيتَانِ

الشرحُ

١٨٢- وَالنَّـاسُ أَكْثَـرُهُمْ فَأَهْـلُ ظَـوَاهِرٍ   تَبْـدُو لَـهُمْ لَيْسُـوا بِأَهْـلِ مَعَـانِي

قَوْلُهُ: «وَالنَّاسُ أَكْثَرُهُمْ فَأَهْلُ ظَوَاهِرٍ» يعني: أكثر الناس ليس عندهم عُمق

---

(١) في أكثر الأصول: «عثمان».

في التفكير، ولا في العِلم، فأكثرُهم أهلُ ظواهرٍ يَغْتَرُّون بظاهر القول، ولا ينظرون إلى ما يترتب على هذا الظاهر، وهل هو حقٌّ أو باطلٌ، مُصْلِحٌ أو مُفْسِد؟ فإذا تكلَّم الفصيح ذو البَيَان بكلامٍ -ولو باطلًا- الْتبَس عليهم، فَتَجِدُهم أتباعَ كُلِّ ناعِقٍ.

قَوْلُهُ: «تَبْدُو لَهُمْ لَيْسُوا بِأَهْلِ مَعَانِي» يعني: أنهم لا يغوصون إلى المعاني، ويعرفون ما المراد بهذا الكلام، وماذا يُفْضِي إليه؟

١٨٣- فَهُمُ الْقُشُورُ وَبِالْقُشُورِ قِوَامُهُمْ وَاللُّبُّ حَظُّ خُلَاصَةِ الْإِنْسَانِ

يعني: هؤلاء ليس عندهم إلَّا القُشور، وأمَّا اللُّبُّ، فهو عند خُلاصة الإنسان، وهم عبادُ الله عزَّ وجلَّ الذين يَعرِفُون الكلام، ويَعْرِفُون مُرادَه، فلا يَشْتَبِهُ عليهم.

١٨٤- وَلِذَا تَقَسَّمَتِ الطَّوَائِفُ قَوْلَهُ وَتَوَارَثُوهُ إِرْثَ ذِي السُّهْمَانِ

قَوْلُهُ: «وَلِذَا تَقَسَّمَتِ الطَّوَائِفُ قَوْلَهُ» الطوائف يعني: المبتدعة.

قَوْلُهُ: «قَولَهُ» أي: قول جَهْم.

قَوْلُهُ: «وَتَوَارَثُوهْ إِرْثَ ذِي السُّهْمَانِ» هذا له السُّدُس، وهذا له الرُّبُع، وهذا له الثُّمُن، وهذا له الثُّلُث... وهكذا.

فواحدٌ منهم أخذ سَهمًا، وواحدٌ أخذ سهمين، وواحد أخذ أسْهُمًا كثيرة، فمثلًا هو عَطَّل اللهَ مِن أسمائه، وعَطَّل الله مِن أوصافه، وعطَّل الله مِن أفعاله، وقال: إنَّ الإيمانَ شيءٌ واحدٌ، ولا يدخل فيه القول والعمل، وقال بالجَبر، وأنكر أنَّ للعبد اختيارًا، فهذه خمسة أشياء، والناس تَقَسَّمُوها.

فمِن الناس مَنْ أَقَرَّ بالأسماء وأنكر الصفات، مثل المُعْتَزِلَة، ومنهم مَن أَقَرَّ بالأسماء وأثبت من الصفات سبعًا، وهُم الأشاعرة، ومنهم مَن قال بأنَّ الإنسانَ مُجْبَرٌ على عَمَلِه، ولكن لا يصحُّ أن نقول: (مجبرٌ)، بل نقول: عَمَلُه كَسْبٌ له، وهو خَلْق لله، كما قالت الأشاعرة، ولهذا كان الكَسْبُ عند الأشعرِيِّ ليس له قيمةٌ أبدًا، فهو من الأشياء التي ليس لها معنى، ومنهم مَن قال: إنَّ الله تعالى لا يوصَف بالأفعال الاختيارية.

إِذَنْ أصل أهل البدع -على كلام ابن القيم هذا- هو قولُ جَهْمٍ، لكن كُلٌّ أخذ بنصيبه، هذا أخذ بهذا، وهذا أخذ بهذا.

١٨٥- لَـمْ يَـنْجُ مِـنْ أَقْوَالِـهِ طُـرًّا سِـوَى أَهْـلِ الْـحَدِيثِ وَشِـيعَةِ الْقُـرْآنِ

قَوْلُهُ: «**طُرًّا**» بمعنى: جميعًا، يعني لم يَنْجُ أحدٌ مِن أقواله إِلَّا أهلُ الحديث وشيعة القرآن، يعني: أهل الحديث والقرآن.

قَوْلُهُ: «**وَشِيعَةِ الْقُرْآنِ**» يعني: أصحابَه المتشيعين له.

١٨٦- فَتَـبَرَّؤُوا مِنْهَـا بَـرَاءَةَ حَيْـدَرٍ وَبَـرَاءَةَ الْـمَوْلُودِ مِـنْ عِمْـرَانِ

قَوْلُهُ: «**فَتَبَرَّؤُوا مِنْهَا**» أي: مِن أقواله.

قَوْلُهُ: «**بَرَاءَةَ حَيْدَرٍ**» تبَرَّأَ أهلُ الكتاب والسُّنَّة مِن هذه الأقوال براءةَ حَيْدَرٍ، و(حَيْدَر) لَقَبٌ لعليّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والحَيْدَر اسمُ الأَسَدِ، وكان يقول حينما بَارَزَ مَرْحَبًا اليهوديَّ: «أَنَا الَّذِي سَمَّتْنِي أُمِّي حَيْدَرَهْ»[1].

وَقَوْلُهُ: «**بَرَاءَةَ حَيْدَرٍ**» أي: مِن دَمِ عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وإن كان أهلُ الباطل

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجهاد والسير، باب غزوة ذي قرد وغيرها، رقم (١٨٠٧).

اتَّهَمُوا عَلِيًّا بأنه قد تَـمَالَأ مع الذين قَتلوا عثمان، وهو بريء منه بلا شَكٍّ، بل إنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ممن استأذن أن يُدافِع عن عثمان، ولكنه لم يأذن له، فهو مُتَبَرِئٌ مِن دَم عثمان، إذن براءةُ حَيْدَرٍ مِن دَمِ عثمان، وكذا بَرَاءَة عَلِيٍّ مِن الرَّفْض.

قَوْلُهُ: «وَبَراءَةَ الْـمَوْلُودِ مِنْ عِمْرَانِ»، عندي: يعني بالمولود مِن عِمْرَانَ، يعني موسى بن عِمْران -عليه الصلاة والسلام- حين تَبَرَّأَ مِن عُبَّاد الْعِجْل، أو حين بَرَّأه الله تعالى مما وَصَفَه به اليهود مِن أنه آدَرُ، والآدَرُ: عَظِيمُ الخِصْيَة، وهو عَيْبٌ ومَرَضٌ.

أراد الله -سبحانه وتعالى- أن يُظهر براءته، فوضَع ثَوْبَه على حَجَر، وجعل يغتسل، فطار الحَجَرُ بِثَوْبه، فَجَعَل يسعى وراءه، ويقول: «ثَوْبِي حَجَرُ، ثَوْبِي حَجَرُ». حتى وصل إلى مَلَأ بني إسرائيل، فرأوا الرجل عُريانًا، فشاهدوا موسى، فإذا هو بريء، ليس فيه شيء[1]، والبراءة هي قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب:٦٩]، وجَعَل يَضْرِبُ الحَجَر، كيف يَضرْبُه وهو جماد؟

لأنه فَعَلَ فِعْلَ الْمُختَار الْمرِيد، فجَعَل يضربه، ولذلك كنا مع الصبيان إذا عَثَرَ الصبيُّ بالحَجر جَعَلْنا نَضْرِب الحَجَر، حتى تَطِيبَ نَفْسُه، لأنَّ الصبي يعتقد أنَّ الحَجَر اعتدى عليه، فتَجِدُه يَصيح، فإذا قُلتَ: ضربناه مرتين أو ثلاثًا، سَكَت الصَّبِيُّ، لأنه أُخِذَ له بالحقِّ.

فقَوْلُهُ: «وَبَرَاءَةَ الْـمَوْلُودِ مِنْ عِمْرَانِ» يَحْتَمِل هذا وهذا، فإنْ نَظَرْنَا إلى أنَّ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الخضر مع موسى -عليهما السلام- رقم (٣٢٢٣)، ومسلم: كتاب الحيض، باب جواز الاغتسال عريانا في الخلوة، رقم (٣٣٩).

القرآن قال: ﴿فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ﴾ [الأحزاب:٦٩] قلنا: إنَّ الأَوْلى أن يُحتَمَل على براءته مما عابوه به، حيث قالوا: إنه آدَرُ، وإن نَظَرْنَا إلى سِياقِ الكلام الأول (مسألة العِجْل)، قلنا: إنه تبرَّأ مِن عِبادَتِهم العِجْلَ كما تَبَرَّأ أهلُ السُّنَّة مِن عِجْل جَهْمٍ.

١٨٧- مِنْ كُلِّ شِيعِيٍّ خَبِيثٍ وَصْفُهُ وَصْفُ الْيَهُودِ مُحَلِّلِي الْحِيتَانِ

قَوْلُهُ: «شِيعِيٍّ» الشيعيُّ هو الذي يَغْلُو في عليّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأهلِ البيت، ويَدَّعون أنهم شيعةُ أهل البيت، والحقيقةُ أنهم ليسوا شيعةَ أهل البيت، وأنَّ أهلَ البيت بَرِيئون مما هم عليه.

ولهذا يُذكر أنَّ بعض أتباع عَبْدِ الله بْنِ سبأ[1] لَـمَّا خاطب عليَّ بن أبي طالب، وقال له: أنت الله، أمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالأخاديد فَخُدَّتْ، وبالحَطَب فَجُمِع، وبالنار فَأُضْرِمت، ثم جعل يُلْقِيهم في النار، لأنَّ فَعْلَتَهُم فَعْلَةٌ عَظِيمة شنيعة، فعذَّبهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالنار، وقال: يذوقون نار الدنيا قَبل نار جهنم، ولَمَّا بلغ ذلك عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا انتقده، وقال: لو كنت مكانه لقتلتهم، لأنَّ النبيَّ ﷺ قال: «مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ»[2]. ولَـمَا أحرقتهم، لأنَّ النَّبيَّ -عليه الصلاة والسلام- نَهى أَنْ يُعَذَّبَ بِالنَّارِ[3].

فبلغ ذلك عليَّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: «وَيْحَ ابْنِ أُمِّ الْفَضْلِ، إِنَّهُ

---

(١) هو عبد الله بن سبأ، مِن غُلاة الزَّنادقة، ضالٌّ مُضِلٌّ، زعم أن القرآن جزء مِن تسعةِ أجزاء، وعِلْمه عند علي، فنهاه علي بعد ما هم به. انظر ترجمته في: الفتنة ووقعة الجمل، لسيف بن عمر الأسدي التَّمِيمي (ص:٤٨)، وتاريخ الطبري (٤/ ٣٤٠)، وميزان الاعتدال للذهبي (٢/ ٤٢٦).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب لا يعذب بعذاب الله، رقم (٣٠١٧).

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ٤٩٤، رقم ١٦٠٧٨)، وأبو داود: كتاب الجهاد، باب في كراهية حرق العدو بالنار، رقم (٢٦٧٣).

لَغَوَّاصٌ عَلَى الْـهَنَاتِ»[1]. يعني: على الزَّلَّة.

ولكنَّ عليًّا فعل ذلك بتأويلٍ لِعِظَم بِدْعَتِهم، والعياذ بالله.

فعليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بريء مِن الشيعة براءةً كاملة، ولو أنه خرج لقاتلهم.

وهؤلاء الشيعة يُشْبِهُون اليهود في الحِيَل والمَكْر، وليسوا شيعةً لآل البيت.

أمَّا شيعة آل البيت حقيقةً، فهُم أهلُ السُّنة الذين يُنْزِلُونهم منزلتهم، ويعرفون حَقَّهم وفَضْلَهم، ولا يجعلون لهم حظًّا مِن الرُّبوبية، أو تَدْبيرِ الخَلْق، كما يزعم غُلاتهم ذلك.

* * *

---

(١) أخرجه البيهقي (٨/ ٣٥١) رقم (١٦٨٥٨).

فصــل

في مُقَدِّمَةٍ نَافِعَةٍ قَبْلَ التَّحْكِيم

١٨٨- يَـا أَيُّهَـا الرَّجُـلُ الْـمُرِيدُ نَجَاتَـهُ اسْـمَعْ مَقَالَـةَ نَاصِـحٍ مِعْـوَانِ

١٨٩- كُـنْ فِي أُمُـورِكَ كُلِّـهَا مُتَمَسِّـكًا بِـالْوَحْيِ لَا بِزَخَـارِفِ الْـهَذَيَانِ

١٩٠- وَانْصُـرْ كِتَـابَ الله وَالسُّـنَنَ الَّتِـي جَاءَتْ عَـنِ الْـمَبْعُوثِ بِالْفُرْقَـانِ

١٩١- وَاضْرِبْ بِسَيْفِ الْوَحْيِ كُلَّ مُعَطِّلٍ ضَرْبَ الْـمُجَاهِدِ فَـوْقَ كُـلِّ بَنَـانِ

١٩٢- وَاحْمِلْ بِعزْمِ الصِّدْقِ حَمْلَـةَ مُخْلِصٍ مُتَجَـــرِّدٍ لله غَـــيْرِ جَبَـــانِ

١٩٣- وَاثْبُتْ بِصَبْرِكَ تَحْتَ أَلْوِيَةِ الْـهُدَى فَـإِذَا أُصِـبْتَ فَفِـي رِضَى الـرَّحْمَنِ

١٩٤- واجْعَـلْ كِتَـابَ الله وَالسُّـنَنَ الَّتِـي ثَبَتَتْ سِـلَاحَكَ ثُـمَّ صِـحْ بِجَنَـانِ

١٩٥- مَـــنْ ذَا يُبَـــارِزُ فَلْيُقَـــدِّمْ نَفْسَـــهُ أَوْ مَـنْ يُسَـابِقْ يَبْـدُ فِي الْـمَيْدَانِ

١٩٦- وَاصْدَعْ بِمَا قَالَ الرَّسُولُ، وَلَا تَخَفْ مِـنْ قِلَّـةِ الْأَنْصَـارِ وَالْأَعْـوَانِ

١٩٧- فَـــاللهُ نَـــاصِرُ دِينِـــهِ وَكِتَابِـــهِ وَاللهُ كَـــافٍ عَبْـــدَهُ بِأَمَـــانِ

١٩٨- لَا تَخْشَ مِنْ كَيْدِ الْعَـدُوِّ وَمكْـرِهِمْ فَقِتَالُـــهُمْ بِالْكِـذْبِ[1] وَالْبُهْتَـانِ

١٩٩- فَجُنُـودُ أَتْبَـاعِ الرَّسُـولِ مَلَائِـكٌ وَجُنُـودُهُمْ فَعَسَـاكِرُ الشَّـيْطَانِ

---

(١) في نسخة برلين: «بالزور»، وكذا في نسخة الحلبي.

٢٠٠- شَتَّانَ بَيْنَ الْعَسْكَرَيْنِ فَمَنْ يَكُنْ مُتَحَيِّرًا[1] فَلْيَنْظُرِ الْفِئَتَانِ

٢٠١- وَاثْبُتْ وَقَاتِلْ تَحْتَ رَايَاتِ الْهُدَى وَاصْبِرْ، فَنَصْرُ الله رَبِّكَ دَانِ

٢٠٢- وَاذْكُرْ مَقَاتِلَهُمْ لِفُرْسَانِ الْهُدَى لله دَرُّ مُقَاتِلِ الْفُرْسَانِ

٢٠٣- وَادْرَأْ بِلَفْظِ النَّصِّ فِي نَحْرِ الْعِدَى وَارْجُمْهُمُ بِثَوَاقِبِ الشُّهْبَانِ

٢٠٤- لَا تَخْشَ كَثْرَتَهُمْ، فَهُمْ هَمَجُ الْوَرَى وَذُبَابُهُ، أَتَخَافُ مِنْ ذِبَّانِ؟!

٢٠٥- وَاشْغَلْهُمُ عِنْدَ الْجِدَالِ بِبَعْضِهِمْ بَعْضًا فَذَاكَ الْحَزْمُ لِلْفُرْسَانِ

٢٠٦- وَإِذَا هُمُ حَمَلُوا عَلَيْكَ فَلَا تَكُنْ فَزِعًا لِحَمْلَتِهِمْ وَلَا بِجَبَانِ

٢٠٧- وَاثْبُتْ وَلَا تَحْمِلْ بِلَا جُنْدٍ فَمَا هَذَا بِمَحْمُودٍ لَدَى الشُّجْعَانِ

الشرحُ

لَـمَّا ذكر -رحمه الله- ما ذَكَرَ مِن قواعد أهل البِدَع، عَقَدَ فَصْلًا للتَّحْكيم، فقال -رحمه الله-:

١٨٨- يَا أَيُّهَا الرَّجُلُ الْمُرِيدُ نَجَاتَهُ اسْمَعْ مَقَالَةَ نَاصِحٍ مِعْوَانِ

فهو يخاطب الرَّجل، لأنَّ الرجلَ هو محلُّ الخطاب، لِعِلْمِه بما يُحْتَرم وما يُقبَل.

قَوْلُهُ: «**الْمُرِيدُ نَجَاتَهُ**» أي: مِن النار، ومِن البدع.

قَوْلُهُ: «**اسْمَعْ مَقَالَةَ نَاصِحٍ مِعْوَانِ**» أي: ناصح لك، مُعِينٌ لك، فهو مِن أهل المُعَاوَنَة والمساعدة.

---

(١) وفي نسخة: «متحيزًا» بزاي.

فإذا قال قائل: أليس في هذا مَدْحٌ لنفسه وتزكيةٌ لـها؟ الجواب: أنه -رحمه الله- لم يُرِد بهذا أن يُثنِيَ الناسُ عليه، لكن يريد مِن هذا أن يَقْبَلَ الناسُ الحقَّ، ونَظِير هذا قول عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «لَوْ أَعْلَمُ أَحَدًا هُوَ أَعْلَمُ بِكِتَابِ الله مِنِّي، تَبْلُغُهُ الْإِبِلُ، لَرَكِبْتُ إِلَيْهِ»(١). فهو لم يَقْصِد أن يَمْدَح نَفْسَه، بل قصدُه أن يُقْبِل الناسُ عليه، ويأخذوا منه، ولهذا بعضُ العلماء يمدح مُؤَلَّفَهُ ليُقْبِلَ الناسُ عليه.

أرأيتم ابن مالك -رحمه الله(٢)- في الألفية ماذا قال؟ قال:

تُقَرِّبُ الْأَقْصَى بِلَفْظٍ مُوجَزِ ... وَتَبْسُطُ الْبَذْلَ بِوَعْدٍ مُنْجَزِ

وَتَقْتَضِي رِضًى بِغَيْرِ سُخْطِ ... فَائِقَةً أَلْفِيَّةَ ابْنِ مُعْطِ

فليس قصدُه بهذا أن يمدحه الناس، بل قصدُه أن ينتفعَ الناسُ بها، فَفَرْقٌ بين شخص يُزَكِّي نَفْسَه ليُمْدَح، وشخص يقول عن نَفْسِه ما يوجب أن يَقْبَل الناس الحقَّ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الفضائل، باب من فضائل عبد الله بن مسعود وأمه -رضي الله تعالى عنهما-، رقم (٢٤٦٣).

(٢) هو محمد بن عبد الله بن عبد الله بن مالك العلَّامة جمال الدين أبو عبد الله الطائي الجِياني الشافعي النحوي نزيل دمشق، إمام النحاة وحافظ اللغة، قال الذهبي: ولد سنة ستمئة، أو إحدى وستمئة، وسمع بدمشق من السخاوي والحسن بن الصباح وجماعة، وأخذ العربية عن غير واحد، وجالس بحلب ابن عمرون وغيره، وتصدر بها لإقراء العربية، وصرف همته إلى إتقان لسان العرب، حتى بلغ فيه الغاية، وحاز قصب السبق، وأربى على المتقدمين، وكان إمامًا في القراءات وعللها، وأما اللغة فكان إليه المنتهى في الإكثار من نقل غريبها، والاطلاع على وحشيها، وأما النحو والتصريف فكان فيهما بحرًا لا يجارى، وحبرًا لا يبارى، وأما أشعار العرب التي يستشهد بها على اللغة والنحو، فكانت الأئمة الأعلام يتحيرون فيه، ويتعجبون من أين يأتي بها. انظر: بُغية الوُعاة في طبقات اللغويين والنحاة (١/ ١٣٠).

فابن القيم -رحمه الله- لا يريد أن يزكِّيَ نَفْسَه بقوله: (**مَقَالَةَ نَاصِحٍ مِعْوَانِ**)، إنما أراد حثَّ الناس على أن يَقْبَلُوا ما يقوله مِن الحقِّ.

١٨٩- كُـنْ فِي أُمُـورِكَ كُلِّـهَا مُتَمَسِّـكًا ... بِـالْوَحْيِ لَا بِزَخَـارِفِ الْـهَذَيَانِ

قَوْلُهُ: «**فِي أُمُورِكَ كُلِّـهَا**» أي: العَقيدة، والخُلُق، والعِبادة، والمُعاملة، كل أمورك حتى لِباسك، وأَكْلك، وشُربك، كن متمسكًا بالوحي الشامل للكتاب والسُّنَّة، لا بزخارف الـهَذَيان.

١٩٠- وَانْصُـرْ كِتَـابَ اللهِ وَالسُّـنَنَ الَّتِـي ... جَاءَتْ عَـنِ الْـمَبْعُوثِ بِالْفُرْقَـانِ

قَوْلُهُ: «**وَانْصُرْ كِتَابَ اللهِ**» أي: بالدفاع عنه، وبيانِ أحكامه وأسراره ومَعانيه، لأنَّ هذا نَصْرُ القرآن، وليس النَّصْرُ أن تَتْلُوَه فقط، بل نَصْرُهُ أن تَذُبَّ عنه، وتُبَيِّن أحكامَه وأسرارَه، وما فيه مِنَ البَدَائِعِ العظيمة.

كذلك «**السُّنَنَ الَّتِي جَاءَتْ عَنِ الْـمَبْعُوثِ**» وهذا يعني أنه لا بُدَّ أن نتأكد مِن أن السُّنَّة جاءت عن النبيِّ ﷺ، وليس كُلُّ ما يُنْسَبُ إليه يكون صحيحًا، بل لا بُدَّ أن تبحث أولًا عن سَنَدِها، فإذا صَحَّ فانظر في المتن، ثم انصر ما جاء عن الرسول -عليه الصلاة والسلام-.

١٩١- وَاضْرِبْ بِسَيْفِ الْوَحْيِ كُلَّ مُعَطِّلٍ ... ضَرْبَ الْـمُجَاهِدِ فَـوْقَ كُـلِّ بَنَـانِ

قَوْلُهُ: «**وَاضْرِبْ بِسَيْفِ الوحْيِ**» وإذا ضربتَ بِسَيْفِ الوحي، فهل أنت غالبٌ، أو مغلوب؟ الجواب: غالب، والدليل على هذا قولُ الله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء:١٨].

انظر إلى هذه الكلمات العظيمة ﴿نَقْذِفُ﴾ أي: نرمي بِشِدَّة ﴿عَلَى ٱلْبَٰطِلِ

﴿فَيَدْمَغُهُۥ﴾ أي: يصيبه في أُمِّ دِمَاغِه، وهل يَبقى حيًّا، أو يموت في الحال؟ الجواب: يموت في الحال، ولهذا جاءت (الفاء) و(إذا) الفُجَائِيَّة، قال: ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ ولم يقل: فإذا هو يَزْهَقُ، فقوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ أي: يموت في الحال، والقائل هو الله عزَّ وجلَّ الذي وَعْدُه صِدْقٌ، وقولُه حقٌّ، وهو عزَّ وجلَّ قادر على هذا.

فهو -رحمه الله- هنا يأمرنا أن نَضرب بِسَيْف الوحي كُلَّ مُعَطِّل، وما أَعْظَمَه مِن سَيْف!، وما أَبْتَرَهُ لِلبَاطِل، وأَقْطَعَه له!

قَوْلُهُ: «فَوْقَ كُلِّ بَنَانِ» هذا مأخوذٌ مِن قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال:١٢] يعني: حتى الأصابع قَطِّعوها قِطَعًا قِطَعًا.

لكن إذا قال قائل: إننا نجد مَنْ يرمي بالحَقِّ على الباطل، ولكن لا يحصل هذا؟

نقول: العِلَّةُ ليست بِالسِّلاح، بل العِلَّة بِحَامِل السِّلاح، وليس كلُّ مَنْ حَمَل السَّيفَ يَقْتُل به، فالجَبَان إذا كان معه السيف، وجاءه العدو، فماذا يكون موقفه؟

الجواب: يرتعش ويرتعش ويسقط السيف منه! أما الشجاع لو كان معه عصا لم يَهَبْ سَيْفَ الأعداء، فالواقعُ أنَّ السلاح بِحَامِلِه، وإِلَّا فالقرآنُ هو القرآن، والسُّنة هي السُّنة، والحقُّ هو الحقُّ، والباطل هو الباطل، لكنَّ العِلَّة بالفاعل.

يقول -رحمه الله-:

١٩٢- وَاحْمِلْ بِعزْمِ الصِّدْقِ حَمْلَةَ مُخْلِصٍ مُتَجَرِّدٍ لله غَيْرِ جَبَانِ

يأمرنا -رحمه الله- أن نحمل بِعَزْمِ الصدق حَملةَ مُخلص مُتَجَرِّد لله لا لِلْهوى، ولا لأن يكون قولُه هو الأعلى، لكن مُتَجَرِّد لله عزَّ وجلَّ.

والذي يحمل بِنِيَّةٍ خالصة، وعَزِيمَةٍ صادقة لله عزَّ وجلَّ فإنه لا يَهاب، لأنَّ آخر ما يمكن أن يُفْعَلَ به أن يُقتل، وإذا قُتِل فهو في سبيل الله، ينتقل مِن دار الشقاء والكَدَرِ والأذى إلى دار النعيم، فهو لا يبالي، مِثْل ما كَتَبَ خَالِد بن الوليد إِلَى هُـرْمُزَ ملك فارس: «جِئْتُكَ بِقَوْمٍ يُـحِبُّونَ الْـمَوْتَ كَمَا تُحِبُّونَ الْـحَيَاةَ»[1]. فهذه كلمة عظيمة، يعني: نحن نُحب الموتَ في سبيل الله كما تحبون الحياة، يعني: فلا نبالي.

وابن القيم -رحمه الله- يقول:

١٩٣- وَاثْبُتْ بِصَبْرِكَ تَحْتَ أَلْوِيَةِ الْـهُدَى   فَـإِذَا أُصِـبْتَ فَفِـي رِضَى الـرَّحْمَنِ

ويأمر كذلك بالصبر تحت أَلْوِيَة الهدى.

وَقَوْلُهُ: «**أَلْوِيَةِ**» جمع لواء، وهي الأعلام، فهو يقول: اثبت، فإذا قُدِّر أنك أُصبت، فذلك في رضى الرحمن، والإصابةُ في رضى الرحمن هي -في الحقيقة- ليست إصابة، بل هي غايةُ ما يَتَمَنَّاه الإنسان، فإذا أُصيب في الله، وفي رِضى الله، فهو لم يُصَب في الواقع، بل حصل له الأجر والفضل.

وهذا الشطر الأخير (**فَإِذَا أُصِبْتَ فَفِي رِضَى الرَّحْمَنِ**) يجب أن يكون عند قلب كُلِّ إنسان.

واعلم أنَّ الداعيَ إلى الله لا بُدَّ أن يَنالَه أَذًى، إما بالقول، وإما بالفعل، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان:٣١] فكُلُّ نبيٍّ له عدوٌّ مِن المجرمين، وكُلُّ مَن وَرِث الأنبياء فَلَه عدوٌّ مِن المجرمين، فلا بد مِن أَذِيَّة، لا بُدَّ مِن مُضايقةٍ تسمعها بأُذُنِك، أو تُخْبَرُ عنها، ولكن ما الموقف؟ إنَّ كل ما

---

(١) انظر: تاريخ الطبري (٣/ ٣٤٨).

يصيب الإنسان مِن ذلك فهو في رِضَى الله عزَّ وجلَّ ولذا لما دَمِيَتْ أُصْبُعُ النبيِّ ﷺ ماذا قال؟ قال: «هَل أَنْتِ إِلَّا إِصْبَعٌ دَمِيتِ، وَفِي سَبِيلِ الله مَا لَقِيتِ»[1].

ما دام الإنسان يناله الأذى لقيامِه بأمر الله فلْيَبْشَر بالخير، فإنَّ هذا مِن منازل الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-.

ولا تكن كالذين قال الله فيهم: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ ﴾ [العنكبوت:١٠] وارتَدَّ، لكن اثبُت!

١٩٤- واجْعَلْ كِتَابَ الله وَالسُّنَنَ الَّتِي ثَبَتَتْ سِلَاحَكَ ثُمَّ صِحْ بِجَنَانِ

قَوْلُهُ: «**بِجَنَانِ**» في نسخة بـ «**بِجَبَانِ**»، وعندي لو كانت «**بِجَبَان**» لكانت أَوْضَح، يعني: صِح بِالجُبَنَاء، فتقول: مَن ذا يُبارِز، لأن (صِحْ بَجَنَان) أي: صِحْ بالقَلْب، فتحتاج إلى تأويل، أي: صِحْ بلسانك صيحةً خارجةً مِن قَلْبِك.

على كل حالٍ، إذا كانت النسخة هكذا حَسَبَ تأليف المؤلف لهذه القصيدة، فمعنى (صِحْ بجَنَان) أي: صِحْ صيحةً نابعةً مِن جَنَانِك، أي: مِن قَلْبِك، وإن كانت (بِجَبَانِ) فالأمر واضح، لأنَّ الإنسان إذا صاح بالجُبَنَاء تفرّقوا بمجرد صَيْحَتِه.

ولذا يُذْكَر عن بعض الشُّجْعان أنه كان إذا كَرَّ على العدوِّ وصاح، تمزَّقت الفُرسان، تمزَّقوا بمجرد صَيْحَتِه، حتى إنَّ بعض الفُرسان يقولون: نَفْسُ الفَرَس تَخِرُّ مِن صَيحَةِ هذا الرجل الشجاع.

والمعنى: اجعل القرآن والسُّنَّة السلاح.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب من ينكب في سبيل الله، رقم (٢٦٤٨)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين، رقم (١٧٩٦).

قَوْلُهُ: «ثُمَّ صِحْ» يعني: اصرُخ بهما بالجَبان، وماذا تكون حال الجبان، هل الصُّمُود أو الهَرَب؟ الجواب: الهَرَب، فلا يُمكِن أن يبقى ما دام سلاحُك الكتابَ والسُّنَّة، وعندك القُوَّة: قُوَّة العزيمة، وقُوَّة الإرسال، فاعلم أنه لن يبقى أمامك أحد.

فهو إذن يقول: اجعل سلاحَك شيئين: كتاب الله والسنن التي ثَبَتَت، وليس كُلُّ سُنَّة تُقَال، بل السُّنَن التي ثَبَتت، لجْعَلِها هي السلاح، ثم صِحْ بهؤلاء الجُبناء قائلًا: مَنْ يبارز؟ وهل يستطيع أحد أن يبارز مَنْ سِلاحُه كتابُ الله، وسُنة رسوله ﷺ وهذا المبارز سلاحُه الهَذَيان والكَذِب والفِرْية والدَّجَل والزخارف، هل يستطيع أو لا؟ الجواب: لا يستطيع أبدًا، فآيةٌ مِن كتاب الله تُحطِّمُ كُلَّ ما جاء به مِن هذه الزخارف، حتى تُبيدَها.

١٩٥- مَـــنْ ذَا يُبَـــارِزُ فَلْيُقَـــدِّمْ نَفْسَـــهُ أَوْ مَـــنْ يُسَـــابِقْ يَبْـــدُ فِي الْـــمَيْدَانِ

قَوْلُهُ: «مَنْ ذَا يُبَارِز» يعني: صِحْ بالجَبان، وقل: (**مَنْ ذَا يُبَارِزُ فَلْيُقَدِّمْ نَفْسَهُ**)، (**أَوْ مَنْ يسَابِقْ يَبْدُ فِي الميدَانِ**».

ومعنى المُبَارَزة: الخُروج، مِن بَرَزَ يَبْرُزُ إذا خَرَجَ، وكان مِن عادتهم أنه إذا التقى الصَّفَّان طلب الشُّجعان مِن عدوهم أن يُبَارِزَوهم، والفائدة مِن المُبارزة أنه إذا غُلِبَ المُبارِز مِن العدُوِّ انكسرت شَوْكَتُه، وأصابهم الرُّعْبُ والهَلَع، وهذا شيء معروف في مسالك المجاهدين.

ذكر الفقهاء أنَّ أمير المؤمنين عليَّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ طلب مبارزته مِن العدُوِّ عمرو بن عبد وُدّ مِن المشركين، فلما أقبل عمرو بن عبد وُدّ على عليٍّ صاح فيه عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قائلًا: «مَا خَرَجْتُ لأُبارِزَ رَجُلَيْن». وهل هو صادق، أو غير صادق؟

الجواب: نعم، صادق، فهو خرج ليُبَارز واحدًا، انظر إلى الذكاء! فالتفت عمرو ابن عبد وُدّ، وظنَّ أنَّ وراءهَ واحدًا، فلمَّا التفت أخذ رأسه[1]، والحَرْبُ خَدْعَةٌ، ولكن أين الذي يكون حاضِرَ الكلام في مِثل هذا الضِّيق؟!

وَقَوْلُهُ: «مَنْ يُسَابِقُ» (من) استفهامية، ويُشكل على هذا قوله: (يَبْدُ فِي الميدَانِ)، حيث حَذَف حَرْفَ العِلَّة، وحَذْفُ حِرْف العِلَّة إنما يكون عند الجَزْم، وإذا جُزِمَت (يَبْدُو) وهي جواب (مَنْ) تَرَجَّح أنها شَرْطٌ، لكن لا مانع أن نقول: إنه يَجُوز حذفُ حَرْفِ العِلَّة مِنْ أَجْلِ استقامة الوزن.

١٩٦- وَاصْدَعْ بِمَا قَالَ الرَّسُولُ، وَلَا تَخَفْ ... مِـــنْ قِلَّـــةِ الْأَنْصَـــارِ وَالْأَعْـــوَانِ

أُمِرْنا أن نَصْدَع بما قال الرسول -عليه الصلاة والسلام- وأَلَّا نخافَ مِن قِلَّة الأعوان والأنصار، حتى لو كنتَ وحدَك، نعم اصدع بما قال النَّبِيُّ -عليه الصلاة والسلام- ولا تَخَفْ مِن قِلَّةِ الأنصار، بل لا تَخَفْ مِن كَثْرَةِ مَنْ يقومُ عليك، ويكون ضِدَّك، فالصادع بما قال الرسول إمّا أن يجد ناصرًا، أو لا يَجِد ناصرًا، أو يَجِد مُعارِضًا.

فالأول: الذي يجد الناصر واضح أنه سيصدع، لأنَّ لديه مَنْ يعينه.

الثاني: الذي لم يجد لا هذا ولا هذا، بل وجد مُعْرِضًا هذا أيضًا قد يكسل إذا رأى أنَّ ما صدع به من قول الرسول لم يلتفت إليه أحد.

الثالث: الذي وَجَدَ المُعَارِض الذي يقابله، وينابذه، ويُضيِّقُ عليه، ويأتي ضدَّه بِادِّعاءات، ولكن كل هذا يجب أن يكون لا شيء أمام الإنسان، وهذا لا يعني

(١) والحديث أخرجه الحاكم (٣/ ٣٤، رقم ٤٣٢٩)، ومن طريقه البيهقي (٩/ ٢٢٢، رقم ١٨٣٥٠).

أنه في العقائد فقط، بل في العقائد، والأحكام الفقهية، والآداب، والأخلاق، وكُلِّ شيء اصدع بما قال الرسول ﷺ قولًا وفعلًا، ولا تخف من قلة الأنصار والأعوان، فالناس أمامك إما مساعد أو مُعْرِض أو معارِض، فلا تُبالِ بهذا، حتى لو لم يكن أمامك إلَّا المُعْرِض والمُعارِض، فلا يهمنَّك.

١٩٧- فَاللهُ نَاصِرُ دِينِهِ وَكِتَابِهِ ... وَاللهُ كَافٍ عَبْدَهُ بِأَمَانِ

وصدق -رحمه الله- فالله ناصرٌ دينَه، وناصرٌ كتابَه، و(**كَافٍ عَبْدَهُ بأمَانِ**)، لكن متى يكفيه؟ الجواب: إذا توكَّل عليه، قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣].

١٩٨- لَا تَخْشَ مِنْ كَيْدِ الْعَدُوِّ وَمكْرِهِمْ ... فَقِتَالُهُمْ بِالْكِذْبِ وَالْبُهْتَانِ

يقول: لا تخشَ مِن كيد هؤلاء ومَكْرِهم، لأنهم يُقاتِلون بالكذب والبُهتان والزخارف المُموَّهَة الباطلة لكنَّ هذا -أي: عدم الخشية مِن كيدهم ومَكرهم- يحتاج إلى هِمَّة قوية، وعزيمة صادقة.

١٩٩- فَجُنُودُ أَتْبَاعِ الرَّسُولِ مَلَائِكٌ ... وَجُنُودُهُمْ فَعَسَاكِرُ الشَّيْطَانِ

ويقول: وجنود هؤلاء عساكر الشيطان، أما جنود أتباع الرسول فهم ملائكة الرحمن كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾ [الأنفال:١٢] فالملائكة تُثبِّت عبادَ الله وتُؤيِّدُهم، ولهذا كان الرسول -عليه الصلاة والسلام- يقول لحسان بن ثابت وهو ينشد: «**اللَّهُمَّ أَيِّدْهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ**»[1].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، رقم (٣٠٤٠)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل حسان بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رقم (٢٤٨٥).

ولهذا يجد الإنسان عند الجهاد بالعِلم والبيان، يجد إلهامًا لا يجده في حال السَّعة، وذلك بتَثْبيت الملائكة له، وفَتْحِ أبواب العِلم.

٢٠٠- شَتَّانَ بَيْنَ الْعَسْكَرَيْنِ فَمَنْ يَكُنْ مُتَحَيِّرًا فَلْيَنْظُرِ الْفِئَتَانِ

يعني: يجب أن يَعْلَمَ الإنسان الفَرْقَ بينَ هذا وهذا، ومَن كان مُتَحَيِّرًا فلينظر وليتأمل، حتى يَعْرِف مَنْ هم أحقُّ بالاتّبَاع، ثُمَّ قال -رحمه الله-:

٢٠١- وَاثْبُتْ وَقَاتِلْ تَحْتَ رَايَاتِ الْهُدَى وَاصْبِرْ، فَنَصْرُ الله رَبِّكَ دَانِ

هذا كالأول، لكنه كَرَّره -رحمه الله- لزيادة تثبيت قَلْب الإنسان.

٢٠٢- وَاذْكُرْ مَقَاتِلَهُمْ لِفُرْسَانِ الْهُدَى لله دَرُّ مُقَاتِلِ الْفُرْسَانِ

معناه: بَيِّنْ مَعايبَهم، فينبغي لنا أن نُبَيِّن فيما بيننا مَقَاتِلَهم -أي: موضع قَتْلِهم- حتى نَقْتُلَهم بما يُبطل أقوالهم، فنقول: جَادِلهم بكذا، حَاجِّهم بكذا، نَاظِرْهم بكذا، كما قال الشافعي -رحمه الله- في القَدَرية: «نَاظِرُوا الْقَدَرِيَّةَ بِالْعِلْمِ، فَإِنْ أَقَرُّوا بِهِ خُصِمُوا، وَإِنْ أَنْكَرُوا كَفَرُوا»(١). وهذا أحسنُ ما يكون أن تبدأ بِذِكر العَيْب، لأنك إذا بدأت بِذِكْر العَيب، وفَهِمَ الناسُ العَيبَ فقد بانت مَقَاتِلُه وهُزِم، ولم يستطع حِراكًا.

٢٠٣- وَادْرَأْ بِلَفْظِ النَّصِّ فِي نَحْرِ الْعِدَى وَارْجُمْهُمُ بِثَوَاقِبِ الشُّهْبَانِ

قَوْلُهُ: «ادْرَأْ» بمعنى ادفع.

قَوْلُهُ: «فِي نَحْرِ الْعِدَى» أي: أمامَهم.

---

(١) انظر: شرح العقيدة الطحاوية (ص:٢٤٧).

والمعنى: بَيِّن النصَّ، لا تذهب يمينًا وشِمالًا، لا تُحَرِّفْ، اذكر لفظ النَّصِّ، فهُم لا يستطيعون حينئذٍ أن يتحركوا.

٢٠٤- لَا تَخْشَ كَثْرَتَهُمْ، فَهُمْ هَمَجُ الْوَرَى وَذُبَابُهُ، أَتَخَافُ مِنْ ذِبَّانِ؟!

الجواب: لا أخاف مِنَ الذِّبَّان، ولا مِن الهَمَج والرِّعَاع، حتى ولو كانوا كثيرين، فالحقُّ منصورٌ، ولو قَلَّ أتباعه، والباطل مَخْذُول، ولو كثُر أتباعه.

فهو يقول هنا: الذُّباب مِن أَهْوَن ما يكون، ومِن أَخْوَف ما يكون، لو تقول له بيدك هكذا -حتى لو لم تضربه- فإنه يطير، ولا يأتي ناحيتَك، فهؤلاء ذِبَّان الوَرَى.

والمؤلف -رحمه الله- أتى بهذا التشبيه لِبَيَانِ حالهم وتقبيحها، لأنَّ تشبيه الإنسان بالذُّباب تقبيح بلا شَكٍّ، وهو أيضا مُبَيِّنٌ لحاله، وأنه مِن أَضْعَف ما يكون مِنَ الحَشَرَات.

٢٠٥- وَاشْغَلْهُمُ عِنْدَ الْجِدَالِ بِبَعْضِهِمْ بَعْضًا فَذَاكَ الْحَزْمُ لِلْفُرْسَانِ

هذا أيضًا مِن طُرُق المناظرة المفيدة، فأهل البدع متناقضون، فليسوا على طريقة واحدة، حتى إنَّ الواحد منهم يقول: هذا شيء يوجِبُه العقْل، والثاني يقول: هذا شيء يمنعه العقْل، فيقول: يمنعه، ولم يقل: يُجِيزُه.

فيقول -رحمه الله-: اشْغَلْ بعضَهم ببعض، سواء كانوا أمامك، فتقول: أنت يا فلان تقول: كذا، وأنت يا فلان تقول: كذا، بَيِّنوا لي، فإن لم يكونوا أمامك فَبَيِّنْ أقوالهم، وتقول: إذا قال فلان: كذا وكذا، فقد قال فلان: كذا وكذا، والصواب كذا وكذا، وهو ما دَلَّ عليه الكتاب والسُّنَّة.

المهم اضْرِب بعضَهم ببعضٍ، فإنه يكفيك بعضُهم بعضًا، وهذه سياسة، حتى في الأمور العسكرية الآن، وهذا مِن دَأْبِ أهل السُّنة والجماعة مع أهل الكلام، ولهذا تجد شيخ الإسلام -رحمه الله- أحيانًا يَسُوق بيان بُطلان قولهم بأنه متناقض، ثم يقول: قال فلان -وهو مِن زعمائهم- كذا وكذا، وقال الآخر -وهو مِن زعمائهم أيضًا: كذا وكذا، وهذا يدل على التناقض، وتناقضُ القولِ أكبرُ دليلٍ على بُطلانِه، ومِن القواعد المعروفة (فَرِّق تَسُدْ).

٢٠٦- وَإِذَا هُمُ حَمَلُوا عَلَيْكَ فَلَا تَكُنْ فَزِعًا لِحَمْلَتِهِمْ وَلَا بِجَبَانِ

يعني: إذا حَمَلوا عليك جميعًا فلا تَخَفْ، بل اثْبُت، وإلَّا فسيكونون عليك جميعًا، انظر الآن اليهود والنصارى، بَعضُهم لبعضٍ عَدُوٌّ، لِقَوْل الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ [البقرة:١١٣]، كلُّ واحدٍ منهم يُضلِّل الآخَرَ، ومع ذلك فهم يكونون أولياء ضِدَّ المسلمين، قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [المائدة:٥١] مع أنهم أعداء، لكن ضِدّ العدُوِّ المشترك يكونون سواءً.

٢٠٧- وَاثْبُتَ وَلَا تَحْمِلْ بِلَا جُنْدٍ فَمَا هَذَا بِمَحْمُودٍ لَدَى الشُّجْعَانِ

قَوْلُهُ: «اثبُت» أي: أمامهم.

وَقَوْلُهُ: «وَلَا تَحْمِلْ بِلَا جُنْدٍ» يعني: لا تَقْدَم إلَّا ومعك جُنود، لأنه ليس مِن الحِكْمة أن يَقْدَمَ الإنسان بدون جُنود، وكذلك لا تَقْدَم إِلَّا بِسِلاح، فليس مِن الحِكمة أن تَقْدَم بلا سلاح، وأيضًا لا بُدَّ أن يكون سلاحُك مكافئًا لسلاح العَدُوِّ، وإلَّا فإنك مهزوم.

ولذلك يتسرع بعض الناس في الإقدام في مقاتلة الأعداء، وليس عندهم شيء مِن السلاح، وقد يكون أيضًا ليس عندهم الإيمان الذي كان عند الصحابة، فيحصل البلاء والهزيمة.

المهم أنك لا تَحْمِل بلا سلاح، ولا تَحْمِل بلا جُنْد، ولذا قال -رحمه الله-: (**فَمَا هَذَا بِمَحْمُودٍ لَدَى الشُّجْعَانِ**).

وَقَوْلُهُ: «**لَا تَحْمِلْ بِلَا جُنْدٍ**» يحتمل كلام المؤلف هنا أنه يريد بالجُند العلماء الذين يساعدونك ويُعِينونك، ويحتمل أن يريد به السلاح يعني: لا تحمل إلَّا بعِلْم، لكنَّ آخِرَ كلام المؤلف يؤيد الاحتمال الأول، ولهذا قال بعد ذلك: (**فَإِذَا رَأَيْتَ عِصَابَةَ الْإِسْلَامِ... فَاخْتَرِقِ الصُّفُوفَ**).

* * *

٢٠٨- فَإِذَا رَأَيْتَ عِصَابَةَ الْإِسْلَامِ قَدْ ... وَافَتْ عَسَاكِرُهَا مَعَ السُّلْطَانِ

٢٠٩- فَهُنَاكَ فَاخْتَرِقِ الصُّفُوفَ وَلَا تَكُنْ ... بِالْعَاجِزِ الْوَانِي وَلَا الْفَزْعَانِ

٢١٠- وَتَعَرَّ مِنْ ثَوبَيْنِ مَنْ يَلْبَسْهُمَا ... يَلْقَ الرَّدَى بِمَذَمَّةٍ وَهَوَانِ

٢١١- ثَوْبٌ مِنَ الْجَهْلِ الْمُرَكَّبِ فَوْقَهُ ... ثَوْبُ التَّعَصُّبِ بِئْسَتِ الثَّوبَانِ

٢١٢- وَتَحَلَّ بِالْإِنْصَافِ أَفْخَرَ حُلَّةٍ ... زِينَتْ بِهَا الْأَعْطَافُ وَالْكَتِفَانِ

٢١٣- وَاجْعَلْ شِعَارَكَ خَشْيَةَ الرَّحْمَنِ مَعْ ... نُصْحِ الرَّسُولِ فَحَبَّذَا الْأَمْرَانِ

٢١٤- وَتَمَسَّكَنَّ بِحَبْلِهِ وَبِوَحْيِهِ ... وَتَوَكَّلَنَّ حَقيقَةَ التُّكْلَانِ

الشرحُ

٢٠٨- فَـإِذَا رَأَيْـتَ عِصَـابَةَ الْإِسْـلَامِ قَـدْ وَافَـتْ عَسَـاكِرُهَا مَـعَ السُّـلْطَانِ

قَوْلُهُ: «فَإِذَا رَأَيْتَ عِصَابَةَ الْإِسْلَامِ» يعني: القَوم الذين هم عصابة الإسلام يعني: أهل التَّعَصُّب له.

قَوْلُهُ: «قَدْ وَافَتْ عَسَاكِرُهَا مَعَ السُّلْطَانِ» يعني: اجتمعت مع السلطان فالزَمْهَا، ولهذا قال:

٢٠٩- فَهُنَاكَ فَاخْتَرِقِ الصُّفُوفَ وَلَا تَكُـنْ بِالْعَـاجِزِ الْـوَانِي وَلَا الْفَزْعَـانِ

يعني: إذا رأيتَ القومَ قد تَلاقَوْا وتَوافَوْا، (فَاخْتَرِقِ الصُّفُوفَ)، ولا تكن جَبَانًا، ولا تكن خائفًا، ما دُمتَ تخترقُ الصُّفوف لله عزَّ وجلَّ وبالله، وإيَّاكَ أن يَلْحَقَك الخَوَرُ، لأنَّ الإنسان إذا لَحِقَه الخَوَرُ وضَعُفَ ضَعُفَتْ قُوَاهُ، وعَجَزَ عن أن يدافع عن نَفْسِه فضلًا عن أن يهَاجمَ أهلَ الباطل، ثُمَّ قال:

٢١٠- وَتَعَـرَّ مِـنْ ثَـوبَيْنِ مَـنْ يَلْبَسْـهُمَا يَلْـقَ الـرَّدَى بِمَذَمَّـةٍ وَهَـوَانِ

قَوْلُهُ: «وَتَعَرَّ مِنْ ثَوْبَيْنِ» تَعَرَّ يعني: تجرَّد، فهنا أمَر -رحمه الله- أن نَتَعَرَّى مِن ثوبين، وبَيَّن أنَّ مَنْ يَلْبَس هذين الثوبين يَلْقَى الرَّدَى بِمَذَمَّةٍ وهَوَانٍ، ثُمَّ ذَكَر الثَّوْبَ الأول فقال:

٢١١- ثَوْبٌ مِنَ الْـجَهْلِ الْـمُرَكَّبِ فَوْقَـهُ ثَـوْبُ التَّعَصُّـبِ بِئْسَـتِ الثَّوبَـانِ

الجهل المركَّب هو الذي مَن اتَّصف به فهو جاهلٌ، ولا يَدْرِي أنه جاهل، وذلك أنَّ الناس ثلاثة أقسام:

الأول: عالـمٌ عِلمُه مُطابقٌ للواقع.

الثاني: يَظُن أنه عالـمٌ، ولكنه جاهلٌ.

الثالث: جاهلٌ ليس له عِلمٌ إطلاقًا.

أما الأول: فهو محمودٌ أن يتكلم الإنسان بِعِلْمٍ مُطابقٍ للواقع.

وأما الثاني: وهو الجاهل المركَّب الذي يَجْهَل، ولا يدري أنه يجهل، فهذا أسوأ الأقسام.

والثالث: الجاهل جهلًا بسيطًا غير مُرَكَّب، فهذا أهونُ مِن الذي قَبْلَه، لكنه دون مَرْتَبَةِ الأَوَّل، وهو العالـم.

والبلاءُ كلُّ البلاء مِن الجاهلِ جهلًا مُرَكَّبًا، الذي يجادلك بغير عِلم، ويتكلَّم بغير عِلم، يتكلَّم بين العامَّة بغير عِلم، ويتكلَّم مع العُلماء بالمجادلة بغير عِلم، فهو يرى نَفْسَه أنه عالـم، وأنه إمامُ الأئمة، وأميرُ العلماء، وعالِـمُ الأمراء، لا يُدانِيه أحد، وإذا تباحثت معه، فإذا هو لا يعرف كُوعَه[1] مِن كُرْسُوعِه[2]، فهو مِن أجهَلِ عِباد الله، ولذلك نقول: إنَّ الجاهل جهلًا مُرَكَّبًا هو شرُّ الجاهِلَيْنِ: الأول: مَنْ جَهلُه بسيط، والثاني: مَنْ جَهلُه مُرَكَّب.

قَوْلُهُ: «فَوْقَهُ ثَوْبُ التَّعَصُّبِ» هذا أيضًا مُشْكل، أي: التعصب لما هو عليه مِن الباطل، أو مِن الجهل، والمتعصبُ لا يكاد يَرْعَوِي للدَّلِيل أبدًا، لأنه يعتقد أنَّ ما هو عليه حقٌّ، ولا يُبَالي بأحد.

---

(١) الكُوع: هو رأسُ اليَد ممَّا يَلي الإبْهام. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: كوع.

(٢) الكُرْسوع: طَرَف رَأْسِ الزَّنْدِ مِمَّا يَلِـي الْـخِنْصَرَ. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: كرسع.

فهو يرى أنه لا يمكن أن يتزحزح عما هو عليه، لأنه يرى أنَّ تَزَحْزُحَه ذُلٌّ، وأنه إذا تزحزح، قال الناس: هذا رجلٌ جاهل.

أَوَما عَلِم أنَّ الرسول -عليه الصلاة والسلام- أحيانًا يَحْكُم بالشيء ثُمَّ يتبين له خلافُه فيرجع، وكذلك الخلفاء، وكذلك الأئمة.

وقد كَتَب عمر بن الخطاب لأبي موسى الأشعري كتابًا في القضاء مِن أعظم الكُتُب وأَجْمَعِها، حتى إنَّ ابن القيم جعل كتابه (إعلام الموقعين) -ذلك الكتاب الذي قَلَّ أن يوجد في كُتُب الإسلام مِثْلُه- جَعَلَه مَبْنِيًّا على كتاب عُمَرَ لأبي موسى في القضاء، قال له: «لَا يَمْنَعْكَ مِنْ قَضَاءٍ قَضَيْتَ بِهِ الْيَوْمَ فَرَاجَعْتَ فِيهِ نَفْسَكَ، وَهُدِيتَ فِيهِ لِرُشْدِكَ، أَنْ تُرَاجِعَ فِيهِ الْـحَقَّ، فَإِنَّ الْـحَقَّ قَدِيمٌ، وَلَا يُبْطِلُ الْـحَقَّ شَيْءٌ، وَإِنَّ مُرَاجَعَةَ الْـحَقِّ خَيْرٌ مِنَ التَّمَادِي فِي الْبَاطِلِ»[1]. وهذه أيضًا مِحْنَةٌ عظيمة، وهي كما تلحق العلماء في باب العقيدة وأصول الدين، تلحقهم أيضًا في باب الفِقه، فتجد بعض العلماء، ولا سِيَّما المُقلدون المتعصبون يتعصبون لمذهبهم، ويَلْوُون أعناق النصوص لأجل أن تطابق المذهب.

وانظر كُتُب الخِلاف كـ(المغني) للموَفَّق ابن قدامة، و(المجموع شرح المهذب) للنووي، وما أشبهها، تجد كيف يتعصب بعضُ الناس لِـمَذْهَبِه، ويحاول أن يَلوِيَ أعناق النُّصوص للمذهب، وهذه محنة سَبَبُها أنَّ الإنسان يعتقد قبل أن يستدل، فيجعل الدليل تبعًا لما يقوله ويعتقده، والواجب أن تَسْتَدِلَّ أولًا، ثُمَّ تعتقد، وتجعل اعتقادك وحُكْمَك تابعًا للدَّليل، لكنَّ التَّعَصُّب أمرُه مُشكل.

فإذا قال قائل: كيف تقولون هذا والنصارى يقولون: إنَّ المسلمين متعصبون

---

(١) أخرجه الدارقطني (٤٤٧١)، وابن شبة في تاريخ المدينة (٢/ ٧٧٥).

لِدِينِهِم؟ قلنا: هذا تعصُّبٌ محمود، بل واجب، لأنهم لم يتعصبوا لذلك لمجرد أنه دِينُهم، بل لأنه دِينُ الله عزَّ وجلَّ وهذا كما نقول: إن المجادلة مذمومة إلَّا إذا كانت لإثبات الحقِّ، وإبطال الباطل.

وهذان الثَّوْبَان -أعاذني الله وإيَّاكم منهما- إذا ابتُلِي بهما الإنسان حُرِمَ الحقَّ، فأنت جَرِّد نَفْسَك مِن هَذين الثوبين: الجهل المُركَّب والتعصب.

٢١٢- وَتَحَلَّ بِالْإِنْصَافِ أَفْخَرَ حُلَّةٍ ... زِينَتْ بِهَا الْأَعْطَافُ وَالْكَتِفَانِ

ثم أمر بعد التَّجَرُّد مِن هذين الثوبين بالتحلِّي بالإنصاف.

قَوْلُهُ: «**تَحَلَّ بِالْإِنْصَافِ**» أي: البَس الإنصاف بعد أن تَتَعَرَّى مِن هذين الثوبين.

وَقَوْلُهُ: «**بِالْإِنْصَافِ**» أي: بالعَدْل، سواءً كان لك، أو عليك، كما قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النساء:١٣٥].

ومِن الشهادة على النفس أن يُنْصِفَ الإنسانُ خَصْمَه، فإذا بان الحقُّ وجب عليه اتِّباعُ الحقِّ، وإذا قال خَصْمُه قولًا يتضمن حقًّا وباطلًا، فالوَاجِب أن يَقْبَل الحَقَّ ويَرُدَّ الباطل، ولا يجوز أن يَرُدَّ كُلَّ قوله.

ألم تعلموا أن الله عزَّ وجلَّ أقرَّ قول المشركين مع أنهم مشركون؟

الجواب: بَلَى أقرَّه، لأنه حقٌّ.

مثاله: قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف:٢٨] فاستدلوا للفاحشة بأمرين:

الأول: أنهم وجدوا آباءهم عليها.

الثاني: أن الله أمرهم بها.

فقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [الأعراف:٢٨]، فأبطل هذا الدليل، أو التعليل الذي تَعَلَّلوا به، وسَكَتَ عن قوله: ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا﴾ [الأعراف:٢٨] وإبطالُ أحد الشيئين والسكوتُ عن الآخر يدلُّ على قبُوله، وأنَّه حقّ.

ألم تعلموا أنَّ النبيَّ ﷺ لـمَّا جاءه الـحَبْر وقال: «إِنَّنَا نَجِدُ أَنَّ اللهَ يَجْعَلُ السَّمَوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْأَرْضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ... ضَحِكَ تَصْدِيقًا لَه»[1]. مع أنه عالِـمٌ يهوديٌّ؟! لكنَّ الحقَّ يجب أن يُقبل مِن أي أحد تكلَّم به، فلهذا يقول ابن القيم -رحمه الله-: (**وَتَحَلَّ بِالْإِنْصَافِ أَفْخَرَ حُلَّةٍ**).

وَقَوْلُهُ: «**أَفْخَرَ**» بالنصب على أنها حالٌ مِن الإنصاف، ولا يجوز أن تكون مجرورة على أنها صِفَةٌ، لأنه يُشتَرَط في النَّعْت أن يكون مُوافقًا للمَنْعُوت في المعرفة، أو النكرة.

قَوْلُهُ: «**زِينَتْ بِهَا الْأَعْطَافُ وَالْكَتِفَانِ**» يعني: إذا لُبِسَتْ على الْعِطْفِ -وهو ما بين الكتف والرقبة- والكتف صارت جميلةً، لأنها إنصاف.

٢١٣- وَاجْعَلْ شِعَارَكَ خَشْيَةَ الرَّحْمَنِ مَعْ　　　نُصْحِ الرَّسُولِ فَحَبَّذَا الْأَمْرَانِ

الشعار اجْعَلْه خشيةَ الله عزَّ وجلَّ لا للانتصار لِنَفْسِك، ولهذا كان النبيُّ ﷺ لا ينتصر لنفسه قطُّ، وإنما ينتصر لله -سبحانه وتعالى- إذا انتُهِكت حُرماتُ الله، فإنه يُنكرُها أشدَّ الإنكار.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ [الأنعام:٩١]، رقم (٤٥٣٣)، ومسلم: كتاب صفة القيامة والجنة والنار، رقم (٢٧٨٦).

قَوْلُهُ: «مَعْ نُصْحِ الرَّسُولِ» يعني: مع النصح للرسول ﷺ وذلك بالمتابعة له.

٢١٤- وَتَمَسَّكَنَّ بِحَبْلِهِ وَبِوَحْيِهِ ... وَتَوَكَّلَنَّ حَقِيقَةَ التُّكْلَانِ

قَوْلُهُ: «تَمَسَّكَنَّ بِحَبْلِهِ» أي: تَمَسَّكنَّ بحبل الله، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا ﴾ [آل عمران:١٠٣].

قَوْلُهُ: «وَبِوَحْيِهِ» أي: بوحي الله إلى رسوله صلى الله عليه وسلم.

وَقَوْلُهُ: «وَتَوَكَّلَنَّ حَقِيقَةَ التُّكْلَانِ» يعني: اعتمِد على الله، لأنَّ التوكل على الله هو صِدقُ الاعتماد عليه في جَلْبِ المنافع، ودَفْعِ المَضارِّ مع الثقة بالله، وفِعل الأسباب النافعة.

* * *

٢١٥- فَالحَقُّ وَصْفُ الرَّبِّ وَهْوَ صِرَاطُهُ الْـ ... ـهَادِي إِلَيْهِ لِصَاحِبِ الْإِيمَانِ

٢١٦- وَهُوَ الصِّرَاطُ عَلَيْهِ رَبُّ الْعَرْشِ أَيْـ ... ـضًا، ذَا وَذَا قَدْ جَاءَ فِي الْقُرْآنِ

٢١٧- وَالْحَقُّ مَنْصُورٌ وَمُمْتَحَنٌ فَلَا ... تَعْجَبْ، فَهَذِي سُنَّةُ الرَّحْمَنِ

٢١٨- وَبِذَاكَ يَظْهَرُ حِزْبُهُ مِنْ حَرْبِهِ ... وَلِأَجْلِ ذَاكَ النَّاسُ طَائِفَتَانِ

٢١٩- وَلِأَجْلِ ذَاكَ الحَرْبُ بَيْنَ الرُّسْلِ وَ الْـ ... ـكُفَّارِ مُذْ قَامَ الْوَرَى سِجْلَانِ

٢٢٠- لَكِنَّمَا الْعُقْبَى لِأَهْلِ الْحَقِّ، إِنْ ... فَاتَتْ هُنَا كانَتْ لَدَى الدَّيَّانِ

الشرحُ

٢١٥- فَالحَقُّ وَصْفُ الرَّبِّ وَهْوَ صِرَاطُهُ الْـ ... ـهَادِي إِلَيْهِ لِصَاحِبِ الْإِيمَانِ

قَوْلُهُ: «فَالْـحَقُّ وَصْفُ الرَّبِّ» فالله عزَّ وجلَّ هو الـحقُّ، والـحقُّ وَصْفُه، لقول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ [الحج:٦] والحقُّ هو الشيء الثابت المطابقُ للواقع، إنْ كان خَبَرًا فهو الصِّدقُ، وإنْ كان طَلَبًا، أو خَلْقًا فهو النفع.

قَوْلُهُ: «وَهْوَ صِرَاطُهُ الْـهَادِي إِلَيْهِ لِصَاحِبِ الْإِيمَانِ» فهو صِراطُه الهادي إليه، لأنَّ الله تعالى وصف الصراطَ الهاديَ إليه بأنَّه حقٌّ، فقال تعالى: ﴿أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾ [يونس:٣٥] فالحق يُوصَفُ به الصراط، يعني: الدِّين، لقول الله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ﴾ [النور:٢٥].

فهو الحقُّ، وهو الهادي إلى الحقِّ، وصراطه أيضًا هو الحقُّ، فهذه ثلاثة أمور، فالله تعالى هو الحقُّ، والحقُّ وَصْفُه، فيهدي عبادَه، ويَدُلُّهُم ويُرْشِدُهُم إلى الحقِّ، وصِرَاطه الْـمُوَصِّل إليه هو الحقُّ، فالرسول حقٌّ، والجَنة حقٌّ، والنار حقٌّ، لأنَّ كُلَّ شيء ثابتٌ مطابقٌ للواقع فهو حقٌّ.

٢١٦- وَهُوَ الصِّرَاطُ عَلَيْهِ رَبُّ الْعَرْشِ أَيْـ ـضًا، ذَا وَذَا قَـدْ جَـاءَ فِي الْقُـرْآنِ

قَوْلُهُ: «وَهُوَ الصِّرَاطُ» أي: الحقُّ أيضًا هو الصراط.

قَوْلُهُ: «عَلَيْهِ رَبُّ الْعَرْشِ» ودليل ذلك قوله -سبحانه وتعالى-: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود:٥٦] أي: على طريقٍ مستقيم، ليس فيه اعوِجَاجٌ، فتجد كُلَّ ما شَرَعَه الله، أو كُلَّ ما خَلَقَه الله مُطابقًا للحقِّ تمامًا، لأنَّ الله على صراط مستقيم.

قَوْلُهُ: «وَذَا قَدْ جَـاءَ فِي الْقُرْآنِ» أين جـاء في القرآن أنَّ الله على صـراط مستقيم؟

الجواب: جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود:٥٦].

قال:

٢١٧- وَالْــحَقُّ مَنْصُــورٌ وَمُمْــتَحَنٌ فَــلَا تَعْجَــبْ، فَهَــذِي سُــنَّةُ الــرَّحْمَنِ

قَوْلُهُ: «وَالْـحَقُّ مَنْصُورٌ وَمُمْتَحَنٌ» اللهم انصرنا بالحقِّ، وانصُر الحقَّ بنا، الحقُّ منصور ولا بُدَّ، لقول الله -تبارك وتعالى-: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾ [غافر:٥١] لكن لا بدَّ مِن مِحنة، ولهذا قال: (وَمُمْتَحَنٌ فَلَا تَعْجَبْ) أي: لا تستنكر هذا أن يكون الله تعالى يمتحن أهلَ الحقِّ بالمِحَن ليختبرهم بها.

ألم تروا أنَّ الذَّهَب لا يخرج صافيًا إلَّا إذا عُرِض على النار، وذَاب، وذَهَبَ وَسَخُه، فلا بد مِن امتحانٍ، ودليلُ هذا الواقعُ والشرعُ.

أما الواقع، فانظر ماذا جرى للنبيِّ ﷺ مِن المحن؟! مِحَنٌ عظيمةٌ في أول الدعوة وآخِر الدعوة، ماذا جرى له في مكة؟ وماذا جرى له في الطائف؟ وماذا جرى له في المدينة؟ أليس قد شُجَّ وجُهه، وكُسِرَت رَبَاعِيَتُه[١][٢]؟ الجواب: بلى، لكن لا بدَّ مِن امتحان.

أما الشرع، فقد قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان:٣١].

أتظنُّ أنَّ عَدُوَّك ينام دون أن يحاول القضاءَ عليك؟ أبدًا، ولكن اقرأ ما بعد هذه الجملة: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا

(١) أخرجه الترمذي: كتاب التفسير، باب ومن سورة آل عمران، رقم (٣٠٠٢).
(٢) الرَّباعِيَةُ -كَثَمَانِيَة-: السِّنُّ التي بين الثَّنِيَّةِ والناب، وهي إحدى الأسنان الأربعةِ التي تِلي الثَّنايا، تكونُ للإنسانِ وغَيرِه. التاج: ربع.

﴿وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان:٣١]، لأنَّ العَدُوَّ إما أن يُغِيرَ عليك لِـهَدْمِ ما جئتَ به مِن الشريعة، والتشويش عليك فيُقَابَل بالهداية، ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا﴾، فمهما حاول الأعداء أن يُضِلُّوا الناس عن سبيل الله، فالله تعالى هو الهادي، أو يحاول العَدُوّ أن يقضي عليك بالقوة العسكرية فيُقابَل بالنصر، ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾.

إِذَنْ لا بدَّ مِن محِنة، وكُلَّما كان الإنسانُ أشدَّ في دِينِ الله، والجهاد في دِين الله، لحَقَهُ مِن الألَم، ومِن الأذى، ومِن التشويش، ما لم يَلْحَقْ غَيْرَه.

قَوْلُهُ: «**فَلَا تَعْجَبْ، فَهَذِي سُنَّةُ الرَّحْمَنِ**» إذن استدللنا على أنَّ هذه سُنَّة الرحمن، بدليلٍ شرعيٍّ وواقعيٍّ، فلا بد مِن محنة، ولذلك نرى في واقعنا اليوميّ، أو المدرسيّ (العامِيّ) متى يكون الإنسان نابغًا؟ الجواب: إذا تفوق في الامتحان.

فلا بدَّ مِن امتحان.

٢١٨- وَبِـذَاكَ يَظْهَـرُ حِزْبُـهُ مِـنْ حَرْبِـهِ وَلِأَجْـلِ ذَاكَ النَّـاسُ طَائِفَتَـانِ

قَوْلُهُ: «**بِذَاكَ**» أي: بِكَوْن الحَقِّ منصورًا وممتحنًا يظهر الحِزْب مِن الحَرْب، فالْـمُحارِب ضِدّ ما جاء به الوحي، ضِدّ دِين الله، والحزبُ هو حزبُ الله ينتصر لِدِين الله، وينصره الله به.

فهو يقول: ولا عَجَب في ذلك، فإنَّ هذه سُنَّة الله عزَّ وجلَّ حتى يتبيَّن حزبُ الله مِن حَرْب الله، ولولا ذلك لكان الناسُ أُمَّةً واحدة، وما تبيَّن حِزبُ الله مِن حَرْبه، ولأجل أنَّ الحق منصوٌر وممتَحَنٌ صار الناس طائفتين، لكنَّ العُقبى لأهل الحق كما سبق في قوله الله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [غافر:٥١-٥٢].

٢١٩- وَلِأَجْلِ ذَاكَ الحَرْبُ بَيْنَ الرُّسْلِ وَ الْـ ـكُفَّارِ مُـذْ قَـامَ الْـوَرَى سِـجْلَانِ

قَوْلُهُ: «وَلِأَجْلِ ذَاكَ الْـحَرْبُ... سِجْلَانِ» كما قال أبو سفيان: «الحَرْبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ سِجَالٌ»(١). أي: دَلْوٌ لك وَدَلْوٌ لِعَدُوِّك، فالحرب سِجال، أي: مُسَاجَلة بين أعداء الله، وأولياء الله عزَّ وجلَّ.

٢٢٠- لَكِـنَّمَا الْعُقْبَـى لِأَهْـلِ الْـحَقِّ، إِنْ فَاتَـتْ هُنَـا كانَـتْ لَـدَى الـدَّيَّانِ

وصدق -رحمه الله- قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ﴾ [هود:٤٩] أي: اصبر على ما ينالُك مِن الأذَى، والمعارضة والمعاداة والمباغضة، اصبر ﴿إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود:٤٩].

وصَدَقَ اللهُ، فوالله العاقبةُ لِمَنْ؟ للرسول -عليه الصلاة والسلام- قضى على صَنَادِيد قريش، وعاد منهم مَن بَقِي مِن أنصار الإسلام، فهُم عادوا قُوَّادًا في الإسلام، مجاهدين في سبيل الله، فلا تَنْسَ خالد بن الوليد(٢)، ولا عِكْرِمَة بن أبي جهل(٣)، ولا غيرهما رضي الله عنهم.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، رقم (٧)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام، رقم (١٧٧٣).

(٢) هو خالد بن الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم القرشيّ المخزوميّ سيف الله، أبو سليمان، كان أحد أشراف قريش في الجاهليّة، وكان إليه أَعِنَّة الخيل في الجاهلية، وشهد مع كفّار قريش الحروب إلى عمرة الحديبيّة، كما ثبت في الصّحيح أنه كان على خيل قريش طليعة، ثم أسلم في سنة سبع بعد خيبر، وقيل قبلها. انظر: الإصابة لابن حجر (٢/ ٢١٥).

(٣) هو عكرمة بن أبي جهلٍ عمرو بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم القرشي المخزومي، كان كأبيه مِن أشدّ الناس على رسول الله ﷺ، ثم أسلم عكرمة عام الفتح، وخرج

واتسعت الرسالة حتى خرَجَت مِن وراء جزيرة العرب إلى مشارق الأرض ومغاربها وشَمالها وجنوبها، فصارت العاقبة الآن لمن؟ لأبي جهل وقومه وأصحابه، أو لمحمدٍ رسول الله ﷺ؟ الجواب: للثاني بلا شك.

ومع هذا يقول -رحمه الله-: **(إنْ فَاتَتْ هُنَا كَانَتْ لَدَى الدَّيَّانِ)** يعني: إنْ فاتَك النَّصْر في الدنيا كان في الآخرة عند الله عزَّ وجلَّ ولهذا قال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر:٥١].

افرض أن رجلًا داعيًا مِن الدعاة، قام يدعو لِدين الله، ويُبيِّن بطلانَ ما عليه أهل الباطل ثُمَّ قُضِي عليه قَبْلَ أن يُتِمَّ ما أراد، فالآن فاته النصرُ في الدنيا، لكن له العقبى في الآخرة، إن فاتت في الدنيا وجَدَها في الآخرة.

فالعُقبى لأهل الحقِّ، إن فاتت في الدنيا وجدوها لدى الدَّيَّان عند الله، فالعُقبى لهم على كل حال، إما في الدنيا والآخرة، وإما في الآخرة، أمَّا أن يُحْرَمَ النصر، فهذا شيء مُمْتَنِعٌ، كما سبق في الآية.

على أنني كرَّرتُ مرارًا وأقول: إنَّ النصر ليس نَصْرَ الشخص، ولكن نَصْرَ الطريق الذي ينتهجه، فإذا قُدِّر أنَّ الإنسان قَضَى الله عليه في الدنيا قَبْلَ أن يُشاهِدَ النصر -أي: نصر ما كان عليه- فإنَّ منهجه سوف ينتصر بعد ذلك، ويقوم ما دام هو المنهج الذي جعله الله -سبحانه وتعالى- لعباده.

ولهذا نقول: إنَّ انتصارَ المسلمين بعد موت الرسول ﷺ انتصارٌ للرسول ﷺ، وإن كان بعد وفاته، ويدل لهذا أنَّ هِرَقْلَ عظيمَ الرومِ لما حدَّثه أبو سُفيان بما

= إلى المدينة، ثم إلى قتال أهل الردّة، ووجّهه أبو بكر الصديق إلى جيش نعمان، فظهر عليهم، ثم إلى اليمن ثم رجع، فخرج إلى الجهاد عام وفاته فاستشهد. انظر: الإصابة (٤/ ٤٤٣).

كان عليه الرسول -عليه الصلاة والسلام- مِن الدعوة إلى الحقِّ، قال هِرَقل لأبي سفيان: «إِنْ كَانَ مَا تَقُولُ حَقًّا فَسَيَمْلِكُ مَا تَحْتَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ»[1].

لكن هل الرسول مَلَك ما تحت قَدَمَيْه؟ الجواب: نعم، مَلَكَ ذلك، لكن لا بِشَخْصِه، ولكن بِشَرْعِه ومِنْهاجه -عليه الصلاة والسلام-.

* * *

٢٢١- وَاجْعَلْ لِقَلْبِكَ هِجْرَتَيْنِ، وَلَا تَنَمْ   فَهُمَا عَلَى كُلِّ امْرِئٍ فَرْضَانِ

٢٢٢- فَالْهِجْرَةُ الْأُولَى إِلَى الرَّحْمَنِ بِالْـ   إِخْلَاصِ فِي سِرٍّ وَفِي إِعْلَانِ

٢٢٣- فَالْقَصْدُ وَجْهُ الله[2] بِالْأَقْوَالِ وَالْـ   أَعْمَالِ وَالطَّاعَاتِ وَالشُّكْرَانِ

٢٢٤- فَبِذَاكَ يَنْجُو الْعَبْدُ مِنْ إِشْرَاكِهِ   وَيَصِيرُ حَقًّا عَابِدَ الرَّحْمَنِ

٢٢٥- وَالهِجْرَةُ الْأُخْرَى إِلَى الْمَبْعُوثِ بِالْـ   حَقِّ الْمُبِينِ وَوَاضِحِ الْبُرْهَانِ

٢٢٦- فَيَدُورُ مَعْ قَوْلِ الرَّسُولِ وَفِعْلِهِ   نَفْيًا وَإِثْبَاتًا بِلَا رَوَغَانِ

٢٢٧- وَيُحَكِّمُ الْوَحْيَ الْمُبِينَ عَلَى الَّذِي   قَالَ الشُّيُوخُ فَعِنْدَهُ حَكَمَانِ

٢٢٨- لَا يَحْكُمَانِ بِبَاطِلٍ أَبَدًا، وَكُلْـ   لُ الْعَدْلِ قَدْ جَاءَتْ بِهِ الْحَكَمَانِ

٢٢٩- وَهُمَا كِتَابُ الله أَعْدَلُ حَاكِمٍ   فِيهِ الشِّفَا وَهِدَايَةُ الْحَيْرَانِ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، رقم (٧)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام، رقم (١٧٧٣).

(٢) في نسخة برلين: «في الأقوال وبعض الأصول تقدم «الأعمال» على «الأقوال».

٢٣٠- وَالْـحَاكِمُ الثَّـانِي كَـلَامُ رَسُـولِهِ ... مَـا ثَـمَّ غَيْرُهُمَـا لِـذِي إِيـمَانِ[١]

٢٣١- فَـإِذَا دَعَـوْكَ لِغَـيْرِ حُكْمِهِـمَا فَـلَا ... سَـمْعًا لِـدَاعِي الْكُفْـرِ وَالْعِصْـيَانِ

٢٣٢- قُـلْ لَا كَرَامَـةَ لَا، ولَا نُعْمَـى وَلَا ... طَوْعًـا[٢] لِـمَنْ يَـدْعُو إِلَى طُغْيَـانِ

٢٣٣- وَإِذَا دُعِيتَ إِلَى الرَّسُولِ فَقُلْ لَـهُمْ ... سَمْعًا وَطَوْعًـا، لَسْـتُ ذَا عِصْـيَانِ

الشـرحُ

هذه الأبيات مهمة جدًّا، فيها إخلاص القصد، وإخلاص المتابعة.

يقول -رحمه الله-:

٢٢١- وَاجْعَلْ لِقَلْبِكَ هِجْـرَتَيْنِ، وَلَا تَـنَمْ ... فَهُـمَا عَـلَى كُـلِّ امْـرِئٍ فَرْضَـانِ

قَوْلُهُ: «وَاجْعَلْ لِقَلْبِكَ هِجْرَتَيْنِ» يعني: هاجِرْ بِقَلْبِك هِجْرَتَين، ومعنى الهجرة هنا أن تترك ما سواهما، وتهاجر إليهما.

قَوْلُهُ: «وَلَا تَنَمْ» أي: لا تَتَوَانَ، ولا تتكاسل، بل كن يقظًا سريعًا ذا هِمَّة.

قَوْلُهُ: «كُلّ امْرِئٍ» هل يشمل المُسلمَ والكافرَ، أو المُسلم فقط؟ الجواب: يشمل المُسلمَ والكافرَ، لأنه ما مِن أحدٍ يسمع دعوةَ النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ يموت وهو لا يؤمن بما جاء به إِلَّا كان مِن أصحاب النار[٣]، فكُلُّ امرئٍ يجب عليه أن يهاجر هاتين الهجرتين.

---

(١) في نسخة الإفتاء: «الإيمان».

(٢) في نسخة ابن سحمان: «سمعًا».

(٣) دليله قوله ﷺ: «لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَلَا يَهُودِيٌّ، وَلَا نَصْرَانِيٌّ، وَلَا يُؤْمِنُ بِي إِلَّا كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ». أخرجه الطيالسي (٥١١)، وابن منده في التوحيد (١٤٩).

٢٢٢- فَالْـهِجْرَةُ الْأُولَى إِلَى الـرَّحْمَنِ بِالْـ إِخْـلَاصِ فِي سِرٍّ وَفِي إِعْـلَانِ

وهذه هي الهجرة الأولى: أن تكون مُخْلِصًا لله في سِرِّك أي: فيما تعمله في قلبك مِن خشيةٍ وتوكُّلٍ ورغبةٍ ورهبةٍ.. إلخ.

قَوْلُهُ: «وفي إِعْلَانِ» أي: ما تفعله بجوارحك مِن قولٍ، أو فِعلٍ.

ويجوز أن يكون معنى (في سِرٍّ) يعني: في غَيْبَةٍ عن الناس، (وفي إِعْلَانِ) أي: في مُعَايَنَة الناس، وكلاهما صحيح.

٢٢٣- فَالْقَصْـدُ وَجْـهُ الله بِـالْأَقْوَالِ وَالْـ أَعْـمَالِ وَالطَّاعَـاتِ وَالشُّـكْرَانِ

قَوْلُهُ: «فَالْقَصْدُ وَجْهُ الله» يعني: اجعل القصدَ وجهَ الله عزَّ وجلَّ كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الكهف:٢٨].

قَوْلُهُ: «وَالطَّاعَاتِ وَالشُّكْرَانِ» هذا مِن باب عَطْفِ الصفات، لأنَّ الطاعات أقوالها وأعمالها كلها يدخل فيها الشُّكْران، بل الشُّكر هو الطاعةُ، وامتثالُ الأمر.

٢٢٤- فَبِـذَاكَ يَنْجُـو الْعَبْـدُ مِـنْ إِشْرَاكِـهِ وَيَصِـيرُ حَقًّـا عَابِـدَ الـرَّحْمَنِ

يعني: إذا أخلصَ القصدَ لله عزَّ وجلَّ في كلِّ أقواله وأعماله وطاعاته، وتركِ المَنْهِيَّات، فإنه ينجو مِن الإشراك، ويصير مخلصًا تمامًا.

٢٢٥- وَالهِجْرةُ الْأُخْرَى إِلَى المَبْعُوثِ بِالْـ ـحَقِّ الْـمُبِينِ وَوَاضِحِ الْبُرْهَـانِ

قَوْلُهُ: «إِلَى الْـمَبْعُوثِ» يعني: النبيَّ صلى الله عليه وسلم.

فالهجرة الثانية هي إلى رسول الله ﷺ باتِّباعه، وعَدَم الرَّوَغَان عَن هديه،

لا تقدُّمًا ولا تأخُّرًا، ولا يَمْنَةً، ولا يَسْرَة، وبِهَذِه الهِجْرَة تَسْلَم مِن الابتداع، فيَجِبُ على كل مُسْلِمٍ أن يَجْعَل لِقَلْبِه هاتين الهجرتين.

٢٢٦- فَيَدُورُ مَعْ قَوْلِ الرَّسُولِ وَفِعْلِهِ نَفْيًا وَإِثْبَاتًا بِلَا رَوَغَانِ

يعني: أنه يَدُور مع قول الرسول، ومع فِعله (**نَفْيًا**) إن نفى الرسول ﷺ شيئًا، (**وإثباتًا**) إن أثبت شيئًا.

قَوْلُهُ: «**بِلَا رَوَغَانِ**» الرَّوَغان: هو عدم استقامة السَّيْرِ، كما يكون ذلك في الثعالب، فالثَّعلبُ ذكيٌّ يَرُوغُ إذا رأى عَدوَّه -مِن إنسانٍ، أو حيوانٍ- أَدْرَكَه، وهو يَشُدُّ سعيًا، راغَ يمينًا، أو شمالًا، أو رجوعًا، وإذا صاحِبُه الذي وراءه قد تَعَدَّاه بخطوات كثيرة، فمتى يرجع؟!

فالإنسان يجب أن يكون دائرًا مع قول الرسول ﷺ وفعله، نفيًا فيما نَفَى، وإثباتًا فيما أَثْبَت، ففي باب الخَبَر في الإثبات يُصَدِّق، ولا يتردد، ولا يَقُلْ: كيفَ وكَيْتَ، ولا لِـم؟ وفي باب الأمر يُطِيع، ولا يتردد، ولا يَقُل: هل الأمر للوجوب، أو للاستحباب؟

وفي باب النفي في الأخبار أيضًا يَجزِم بانتفاء ما نفاه الرسول ﷺ، ويَجزِم بإثبات ما أثبته.

وفي باب النهي يترك ما نهى عنه، ولا يَقُلْ: هل هذا النهي للكراهةِ، أو للتحريم؟ فإذا نهى عنه الرسول ﷺ فليَقُل: سَمِعْنا وأَطَعْنا، ويَجْتَنِب، وإذا أُمِر به لِيَقُلْ: سَمِعْنا وأطعنا، ولْيَفْعَل.

ولذلك لا أذكر أنَّ أحدًا من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ إذا أمر النَّبِيُّ ﷺ بشيء أنهم يقولون: يا رسول الله، هل هذا للوُجوب، أو للاستحباب؟ نعم في باب الرأي

يقولون هذا، كما يُذكر عن الحُبَاب بن المُنْذر رَضِيَٱللَّهُعَنهُ أنَّ النبيَّ ﷺ لما نزل في أدنى مياه بَدْر قال: يَا رَسُولَ الله، أَرَأَيْتَ هَذَا المَنْزِلَ، أَمَنْزِلٌ أَنْزَلَكَهُ اللهُ لَيْسَ لَنَا أَنْ نَتَقَدَّمَهُ، وَلا نَتَأَخَّرَهُ، أَمْ هُوَ الرَّأْيُ وَالحَرْبُ وَالمَكِيدَةُ؟ قال: «بَلْ هُوَ الرَّأْيُ وَالحَرْبُ وَالمَكِيدَةُ»[1]. قال: ليس هذا، بل نتقدم إلى آخر بِئرٍ مِن أجْل ألَّا يدخُل الكفار علينا.

كذلك أيضًا امرأة مغيث: وهي جارية -يعني: مملوكة- اشترتها عائشةُ مِن أهلها، لأنهم كاتَبُوها، ثُمَّ أعتقتها، فلما أعتقتها خيَّرها النبيُّ ﷺ بيْن أن تبقى مع زوجها، أو تَفْسَخ النكاح، لأنها صارت حُرَّةً وزوجُها عبدٌ، فخَيَّرَها النبيُّ ﷺ، فاختارت الفِراق، وكانت تُبْغِضُ زوجها بُغْضًا شديدًا، وهو يُحِبُّهَا حُبًّا شديدًا، حتى كان يَتْبَعُها في أسواق المدينة يبكي، يريد أن تبقى، ولكن أَبَتْ فتوَسَّط النَّبِيُّ ﷺ بينهما شافعًا، يريد أن ترجع إلى زوجها، فقال النَّبِيُّ ﷺ: «لَوْ رَاجَعْتِهِ» قَالَتْ: يَا رَسُولَ الله تَأْمُرُنِي؟ قَالَ: «إِنَّمَا أَنَا أَشْفَعُ». قَالَتْ: لَا حَاجَةَ لِي فِيهِ[2].

أما إنه يقول: افعلوا كذا، ثُمَّ يقولون: يا رسول الله أَهُوَ للوجوب، أو للجَواز، أو للاستحباب؟ الجواب: ما قالوا هذا رضي الله عنهم.

فهم إذا دُعُوا إلى الله رسوله قالوا: سمعنا وأطعنا.

٢٢٧- وَيُحَكِّمُ الْوَحْيَ الْـمُبِينَ عَلَى الَّـذِي ... قَـالَ الشُّـيُوخُ فَعِنْـدَهُ حَكَـمَانِ

قَوْلُهُ: «الْوَحْيِ الْـمُبِين» يعني: الكتاب والسُّنَّة.

قَوْلُهُ: «قَالَ الشُّيوخُ» يعني: الفُقهاء، فُقهاء المذهب مَثَلًا، أو علماء الكلام الذين يُقتَدى بهم.

---

(١) أخرجه الطبري في التاريخ (٢/ ٤٤٠).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الطلاق، باب شفاعة النبي ﷺ في زوج بريرة، رقم (٤٩٧٩).

أكثر المتعصبين للمذاهب إذا قلتَ: هذا لا يجوز، قال: لا، هذا يجوز، فقلت له: ما الدليل؟ قال: هو في الكتاب الفُلاني.

والحقيقة أنَّ أقوالَ أهلِ العِلم يُحتجُّ لها، ولا يُحتجُّ بها، فليستْ بِحُجَّة، بل الحُجَّة فيما قال الله ورسوله، فهو يقول: (**إنه يُحكِّمُ الوَحْيَ الـمُبِينَ عَلى الَّذِي قَالَ الشُّيُوخُ**).

ثُمَّ قال: «**فَعِنْدَهُ حَكَمانِ**» وهما الكتاب والسُّنَّة، لقول الله -تبارك وتعالى-: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء:٥٩]، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾ [النساء:٦٥].

٢٢٨- لَا يَحْكُمَانِ بِبَاطِلٍ أَبَدًا، وَكُلْـ ... ـلُ الْعَدْلِ قَدْ جَاءَتْ بِهِ الْـحَكَمانِ

وصدَق -رحمه الله- فلا يمكن أن يأتيَ القرآنُ والسُّنَّةُ بباطل، والمراد بالسُّنَّة ما صحَّ عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم.

٢٢٩- وَهُمَا كِتَابُ الله أَعْدَلُ حَاكِمٍ ... فِيهِ الشِّفَا وَهِدَايَةُ الْـحَيْرَانِ

لا شك أَنَّ أعْدَل الكُتُب كتابُ الله عزَّ وجلَّ لو اجتمع الخَلْق كُلُّهم على أن يأتوا بِمِثل أحكام القرآن ما أَتَوْا بِمِثْلِها، لأنها أعدل حكم.

قَوْلُهُ: «**فِيه الشِّفا**» الشِّفاء هو البُرْء مِن المرَض، لكن أيُّ شِفاء في القرآن: الشفاء الحِسِّي، أو الشِّفاء المَعنوي؟ الجواب: كلاهما، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [يونس:٥٧] هذا الشفاء

المعنوي، وقال النَّبيُّ ﷺ للذي قرأ على اللَّدِيغ بالفاتحة، فقام كأنما نُشِطَ مِن عِقَال، قال لهذا القارئ: «وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ»[(١)].

فالشفاء الذي جاء به القرآن، أو الذي في القرآن يشمل الشفاءين: الحِسيّ، والمعنويّ.

قَوْلُهُ: «وهِدَايَةُ الْـحَيْرَانِ» إي والله، هداية الحيران أي: المتحيّر، المتردد، الشَّاكّ، فهذا يجد الهدايةَ في القرآن، فيجد طِيب القَلب، وطُمَأْنِينَة القَلب، وانشراح الصدر، وانفتاح النفس في القرآن.

فمهما طَلَبْتَ مِن الأطباء أن يزول عنك ما في قَلبك، فلن تجد مِثل القرآن، لكن لمن؟ الجواب: للذين آمنوا كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت:٤٤]، أما غير المؤمن فلا ينتفع به، واقرأ قولَ الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا﴾ [التوبة:١٢٤] قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة:١٢٤-١٢٥].

فغير المؤمن لا يرى الشفاء بالقرآن أبدًا، ولا ينتفع بالقرآن، بل ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المطففين:١٣]، لأنه لا ينتفع بها و﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ مِثل قولنا: (سَواليف الأولين)، لأنه لا ينتفع، فكلَّما كان الإنسان أقوى إيمانًا بالله كان القرآن أَنفعَ له في شفاء مَرَض القَلب، وفي نُور القلب، وفي انشراح الصدر، وفي طمأنينة القلب، وجَرِّبْ تَجِدْ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإجارة، باب ما يعطى في الرقية على أحياء العرب بفاتحة الكتاب، رقم (٢١٥٦)، ومسلم: كتاب السلام، باب جواز أخذ الأجرة على الرقية بالقرآن والأذكار، رقم (٢٢٠١).

والعجيب أني أحيانًا -وهذا عن نفسي- أطلب حُكم مسألةٍ مِن المسائل، فيما عندي مِن كتب الفقهاء، وفيما أَعْرِف مِن السُّنَّة، ولا أجدها، ثم أتأمَّل في آيةٍ مِن القرآن تُوحِي بِحُكم هذه المسألة، فإذا تأمَّلتُ وجدتُ الحُكم في القرآن.

فيطمئن الإنسان إلى أنَّ القرآن ﴿تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل:٩٨]، وهداية لكل حائر.

٢٣٠- وَالْـحَاكِمُ الثَّانِي كَلَامُ رَسُولِهِ ... مَا ثَمَّ غَيْرُهُمَا لِذِي إِيمَانِ

قَوْلُهُ: «وَالحَاكِمُ الثَّانِي كَلامُ رَسُولِهِ» قَيَّدَهُ المؤلف، فقال: «لِذِي إيمانِ».

كلام الرسول -عليه الصلاة والسلام- هو الحاكم الثاني، وفِعْلُه هو الحاكم الثاني، وقد قرأتم قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء:٦٥] أي: فيما حصل بينهم مِن نزاع ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء:٦٥].

٢٣١- فَإِذَا دَعَوْكَ لِغَيْرِ حُكْمِهِمَا فَلَا ... سَمْعًا لِدَاعِي الْكُفْرِ وَالْعِصْيَانِ

أفادنا المؤلف -رحمه الله- أنَّ مَنْ حَكَم بِغَيْر ما جاء به الكتابُ والسُّنَّةُ فَحَالُهُ بينَ أمرين: إما أن يكون كافرًا، وإما أن يكون عاصيًا، ولهذا قال: (**فَلَا سَمْعًا لِدَاعِي الْكُفْرِ وَالْعِصْيَانِ**).

٢٣٢- قُلْ لَا كَرَامَةَ لَا، وَلَا نُعْمَى وَلَا ... طَوْعًا لِمَنْ يَدْعُو إِلَى طُغْيَانِ

٢٣٣- وَإِذَا دُعِيتَ إِلَى الرَّسُولِ فَقُلْ لَهُمْ ... سَمْعًا وَطَوْعًا، لَسْتُ ذَا عِصْيَانِ

هكذا الواجب على المُسْلِم أن يقول بقلبه ومَقَالِه: لا سَمْعَ، ولا طَاعَةَ لمن يدعو إلى طُغيان، لكن كيف يدعو إلى طُغيان؟ نقول: لأنَّ أيَّ إنسان يدعو إلى

حُكم غير حُكم الله ورسوله، فهُو طاغٍ، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦٠-٦١].

فقول المؤلف: «يَدْعُو إِلَى طُغْيَانِ» مُوافِقَة للآية السابقة.

إِذَنْ كل ما خالف حُكم الله فهو طُغيان، وكل مَن دعا إلى ذلك فهو طاغوت، فهل تريد أن تكون مِن أهل الإيمان، أو مِن أهل الطاغوت؟

الجواب: مِن أهل الإيمان.

* * *

٢٣٤- وَإِذَا تَكَاثَرَتِ الْخُصُومُ وَصَيَّحُوا ... فَاثْبُتْ، فَصَيْحَتُهُمْ كَمِثْلِ دُخَانِ

٢٣٥- يَرْقَى إِلَى الْأَوْجِ الرَّفِيعِ وَبَعْدَهُ ... يَهْوِي إِلَى قَعْرِ الْحَضِيضِ الدَّانِ

٢٣٦- هَذَا وَإِنَّ قِتَالَ[1] حِزْبِ اللهِ بِالْـ ... أَعْمَالِ لَا بِكَتَائِبِ الشُّجْعَانِ

٢٣٧- وَاللهِ مَا فَتَحُوا الْبِلَادَ بِكَثْرَةٍ[2] ... أَنَّى وَأَعْدَاهُمْ بِلَا حُسْبَانِ؟!

٢٣٨- وَكَذَاكَ مَا فَتَحُوا الْقُلُوبَ بِهَذِهِ الْـ ... آرَاءِ بَلْ بِالْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ

(١) في نسخة الإفتاء: «قبل حرب» بموحدة تحتانية.
(٢) في نسخة التيمورية: «بهذه».

الشرحُ

٢٣٤- وَإِذَا تَكَاثَرَتِ الْـخُصُومُ وَصَيَّحُوا فَاثْبُتْ، فَصَيْحَتُهُمْ كَمِثْلِ دُخَانِ

٢٣٥- يَرْقَى إِلَى الْأَوْجِ الرَّفِيعِ وَبَعْدَهُ يَهْوِي إِلَى قَعْرِ الْـحَضِيضِ الدَّانِ

قَوْلُهُ: «وَإِذَا تَكَاثَرَتِ الْـخُصُومُ» يعني: بأن كنت وحيدًا في بلدك تدعو إلى السُّنَّة واتِّباع السَّلف، وكَثُرَ الأعداء الذين يَدْعُون إلى مذهبهم الباطل، فالواجب ألَّا تَنْهَزِم، لأنك إذا انهزمتَ فقد هَزَمْتَ الحقَّ، بل اثبُت، وما أَرْعَبَ أعداءَك إذا رَأَوْك ثابتًا.

قَوْلُهُ: «فَصَيْحَتُهُمْ كَمِثْلِ دُخَانِ» فهو شَبَّهَهُم بالدُّخان، تعلو أصواتُهم وضجيجهم وكلماتهم ودعاياتهم، فالدُّخان إذا ثبت له الإنسان تمزَّق وتفرَّق يمينًا وشمالًا، ولم يَضُرَّ الإنسان، وإذا تعالى في الجَوِّ فمآله الرجوع والسُّفْل، وهذا التمثيل مِن أعجب التمثيلات وأَدَقِّها، فهو أشدُّ مِن قول الشاعر:

بَلِيتُ بِلَى الْأَطْلَالِ إِنْ لَمْ أَقِفْ بِهَا

وُقُوفَ شَحِيحٍ ضَاعَ فِي التُّرْبِ خَاتَمُهُ[1]

فقَوْلُهُ: «الأَطْلَالِ» يعني: أطلال محبوبته، يقول: فهو (**شَحِيح**)، إذا ضاع خاتمه في التراب هل يَنظُر أَوَّلَ مرة ويمشي؟ أبدًا، بل يَنْخُل التُّرابَ نَخْلًا، حَبَّة حَبَّة، لَعَلَّه يجد خاتمة.

أقول: إنَّ هذا التشبيه العجيب دونَ ما شَبَّه ابن القيم -رحمه الله- أعداء الحقِّ بالدُّخَان، وَجْهُ الشَّبَه: الدخان، إذا ثَبَتَّ له هل يدفعُك؟ الجواب: لا يدفعُك،

---

(١) البيت للمتنبي، انظر: شرح معاني شعر المتنبي للإفليلي (١/ ١٥٨).

ولكن يتمزَّق يمينًا وشمالًا.

ثانيًا: إذا تعالَوْا عليك، وهو باطل فَمَآلهم للسُّفُول والنزول، لأنَّ الدخان يَرْقَى، وإذا به يَنْزِل، لأنَّ الرياح تَرُدُّه إلى الأرض.

وَقَوْلُهُ: «**دُخَان يَرْقَى إِلَى الْأَوْجِ الرَّفِيعِ**» شَرَح المؤلف المشابهة في الارتفاع فقط، لكننا زِدْنا على هذا بِعَدَم صُمود الدخان لمن ثَبَت، فإنه يتمزَّق ويتفرَّق.

٢٣٦- هَـذَا وَإِنَّ قِتَـالَ حِـزْبِ الله بِالْـ أَعْـمَالِ لَا بِكَتَائِـبِ الشُّـجْعَانِ

قَوْلُهُ: «**حِزْب الله**» وفي نسخة «**حَرْبِ الله**» ويصحُّ حِزْب وحَرْب، لأنَّ القتال يكون مِن جانبين.

قِتَال حِزْب الله يعني: قتالهم لأعدائهم.

قَوْلُهُ: «**لا بكتائب الشجعان**» يعني: ليس بكتائب الشجعان وحدها، وإلَّا فمِن المعلوم أنَّ قتال حِزب الله لأعدائهم يكون بالأعمال، ويكون بالكِتائب، ولولا الكتائب، ولولا رايات الجهاد ما حَصَلَت الغَلَبة على أعداء الله، فأعداء الله قِتالُـهم يكون بأمرين: الأول: بالأعمال، والثاني: بكتائب الشجعان.

فابن القّيم -رحمه الله- لم يَنْفِ أنَّ القتال يكون بكتائب الشجعان، ولكنه نَفَى أن يكون القتال مقتصرًا على كتائب الشجعان.

وصدق -رحمه الله- فالأعمال الصالحة، والأخلاق الفاضلة، والمعاملات الطيبة تفتح قُلوب الأعداء أكثرَ مما تفتحه السيوف، ولهذا نجد في عِلم التاريخ أن كثيرًا مِن رؤساء الكفر لما شُرِح لهم الإسلام أَسْلَمُوا بِدُون أيِّ قتال، ولما قيل: إنَّ المسلمين كذا وكذا.. أسلموا.

وهذا هرقل لما ذُكرت له صفات الرسول -عليه الصلاة والسلام- أَقَرَّ بأنه حَقٌّ[(١)]، لكن منعه -والعياذ بالله- الشُّحُّ بِمُلْكِهِ، فلم يُسْلِم!

٢٣٧- وَاللهِ مَا فَتَحُوا الْبِلَادَ بِكَثْرَةٍ ... أَنَّى وَأَعْدَاهُمْ بِلَا حُسْبَانِ؟!

قَوْلُهُ: «**وَاللهِ مَا فَتَحُوا الْبِلَادَ بِكَثْرَةٍ**» يشير إلى الصحابة، وسَلَف الأُمة، فهُم ما فتحوا البلاد بكثرة (**أَنَّى وَأَعْدَاهُمْ بِلَا حُسْبَانِ**)؟

وهذا صحيحٌ، وفيه الردُّ على مَنْ قال: إِنَّ المسلمين فَتَحُوا البلاد بالسلاح والحرب، وهذا قول أعداء المسلمين، لأنهم إذا قالوا هذا، فمعناه أَنَّ المسلمين طُغَاةٌ معتدون فَتَحوا البلاد بِقُوَّة السلاح، وهذا ما قاله إِلَّا أعداؤنا مِن المستشرقين وأذنابهم، وإنما فَتَحوا البلاد بالعَمَل، وفَتَحوا القُلوب بالعِلم.

فبالعَمَل: إذا رأى الكفار في عهد الصحابة ما عليه طُغاتُهم ووُلاتُهم مِن استعبَادِهم واستِذْلالـهم ورَأَوْا ما كان عليه الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وأَنَّ أميرهم السلطان الأعلى فيهم ثوبُه مُرَقَّع، ينام في المسجد علي كثيبٍ مِن الرَّمْل، وليس عنده حارسٌ، ويتكلَّم عليه الصغير والكبير، ويخطب الناس فتَرُدُّ عليه المرأة[(٢)]، وما أَشْبَهَ ذلك، هل النفوس بِفِطْرَتِها الأصيلة تقبل هؤلاء أو ترفضهم؟

الجواب: تَقْبَلُهم والله، فتنفتح قلوبُهم قبل انفتاح بُلْدَانهم، فبهذه الأعمال الجليلة، والأخلاق الفاضلة فتَحوا البلادَ لا بِكَثْرَة العَدَد، ولا بقوة العُدَّة.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، رقم (٧)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام، رقم (١٧٧٣).

(٢) أخرج هذه القصة سعيد بن منصور في كتاب السنن (١/ ١٩٥، رقم ٥٩٨)، والبيهقي (٧/ ٢٣٣، رقم ١٤١١٤)، وقال البيهقي: هذا منقطع.

لو قارنَّا بين كثرة العَدد، وقُوَّة العُدَّة فأيها أكثرُ: هُم أو أعداؤهم؟ الجواب: الأعداء أضعافٌ مُضاعَفة بلا حسبان، وكذلك في العُدَّة، لكن فتَحوا البلاد بهذه الأعمال.

٢٣٨- وَكَذَاكَ مَا فَتَحُوا الْقُلُوبَ بِهَـذِهِ الْـ ... آرَاءِ بَـــلْ بِـــالْعِلْمِ وَالْإِيــمَانِ

يقول: كذلك فتَحوا القُلوب بالعِلم والإيمان، لا بقواعِدِ أهل المنطق اليونانيّ.

وصدق -رحمه الله- لو أنه عُرِضَت عقائدُ المسلمين على أعدائهم بما يَعرِضُها به علماءُ الكلام، هل يؤمنون؟ لا يؤمنون أبدًا، بل لا يَزيدهم ذلك إلَّا نُفورًا، لكنَّ عقيدة المُسلِم سهلةٌ ويَسِيرة، يأتي الأعرابي يقول: أشهد أن لا إله إلَّا الله، وأشهد أنَّ محمدًا رسول الله، ويمضي، ويتعلَّم العقيدة مِن هاتين الكلمتين.

لكن لو أننا دَعَوْنا أعداءَ الله بكلام أهل الكلام، وأعطينا الواحد منهم مجلداتٍ لم ينتفع، فكلامه -رحمه الله- حقٌّ بلا شَكٍّ.

* * *

٢٣٩- وَشَجَاعَةُ الْفُرْسَانِ نَفْسُ الزُّهْـدِ فِي ... نَفْــسٍ، وَذَا مَحْــذُورُ كُــلِّ جَبَــانِ

٢٤٠- وَشَجَاعَةُ الْـحُكَّامِ وَالْعُلَـمَاءِ زُهْـ ... ـدٌ فِي الثَّنَـا مِـنْ كُـلِّ ذِي بُطْـلَانِ

٢٤١- فَـإِذَا هُمَـا اجْتَمَعَـا لِقَلْـبٍ صَـادِقٍ ... شُـــدَّتْ رَكَائِبُـــهُ إِلَى الـــرَّحْمَنِ

٢٤٢- وَاقْصِــدْ إِلَى الْأَقْــرَانِ لَا أَطْرَافِهَــا ... فَــالْعِزُّ تَحْــتَ مَقَاتِــلِ الْأَقْــرَانِ

٢٤٣- وَاسْمَعْ نَصِـيحَةَ مَـنْ لَـهُ خُـبْرٌ بِـمَا ... عِنْدَ الْـوَرَى مِـنْ كَثْـرةِ الْــجَوَلَانِ

٢٤٤- مَا عِنْدَهُمْ -وَاللهِ- خَيْرٌ غَيْرَ مَا أَخَذُوهُ عَمَّنْ جَاءَ بِالْقُرْآنِ

٢٤٥- وَالْكُلُّ بَعْدُ فَبِدْعَةٌ أَوْ فِرْيَةٌ أَوْ بَحْثُ تَشْكِيكٍ وَرَأْيُ فُلَانِ

الشرحُ

٢٣٩- وَشَجَاعَةُ الْفُرْسَانِ نَفْسُ الزُّهْدِ فِي نَفْسٍ، وَذَا مَحْذُورُ كُلِّ جَبَانِ

هذا التعريف الذي ذَكَرَه للشجاعة لا تكاد تجدُه في كتاب، فزُهد الإنسان في نفسه هو الشجاعة، فشَجاعةُ الفُرسان نَفْسُ الزهد في نَفْسٍ، فإذا زَهَد الإنسانُ في نَفسِه فلا يهمُّه الموت، لأنَّ الجُبنَ يدعو إليه الشُّحُّ بالنفس، يخاف أن يُقْدِم فَيُقْتَل، فإذا زَهَدَ بنفسِه، ولم تهمّه النَّفس إذا فاتت، فهذه هي الشجاعة، ولذلك تجد الشجاع عندما يُقْدِمُ ينسى نَفسه، وينسى كُلَّ شيء، فشجاعةُ الشجعان هي الزُّهد في النفس، وكَرَمُ الكُرَماء الزهدُ في المال، ويأتي زُهدٌ آخرُ، ولذا قال -رحمه الله-:

٢٤٠- وَشَجَاعَةُ الْحُكَّامِ وَالْعُلَمَاءِ زُهْـ ـدٌ فِي الثَّنَا مِنْ كُلِّ ذِي بُطْلَانِ

قَوْلُهُ: «وَشَجَاعَةُ الْحُكَّامِ» كذلك الأمراء شجاعتهم أَلَّا يَهْتَمُّوا بِمَدْح الناس إيَّاهم، أو ذَمِّهم، وأن يقودوا الناس بكتاب الله عزَّ وجلَّ حتى لو قالت الأُمم: هؤلاء مُخَالِفون لِحُقوق الإنسان: يقطعون يد السارق، ويقتلون القاتل.

فالواجب على الأمراء -وهذا يشمل السلطان ومَنْ تحتَه- أَلَّا يبالوا بأحد، وأن يزهدوا في ثناء الناس عليهم بالباطل.

وشجاعة العالِـم أن يَزْهَد في الثناء مِن أهل الباطل، بمعنى أنه لا يُحابي أهل الباطل، أثْنَوْا عليه، أو ذمُّوه لا يهمُّه، يقول: أنا عالـمٌ أُبدي العِلم، سواء أَثنى عَلَيَّ

أهلُ الباطل، أم قَدَحُوا فيَّ، فيَزْهَد في ثناء أهل الباطل عليه، لأنَّ أهل الباطل إذا رَأَوُا العالِـمَ قد دَاهَنَهُم أَثْنَوْا عليه، وقالوا: هذا العالِمُ الذي يعرف الأمور، هذا العالم الذي يَصْلُح لكل واحد، فيُثنون عليه، فهو إذا زَهَد في هذا الثناء صار عالمًا حقًّا وشُجاعًا، اللهمَّ اجعلنا مِن هؤلاء.

ومِن ثَمَّ نقول: العلماء ثلاثة أقسام: عالِـم أُمَّة، وعالِـم مِلَّة، وعالِـم دَوْلة.

الأول: عالـم الملَّة: وهو الذي يَبُث المِلَّةَ أي: شريعة الإسلام، ولا يُبالي بمَن خالَفه، أثنى الناسُ عليه، أم قَدَحُوا فيه، فهذا عالمُ المِلَّة الذي يريد إقامة الشريعة، ولا يَهُمُّه ما يقوله الناس عليه: (هذا رجلٌ مُعَقَّد)، (هذا رجلٌ رجعيٌّ)، (هذا لا يعرف إلَّا دِينًا مَضَت عليه القرون)، فلا يَهُمُّه.

الثاني: عالـم أُمَّة: بمعنى أنه ينظر ماذا يريد العامَّة، إن رأى العامَّةَ مُقبلين على شيء وهو حرامٌ في الشريعة، ولكنَّ الناسَ مُقبلون عليه، ذَهَب يقول: (هذا حلالٌ، الناسُ ما لهم بُدٌّ مِنه، ولا يمكن أن نَرُدَّ الناس)، فيُفتي بما يناسب أهواء الناس، ثُمَّ يحاول أن يجعل له وجهًا في الشرع، فيُحَرِّف النصوصَ مِن أجْل موافقة أهواء الناس.

فهذا إذا رأى أنَّ الثناء عليه يكون في تحليل المصارف **(الربا)**، فيكون هو هذا الرجل العالـم الفَاهِم لِلُغَة العَصر، واقتِصَاد العَصر، فيقول للناس: اعمَلُوا بالرِّبا، فلا يقوم الاقتصاد إلَّا به، فهذا لَاحَظَ ثناءَ الناس عليه، ولم يُبالِ بما يخالف الشرع.

ولما ظهرت الدعوة في البلاد العربية إلى الاشتراكية -وهي في الحقيقة الشَّرَكِيَّة يُصْطَاد بها الأغنياء- لما ظهرت صاروا يأتون بالأدلَّة الدالَّة عليها، وأنها

في القرآن، ويثبتونها، حتى يقول القائل منهم: **(الاشتراكيُّون أنت إمامُهم)**[١] يعني: الرسول -عليه الصلاة والسلام-.

ومِن أعجَب ما رأيت مِن الاستدلال قول أحدهم: إن الله تعالى قال في القرآن: ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ﴾ [الروم:٢٨]، قال: فهذه اشتراكية بين السيد والعبد، وكذا في قوله تعالى: ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ﴾ [الروم:٢٨].

انظر -والعياذ بالله- إلى هذا التحريف؟!

الآية ما معناها؟ يعني: هل أنتم شركاءُ مع هؤلاء، فأنتم سواءٌ في المشاركة؟

الجواب: لا، هذا معطوف على النفي، لكنهم جَعَلُوه إثباتًا، وقالوا: إنَّ الناس شُرَكاءُ في ثلاثة، وعَلَّلوا هذا بالحاجَة، والناس الآن محتاجون إلى الاشتراكية، الشعب كله طبقات: هذا غني جدًّا، وهذا فقير جدًّا، فنحن في حاجة إلى أن نَضُمَّ مالَ هذا إلى هذا، ولكنهم في الحقيقة أخذوا أموال الأغنياء، ولم ينفعوا الفقراء.

المقصود أنَّ عالم الأمة هو الذي ينظر إلى أهواء الناس، وما تهواه ويُسَيِّر الأمورَ علي ما يريدون.

الثالث: عالـم دولة: وهو ينظر ما تريد الدولة، إذا أرادت شيئًا قال: هذا حلال، هذا له وِجهة نظر، ثم يستدل بآياتٍ، أو أحاديثَ ويُحَرِّفُهَا.

---

(١) هذا صدر بيت من همزية الشاعر أحمد شوقي، وتمامه: (لولا دعاوى القوم والغُلَواء). انظر: شعر شوقي في ميزان النقد، لمحمد مصطفى المجذوب (ص:٨٣).

والعلماء في الحقيقة -نسأل الله الحماية- عليهم مسئولية عظيمة، يجب عليهم أن يتقوا الله عزَّ وجلَّ قَبْلَ أن يتقوا عباد الله.

فصارت شَجاعة المقاتل الزهدُ في النفْس، وشجاعةُ الغنيِّ الزهد في المال، وشجاعة العالم الزهد في الثناء مِن أهل الباطل، وشجاعةُ الأمراء الزهد في ثناء الناس، أو قَدْحِهم، لا يَهُمُّهم أحد.

هذه في الحقيقة ضوابطُ، لو أنَّكم إذا مرَّت بكم تُقَيِّدُونَها، تضعون عليها إشارة، ثم تَنقلونها في دفترٍ خاصٍّ يكون فيها فائدة عظيمة ومرجع، لأنها في الواقع ضوابطُ قد لا تجدونها في غير هذا الكتاب.

٢٤١- فَـإِذَا هُمَـا اجْتَمَعَـا لِقَلْـبٍ صَـادِقٍ   شُـــدَّتْ رَكَائِبُـــهُ إِلَى الـــرَّحْمَنِ

قَوْلُهُ: «اجْتَمَعَا» يعني: اجتَمع الزهد في النفْس، والزُّهد في الثناء، فإنَّها سوف تُشَدُّ ركائِبُه إلى الله عزَّ وجلَّ ويكون قصدُه وجهَ الله تعالى.

٢٤٢- وَاقْصِـدْ إِلَى الْأَقْـرَانِ لَا أَطْرَافِهَـا   فَـالْعِزُّ تَحْـتَ مَقَاتِـلِ الْأَقْـرَانِ

يعني: إذا قاتلتَ لا تَذْهب للحَواشي، بل ابدأ بالأَقْران، والأَقْران هُم مَنْ مِثْلُك في الشجاعة، فأنت شجاع، فلا تذهبْ إلى أطراف الجيش الذين ليس عندهم شجاعة، لأنَّ قَتْلَهُم سهلٌ، لكن اقصد إلى الأَقْرَان الذين هُم مِثْلُك فاقتلهم.

كذلك بالنسبة للعلماء، لا تذهب للعامَّة، بل اقتل العالِـمَ الذي يقودهم بالباطل، اقتُله -طبعًا- بالحُجَّة والبرهان، لا بالسَّيْف، وهذه توصيةٌ مِنْ خبير بالأمر، لأنك إذا أردت القضاء على باطل قومٍ فإلى مَنْ تقصد؟ أتذهب إلى العامِّي

تُناظره في هذا القول؟ لا، لكن اذهب إلى العالِم، ويقول العوامُّ: (**إذا صَدَعْتَ رَأْسَ الـحيَّةِ مَاتَ ذَنَبُهَا**) لكن إذا ضَربْتَ ذَنَبَها فلن تموت.

ولهذا يقول -رحمه الله-: «**اقْصِدْ إِلَى الْأَقْرَانِ لَا أَطْرَافِهَا**» فلا تأتِ للحواشي والأطراف، فهؤلاء سَتَعْجِزُ عنهم، لكن انظر إلى أقرانك الذين هم عُلماء مِثْلُك، وناظِرْهم حتى ينهزموا أمامك، وبالتالي ينهزمون أمام عوامِّهم، أما أن تأتي للعوامِّ، فلا تُفَكِّر أبدًا في ذلك، فقد يجتمع عليك عشرون عاميًّا، يَصِيحُون بك، بل وقد تأخذ أحدَهم الغَيْرةُ فيَضْرِبك، فلا تتكلَّم مع هؤلاء. وهذه مِن الحِكَم التي أرشد إليها -رحمه الله تعالى-.

٢٤٣- وَاسْمَعْ نَصِيحَةَ مَنْ لَهُ خُبْرٌ بِمَا عِنْدَ الْوَرَى مِنْ كَثْرَةِ الْـجَوَلَانِ

قَوْلُهُ: «**وَاسْمَعْ نَصِيحَةَ مَنْ لَهُ خُبْرٌ...**» يعني بذلك نَفْسَه.

قَوْلُهُ: «**خُبْرٌ**» أي: عِلْم، يعني: أنه -رحمه الله- جالَ في أقوال العلماء، وليس بلازم أن يذهب إلى كل عالِمٍ في بيته، لكن جال في أقوال العلماء فيما كَتَبُوه، وتأملها وعرفها.

٢٤٤- مَا عِنْدَهُمْ -وَاللهِ- خَيْرٌ غَيْرَ مَا أَخَذُوهُ عَمَّنْ جَاءَ بِالْقُرْآنِ

وهذا مِن إنصاف المؤلف يقول: الخيرُ الذي عندهم موجودٌ في القرآن، وأكثرُ ما عندهم هو الباطل والشرُّ، فإذا كان الخير الذي عندهم موجودًا في القرآن، فإلى أين أرجعُ؟

الجواب: أرجعُ إلى القرآن، ولا يَهُمُّني إذا وافقوا القرآن في شيء، ثم أُبْطِلُ ما خالفوا القرآن مما عندهم، ولا يهمني هذا.

٢٤٥- وَالْكُـــلُّ بَعْـــدُ فَبِدْعَـــةٌ أَوْ فِرْيَـــةٌ ... أَوْ بَحْـــثُ تَشْـــكِيكٍ وَرَأْيُ فُـــلَانِ

ذَكَرَ أربعة أقسام:

الأول: بِدعةٌ ابتدعوها في دِين الله مِن عبادةٍ قوليةٍ أو فِعْلية.

الثاني: فِرْية أي: كَذِبٌ أَخْبَرُوا به عن الله عزَّ وجلَّ.

الثالث: بحثُ تشكيكٍ فيما يُورِدُونَه مِن الأسئلة التي لا يجدون لها جوابًا، ولهذا قال بعضهم: (**أكثرُ الناس شكًّا عند الموت أهلُ الكلام**)(١).

اللهم أَعِذْنا مِن ذلك يا ربَّ العالمين، وارزقنا اليَقين أحياءً، وعند الموت.

الرابع: رأيُ فُلان، وهذا عن التقليد الأعمى، فيقول: قال فلان، وقال فلان.

فهؤلاء القوم ليس عندهم إلَّا واحدٌ مِن هذه الأمور الأربعة: بِدعة، فِرْيَة، تشكيك، تقليد.

* * *

٢٤٦- فَاصْدَعْ بِـأَمْرِ اللهِ لَا تَخْشَ الْـوَرَى ... فِي اللهِ وَاخْشَـــاهُ تَفُـــزْ بِأَمَـــانِ

٢٤٧- وَاهْجُـرْ وَلَـوْ كُـلَّ الْـوَرَى فِي ذَاتِـهِ ... لَا فِي هَـــوَاكَ وَنَخْـــوَةِ الشَّـــيْطَانِ

٢٤٨- وَاصْـــبِرْ بِغَـــيْرِ تَسَـــخُّطٍ وَشِـــكَايَةٍ ... وَاصْفَحْ بِغَيْرِ عِتَابِ مَنْ هُـوَ جَـانِ

٢٤٩- وَاهْجُرْهُمُ الهَجْرَ الجَمِيـلَ بِـلَا أَذًى ... إِنْ لَـــمْ يَكُـــنْ بُـــدٌّ مِـــنَ الْـــهِجْرَانِ

٢٥٠- وَانْظُـــرْ إِلَى الْأَقْـــدَارِ جَارِيَـــةً بِـــمَا ... قَـــدْ شَـــاءَ مِـــنْ غَـــيٍّ وَمِـــنْ إِيـــمَانِ

(١) هذا القول أورده شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٤/ ٢٨) ونسبه للغزالي.

٢٥١- وَاجْعَلْ لِقَلْبِكَ مُقْلَتَيْنِ كِلَاهُمَا ... بِالْحَقِّ فِي ذَا الْخَلْقِ نَاظِرَتَانِ

٢٥٢- فَانْظُرْ بِعَيْنِ الْحُكْمِ وَارْحَمْهُمْ بِهَا ... إِذْ لَا تُرَدُّ مَشِيئَةُ الدَّيَّانِ

٢٥٣- وَانْظُرْ بِعَيْنِ الْأَمْرِ وَاحْمِلْهُمْ عَلَى ... أَحْكَامِهِ، فَهُمَا إِذَنْ نَظَرَانِ

٢٥٤- وَاجْعَلْ لِوَجْهِكَ مُقْلَتَينِ كِلَاهُمَا ... مِنْ خَشْيَةِ الرَّحْمَنِ بَاكِيَتَانِ

٢٥٥- لَوْ شَاءَ رَبُّكَ كُنْتَ أَيْضًا مِثْلَهُمْ ... فَالْقَلْبُ بَيْنَ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ

الشرحُ

٢٤٦- فَاصْدَعْ بِأَمْرِ اللهِ لَا تَخْشَ الْوَرَى ... فِي اللهِ وَاخْشَاهُ تَفُزْ بِأَمَانِ

قَوْلُهُ: «فاصْدَعْ بِأَمْرِ الله» لقول الله تعالى: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ﴾ [الحجر:٩٤].

وَقَوْلُهُ: «اصدع» يعني: بَيِّنْهُ بَيانًا واحدًا، تَصْدَعُ به الحَجَر مِن قُوَّة البَيَان والإظهار.

قَوْلُهُ: «لَا تَخْشَ الْوَرَى فِي اللهِ وَاخْشَاهُ» هذا مأخوذ من قوله: ﴿فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ﴾ [المائدة:٤٤].

قَوْلُهُ: «وَاخْشَاهُ تَفُزْ بِأَمَانِ» يعني: إن فعلتَ هذا، أي: صَدَعْتَ بالحَقِّ، وخَشِيتَ الله عزَّ وجلَّ دون غيره، فستَفُوز بأمان.

فالمؤلف يقول: الواجب على الإنسان أن يَصْدَعَ بالحقِّ، ولا يخشى إلَّا الله عزَّ وجلَّ فإنَّ الأمان في خشية الله، والخَوف كلّ الخَوف في خَشية الناس، فمن خَشِيَ الله خافه الناسُ، ومَنْ خاف الناسَ وَطِئَه الناس.

٢٤٧- وَاهْجُرْ وَلَوْ كُلَّ الْوَرَى فِي ذَاتِهِ   لَا فِي هَوَاكَ وَنَخْوَةِ الشَّيْطَانِ

يعني: اهجر مَنْ خالف الحقَّ -ولو كانوا كُلَّ الورى- في ذات الله عزَّ وجلَّ.

قَوْلُهُ: «لَا فِي هَوَاكَ» يعني: لا تَهْجُرْهُم انتصارًا لِـهَواك.

قَوْلُهُ: «وَنَخْوةِ الشَّيْطَانِ» النَّخْوَة: العِزَّة والفَخر، وما أشبه ذلك.

ولكن اهجرهم لله عزَّ وجلَّ في ذات الله، حتى لو كان أباك وأُمَّك، اهجرهم في ذات الله، ولكن كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان:١٥].

٢٤٨- وَاصْبِرْ بِغَيْرِ تَسَخُّطٍ وَشِكَايَةٍ   وَاصْفَحْ بِغَيْرِ عِتَابِ مَنْ هُوَ جَانِ

قَوْلُهُ: «وَاصْبِرْ» أي: لِـحُكْم الله عزَّ وجلَّ الذي يَحصُل لك مِن أذيَّة أو ضَرَر.

قَوْلُهُ: «بِغَيْرِ تَسَخُّطٍ وَشِكَايَةٍ» فلا تتسخط بِقَلْبِك، ولا تَشْكُوَنَّ بِلِسَانك.

قَوْلُهُ: «وَاصْفَحْ بِغَيْرِ عِتَابِ مَنْ هُوَ جَانِ» اصفح يعني: أَعْرِض عن الشيء، وهو مأخوذٌ مِن صَفْحَة العُنُق، فإنَّ الإنسان إذا أَعْرَض بَدَت صَفْحتُه.

المعنى: اصفح عن هؤلاء «بِغَيْرِ عِتَابِ مَنْ هُوَ جَانِ» ولكن الحقّ لا بُدَّ أن تقوله.

وفي هذا إشارة إلى إبطال الطريقة التي يفعلها بعض الناس، حتى مِن العلماء مَنْ تجده إذا خالفه أحدٌ في رأيه -ولو كان عن اجتهاد- قام يَسُبُّه سَبًّا عظيمًا، وممن يسلك هذه الطريقةَ ابنُ حَزْمٍ -رحمه الله-[1]، وَيَا وَيْلَ مَنْ خَالَفَه، يَسُبُّه سَبًّا عظيمًا،

(١) ابن حزم: هو عليّ بن أحمد بن سعيد، ابن حزم الظاهري، أحد أئمة الإسلام، ولد بقرطبة سنة (٣٨٤هـ)، كان له ولأبيه رئاسة الوزارة، ولكن زَهِد فيها، وأقبل على العلم، ولقد انتقد كثيرًا من العلماء فطاردته الملوك، فمات في بادية -يعني خارج المدن- ببلدة من بلاد الأندلس سنة (٤٥٦هـ). [الشارح].

وهذا غلط، فعليك أن تصبر، وأن تدعُوَ إلى الله عزَّ وجلَّ بالحقِّ بدون تَسَخُّط وعتاب.

٢٤٩- وَاهْجُرْهُمُ الهَجْرَ الجَمِيلَ بِلَا أَذًى إِنْ لَمْ يَكُنْ بُدٌّ مِنَ الْـهِجْرَانِ

قَوْلُهُ: «وَاهْجُرْهُمُ الْـهَجْرَ الْـجَمِيلَ» الهَجر الجميل هو الهَجر بلا أذية، كما أنَّ الصبر الجميل هو الصبر بلا شِكَاية.

قوله: «إِنْ لَـمْ يَكنْ بُدٌّ مِنَ الْـهِجْرَانِ» يعني: لا تَهجُرهم إلَّا إذا كان لا بدَّ مِن الهجر، فاهجُرهم بلا أذى.

وهذا يدلُّ على تسامح ابن القيم -رحمه الله- في مِثل هذه الأمور، عكسَ ما يفعله الآن أهل الغَيْرَة والحماس، تجده يُشَدِّد في مجادلة الآخرين، وفي هَجْرِهم، وفي التنفير منهم، وهذا ليس مِن طريق السلف.

٢٥٠- وَانْظُـرْ إِلَى الْأَقْـدَارِ جَارِيَـةً بِـمَا قَـدْ شَـاءَ مِـنْ غَـيٍّ وَمِـنْ إِيـمَانِ

قَوْلُهُ: «قَدْ شَاءَ» أي: الله عزَّ وجلَّ فانظر إلى أقدار الله تعالى كيف هي جارية بما شاء الله مِن غَيٍّ، ومِن إيمان.

فهذا رجل مؤمن صالحٌ تقيٌّ، وهذا رجل فاسق شَقِيٌّ، مَن الذي قدَّر هذا؟ إنه الله عزَّ وجلَّ لكن لا إكراهَ، بل للإنسان اختيار، إلَّا أنَّ الرَّبَّ عزَّ وجلَّ إذا رأى مِن عِباده زَيْغًا، أزاغ قلوبهم -والعياذ بالله-، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾ [الصف:٥].

فانظر إلى أقدار الله تَجِدِ الرَّجُل الذكِيَّ الكثيرَ المالِ، الكثيرَ البِذْل، الجيِّدَ الرّأي تجده كافرًا، وتجد آخرَ دُونَه في ذلك، لكنه مؤمن، فانظر إلى أقدار الله عزَّ وجلَّ كيف جرت بما شاء؟

ولكن هل هو لمجرد مشيئةٍ، أو مشيئةٍ لِحكمة؟ الجواب: نعم، مشيئةٌ لِحكمة.

٢٥١- وَاجْعَلْ لِقَلْبِكَ مُقْلَتَيْنِ كِلَاهُمَا   بِالْحَقِّ فِي ذَا الْخَلْقِ نَاظِرَتَانِ

اجعل لقَلبِك عَيْنَين تنظر إلى الخَلق مِن وجهين.

٢٥٢- فانْظُرْ بِعَيْنِ الْحُكْمِ وَارْحَمْهُمْ بِهَا   إِذْ لَا تُرَدُّ مَشِيئَةُ الدَّيَّانِ

قَوْلُهُ: «فانْظُرْ بِعَيْنِ الْحُكْمِ» أي: الحُكم الكَوْني القَدَريّ، كيف حَكَمَ اللهُ على هؤلاء بالضلال؟

قَوْلُهُ: «وَارحَمْهُمْ بِهَا» أي: بهذه العين، كيف أَضَلَّ اللهُ هؤلاء المساكين، حتى بَقُوا حَيَارى، لا يَبْنُون أمرَهم على قاعدة، وليس لهم عقيدة، فتَرْحَمُهم، وتقول: الحمد لله الذي فَضَّلني عليهم، وهذا هو النظر الأول.

وأما النظر الثاني، فقال -رحمه الله تعالى-:

٢٥٣- وَانْظُرْ بِعَيْنِ الْأَمْرِ وَاحْمِلْهُمْ عَلَى   أَحْكَامِهِ، فَهُمَا إِذَنْ نَظَرَانِ

قَوْلُهُ: «وَانْظُرْ بِعَيْنِ الْأَمْرِ» أي: الأمر الشرعيّ.

قَوْلُهُ: «وَاحْمِلْهُمْ عَلَى أَحْكَامِهِ» أي: أَلزِمْهم بها، ولا تأخُذْك في دِين الله لَوْمَةُ لَائِم.

فحينئذٍ لنا نَظَران:

النظر الأول: أن تنظر إليهم بعين القَدَر، وهذا يقتضي الرحمة، والحنان عليهم، والتَأَوُّه لَهُم، وأن نَحمَد الله عزَّ وجلَّ أن عافانا مما ابتلاهم به، لأنَّ هذا مِن أقدار الله عزَّ وجلَّ، فأنت إذا نظرتَ إلى هذا المَخْذُول -والعياذ بالله- تَرِقُّ له وتقول: هو مسكين، كيف صُدَّ عن الهُدى، واتَّبع الهوى والرَّدى؟!

النظر الثاني: بِعَيْن الشرع، فهذا النظر يجب عليك أن تحملهم على الشرع، ولو بالضَّرْب، ولو بالحَبْس، قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [النور:٢].

فقال: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ﴾ [النور:٢]، أما بِعَيْنِ القَدَر فارحمْهُم وتأَوَّه لهم.

قال الشافعي -رحمه الله-: «حُكْمِي فِي أَهْلِ الْكَلَامِ: أَنْ يُضْرَبُوا بِالْجَرِيدِ وَالنِّعَالِ وَيُطَافَ بِهِمْ فِي الْقَبَائِلِ وَالْعَشَائِرِ، وَيُقَالُ هَذَا جَزَاءُ مَنْ تَرَكَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ، وَأَقْبَلَ عَلَى الْكَلَامِ»[1].

هذا النظر بأيِّ النَّظَرين؟ الجواب: هو بالنَّظَر الشرعي.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتوى الحَمَوِيَّة[2]: ويَعلم العَليم أنهم مِن وجهٍ مستحقون ما قاله الشافعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وهذا إذا نظرنا إليهم بعَينِ الشرع، لكن إذا نظرت إليهم بعين القدَر رحمتَهم، ورقَقْت لهم، وقلت: سبحان الله الذي أَضَلَّ هؤلاء! مع أنهم قد يكونون أذكياءً، وقد يكونون على أخلاقٍ فاضلة، وقد يكونون على عباداتٍ وخُشوع، ولكنهم ضَلُّوا في العقيدة، وهذا لا شكَّ أنه مِن العَدْل، وأنت إذا نظرت إليهم مِن هذا الوجه حَرَصْتَ غايةَ الحِرص على أن يلتزموا بالشرع، لأنَّ مَنْ رَحِم أحدًا لِفَقْد شيء لا بُدَّ أن يسعى له بالحصول عليه.

---

(١) انظر: شرح العقيدة الطحاوية (ص:١٧٩).
(٢) انظر: الفتوى الحموية الكبرى (ص:٥٥٥).

تقدَّم أنَّ القلب جَعَلَ له مُقلتين تنظران إلى الخَلق بِعَيْن القدَر، وبِعَيْن الشَّرع، وأما عن الوجه فيقول:

٢٥٤- وَاجْعَلْ لِوَجْهِكَ مُقْلَتَينِ كِلَاهُمَا ... مِنْ خَشْيَةِ الرَّحْمَنِ بَاكِيَتَانِ

قَوْلُهُ: «مُقْلَتَيْنِ» يعني: عينين، اجعل عينين باكيتين مِن خشية الله عزَّ وجلَّ.

وكل مَقام له مقال، ففي مَقام العبادة والتَّضَرُّع إلى الله عزَّ وجلَّ احْمِلِ العَيْن على البكاء، لأنَّ المَقامَ يقتضيه.

وفي مَقام المجادلة والانتصار للحقِّ لا تَحْمِل بهذا، لأنَّ خَصْمَك قد يرى هذا أنه مقامُ ضَعْف، فلِكُلِّ مَقام مَقالٌ، والمجاهد المِغْوار على فَرَسِه ليس يبكي كما يبكي الساجد الخاشع لله عزَّ وجلَّ.

وفي معنى ذلك يقول القحطاني -رحمه الله- في نونيته[1]:

يَا حَبَّذَا عَيْنَانِ فِي غَسَقِ الدُّجَى ... مِنْ خَشْيَةِ الرَّحْمَن بَاكِيَتَانِ

نعم، هاتان العينان مَحَلُّ الثناء، لأنَّ (حَبَّذَا) يعني: الثناء عليهما.

فأين منا مَن يتصف بهذا؟! بل أكثر الناس اليوم يَنامون إلى الصباح، وإذا قاموا في غَسَقِ الليل، فالبُكاءُ قليل، لكن عينان في غَسَقِ الدُّجَى مِن خشية الله -سبحانه وتعالى- تبكيان، هذا في زمننا قليلٌ، نسأل الله أن يجعلنا وإِيَّاكم مِن هؤلاء القليل.

فالإنسان ينبغي له أن يكون له مع الله تعالى صِلَة، فيبكي مِن خشية الله -سبحانه وتعالى- في سجوده، في قيامه، كلما تذَكَّر آيات الله -سبحانه وتعالى-

---

(١) انظر: نونية القحطاني (ص:٥٠).

أوجب له ذلك خشيةً له، حتى يَلين القلب، لأنَّ القلب إذا لم تُلَيِّنْه يبقى قاسيًا، لأنَّ زَهْرَة الدنيا وزخارفها والأصحاب، وما أشبه ذلك قد يُوجِبُ هذا، أو بعضُه قَسوةَ القلب، فلا بد أن تتعاهد قلبك بما يُلَيِّنُه.

وأحسنُ ما يَلَيِّنُه كتابُ الله عزَّ وجلَّ إذا قرأته بإمعانٍ وتدبُّرٍ، فإنه يُلَيِّن القلب، كما قال ابن عبد القوي -رحمه الله-:

وَحَافِظْ عَلَى دَرْسِ الْقُرَانِ فَإِنَّهُ ... يُلَيِّنُ قَلْبًا قَاسِيًا مِثْلَ جَلْمَدِ[1]

ومِصداق ذلك قوله -تبارك وتعالى-: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر:٢١].

٢٥٥- لَوْ شَاءَ رَبُّكَ كُنْتَ أَيْضًا مِثْلَهُمْ ... فَالْقَلْبُ بَيْنَ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ

وصدق -رحمه الله-، فلو شاء الله لكنتَ مِثْلَهم يعني: مِثل هؤلاء الضُّلَّال الذين ضَلُّوا عن الهُدى، لأنك بَشَرٌ وإنسان، تقرأ كما يقرؤون، وتَتَدَبَّر كما يتدبرون، فلو شاء الله لأَضَلَّك.

فاحْمَدِ الله على نِعمةِ الهداية، واعْلَم قَدْر نِعمة الله عليك بذلك، واعلم أنَّ له -سبحانه وتعالى- أكبرَ المِنَّة عليك، لأنه لو شاء لأزاغ قلبك، -والعياذ بالله- ولا تَعْجَب بنفسك، ولا تقل: هذا مِنِّي، فتكونَ كقَارُونَ الذي قال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص:٧٨]، وإذا اعتقدتَ هذه العقيدةَ صِرتَ تلجأ إلى الله عزَّ وجلَّ أن يُثَبِّتَك دائمًا، فإنَّ «قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، كَقَلْبٍ

(١) انظر القصيدة بكاملها في الآداب الشرعية والمنح المرعية، لمحمد بن مفلح الحنبلي (٣/ ٥٩٠).

وَاحِدٍ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ»[1]. فكُلُّ العباد قُلوبُهم بين أصابع الرحمن عزَّ وجلَّ يُقلِّبها كيف يشاء، إن شاء أزاغَهَا، وإن شاء هداها، ولكنَّ الزيغ له سبب كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [الصف:٥].

ولما حَدَّثَ النبيُّ ﷺ بهذا الحديث قال: «اللهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ».

احرص على هذا القلب الذي إذا صلحَ صلحَ الجسدُ كُلُّه، وإذا فسدَ فسدَ الجسد كله، اللهمَّ أصلِح قلوبنا، اللهمَّ أصلِح قلوبنا، اللهمَّ أصلِح قلوبنا يا رَبَّ العالمين.

قَوْلُهُ: «بَيْنَ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ» هكذا ثبت عن النبيِّ ﷺ، ولا يلزم مِن كون القلب بين أصابع الرحمن المُماسَّة والمباشرة، بحيث يُقال: إنَّ هذا الحديث لا يصح، لأنه يستلزم أن تكون أصابعُ الرَّبِّ عزَّ وجلَّ في صُدور بني آدم، لأنَّ أهل التعطيل عَطَّلوا هذا الحديث وأنكروه، وقالوا: لا يمكن، كيف تكون القلوب بين أصابع الرحمن؟

فيقال: البَيْنِيَّة لا تقتضي المُماسَّة، ولا المباشرة.

والدليل: قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [البقرة:١٦٤] هل يُماسُّ الأرض؟ الجواب: لا.

وهل يماسُّ السماء؟ الجواب: لا، ومع ذلك سَمَّى الله ذلك بَيْنِيَّة، فلا يلزم مِن كون قُلوبِنا بين أصابع الرحمن أن تكون المُماسَّة، أو المباشرة.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب القدر، باب تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء، رقم (٢٦٥٤).

فإذا قال قائل: كيف إذن؟

فالجواب: أن نجيبه بما أجاب به الإمام مالك -رحمه الله- (**البَيْنِيَّة معلومة، والكيفية مجهولة، والسؤال عنها بدعة، والإيمان بها واجب**).

هكذا نقول في كل مَن حاول أن يسأل عن كيفية صِفات الله عزَّ وجلَّ أو أن يتخيل ذلك بِقَلْبِه، حتى لو حدَّثَتْك نفسُك أن تتطلبَ كيفيةَ صفات الله، فأَوْرِد عليها ما قاله مالك -رحمه الله- وغيره من العلماء.

اللهم ثَبِّت قلوبَنا على طاعتك يا ربَّ العالمين.

* * *

٢٥٦- وَاحْذَرْ كَمَائِنَ نَفْسِكَ اللَّاتِي مَتَى ... خَرَجَتْ عَلَيْكَ كُسِرْتَ كَسْرَ مُهَانِ

٢٥٧- وَإِذَا انْتَصَرْتَ لَهَا فَأَنْتَ كَمَنْ بَغَى ... طَفْيَ الدُّخَانِ بِمَوْقِدِ النِّيرَانِ

٢٥٨- وَاللهُ أَخْبَرَ وَهْوَ أَصْدَقُ قَائِلٍ ... أَنْ لَيْسَ يَنْصُرُ عَبْدَهُ بِأَمَانِ

٢٥٩- مَنْ يَعْمَلِ السُّوآى سَيُجْزَى مِثْلَهَا ... أَوْ يَعْمَلِ الْحُسْنَى يَفُزْ بِجِنَانِ

٢٦٠- هَذِي وَصِيَّةُ نَاصِحٍ وَلِنَفْسِهِ ... وَصَّى وَبَعْدُ لِسَائِرِ الْإِخْوَانِ

الشرحُ

٢٥٦- وَاحْذَرْ كَمَائِنَ نَفْسِكَ اللَّاتِي مَتَى ... خَرَجَتْ عَلَيْكَ كُسِرْتَ كَسْرَ مُهَانِ

قَوْلُهُ: «كَمَائِنَ نَفْسِكَ»: أي: مَا كَمُنَ فيها وخَفِيَ، والنفس أَمَّارة بالسُّوء إلَّا ما رحم رَبِّي.

فهو يقول: احذر كَمائن نَفْسِك، فللنَّفسِ كَمَائِنُ يعني: أشياء مستترة، لا يعلمها إِلَّا الله عزَّ وجلَّ كما قال القحطاني[١]:

وَاللهِ لَوْ عَلِمُوا قَبِيحَ سَرِيرَتِي ... لَأَبَى السَّلَامَ عَلَيَّ مَنْ يَلْقَانِي

فالإنسان في نَفْسِه كَمائنُ لا يعلمها إِلَّا اللهُ، فاحذر هذه الكَمَائِن.

والكمائن كثيرة قد تكون إشراكًا بالله -نسأل الله العافية- وقد تكون رِياءً، فالإنسان يحب الرِّيَاء، وأن يراه الناس على عملٍ صالحٍ، وقد تكون الحَسَدَ لعباد الله، وهو مِن خِصَال اليهود، وقد تكون كراهةَ أن ينتصر دِين الله عزَّ وجلَّ أو أن ينتصر أولياء الله عزَّ وجلَّ وقد تكون بإيثار الدنيا على الآخرة، وقد تكون بإيثار الأولاد والأزواج على الآخرة، قال تعالى: ﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ [المنافقون:٩]، وقد تكون بكراهة الحقِّ وتَثَاقُلِه، وقد تكون بالعداوة والبغضاء للمؤمنين، وغير ذلك مما لا يُحصى.

المهم أنَّ هناك كمائنَ في القلب خَفِيَّة، تحتاج إلى تمحيصٍ، وإلى غَسْل القلب مِن ظاهِرِه وباطِنِه، كُلنا يستطيع أن يصلِّي صلاة خشوع ظاهرة، يكبّر فيرفع يديه، يضع يديه على صدره، يركع تمامًا، يسجد تمامًا، يقرأ تمامًا، لكنَّ الشأن على القلب، هل القلب يتابع الجوارح -أو بعبارةٍ أصحّ- هل هذه الجوارحُ تابعةٌ للقلب بإحسان العمل أم هو صورة؟

هذه مسألة حَذَّر منها ابن القيم -جزاه الله خيرًا- فاحذر هذه، واجعل دائمًا قصدَكَ الوصول إلى الله عزَّ وجلَّ فهو غايةُ كُلِّ غاية.

---

(١) انظر: نونية القحطاني (ص:١٨).

أنت إذا جعلت هذا هو القصد -والله-، تنسى الدُّنيا ومَنْ فيها، إذا جعلت قصدَكَ أن تصِل إلى الله، أن تنصُر دِينَ الله، أن تُحِبَّ في الله، وتُبغِض في الله، فإنك سوف تصل إلى الغَايةِ التي تنسى الدنيا كُلَّها، بل تجد لَذَّة العَيش بهذه الدنيا والحياة الطيبة.

أَمَّا إِنْ أتبَعْت نَفْسَك الدُّنيا وزَخَارِفَها، فإنك تتعب، لأنَّ الدنيا لا يمكن أبدًا أن تأتِيَك على ما تريد، لكن إذا قَصدْتَ اللهَ جاءك ما تريد، وإذا أردت الله جاءك ما تريد.

فاحذر هذه الكمائن، لأنها إِنْ (**خَرَجَتْ عَلَيْكَ كُسِرْتَ كَسْرَ مُهَانِ**)، وهنا شبَّهَها المؤلف -رحمه الله- بالكَمِين في الحرب، والكَمِين في الحرب بأنْ يختبئ لِعَدُوِّه، ثم يخرج إليه، وإذا خرج إليه انكسر.

وانظر كيف فعَلَت هَوازِنُ في غزوة الطائف؟ كانوا ثلاثة آلاف وخمسمئة، وكان النَّبِيُّ ﷺ مع جُنوده اثني عشر ألفًا، فكَمَنَ لهم هؤلاء في الوادي، يعني: اختبئوا واختَفَوْا، فلما نزل المسلمون في الوادي هَجَمُوا عليهم[1]، فحصل ما حصل لولا لُطف الله عزَّ وجلَّ.

فكَمَائِن النفس احذرها، وكُلَّما وجدتَ في قَلبِك شيئًا مِن هذه الكمائن فافزع إلى الله عزَّ وجلَّ ولا تُحاول أن تأتي بأدلَّة عقلية، وأشياء مِن هذا، بل افزَع أولًا إلى الله، لأنَّ الله تعالى علَّمنا هذا فقال: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ﴾ [الأعراف:٢٠٠] فلا ملجأ، ولا مَنْجا إلَّا إلى الله عزَّ وجلَّ، ولا تجلس تُفكِّر

(١) يعني غزوة حُنَين، وتسمى أَوْطَاس، وتسمى هوازن، والحديث أخرجه أحمد (٣/٣٧٦، ١٥٠٩١).

تريد أن تَطرُد هذه الوساوس، لأنها ربما تغلبك، لكن عليك باللُّجوء إلى الله عزَّ وجلَّ واستَعِذ بالله.

يقول -رحمه الله-:

٢٥٧- وَإِذَا انْتَصَرْتَ لَـهَا فَأَنْتَ كَمَنْ بَغَى   طَفْـيَ الـدُّخَانِ بِمَوْقِـدِ النِّـيرَانِ

قَوْلُهُ: «وَإِذَا انْتَصَرْتَ لَـهَا» أي: لنفسك، يعني: صِرتَ معها في كمائنها، فقد أخطأتَ خطأ عظيمًا، كمن أراد أن يُطفئَ الدخانَ بمُوقِد النيران، فإنه لا يتمكن، لأنَّ كلَّ إيقاد لا بدَّ له مِن دخان، ولا يمكن كَمَن أراد أن يطفئَ النَّارَ بزيادة الحَطَب.

٢٥٨- وَاللهُ أَخْـبَرَ وَهْـوُ أَصْـدَقُ قَائِـلٍ   أَنْ لَـيْسَ يَنْصُـرُ عَبْـدَهُ بِأَمَـانِ

ثُمَّ قال: إنَّ الله أخبر بأن سوف ينصر عبده بأمان، والدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر:٥١].

وصدق اللهُ وَعْدَه، نَصَرَ الله محمدًا ﷺ على أعدائه، فقد خرج مِن مكة خائفًا على نَفْسِه مختبئًا في الغَار، ورجع إليها بعد ثماني سنين فاتحًا منتصرًا، ولهذا أعلن النَّبيُّ ﷺ في السعي، وهو على الصَّفا والمَرْوَة **«لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْـمُلْكُ وَلَهُ الْـحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ، أَنْجَزَ وَعْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ»**(١).

فالله تعالى أخبَر بأنه سينصُر عَبْدَه، وصَدَق عزَّ وجلَّ ووقع هذا.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، رقم (١٢١٨).

٢٥٩- مَنْ يَعْمَلِ السُّوآى سَيُجْزَى مِثْلَهَا   أَوْ يَعْمَلِ الْحُسْنَى يَفُزْ بِجِنَانِ

وأخبر أيضًا أنَّ مَن يعمل السُّوآى يُجزَى مِثْلَها، وأنَّ مَنْ يعمل الحُسنى يَفُزْ بجِنَان، وهذا مأخوذ من قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ﴾ [فصلت:٤٦].

٢٦٠- هَذِي وَصِيَّةُ نَاصِحٍ وَلِنَفْسِهِ   وَصَّى وَبَعْدُ لِسَائِرِ الْإِخْوَانِ

يعني أنه -رحمه الله- أوصانا بهذه الوصايا النافعة، وقد بدأ بنَفْسِه، وهكذا الناصح يبدأ أولًا بنَفْسِه، ثُمَّ بإخوانه.

* * *

فصـــل

وَهَذَا أَوَّلُ عَقْدِ مَجْلِسِ التَّحْكِيم

٢٦١- فَاجْلِسْ إِذَنْ فِي مَجْلِسِ الحَكَمَيْنِ لِلرْ ... رَحْمَــنِ لَا لِلــنَّفْسِ وَالشَّــيْطَانِ

٢٦٢- الْأَوَّلُ[1]: النَّقْلُ الصَّحِيحُ وَبَعْدَهُ الْـ ... ـعَقْلُ الصَّـرِيحُ وَفِطْرَةُ الـرَّحْمَنِ

٢٦٣- وَاحْكُـمْ إِذَنْ فِي رُفْقَـةٍ قَـدْ سَـافَرُوا ... يَبْغُــونَ فَــاطِرَ هَــذِهِ الْأَكْــوَانِ

٢٦٤- فَتَرَافَقُــوا فِي سَــيْرِهِمْ وَتَفَــارَقُوا ... عِنْـدَ افْـتِرَاقِ الطُّـرْقِ بِالْـحَيْرَانِ

٢٦٥- فَــأَتَى فَرِيــقٌ ثُــمَّ قَــالَ: وَجَدْتُــهُ ... هَــذَا الْوُجُــودَ بِعَيْنِــهِ وَعِيَــانِ

٢٦٦- مَــا ثَــمَّ مَوْجُــودٌ سِــوَاهُ وَإِنَّــمَا ... غَلِـطَ اللِّسَــانُ فَقَــالَ: مَوْجُـودَانِ

الشـرحُ

لما ذكر المؤلف -رحمه الله تعالى- النصائحَ السابقة طَلَبَ أن نجلس مجلس التحكيم، فبدأ المؤلف في التحكيم بين الطوائف، وهذا مِن إنصافه -رحمه الله-، وهكذا يجب على كل إنسان أَلَّا يَرُدَّ قولًا إِلَّا بعدَ وجود شيئين:

- الشيء الأول: صِحَّة قوله هو.
- الشيء الثاني: بُطلان قول الخَصم.

---

(١) في الأصول: «إحداهما».

لأنك لا يمكن أن تُبطل قول خَصمك، وأنت لم تُصَحِّح سِواه، إنما لا بدَّ مِن الأمرين: الأدلة على صحة ما تقول، والأدلة على بُطلان ما يقول الخَصم، فهذا هو العدل.

قال -رحمه الله-:

٢٦١- فَاجْلِسْ إِذَنْ فِي مَجْلِسِ الحَكَمَيْنِ لِلرْ رَحْمَنِ لَا لِلنَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ

اللام في قوله: «لِلرَّحْمَنِ» للإخلاص، يعني: اجلس للرحمن كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾ [النحل:١٢٥].

قَوْلُهُ: «**لَا لِلنَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ**» يعني: لا لأجل أن تنتصر لِنَفسِك بالباطل، فإنَّ هذا مِن وَحْيِ الشيطان.

والإنسان إذا جلس مع مُجَادِلِه بهذه النِّية أي: الإخلاص فإنّه سوف يرجع إلى الحقِّ، سواء كان معه، أَم مع خصمه.

٢٦٢- الْأَوَّلُ: النَّقْلُ الصَّحِيحُ وَبَعْدَهُ الْـ ـعَقْلُ الصَّرِيحُ وَفِطْرَةُ الرَّحْمَنِ

الواقع أنَّ المؤلف -رحمه الله- جعلهما شيئين، وهم ثلاثة:

الأول: «**النَّقْلُ الصَّحِيحُ**»، ويتمثل هذا في القرآن الكريم، وفيما صحَّ عن النَّبي ﷺ، أما ما لم يصحَّ، فليس بشيء، ولهذا قَيَّده المؤلف بقوله: (**النقل الصحيحُ**).

الثاني: «**العَقْلُ الصَّريحُ**» والصريحُ مِن كلِّ شيءٍ خالصُه، والمراد بالعقل الصريح: الخالص مِن الشبهات والشهوات، يعني أنَّ الإنسان حينما يتدبر، ويتعقل لا يكون في قَلبه شُبهة، أو شهوةٌ لانتصار نَفْسِه، فكُلَّما سمعت عقلًا صريحًا، فالمعنى أنه سالِمٌ مِن الشبهات والشهوات.

الشبهات: الجهل، والشهوات: الإرادات السيئة، فإذا وَفَّق اللهُ -سبحانه وتعالى- الإنسانَ عِلْمًا، وحُسنَ قَصْد وإرادة، صار ذا عقل صريح، وضِدّ ذلك العقلُ المبنيُّ على الجهل، أو على سوء الإرادة.

والعقل الصريح يطابق تمامًا النقل الصحيح، وإن كان في النقل الصحيح ما يَعْجِز العقلُ الصريح عن إدراكه، ولذلك نحن لا نُدرك أبدًا تفاصيل ما اتَّصف الله تعالى به، لكن نُدركُ الإجمال، ثم نأخذ التفصيل مِن القرآن والسُّنَّة.

فإنه لا بدَّ أن يطابق العقلُ الصريحُ النَّقلَ الصحيحَ، ولا يمكن أن يتعارضا أبدًا، فإن قُدِّرَ تعارضهما، فإمَّا أن يكون النقلُ غيرَ صحيح، وإما أن يكون العقلُ غيرَ صريح، أَمَّا نقلٌ صحيحٌ، وعقلٌ صريحٌ، فلا يمكن أن يتعارضا.

الثالث: «فِطْرَةُ الرَّحْمَنِ» فالفطرة في الحقيقة غيرُ العقل، الفطرةُ مجبولٌ عليها الإنسان، يُدرك مدلولَـها بدون تعقُّل، وبدون نَظرٍ كعُلوِّ الله عزَّ وجلَّ، فهذا مُدْرَكٌ بالفطرة، فالإنسان مفطُورٌ -قبلَ أن يدرُس أدلة العُلُوِّ النقلية والعقلية- على عُلُوِّ الله على خَلْقِه، وأنه تعالى فوقَ كلِّ شيء، ويؤمن بذلك.

٢٦٣- وَاحْكُـمْ إِذَنْ فِي رُفْقَـةٍ قَـدْ سَـافَرُوا   يَبْغُـونَ فَـاطِرَ هَـذِهِ الْأَكْـوَانِ

قَوْلُهُ: «سَافَرُوا» أي: سافروا سَفَرًا معنويًّا، وهو سَفَرُ القلب، أي: ساروا بقلوبهم يطلبون الله، أين الله؟ ومَن هو الله؟

والمؤلف سيَذكرُ أقسام الناس كُلِّهم، الكافر والمؤمن، فهم (**سَافَرُوا يَبْغُونَ فَاطِرَ هَذِهِ الْأَكْوَانِ**) أي: يطلبون الرَّبَّ عزَّ وجلَّ.

٢٦٤- فَتَرَافَقُــوا فِي سَــيْرِهِمْ وَتَفَــارَقُوا   عِنْـدَ افْـتِرَاقِ الطُّـرْقِ بِالْــحَيْرَانِ

حين خرجوا مِن البلد ترافقوا رُفْقَة، ولكنَّهم تفرَّقوا، (**عِنْدَ افْتِرَاقِ الطُّرْقِ بِالْـحَيْرَانِ**)، لما افترق الطريق تحيَّروا أيذهبون يمينًا، أو شمالًا، أو أمامًا، أو خلفًا؟ فتفرَّقوا، فهم ترافَقُوا في أول الطريق، ثُمَّ افترقوا عند افتراق الطرق.

٢٦٥- فَــأَتَى فَرِيــقٌ ثُــمَّ قَــالَ: وَجَدْتُــهُ   هَــذَا الْوُجُــودَ بِعَيْنِــهِ وَعِيَــانِ

قَوْلُهُ: «**وَجَدْتُهُ**» أي: وجدتُ فاطرَ هذه الأكوان، فالضمير في (**وَجَدْتُهُ**) يعود على قوله: (**فَاطِرَ هَذِهِ الأَكْوَانِ**).

قَوْلُهُ: «**وَجَدْتُهُ هَذَا الْوُجُودَ بِعَيْنِهِ وَعِيَانِ**» يعني: وجدته نفْس الوُجود، فالرَّبُّ هو الوجود.

بدأ المؤلف -رحمه الله- بأشدِّهم شَطْحًا وضلالًا، وهم أهل وَحْدَة الوُجود الذين على رأسهم الخبيث ابن عَرَبِي[1]، فابن عربي هو رئيس هذه الطائفة، فقد ذهبوا يطلبون الله، وقالوا: وجدنا اللهَ هو هذا الوجود، وما وجدنا شيئا آخر غير الله غير هذا الوُجود، فهذا الوجود هو عينُ الله، فمَثَلا اسم الأخ حَمَد، والذي عن يمينه سُليمان، والذي عن يساره ناصر، هؤلاء شيء واحد.

---

(١) هو محيي الدِّين محمد بن علي بن محمد بن عربي أبو عبد الله الطائي الأندلسي، طاف البلاد وأقام بمكة مدة، وصنف فيها كتابه المسمى بـ(الفتوحات المكية) في نحو عشرين مجلدًا، فيها ما يعقل وما لا يعقل، وما ينكر وما لا ينكر، وما يعرف وما لا يعرف، وله كتابه المسمى بـ(فصوص الحكم) فيه أشياء كثيرة ظاهرها كفر صريح، كان مولده في سنة ستين وخمسمئة بمرسية من الأندلس، ووفاته في الثامن والعشرين من ربيع الآخر سنة ثمان وثلاثين وستمئة. انظر: فوات الوفيات (٣/ ٤٣٥)، والبداية والنهاية لابن كثير (١٣/ ١٨٢).

٢٦٦-مَا ثَمَّ مَوْجودٌ سِوَاهُ وَإِنَّمَا غَلِطَ اللِّسَانُ فَقَالَ: مَوْجُودَانِ

سبحان الله! هؤلاء يقولون: الرَّبُّ هو المربوب، والخالق هو المخلوق، لا يوجد رَبٌّ، وهؤلاء هم أهل وَحْدَة الوجود، فيقولون: كُلُّ الكونِ هو الرَّبُّ، والرَّبُّ هو الكون، (مَا ثَمَّ موجودان)، وإنما غَلِط اللسان، فقال: موجودان.

***

٢٦٧-فَهُوَ السَّمَاءُ بِعَيْنِهَا وَنُجُومِهَا وَكَذَلِكَ الْأَفْلَاكُ وَالْقَمَرَانِ

٢٦٨-وَهُوَ الْغَمَامُ بِعَيْنِهِ وَالثَّلْجُ وَالْـ أَمْطَارُ مَعْ بَرَدٍ وَمَعْ حُسْبَانِ

٢٦٩-وَهُوَ الْهَوَاءُ بِعَيْنِهِ وَالْمَاءُ وَالتُّـ ـرْبُ الثَّقِيلُ ونَفْسُ ذِي النِّيرَانِ

٢٧٠- هَذِي بَسَائِطُهُ وَمِنْهُ تَرَكَّبَتْ هَذِي الْمَظَاهِرُ، مَا هُنَا شَيْئَانِ[1]

٢٧١- وَهُوَ الْفَقِيرُ لَهَا لِأَجْلِ ظُهُورِهِ فِيهَا كَفَقْرِ الرُّوحِ لِلْأَبْدَانِ

٢٧٢- وَهِيَ الَّتِي افْتَقَرَتْ إِلَيْهِ لِأَنَّهُ هُوَ ذَاتُهَا وَوُجُودُهَا الْحَقَّانِ

٢٧٣- وَتَظَلُّ تَلْبَسُهُ وَتَخْلَعُهُ، وَذَا الْـ إِيجَادُ وَالْإِعْدَامُ كُلَّ أَوَانِ

٢٧٤- وَيَظَلُّ يَلْبَسُهَا وَيَخْلَعُهَا، وَذَا حُكْمُ الْمَظَاهِرِ كَيْ يُرَى بِعِيَانِ

٢٧٥- وَتَكَثُّرُ الْمَوْجُودِ كَالْأَعْضَاءِ فِي الْـ ـمَحْسُوسِ مِنْ بَشَرٍ وَمِنْ حَيَوَانِ

٢٧٦-أَوْ كَالْقُوَى فِي النَّفْسِ ذَلِكَ وَاحِدٌ مُتَكَثِّرٌ قَامَتْ بِهِ الْأَمْرَانِ

٢٧٧- فَيَكُونُ كُلًّا هَذِهِ أَجْزَاؤُهُ هَذِي مَقَالَةُ مُدَّعِي الْعِرْفَانِ

---

(١) في نسخة الإفتاء: «أولاهما».

٢٧٨- أَوْ أَنَّهَــا كَتَكَثُّــرِ الْأَنْــوَاعِ فِي ... جِـنْسٍ كَـمَا قَـالَ الْفَرِيـقُ الثَّـانِي

٢٧٩- فَيَكُــونُ كُلِّيًّــا، وَجُزْئِيَّاتُــهُ ... هَــذَا الْوُجُــودُ، فَهَــذِهِ قَــوْلَانِ

٢٨٠- إِحْدَاهُمَا[1] نَصُّ (الْفُصُوصِ) وَبَعْـدَهُ ... قَـوْلُ ابْـنِ سَـبْعِينٍ، ومَـا الْقَـوْلَانِ

٢٨١- عِنْـدَ الْعَفِيـفِ التِّلْمِسَـانِيِّ الَّـذِي ... هُــوَ غَايَــةٌ فِي الْكُفْــرِ وَالْبُهْتَــانِ

٢٨٢- إِلَّا مِــنَ الْأَغْــلَاطِ فِي حِــسٍّ وَفِي ... وَهْــمٍ، وَتِلْـكَ طَبِيعَـةُ الْإِنْسَــانِ

٢٨٣- وَالْكُــلُّ شَيْءٌ وَاحِــدٌ فِي نَفْسِــهِ ... مَــا لِلتَّعَــدُّدِ فِيــهِ مِــنْ سُــلْطَانِ

الشرحُ

هؤلاء -كما تقدَّم- يقولون: إنَّ الخالقَ والمخلوقَ شيءٌ واحد، وانظر هذيانهم! يقول:

٢٦٧-فَهُــوَ السَّــمَاءُ بِعَيْنِهَــا وَنُجُومِهَــا ... وَكَــذَلِكَ الْأَفْــلَاكُ وَالْقَمَــرَانِ

يقول: هذا هو الله -نسأل الله تعالى العافية- وسيأتي وجه كلامه الفاسد الباطل.

٢٦٨-وَهُــوَ الْغَــمَامُ بِعَيْنِــهِ وَالــثَّلْجُ وَالْــ ... أَمْطَــارُ مَــعْ بَــرَدٍ وَمَــعْ حُسْــبَانِ

قَوْلُهُ: (حُسْبانِ) بالسين، ولا يَبْعُد أن تكون بالصاد، لأنَّ (الحُصْبان) حصب البرد، لأنه كالحصباء يرمي بالأرض.

٢٦٩- وَهُوَ الْــهَوَاءُ بِعَيْنِـهِ وَالْــمَاءُ وَالْتْـ ... ـتُرْبُ الثَّقِيـلُ ونَفْـسُ ذِي النِّـيرَانِ

---

(١) في نسخة التيمورية: «سيئان» بسين مهملة.

٢٧٠- هَـذِي بَسَـائِطُهُ وَمِنْـهُ تَرَكَّبَـتْ هَـذِي الْـمَظَاهِرُ، مَـا هُنَـا شَـيْئَانِ

يقول: هذا هو الله عزَّ وجلَّ وكيف يكون الله مختلفًا اختلافًا عظيمًا؟ يقول: (هذي البسائط)، والبسائط كما نقول: (الأصول)، ومنه تركَّبت هذي المظاهر، ما هنا شيئان.

لو صوَّرنا إنسانًا عليه -مثلًا- شِماغٌ أحمر مُلَوَّن، ثياب بيضاء، فهذه مَظَاهِر فقط، وَإِلَّا فهما شيءٌ واحد، فالاختلاف في النظر فقط، وإِلَّا فهما شيء واحد.

٢٧١- وَهُـوَ الْفَقِيرُ لَـهَا لِأَجْـلِ ظُهُـورِهِ فِيهَـا كَفَقْـرِ الـرُّوحِ لِلْأَبْـدَانِ

٢٧٢- وَهِـيَ الَّتِـي افْتَقَـرَتْ إِلَيْـهِ لِأَنَّـهُ هُـوَ ذَاتُهَـا وَوُجُودُهَـا الْـحَقَّانِ

يقول: إنَّ الخالق عزَّ وجلَّ هو هذا الشيء، هو هذا الوجود، فهو مفتقر إليها مِن أجْل أن يَظْهَر بها، ولولا هذا الوجود ما ظهر، وهي مفتقرةٌ إليه، لأنه أصلُها وذاتها، فها هنا افتقاران: افتقارٌ أَوَّل، وافتقارٌ ثانٍ.

فالله عزَّ وجلَّ تفتقر إليه هذه الموجودات، حتى تَظْهَر وتَبْرُز، وهو أيضًا مفتقر إليها مِن أَجْل أن يظهر فيها ويتبيَّن.

فأين الرُّبوبية؟! أين غِنى الخالق؟! أين الخَالق والمَخلوق؟! يعني: لولا أن هذه سُطِّرَت، ونَقَلَها الثقات، كابن القيم -رحمه الله- وشيخِه وغيرهم، لقُلنا: هذا لا يمكن أن يقوله عاقل قطّ.

على كلامهم الآن: (أنا، وأنت) شيءٌ واحد، والبقرة والحمار شيء واحد، والمسجد وحاناتُ الخُمور شيء واحد، لكنها مَظاهر تَتَلَوَّن.

فهل هذا معقول؟! هل هذه عقيدة؟ لكن اللهُمَّ لا تُضِلَّنا يا ربَّ العالمين.

٢٧٣- وَتَظَلُّ تَلْبَسُهُ وَتَخْلَعُهُ، وَذَا الْـ   إِيجَادُ وَالْإِعْدَامُ كُلَّ أَوَانِ

قَوْلُهُ: «تَلْبَسُهُ» يعني: إذا وُجِدت لَبِسَتْهُ، وإن عُدِمَتْ خَلَعَتْه (وَذَا الْإِيجَادُ وَالْإِعْدَامُ كُلَّ أوَانِ).

٢٧٤- وَيَظَلُّ يَلْبَسُهَا وَيَخْلَعُهَا، وَذَا   حُكْمُ الْـمَظَاهِرِ كَيْ يُرَى بِعِيَانِ

قَوْلُهُ: «وَيَظَلُّ يَلْبَسُهَا وَيَخْلَعُهَا» لأنه مُفتَقِر لها كما سبق، (وَذَا حُكْمُ الْـمَظَاهِرِ كَيْ يُرَى بِعِيَانِ)، فصار الآن الخالقُ مُفتقرًا للمخلوق، والمخلوق مفتقرًا للخالق، وهما ليسا شيئين، ولكنهما شيءٌ واحد ومَظاهر.

٢٧٥- وَتَكَثُّرُ الْـمَوْجُودِ كَالْأَعْضَاءِ فِي الْـ   ـمَحْسُوسِ مِنْ بَشَرٍ وَمِنْ حَيَوَانِ

قَوْلُهُ: «وَتَكَثُّرُ الْـمَوْجُودِ» أرضٌ، سماءٌ، جبالٌ، أنهارٌ، بحارٌ، فهو كثير لا يُحصى.

يقول: هذا مِثل أعضاء الحيوان، الآن كم في الإنسان مِن عُضو؟ الجواب: ثلاثمئة وستون عُضوًا كما في الحديث الصحيح[1]، والإنسان شيء واحد، يقول: هذه المَظاهر الكونية هي مِن جنس أعضاء البَشر المحسوس، وعجائب، ألوانٌ، وأنواعٌ متنوعة، ما بين ذَرَّةٍ وفِيلٍ كلّها أعضاء، إذ لا يوجد خالق.

(١) يعني حديث النبي ﷺ قَالَ: «إِنَّهُ خُلِقَ كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْ بَنِي آدَمَ عَلَى سِتِّينَ وَثَلَاثِمئة مَفْصِلٍ، فَمَنْ كَبَّرَ اللهَ، وَحَمِدَ اللهَ، وَهَلَّلَ اللهَ، وَسَبَّحَ اللهَ، وَاسْتَغْفَرَ اللهَ، وَعَزَلَ حَجَرًا عَنْ طَرِيقِ النَّاسِ، أَوْ شَوْكَةً، أَوْ عَظْمًا عَنْ طَرِيقِ النَّاسِ، وَأَمَرَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ نَهَى عَنْ مُنْكَرٍ، عَدَدَ تِلْكَ السِّتِّينَ وَالثَّلَاثِمئة السُّلَامَى، فَإِنَّهُ يَمْشِي يَوْمَئِذٍ وَقَدْ زَحْزَحَ نَفْسَهُ عَنِ النَّارِ». أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، رقم (١٠٠٧).

٢٧٦-أَوْ كَالْقُوَى فِي النَّفْسِ ذَلِكَ وَاحِدٌ مُتَكَثِّرٌ قَامَتْ بِهِ الْأَمْرَانِ

قَوْلُهُ: «أو كَالْقُوَى فِي النَّفْسِ ذَلِكَ وَاحِدٌ» القُوى في النفس تختلف، فهي كثيرة، لو أنك أحصيت كيف تتقلب نَفْسُك في أربعٍ وعشرين ساعة، لوجدت العَجَب العُجَاب، لأنها سوف تتقلب كُلَّما رأت شيئًا، كُلَّما سمِعَت شيئًا، كلَّما فكَّرَتْ في شيء، فنَظَرُها -مثلًا- للباب غير نَظَرِها للفِرَاش، غير نَظَرِها للسَّقْف، فهي قُوًى مُتعلِّقة بالموجودات المسموعة، والمرئية، والفكريات أيضًا، فلا يُحصى تَقَلُّب النَّفْس.

فأصل القوة في الإنسان هي واحدة، لكنها تتكيَّف حَسَبَ المُشَاهَد، والمَسْمُوع، والمَعْقُول، وهلمَّ جرًّا، وهي قوة واحدة.

٢٧٧- فَيَكُونُ كُلًّا هَذِهِ أَجْزَاؤُهُ هَذِي مَقَالَةُ مُدَّعِي الْعِرْفَانِ

يقول ابن عربي: إنَّ هذا الكونَ هو الله، وما نُشاهِدُه أجزاء كأعضاء الإنسان، فالخَلْق -يعني: الموجودات- شيء واحد، وهذا التفرُّق بمنزلة الأجزاء، فهو كلٌّ، والمخلوقات أجزاؤه.

قَوْلُهُ: «كُلًّا هَذِهِ أَجْزَاؤُهُ» لاحِظ الفَرْق بين الكُلِّ والكُلِّيِّ، فالكُلُّ شيء واحدٌ له أجزاء، ولا يصح أن يُخْبَرَ به عن أجزائه، فمَثَلًا لا يصح أن أُخْبِرَ عن يَدِي بأنها جسمي، لأنَّ الجُزء بعضُ الكل.

فهو على هذا القول يعني أنَّ الكونَ مع الخالق عزَّ وجلَّ كُلٌّ، وهذه أجزاؤه، فأجزاؤه يعني: الموجودات مِثل: السماء، الأرض، البحار، الأنهار كُلُّها واحد، فهذا شيء واحد، كُتْلَةٌ عظيمة، وهذه أجزاؤه.

٢٧٨- أَوْ أَنَّهَــا كَتَكَثُّــرِ الْأَنْــوَاعِ فِي جِــنْسٍ كَــمَا قَــالَ الْفَرِيــقُ الثَّــانِي

٢٧٩- فَيَكُــونُ كُلِّيًّــا، وَجُزْئِيَّاتُــهُ هَــذَا الْوُجُــودُ، فَهَــذِهِ قَــوْلَانِ

وأما الثاني، فقال ابن سَبْعِين[1]: إنه كُلِّي، والمشاهدات المختلفة أنواع، وليست أجزاءً يعني: فالمخلوقات أنواع، والخالق جنسٌ، فهو مِن باب اختلاف الكُلِّيِّ مع الجزئي.

تقول مثلًا: الكلام: اسمٌ وفِعلٌ وحرفٌ، فتسأل: كلمةُ الكلام هل هي كُلٌّ، أو كُلِّيٌّ؟ الجواب: كُلِّيٌّ، وأجزاؤه أنواع: الاسم، والفعل، والحرف، لأنك تقول: الاسم كَلِمة، والفِعل كلمة، والحَرف كلمة، فيَصِحُّ أن تُخْبِر بالأكبر عن الأصغر، أما الكل والجزء، فلا يَصِحُّ أن تخبر بالأكبر عن الأصغر، فهل يصح أن أقول: اليَدُ إنسان؟ الجواب: لا يصح، فهذا يكون الكُل والجزء.

والحب، والبُرُّ، والذُّرَة، والشَّعِير، وما أشبه ذلك هذا كُلِّيٌّ مع جزئياته، ولهذا تقول: الحِنْطة حَبٌّ، الشَّعير حَبٌّ، الذُّرَة حَبٌّ، فتُخبر عن الجزئي بالكُلِّي، لكنَّ الكل والأجزاء لا يَصْلُح، هل يمكن أن تقول: اليَدُ إنسان؟ لا يمكن، فهذا هو الفَرْق.

فما صَحَّ أن يُخْبَرَ به عن أنواعه فهو (كُلِّي)، وما لا فهو (كُلّ).

هؤلاء يقولون: إنَّ الكون مع الخالق ليس كُلًّا وجزءًا، بل هو كُلِّيٌّ مع جزئياته، كما قال الفريق الثاني.

---

(١) ابن سبعين: هو عبد الحقِّ بن إبراهيم بن محمد بن نصر بن سبعين الإشبيلي، من زهَّاد الفلاسفة، ومن القائلين بوحدة الوجود، ولد (سنة ٦١٣هـ)، وتوفي (سنة ٦٦٩هـ)، فَصَدَ بمكة، وترك الدم يمشي حتى مات نزفًا. [الشارح]. وانظر: البداية والنهاية (١٣/ ٣٠٣).

٢٨٠- إِحْدَاهُمَا نَصُّ (الفُصُوصِ) وَبَعْدَهُ قَوْلُ ابْنِ سَبْعِينٍ، ....

هؤلاء ثلاثة مِن الزَّنَادِقَة:

١- الأول يقول: (إِحْدَاهُمَا نَصُّ الْفُصُوصِ) والفُصُوص لابن عربي.

فابن عربيّ يرى أنَّ هذه الوحدة كُلٌّ، واختلافَ المشاهد وتَكَثُّرها أجزاء، ولكنَّ ابن سبعين يخالفه فيقول: إنه كُلِّيٌّ، والمتكثّرات أنواع، فهو كُلِّيٌّ وجزئياته، لكن جاءنا الطاغوت الثالث، وهو التِّلِمساني[1] فقال:

٢٨٠- .... ومَا الْقَوْلَانِ

٢٨١- عِنْدَ الْعَفِيفِ التِّلْمِسَانِيِّ الَّذِي هُوَ غَايَةٌ فِي الْكُفْرِ وَالْبُهْتَانِ

قَوْلُهُ: «الْعَفِيف التِّلْمِسَانِيّ» يُسَمِّيه أهلُ العِلم (الفاجِرَ التلمساني)، لأنه بَعِيدٌ عن العِفَّة، أين هو مِن العِفَّة وهو يقول بهذا القول الباطل ؟! يقول:

٢٨٢- إِلَّا مِنَ الْأَغْلَاطِ فِي حِسٍّ وَفِي وَهْمٍ، وَتِلْكَ طَبِيعَةُ الْإِنْسَانِ

٢٨٣- وَالْكُلُّ شَيْءٌ وَاحِدٌ فِي نَفْسِهِ مَا لِلتَّعَدُّدِ فِيهِ مِنْ سُلْطَانِ

يقول التلمساني: إنَّ ابن عربي، وابن سبعين غَلِطَا غَلَطًا عظيمًا، هما جعلاه أنواعًا على رأي ابن سبعين، وأجزاءً على رأي ابن عربي، وهذا غلطٌ، فالكُلُّ شيء واحد، ليس هناك أنواع، ولا أجزاء.

---

(١) العفيف التلمساني: هو سليمان بن عليّ بن عبد الله الكومي، شاعر تنقل في بلاد الروم، وسكن دمشق، يتبع طريقه ابن عربي -لكنه يخالفه كما تقدَّم- ويميل إلى مذهب النُّصَيرية، ولد (سنة ٦١٠هـ)، وتوفي بدمشق (سنة ٦٩٠هـ). [الشارح]. وانظر ترجمته في: البداية والنهاية (١٣/ ٣٨٥).

فهو يقول: إنه هو الذي أصاب، والآخران أخطآ وَوَهِمَا.

لكن أيُّهم أقربُ إلى الوَهَم؟ الجواب: هذا الخَبِيثُ هو أقربُ إلى الوَهَم، إذ كيف تكون هذه الأنواعُ المُتَبَايِنَة المتفرقة شيئًا واحدًا؟!

فعَلَى كلامه: الـخُيُول والـحَمِير شيءٌ واحد، السماء والأرض شيءٌ واحد، وليس هناك افتراقٌ، ولا تَنَوُّعٌ إلَّا بالوَهَمِ الحِسِّيِّ.

فهو يقول: الشيء شيء واحد لا يختلف، لكن كَوْنِي أظنُّ أنَّ هذا (حَمَدٌ)، وهذا (سليمان)، فهذا وهَمٌ حَسبَ الحُسْبان فقط، وَإِلَّا فالواقع أنهما شيء واحد، إذا شَبع سليمان لم يَشْتَهِ الأكلَ حَمَدٌ، لأنهما شيء واحد، فكونُكم تعتقدون: هذا جَمَلٌ، وهذا حِمَارٌ، وهذا كَلْبٌ، فهذا حَسب الوَهْمِ والخيال والحُسْبان الباطل، والصواب أنهم شيء واحد.

نقول: وهل هذا يُتَصَوَّر؟ الجواب: أبدًا، فكما أننا لا نتصور ما قاله الأشاعرة: إنَّ كلام الله شيء واحد، وإنَّ الخَبَر والاستخبار، والأمر والنهي بمعني واحد، فكذلك لا نتصور هذا.

وهؤلاء يقولون: التِّلْمِساني العفيف.

لكننا نقول: هو عفيفٌ إلَّا عن الباطل، نسأل الله العافية، ولا نَسُبُّه وهو ميت، لكنه يقول: كُلُّ الدنيا شيء واحد، السماء هي الأرض، والأرض هي السماء، لكن كيف ذلك وأنا أرى السماء زرقاء، والأرض غبراء؟!

قال: هذا حَسَب وَهْمِك، فأنت حينما تُؤْلِـمُك عينُك، تَجِدُ في بعض الأحيان -إذا نظرت- ذُبابًا يطير أمامَ عَيْنَيك، وتقول: لا يوجد شيء، هذا الذي تُفَرِّق الآن فيه هو وَهَمٌ، وإلَّا فالشيء شيء واحد.

نسأل الله العافية، هذا وَهَمٌ، يقولون: نحن أهل العُقول، فأين العُقول؟!

فعندنا الآن ثلاثة أقوال:

القول الأول: قول ابن عربي، وهو أنَّ الموجود شيء واحد، والمُشَاهَد أجزاؤه.

القول الثاني: قول ابن سبعين وهو أنَّ الموجود كُلِّيٌّ، وما نشاهده جزئياته.

القول الثالث: قول التلمساني إذ يقول: الذي يُشَاهَدُ كُلُّه شيءٌ واحد، وتقسيمه إلى شيء، وشيء، وشيء، هذا وَهَمٌ، وإِلَّا فإنَّ الشيء شيء واحد.

فهل هذه المذاهب تَنْطَبِعُ على الناس؟

الجواب: لا، لكنَّ الذي غرَّ الناسَ مِن هؤلاء أنهم يتظاهرون بالزُّهْد والتصوف والعِفَّة، والعامةُ مِثل ما قال ابنُ القيم في أول النونية (**النَّاسُ أَكْثَرُهُمْ فَأَهْلُ ظَوَاهِرٍ**) يرون هؤلاء عندهم زُهد وعِفَّة وسُلوك، فيقولون: هذا هو الحقُّ، فلهذا غرُّوا الناس، وكُلُّ هؤلاء الذين ذَكَرَهُم المؤلف كُلُّهم مِن الصوفية.

* * *

٢٨٤- فَالضَّيْفُ وَالْـمَأْكُولُ شَيْءٌ وَاحِـدٌ ... وَالْـوَهْمُ يَحْسِـبُ هَـا هُنَـا شَـيْئَانِ

٢٨٥- وَكَذَلِكَ الْـمَوْطُوءُ عَيْنُ الْوَاطِ وَالْـ ... ـوَهْمُ الْبَعِيـدُ يَقُـولُ: ذَانِ اثْنَـانِ

٢٨٦-وَلَـرُبَّمَا قَـالَا مَقَالَتَـهُ كَـمَا ... قَـدْ قَـالَ قَوْلَـهُمَا بِـلَا فُرْقَـانِ

٢٨٧- وَأَبَـى سِـوَاهُمْ ذَا وَقَـالَ: مَظَـاهِرٌ ... تَجْلُـوهُ ذَاتُ تَوَحُّـدٍ وَمَثَـانِ

٢٨٨- فَالظَّـاهِرُ الْـمَجْلُوُّ شَيْءٌ وَاحِـدٌ ... لَكِـنْ مَظَـاهِرُهُ بِـلَا حُسْـبَانِ

٢٨٩- هَـذِي عِبَـارَاتٌ لَـهُمْ مَضْـمُونُهَا ... مَـا ثَـمَّ غَـيْرٌ قَـطُّ فِي الْأَعْيَـانِ

٢٩٠- فَـالْقَومُ مَـا صَـانُوهُ عَـنْ إِنْـسٍ وَلَا ... جِـــنٍّ وَلَا شَـــجَرٍ وَلَا حَيَـــوَانِ

٢٩١- كَـــلَّا وَلَا عُلْـــوٍ وَلَا سُـــفْلٍ وَلَا ... وَادٍ وَلَا جَبَـــــلٍ وَلَا كُثْبَـــــانِ

٢٩٢- كَـــلَّا وَلَا طَعْـــمٍ وَلَا رِيـــحٍ وَلَا ... صَـــوْتٍ وَلَا لَـــوْنٍ مِـــنَ الْأَلْـــوَانِ

٢٩٣- لَكِنَّهُ الْـمَطْعُومُ وَالْـمَلْبُوسُ[1] وَالْـ ... ـــمَشْمُومُ وَالْـــمَسْمُوعُ بِـــالْآذَانِ

٢٩٤- وَكَذَاكَ قَالُوا إِنَّـهُ الْـمَنْكُوحُ وَالْـ ... ـمَذْبُوحُ، بَـلْ عَـيْنُ الْغَـوِيِّ الـزَّانِ

الشـرحُ

في هذه المقطوعة يقول -رحمه الله-:

٢٨٤- فَالضَّيْفُ وَالْـمَأْكُولُ شَيْءٌ وَاحِـدٌ ... وَالْـوَهْمُ يَحْسِـبُ هَـا هُنَـا شَـيْئَانِ

ما دمنا قلنا بالوحدة، يكون الضيف والطعام المقدَّم للضيف شيئًا واحدًا، فالرجل يأكل نفسَه، لأنَّ الخبز الذي أمامه هو نفسُه.

قَوْلُهُ: «**والوَهْمُ**» يعني: وهم الإنسان.

قَوْلُهُ: «**يحسب أن هاهنا شيئان**» ضيف وطعام، وليس كذلك، هذا وهم كذلك يقول:

٢٨٥- وَكَذَلِكَ الْـمَوْطُوءُ عَيْنُ الْوَاطِ وَالْـ ... ـــوَهْمُ الْبَعِيـدُ يَقُـولُ: ذَانِ اثْنَـانِ

نسأل الله العافية، الرجل الذي يطأ امرأته هو نفسه الموطوء، ولكن «**وَالْوَهْمُ الْبَعِيدُ يقُولُ: ذَانِ اثْنَانِ**» يعني: أنه توهَّم فظنَّ أنَّ هناك اثنين: واطِئًا وموطوءًا.

---

(١) في الأصول: «الملموس»، ونسخة الإفتاء: «المسموس».

٢٨٦-وَلَــرُبَّمَا قَــالَا مَقَالَتَــهُ كَـمَا قَـدْ قَـالَ قَوْلَــهُمَا بِـلَا فُرْقَـانِ

قَوْلُهُ: «قَالَا» الضمير يعود على ابن عَرَبِيٍّ وابن سَبعين.

قَوْلُهُ: «مَقَالَتَهُ» أي: مقالة التِّلْمِسَانِيّ.

قَوْلُهُ: «كَمَا قَدْ قَالَ قَوْلَـهُمَا بِلَا فُرْقَانِ» يعني: كما أنه أيضًا قال بقولهما، فصاروا مُذَبْذَبِينَ: تارَةً يُضَلِّل أحدُهم الآخَرَ، وتارَةً يوافق أحدُهم الآخَرَ، لأنهم لم يرتكزوا على دليل، بل هي أوهام يتوهَّمُونها، وخيالات يظنونها حقائق.

٢٨٧- وَأَبَـى سِـوَاهُمْ ذَا وَقَـالَ: مَظَـاهِرٌ تَجْلُـوهُ ذَاتُ تَوَحُّـدٍ وَمَثَـانِ

قَوْلُهُ: «وَأَبَى سِوَاهُمْ» أي: سوى الثلاثة، وهم: ابن عَرَبِيّ، وابن سَبعين، والتِّلْمِسَانِيّ، أبى سواهم هذا القول، يعني: سواهم مِن أهل وَحْدَة الوُجُود، وقالوا: هذه (مَظَاهِرٌ تَجْلُوهُ) أي: تجلو الإله، يعني: تُظْهِرُه.

وهذا القول أيضًا يُضاف للأقوال الثلاثة السابقة، يقول: إنَّ الكون شيء واحد، فالخالق والمخلوق شيءٌ واحدٌ، وهذه مظاهِر، أي: مظاهِر تجلو ذلك الخالق على زَعْمِه.

وَقَوْلُهُ: «مَظَاهِرٌ» يعني: لا حقائق، مثلما يظهر لنا الماء إذا نزل وقابلته الشمس، الذي يسميه الناس قَوْس قُزَح، فهو مَظَاهِر فقط، وإلَّا فهو شيء واحد.

وهذا يعني أننا نُقَسِّم الموجودات المتغايِرة إلى موجودات في الشكل فقط، لا في العين، وهو قريب مِن قول التِّلْمِسَانِيّ: إنه أوهام.

فهذه عقيدة هؤلاء القوم في الله عزَّ وجلَّ والعياذ بالله، وهي أخبث العقائد، وقد تَقَدَّم أن الذي خَدَعَ النَّاسَ بأقوالهم هذه، وإِلَّا فإنَّ مجرد تَصَوُّرِها كافٍ في

ردِّها وإبطالها، فمجرد أنْ تتصوَّرَ هذا تعرف أنه باطل، لكنَّ الذي غرَّ الناس وخَدَعهم هو أنَّ هؤلاء كانوا يَتَنَسَّكُونَ بالزُّهْد، ويأتون أيضًا بعبارات غير صريحة، بل هي إشارات ورموز، إذا قرأها الإنسان فلا يعرف معناها تمامًا، لكن هم يُفَسِّرُونها بما يريدون، فيظن القارئ أول ما يقرؤها بأنها حقٌّ، ولكنها باطل.

وهذان الأمران: زُخْرُف الحال وزخرف المقال غرَّا الناس.

فزخرف الحال هو الزهد والتَّنَسُّك والتَّعَبُّد، والعامة -كما هو معلوم- هوامٌّ، وأما زخرف المقال فيعني: رموزه، بحيث لا يدري أحد ماذا يريدون إلَّا بعد أن يُلَقِّنوه ما يريدون بكلامهم، فلذلك اغتر الناس بهم كثيرًا.

وحَسَب فهمنا أنك لا تكاد تجد فَرقًا بين هذا، وما قبله، هم يقولون: هذا الخالق هو عين المخلوق، وهذا الاختلاف اختلاف مَظاهر وتنوّع، فلا أجد فرقًا بين هذا وهذا، لكن مع ذلك ابن القيم -رحمه الله- يرى أنَّ هناك فرقًا.

٢٨٨- فَالظَّـاهِرُ الْـمَجْلُوُّ شَيْءٌ وَاحِـدٌ لَكِـنْ مَظَـاهِرُهُ بِـلَا حُسْـبَانِ

يعني: أنَّ الكون شيء واحد، لكن المظاهر لا حصرَ لها، وإذا تأملتَ وجدتَ أنه لا فرق، كلٌّ يقول: هذا الكون هو الخالق، الخالق والمخلوق شيء واحد، لكن هؤلاء يقولون: أجزاء وكُلّ، وأنواع وكُلّيّ، وابن سبعين ينفي هذا كُلَّه.

وهؤلاء يقولون: إنَّ المجلوَّ شيءٌ واحد، والمَظاهر متعددة، ما تكاد تجد فَرقًا يستريح به الذهن.

٢٨٩- هَـذِي عِبَـارَاتٌ لَـهُمْ مَضْـمُونُهَا مَـا ثَـمَّ غَـيْرٌ قَـطُّ فِي الْأَعْيَـانِ

وهذا صحيح، فخلاصة ما يقولون أنَّه ما ثَمَّ غير الله، فالخالق والمخلوق شيء واحد.

فابن القيِّم -رحِمه الله- أجملَ الجميع في البيت الأخير، وقال: مضمون كلامهم أنه (**مَا ثَمَّ غَيْرٌ قَطُّ فِي الْأَعْيَانِ**).

٢٩٠- فَالْقَومُ مَا صَانُوهُ عَنْ إِنْسٍ وَلَا ... جِنٍّ وَلَا شَجَرٍ وَلَا حَيَوَانِ

قَوْلُهُ: «**فَالْقَوْمُ مَا صَانُوهُ**» أي: ما صانوا الخالقَ عزَّ وجلَّ، وحاشاه مما وصفوه، وتعالى الله عن قولهم عُلُوًّا كبيرًا.

قَوْلُهُ: «**مَا صَانُوهُ عَنْ إِنْسٍ وَلَا جِنٍّ وَلَا شَجَرٍ وَلَا حَيَوَانِ**» يعني: هو الإنس والجن والشجر والحيوان.

٢٩١- كَلَّا وَلَا عُلْوٍ وَلَا سُفْلٍ وَلَا ... وَادٍ وَلَا جَبَلٍ وَلَا كُثْبَانِ

لأنه شيء واحد.

٢٩٢- كَلَّا وَلَا طَعْمٍ وَلَا رِيحٍ وَلَا ... صَوْتٍ وَلَا لَوْنٍ مِنَ الْأَلْوَانِ

٢٩٣- لَكِنَّهُ الْمَطْعُومُ وَالْمَلْبُوسُ وَالْـ ... ـمَشْمُومُ وَالْمَسْمُوعُ بِالْآذَانِ

٢٩٤- وَكَذَاكَ قَالُوا إِنَّهُ الْمَنْكُوحُ وَالْـ ... ـمَذْبُوحُ، بَلْ عَيْنُ الْغَوِيِّ الزَّانِ

قَوْلُهُ: «**وَكَذَاكَ قَالُوا: إِنَّهُ الْمَنْكُوحُ وَالْمَذْبُوحُ**» أعوذ بالله، يعني: الرَّبّ يُنْكَح ويُذْبَح.

قَوْلُهُ: «**بَلْ عَيْنُ الْغَوِيِّ الزَّانِي**» يعني: أنه الزاني أيضًا، والعياذ بالله.

* * *

٢٩٥- وَالْكُفْـرُ عِنْـدَهُمْ هُـدًى وَلَـوَ انَّـهُ دِينُ الْـمَجُوسِ وَعَابِـدِي الْأَوْثَـانِ

٢٩٦- قَـالُوا: وَمَـا عَبَـدُوا سِـوَاهُ وَإِنَّـمَا ضَـلُّوا بِـمَا خَصُّـوا مِـنَ الْأَعْيَـانِ

٢٩٧- وَلَـوَ انَّهُـمْ عَمُّـوا وَقَـالُوا: كُلُّهَـا مَعْبُـودَةٌ، مَـا كَـانَ مِـنْ كُفْـرَانِ

٢٩٨- فَالْكُفْرُ سَتْرُ حَقِيقَةِ الْـمَعْبُودِ بِالتَّـ ـخْصِيصِ عِنْـدَ مُحَقِّـقٍ رَبَّـانِي

٢٩٩- قَالُوا: وَلَـمْ يَـكُ كَـافِرًا فِي قَولِـهِ: (أَنَـا رَبُّكُـمْ) فِرْعَـوْنُ ذُو الطُّغْيَـانِ

٣٠٠- بَـلْ كَـانَ حَقًّـا قَوْلُـهُ إِذْ كَـانَ عَيْـ ـنَ الْـحَقِّ مُضْـطَلِعًا بِهَـذَا الشَّـانِ

٣٠١- وَلِـذَا غَـدَا تَغْرِيقُـهُ فِي الْبَحْـرِ تَطْـ ـهِيرًا مِـنَ الْأَوْهَـامِ وَالْـحُسْبَانِ

الشرحُ

يقول -رحمه الله-:

٢٩٥- وَالْكُفْـرُ عِنْـدَهُمْ هُـدًى وَلَـوَ انَّـهُ دِينُ الْـمَجُوسِ وَعَابِـدِي الْأَوْثَـانِ

يقولون: الكفر عندهم هُدًى، ولو أنه دين المجوس والنصارى والمشركين، لأن الكافر الذي لا يعبد ربًّا مُصِيبٌ، إذ ليس ثَمَّ رَبٌّ ولا مربوب، ولا عابد ولا معبود.

٢٩٦- قَـالُوا: وَمَـا عَبَـدُوا سِـوَاهُ وَإِنَّـمَا ضَـلُّوا بِـمَا خَصُّـوا مِـنَ الْأَعْيَـانِ

المجوس الذين يعبدون النار هم قالوا عنهم: ما عبدوا غير الله، لأنَّ النار هي الله، فالذي يعبد عيسى -عليه الصلاة والسلام- والذي يعبد البقر، والشجر، والحجر، ما عبد إلا الله، لأنهم يقولون: كلُّ الوجود هو الله.

لكنهم كفَّروهم، لأنهم خصَّوا العِبادة بالنار، ولو عبدوا الكونَ كُلَّه لكانوا موحِّدين، ولكانوا أكملَ هدايةً، ولكانوا -والعياذ بالله- هم الذين على الحقِّ، لكن هم كفروا بكونهم خَصُّوا العبادةَ بالنار، وكذلك أصحاب الأوثان خَصُّوا العبادة بالأوثان فكفروا.

فعلى قولهم هذا -والعياذ بالله- نقول للذي يعبد هُبَل واللَّات والعُزَّى: أنت أخطأت لأنك تعبد هذه بأعيانها، بلِ اعبُدْ كُلَّ شيء حتى تكون محقِّقًا للعبادة، أمَّا أنْ تُخَصِّص فهذا ضلال!

ولذا قال بعد ذلك:

٢٩٧- وَلَـوَ انَّهُـمْ عَمُّـوا وَقَـالُوا: كُلُّهَـا مَعْبُـودَةٌ، مَـا كَـانَ مِـنْ كُفْـرَانِ

إِذَنْ كُفْرُهم بتخصيص بعض الرَّبِّ على زعمهم، ولو أنهم عبدوا كُلَّ الكون لكانوا موحِّدين!

٢٩٨- فَالْكُفْرُ سَتْرُ حَقِيقَةِ الْـمَعْبُودِ بِالتْـ ـتَخْصِيصِ عِنْـدَ مُحَقِّـقٍ رَبَّـانِي

الكفر عندهم هو ستر حقيقة المعبود بالتخصيص، وحقيقة المعبود عندهم كل شيء، فأنت إذا عبدتَ واحدًا فقد كفرتَ، لأنك سَتَرْتَ حقيقة المعبود، لأنَّ المعبود هو كلُّ شيء.

٢٩٩- قَالُوا: وَلَـمْ يَـكُ كَـافِرًا فِي قَولِـهِ: (أَنَـا رَبُّكُـمْ) فِرْعَـوْنُ ذُو الطُّغْيَـانِ

لما قال: (أنا ربكم) فليس بكافر، لماذا؟ قالوا: لأنَّ الكونَ كُلَّه رَبٌّ، لكن بالتخصيص.

٣٠٠- بَـلْ كَـانَ حَقًّـا قَوْلُـهُ إِذْ كَـانَ عَيْـ ـنَ الْـحَقِّ مُضْـطَلِعًا بِهَـذَا الشَّـانِ

٣٠١- وَلِـذَا غَـدَا تَغْرِيقُـهُ فِي الْبَحْـرِ تَطْـ ـهِيرًا مِـنَ الْأَوْهَـامِ وَالْـحُسْبَانِ

يقولون: إنَّ فرعون لما قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤] لم يكن كافرًا، لأنَّ هذا هو الحقّ، فإنَّ المخلوقَ عينُ الخالق فيكون هو الرَّبَّ، ولكن هو ظنَّ لما خصَّص نفسه أنَّ هناك شيئًا متخصصًا متعينًا فأُغرق تطهيرًا له مِن هذا الظنِّ والوهم، فيكون هذا الإغراق -على زعمهم- ليُطهِّره حيث توهَّم وظنَّ التعدد، وقال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ﴾ يعني: وأنتم مُرَبُّون ومعبودون، ولو أنَّه وَحَّد تمامًا لقال: أنا وأنتم كُلُّنا ربّ.

وهذا مثل قول بعضهم في قول الله تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ [نوح:٢٥] قالوا: أُدْخِلوا نار المحبَّة، لأنَّ المحبَّة ساخنة، وليست النارَ ذاتَ اللَّهب! ولا أظنُّ أحدًا أضلَّ مِن هؤلاء القوم.

* * *

٣٠٢- قَالُوا: وَلَـمْ يَكُ مُنْكِرًا مُوسَى لِـمَا عَبَدُوهُ مِنْ عِجْلٍ لِـذِي الْـخَوَرَانِ

٣٠٣- إِلَّا عَـلَى مَـنْ كَـانَ لَـيْسَ بِعَابِـدٍ مَعْهُـمْ وَأَصْـبَحَ ضَـيِّقَ الْأَعْطَـانِ

٣٠٤- وَلِذَاكَ جَرَّ بِلِحْيَةِ الْأَخِ حَيْثُ لَـمْ يَــكُ وَاسِــعًا فِي قَوْمِــهِ لِبِطَــانِ

٣٠٥- بَـلْ فَـرَّقَ الْإِنْكَـارُ مِنْـهُ بَيْـنَهُمْ لَـــمَّا سَرَى فِي وَهْمِــهِ[1] غَــيْرَانِ

الشـرحُ

لما رجَع موسى -عليه السلام- مِن ميقات رَبِّه وَجَد قومَه يعبدون العِجل،

(١) في نسخة الحلبي: «فَهْمِه».

فغضِب غضبًا عظيمًا، حتى ألقى الألواح، وأخذ برأس أخيه يَجُرُّه إليه، يعني: لِـمَ لَـمْ تنكر عليهم؟

هؤلاء يقولون: إنَّ موسى لم يكن منكِرًا على الذين عبدوا العجل، إنما أنكر على الذين لم يعبدوه، لأنهم كانوا ضيِّقي الأعطان، حيث ظنُّوا أنه لا يُعبد إلَّا الله، والواقع -عندهم- أنَّ كُلَّ شيء يُعْبَدُ، لأنَّ كلَّ شيء إله، وأَنَّ موسى ما أنكر على أخيه هارون إنكاره عليهم عبادة العجل، وإنما أنكر عليه لماذا يُنْكِرُ عليهم، وهم الذين فعلوا الواقع، وكان ضَيِّقَ العَطَن عليهم، يعني: ما تَحَمَّلَتْ نفسُه فِعلَ هؤلاء الذين فعلوا الحقيقة!

فانظر -والعياذ بالله- إلى شَطَحاتِهم العظيمة.

فهو قَلَبَ الحقيقة -والعياذ بالله- إذ جعل موسى يُنكر على الذين لم يعبدوا العِجل، لا على الذين عبدوه، وهذا مِن الْمُكَابَرَة، نسأل الله العافية.

* * *

٣٠٦- وَلَقَدْ رَأَى إِبْلِيسَ عَارِفُهُمْ فَأَهْـ	ـوَى بِالسُّجُودِ هُوِيَّ ذِي خُضْعَانِ
٣٠٧- قَالُوا لَهُ: مَاذَا صَنَعْتَ؟ فَقَالَ: هَلْ	غَـيْرُ الْإِلَـهِ وَأَنْـتُمَا عَمِيَانِ
٣٠٨- مَا ثَمَّ غَيْرٌ، فاسْجُدُوا إِنْ شِئْتُمُ	للشَّمْسِ وَالْأَصْنَامِ وَالشَّيْطَانِ
٣٠٩- فَالْكُلُّ عَيْنُ اللهِ عِنْدَ مُحَقِّقٍ	وَالْكُلُّ مَعْبُودٌ لِذِي الْعِرْفَانِ
٣١٠- هَذَا هُوَ الْمَعْبُودُ عِنْدَهُمُ فَقُلْ:	سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ ذَا السُّبْحَانِ
٣١١- يَا أُمَّةً مَعْبُودُهَا مَوْطُوؤُهَا	أَيْنَ الْإِلَـهُ وَثُغْرَةُ الطَّعَّانِ؟!

٣١٢- يَـا أُمَّـةً قَـدْ صَـارَ مِـنْ كُفْرَانِهَـا   جُـزْءًا يَسِـيرًا جُمْلَـةُ الْكُفْـرَانِ

الشـرحُ

يقول -رحمه الله-:

٣٠٦- وَلَقَـدْ رَأَى إِبْلِـيسَ عَـارِفُهُمْ فَأَهْـ   ـوَى بِالسُّجُودِ هُوِيَّ ذِي خُضْـعَانِ

قَوْلُهُ: «عارِفُهُمْ» يعني: ابن عَرَبِيٍّ، لأنه -كما سبق- هو قدوة القائلين بِوَحْدَة الوجود.

قَوْلُهُ: «رَأَى إِبْلِيسَ»: وَهْمًا، وقد يكون حقيقة.

قَوْلُهُ: «فَأَهْوى بالسُّجُودِ هُوِيَّ ذِي خُضْعَانِ» أي: أهوى بالسجود للشيطان، لأنَّ الشيطان رَبٌّ عنده.

٣٠٧- قَالُوا لَهُ: مَاذَا صَنَعْتَ؟ فَقَالَ: هَـلْ   غَـيْرُ الْإِلَـهِ وَأَنْـتُمَا عَمِيَـانِ

يعني: لما قالوا له: كيف تسجد للشيطان؟! قال: ما سجدتُ إِلَّا للرحمن ليس إِلَّا.

قَوْلُهُ: «وَأَنْتُمَا عَمِيَانِ»، كأنه يخاطب إما نَفْسَه، وإما رَجُلين وهمًا، فيقول لهما: أنتما -اللذان أنكرتما عَلَيَّ- عَمِيان، لا تعرفان، لأنَّ المعرفة عنده سجوده للشيطان، والعياذ بالله.

٣٠٨- مَـا ثَـمَّ غَـيْرٌ، فاسْـجُدُوا إِنْ شِـئْتُمُ   للشَّـمْسِ وَالْأَصْـنَامِ وَالشَّـيْطَانِ

٣٠٩- فَالْكُـلُّ عَـيْنُ اللهِ عِنْـدَ مُحَقِّـقٍ   وَالْكُـلُّ مَعْبُـودٌ لِـذِي الْعِرْفَـانِ

٣١٠- هَذَا هُوَ الْـمَعْبُودُ عِنْدَهُمْ فَقُلْ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ ذَا السُّبْحَانِ

وقال لهم أيضًا: اسجدوا -إن شئتم- للشمس، والأصنام، والشيطان، والكلب والحِمار، والذئب، والنار، والثلج، والماء، وكلِّ شيء، فاعبدوا ما شئتم مِن هذه الموجودات، لأنَّ هذا هو التوحيد عندهم.

قَوْلُهُ: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ ذَا السُّبْحَانِ» أي: تنزيهًا لك يا ذا التنزيه.

٣١١- يَا أُمَّةً مَعْبُودُهَا مَوْطُوؤُهَا أَيْنَ الْإِلَهُ وَثُغْرَةُ الطَّعَّانِ؟!

فهو يُنكر عليهم إنكارًا عظيمًا، أُمَّة يكون معبودُها موطوءَها، أُمَّة يكون معبودُها مأكولَها، أُمة يكون معبودُها مذبوحَها، سبحان الله!

ومِن الغريب أن زوجته التي يجامعها هي رَبُّه، وزوجها هو رَبُّها، وحِماره الذي يركب هو ربُّه، وهو ربُّ الحِمار، لأنَّ كُلَّ شيء هو عابد معبود، رَبٌّ مربوب.

٣١٢- يَا أُمَّةً قَدْ صَارَ مِنْ كُفْرَانِهَا جُزْءًا يَسِيرًا جُمْلَةُ الْكُفْرَانِ

يعني: كل الكفران جزءٌ يَسيرٌ مِن كُفْرَانِكُم، لأنَّ الكافرين يخصصون المعبودات بأشياء معينة، وهؤلاء كلُّ شيء جعلوه إلـهًا، حتى حماره الذي يركبه هو إلـهه.

إِذَنْ جميع الكُفران بالنسبة لكُفر هؤلاء جزء مِن كُفران هذه الأُمَّة.

والمشكلة أنَّ هؤلاء ينتسبون إلى الإسلام وهم صُوفية، وبهذا نعرف أنَّ مذهب الصوفية مِن أخطر المذاهب على الإسلام وأشدِّها هَدْمًا، لأنَّ الصوفي يصل إلى حالة يقول: ما ثَمَّ إلَّا الله، يعني: كُلّ الكون هو الله، ويقول: ما في الجُبَّة إلَّا الله، ويقول: الجُبَّة هي الله، ومَن في الجُبَّة هو الله.

وهذه مذاهبُ خبيثةٌ -والعياذ بالله- فكل الكُفر جزء مِن كُفرهم، فالذين يعبدون المسيح ابن مَرْيَم عبدوا واحدًا مِن المخلوقات، لكن هؤلاء يعبدون كُلَّ شيء، لأنهم لا يَرَوْنَ إِلَّا أنَّ الكونَ كُلَّه خالقَه ومخلوقَه شيءٌ واحد، فالعابد والمعبود شيءٌ واحد، والرَّبُّ والمربوب شيء واحد، والواطئ والموطوء شيء واحد، وهكذا والعياذ بالله.

وهذا مذهب لولا أنه سُطِّر ما كان الإنسان يُصَدِّق به إطلاقًا، وهذا أيضًا موجود في كتبهم.

وهذا يعني أنَّ أئمة الحقِّ لا يَفْتَرُونَ عليهم في هذا، بل كُتُبهم بين أيدينا معروفة ومقروءة، وسيأتي -إن شاء الله- للمؤلِّف بيان أنَّ هذا أمر واقع، ومَن أراد أن يقرأ في كُتُبِهم فلْيَقْرَأْ.

* * *

فصــل

فِي قُدُومِ رَكْبٍ آخَرَ

٣١٣- وَأَتَـى فَرِيـقٌ ثُـمَّ قَـالَ: وَجَدْتُـهُ ... بِالـذَّاتِ مَوْجُـودًا بِكُـلِّ مَكَـانِ

٣١٤- هُـوَ كَالْـهَوَاءِ بِعَيْنِـهِ لَا عَيْنُـهُ ... مَـلَأَ الْـخَلَاءَ[1] وَلَا يُـرَى بِعِيَـانِ

٣١٥- وَالْقَـوْمُ مَـا صَـانُوهُ عَـنْ بِئْـرٍ وَلَا ... قَـبْرٍ وَلَا حُـشٍّ وَلَا أَعْطَـانِ

٣١٦- بَـلْ مِـنْهُمُ مَـنْ قَـدْ رَأَى تَشْـبِيهَهُ ... بِـالرُّوحِ دَاخِـلَ هَـذِهِ الْأَبْـدَانِ[2]

٣١٧- مَا فِـيهِمُ مَـنْ قَـالَ: لَـيْسَ بِـدَاخِلٍ ... أَوْ خَـارِجٍ عَـنْ جُمْلَـةِ الْأَكْـوَانِ

٣١٨- لَكِـنَّهُمْ حَـامُوا عَـلَى هَـذَا وَلَـمْ ... يَتَجَـاسَرُوا مِـنْ عَسْـكَرِ الْإِيمَانِ

٣١٩- وَعَلَـيْهِمُ رَدَّ الْأَئِمَّـةُ أَحْمَـدُ ... وَصِـحَابُهُ مِـنْ كُـلِّ ذِي عِرْفَـانِ

٣٢٠- فَهُمُ الْـخُصُومُ لِكُلِّ صَاحِبِ سُنَّةٍ ... وَهُـمُ الْـخُصُومُ لِـمُنْزِلِ الْقُرْآنِ

٣٢١- وَلَـهُمْ مَقَـالَاتٌ ذَكَـرْتُ أُصُولَـهَا ... لَـمَّا ذَكَـرْتُ الْـجَهْمَ فِي الْأَوْزَانِ

الشـرحُ

يقول المؤلِّف -رحمه الله- في قُدُوم ركبٍ آخَرَ.. وهذا الرَّكْبُ هل هو ضالٌّ، أو مُهتدٍ؟ الجواب: ضالٌّ.

---

(١) في نسخة الحلبي: «الخلو».

(٢) في نسخة ابن سحمان: «الأكوان»، والمتن أصوب.

قال:

٣١٣- وَأَتَــى فَرِيــقٌ ثُــمَّ قَــالَ: وَجَدْتُــهُ   بِالــذَّاتِ مَوْجُــودًا بِكُــلِّ مَكَــانِ

٣١٤- هُــوَ كَالْــهَوَاءِ بِعَيْنِــهِ لَا عَيْنُــهُ   مَــلأَ الْــخَلَاءَ وَلَا يُــرَى بِعِيَــانِ

هذا الرَّكْبُ هُم الـجَهْمِيَّة الـحُلُولِيَّةُ منهم، لأنَّ الـجَهْمِيَّة انقسموا إلى قسمين:

- قِسم حُلولية، هذا مذهبهم، وهم قدماؤهم.
- وقسم مُعَطِّلَة تمامًا، قالوا: إنَّ الله لا يُوصَف بأنه فَوْق، ولا تَحْت، ولا يمين، ولا شمال، ولا مُتَّصِل بالخَلْق، ولا مُنْفَصِل عنه، فعَطَّلوا، لكنَّ قُدَماءَهم همُ الذين قالوا بالحُلُول.

قوله: «قَالَ: وَجَدْتُهُ» الضميرُ يعود على فاطر الأكوان، وهو الله عزَّ وجلَّ.

قوله: «وَجَدْتُهُ بِالذَّاتِ مَوْجُودًا بِكُلِّ مَكَانِ» يعني: إِنَّ الله موجودٌ بذاته بكلِّ مكان.

يقولون: بذاته، لا بِعِلْمه، يقولون: إنَّ الله بذاته في كلِّ مكان، في المسجد، في السوق، في البيت، في السيارة، في الطَّيَّارة، في الكَنِيف، في الحَمَّام، والعياذ بالله.

ولا ريبَ أنَّ هذا كُفْرٌ مَحْضٌ -والعياذ بالله- ولا أحد يستطيع أن يصف الله بهذا الوصف وله مُسْكَةٌ مِن عَقل، أو دِين.

فالنصارى -عليهم لعنة الله إلى يوم القيامة- قالوا: إنَّ الله حَلَّ في عيسى بن مريم حتى صار عيسى إلـهًا، فنزل إلى الأرض يفدي المساكين والمظلومين، وينشر المحبَّة بين العالَمين، هذه عقيدتهم في عيسى.

هؤلاء ما قالوا: إنه حَالٌّ في واحدٍ مِن المخلوقات، بل حَالٌّ في كل مكان، وهذا بلا شكٍّ يَلْزَمُ عليه إما تعدد الخالق أو تَجَزُّؤ الخالق، يعني: إما أنه أجزاء وأوصال، كل جزء منه في جهة، وإما أنه متعدِّد لا واحد، هذا بِقَطْع النَّظَر عن أن تصوُّر هذه القضية نقص عظيم في جانب الله، فإن هذا القول يَسْتَلْزِمُ النقصَ العظيم في جانب الله.

قَوْلُهُ: «**هُوَ كالهَواءِ بِعَيْنِهِ**» يعني: يملأ الأمكنة، لكنه ليس عين الهواء، فالهواء مُنْبَثٌّ في الأرض، فهو يرى أنَّ الله مُنبَثّ في الأرض كالهواء، لكنه ليس عينَ الهواء، بل هذا كُفر، وأهل الوَحْدَة السابقون يقولون: هو عين الهواء.

قَوْلُهُ: «**مَلَأَ الْـخَلَاءَ وَلَا يُرَى بِعِيَانِ**» يعني: جعله شيئًا واحدًا كالهواء يملأ الوجود، وفي كل مكان، ولكنه ليس الهواءَ بِعَيْنِه، ويأتي -إن شاء الله- بقية الكلام على هذه الطائفة، نسأل الله أن يهدينا إلى صِراطه المستقيم، وألَّا يُزِيغَ قلوبَنا بعد إذ هدانا.

٣١٥- وَالْقَوْمُ مَا صَانُوهُ عَنْ بِئْرٍ وَلَا   قَبْرٍ وَلَا حُشٍّ وَلَا أَعْطَانِ

وهذا أعظم مِن الأول، الأولون قالوا: إنَّ الله عزَّ وجلَّ بائنٌ مِن خَلْقِه، لكنه معهم بالذات في كل مكان، في الآبار، في القبور، في الحشوش، في كل مكان.

لم يُنزِّهوه -والعياذ بالله- عما ينُزَّه عنه بعضُ الناس، فَهُم جعلوه في كل مكان، فَوَصَفُوه على ما قال المؤلف -رحمه الله-.

٣١٦- بَلْ مِنْهُمُ مَنْ قَدْ رَأَى تَشْبِيهَهُ   بِالرُّوحِ دَاخِلَ هَذِهِ الْأَبْدَانِ

وعلى هذا فيكون حالًّا حتى في الأبدان، كحُلُول الروح في البدن.

٣١٧- مَا فِيهِمُ مَنْ قَالَ: لَيْسَ بِدَاخِلٍ أَوْ خَارِجٍ عَنْ جُمْلَةِ الْأَكْوَانِ

نعم ما فيهم مَنْ قال هذا، يُشير إلى الأقدمِين منهم الذين قالوا: إنه ليس داخلَ العالم، ولا خارجَ العالـم.

٣١٨- لَكِنَّهُمْ حَامُوا عَلَى هَذَا وَلَمْ يَتَجَاسَرُوا مِنْ عَسْكَرِ الْإِيمَانِ

فهم حاموا حول هذا الشيء، وقالوا: لا داخلَ العالَـم، ولا خارِجَه، يعني: لا يُوصَفُ بهذا، ولا هذا، لكنهم خافوا مِن عسكر الإيمان، يعني: خافوا مِن أهل الإيمان أن يَنبِذُوهم نبذًا.

٣١٩- وَعَلَيْهِمُ رَدَّ الْأَئِمَّةُ أَحْمَدٌ[1] وَصِحَابُهُ مِنْ كُلِّ ذِي عِرْفَانِ

قَوْلُهُ: «أَحْمَدٌ» يعني بذلك: أحمد بن حنبل -رحِمه الله-.

وهؤلاء الجَهْمِيَّة هم الذين رَدَّ عليهم أحمدُ بن حنبل وأصحابُه، وقصةُ مِحْنَتِه مشهورةٌ في كتب التاريخ.

٣٢٠- فَهُمُ الْخُصُومُ لِكُلِّ صَاحِبِ سُنَّةٍ وَهُمُ الْخُصُومُ لِمُنْزِلِ الْقُرْآنِ

قَوْلُهُ: «فهُم» يعني: الجَهْمِيَّة.

٣٢١- وَلَهُمْ مَقَالَاتٌ ذَكَرْتُ أُصُولَهَا لَـمَّا ذَكَرْتُ الْجَهْمَ فِي الْأَوْزَانِ

وقد تقدَّمْت أُصُولُ جَهْمٍ في الأسماء والصفات، وفي القَدَر، وفي الإيمان، وغير ذلك.

---

(١) أحمد بن حنبل: هو أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني الوائلي، أصله مِن مَرْوَ، وأبوه والي سَرَخْسَ -اسم بلد- وُلِد ببغداد سنة (١٦٤هـ)، ورحل للحِجَاز وغيره في طَلَب الحديث، امتُحن في القول بخَلْق القرآن، وتُوُفِّيَ في بغداد سنة (٢٤١هـ). [الشارح]. انظر ترجمته في: تهذيب الكمال (١/ ٤٣٧).

وَقَوْلُهُ: «لَـمَّا ذَكَرْتُ الجَهْمَ» يعني بذلك: زعيمَهمُ الجَهْمَ بنَ صَفْوَان، ويقال: إِنَّ الجهمَ بنَ صَفْوَان ليس زعيمَ الطائفةِ الأَوَّلَ، بل زعيمُها الأولُ الجَعْدُ بنُ دِرْهَمٍ، حيث تكلم بأمرين:

الأول: قال: إِنَّ الله لم يتخذ إبراهيم خليلًا.

الثاني: ولم يكلِّم موسى تكليمًا، هذا أولُ ما نَفَى -الكلامُ والمحبةُ- ثم تطوَّرت المقالة وتفرَّعت، ونَشَرها الجَهْمُ بنُ صَفْوَان، وإليه نُسِبَتْ، لأنه هو الذي نشرها، ودافع دونها.

أما الأول -وهو الجَعْد- فإنه قُتِلَ دون أن تنتشر مقالته.

* * *

فصــل

في قُدُومِ رَكْبٍ آخَرَ

٣٢٢- وَأَتَـى فَرِيـقٌ ثُـمَّ قَـارَبَ وَصْـفُهُ ... هَــذَا وَلَكِــنْ جَــدَّ فِي الْكُفْـرَانِ

٣٢٣- فَــأَسَرَّ قَــوْلَ مُعَطِّــلٍ وَمُكَــذِّبٍ ... فِي قَالَــبِ التَّنْزِيــهِ لِلــرَّحْمَنِ

٣٢٤- إِذْ قَــالَ: لَـيْسَ بِـدَاخِلٍ فِينَـا وَلَا ... هُـوَ خَـارِجٌ عَـنْ جُمْلَـةِ الْأَكْـوَانِ

٣٢٥- بَـلْ قَـالَ: لَـيْسَ بِبَـائِنٍ عَنْهَـا وَلَا ... فِيهَــا، وَلَا هُــوَ عَيْنُهَــا بِبَيَــانِ

٣٢٦- كَـلَّا وَلَا فَـوْقَ السَّـمَوَاتِ الْعُـلَى ... والْعَــرْشِ مِــنْ رَبٍّ وَلَا رَحْمَــنِ

٣٢٧- وَالْعَرْشُ لَيْسَ عَلَيْهِ مَعْبُودٌ سِوَى الْـ ... ـعَدَمِ الَّـذِي لَا شَيْءَ فِي الْأَعْيَـانِ

٣٢٨- بَـلْ حَظُّـهُ مِـنْ رَبِّـهِ حَـظُّ الثَّـرَى ... مِنْــهُ وَحَــظُّ قَوَاعِــدِ الْبُنْيَــانِ

٣٢٩- لَوْ كَانَ فَوْقَ الْعَرْشِ كَانَ كَهَذِهِ الْـ ... أَجْسَامِ، سُبْحَانَ الْعَظِيمِ الشَّـانِ!

٣٣٠- وَلَقَدْ وَجَدْتُ لِفَاضِلٍ[1] مِنْهُمْ مَقَا ... مًــا قَامَــهُ فِي النَّـاسِ مُنْـذُ زَمَـانِ

٣٣١- قَـالَ: اسْـمَعُوا يَـا قَـومِ إِنَّ نَبِـيَّكُمْ ... قَــدْ قَـالَ قَـوْلًا وَاضِـحَ الْبُرْهَـانِ

٣٣٢- لَا تَحْكُمُوا بِالْفَضْـلِ لِي أَصْـلًا عَـلَى ... ذِي النُّـونِ يُـونُسَ ذَلِـكَ الْغَضْـبانِ

٣٣٣- هَــذَا يَــرُدُّ عَـلَى الْــمُجَسِّمِ قَوْلَــهُ ... اللهُ فَــوْقَ الْعَــرْشِ وَالْأَكْــوانِ

(١) قال الحلبي في نسخته في هامش الأصول: «هو الجويني».

٣٣٤- وَيَـــدُلُّ أَنَّ إِلَـــهَنَا سُـــبْحَانَهُ وَبِحَمْـــدِهِ يُلْقَـــى[١] بِكُـــلِّ مَكَـــانِ

٣٣٥- قَـالُوا لَـهُ: بَـيِّنْ لَنَـا هَـذَا فَلَـمْ يَفْعَـلْ، فَـأَعْطَوْهُ مِـنَ الْأَثْـمَانِ

٣٣٦- أَلْفًا مِنَ الـذَّهَبِ الْعَتِيـقِ، فَقَـالَ فِي تِبْيَانِـهِ فَاسْـمَعْ لِـذَا التِّبْيَـانِ

٣٣٧- قَدْ كَانَ يُونُسُ فِي قَـرَارِ الْبَحْـرِ تَحْـ ـتَ الْـمَاءِ فِي قَـبْرٍ مِـنَ الْـحِيتَانِ

٣٣٨- وَمُحَمَّدٌ صَعِدَ السَّمَاءَ وَجَـاوَزَ السْـ ـسَبْعَ الطِّبَـاقَ، وَجَـازَ كُـلَّ عَنَـانِ

٣٣٩- وَكِلَاهُمَـا فِي قُرْبِـهِ مِـنْ رَبِّـهِ سُـبْحَانَهُ إِذْ ذَاكَ مُسْـتَوِيَانِ

٣٤٠- فَـالْعُلْوُ وَالسُّـفْلُ اللَّـذَانِ كِلَاهُمَـا فِي بُعْـدِهِ مِـنْ ضِـدِّهِ طَرَفَـانِ

٣٤١- إِنْ يُنْسَـبَا للهِ نُـزِّهَ عَـنْهُمَا بِالْإِخْتِصَـاصِ، بَـلَى هُمَـا سِـيَّانِ

٣٤٢- فِي قُرْبِ مَـنْ أَضْـحَى مُقِيمًا فِـيهِمَا مِـنْ رَبِّـهِ، فَكِلَاهُمَـا مِـثْلَانِ

٣٤٣- فَلِأَجْلِ هَذَا خُـصَّ يُـونُسُ دُونَهُـمْ بِالـذِّكْرِ تَحْقِيقًـا لِـهَذَا الشَّـانِ

٣٤٤- فَأَتَى الثَّنَـاءُ[٢] عَلَيْـهِ مِـنْ أَصْـحَابِهِ مِـنْ كُـلِّ نَاحِيَـةٍ بِـلَا حُسْـبَانِ

٣٤٥- فاحْمَـدْ إِلَـهَكَ أَيُّهَـا السُّـنِّيُّ إِذْ عَافَـاكَ مِـنْ تَحْرِيـفِ ذِي بُهْتَـانِ

٣٤٦- وَاللهِ مَـا يَـرْضَى بِهَـذَا خَـائِفٌ مِـنْ رَبِّـهِ أَمْسَـى عَـلَى الْإِيـمَانِ

٣٤٧- هَذَا هُوَ الْإِلْـحَادُ حَقًّا، بَلْ هُوَ التْـ ـتَحْرِيفُ مَحْضًـا أَبْـرَدُ الْـهَذَيَانِ

---

(١) في نسخة: «يُلْفَى».

(٢) في نسخة الحلبي: «النثار».

٣٤٨- وَاللهِ مَا بُلِيَ الْـمُجَسِّمُ قَطُّ ذِي الْـ ـبَلْوَى وَلَا أَمْسَى بِذَا[1] الْـخِذْلَانِ

٣٤٩- أَمْثَالُ ذَا التَّأْوِيلِ أَفْسَدَ هَذِهِ الْـ أَدْيَانَ حِينَ سَرَى إِلَى الْأَدْيَانِ

٣٥٠- وَاللهِ لَوْلَا اللهُ حَافِظُ دِينِهِ لَتَهَدَّمَتْ مِنْهُ قُوَى الْأَرْكَانِ

الشرحُ

٣٢٢- وَأَتَى فَرِيقٌ ثُمَّ قَارَبَ وَصْفُهُ هَذَا وَلَكِنْ جَدَّ فِي الْكُفْرَانِ

٣٢٣- فَأَسَرَّ قَوْلَ مُعَطِّلٍ وَمُكَذِّبٍ فِي قَالَبِ التَّنْزِيهِ لِلرَّحْمَنِ

قَوْلُهُ: «وَأَتَى فَرِيقٌ» أي: مِن الذين ساروا يطلبون اللهَ عزَّ وجلَّ.

هذا الفريق وصف الله -تبارك وتعالى- بالتنزيه، ولكنه تنزيهٌ هو كُفر كما سيبينه المؤلف -رحمه الله-.

٣٢٤- إِذْ قَالَ: لَيْسَ بِدَاخِلٍ فِينَا وَلَا هُوَ خَارِجٌ عَنْ جُمْلَةِ الْأَكْوَانِ

٣٢٥- بَلْ قَالَ: لَيْسَ بِبَائِنٍ عَنْهَا وَلَا فِيهَا، وَلَا هُوَ عَيْنُهَا بِبَيَانِ

هؤلاء مُعَطِّلَةٌ مَحْضَة يقولون: لا يجوز أن نَصِف اللهَ بأنه داخل العالم، ولا خارج العالم، ولا متصل بالعالم، ولا منفصل عن العالم، ولا هو عينُه، ولا فوق العالم، ولا تحت العالم.

وهذا إنكار لوجود الرَّبِّ عزَّ وجلَّ في الواقع، وهو عكس القول الأول الذي قَبْلَه، والذي يقول: إنه بذاته في كل مكان.

---

(١) في نسخة الحلبي: «بذي الخذلان».

فإذا قيل لهم: إذا وصفتم الله بهذا الوصف فأين الله؟ الجواب: عدم، لأنه إذا انتفى عنه كُلُّ ما ذُكر، فهذا يعني العَدَمَ المَحْضَ.

ولو قال قائل: ما هو العدم؟ لم تجد شيئًا أدق وصفًا مِن هذا الوصف، ولهذا يُعتبر قولهم هذا تناقضًا مع قولهم بأنَّ الله موجود، كيف تقول: إنَّ الله موجود، وهو موصوف بهذه الصفات، فأين يكون؟ معدوم، ولهذا قولهم يُعتَبر متناقضًا، لأنهم إذا قالوا: إنه موجود، ثم وصفوه بهذه السُّلُوب فهذا هو النفي المحض، والعَدَم المحض، لكن مع ذلك يقولون هذا، فيعبدون معبودًا لا يدرون أين هو؟ لا يدرون هل هو فوق، أو تحت؟ فهُم لا يجهلون فقط، بل يعتقدون أنه لا فوق، ولا تحت، ولا يمين، ولا شمال، ولا متصل، ولا منفصل، هم يعتقدون أنهم يعبدون هذا الرَّبَّ.

وهؤلاء هم طائفة مِن الجهمية، وهم المتأخرون منهم.

وكذلك المعتزلة يقولون: ليس بداخل العالم... إلى آخره.

فالجهمية انقسموا إلى قسمين: أوائلهم قالوا: إنه بذاته في كل مكان، والثاني المتأخرون: نَفَوْا هذا وعَطَّلوه، وقالوا: ليس بداخل ولا خارج.

٣٢٦- كَـلَّا وَلَا فَـوْقَ السَّـمَوَاتِ الْعُـلَى   والْعَـرْشِ مِـنْ رَبٍّ وَلَا رَحْمَـنِ

نفى أن يكون الله تعالى فوق السموات، وأن يكون فوق العَرش، لكن لماذا تقولون هذا القول؟ قالوا: لو قلنا: إنه فوق السموات أو على العرش لزِم أن يكون جسمًا، والله مُنَزَّهٌ عن الأجسام.

٣٢٧- وَالْعَرْشُ لَيْسَ عَلَيْهِ مَعْبُودٌ سِوَى الْـ ـعَدَمِ الَّـذِي لَا شَيْءَ فِي الْأَعْيَـانِ

يعني: أنكروا أن يكون اللهُ استوى على العرش، وحُجَّتُهم في هذا حجة بالية، يقولون: إنه لو كان كذلك لزِم أن يكون جِسمًا، والجسم مُمْتَنِعٌ على الله عزَّ وجلَّ.

ثم قالوا: ليس عَرَضًا أيضًا، ولهذا يقولون: ليس بجسم، ولا عَرَض، فماذا يكون إذا لم يكن جسمًا قائمًا بنَفْسِه، ولا عَرَضًا قائمًا بِغَيْرِه؟ فماذا يكون؟

الجواب: لا يكون إلَّا عَدَمًا.

فلا يتعجب المسلِمُ مِن أنَّ اللهَ أزاغ قلوبَ هؤلاء، حتى وصلوا إلى هذه الحال، اللهمَّ لا تُزِغ قلوبنا بعد إذ هديتنا.

٣٢٨- بَـلْ حَظُّـهُ مِـنْ رَبِّـهِ حَـظُّ الثَّـرَى مِنْـهُ وَحَـظُّ قَوَاعِـدِ الْبُنْيَـانِ

حَظُّ العرشِ مِن الله كحظِّ الثَّرى أسفل الأرض، وحَظُّ القواعد مِن البنيان، يعني: في القرب.

هو لم يستوِ على العرش، والعرشُ ليس قريبًا منه، وهو بالنسبة للعرش كالنسبة إلى أسفل الأرض، وإلى قواعد البناء، لأنهم يُنكرون العُلُوَّ، وهم -في الحقيقة- كما قال ابن القَيِّمِ -رحمه الله-: مقارِبون لوصف جَهْم.

٣٢٩- لَوْ كَانَ فَوْقَ الْعَرْشِ كَانَ كَهَذِهِ الْـ أَجْسَامِ، سُبْحَانَ الْعَظِيمِ الشَّـانِ!

قَوْلُهُ: «سُبْحَانَ الْعَظِيمِ الشَّانِ!» يَحْتَمِلُ أنه مِن تَتِمَّة قول هذا القائل، ويَحتمل أنه مِن كلام ابن القيم -رحمه الله- يُنَزِّهُ اللهَ تعالى عمَّا قالوه فيه، والمعنى على الوجهين صحيحٌ، لأنَّ أولئك القومَ الذين يَنْفُون أن يكون اللهُ داخل العالم، أو خارجه، أو متصلًا، أو منفصلًا إلى آخره، يريدون بهذا التنزيهَ.

٢٣٠- وَلَقَدْ وَجَدْتُ لِفَاضِلٍ مِنْهُمْ مَقَا مَا قَامَهُ فِي النَّاسِ مُنْذُ زَمَانِ

قَوْلُهُ: «لفاضِلٍ منْهُمْ» هو أبو المَعَالِي الجُوَيْنِيّ[١].

وقد ذكر قصته الشيخ أحمد بن عيسى[٢] في شرح هذه القصيدة نقلًا عن القُرْطُبِيّ[٣] في التَّذْكِرَة[٤].

وَقَوْلُهُ: «لِفَاضِلٍ مِنْهُمْ»: يَحتمل أنه يريد عند ابن القيم، ويَحتمل «لفاضل منهم» أي: عندهم، وأنَّه لم يصفْه بالفضل.

٢٣١- قَالَ: اسْمَعُوا يَا قَومِ إِنَّ نَبِيَّكُمْ قَدْ قَالَ قَوْلًا وَاضِحَ الْبُرْهَانِ

قَوْلُهُ: «نَبِيَّكُمْ» يعني بذلك: محمدًا ﷺ، وجاء بهذه الصيغة إذا كان هذا

(١) أبو المعالي الجويني: إمامُ الحرمين، عبد الملك بن عبد الله بن يوسف، ولد في جوين من أعمال نَيْسَابُور سنة (٤١٩هـ)، وأقام مدةً بالحجاز (مكة والمدينة) كان من أعلم المتأخِّرين من الشافعية، تُوُفِّي بقرية من أعمال نيسابور سنة (٤٧٨هـ). [الشارح]. انظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء (١٨/ ٤٦٨).

(٢) هو الشيخ أحمد بن إبراهيم بن عيسى من بني زيد (١٢٥٣-١٣٢٩هـ) مِن علماء نجد وصاحب رحلة وتصانيف عديدة، أشهرها شرحه وتوضيحه على النونية، ورُدوده على خصوم الدعوة السلفية، وبها يُعرف قدْره، وهو مِن تلاميذ الشيخ عبد الرحمن بن حسن، وابنه الشيخ عبد اللطيف، وأجازه الشيخ حسين بن محسن الأنصاري، وقد أخذ عنه العلم جمع مِن نجْد والحجاز وغيرها، كما كان داعية لتحقيق التوحيد لله عزَّ وجلَّ، رحمه الله ورفع درجته. انظر: حاشية الأثبات في مخطوطات الأئمة: شيخ الإسلام ابن تيمية، والعلَّامة ابن القيم، والحافظ ابن رجب، لعلي بن عبد العزيز بن علي الشبل (ص:١٣٢).

(٣) هو محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح، الإمام، العلَّامة، أبو عبد الله الأنصاري، الخزرجي، القرطبي، المتوفى (٦٧١هـ) إمام متفنن متبحر في العلم، له تصانيف مفيدة تدل على كثرة اطلاعه، ووفور فضله، توفي في أوائل هذه السنة بمنية بني خصيب من الصعيد الأدنى. تاريخ الإسلام للذهبي (١٥/ ٢٢٩).

(٤) انظر: التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة، للقرطبي (ص:٤٦٢).

اللفظ محفوظًا لأجل أن يَشُدَّهم إلى الاستماع، ويُقَوِّي الدليل أنه إذا كان نَبِيًّا، فلا بد أن نستمع إليه، وأن نَقْبَل ما قال، هذا إذا كان اللفظ الذي ساقه ابن القيم محفوظًا بهذا. قد قال:

٣٣٢- لَا تَحْكُمُوا بِالْفَضْلِ لِي أَصْلًا عَلَى ذِي النُّونِ يُونُسَ ذَلِكَ الْغَضْبَانِ

فهو يقول: -وما أدري عن صحة النقل، لأنَّ الرجل ما أظنه أنه يبلغ به الأمر إلى هذا الحدِّ- فيقول: أريد أن أُبَيِّنَ لكم أنَّ الله -سُبحانَه وتعالَى- ليس بذاته فوق العرش، حيث يوجد حديث يَرُدُّ على أهل التجسيم الذين يقولون: إنَّ الله بذاته فوق العرش، وهذا الحديث هو قول الرسول ﷺ: «لَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ: أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى»[1].

على كل حالٍ هذا ساقه بالمعنى بلا شك، وإلا فالنَّبِيُّ ﷺ قال: «لَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ: أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى». يعني: لا تُفَضِّلُونِي في القُرْب مِن رَبِّي -على زعمه- على يُونسَ بن مَتَّى، فأنا وهو عند الله تعالى سِيَّانِ، حين كان في بطن الحوت، وأنا فوق السموات السبع.

وذلك أنَّ يُونسَ بنَ مَتَّى -عليه الصلاة والسلام- خرج مِن قومه مُغاضبًا قبل أن يأذن اللهُ له بالهجرة عنهم، ولهذا لما آمنوا حين جاءهم العذاب نفَعَهم الإيمان، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ﴾ [يونس:٩٨] وذلك أنَّ لهم شيئًا مِن العُذر، حيث إنَّ نَبِيَّهم -عليه الصلاة

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ [طه:٩] ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء:١٦٤]، رقم (٣٢١٥)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب في ذكر يونس -عليه السلام-، رقم (٢٣٧٧).

والسلام- فارقهم قبل أن يُؤذَن له، وقبل أن ييئسَ مِن إيمانهم، فلما آمنوا كشف الله عزَّ وجلَّ عنهم العذاب، فقد يَظُنُّ الظانُّ أن هذا يُنَزِّل مِن قَدْرِ يونس.

ومحمد ﷺ قد عُلِمَ أنه أفضلُ الخلق، أفضلُ بني آدم، فقال: «لَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ: أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى» ولم يقل: على موسى، ولا: على هارون، ولا: على إبراهيم، بل قال: «يُونُسَ بْنِ مَتَّى».

والسبب أنه فعل فِعلًا لم يُؤْذَنْ له فيه.

ولا يَرِدُ على هذا أن يُقال: وموسى فَعَل فِعلًا لم يُؤذن له فيه، إذ الفَرْق ظاهر، لأنَّ موسى -عليه الصلاة والسلام- فَعَل فِعلًا قبل أن يكون نَبِيًّا حين قتَل الذي مِن عَدُوِّه بعد أن استغاثه الذي مِن شِيعته.

٢٣٣- هَـذَا يَـرُدُّ عَـلَى الْـمُجَسِّمِ قَوْلَـهُ اللهُ فَـوْقَ الْعَـرْشِ وَالْأَكْـوانِ

قَوْلُهُ: «**يَرُدُّ على الْـمُجَسِّمِ قولَه**»: القائل هو أبو المعالي الجُوَيْنِيّ.

وَقَوْلُهُ: «**الْـمُجَسِّم**» يريد بذلك الذين يُثْبِتُون العُلُوَّ، وهو قوله: (**اللهُ فَوْقَ الْعَرْشِ والأَكْوَانِ**).

قَوْلُهُ: «**اللهُ فَوْقَ الْعَرْشِ والْأَكْوانِ**» هذا مَقُولُ القول، أي: قول المُجَسِّم: (**اللهُ فَوْقَ العَرْشِ والأَكْوانِ**)، وهذا واضح.

إِذَنْ ما قول المجَسِّم؟ الجواب: قوله: (**اللهُ فَوْقَ العَرْشِ والأَكْوانِ**)، لأنه يرى أن مَنْ أثبت أنَّ الله فوق، فهو جِسم.

بقي أن يُقال: كلمةُ جِسم، أو غير جِسم، هل هي واردة عن النَّبيِّ ﷺ أو عن الصحابة؟ الجواب: لا.

لكنَّ أهل التعطيل الذين أنكروا صفات الله عزَّ وجلَّ صاروا يُشَوِّهونَ سُمعة المُثبِتين بمثل هذا، ويقولون: أنتم مُجَسِّمَة، أنتم مُشَبِّهة، مِن أجْل أن يُنَفِّروا الناس عنهم.

ولكني أقول: إنَّ وصفَ الحقِّ بهذه الأوصاف لا يَضرُّه، فنقول: كلمة الجسم، أو المجسِّم، أو ما أشبه ذلك كلها حادثة، يُراد بها تنفير الناس عن الإثبات، فما موقفنا؟

موقفنا أن نقول: يجب أن نتأدَّبَ مع الله عزَّ وجلَّ ورسولِه ﷺ، فلا ننكر الجسم، ولا نثبت الجسم، لأنَّ الله لـم يُثْبِتْه ولـم يَنْفِهِ، وكذلك النَّبي ﷺ، وهذا خَبَر عن الرَّبِّ، فيجب أن نتأدَّبَ بين يدي الله ورسوله، ونقول: لا نُثْبِت الجسم، ولا ننفيه، هذه واحدة.

أما بالنسبة للمعنى فإننا نستفصل ونقول: ماذا تريد؟ هل تريد الجسم الذي أَجْلَبْتَ به وأَجْنَبْتَ علينا، أتريد جِسمًا مكونًا مِن عظام، وعصب، ودم، ولحم، وما أشبه ذلك؟ فهذا معنًى باطل لا يليق بالله تعالى، ولا نُقِرُّ به، بل نُنكِره أعظم الإنكار.

أم تريد بالجسم الذات العظيمة المتصفة بما يليق بها مِن صفات الكمال؟ إن قال: أريد هذا المعنى، نقول: هذا حقٌّ، ونُثْبِتُه لله عزَّ وجلَّ، ونؤمن بأنَّ الله -تبارك وتعالى- له ذات، وله صفات، وهذا ليس علينا فيه عيب.

ولا يمكن إثباتُ الله عزَّ وجلَّ إلَّا على هذا الوجه، لأنك إن قلت: إنه عَرَضٌ في غيره، فهذا مُنْكَرٌ عظيم، وإن قلت: إنه هواء، وليس بشيء، ولا يُرَى، ولا يُشَاهَدُ، فهذا أيضًا مُنْكَرٌ عظيم.

فالله -سُبحانَه وتعالَى- لا بدَّ أن يكون له ذات، لكنها لا تُماثِلُ ذوات المخلوقين، وهذا هو الحقُّ، أما التَّطْبِيل والإجلاب والإجناب علينا، فهذا لا يَضُرُّنا.

ما ضَرَّ محمدًا ﷺ أن قيل له: إنه ساحر كَذَّاب، ولا إنه شاعرٌ مجنون، بل لم يَزِدْه ذلك إلَّا رِفعةً وأَجرًا وثوابًا.

٣٣٤- وَيَدُلُّ أَنَّ إِلَهَنَا سُبْحَانَهُ ... وَبِحَمْدِهِ يُلْقَى بِكُلِّ مَكَانِ

قَوْلُهُ: «يُلْقَى» أي: يُدْرَكُ ويُحَصَّل بكل مكان.

يدل هذا على أنَّ الله تعالى موجودٌ بكل مكان.

٣٣٥- قَالُوا لَهُ: بَيِّنْ لَنَا هَذَا فَلَمْ ... يَفْعَلْ، فَأَعْطَوْهُ مِنَ الْأَثْمَانِ

٣٣٦- أَلْفًا مِنَ الذَّهَبِ الْعَتِيقِ، فَقَالَ فِي ... تِبْيَانِهِ فَاسْمَعْ لِذَا التِّبْيَانِ

قَوْلُهُ: «قَالُوا لَهُ: بَيِّنْ لَنَا» يعني كيف يدل هذا[1] على هذين الأمرين: أنَّ الله ليس فوق، وأنه بكلِّ مكان؟ فأجاب[2] بأنه (لَمْ يَفْعَلْ)، وقال: لا أُبيِّن، لأنه قال: -كما في الرواية- لن أُبيِّنَ هذا حتى تُعطوا الضيفَ ألفَ دينار، فانتدب لذلك رجلان فقال: لا، بل لا بد أن يكون واحدًا. وهذا تَحدٍّ لهم، فانْتَدَبَ له واحدٌ.

قَوْلُهُ: «فاسْمَعْ لِذَا التِّبْيَانِ» اسمع لهذا التبيان، يقول ذلك سُخرية به، وليس مِن أجْل أن نستمع إليه فنأخذ به، لكن هذا مِن باب الاستهزاء والسخرية.

٣٣٧- قَدْ كَانَ يُونُسُ فِي قَرَارِ الْبَحْرِ تَحْـ ... ـتَ الْمَاءِ فِي قَبْرٍ مِنَ الْحِيتَانِ

أولًا: قوله: «فِي قَرَارِ البَحْرِ» هذا غيرُ مُسَلَّم به، لأنه مِن الجائز أن يكون

---

(١) المراد بقوله: (هذا) أي: حديث: «لَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ: أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى».

(٢) أي: أبو المعالي الجُويني.

الحوتُ التَقَمَه على سطح الماء، أو التَقَمَه في قاع البحر، والأول أقرب، لأنه لو نزل إلى قاع البحر ربما يموت قبل أن يصل إلى قاع البحر، ولذا فالأول أقرب، لأنَّ يونس -عليه السلام- لما ركب البحرَ في سفينة سارت السفينة مُحَمَّلَةً، وقالوا: إنْ بَقِينا جميعًا على ظهرها غَرِقْنا جميعًا، وإنْ أَلْقَيْنا بَعْضَنا في البحر سَلِمْنَا، إذن ماذا نفعل؟ قالوا: نعمل قُرْعَة، فضربوا القُرْعة، فسَاهَم يونس فكان مِن المُدْحَضِين، يعني: المَغْلُوبين، فأَلْقَوْه في البحر، فهيَّأ اللهُ له حُوتًا عظيمًا التَقَمَه دون أن يكسرَ له عظمًا، أو يجرح له جلدًا، فابتلع جميعَه، وبقي في بطنه، وهذا مِن آيات الله عزَّ وجلَّ.

وبقي في بطنه ونادى في الظلمات في ذلك المكان الضيِّق الحَرِج ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾ [الأنبياء:٨٧] وهذا خالصُ التوحيد ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ [الأنبياء:٨٧] أي: أُنَزِّهُك أن تفعل ما لا يليق بك، ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٧] كأنه يقول: إنه ظالمٌ ظَلَم نَفْسَه، والرَّبُّ عزَّ وجلَّ لم يفعل به ما ينافي الحِكمة، بل نَزَّه ربَّه أن يكون فَعلَ به ما ينافي الحِكمة، وبَيَّنَ أنَّ الظُّلمَ مِنْ نفسه، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء:٨٨].

٣٣٨- وَمُحَمَّدٌ صَعِدَ السَّمَاءَ وَجَاوَزَ السْـ ـــسَبْعَ الطِّبَاقَ، وَجَازَ كُلَّ عَنَانِ

قَوْلُهُ: «وَجَازَ كُلَّ عَنَانِ» يعني: ارتفع -عليه الصلاة والسلام- بجسمه وروحه عن كلِّ شيء، حتى السموات والأرض كانت تحته، وما أعظم هذا النَّبيَّ الكريم! وما أقوى جأشَه! كيف شاهد هذه المخلوقات العظيمة العالية، ومع ذلك أدركها بفؤاده تمامًا! قال الله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ [النجم:١١].

وانظر إلى كمال أدب النَّبِيِّ ﷺ، قال الله تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم:١٧] يعني: ما جاوز، وقام ينظر ما هذا، وما هذا؟ مع أننا لو دخلنا حُجرة

مِن الحُجَر لكان الواحد يدور بِعَيْنِه في الجُدران، وفي السطح، وفي الفراش، وفي كلِّ شيء، لكنَّ النَّبيَّ ﷺ على كمال الأدب ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ [النجم:١٧].

يقول الجُوَيْنِيّ -عفا الله عنه-:

٣٣٩- وَكِلَاهُمَا فِي قُرْبِهِ مِنْ رَبِّهِ ... سُبْحَانَهُ إِذْ ذَاكَ مُسْتَوِيَانِ

سبحان الله! هذا الذي وصل إلى مكانٍ سمِع فيه صريفَ الأقلام كرَجُلٍ في بطن الحوت في الأرض في القرب مِن الله!

هذا يقول هكذا، لأنه يقول: إنَّ الله في كلِّ مكان، وإذا كان في كلِّ مكان، لزم أن يكون النَّبيَّانِ عنده مُسْتَوِيَيْنِ.

٣٤٠- فَالْعُلُوُ وَالسُّفْلُ اللَّذَانِ كِلاهُمَا ... فِي بُعْدِهِ مِنْ ضِدِّهِ طَرَفَانِ

العلو والسُّفْل كل واحد منهما (**فِي بُعْدِهِ مِنْ ضِدِّهِ طَرَفَانِ**) فهذا فوق بَعيد، وهذا أسفل.

٣٤١- إِنْ يُنْسَبَا لله نُزِّهَ عَنْهُمَا ... بِالْإِخْتِصَاصِ، بَلَى هُمَا سِيَّانِ

٣٤٢- فِي قُرْبِ مَنْ أَضْحَى مُقِيمًا فِيهِمَا ... مِنْ رَبِّهِ، فَكِلَاهُمْا مِثْلَانِ

يعني: إن نُسِبَا لله عزَّ وجلَّ يُنزَّه عنهما بالاختصاص، فلا يقال: إنَّ العاليَ أقربُ إلى الله مِن النازل، هذا لا يجوز، فهُما عند الله سِيَّان، ولا يُنْسَبان إلى الله عزَّ وجلَّ، هما ينسبان إلينا، والسُّفْل ضد العُلو، فالعُلو في طرَف، وهذا في طرَف، لا يلتقيان، لكنهما بالنسبة لله هما سِيَّان.

قَوْلُهُ: «**مِثْلَانِ**» أي: متشابهان.

٣٤٣- فَلِأَجْلِ هَذَا خُصَّ يُونُسُ دُونَهُمْ بِالذِّكْرِ تَحْقِيقًا لِهَذَا الشَّانِ

يريد -نسأل الله العافية- أن يُونُس -عليه السلام- ذُكِر لأنه في قَعر البحر -على كلامه- ومحمد في أعلى شيء، لكنَّ موسى وإبراهيم -عليهما السلام- وغيرهما ليسوا في قعر الأرض، بل على سطح الأرض، فيريد أن يُبَيِّنَ أنَّ أعلى شيء، وأسفل شيء كلاهما سواء، فـ «**لَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ: أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى**» في قُربِي مِن الله، وبُعده مِن الله.

أليس هذا تحريفًا؟! هل أراد الرسول ﷺ هذا المعنى؟! يعني: لا تُفَضِّلوني عليه في القُرْب حينما عُرِجَ به ﷺ؟! والله ما أراد هذا.

فلا شك أن هذا -والعياذ بالله- مِن التحريف الذي يَحْمِلُ عليه الهوى، وهو تحريفٌ مِن أَبْطَل البَاطِل، فالنَّبِيُّ ﷺ لم يتعرض إطلاقًا للعُلو والسُّفْل، لكن لما كان يونس -عليه الصلاة والسلام- خرج مِن قومه مغاضِبًا، ظانًّا أنَّ الله لا يَقْدِر عليه، وحَصَل ما حَصَل، ربما يقع في نفس بعض الناس تنزيلُ رُتبة يونس، والنَّيْل مِن قَدْرِه، وعلى ذلك يكون المعنى: لا تُفَضِّلُوني في الرُّتبة والمنزلة على يونس.

فنَهى النبي ﷺ أن يُفَضَّل على هذا النَّبِيِّ الذي قد يَتَصَوَّرُ الإنسان أنه -عليه الصلاة والسلام- قد نزل قَدْرُه بسبب ما حصل منه، لأنك عندما تقول: محمدٌ أفضلُ مِن يونس، وقد ذهب الذهن إلى ما حصل مِن يونس، ما الذي يقع في نَفْسِك؟ الجواب: التقليل مِن شأنه وتنزيله، ولذا نهى أن يُفَضَّل محمد على يونس -عليهما الصلاة والسلام-.

وليس أيضًا مراد الرسول ﷺ بذلك أن يُنْكَرَ فضلُ محمدٍ على يُونسَ -عليهما الصلاة والسلام-، لأنَّ هذا أمرٌ معلوم، لكن: لا تُفَضِّلُونِي على سبيل

المُفَاخَرَة، هذه واحدة.

أو: لا تُفَضِّلُونِي على سبيل الاحتقار ليُونُس، وإلّا فإنَّ النَّبِيَّ ﷺ لا يَنْهَى عن شيء أثبته الله، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الإسراء:٥٥] وقال عزَّ وجلَّ: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة:٢٥٣].

فأثبت التفضيلَ للأنبياء، وأثبت التفضيل للرُّسل.

٣٤٤- فَأَتَى الثَّنَاءُ عَلَيْهِ مِنْ أَصْحَابِهِ ... مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ بِلَا حُسْبَانِ

لماذا أَثْنَوْا عليه؟ الجواب: لأنه (وَافَقَ شَنٌّ طَبَقَه)[1]، وقالوا: أنت العالم، أنت الشيخ، هذا الحقُّ، لأنه وافق أهواءهم.

ثم قال ابن القيم -رحمه الله-:

٣٤٥- فاحْمَدْ إِلَهَكَ أَيُّهَا السُّنِّيُّ إِذْ ... عَافَاكَ مِنْ تَحْرِيفِ ذِي بُهْتَانِ

أَمَرَ -رحمه الله- أن يحمد الإنسانُ رَبَّه، وخَصَّ بذلك السُّنِّيَّ، أي: المتَّبِعَ للسُّنَّة، فنقول: الحمد لله، نسأل الله أن يثبتنا على ذلك، وأن يميتنا عليه.

٣٤٦- وَاللهِ مَا يَرْضَى بِهَذَا خَائِفٌ ... مِنْ رَبِّهِ أَمْسَى عَلَى الْإِيمَانِ

قَوْلُهُ: «مَا يَرْضَى بِهَذَا» أي: ما يرضى بهذه المقالة مؤمنٌ يخاف الله، لأنه إذا فَعَل هذا فقد وَصَف الله بأدنى النقص، نسأل الله العافية، فلا يرضى بذلك مؤمنٌ خائفٌ مِن الله عزَّ وجلَّ.

٣٤٧- هَذَا هُوَ الْإِلْحَادُ حَقًّا، بَلْ هُوَ التَّـ ... ـحْرِيفُ مَحْضًا أَبْرَدُ الْهَذَيَانِ

هذا هو الإلحاد والتحريف، والإلحاد في هذا الموضع خاصةً يكون بالمعاني،

---

(١) هذا يُضْرب مثلا للشيئين يتفقان. انظر: مجمع الأمثال للميداني (٢/ ٣٥٩).

والتحريف يكون بتحريف اللفظ عن معناه.

فالمعنى أنَّ هذا هو الإلحاد في آيات الله عزَّ وجلَّ، وهو التحريف لكلام الله عزَّ وجلَّ.

فصار في الأُمَّة مَنْ وافق الأمم السابقة، حَرَّفوا الكَلِمَ عن مواضعه، فصدق رسول الله ﷺ في قوله: «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ»[1].

٣٤٨- وَاللهِ مَا بُلِيَ الْـمُجَسِّمُ قَطُّ ذِي الْـ ... ـبَلْوَى وَلَا أَمْسَى بِـذَا الْـخِذْلَانِ

قَوْلُهُ: «المُجَسِّمُ» أي: على زعم هؤلاء، والمراد به المثبِت للصفات، هذا هو الظاهر، مع أنه يَحْتَمِلُ أن نقول: أراد أنه لو فُرِضَ أنَّ أحدًا جَسَّمَ، فإنه لن يُبْلَى بمثل هذه البليَّة، لكن المعنى الأول أظهرُ، وأقربُ إلى عقيدة ابن القيم -رحمه الله-.

٣٤٩- أَمْثَالُ ذَا التَّأْوِيلِ أَفْسَدَ هَذِهِ الْـ ... أَدْيَانَ حِينَ سَرَى إِلَى الْأَدْيَانِ

قَوْلُهُ: «ذَا التَّأْوِيلِ» المشار إليه التأويل الذي هو التحريف، أما التأويل الذي هو تفسير المعنى الحقيقي فهذا لا بأس به.

٣٥٠- وَاللهِ لَوْلَا اللهُ حَافِظُ دِينِهِ ... لَتَهَدَّمَتْ مِنْهُ قُوَى الْأَرْكَانِ

وصدق -رحمه الله- لولا أنَّ اللهَ حافظُ دينِه كما يدلُّ على هذا قولُ الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر:٩] لولا هذا لتهدَّم الدِّين، ولَزَال الدِّين كما زالت الأديانُ السابقة التي حَرَّفَ أهلُها نُصوصَها، وأَلْحَدُوا فيها.

* * *

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، رقم (٣٢٦٩)، ومسلم: كتاب العلم، باب اتباع سنن اليهود والنصارى، رقم (٢٦٦٩).

فصل

في قُدُومِ رَكْبٍ آخَرَ

٣٥١- وَأَتَى فَرِيقٌ ثُمَّ قَارَبَ وَصْفُهُ ... هَذَا وَزَادَ عَلَيْهِ فِي الْمِيزَانِ

٣٥٢- قَالَ: اسْمَعُوا يَا قَوْمِ لَا تُلْهِيكُمُ ... هَذِي الْأَمَانِي هُنَّ شَرُّ أَمَانِي

٣٥٣- أَتْعَبْتُ رَاحِلَتِي وَكَلَّتْ مُهْجَتِي (١) ... وَبَذَلْتُ مَجْهُودِي وَقَدْ أَعْيَانِي

٣٥٤- فَتَّشْتُ فَوْقُ وَتَحْتُ ثُمَّ أَمَامَنَا ... وَوَرَاءُ ثُمَّ يَسَارُ مَعْ أَيْمَانِ

٣٥٥- مَا دَلَّنِي أَحَدٌ عَلَيْهِ هُنَاكُمُ ... كَلَّا وَلَا بَشَرٌ إِلَيْهِ هَدَانِي

٣٥٦- إِلَّا طَوَائِفُ بِالْحَدِيثِ تَمَسَّكَتْ ... تُعْزَى مَذَاهِبُهَا (٢) إِلَى الْقُرْآنِ

٣٥٧- قَالُوا الَّذِي تَبْغِيهِ فَوْقَ عِبَادِهِ ... فَوْقَ السَّمَاءِ وَفَوْقَ كُلِّ مَكَانِ

٣٥٨- وَهُوَ الَّذِي حَقًّا عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ... لَكِنَّهُ اسْتَوْلَى عَلَى الْأَكْوَانِ

٣٥٩- وَإِلَيْهِ يَصْعَدُ كُلُّ قَوْلٍ طَيِّبٍ ... وَإِلَيْهِ يُرْفَعُ سَعْيُ ذِي الشُّكْرَانِ

٣٦٠- وَالرُّوحُ وَالْأَمْلَاكُ مِنْهُ تَنَزَّلَتْ ... وَإِلَيْهِ تَعْرُجُ عِنْدَ كُلِّ أَوَانِ

٣٦١- وَإِلَيْهِ أَيْدِي السَّائِلِينَ تَوَجَّهَتْ ... نَحْوَ الْعُلُوِّ بِفِطْرَةِ الرَّحْمَنِ

٣٦٢- وَإِلَيْهِ قَدْ عَرَجَ الرَّسُولُ فَقُدِّرَتْ ... مِنْ قُرْبِهِ مِنْ رَبِّهِ قَوْسَانِ

---

(١) في نسخة الحلبي: «وكلَّ مطيتي».

(٢) في نسخة الإفتاء: «مذاهبنا».

٣٦٣- وَإِلَيْـهِ قَـدْ رُفِـعَ الْـمَسِيحُ حَقِيقَـةً ... وَلَسَـوْفَ يَنْـزِلُ كَـيْ يُـرَى بِعِيَـانِ

٣٦٤- وَإِلَيْهِ تَصْـعَدُ رُوحُ كُـلِّ[1] مُصَـدِّقٍ ... عِنْـدَ الْـمَمَاتِ فَتَنْثَنِـي بِأَمَـانِ

٣٦٥- وَإِلَيْـهِ آمَـالُ الْعِبَـادِ تَوَجَّهَـتْ ... نَحْـوَ الْعُلُـوِّ بِـلَا تَـوَاصٍ ثَـانِ

٣٦٦- بَـلْ فِطْـرَةُ الله الَّتِـي لَـمْ يُفْطَـرُوا ... إِلَّا عَلَيْهَـا الْـخَلْقُ والـثَّقَلَانِ

٣٦٧- وَنَظِـيرُ هَـذَا أَنَّهُـمْ فُطِـرُوا عَـلَى ... إِقْـرَارِهِمْ، لَا شَـكَّ بِالـدَّيَّانِ

٣٦٨- لَكِنْ أُولُو التَّعْطِيلِ مِنْهُمْ أَصْبَحُوا ... مَرْضَى بِدَاءِ الْـجَهْلِ وَالْـخِذْلَانِ

٣٦٩- فَسَـأَلْتُ عَـنْهُمْ رُفْقَتِـي وَأَحِبَّتِـي ... أَصْحَابَ جَهْمٍ حِزْبَ جِنْكِزْخَانِ

٣٧٠- مَنْ هَؤُلَاءِ وَمَـنْ يُقَـالُ لَـهُمْ فَقَـدْ ... جَـاءُوا بِـأَمْرٍ مَـالِئِ الْآذَانِ

٣٧١- وَلَـهُمْ عَلَيْنَـا صَـوْلَةٌ مَـا صَالَـهَا ... ذُو بَاطِـلٍ، بَـلْ صَـاحِبُ الْبُرْهَـانِ

٣٧٢- أَوَمَـا سَـمِعْتُمْ قَوْلَـهُمْ وَكَلَامَهَـمْ ... مِثْـلَ الصَّـوَاعِقِ لَـيْسَ ذَا لِـجَبَانِ

٣٧٣- جَـاءُوكُمْ مِـنْ فَـوْقِكُمْ وَأَتَيْـتُمُ ... مِـنْ تَحْـتِهِمْ، مَـا أَنْـتُمُ سِـيَّانِ

٣٧٤- جَـاءُوكُمْ بِـالْوَحْيِ لَكِـنْ جِئْـتُمُ ... بِنُحَاتَـةِ الْأَفْكَـارِ وَالْأَذْهَـانِ

الشرحُ

فهؤلاء فريقٌ مِن الرُّفقاء خرجوا في سَفَر، ثم اختلفوا في مفترق الطُّرُق، فكلُّ إنسانٍ سَلَك طريقًا، أو كل طائفة سلكت طريقًا، وسبق الكلام على عدَّة منهم.

---

(١) في نسخة برلين: «كل روح مُصدِّق».

يقول -رحمه الله-:

٣٥١- وَأَتَى فَرِيقٌ ثُمَّ قَارَبَ وَصْفُهُ　　هَذَا وَزَادَ عَلَيْهِ فِي الْمِيزَانِ

يعني: أنه قاربَ الذي قَبْلَه، لكنه زاد عليه.

٣٥٢- قَالَ: اسْمَعُوا يَا قَوْمِ لَا تُلْهِيكُمُ　　هَذِي الْأَمَانِي هُنَّ شَرُّ أَمَانِي

قَوْلُهُ: «الأماني» أي: ما يتمناه الإنسان، لكنه لا يَصِل إليه، ولذلك يُقال: (مَنْ غَرَّتْهُ الْأَمَانِيُّ لَمْ يَفُزْ بِأَمَانِ).

فالإنسان تُمَنِّيه نفسُه الشيءَ المستحيلَ، ولكنه يَتْبَع هذه الأُمْنِيَّة فيهلِك، والواجب على الإنسان أن يُحَكِّمَ العقل فيما يُلْقِيه الشيطانُ، أو نفسُه الأمَّارة بالسوء على قلبه، حتى يكون مستقيمًا في سُلوكه إلى الله عزَّ وجلَّ.

٣٥٣- أَتْعَبْتُ رَاحِلَتِي وَكَلَّتْ مُهْجَتِي　　وَبَذَلْتُ مَجْهُودِي وَقَدْ أَعْيَانِي

يعني: أتعب راحلته في السفر، وطلب الوصول إلى فاطر الأكوان عزَّ وجلَّ.

قَوْلُهُ: «وَبَذَلْتُ مَجْهُودِي وَقَدْ أَعْيَانِي» يعني: بذلت طاقتي.

قَوْلُهُ: «وَقَدْ أَعْيَانِي» يعني: أتعبني السَّفَر والطَّلَب لفاطر الأكوان.

٣٥٤- فَتَّشْتُ فَوْقُ وَتَحْتُ ثُمَّ أَمَامَنَا　　وَوَرَاءُ ثُمَّ يَسَارُ مَعْ أَيْمَانِ

يعني: فَتَّشْتُ في كلِّ الجهات أطلب هذا الرَّبَّ، أو أطلب مَنْ يدلني على هذا الرَّبِّ.

٣٥٥- مَا دَلَّنِي أَحَدٌ عَلَيْهِ هُنَاكُمُ　　كَلَّا وَلَا بَشَرٌ إِلَيْهِ هَدَانِي

٣٥٦- إِلَّا طَوَائِفُ بِالْحَدِيثِ تَمَسَّكَتْ　　تُعْزَى مَذَاهِبُهَا إِلَى الْقُرْآنِ

الآن أقرَّ هذا الرجل أنه طاف بالأرض، وسار، وتعِب، وأعيا، يطلُبُ خالقَ الأكوان، ولم يَدُلَّه عليه إِلَّا طوائفُ بالحديث تمسَّكَتْ، وهم أهل السُّنَّة والجماعة، حيث دَلُّوه على الله عزَّ وجلَّ حقًّا، وهَدَوْهُ إليه، وبيَّنوا أنه -سُبحانَه وتعالَى- فوق السموات العُلى.

قَوْلُهُ: «تُعْزَى مَذَاهِبُهَا إِلَى القُرْآنِ»، لأنهم هم أهل القرآن وأهل السُّنَّة.

٣٥٧- قَالُوا الَّذِي تَبْغِيهِ فَوْقَ عِبَادِهِ فَوْقَ السَّمَاءِ وَفَوْقَ كُلِّ مَكَانِ

قَوْلُهُ: «فَوقَ السَّمَاءِ وَفَوقَ كُلِّ مَكَانٍ» هنا أَقَرُّوا بعُلُوِّ الله عزَّ وجلَّ وهو محَكٌّ بين أهل التعطيل والتمثيل، وبين أهل السنَّة والجماعة، ولهذا كثيرًا ما تحصل المناظرة في مسألة العُلُوِّ والاستواء، كالكلام، فقال: إنهم دَلّوه بأنَّ الله فوقَ العباد، وفوق السماء، وفوق كُلِّ مكان.

واستدلَّ المؤلف على عُلُوِّ الله تعالى بِعِدَّة أدلة، نأخذها واحدًا واحدًا.

قال -رحمه الله-:

٣٥٨- وَهُوَ الَّذِي حَقًّا عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى لَكِنَّهُ اسْتَوْلَى عَلَى الْأَكْوانِ

قَوْلُهُ: «وَهُوَ الَّذِي حَقًّا عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى» قد دَلَّ على ذلك الكتابُ والسُّنَّةُ، وإجماعُ السلف.

ففي الكتاب: ذَكَر اللهُ الاستواء على العرش في سبعة مواضع، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤].

وقد سردها شيخ الإسلام ابن تيمية -رحِمه الله تعالى- في كتابه **(العقيدة**

الواسطية)[1]، فهو سبحانه استوى على العرش، وأما (استولى) فلا تأتي على العرش، لكنها تأتي على الأكوان، فاستولى على الأكوان يعني: مَلكَ الأكوانَ كلَّها قبل خَلق السموات والأرض، ولهذا يُقال: **(على العرش استوى، وعلى المُلْك استولى)**.

فإذا قال قائل: ما معنى: استوى على العرش؟

فالجواب: استوى على العرش بمعنى علا على العرش عُلُوًّا خاصًّا، ليس العُلُو المطلَق على جميع المخلوقات، بل هو عُلوٌّ خاص اختصَّ به العرش، ويدلُّ لهذا أنه عُدِّيَ بـ (**على**) الدالة على العُلُو.

ولقد قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ [الزخرف:١٢-١٣] أي: تركبوا عليها، وتعلوا عليها ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ [الزخرف:١٣] أي: إذا استقررتم عليه تذكرون نعمة الله أن يَسَّرَ لكم مِن الفُلك والأنعام ما تركبون ﴿وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ [الزخرف:١٣].

إِذَنْ نحن نؤمن بأنَّ معنى **(استوى على العرش)** يعني: علا عليه، لكن هل هذا العُلو يشبه عُلو الإنسان على السرير، أو على الفُلك، أو على الدابة؟

الجواب: لا، لقول الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١] واستواؤنا على السرير، وعلى الفُلك، وعلى الأنعام استواءُ افتقار، بدليل أنه لو سُحِبَتْ مِن تحتنا لسقطنا، أما استواء الله على العرش، فهو استواءُ سلطان وتمام مُلْكٍ وعَظَمَة، وليس لافتقاره إلى العَرش، بل العرشُ وكُلُّ المخلوقاتِ مفتقِرةٌ إلى رَبِّها عزَّ وجلَّ، وهو غَنِيٌّ عنها.

---

(١) انظر: العقيدة الواسطية (ص:٧٠).

أمَّا أهل التعطيل فقالوا: استوى بمعنى استولى، فأنكروا صفة العظمة والسلطان، وحَوَّلوها إلى معنًى دون ذلك بكثير.

وقولهم هذا باطل لِوُجُوهٍ كثيرة، منها:

▪ **أولًا**: لم يأتِ في اللغة أنَّ (**استوى**) بمعنى (**استولى**)، فهذه لغة العرب بين أيدينا، فلم يأتِ (استوى على كذا) بمعنى (استولى عليه)، والقرآن نزل باللغة العربية.

▪ **ثانيًا**: أنه خلاف إجماع السلف، فلم يَقُلْ أحدٌ مِن السلف (الصحابة والتابعين والأئمة مِن بَعْدِهم): إن (**استوى**) بمعنى (**استولى**)، فتفسيره بذلك خروج عن الإجماع، وداخلٌ في قول الله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء:١١٥].

▪ **ثالثًا**: أنه يلزم عليه لوازم باطلة، منها: أنه إذا كان (استوى) بمعنى (استولى) لزِم أن يكون مُلْكُ العرشِ قَبل خَلق السموات والأرض لغيرِ الله، لأنَّ الله قال: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [الأعراف:٥٤] أي: بعد خَلقها، لأنَّ الاستواء المذكور أتى بـ (ثُمَّ)، فيكون ملكُ العرشِ لغير الله عزَّ وجلَّ، فمَن المالك إذن؟!

وربما يقول قائل أيضًا: قولكم: (**استولى على الأكوان**) كأنَّ آخَرَ كان مستوليًا عليها؟

فالجواب: لا، فهذه لو جاءت بما يقتضي التعقيب كان لا بأس، وابن القيم هنا قال: استولى على الأكوان بدون (ثُمَّ) فليس فيها محظور، أمَّا ابتداءً، فصحيحٌ أنَّ الله استولى على كُلِّ شيء.

لكن لو قال قائل: لِـمَ لا نقول: إنه مالكٌ في الأصل؟ نقول: إن ابن القيم اختار (استولى) لأجل أن يَرُدَّ عليهم، لأنه إذا قال: (استوى) بمعنى (استولى) قلنا: يَلْزَم عليه أيضًا أن يصحَّ أن نقولَ: إن الله استوى على الجَبَل، واستوى على الأرض، واستوى على البَعير، واستوى على الفُلْك، واستوى على الوادي، لأنه مُسْتَوْلٍ على هذا.

ولا يمكن أن يقول بذلك أحد، ولذلك اختار ابن القيم كلمة **(استولى)** لِيُبَيِّن لهؤلاء الذين قالوا: استوى على العرش بمعنى استولى عليه أنهم أخطئوا، فإن الاستيلاء على كُلِّ شيء، ولذلك قال ابن القيم: «**لَكِنَّهُ اسْتَوْلَى عَلَى الأَكْوَانِ**» فأراد -رحمه الله- هنا بهذا الاستدراك أن يَرُدَّ على هؤلاء، كأنه يقول: إنكم ضللتم، فالاستيلاء على جميع الأكوان، وأما الاستواء، فهو على العَرش، أي: خاصٌّ بالعرش، فالله استولى على الأكوان حقيقة، فهو وَلِيُّها، وهي مِلكُه بلا شك. وبذلك ليس في كلام ابن القيم محظور.

فالحاصل أنَّ كلمة (استولى) على المُلك، أو **(استولى)** على الخَلق، ليس فيها إشكال، والإشكال في تفسير **(استوى)** بـ **(استولى)**.

وعلى ذلك فنحن لا نَمْنَع أنه استولى على العرش، فمِن كمال الله تعالى أن يستولي على كلِّ شيء.

فَتَبَيَّنَ بذلك بُطلانُ قولِ مَنْ يقول: إنَّ (استوى) بمعنى (استولى).

فإذا قال قائل: ألم يَقُل الشاعر[1]:

قَدِ اسْتَوَى بِشْرٌ عَـلَى الْعِـرَاقِ ... مِنْ غَـيْرِ سَـيْفٍ وَدَمٍ مِهْـرَاقِ

---

(١) البيت للأخطل، كما في تاج العروس: سوو.

«بشر» يعني: بِشْرَ بنَ مَرْوَانَ، مِن أُمَراء بني أُمَيَّة.

قلنا: قيل هذا، لكن مَن القائل؟ هل القائل عربيٌّ فصيح يمكن أن يُحْتَجَّ بكلامه؟ الجواب: لا، فقائل هذا مجهول، لا يُعلمُ قائلُه، هذا هو الوجه الأول.

الوجه الثاني: ثُمَّ لو عُلِم فهو بعدَ تَغَيُّر اللسان، لأنَّ المسلمين لما فتحوا البلاد غير العربية تغيَّرت ألسنتهم، كما تغيَّرت ألسنتا نحن الآن، نحن الآن نخاطِبُ إخوانَنا مِن الباكستانيين والهنود، إذا أردت أن تقول: (لا أدري) تقول: (ما في معلوم)، فهم أخذوا مِن لُغتنا، وأخذنا مِن لُغَتهم، كذلك العرب الفصحاء لما فُتحت البلادُ تَأَثَّروا بِلُغَات الأعاجم.

الوجه الثالث: نقول: على فرض أنَّ الذي قاله عَرَبِيٌّ فصيح قُحٌّ، فاستواؤه على العرش يمكن أن يُفَسَّر بمعنى استيلائه، ويمكن أن يُقال: استوى عليه أي: علا عليه عُلوًّا معنويًّا، لأنه سيطر عليه وفتحه، وحينئذٍ لا دليل فيه إطلاقًا.

الوجه الرابع: ثم على فرض أنَّ فيه دليلًا واضحًا فإنّه لا يمكن أن يُقابِلَ - فضلًا عن أن يعارِض- الأدلةَ الواضحةَ في القرآن والسنَّة، وإجماع السلف على أنَّ (استوى على العرش) يعني: (علا عليه).

فالأمر واضح -ولله الحمد- ولا إشكال فيه أنه (استوى على العرش) أي: علا عليه علوًّا خاصًّا، ليس كالعلو المطلَق على جميع المخلوقات.

قسم ثالث مِن الناس قال: استوى على العرش كاستواء الإنسان على السرير، وكاستواء المِلك على عرش مملكته، وربما مَثَّل وجلس متربعًا، أو ما أشبه ذلك، وهؤلاء المُمَثِّلة، فَكُلٌّ مِن المُمَثِّلة والمعطِّلة ما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِه.

ونحن نقول: إنَّ الله تعالى استوى على العرش أي: علا عليه عُلوًّا خاصًّا

يليق به -جلَّ وعلا-، ولا نُكَيِّفه، فلا يجوز لنا أن نسأل عن الكيفية، لأنَّ الكيفيةَ مجهولة، ولا يمكن الوصولُ إلى معرفتها، فكيف نسأل عن شيءٍ لا يمكنُ الوصولُ إليه، وما هذا إلَّا تَنَطُّعٌ في الدِّين، وتَعَمُّقٌ فيه.

وقصة الإمام مالك -رحِمه الله- مشهورة أنه سأله رجل وهو في المسجد النبوي قال له: يا أبا عبد الله ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥] كيف استوى؟

فأطرق مالك -رحمه الله- برأسه، وصار يتصبب عرقًا، ثم رفع رأسَه وقال: «الاستواءُ معلومٌ، والكيفُ مجهولٌ، والإيمانُ به واجبٌ، والسؤالُ عنه بدعةٌ».

والمنقول عنه بلفظ: «الاستواءُ غيرُ مجهولٍ، والكيفُ غيرُ معقولٍ، والإيمانُ به واجبُ، والسؤالُ عنه بدعةٌ»[1].

ثم استدلَّ المؤلف أيضًا على علوِّه عزَّ وجلَّ بقوله:

٣٥٩- وَإِلَيْـهِ يَصْـعَدُ كُـلُّ قَـوْلٍ طَيِّـبٍ ... وَإِلَيْـهِ يُرْفَـعُ سَـعْيُ ذِي الشُّـكْرَانِ

لقول الله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر:١٠] وهذه الآية مِن أدلة العلوِّ الذاتِيِّ، وجه ذلك: قوله: (إليه) أي: إلى الله يصعد الكَلِم الطيِّب.

وهذا يدُلُّ على علوِّه، ووجه الاستدلال: أنَّ الصعود يعني: الارتفاع، وتقول مثلًا لإنسان: اصعد إلى فلان في الدور الثاني، أي: ارتفع إليه.

قَوْلُهُ: «وإلَيهِ يُرْفَعُ سَعْيُ ذِي الشُّكْرَانِ» مأخوذ مِن قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر:١٠].

---

(١) أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات (٥١٥)، عن الإمام مالك بإسناد جوَّده الحافظ في الفتح (١٣/ ٤٠٧).

٣٦٠- وَالـرُّوحُ وَالْأَمْـلَاكُ مِنْـهُ تَنَزَّلَـتْ   وَإِلَيْـهِ تَعْـرُجُ عِنْـدَ كُـلِّ أَوَانِ

قَوْلُهُ: «وَالرُّوحُ وَالْأَمْلَاكُ مِنْهُ تَنَزَّلَتْ» هذا مذكور في سورة القَدْر في قوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ [القدر:٤-٥] ونُزولها لا يكون إلَّا مِن أعلى، وهذا نوعٌ ثانٍ للدلالة على العُلوِّ، فعروج الأشياء إليه تدلُّ على عُلوِّه.

قَوْلُهُ: «وإلَيهِ تَعْرُجُ عِنْدَ كُلِّ أوَانِ»: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج:٤]، فالنزول يدلُّ على عُلوِّه، والعروج إليه يدلُّ على عُلوِّه.

٣٦١- وَإِلَيْـهِ أَيـدِي السَّـائِلِينَ تَوَجَّهَـتْ   نَحْـوَ الْعُلُـوِّ بِفِطْـرَةِ الـرَّحْمَنِ

أيُّ إنسان يسألُ اللهَ تعالى فإنَّ يده تتوجه للأعلى بالفطرة، بدون دراسة، وبدون تعليم، فهذا دليلٌ فِطري، فما قال قائلٌ قطُّ: (يا الله) إلَّا ورفع يديه إلى السماء، ولهذا استدل أبو العلاء الهَمَذَانِيُّ -رحِمه الله-[1] على أبي المعالي الجُوَيْنِي الفِطرة[2].

قال: ما تقول في هذا: ما قال عارفٌ قَطُّ: (يا الله) إلَّا وجد في قلبه ضرورةً تطلب العُلُوَّ؟ فبُهت وجعل يضرب على رأسه ويقول: حَيَّرَني الهَمَذَاني، حَيَّرَني الهَمَذَاني، لأنَّ هذا لا يمكن أن ينكره أحد.

---

(١) هو أبو العلاء الهمذاني الحافظ العلَّامة المقرئ، شيخ الإسلام الحسن بن أحمد بن الحسن بن أحمد ابن محمد بن سهل العطار شيخ همذان، مولده سنة ثمان وثمانين وأربعمئة، برَع على حُفاظ عصره في حِفظ ما يتعلق بالحديث من الأنساب والتواريخ والأسماء والكنى والقصص والسير، مات أبو العلاء في جمادى الأولى سنة تسع وستين وخمسمئة. انظر ترجمته في: تذكرة الحفاظ (٤/ ٨٠).

(٢) انظر: العلو للعلي الغفار (١/ ١٩٢).

قَوْلُهُ: «نَحْوَ العُلُوِّ بِفِطْرَةِ الرَّحْمَنِ» أي: بدون تعلُّم وبدون تدبُّر، فمن حين ما يبتهل الإنسانُ إلى رَبِّه يرفع يديه نحو السماء.

٣٦٢- وَإِلَيْهِ قَدْ عَرَجَ الرَّسُولُ فَقُدِّرَتْ مِنْ قُرْبِهِ مِنْ رَبِّهِ قَوْسَانِ

قَوْلُهُ: «وَإِلَيْهِ قَدْ عَرَجَ الرسُولُ» هذا مِثل الأول، فتعرج الأشياء إليه لأنه فوق.

وهذا العُروج كان ليلة المعراج، وكان ذلك في مكةَ قبل الهجرة بثلاث سنوات، وقيل: بِسَنَة.

وسبب هذا الاختلاف المتبايِن أنهم لم يكونوا يستعملون التاريخَ مِن قبل، فالتاريخ لم يُسْتَعْمَلْ ويثبت في الدولة الإسلامية إِلَّا في زمن عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فلذا حصَل هذا الاختلاف، فيكون مثلًا قد تَقَدَّم المعراج، ولم يطَّلع عليه أحد، ثُمَّ اطَّلع عليه بعد سنتين، وقال: إنه كان قَبل الهجرة بِسَنَة.

وقد عُرِجَ بالنبيِّ ﷺ بجسده ورُوحه إلى السموات السبع، وأُسْرِي به إلى المسجد الأقصى، فهنا إسراء، وهنا معراج، وكلاهما في ليلةٍ واحدة.

قَوْلُهُ: «فقُدِّرَتْ مِنْ قُرْبِهِ مِنْ رَبِّهِ قَوْسَانِ» يشير إلى قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ [النجم:٨-٩] هذا كلامه هنا، وهو أحد القولين في هذه الآية، لكن كلامه في (**التبيان في أقسام القرآن**)[1] يخالف ذلك، حيث ذكر في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ [النجم:٨-٩] أنَّ الذي دنا فتدلى هو جبريل وقرب مِن النَّبِيِّ ﷺ، حتى كان قاب قوسين أو أدنى، وليس الله عزَّ وجلَّ وهذا هو الصواب.

---

(١) انظر: التبيان في أقسام القرآن (ص:٢٥٦).

ولكن المؤلف -كغيره مِن المجتهدين- يكون له في المسألة قولان أو أكثر، وهذه مِن مسائل الأصول التي اختلف فيها السَّلَف -رحمهم الله-.

لكننا لا نشك أن النبيَّ ﷺ عُرِج به إلى مكان سمِع فيه صَرِيفَ الأقلام، أي: الأقلام التي يُكتَب بها، وصريفها يعني: صوتها عند الكتابة.

٣٦٣- وَإِلَيْـهِ قَـدْ رُفِـعَ الْـمَسِيحُ حَقِيقَـةً ... وَلَسَـوْفَ يَنْـزِلُ كَـيْ يُـرَى بِعِيَـانِ

هذا أيضًا مِن النوع الأول، وهو رفع الأشياء إليه.

فالمسيح ابن مريم -عليه السلام- تمالأ عليه قوم مِن اليهود ليقتلوه، فدخلوا عليه، فرفَعَه الله عزَّ وجلَّ بجسده، وألقى شَبَهَه على واحدٍ مِن هؤلاء الذين جاءوا ليقتلوه، فأمسكوا به، فقال لهم: أنا صاحبُكم، قالوا: أبدًا، أنت المسيح، فقتلوه وصلبوه، وقالوا: إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله.

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ [النساء:١٥٧] فالآية مُؤَكَّدةٌ بنفيٍ، ثم بنفيٍ آخر، ثُمَّ توكيد بكلمة (يقينًا).

والعجب أنَّ النصارى مِن سَفههم وضلالهم يقولون: إنه مقتول، ويدَّعون أنه صُلِبَ وفَدَى بنفسه جميع الناس، وهذا مِن سَفههم وضلالهم.

المهم أنَّ المسيحَ ابنَ مريم -عليه السلام- رُفِعَ إلى الله حقيقةً لا مجازًا، وسوف ينزل في آخر الزمان، كما ثبت ذلك عن النبي ﷺ[1].

---

(١) كما في حديث النبي ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزِلَ فِيكُمْ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا مُقْسِطًا، فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلَ الخِنْزِيرَ، وَيَضَعَ الجِزْيَةَ، وَيَفِيضَ المَالُ حَتَّى لاَ يَقْبَلَهُ أَحَدٌ». أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب قتل الخنزير، رقم (٢١٠٩)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب نزول عيسى بن مريم حاكما بشريعة نبينا محمد ﷺ، رقم (٢٣٤٤).

فإن قال قائل: هذه المدة الطويلة مِن أين يأكل، ومِن أين يشرب؟

فالجواب: إن طُلِبَ منك أن تشتريَ له خبزًا وأُدْمًا فاشْتَرِ، وَإِنْ لم يُطلَب فَصُمَّ فَمَك، وأعرِض عن هذا الكلام، وهذا إيراد سخيف!

فإن قال قائل: يكون عيسى بن مريم -عليه الصلاة والسلام- أفضلَ الصحابة، لأنه نَبِيٌّ، وقد اجتمع به النَّبيُّ ﷺ في السماء، فيكون أفضلَ الأُمة.

فالجواب أن نقول: إذن قولوا: جميعُ الأنبياء الذين اجتمع بهم الرسول ﷺ صحابةٌ، لأنه اجتمع بهم، وشهدوا له بالنبوة والصلاح، ولا يمكنهم أن يَدَّعُوا ذلك، وذلك أنَّ أخبار الغيب لا يمكن أن تُعْطَى أحكام الشهادة.

وقد أجمع المسلمون على أن أفضل هذه الأُمَّة بعد نبيِّها أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَهُمْ في غفلة عن هذه الحَذْلَقة، أو هذا التَّعَمُّق؟! ليسوا والله في غفلة، هم أشد انتباهًا مِن هؤلاء الذين ادَّعوا هذه الدعوى الباطلة، بل أفضل هذه الأمة هو الصِّدِّيق: عبد الله بن عثمان أبو بكر، ثُمَّ عمر، ثُمَّ عثمان، ثُمَّ عليّ رضي الله عنهم.

قَوْلُهُ: «**وَلَسَوفَ يَنْزِلُ كَيْ يُرَى بِعِيَانِ**» متى يَنزل؟

الجواب: ينزل بأمر الله على كُلِّ حال، وذلك فيما إذا عاث الدجَّال في الأرض فسادًا، لأنَّ الدجَّال يبقى في الأرض أربعين يومًا، أول يوم قَدْرُه كَسَنَةٍ، والثاني كشهر، والثالث كأسبوع، والرابع كسائر الأيام[1].

ولقد ضَلَّ قوم قالوا: إنَّ أول يوم ليس كَسَنَة في الطُّول، لكن في المشَقَّة والمعاناة، وإلَّا فالشمس لا يمكن أن تتغيّر، فالشمس دورانها واحد.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال وصفته، رقم (٢٩٣٧).

وهؤلاء ليس عندهم إيمانٌ بالله عزَّ وجلَّ، لأننا نقول: مَن الذي خَلق الشمسَ؟ الجواب: الله عزَّ وجلَّ، مَنْ الذي سَيَّرَها على هذا الزمن؟ الجواب: الله عزَّ وجلَّ، أليس الخالق الذي سَيَّرها على هذا الزمن بقادر على أن يمنع سَيرها؟ الجواب: بلى والله، لكن لما نقص إيمانُهم، وعجزت عقولُهم عن إدراك ما أخبر به النَّبِيُّ ﷺ قالوا هذه الدعوى.

ويدلُّ لهذا أنَّ مَنْ هُم أفضل منهم، وأصحّ عُقولًا، وأقوى فَهمًا فهموا أن الطولَ طولُ زمَن، وليس طولَ مَشَقَّة، فقالوا: يا رسول الله، هذا اليوم الذي كَسَنَة هل تكفينا فيه صلاةُ يوم واحد؟ قال: «لَا، اقْدُرُوا لَهُ قَدْرَهُ»[1]. فأقرَّهُمُ النَّبِيُّ ﷺ على فَهْمِهم، وأزالَ عنهم الإشكالَ بأنَّ هذا اليوم الطويل الذي قَدْرُه اثنا عشَر شهرًا يُصَلَّى فيه صلاة اثني عشَر شهرًا.

٣٦٤- وَإِلَيْـهِ تَصْـعَدُ رُوحُ كُـلِّ مُصَـدِّقٍ عِنْـدَ الْـمَمَاتِ فَتَنْثَنِـي بِأَمَـانِ

قَوْلُهُ: «بأَمَانٍ» أي: إلى الله.

قَوْلُهُ: «تصْعَدُ رُوحُ كُلِّ مُصَدِّقٍ» أي: كُلّ مؤمن، فتخرِق السموات السبع، حتى تصل إلى الله عزَّ وجلَّ، فيأمر اللهُ عزَّ وجلَّ بأن تُعَادَ إلى الأرض إلى جسدها الذي كانت تعمره في الدنيا، فيقول: «فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُم، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى»[2].

تأمل -سبحان الله- شأن الرُّوح، فهو عجيب جدًّا، وشأن الملائكة أيضًا

---

(١) هو بقية الحديث السابق.

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٢٨٧، رقم ١٨٥٥٧)، وأبو داود: كتاب السنة، باب في المسألة في القبر وعذاب القبر، رقم (٤٧٥٣) واللفظ لأحمد.

عجيب، في هذه اللحظات التي يُغسَّل فيها الميتُ، ويُكَفَّنُ ويُدْفَنُ تصعد الروحُ إلى أعلى شيء، فتخرق السموات، وتمر بالملائكة، ويَشَمُّون رائحتها الطيبة، ثم تعود حتى تكونَ في جسدها في القبر، وهذا مما يدلُّ على أنَّ الأرواحَ والملائكةَ لها شأن غير شأن هذه الأجسام الثقيلة.

٣٦٥- وَإِلَيْـهِ آمَـالُ الْعِبَـادِ تَوَجَّهَـتْ　　　نَحْـوَ الْعُلُـوِّ بِـلَا تَـوَاصٍ ثَـانِ

قَوْلُهُ: «وإليْه آمَالُ العِبَادِ تَوَجَّهَتْ» هذا مِن النوع الثالث، وهو الفِطرة، ولهذا قال بعد ذلك: (بِلْ فِطْرَةُ الله).

فكُلُّ العِباد الذين يؤمنون بالله تجد قلوبَهم معلَّقةً بالعلوِّ، وهذا بدون أيّ قراءة وأيّ تلقين.

٣٦٦-بَـلْ فِطْـرَةُ الله الَّتِـي لَـمْ يُفْطَـرُوا　　　إِلَّا عَلَيْهَـا الْـخَلْقُ والـثَّقَلَانِ

قَوْلُهُ -رحمه الله-: «بَلْ فِطْرَةُ الله» أي: بل هي فطرة الله.

والفِطرة هي أول الخَلْق كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر:١] وقال النَّبِيُّ ﷺ: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ»(١).

قَوْلُهُ: «الخَلْقُ» بدل مِن نائب الفاعل، وهو الواو في (يفطروا)، ويجوز أن تكون مِن لُغة (أَكَلُونِي الْبَرَاغِيثُ)، وبعض الناس يُعَبِّر عن ذلك فيقول: (أكلوه البراغيثُ)، لكن لا حرجَ أن تقول: (أكلوني البراغيث)، لأنه مثالٌ قاله عَرَبِيٌّ فَتَحْكِي قَوْلَه.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين، رقم (١٣٨٥)، مسلم: كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة، رقم (٢٦٥٨).

٣٦٧-وَنَظِـيرُ هَــذَا أَنَّهُــمْ فُطِـرُوا عَـلَى إِقْــرَارِهِمْ، لَا شَــكَّ بِالــدَّيَّانِ

قَوْلُهُ: «ونَظِيرُ هَذَا» أي: نظير إقرارهم بعُلوِّ الله إقرارًا فِطريًّا أنَّهم أقرُّوا بالله عزَّ وجلَّ بمقتضى الفِطرة، فكُلُّ إنسانٍ يعرف أنَّ له ربًّا، وأنَّ له إلهًا، لكن كما قال النَّبيُّ ﷺ: «فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ»(١).

٣٦٨-لَكِنْ أُولُو التَّعْطِيلِ مِنْهُمْ أَصْبَحُوا مَرْضَى بِدَاءِ الْـجَهْلِ وَالْـخِذْلَانِ

يشير إلى أن أهلَ التعطيل الذين سبق ذِكْرُهم، هؤلاء -والعياذ بالله- أصبحوا مرضى بداء الجهل والخِذْلان.

٣٦٩- فَسَــأَلْتُ عَـنْهُمْ رُفْقَتِـي وَأَحِبَّتِـي أَصْحَابَ جَهْمٍ حِزْبَ جِنْكِزْخَانِ(٢)

هذا الرجل كأنه في أول الأمر مِن الجَهْمِيَّة ثُمَّ دُلَّ على أهل الحديث.

٣٧٠- مَنْ هَؤُلَاءِ وَمَـنْ يُقَـالُ لَـهُمْ فَقَـدْ جَــاءُوا بِـأَمْرٍ مَالِــئِ الْآذَانِ

قَوْلُهُ: «مَالِـئِ الآذَانِ» يعني: أنَّ الآذان لا تسمع لغيره، لأنها امتلأت

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه وهل يعرض على الصبي الإسلام، رقم (١٣٥٨). ومسلم: كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين، رقم (٢٦٥٨).

(٢) جنكزخان: السلطان الأعظم للتتر أبو ملوكهم ولد سنة (٥٥٨هـ)، وكان ابتداء ملكه سنة (٥٩٩هـ)، وحصل من جيوشه من الفساد والدمار لبلاد المسلمين ما يشيب له المولود، ويتحير منه الحليم، وهلك سنة (٦٢٤هـ) عن ٦٦ سنة بعد أن خلف امبراطورية كبيرة حيث تمت له السيطرة على شمال الصين سنة (٦١٠هـ) والاستيلاء على تركستان وإيران وروسيا حتى وصلت سيطرته إلى الخليج العربي، وغزا ابنه أوروبا حتى وصل ألمانيا والمجر سنة (٦٣٩هـ)، وأسس حفيده الامبراطورية المغولية في الصين، واتخذ بكين عاصمة له، وكان المغول وثنيين ثم إن بعضهم دخل في الإسلام وأسسوا الامبراطورية المغولية الإسلامية في الهند، ومنغوليا التي ظهر منه التتر إقليم في شرق آسيا يقع بين سيبريا والصين. [الشارح].

واقتنعت، ولا يمكن أن يدخلها شيءٌ آخر سواه.

٣٧١- وَلَـهُمْ عَلَيْنَا صَوْلَةٌ مَا صَالَـهَا ... ذُو بَاطِلٍ، بَلْ صَاحِبُ الْبُرْهَانِ

قَوْلُهُ: «لَـهُمْ عَلَيْنَا» أي: لأهل الحديث صولة عظيمة، ما صالها أحدٌ إِلَّا صاحب البرهان، فإنه يصول ببرهانه ودليله.

٣٧٢- أَوَمَا سَمِعْتُمْ قَوْلَـهُمْ وَكَلَامَهَمْ ... مِثْلَ الصَّوَاعِقِ لَيْسَ ذَا لِـجَبَانِ

يعني أن قولَهم لا يمكن دفُعه، وقولُهم قاضٍ على كُلِّ ما يقوله أهلُ التعطيل.

وهذا الذي ذكره ابنُ القيم -رحِمه الله- على هذه الصفة مِن باب التمثيل، لأنَّ التمثيل بمِثل هذه الأمور الحِسِّيَّة للأمور المعنوية يُعطي الكلام جمالًا.

٣٧٣- جَاءُوكُمُ مِنْ فَوْقِكُمْ وَأَتَيْتُمُ ... مِنْ تَحْتِهِمْ، مَا أَنْتُمُ سِيَّانِ

أيهما أبلغ: أن يأتيك الإنسان مِن فَوقَ، أو مِن تحت؟ الجواب: مِن فوق، ولهذا إذا جاء العدو مِن فوق سَيْطَرَ عليك بلا شك، وفرقٌ عظيم بين أن يرمَيك مِن أعلى الجبل، وأنت ترميه مِن أسفل.

فيقول: إِنَّ هؤلاء أَتَوْكُم مِن فوقُ، وأنتم أتيتموهم مِن تحتُ، فما هذان سِيَّيْنِ

٣٧٤- جَاءُوكُمُ بِالْوَحْيِ لَكِنْ جِئْتُمُ ... بِنُحَاتَةِ الْأَفْكَارِ وَالْأَذْهَانِ

وأيهما أبلغ؟ الجواب: مَنْ جاء بالوحي.

* * *

٣٧٥- قَـالُوا مُشَـبِّهَةٌ مُجَسِّـمَةٌ فَـلَا تَسْـمَعْ مَقَـالَ مُجَسِّـمٍ حَيَـوَانِ

٣٧٦-وَالْعَـنْهُمُ لَعْنًـا كَبِـيرًا[1] وَاغْـزُهُمْ بِعَسَـاكِرِ التَّعْطِيـلِ غَـيْرَ جَبَـانِ

٣٧٧- وَاحْكُمْ بِسَفْكِ دِمَائِهِمْ وَبِحَبْسِهِمْ أَوْ لَا فَشَـرِّدْهُمْ عَـنِ الْأَوْطَـانِ

٣٧٨- حَذِّرْ صِحَابَكَ مِنْهُمْ فَهُمُ أَضَلْ لُ مِنَ الْيَهُودِ وَعَابِدِي الصُّلْبَانِ

٣٧٩- وَاحْـذَرْ تُجَادِلُـهُمْ بِقَـالَ اللهُ أَوْ قَـالَ الرَّسُـولُ فَتَنْثَنِـي بِهَـوَانِ

٣٨٠- أَنَّـى وَهُـمْ أَوْلَى بِـهِ قَـدْ أَنْفَـذُوا فِيـهِ قُـوَى الْأَذْهَـانِ وَالْأَبْـدَانِ

٣٨١- فَإِذَا ابْتُلِيتَ بِهِمْ فَغَالِطْهُمْ عَلَى التْـ تَأْوِيـلِ لِلْأَخْبَـارِ وَالْقُـرْآنِ

٣٨٢- وَكَذَاكَ غَالِطْهُمْ عَلَى التَّكْذِيبِ لِلْـ آحَـادِ، ذَانِ لِصَحْبِنَا أَصْلَانِ

الشرحُ

٣٧٥- قَـالُوا مُشَـبِّهَةٌ مُجَسِّـمَةٌ فَـلَا تَسْـمَعْ مَقَـالَ مُجَسِّـمٍ حَيَـوَانِ

قَوْلُهُ: «قَالُوا: مُشَبِّهَةٌ مُجَسِّمَةٌ» القائلُ أهلُ التعطيل مِنَ الجَهْمِيَّة وغيرهم، فهُم يقولون عن أهل الحديث: إنهم مُشَبِّهَةٌ مُجَسِّمَةٌ، مُشَبِّهَةٌ، لأنهم أثبتوا الصفات، وادَّعى هؤلاء المعطِّلة أنَّ كُلَّ مَن أثبت لله صفةً فقد مَثَّله بخَلْقِه إذا كان للمخلوق مِثْلُها، هكذا قاعدتهم، وقالوا: مُجَسِّمَةٌ، لأنه سبق لنا الكلامُ في هذا، وبَيَّنَّا أَنَّ التجسيم لم يَرِدْ إثباتُه، ولا نفيُه في القرآن والسُّنَّة، وأنه حادثٌ، وأنَّ لفظه لا يَثْبُتُ، أمَّا معناه فيُسْتَفْصَلُ فيه.

---

(١) في نسخة برلين: «كثيرًا».

قَوْلُهُ: «فَلَا تَسْمَعْ مَقَالَ مُجَسِّمٍ حَيَوَانِ» لا تسمع مقالته، فإنه حيوان، يعني كالبهائم.

وهذا خطأ، فهم المستحِقُّون لهذا الوصف.

٣٧٦-وَالْعَنْهُمُ لَعْنًا كَبِيرًا وَاغْزُهُمْ بِعَسَاكِرِ التَّعْطِيلِ غَيْرَ جَبَانِ

هذا مِن شِيَم أهل التعطيل، وأهل البِدعة أنهم يُقَابِلونَ أهلَ السُّنَّة بالشتائم واللعنات، وأهل السُّنَّة لا يقابلونهم بهذا، أهلُ السُّنَّة لا تسمع لهم لعنًا لأهل البدع، وإنما يقابلونهم بالأدلة الدالة على إثبات الحقِّ وإبطال الباطل، أما هؤلاء فليس عندهم إلَّا الصِّياحُ، واللعنُ، والسَّبُّ، والشتم.

قَوْلُهُ: «وَاغْزُهُمْ بِعَسَاكِرِ التَّعْطِيلِ» الذي يغزو بعساكر التعطيل مخذولٌ على كل حال، وعساكر التعطيل هم أهل التعطيل جميعهم.

قَوْلُهُ: «غَيرَ جَبَانِ» يعني: كن غير جبان، هو يدَّعِي الآن أنه بطل، وأنه شجاع، وأنَّ معه أُمَـمًا، ولكن ما أسرعَ أن يُخْذَلَ.

٣٧٧-وَاحْكُمْ بِسَفْكِ دِمَائِهِمْ وَبِحَبْسِهِمْ أَوْ لَا فَشَرِّدْهُمْ عَنِ الْأَوْطَانِ

ثم أمروا بهذا الحكم وهو (سَفْك دِمَائِهِمْ وَبِحَبْسِهِمْ أَوْ لَا فَشَرِّدْهُمْ عَنِ الْأَوْطَانِ).

وهذا كما قال الله عزَّ وجلَّ عن قريش: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [الأنفال:٣٠] هذا الشيء نفسُه، فهم يطالبون بِقَتْل أهل السُّنَّةِ، يعني: أهلَ الحديث، فهذا حُكْم، أو حبسهم، يعني: حبسًا مُؤَبَّدًا، وهذا حُكمٌ آخر.

والثالث: «أَوْ لَا» يعني: إن لم تحكم بهذا، ولا بهذا فشرِّدهم عن الأوطان،

فهذا حُكْمٌ صَادِرٌ مِن أصحاب الجهم وأصحاب جَنْكِزخان على أَهْلِ السُّنَّة والجماعة. نسأل الله العافية.

٣٧٨- حَذِّرْ صِحَابَكَ مِنْهُمُ فَهُمُ أَضَلُ ... لُ مِنَ الْيَهُودِ وَعَابِدِي الصُّلْبَانِ

نسأل الله العافية! حذِّر أصحابَك مِن أهل الحديث، فهُم أَضَلُّ مِن اليهود والنَّصارى! والنَّصارى هم عابدو الصلبان، فهم يقولون عن أهل السُّنَّة والجماعة هذا، حتى يُنَفِّرُوا الناسَ منهم.

٣٧٩- وَاحْذَرْ تُجَادِلُهُمْ بِقَالَ اللهُ أَوْ ... قَالَ الرَّسُولُ فَتَنْثَنِي بِهَوَانِ

يعني: لا تستدلّ عليهم بقال الله وقال رسوله، لأنك لن تجدَ دليلًا، وسوف تكون مهزومًا، لأنَّ معهم الكتابَ والسُّنَّةَ، لكن نجادلهم بما يدّعونه عقلًا بالهذيان الذي لا خير فيه.

أما أن تقول لهم: الدليلُ قولُ الله تعالى فسوف (تَنْثَنِي بِهَوَانِ)، يعني: تنهزم وتكون مغلوبًا.

٣٨٠- أَنَّى وَهُمْ أَوْلَى بِهِ قَدْ أَنْفَذُوا ... فِيهِ قُوَى الْأَذْهَانِ وَالْأَبْدَانِ

قَوْلُهُ: «أَنَّى» يعني: كيف تجادلهم بقال الله وقال الرسول ﷺ (وَهُمْ أَوْلى بِهِ) يعني: كيف تجادلهم وهم أولى به منك؟! أولى بقال اللهُ وقال رسولُه صلى الله عليه وسلم.

قَوْلُهُ: «أَنْفَذُوا فِيهِ قُوَى الأَذْهَانِ وَالأَبْدَانِ» قوى الأبدان: يسهرون الليل، ويتعبون النهار في حفظ الحديث، والبحث فيه، وكذلك أيضًا قُوى الأذهان في التأمل -جزاهم الله خيرًا- كيف تجادلهم بها وهم أَوْلى بها منك؟!

٣٨١- فَإِذَا ابْتُلِيْتَ بِهِمْ فَغَالِطْهُمْ عَلَى التْـ ... تَأْوِيـــلِ لِلْأَخْبَـــارِ وَالْقُـــرْآنِ

قَوْلُهُ: «فإِذَا ابْتُلِيتَ بِهِمْ» أي: بأهل الحديث، يعني إذا قَدَّر اللهُ عزَّ وجلَّ أن تجلسَ وإِيَّاهم في مجلس، فهذه على رأيه بَلْوى، فماذا تصنع؟

يقول: «فَغَالِطْهُمْ عَلَى التَّأْوِيلِ لِلْأَخْبَارِ وَالْقُرْآنِ» يعني: قلِ: المرادُ بكذا كذا، المراد بـ ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر:٢٢] أي: جاء أمر ربك، والمراد بـ ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة:٢١٠] أي: يأتي أمر الله، كما قال تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَ﴾ [النحل:٣٣] ويُشَبِّهون ويُلَبِّسُون، فيقولون هذا الكلام، ويؤولون بحُجة أنَّ القرآن يُفَسِّر بعضه بعضًا، وأنَّ الآية الأخيرة تُفَسِّرُ ما سبق.

فنقول: لو كان في الآية المذكورة إجمال، أو توجد احتمالات، لقلنا: القرآن يُفَسِّرُ بعضُه بعضًا، لكن قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر:٢٢] هذه آية واضحة لا تحتاج إلى أن نحملها على الأخرى.

ويُقال: هذا الذي ذكرتم إنما نحتاج إليه إذا كان في الآية إجمال فسَّرته الآية الأخرى.

طبعًا ربما يصيحون في وجه الإنسان حتى ينهزم، ولكنهم مخذولون، والحمد لله على كُلِّ حال.

وَقَوْلُهُ: «فَغَالِطْهُمْ عَلَى التَّأْوِيلِ للأَخْبَارِ وَالْقُرْآنِ» هذا واحد.

٣٨٢- وَكَذَاكَ غَالِطْهُمْ عَلَى التَّكْذِيبِ لِلْـ ... آحَـــادِ، ذَانِ لِصَـــحْبِنَا أَصْـــلَانِ

فصاروا يوصي بعضهم بعضًا بالمغالطة، إما بالتأويل إذا لم يمكنهم تكذيب النصِّ، لأنهم لو جاءوا بآية، فلا تستطيع أن تكذبها، فما العمل، يقول: أَوِّل، وإذا جاءوا بحديث متواتر، فلا تستطيع أن تُكذِّبَهم أيضًا، ولذا فأَوِّل.

أو بالتكذيب إذا كان الخبرُ خبرَ آحاد، وقل: هذا كَذِب، ولذلك عند هؤلاء المتكلمين المعطِّلة لا يُستدلُّ بأخبار الآحاد في العقائد مهما كانت صِحَّتُها، فصار يَرُدُّ على أهل السنَّة بالتأويل -إن لم يمكن التكذيب- وبالتكذيب إذا كان الخبرُ خبرَ آحادٍ، ويقول: هذان أصلان لأصحابنا. وبئس الأصلان.

لكن ما المراد بالتأويل هنا؟ الجواب: فيما نرى أنَّ تأويل هؤلاء يعني: التَّحريف.

* * *

٣٨٣- أَوْصَى بِهَا أَشْيَاخَنَا أَشْيَاخُهُمْ ... فَاحْفَظْهَا بِيَدَيْكَ وَالْأَسْنَانِ

٣٨٤- وَإِذَا اجْتَمَعْتَ وَهُمْ بِمَشْهَدِ مَجْلِسٍ ... فَابْدُرْ بِإِيرَادٍ وَشَغْلِ زَمَانِ

٣٨٥- لَا يَمْلِكُوهُ عَلَيْكَ بِالْآثَارِ وَالْـ ... أَخْبَارِ وَالتَّفْسِيرِ لِلْفُرْقَانِ

٣٨٦- فَتَصِيرَ -إِنْ وَافَقْتَ- مِثْلَهُمُ، وَإِنْ ... عَارَضْتَ زِنْدِيقًا أَخَا كُفْرَانِ

٣٨٧- وَإِذَا سَكَتَّ[1] يُقَالُ: هَذَا جَاهِلٌ ... فَابْدُرْ وَلَوْ بِالْفَشْرِ وَالْهَذَيَانِ

٣٨٨- هَذَا الَّذِي أَوْصَى بِهِ أَشْيَاخُنَا ... فِي سَالِفِ الْأَوْقَاتِ وَالْأَزْمَانِ[2]

الشرحُ

٣٨٣- أَوْصَى بِهَا أَشْيَاخَنَا أَشْيَاخُهُمْ ... فَاحْفَظْهَا بِيَدَيْكَ وَالْأَسْنَانِ

قَوْلُهُ: «أَوْصَى بِهَا أَشْيَاخَنَا أَشْيَاخُهُمْ» أي: بهذين الأصلين، وهما: التأويل الذي هو تحريف، والتكذيب.

(١) في نسخة الإفتاء: «سئلت».

(٢) في نسخة الحلبي: هَذَا الَّذِي -والله- أَوْصَانا بِهِ ... أَشْيَاخُنَا فِي سَالِفِ الْأَزْمَانِ

قَوْلُهُ: «فَاحْفَظْهُمَا بِيَدَيْكَ والأَسْنَانِ» يعني: أمسِكْهُما باليدين وبالأسنان، لكي يكون الإمساك قويًّا ثلاثيًّا، قال النَّبِيُّ ﷺ في سننه: «تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ»(١). فهؤلاء أوصوا بالتمسك بما هُم عليه مِن الباطل والعَضّ عليه بالأسنان.

٣٨٤- وَإِذَا اجْتَمَعْتَ وَهُمْ بِمَشْهَدِ مَجْلِسٍ فَابْـدُرْ بِـإِيرَادٍ وَشَـغْلِ زَمَـانِ

يعني: إذا اجتمعتَ في مجلس معهم بادِرْ أنت، بادر بإيرادات، لو قال قائل كذا فالجواب كذا، اشغل المجلس بهذه الإيرادات أو بـ(السواليف) كما يقول العوامّ، فلا تجعلهم هم الذين يبدؤون، لأنهم إن بدؤوا فهي مشكلة، لكن ابدأ أنت بالتكلُّم، وهذا كما صنعه حذيفةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما أرسله النَّبِيُّ ﷺ إلى الأحزاب ليسبُرَ القومَ، فوجد أبا سفيان ومَن حولَه وكأنهم خافوا، فقال أبو سفيان: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، لِيَنْظُرِ امْرُؤٌ مَنْ جَلِيسُهُ، فَقَالَ حُذَيْفَةُ: فَأَخَذْتُ بِيَدِ الرَّجُلِ الَّذِي إِلَى جَنْبِي، فَقُلْتُ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: أَنَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ(٢).

فهو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بادَر، وهذه مِن السياسة، وهؤلاء أوصَوْا أصحابهم أن يبادروا بالكلام، حتى يسيطروا على المجلس.

٣٨٥- لَا يَمْلِكُـوهُ عَلَيْـكَ بِالْآثَـارِ وَالْـ أَخْبَـارِ وَالتَّفْسِـيرِ لِلْفُرْقَـانِ

يعني: إن بدؤوا فسوف يبدؤون بالآثار مِن الكتاب والسنّة والأَخْبَارِ والتفسِيرِ للفُرْقَانِ.

---

(١) أخرجه أحمد (٢٨/ ٣٧٣، رقم ١٧١٤٤)، وأبو داود: كتاب السنة، باب في لزوم السنة، رقم (٤٦٠٧).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، رقم (٧)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام، رقم (١٧٧٣).

٣٨٦- فَتَصِيرَ -إِنْ وَافَقْتَ- مِثْلَهُمُ، وَإِنْ عَارَضْتَ زِنْدِيقًا أَخَا كُفْرَانِ

صحيح، إذا بدؤوا بالكتاب والسُّنَّة، فإنْ وافقَهم صار مِثلَهم مُجَسِّمًا مُشَبِّهًا، وإن خالفهم، فهو كافرٌ زِنديق عند أهل المجلس الآخرين، لأنه خالف الكتاب والسُّنة، فهذه سياسةٌ في باب المجادلة، أنك إذا اجتمعت مع شخص باطل فابدأ أنت، حتى يكون مقامُه مقامَ مُدافع، لا مقام مهاجم.

٣٨٧- وَإِذْا سَكَتَّ يُقَالُ: هَذَا جَاهِلٌ فَابْدُرْ وَلَوْ بِالْفَشْرِ وَالْهَذَيَانِ

قَوْلُهُ: «وإذْا سَكَتَّ» هذا هو الاحتمال الثالث.

الاحتمال الأول: أن يوافق، فيكون ممثِّلًا مُجَسِّمًا.

الاحتمال الثاني: أن يُعارض، فيكون زنديقًا ملحدًا.

الاحتمال الثالث: أن يسكت، وإن سكت قالوا: هذا جاهل.

قَوْلُهُ: «فَابْدُرْ» يعني: بادر أنت.

قَوْلُهُ: «ولوْ بِالفَشْرِ والهَذَيَانِ» الفَشْر يعني: الكذب.

وهذه وصايا لا شكَّ أنها وصايا نافعة لو كانت في حقٍّ، أما إذا كانت في باطل فهي باطلة.

٣٨٨- هَذَا الَّذِي أَوْصَى بِهِ أَشْيَاخُنَا فِي سَالِفِ الْأَوْقَاتِ وَالْأَزْمَانِ

فانظر إلى هذا الحزب كيف أوصوْا صاحبَهم بأن يكون الكلامُ له أوَّلًا، فَإِنْ مَلَكُوه عليه فلْيَحْذَرْ، لأنه لا تخلو حالُه مِن الاحتمالات الثلاثة السابقة.

* * *

٣٨٩- فَرَجَعْتُ مِنْ سَفَرِي، وَقُلْتُ لِصَاحِبِي وَمَطِيَّتِي قَدْ آذَنَتْ بِحِرَانِ

٣٩٠- عَطِّلْ رِكَابَكَ وَاسْتَرِحْ مِنْ سَيْرِهَا مَا ثَمَّ شَيْءٌ غَيْرُ ذِي الْأَكْوَانِ

٣٩١- لَوْ كَانَ لِلْأَكْوَانِ رَبٌّ خَالِقٌ كَانَ الْمُجَسِّمُ صَاحِبَ الْبُرْهَانِ

٣٩٢- أَوْ كَانَ رَبٌّ بَائِنٌ عَنْ ذِي الْوَرَى كَانَ الْمُجَسِّمُ صَاحِبَ الْإِيمَانِ

٣٩٣- وَلَكَانَ عِنْدَ النَّاسِ أَوْلَى الْخَلْقِ بِالْـ إِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ وَالْإِحْسَانِ

٣٩٤- وَلَكَانَ هَذَا الحِزْبُ فَوْقَ رُءُوسِهِمْ لَمْ يَخْتَلِفْ مِنْهُمْ عَلَيْهِ اثْنَانِ

٣٩٥- فَدَعِ التَّكَالِيفَ الَّتِي حُمِّلْتَهَا وَاخْلَعْ عِذَارَكَ وَارْمِ بِالْأَرْسَانِ

٣٩٦- مَا ثَمَّ فَوْقَ الْعَرْشِ مِن رَبٍّ وَلَمْ يَتَكَلَّمِ الرَّحْمَنُ بِالْقُرْآنِ

٣٩٧- لَوْ كَانَ فَوْقَ الْعَرْشِ رَبٌّ نَاظِرٌ لَزِمَ التَّحَيُّزُ وَافْتِقَارُ مَكَانِ

٣٩٨- لَوْ كَانَ ذَا الْقُرْآنُ عَيْنَ كَلَامِهِ حَرْفًا وَصَوْتًا كَانَ ذَا جُثْمَانِ

٣٩٩- فَإِذَا انتَفَى هَذَا وَهَذَا مَا الَّذِي يَبْقَى عَلَى ذَا النَّفْيِ مِنْ إِيمَانِ؟!

٤٠٠- فَدَعِ الْحَلَالَ مَعَ الْحَرَامِ لِأَهْلِهِ فَهُمَا السِّيَاجُ لَهُمْ عَلَى الْبُسْتَانِ

٤٠١- فَاخْرِقْهُ ثُمَّ ادْخُلْ تَرَى فِي ضِمْنِهِ قَدْ هُيِّئَتْ لَكَ سَائِرُ الْأَلْوَانِ

٤٠٢- وَتَرَى بِهَا مَا لَا يَرَاهُ مُحَجَّبٌ مِنْ كُلِّ مَا تَهْوَى بِهِ زَوْجَانِ

٤٠٣- وَاقْطَعْ عَلَائِقَكَ الَّتِي قَدْ قَيَّدَتْ هَذَا الْوَرَى مِنْ سَالِفِ الْأَزْمَانِ

٤٠٤- لِتَصِيرَ حُرًّا لَسْتَ تَحْتَ أَوَامِرٍ كَلَّا وَلَا نَهْيٍ وَلَا فُرْقَانِ

الشرحُ

٣٨٩- فَرَجَعْتُ مِنْ سَفَرِي، وَقُلْتُ لِصَاحِبِي وَمَطِيَّتِي قَدْ آذَنَتْ بِحِرَانِ

قَوْلُهُ: «وَمَطِيَّتِي قَدْ آذَنَتْ» يعني: أَعْلَمَتْ بِحِران، والحِران هو الوقوف مِن التعب والإعياء، بحيث لا تستطيع الدابة أن تمشي.

يقول:

٣٩٠- عَطِّلْ رِكَابَكَ وَاسْتَرِحْ مِنْ سَيْرِهَا مَا ثَمَّ شَيْءٌ غَيْرُ ذِي الْأَكْوَانِ

قَوْلُهُ: «عَطِّلْ رِكَابَكَ» هذا مقول القول في البيت السابق.

وهذا يريد -وهو صاحبٌ غاشٌّ أشدَّ الغِشِّ- مِن صاحبه أن يُنكر الرَّبَّ عزَّ وجلَّ، ويقول: لا يوجد ربٌّ أصلًا، فلا توجد إلا هذه الأكوان، أرضٌ تَبلع، وأرحامٌ تدفع.

٣٩١- لَوْ كَانَ لِلْأَكْوَانِ رَبٌّ خَالِقٌ كَانَ الْـمُجَسِّمُ صَاحِبَ الْبُرْهَانِ

يعني لو ثبت أنَّ للخَلق خالقًا، صار المُجَسِّم -وهو المُثبت للصفات- هو صاحب البرهان، أي: صاحب الدليل. فهو يقول: لو كان هذا أمرًا ثابتًا لكان الحقُّ مع أهل التجسيم، وأهل التجسيم هُم أهل السُّنَّة والجماعة.

فنقول: الحمد لله، الإيمان بوجود الله عزَّ وجلَّ أمرٌ فِطْرِيٌّ، لا ينكره أحدٌ إلَّا مكابرةً، وبناءً على ذلك يكون الحقُّ مع المُثْبِتَة بإقرار هذا الزنديق.

٣٩٢- أَوْ كَانَ رَبٌّ بَائِنٌ عَنْ ذِي الْوَرَى كَانَ الْـمُجَسِّمُ صَاحِبَ الْإِيمَانِ

قَوْلُهُ: «بائِنٌ» يعني: أنَّ الخالقَ شيءٌ والمخلوقَ شيءٌ آخر.

٣٩٣- وَلَكَانَ عِنْدَ النَّاسِ أَوْلَى الْـخَلْقِ بِالْـ إِسْـلَامِ وَالْإِيـمَانِ وَالْإِحْسَانِ

والواقع أن هذا هو الحقُّ، أنَّ للعَالَـمِ خالقًا، وأنَّ له ربًّا بائنًا مِن خَلقه عزَّ وجلَّ، وأنَّ الحقَّ مع المُثْبِتَة الذين يُسمِّيهم هؤلاء مُجَسِّمَةً.

٣٩٤- وَلَكَانَ هَذَا الحِزْبُ فَوْقَ رُءُوسِهِمْ لَـمْ يَخْتَلِفْ مِـنْهُمْ عَلَيْـهِ اثْنَـانِ

ونقول: نعم، هو فوق رءوسهم معنًى لا شكَّ، وحِسًّا هو الأصل، فالأصل أنَّ العاقبةَ للمتقين، وأنَّ أنصارَ الرحمن هم الأَعْلَوْن، لكن قد يَتَخَلَّف هذا، إما لفوات الشرط أو وجود مانع، أو لعقوبة يجعلها اللهُ عزَّ وجلَّ لأعداء المسلمين تأديبًا لهم.

٣٩٥- فَـدَعِ التَّكَـالِيفَ الَّتِـي حُمِّلْتَهَـا وَاخْلَـعْ عِـذَارَكَ وَارْمِ بِالْأَرْسَـانِ

قال في (القاموس)[1]: العِذار مِنَ اللِّجام: ما سال على خَدِّ الفَرَس.

يقول: انسلِخْ مِن الإسلام ودعِ التكاليف **(وَاخْلَعْ عِذَارَكَ وَارْمِ بِالأَرْسَانِ)** يعني: اخلع الرَّسَن الذي تقود به الحِصان، وارْمِ به بالأرض، ونَمْ نَومةً، لكنها نومة خِزْيٍ، وليست نومةَ راحةٍ.

٣٩٦- مَا ثَمَّ فَوْقَ الْعَرْشِ مِـن رَبٍّ وَلَـمْ يَـتَكَلَّمِ الـرَّحْمَنُ بِـالْقُرْآنِ

هؤلاء نُفاةُ الفَوقية، ونُفاة الكلام، مِثل الجَهْمِيَّة ينكِرون عُلوَّ الله عزَّ وجلَّ، وينكرون أن يكونَ تَكلَّمَ بالقرآن، بل خَلَقَ القرآنَ عندهم.

٣٩٧- لَوْ كَـانَ فَـوْقَ الْعَـرْشِ رَبٌّ نَـاظِرٌ لَـزِمَ التَّحيُّـزُ وَافْتِقَـارُ مَكَـانِ

قَوْلُهُ: «**لَو كَانَ فَوقَ العرشِ رَبٌّ نَاظِرٌ لَزِمَ التَّحَيُّزُ**» نقول: هذا التحيُّزُ الذي

---

(١) انظر: القاموس المحيط، مادة: عذر.

ألزمتم به أهلِ السُّنَّة ماذا تعنون به؟ أتعنون به أنه مُنْحَازٌ عن المخلوقات، بائنٌ منها؟ فهذا حَقٌّ لا شك فيه، أم تعنون: أنه محصور بمخلوق؟ فهذا باطل، وهذا باعتبار المعنى.

أما باعتبار اللفظ فما مَوقِفُنا منه؟ القاعدة: لا نُثْبِت ولا نَنْفِي، ونؤمن بأنَّ الله عزَّ وجلَّ مُنحازٌ عن المخلوقات، بائِنٌ منها، وليس شيءٌ يحوزه مِن مخلوقاته.

٣٩٨- لَـوْ كَـانَ ذَا القُـرْآنُ عَـيْنَ كَلَامِـهِ   حَرْفًـا وَصَـوْتًا كَـانَ ذَا جُـثْمَانِ

الضمير في (كَانَ) يعود على الله، يعني: لو كان القرآنُ عينَ كلام الله حرفًا وصوتًا، لكان الله (ذا جُثمان)، وهو قريبٌ مِن قوله: (جِسم)، وقد تَقَدَّم قولنا في الجِسم.

٣٩٩- فَـإِذَا انتَفَـى هَـذَا وَهَـذَا مَـا الَّـذِي   يَبْقَـى عَـلَى ذَا النَّفْـيِ مِـنْ إِيـمَانِ؟!

إذا انتفى أن يكون فوق العرش، وأن يكون القرآن كلامَه، فماذا يكون؟ الجواب: انتفتِ الربوبيةُ الحقُّ، وانتفى الوحيُ والشرعُ، وصار الناس لا يعملون بشرع الله، لأنَّ القرآن لو كان مخلوقًا إنْ نظرنا إلى الأصوات صارت هذه الأصوات كأنها زَمْجَرَةَ الرَّعْد، خلق الله أصواتًا على هذا النحو.

وإن كان مكتوبًا صار كأنه نُقُوش، لا يحتوي على أمرٍ، ولا نهيٍ، ولا خبرٍ، ولا استفهام، ما دام أنه مخلوق، فيكون كخَلْق الثُّرَيَّا مثلًا، نجومٌ مجتمِعة على شكلٍ مُعَيَّن، كذلك نقول: هذه حروف مجتمِعة على شكلٍ مُعيَّن، خلَقها الله هكذا.

وإن كان مجرد أصوات مخلوقة، صار كأنه الرعد والصواعق، ولا يدلُّ على شيء، ولذلك مَن قال: إنَّ القرآنَ مخلوقٌ، لزِم منه إبطالُ الشريعة كلها، فلا يحتوي على أمرٍ ولا نهيٍ، ولا استفهام، ولا خبر.

٤٠٠- فَدَعِ الْـحَلَالَ مَـعَ الْـحَرَامِ لِأَهْلِـهِ فَهُـمَا السِّـيَاجُ لَــهُمْ عَـلَى الْبُسْـتَانِ

قَوْلُهُ: «دَعِ الْـحَلَالَ مَعَ الحَرَامِ» يعني: لا تَقُل: هذا حلال أفعلُه، وهذا حرام أترُكه، ودَعْهُما: أي: دعْ الِالتزامَ بهما، افعَلْ ما تشاء، وكنْ حُرًّا، لأنَّ التحليل والتحريم هو السِّياج، والسياج هو الذي يُجْعَلُ مِن شَبَكٍ، أو نحوه على البستان ليحميَه مِن دُخول أحدٍ عليه.

ومعلوم أنَّ الذي يحمي العقيدة هو العمل بالحلال، واجتناب الحرام، فالحلال والحرام عبارة عن حائط يحوط الإيمان، ويمنعه مِن أن يناله سُوء مِن الخارج، ولذلك تجد الإنسانَ إذا ترك الحرامَ لله عزَّ وجلَّ يَقْوَى إيمانُه، وإذا فعَل الواجبَ تَقَرُّبًا لله يقوى إيمانُه، فهذه الحدود -كما سمَّاها الله حدودًا- تحفظ القلبَ، وكُلَّما كان هذا السياجُ أقوى كان الإيمانُ أحفظَ.

ولهذا نقول: إنَّ الأعمال الصالحة بمنزلة المطر يسقي الشجر، وشجرة الإيمان هي شجرةٌ في القلب، ولكن الأعمال الصالحة تُغَذِّيها وتُنَمِّيها، ولذلك كُلَّما عَمِل الإنسان عملًا صالحًا على الوجه المطلوب منه يجد أنَّ إيمانَه يقوى ويزداد، ويزداد قُربًا مِن الله عزَّ وجلَّ، فالأعمال الصالحة كالمياه للأشجار.

٤٠١- فَاخْرِقْهُ ثُمَّ ادْخُـلْ تَـرَى فِي ضِـمنِهِ قَـدْ هُيِّئَـتْ لَـكَ سَـائِرُ الْأَلْـوَانِ

يعني: اخرِق هذا السياجَ تجد كلَّ شيء أمامك مما تشتهيه نفسُك مِن حلال وحرام، ومما تَهْوَى مِن زخارف الدنيا ولَذَّاتها التي ليس لها حدود.

وهذا انسلاخٌ مِن العَمَل، وما سبق انسلاخٌ مِن العقيدة.

٤٠٢- وَتَـرَى بِهَـا مَـا لَا يَـرَاهُ مُحَجَّـبٌ   مِـنْ كُـلِّ مَـا تَهْـوَى بِـهِ زَوْجَـانِ

قَوْلُهُ: «زَوْجَانِ» أي: صِنْفَان.

محبوبٌ لِذاتِه، ومحبوبٌ لِغَيره، أزواج مِن اللَّعِب والشَّهَواتِ.

٤٠٣- وَاقْطَعْ عَلَائِقَـكَ الَّتِـي قَـدْ قَيَّـدَتْ   هَذَا الْـوَرَى مِـنْ سَـالِفِ الْأَزْمَـانِ

٤٠٤- لِتَصِـيرَ حُـرًّا لَسْـتَ تَحْـتَ أَوَامِـرٍ   كَـلَّا وَلَا نَهْـيٍ وَلَا فُرْقَـانِ

وهذا واضح أنه دعوة للإلحاد والتَّحلُّل مِن كُلِّ شيء، وحينئذٍ يكون الذي انتحل هذا الوصف زِنْدِيقًا مُلحِدًا، لا يَعترف بربٍّ، ولا بحلالٍ ولا بحرامٍ.

فانظُرْ كيف جرَّ التعطيل الناس الأذكياء إلى أن يكفروا بالله، لأنَّ هؤلاء الأذكياء فلاسفةٌ كما يُفهَم مِن كلام المؤلف، فهُم نظروا في مذهب أهل التعطيل، ووجدوه ليس بشيء، ونظروا في مذهب أهل السنَّة والجماعة ووجدوه -أيضًا على قول أهل التعطيل وتشويههم إيَّاه- غير صحيح أيضًا، فماذا قالوا؟

قالوا: لا نكون مع هؤلاء، ولا مع هؤلاء، إذنِ ارْمِ بالأصلين، واترك كُلَّ شيء، ولا تُحلِّل شيئًا، ولا تُحرِّم شيئًا، وكن طليقًا.

وهذا -والعياذ بالله- هو غاية الزَّنْدَقَة والجُحُود.

وَقَوْلُهُ: «لِتَصِيرَ حُرًّا» نقول: نعم هو حُرٌّ بالنسبة للشريعة، لكنه رقيق بالنسبة للشيطان، كما قال ابن القيم -رحمه الله- في هذه النونية:

هَرَبُوا مِنَ الرِّقِّ الَّذِي خُلِقُوا لَـهُ   وَبُلُـوا بِـرِقِّ الـنَّفْسِ وَالشَّـيْطَانِ

فقَوْلُهُ: «هَرَبُوا مِنَ الرِّقِّ الَّذِي خُلِقُوا لَهُ» هو عبادة الله.

فوالله ليس بحُرٍّ مَن تحلَّل مِن الشريعة، بل هو في غايةٍ مِن الرِّق، فالحرُّ هو الذي لا يخضع لأحد إلَّا لله عزَّ وجلَّ.

* * *

٤٠٥- لَكِنْ جَعَلْتَ حِجَابَ نَفْسِكَ إِذْ تَـرَى ... فَـوْقَ السَّـمَا لِلنَّـاسِ مِـنْ دَيَّـانِ

٤٠٦- لَـوْ قُلْـتَ: مَـا فَـوْقَ السَّـمَاءِ مُـدَبِّرٌ ... وَالْعَـرْشَ تُخْلِيـهِ مِـنَ الـرَّحْمَنِ

٤٠٧- وَاللهُ لَـيْسَ مُكَلِّـمًا لِعِبَـادِهِ ... كَـلَّا وَلَا مُـتَكَلِّمًا بِقُـرَانِ

٤٠٨- مَـا قَـالَ قَـطُّ وَلَا يَقـولُ وَلَا لَـهُ ... قَـوْلٌ بَـدَا مِنْـهُ إِلَى إِنْسَـانِ

٤٠٩- لَـحَلَلْتَ طَلْسَمَهُ[1] وَفُـزْتَ بِكَنْـزِهِ ... وَعَلِمْـتَ أَنَّ النَّـاسَ فِي هَـذَيَانِ

الشـرحُ

٤٠٥- لَكِنْ جَعَلْتَ حِجَابَ نَفْسِكَ إِذْ تَـرَى ... فَـوْقَ السَّـمَا لِلنَّـاسِ مِـنْ دَيَّـانِ

يعني: أنك جعلت الحجاب لنفسك عن الحرية أَنْ ترى فوق السماء إلـهًا يَدِين الناسُ له، ويتعبَّدون له.

فـ(الدَّيَّان) هنا (فَعَّال) بمعنى دائِن، يعني: هو الذي يجازي عبادَه، لأنَّ الدَّيَّان بمعنى المجازِي لعباده بما يستحقُّون.

٤٠٦- لَـوْ قُلْـتَ: مَـا فَـوْقَ السَّـمَاءِ مُـدَبِّرٌ ... وَالْعَـرْشَ تُخْلِيـهِ مِـنَ الـرَّحْمَنِ

٤٠٧- وَاللهُ لَـيْسَ مُكَلِّـمًا لِعِبَـادِهِ ... كَـلَّا وَلَا مُـتَكَلِّمًا بِقُـرَانِ

---

(١) في نسخة الحبي: «حِلَّسْمًا».

٤٠٨- مَا قَالَ قَطُّ وَلَا يَقُولُ وَلَا لَهُ قَوْلٌ بَدَا مِنْهُ إِلَى إِنْسَانِ

٤٠٩- لَحَلَلْتَ طَلْسَمَهُ وَفُزْتَ بِكَنْزِهِ وَعَلِمْتَ أَنَّ النَّاسَ فِي هَذَيَانِ

يعني: لو قلتَ هذا القول، وأنكرتَ هذا الإنكار لحُزْتَ على الصواب، وحللتَ الطِّلْسَم المُعَقَّد الذي لا يُدْرى ما الحقّ فيه، فلا ندري هل الحقّ مع أهل السنة الذين يُسَمِّيهم أهلُ التعطيل مُجَسِّمَةً، أو مع أهل التعطيل؟ فنحن في حَيرة.

إِذَنْ أَنْكِر، وكما يقول العوامّ: (لا نعرف شيئًا، فاطْوِهِ) فنحن ما خُلِقْنَا إلَّا لنتمتع، وما هي إلَّا حياتنا الدنيا نموت ونحيا، نسأل الله العافية.

يعني: لو اعتقدت هذه العقيدة الحقّ لكنتَ مُكَبَّلًا، فإذا تخلَّيْتَ منها حينئذٍ عرَفتَ حكمةَ الخَلق، وأسرار الخَلق، وأنَّ الناس الذين يتعبدون، ويقيدون أنفسهم بالعقيدة كُلُّهم في هَذَيان.

وهذا الكلام لا يقوله ابن القيم -رحمه الله-، وسيأتي -إن شاء الله- نقضُه، لكن أراد أن يبيِّنَ حالَ هذا الصاحب الذي عجَز أن يتحمَّل ما عليه السَّلَف، ثُمَّ قال لصاحبه: تحَلَّلْ.

* * *

٤١٠- لَكِنْ زَعَمْتَ بِأَنَّ رَبَّكَ بَائِنٌ مِنْ خَلْقِهِ إِذْ قُلْتَ: مَوْجُودَانِ

٤١١- وَزَعَمْتَ أَنَّ اللهَ فَوْقَ الْعَرْشِ وَالْـ ـكُرْسِيِّ حَقًّا فَوْقَهُ الْقَدَمَانِ

٤١٢- وَزَعَمْتَ أَنَّ اللهَ يَسْمَعُ خَلْقَهُ وَيَرَاهُمُ مِنْ فَوقِ سَبْعِ ثَمَانِ[1]

٤١٣- وَزَعَمْتَ أَنَّ كَلَامَهُ مِنْهُ بَدَا وَإِلَيْهِ يَرْجِعُ آخِرَ الْأَزْمَانِ

---

(١) في نسخة الشرح وابن سحمان: «ست ثمان».

٤١٤- وَوَصَفْتَهُ بِالسَّمْعِ وَالْبَصَـرِ الَّـذِي ... لَا يَنْبَغِـي إِلَّا لِـذِي الْـجُثْمَانِ

٤١٥- وَوَصَـفْتَهُ بِـإِرَادَةٍ وَبِقُـدْرَةٍ ... وَكَرَاهَـةٍ وَمَحَبَّـةٍ وَحَنَـانِ

٤١٦- وَزَعَمْـتَ أَنَّ اللهَ يَعْلَـمُ كُـلَّ مَـا ... فِي الْكَـوْنِ مِـنْ سِرٍّ وَمِـنْ إِعْـلَانِ

٤١٧- وَالْعِلْـمُ وَصْـفٌ زَائِـدٌ عَـنْ ذَاتِـهِ ... عَـرَضٌ يَقُـومُ بِغَـيْرِ ذِي جُـثْمَانِ

الشـرحُ

هذه الأشياء كُلُّها المذكورة في هذه الأبيات مِن مذهب أهل السُّنَّة والجماعة، فنحن نؤمن بها، لكنه يقول: (زعمتَ)، لأنه غيرُ مُصَدِّقٍ بهذا.

٤١٠- لَكِـنْ زَعَمْـتَ بِـأَنَّ رَبَّـكَ بَـائِنٌ ... مِـنْ خَلْقِـهِ إِذْ قُلْـتَ: مَوْجُـودَانِ

معنى ذلك أنه إذا أقرَّ الإنسان بأنَّ هنا موجودَيْن: خالقًا ومخلوقًا، لزِم أن يكون الخالقُ بائنًا مِن الخَلق، وليس إيَّاه، فنحن نؤمن بأنَّ الله بائنٌ مِن خَلقه، ويكون ثَمَّ موجودان: خالق ومخلوق.

٤١١- وَزَعَمْتَ أَنَّ اللهَ فَوْقَ الْعَـرْشِ وَالْـ ... ـكُرْسِيَّ حَقًّـا فَوْقَـهُ الْقَـدَمَانِ

هذا أيضًا مِن عقيدة أهل السنَّة والجماعة، أنَّ الله فوق العرش، وأنَّ الكرسِيَّ غيرُ العرش، لكنه موضع قَدَمَي الله عزَّ وجلَّ.

جاء ذلك في حديث ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا[1]، ومثل هذا لا يُقَالُ بالرأي، فله حُكمُ الرفع.

---

(١) أخرجه ابن خزيمة في التوحيد (١/ ٢٤٨)، والحاكم (٢/ ٢١٠) وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٩٢٨).

٤١٢- وَزَعَمْتَ أَنَّ اللهَ يَسْمَعُ خَلْقَهُ وَيَرَاهُمُ مِنْ فَوقِ سَبْعِ ثَمَانِ

ونحن نؤمن بأنَّ الله تعالى يسمع خَلقه، ولو كانوا في قاع البحر، ونؤمن بأنَّ الله عزَّ وجلَّ يراهم مِن فوق سبع سموات، وهو -سُبحانَه وتعالَى- على عرشه، لا يَخْفَى عليه شيءٌ مِن أفعالهم.

قَوْلُهُ: «مِنْ فَوقِ سَبْعِ ثَمانِ»، نقول: إنَّ سبع الثماني تشمل العرش والسموات السبع، لأنك إذا أضفت السموات السبع إلى العرش صار سبع ثمان.

وأما ما أشار إليه الشارح ابن عيسى -رحِمه الله- أنها سِت ثَمان، وقال: إنها الأرض والسماء، ففيه نظر، بل يقال: إنه مِن فوق سَبع ثَمان، أي: سَبع لها ثامِن، وهو العرش.

٤١٣- وَزَعَمْتَ أَنَّ كَلَامَهُ مِنْهُ بَدَا وَإِلَيْهِ يَرْجِعُ آخِرَ الْأَزْمَانِ

قَوْلُهُ: «وَزَعَمْتَ أَنَّ كَلَامَهُ» يريد بذلك خصوصَ القرآن الكريم، لأنَّ كلامَ الله عزَّ وجلَّ الذي هو كلامه لا مُنتهى له، لكن كلامه الذي هو القرآن (منه بدا) يعني: هو الذي تكلَّم به أولًا، وإليه يعود، وهذا كلام السلف -رحمهم الله-.

قَوْلُهُ: «مِنْهُ بَدَا» يعني: هو الذي ابتدأ الكلام به حقيقةً، وإضافتُه إلى الرسول محمد ﷺ، وإلى الرسول جبريل -عليه الصلاة والسلام- إضافَةُ تبليغٍ فقط.

فقد أضاف الله القرآن إلى جبريل -عليه السلام- في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۝١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ﴾ [التكوير:١٩-٢٠]، وأضافه إلى محمد ﷺ فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۝٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖ﴾ [الحاقة:٤٠-٤١] ولا يمكن أن يكون قولُ واحد لقائِلَيْن، لكن نقول: هذا قولُ تبليغ، وليس قولَ ابتداء، فقول القرآن ابتداءً مِن الله عزَّ وجلَّ، وجبريل -عليه السلام- قاله مُبَلِّغًا محمدًا ﷺ، ومحمد ﷺ قاله

مُبَلِّغًا أُمَّته كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة:٦٧].

أما قَوْلُهُ: «**وَإِلَيْهِ يَرْجِعُ**» أي: يعود، ففُسِّرت بمَعْنَيَيْن عند أهل السُّنَّة:

المعنى الأول: أنه يعود إلى الله وَصفًا، فلا يُوصَفُ به غيرُه، فيُقال: القرآنُ كلامُ الله.

المعنى الثاني: أنه يعود إليه حِسًّا، بمعنى أنه يُنْزَع في آخر الزمان، فيُرْفَع مِن المصاحف ويُنْسَى مِن الصدور، ويبقى الناس بلا قرآن -نعوذ بالله مِن هذه الحال- لا في الصدور، ولا في المسطور، وهذا -والله أعلم- إذا أعرض الناس عن القرآن إعراضًا كليًّا: لا تلاوةً، ولا عِملًا، ولا تصديقًا، فإنَّ مِن إكرام القرآن أن يُنْزَع، وألَّا يبقى بين قومٍ لا يرفعون به رأسًا، ولا يرون بمخالفته بأسًا.

ونظير ذلك الكعبة -زادها الله تشريفًا- في آخر الزمان، يُسَلَّطُ عليها رجلٌ مِن الحبشة، وصفه النَّبِيُّ ﷺ وصفًا دقيقًا، فيهدمها بجنوده، وينقضها حجرًا حجرًا[1]، لكن كيف ذلك مع أنَّ الله تعالى حَماها مِن الفيل وأهلها مشركون؟

نقول: حماها الله مِن الفيل، ومِن أَبْرَهَةَ مَلِك الحَبَشة حينما قَدِم لهدم الكعبة لأمر عَلِمَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ، وهو أنَّ هذا البيتَ المُعَظَّم سوف يكون فيه مَن يُعَظِّمه، لكن في آخر الزمان يَمتهن أهلُ مكةَ هذا البيت امتهانًا، لا يجعلون له حُرمة، وليس هناك مستقبلٌ له، فحينئذٍ يُسَلَّطُ عليه هذا الحَبَشِيُّ، وينقضه حجرًا حجرًا، ولا يناله أيّ سوء.

---

(١) بدلالة حديث النبي ﷺ: «يُخَرِّبُ الكَعْبَةَ ذُو السُّوَيْقَتَيْنِ مِنَ الحَبَشَةِ». أخرجه البخاري: كتاب الحج، باب قول الله تعالى: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلۡكَعۡبَةَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾، رقم (١٥١٤)، ومسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل، رقم (٢٩٠٩).

والقرآن مِثلها، إذا نُزِع تعظيمُه مِن القلوب، فلم يُتْلَ، ولم يُتبع، فإنَّ مِن كرامة هذا القرآن أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يرفعه، والله على كل شيء قدير.

لو قال قائل: كيف يُمْحَى مِن المصاحف؟

قلنا: الله أكبر، الذي خَلَق المصحفَ، وخَلَق مادةَ الكتابة والأوراق هو اللهُ عزَّ وجلَّ، فهو قادر على أن يمحوَه، أما ما في الصدور فالأمر ظاهر، هذا الإنسان يحفظ القرآن ويُتْقِنه، ثم ينسى منه ما شاء الله.

٤١٤- وَوَصَفْتَهُ بِالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ الَّذِي لَا يَنْبَغِي إِلَّا لِذِي الْجُثْمَانِ

ونؤمن أيضًا بأنَّ الله -سُبحانَه وتعالَى- موصوفٌ بالسمع والبصر، فالسمع والبصر قد وصف اللهُ بهما نفسَه فقال: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

هم قالوا: لا سَمْع، ولا بَصَر، لأنه لا يُوصَفُ بالسمع والبصر إِلَّا الجسمُ، وسبق الكلام في رَدِّ هذا.

٤١٥- وَوَصَفْتَهُ بِإِرَادَةٍ وَبِقُدْرَةٍ وَكَرَاهَةٍ وَمَحَبَّةٍ وَحَنَانِ

وهذا حقٌّ، **فدليل الإرادة** قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [الحج:١٤] **ودليل القُدرة** قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:٢٨٤] **ودليل الكراهة:** ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ﴾ [التوبة:٤٦] **ودليل المحبَّة:** ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [التوبة:٥٤] وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ [البقرة:٢٢٢].

فنؤمن بأنَّ مِن صفاته الإرادةَ والقدرةَ، والإرادة والقُدرة يؤمن بهما أيضًا الأشاعرة، ويؤمنون بالسمع والبصر، وأما الكراهة والمحبَّة، فينكرهما الأشاعرةُ وغيرُهم مِن أهل التعطيل، ويفسرونهما إما بالمخلوق، وإما بالإرادة، فيفسرونهما

بالإرادة، لأنهم يُثبتون الإرادة، أو بالمخلوق، لأنهم كلهم يُثبتون المخلوق.

فهم يقولون: إنَّ الله -مثلًا- يكره الكافرين، أي: يُعَذّبهم، أو يقولون: يريد تعذيبهم، ولا يثبتون الكراهة.

ولكن نقول لهم: ماذا تقولون في قوله: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ﴾ [التوبة:٤٦] هل يمكن أن يُفَسَّر (كَرِهَ) بمعنى (عَذَّب) انبعاثهم؟ الجواب: لا يستقيم، أو أراد تعذيبَ انبعاثِهم؟ الجواب: هذا أيضًا لا يستقيم.

قالوا: إن العقل لا يدلُّ على أن اللهَ يتصف بالكراهة، فنقول لهم: الجواب على ذلك مِن وجهين:

الوجه الأول: إذا فرضنا أنَّ العقلَ لا يدلُّ، فإنَّ السمعَ -يعني: الكتاب والسنّة- دلَّ على ذلك، والدليل لا يتعيَّنُ في دليل واحد، فقد يكون للشيء عدَّةُ أدلة، ولهذا فمن القواعد المعروفة -عندهم- أنَّ انتفاءَ الدليل المُعَيَّن لا يَسْتَلْزِمُ انتفاءَ المدلول، يعني: إذا انتفى هذا الدليل، فلا يمتنع أن يَثْبُتَ الشيءُ بدليل آخر.

فمثلًا: مكة لها طرق كثيرة، فإذا قَدَّرنا أنَّ أحد الطُّرق إليها مسدود، هل معناه امتناع الوصول إلى مكة؟ الجواب: لا، لأنه توجد طرق أخرى.

فإذا قدَّرنا أنَّ العقل -كما زعموا- لا يَدُلُّ على ثبوت الكراهة، فعندنا (النقل) أي: السمع.

الوجه الثاني: أن نقول: بل العقل يدلُّ على ثبوت الكراهة لله، فإنَّ انتقامَ الله مِن العاصين يدلُّ على كراهة المعصية، ولو كان يحبها هل يعذبهم؟ الجواب: أبدًا، وكذلك نقول في المحبة.

ولهذا فإن الأشاعرة وغيرهم ممن يُحَكِّمون العقل في صفات الله هم -بلا شك-

مخالفون للعقل، لأنَّ كونَ العقل دليلًا لم يثبت إِلَّا بطريق السمع، فإذا أنكروا دَلالةَ السمع لزِم إنكارُ دَلالة العقل.

ووجه كون العقل دليلًا بالسمع أنَّ الله عزَّ وجلَّ دائمًا يقول: ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:١٧١] ويقول: ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس:٢٤] وما أشبه ذلك.

قَوْلُهُ: «وحنان» الحنان هو خالص الرحمة، لكن لم يَرِدْ بهذا اللفظ، ولذلك في صحة اسم (الحنَّان) نظر، أما (المنَّان) فقد ثبتت به السُّنَّة[1].

٤١٦- وَزَعَمْــتَ أَنَّ اللهَ يَعْلَــمُ كُــلَّ مَــا فِي الْكَــوْنِ مِــنْ سِرٍّ وَمِــنْ إِعْــلَانِ

وهذا حقٌّ، قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام:٥٩]، ومتى كان في كتاب مُبِين، فهو معلوم عند الله عزَّ وجلَّ.

٤١٧- وَالْعِلْــمُ وَصْــفٌ زَائِــدٌ عَــنْ ذَاتِــهِ عَــرَضٌ يَقُــومُ بِغَــيْرِ ذِي جُــثْمَانِ

يعني: يرون أنَّ العِلمَ وصفٌ زائدٌ عن الذات، وإذا كان زائدًا عن الذات فَمَنْ أَثْبَته فقد أثبتَ تعدُّدَ القدماء.

---

(١) كما في حديث أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ المَسْجِدَ وَرَجُلٌ قَدْ صَلَّى وَهُوَ يَدْعُو وَيَقُولُ فِي دُعَائِهِ: اللَّهُمَّ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ المَنَّانُ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ذَا الجَلَالِ وَالإِكْرَام، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَتَدْرُونَ بِمَ دَعَا اللهَ؟ دَعَا اللهَ بِاسْمِهِ الأَعْظَمِ، الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ، وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى». أخرجه الترمذي: كتاب الدعوات، بعد باب في فضل التوبة والاستغفار وما ذكر من رحمة الله بعباده، رقم (٣٥٤٤)، والنسائي: كتاب السهو، باب الدعاء بعد الذكر، رقم (١٣٠٠)، وابن ماجه: كتاب الدعاء، باب اسم الله الأعظم، رقم (٣٨٥٨) قال الترمذي: هذا حديث غريب من هذا الوجه وقد روي من غير هذا الوجه عن أنس.

قَوْلُهُ: «عَرَضٌ يَقُومُ بغَيْرِ ذِي جُثْمَانِ» يعني: أنكم تقولون: إنَّ الله له عِلم، وتقولون: إنَّ الله ليس بجسم، وهذا على رأيه تناقُضٌ، فالعِلم لا يكون إلَّا مِن ذي جثمان.

* * *

٤١٨- وَزَعَمْتَ أَنَّ اللهَ كَلَّمَ عَبْدَهُ ... مُوسَى فَأَسْمَعَهُ نِدَا الرَّحْمَنِ

٤١٩- أَفَتَسْمَعُ الْآذَانُ غَيْرَ الحَرْفِ وَالصْـ ... ـصَوتِ الَّذِي خُصَّتْ بِهِ الْأُذْنَانِ[1]

٤٢٠- وَكَذَا النَّدَاءُ فَإِنَّهُ صَوْتٌ بِإِجْـ ... ـمَاعِ النُّحَاةِ وَأَهْلِ كُلِّ لِسَانِ

٤٢١- لَكِنَّهُ صَوْتٌ رَفِيعٌ وَهْوَ ضِدْ ... دٌ لِلنِّجَاءِ، كِلَاهُمَا صَوْتَانِ

٤٢٢- فَزَعَمْتَ أَنَّ اللهَ نَادَاه وَنَا ... جَاهُ، وَفِي ذَا الزَّعْمِ مَحْذُورَانِ

٤٢٣- قُرْبُ الْمَكَانِ وَبُعْدُهُ وَالصَّوْتُ بَلْ ... نَوْعَاهُ مَحْذُورَانِ مُمْتَنِعَانِ

الشرحُ

٤١٨- وَزَعَمْتَ أَنَّ اللهَ كَلَّمَ عَبْدَهُ ... مُوسَى فَأَسْمَعَهُ نِدَا الرَّحْمَنِ

ونقول: نعم، إنَّ الله كَلَّم موسى -عليه الصلاة والسلام- قال الله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء:١٦٤] (الله) فاعل، و(موسى) مفعول به، و(تكليمًا) مصدر مُؤَكِّد، والمصدر المؤَكِّد ينفي احتمال المَجاز، ولهذا بَطَلَ قولُ مَن حَرَّفَ المعنى إلى قوله: (كَلَّمَهُ) أي: جَرَّحَهُ، كيف جَرَّحَهُ؟ قال: نعم، جَرَّحَهُ بمخالب الحِكمة، وهذا جعله كقول الشاعر:

---

(١) في نسخ التيمورية والظاهرية والشرح: «الآذان».

وَإِذَا الْـمَنِيَّــةُ أَنْشَـبَتْ أَظْفَارَهَـا ... أَلْفَيْـتَ كُـلَّ تَـمِيمَةٍ لَا تَنْفَـعُ[(١)]

يقول: جرَّحه بمخالب الحِكمة، سبحان الله، ما هذا الكلام؟! قال: نعم، أليس الكَلْمُ في اللغة بمعنى الجَرْح، كما قال النَّبِيُّ ﷺ: «**مَا مِنْ مَكْلُومٍ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِ الله...**»[(٢)]؟ فيقال: بلى، لكن هل معناه أن نَحمل الكَلْم في كل موضع على الجَرح؟! الجواب: أبدًا.

لَـمَّا حَرَّفَ بعضُ الطغاة المبتدِعة الآية قال: (وَكَلَّمَ اللهَ موسى تكليمًا) لأجل أن يكون لفظ الجلالة مفعولًا به، ويكون الْمُتَكَلِّم هو موسى -عليه السلام-، فقيل له: ماذا تقول في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف:١٤٣]؟ فقَوْلُهُ: «**كَلَّمه**» لا يمكن أن يقول أحد: إنَّ (**الهاء**) في (**كَلَّمه**) فاعل، بل هي مفعول به، و(**رَبُّهُ**) فاعل، فَبُهِتَ الذي كفر.

٤١٩- أَفَتَسْمَعُ الْآذَانُ غَيْرَ الحَرْفِ وَالصْـ ... ـصَوتِ الَّذِي خُصَّتْ بِـهِ الْأُذُنَـانِ

٤٢٠- وَكَـذَا النَّـدَاءُ فَإِنَّـهُ صَـوْتٌ بِإِجْـ ... ـمَاعِ النُّحَـاةِ وَأَهْـلِ كُـلِّ لِسَـانِ

٤٢١- لَكِنَّـهُ صَـوْتٌ رَفِيـعٌ وَهْـوَ ضِـدْ ... دُ لِلنِّجَـاءِ، كِلَاهُمَـا صَـوْتَانِ

موسى -عليه السلام- كَلَّمَهُ رَبُّه بصوتين: مناداة ومناجاة، قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ [مريم:٥٢] فقال: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ﴾، والنداء يكون للبعيد، والمناجاة للقريب، ولهذا لو كان إلى جنبك رَجل وتكلَّمتَ إليه برفع صوت لأنكر عليك، ويقول: هل أنا بعيد؟! هل أنا أصمّ؟! لكن لو كان

(١) البيت لأبي ذؤيب الهُذلي، كما في الكامل للمبرد (٢/ ١٢٧).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب من يجرح في سبيل الله عزَّ وجلَّ، رقم (٢٨٠٣). ومسلم: كتاب الإمارة، باب فضل الجهاد والخروج في سبيل الله، رقم (١٨٧٦).

بعيدًا ثُمَّ ناديته بصوت خفي، لَقالَ: إنَّك لم تتكلَّمْ معي.

إِذَنْ المناداة للبعيد، والمناجاة للقريب.

وانظر إلى قوله: ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ﴾ ولـم يقل: (**تَقَرَّبنا إليه**) فموسى هو الذي قُرِّبَ إلى الله عزَّ وجلَّ فَسَمِعَ صوتَه.

٤٢٢- فَزَعَمْـــتَ أَنَّ اللهَ نَـــادَاه وَنَـــا جَـــاهُ، وَفِي ذَا الـــزَّعْمِ مَحْـــذُورَانِ

٤٢٣- قُرْبُ الْـمَكَانِ وَبُعْدُهُ ....

قَوْلُهُ: «**نَادَاه وَنَاجَاهُ**» وذلك في قوله تعالى: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾.

قَوْلُهُ: «**وَفِي ذَا الزَّعْمِ مَحْذُورَانِ**» يقول: في هذا محذوران، ثم ذَكَر المحذور الأول فقال: «**قُرْبُ المَكَانِ وَبُعْدُهُ**» لِقوله: ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ﴾.

إِذَنْ هو كان في الأول بعيدًا ثُمَّ قُرِّب، فالبُعد محذور، والقرب محذور أيضًا، لأنَّ الله لا يوصف بأنَّ بعضَ الخلق قريب إليه، والثانيَ بعيد.

وقد تقدَّمَ أنهم يقولون: إن العرش مِثل الفَرْش في القُرب إلى الله عزَّ وجلَّ، وإنهما سواء، وعلى هذا فلا فرق بين الجنة في أعلى عِلِّيِّين، والنار في أسفل سافلين، وسَبَق الكلام على هذا.

فيقول: أنت إذا قلت: إنَّ الله ناداه وناجاه لزِم المحذوران: القرب والبعد في المكان، وهما عند هذا المُعَطِّل سواء، فلا يوجدِ قُربٌ، ولا بُعدٌ.

المحذور الثاني: بالنسبة للصوت، فقال:

٤٢٣- .... وَالصَّوْتُ بَلْ نَوْعَـــاهُ مَحْـــذُورَانِ مُمْتَنِعَـــانِ

قَوْلُهُ: «والصَّوتُ بَلْ نَوْعَاهُ مَحْذُورَانِ مُمْتَنِعَانِ» الصوت: منه صوت رفيع، ومنه صوت منخفض، يقول: يمتنع على الله أن يكون له صوتٌ رفيع، وصوتٌ منخفض، لأنَّ هذا عنده لا يكون إلَّا لجسم، والكلام عنده هو المعنى القائم بالنفس، وليس المسموع مِن الله عزَّ وجلَّ.

فصار عنده محذوران الآن: قرب المكان وبعد المكان، رفع الصوت وخفض الصوت، وكلاهما -والحمد لله- ليس بمحذور عندنا، ولله تعالى أَنْ يفعلَ ما يشاء.

* * *

٤٢٤- وَزَعَمْتَ أَنَّ مُحَمَّدًا أَسْرَى بِهِ	لَيْلًا إِلَيْهِ، فَهْوَ مِنْهُ دَانِ
٤٢٥- وَزَعَمْتَ أَنَّ مُحَمَّدًا يَومَ اللِّقَا	يُدْنِيهِ رَبُّ الْعَرْشِ بِالرِّضْوَانِ
٤٢٦- حَتَّى يُرَى[1] الْمُخْتَارُ حَقًّا قَاعِدًا	مَعَهُ عَلَى الْعَرْشِ الرَّفِيعِ الشَّانِ
٤٢٧- وَزَعَمْتَ أَنَّ لِعَرْشِهِ أَطًّا بِهِ	كَالرَّحْلِ أَطَّ بِرَاكِبٍ عَجْلَانِ
٤٢٨- وَزَعَمْتَ أَنَّ اللهَ أَبْدَى بَعْضَهُ	لِلطُّورِ حَتَّى عَادَ كَالْكُثْبَانِ
٤٢٩- لَـمَّا تَجَلَّى يَومَ تَكْلِيمِ الرِّضَى	مُوسَى الْكَلِيمِ مُكَلَّمِ الرَّحْمَنِ
٤٣٠- وَزَعَمْتَ لِلْمَعْبُودِ وَجْهًا بَاقِيًا	وَلَهُ يَمِينٌ، بَلْ زَعَمْتَ يَدَانِ
٤٣١- وَزَعَمْتَ أَنَّ يَدَيْهِ لِلسَّبْعِ الْعُلَى	وَالْأَرْضِ يَوْمَ الْحَشْرِ قَابِضَتَانِ

---

(١) في نسخة الظاهرية: «نرى».

الشرحُ

٤٢٤- وَزَعَمْتَ أَنَّ مُحَمَّدًا أَسْرَى بِهِ لَيْلًا إِلَيْهِ، فَهْوَ مِنْهُ دَانِ

قال الله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسراء:١] وقد أُسْرِيَ به مِن الحِجْر مِن قلب الكعبة[١]، لأنَّ الحجرَ -كما يعلم الكثير مِنَّا- مِن الكعبة، وكان النَّبيُّ ﷺ نائمًا في الحِجْر، فأُسْرِي به مِن هناك.

وأما راوية أنه أُسري به مِن بيت أُمِّ هانِئٍ[٢] فهذه -إنْ صَحَّتْ- فالجَمعُ بينهما: أنه كان في أول الأمر في أول الليل في بيتِ أُم هانِئٍ، ثُمَّ قام ونام في الحِجْر، لأن رواية أنه أُسْرِي به مِن الحِجْر رواية صحيحة، ليس عليها غُبار.

قَوْلُهُ: «فَهْوَ مِنْهُ دَانِي» أي: مِن الله، ولا شكَّ في هذا، لأنه عُرِجَ به بعد هذا الإسراء إلى السموات السَّبْع.

واعلَمْ أنَّ هذا الإسراء ذُكِرَ في سورة الإسراء، وأنَّ المعراج ذُكِرَ في سورة النَّجْم، فهما في موضعَيْن مِن القرآن الكريم.

٤٢٥- وَزَعَمْتَ أَنَّ مُحَمَّدًا يَومَ اللِّقَا يُدْنِيهِ رَبُّ الْعَرْشِ بِالرِّضْوَانِ

٤٢٦- حَتَّى يُرَى الْـمُخْتَارُ حَقًّا قَاعِدًا مَعَهُ عَلَى الْعَرْشِ الرَّفِيعِ الشَّانِ

هذه المسألة اختلف السلف فيها، هل الله عزَّ وجلَّ يُدْني النَّبِيَّ ﷺ يوم القيامة حتى يُجْلِسَه معه على العرش أم لا؟

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب مناقب الأنصار، باب المعراج، رقم (٣٦٧٤).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٤/ ٤٣٢).

فمنهم مَن صحَّح الحديثَ(١) الواردَ في هذا، وقال: إن الله تعالى يُجلِسه على العرش، ولا غَرو في ذلك، لأنَّ الله تعالى على كُلِّ شيء قدير، وللنَّبِيِّ ﷺ مِن المَيزات والمناقب ما ليس لغيره.

ومنهم مَن قال: لا، الحديث في هذا ضعيف، وإنما يُجلسه بين يَدي الله عزَّ وجلَّ، إما على الكرسيِّ أو على شيء آخر.

ولكن إذا صحَّ الحديثُ أنَّ الله يُجلس نبيَّه ﷺ معه على العرش، فيجب علينا أن نؤمنَ به، ونقول: آمنا بما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

٤٢٧- وَزَعَمْتَ أَنَّ لِعَرْشِهِ أَطًّا بِهِ … كَالرَّحْلِ أَطَّ بِرَاكِبٍ عَجْلَانِ

ورد في هذا أيضًا حديث أنَّ العرش له أَطِيطٌ كأطيط الرَّحْل(٢)، والأطيط هو صَرِير الرَّحل، فالبعير إذا كان عليه الشداد ثُمَّ حَمَّلنا عليه شيئًا ثقيلًا، فإذا مشى تسمع له صريرًا، هذا الصرير هو الأطيط، وهذا أيضًا أطيط العرش، وفيه حديث، لكنه ضعيف، وأنكره كثيرٌ مِن أهل العلم، وقالوا: إن هذا يستلزم أن يكونَ العرشُ قد حَمَل الله كما يُحْمَل على الرَّحْل، ومعلوم أنَّ العرشَ لم يحمل الرَّبَّ عزَّ وجلَّ، لأنَّ كُلَّ شيءٍ مفتقِرٌ إلى الله، والله تعالى لا يفتقرُ إلى شيء.

فليس استواءُ الله -سبحانه وتعالى- على العرش كاستواء الإنسان على السرير

---

(١) وهو حديث عبد الله بن مسعود قال: بينا أنا عند رسول الله ﷺ أقرأ عليه حتى بلغت ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ قال: «يُجْلِسُنِي عَلَى الْعَرْشِ». أخرجه الذهبي في العلو (٢٢٢)، وقال: هذا حديث منكر.

(٢) يعني حديث أبي أُمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «سَلُوا اللهَ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهَا سِرَّةُ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ أَهْلَ الْفِرْدَوْسِ لَيَسْمَعُونَ أَطِيطَ الْعَرْشِ». أخرجه الطبراني (٨/ ٢٤٦، رقم ٧٩٦٦) قال الهيثمي (١٠/ ٣٩٨): فيه جعفر بن الزبير وهو متروك. والحاكم (٢/ ٤٠٢، رقم ٣٤٠٢).

الذي إذا سُحِبَ مِن تحته سقط، أو على البعير أو على الفُلْك، بل هو استواءٌ يليق بجلاله، وهو استواءٌ ليس افتقارًا إلى العرش، بل لإظهار عظمته -تبارك وتعالى- كما سبق.

فحديثُ أَطِيطِ العرشِ بالله عزَّ وجلَّ ضعيفٌ لا شكَّ، ولا نعتقد هذا، بل نقول: إن الله تعالى غنيٌّ عن العرش، وليس محتاجًا إليه حتى يَثْبُتَ عليه فيكون له أَطِيطٌ.

أما حديث: «أَطَّتِ السَّمَاءُ، وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ، مَا مِنْ مَوْضِعِ أَصَابعَ مِنْهَا إِلَّا وَفِيهِ مَلَكٌ قَائِمٌ لله، أَوْ رَاكِعٌ أَوْ سَاجِدٌ»[1]. فهذا لا يُنكَر، لأنَّ السماء تحمل الملائكة.

٤٢٨- وَزَعَمْتَ أَنَّ اللهَ أَبْدَى بَعْضَهُ ... لِلطُّورِ حَتَّى عَادَ كَالْكُثْبَانِ

٤٢٩- لَمَّا تَجَلَّى يَومَ تَكْلِيمِ الرِّضَى ... مُوسَى الْكَلِيمِ مُكلَّمِ الرَّحْمَنِ

قَوْلُهُ: «مُكَلَّمِ» يجوز فيها وجهان: (مُكلِّمِ)، و(مُكلَّم)، والثانية أَوْلى، لأنَّ الله يقول: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾ [النساء:١٦٤] فهو مُكَلَّم.

وفي هذا البيت يشير إلى قول الله -تبارك وتعالى- في قصة موسى -عليه السلام- قال موسى: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَ﴾ [الأعراف:١٤٣] يعني: مكِّنِّي مِن رؤيتك، فقال الله تعالى: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ ولا يمكن أن تراني، ثم ضرب له مثلًا وقال: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِي﴾ حتى يعلم موسى -عليه الصلاة والسلام- أنه لن يمكن أن يرى الله في الدنيا، لأنَّ أجسامنا لا تتحمَّل،

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ١٧٣)، الترمذي: كتاب الزهد، باب قول النبي ﷺ: «لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ»، رقم (٢٣١٢).

﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ اندكَّ الجبل لِعَظَمَة الله عزَّ وجلَّ كما قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ [الحشر:٢١] والقرآن هو كلامه ﴿عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر:٢١].

لكنه لن يندكَّ، ولكن يتصدَّع مِن خشية الله عزَّ وجلَّ، أما وقد تجلَّى اللهُ عزَّ وجلَّ للجبل فقد ﴿جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ مِثل كُثبان الرمل، لما رأى موسى -عليه الصلاة والسلام- ما رأى خَرَّ صَعِقًا، أي: غُشِي عليه، لأنه عجَز عن أن يتحمل الموقف، مع أنَّ الله لم يَتَجَلَّ له.

٤٣٠- وَزَعَمْتَ لِلْمَعْبُودِ وَجْهًا بَاقِيًا وَلَهُ يَمِينٌ، بَلْ زَعَمْتَ يَدَانِ

وكُلُّ هذا حقٌّ.

قَوْلُهُ: «**زَعَمْتَ لِلْمَعْبُودِ وَجْهًا**» وهذا حَقٌّ، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٦-٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الرعد:٢٢] والآيات في هذا متعددة، ولكن هل وجه الله عزَّ وجلَّ مماثِلٌ لأوجه المخلوقين؟

الجواب: لا والله، بل مُبَايِنٌ لها غاية المُباينة، لأنه كما أنَّ ذاته كذلك فكذلك صفاته، ولا يجوز أن تتخيّل وجهَ الله عزَّ وجلَّ، لأنك مهما تخيَّلْتَ فاللهُ أعظمُ وأَجَلُّ، ومهما قلتَ مما تخيّلت فأنت كاذب في ذلك، لأنه لا علم عندك، بل نقول: لله عزَّ وجلَّ وجهٌ موصوف بالجلال والإكرام، ولا نعلم كيفيته، علينا أن نؤمن به، وأن نسأله بوجهه أن يُنْجِيَنا مِن النار.

قَوْلُهُ: «**وَلَهُ يَمِينٌ، بَلْ زَعَمْتَ يَدَانِ**» نعم، له يمين، وله يدان (بالتثنية) وكلتا

يديه يمين، كما قال النَّبِيُّ ﷺ: «كِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ»[١]. أي: يُمْنٌ وبَركة وقوة، فلا تختلف إحداهما عن الأخرى، بخلاف أيدي المخلوقين، حيث تختلف إحداهما عن الأخرى.

٤٣١- وَزَعَمْتَ أَنَّ يَدَيْهِ لِلسَّبْعِ الْعُلَى وَالْأَرْضِ يَوْمَ الْحَشْرِ قَابِضَتَانِ

وهذا صحيح، قال الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر:٦٧] وقال تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة:١٢٠].

وقد قال اللهُ تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء:١٠٤] يعني: كما تُطوى سجلات الكتب نطويها.

ولم يكن لدى الناس فيما سبق ظروف يُدخِلون فيها الكتب، فإذا كتب الإنسانُ كتابًا، فإنه يَطويه، ثم يضرب عليه الشَّمْع ويرسله، وهذا إلى عهد ليس ببعيد، لكن بعد أن تَفَتَّح الناسُ صاروا يجعلون ظروفًا للكتب، يدُسُّونها فيها.

* * *

٤٣٢- وَزَعَمْتَ أَنَّ يمينَهُ مَلْأَى مِنَ الْـ خَيْرَاتِ مَا غَاضَتْ عَلَى الْأَزْمَانِ

٤٣٣- وَزَعَمْتَ أَنَّ الْعَدْلَ فِي الْأُخْرَى بِهَا رَفْعٌ وَخَفْضٌ وَهْوَ بِالْمِيزَانِ

٤٣٤- وَزَعَمْتَ أَنَّ الْخَلْقَ طُرًّا عِنْدَهُ[٢] يَهْتَزُّ فَوْقَ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل، وعقوبة الجائر، والحث على الرفق بالرعية، والنهي عن إدخال المشقة عليهم، رقم (١٨٢٧).

(٢) في نسخة الحلبي: «عندما».

٤٣٥- وَزَعَمْتَ أَيْضًا أَنَّ قَلْبَ الْعبْدِ مَا ... بَيْنَ اثْنَتَيْنِ مِنَ الْأَصَابِعِ عَانِ
٤٣٦- وَزَعَمْتَ أَنَّ اللهَ يَضْحَكُ عِنْدَمَا ... يَتَقَابَلُ الصَّفَّانِ يَقْتَتِلَانِ
٤٣٧- مِنْ عَبْدِهِ يَأْتِي فَيُبْدِي نَحْرَهُ ... لِعَدُوِّهِ طَلَبًا لِنَيْلِ جِنَانِ
٤٣٨- وَكَذَاكَ يَضْحَكُ عِنْدَمَا يَثِبُ الْفَتَى ... مِنْ فَرْشِهِ لِتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ
٤٣٩- وَكَذَاكَ يَضْحَكُ مِنْ قُنُوطِ عِبَادِهِ ... إِذْ أَجْدَبُوا وَالْغَيْثُ مِنْهُمْ دَانِ
٤٤٠- وَزَعَمْتَ أَنَّ اللهَ يَرضَى عَنْ أُولِي ... حُسْنَى وَيَغْضَبُ مِنْ أُولِي الْعِصْيَانِ
٤٤١- وَزَعَمْتَ أَنَّ اللهَ يَسْمَعُ صَوْتَهُ ... يَوْمَ الْمَعَادِ بَعِيدُهُمْ وَالدَّانِي
٤٤٢- لَمَّا[1] يُنَادِيهِمْ: أَنَا الدَّيَّانُ لَا ... ظُلْمٌ لَدَيَّ، فَيَسْمَعُ الثَّقَلَانِ
٤٤٣- وَزَعَمْتَ أَنَّ اللهَ يُشْرِقُ نُورُهُ ... فِي الْأَرْضِ يَوْمَ الْفَصْلِ وَالْمِيزَانِ
٤٤٤- وَزَعَمْتَ أَنَّ اللهَ يَكْشِفُ سَاقَهُ ... فَيَخِرُّ ذَاكَ الْجَمْعُ لِلْأَذْقَانِ
٤٤٥- وَزَعَمْتَ أَنَّ اللهَ يَبْسُطُ كَفَّهُ ... لِمُسِيئِنَا لِيَتُوبَ مِنْ عِصْيَانِ
٤٤٦- وَزَعَمْتَ أَنَّ يَمِينَهُ تَطْوِي السَّمَا ... طَيَّ السِّجِلِّ عَلَى كِتَابِ بَيَانِ
٤٤٧- وَزَعَمْتَ أَنَّ اللهَ يَنْزِلُ فِي الدُّجَى ... فِي ثُلْثِ لَيْلٍ آخِرٍ أَوْ ثَانِي
٤٤٨- فَيَقُولُ: هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأُجِيبَهُ ... فَأَنَا الْقَرِيبُ أُجِيبُ مَنْ نَادَانِي
٤٤٩- وَزَعَمْتَ أَنَّ لَهُ نُزُولًا ثَانِيًا[2] ... يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِلْقَضَاءِ الثَّانِي

---

(١) في نسخة الإفتاء: «يوم».
(٢) في نسخة الإفتاء: «بائنا».

٤٥٠- وَزَعَمْــتَ أَنَّ اللهَ يَبْــدُو جَهْــرَةً ... لِعِبَــادِهِ حَتَّــى يُــرَى بِعِيَــانِ

٤٥١- بَــلْ يَسْــمَعُونَ كَلَامَــهُ وَيَرَوْنَــهُ ... فَالْــمُقْلَتَانِ إِلَيْــهِ نَاظِرَتَــانِ

٤٥٢- وَزَعَمْــتَ أَنَّ لِرَبِّنَــا قَــدَمًا وَأَنْ ... نَ اللهَ وَاضِــعُهَا عَــلَى النِّــيرَانِ

٤٥٣- فَهُنَاكَ يَدْنُو بَعْضُـهَا مِـنْ بَعْضِـهَا ... وَتَقُولُ قَـطْ قَـطْ حَـاجَتِي وَكَفَـانِي

٤٥٤- وَزَعَمْتَ أَنَّ النَّـاسَ يَـوْمَ مَزِيـدِهِمْ ... كُــلٌّ يُحَــاضِرُ رَبَّــهُ وَيُــدَانِي

٤٥٥- بِالْـحَاءِ مَعْ ضَادٍ وَجَا مَـعْ صَـادِهَا ... وَجْهَــانِ فِي ذَا اللَّفْــظِ مَحْفُوظَــانِ

٤٥٦- فِي التِّرْمِــذِيِّ وَمُسْــنَدٍ وَسِــوَاهُمَا ... مِــنْ كُتْــبِ تَجْسِــيمٍ بِــلَا كِــتْمَانِ

٤٥٧- وَوَصَــفْتَهُ بِصِــفَاتِ حَــيٍّ فَاعِــلٍ ... بِالْإِخْتِيَــارِ وَذَانِــكَ الْأَصْــلَانِ

٤٥٨- أَصْلُ[(١)] التَّفَرُّقِ بَيْنَ هَذَا الْـخَلْقِ فِي الْـ ... ـبَارِي، فَكُنْ فِي النَّفْـيِ غَـيْرَ جَبَـانِ

٤٥٩- أَوْ لَا، فَـلَا تَلْعَـبْ بِـدِينِكَ نَاقِضًــا ... نَفْيًــا بِإِثْبَــاتٍ بِــلَا فُرْقَــانِ

٤٦٠- فَالنَّــاسُ بَــيْنَ مُعَطِّــلٍ أَوْ مُثْبِــتٍ ... أَوْ ثَالِــثٍ مُتَنَــاقِضٍ صِــنْفَانِ[(٢)]

٤٦١- وَاللهِ لَسْــتَ بِرَابِــعٍ لَــهُمُ بَــلَى ... إِمَّــا حِمَــارًا أَوْ مِــنَ الثِّــيرَانِ

الشـرحُ

٤٣٢- وَزَعَمْتَ أَنَّ يمينَـهُ مَـلْأَى مِـنَ الْـ ... خَيْرَاتِ مَا غَاضَـتْ عَـلَى الأَزْمَـانِ

قَوْلُهُ: «يمينُهُ مَلْأَى» يشير إلى قول النَّبِيِّ ﷺ: «يَدُ الله مَلأَى سَحَّاءُ اللَّيْلَ

(١) في نسخة الحلبي: «أصلا».

(٢) في بعض النسخ: «صفعان»، وفي نسخة: «صَنْعَان».

والنَّهَارَ»(١). سحَّاء: كثيرة العطاء، «**الليل والنهار**» ظرف، يعني: في الليل والنهار دائمًا وأبدًا.

قَوْلُهُ: «**مَا غَاضَتْ عَلَى الأَزْمَانِ**» يشير إلى قول النَّبِيِّ ﷺ: «**أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ، فَإِنَّهُ لَـمْ يَغِضْ مَا فِي يَمِينِهِ**»(٢). أي: لم يَنْقُصْ، سبحانه وتعالى.

٤٣٣- وَزَعَمْتَ أَنَّ الْعَدْلَ فِي الْأُخْرَى بِهَا رَفْـعٌ وَخَفْـضٌ وَهْـوَ بِـالْمِيزَانِ

بيده الأخرى القِسط، والقسط يعني: العدل، يخفض ويرفع، فيخفِضُ مَن يَسْتَحِقُّ الخفضَ، ويرفعُ مَن يستحِقُّ الرفعَ بالميزان، لا يظلِم أحدًا شيئًا، لا نقصًا مِن حَقِّه، ولا زيادةً في سيئاته، فهو -سُبحانَه وتعالَى- عدلٌ حكمٌ.

٤٣٤- وَزَعَمْـتَ أَنَّ الْـخَلْقَ طُـرًّا عِنْـدَهُ يَهْتَـزُّ فَـوْقَ أَصَـابِعِ الـرَّحْمَنِ

يعني: زعمت أنَّ الخَلْق كُلَّهم يهتزون عند أصابع الرحمن، فإنَّ الله تعالى يقبض السموات والأرضين ثُمَّ يَهُزُّهُنَّ، ويقول: «**أَنَا المَلِكُ، أَيْنَ الْـمُلُوكُ؟**»(٣).

٤٣٥- وَزَعَمْتَ أَيْضًا أَنَّ قَلْبَ الْعَبْـدِ مَـا بَـيْنَ اثْنَتَـيْنِ مِـنَ الْأَصَـابِعِ عَـانِ

يعني: زعمتَ أن قلبَ العبدِ بين أصبعَيْن مِن أصابع الرحمن، وهذا سبَق، وذكَرنا أن في الحديث إثباتَ الأصابع لله عزَّ وجلَّ(٤)، وذكرنا أنه لا يلزم مِن كون

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى: كتاب النعوت، باب الواحد القهار، رقم (٧٦٤٠).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥]، رقم (٧٤١١).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب يَقْبِضُ اللهُ الأَرْضَ يَوْمَ القِيَامَةِ، رقم (٦١٥٤)، ومسلم: كتاب صفة القيامة، رقم (٢٧٨٧).

(٤) أخرجه مسلم: كتاب القدر، باب تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء، رقم (٢٦٥٤).

القلب بين أصابعه أن تكون الأصابعُ في الصدور، أو مُماسَّةً له، وذكرنا مثالًا يبينه، وهو قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة:١٦٤].

٤٣٦- وَزَعَمْتَ أَنَّ اللهَ يَضْحَكُ عِنْدَمَا يَتَقَابَلُ الصَّفَّانِ يَقْتَتِلَانِ

٤٣٧- مِنْ عَبْدِهِ يَأْتِي فَيُبْدِي نَحْرَهُ لِعَدُوِّهِ طَلَبًا لِنَيْلِ جِنَانِ

هذا أيضًا مما جاء به الحديث أن الله يضحك إلى الرجل يأتي ويقابل العدوَّ ويقاتله، ويُبدي إليه نحرَه، مِن أجل الوصول إلى الجنة(١)، لأنَّ هذا يدلُّ على كمال التَّصديق، ولولا كمال تصديقه ما ذهب يُبدي نَحْرَه لعدوِّه.

وفي هذا إثبات الضحِك لله عزَّ وجلَّ، ولكن هل هذا الضحك كضحكنا؟ الجواب: لا، ولكنه ضحكٌ يليق بالله عزَّ وجلَّ، وعلينا أن نُثبته، وليس علينا أن نسأل عن كيفيته، بل ليس لنا أن نسأل عن كيفيته، والواجب الكفُّ.

٤٣٨- وَكَذَاكَ يَضْحَكُ عِنْدَمَا يَثِبُ الْفَتَى مِنْ فَرْشِهِ لِتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ

هذا أيضًا حديث آخر أن الله عزَّ وجلَّ يضحك للرَّجل يقوم مِن فراشه للتهجُّد(٢).

---

(١) كما في حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «يَضْحَكُ اللهُ إِلَى رَجُلَيْنِ: رَجُلٍ لَقِيَ الْعَدُوَّ وَهُوَ عَلَى فَرَسٍ مِنْ أَمْثَلِ خَيْلِ أَصْحَابِهِ فَانْهَزَمُوا وَثَبَتَ، فَإِنْ قُتِلَ اسْتُشْهِدَ، وَإِنْ بَقِيَ فَذَلِكَ الَّذِي يَضْحَكُ اللهُ إِلَيْهِ». أخرجه النسائي في الكبرى: كتاب عمل اليوم والليلة، بعد باب ما يقول إذا انتبه من منامه، رقم (١٠٦٣٧).

(٢) كما في حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «وَرَجُلٍ قَامَ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ لَا يَعْلَمُ بِهِ أَحَدٌ، فَتَوَضَّأَ فَأَسْبَغَ الْوُضُوءَ، ثُمَّ حَمِدَ اللهَ وَمَجَّدَهُ، وَصَلَّى عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَاسْتَفْتَحَ الْقُرْآنَ، فَذَلِكَ الَّذِي يَضْحَكُ اللهُ إِلَيْهِ». وهو جزء من الحديث السابق.

وضحكُ الله عزَّ وجلَّ لهذا وهذا يعني: الفرحَ به والرِّضى، وهذا مِن لازم الضحك، وليس هو الضحك، فالضَّحِك شيء آخر، لكن مِن لازمه أن يكون اللهُ -تبارك وتعالى- راضيًا بهذا فَرِحًا به.

٤٣٩- وَكَذَاكَ يَضْحَكُ مِنْ قُنُوطِ عِبَادِهِ إِذْ أَجْدَبُوا وَالْغَيْثُ مِنْهُمْ دَانِ

قَوْلُهُ: «يَضْحَكُ مِنْ قُنُوطِ عِبَادِهِ» إشارة إلى حديث ساقه ابن تَيْمِيَّة -رحمه الله- في العقيدة الواسطية بقوله: «**عَجِبَ رَبُّنَا مِنْ قُنُوطِ عِبَادِهِ وَقُرْبِ غِيَرِهِ**»[1]. لكنَّ ابنَ القيم -رحمه الله- أشار إليه بلفظ (الضحك) فإمَّا أن يكون لفظان في الرواية، أو روايتان.

المهم أننا نُثْبِت مِن هذا دليلًا ثالثًا لوصف الله تعالى بالضحك.

وَقَوْلُهُ: «وَالغَيْثُ مِنْهُمْ دَانِي» يعني: كيف يقنَطُون والله -سُبحانَه وتعالَى- قريب التغيير، «**عَلِمَ يَوْمَ الْغَيْثِ يُشْرِفُ عَلَيْكُمْ آزِلِينَ مُشْفِقِينَ، فَظَلَّ يَضْحَكُ، وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ فَرَجَكُمْ قَرِيبٌ**»[2]. إذ كيف تقنطون مِن رحمة الله، وفرج الله قريب؟!

فكلمة واحدة تُزيل كُلَّ هذا الجَدْب والقَحْط، ولا يخفى عليكم ما حدث في خطبة الجمعة حين دخل رجلٌ والنَّبِيّ ﷺ يخطُب الناسَ، فقال: يا رسول الله، هَلَكَ المَالُ، وانْقَطَعَتِ السُّبُلُ، فادْعُ اللهَ يُغِيثُنَا. فرفع يديه ودعا، ثم أنشأ اللهُ سَحابةً فتوسَّطَتِ السماءَ، وانتشرتْ، ورَعَدَتْ، وبَرَقَتْ، وأمطرتْ، فلم يَنْزِلِ النَّبيُّ ﷺ مِن الخطبةِ إلَّا والمطر يَتَحَادَرُ مِن لِحيته، قال أنس: «فما قَدِمَ أَحَدٌ مِن ناحيةٍ

---

(١) أخرجه ابن ماجه: كتاب الإيمان وفضائل الصحابة، باب فيما أنكرت الجهمية، رقم (١٨١).
(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤/ ٦٠٥، رقم ٨٦٨٣).

إِلَّا حَدَّثَ بالجُودِ». أي: بكثرة الأمطار[(١)].

٤٤٠- وَزَعَمْـتَ أَنَّ اللهَ يَـرضَى عَـنْ أُولِي حُسْنَى وَيَغْضَبُ مِنْ أُولِي الْعِصْيَانِ

هاتان صفتان: الرِّضى والغضب، يرضى عن أهل الحسنى، ولا يرضى عن أهل السوء، قال الله تعالى: ﴿فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ [التوبة:٩٦]، وقال تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر:٧]. وقال عزَّ وجلَّ: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [المائدة:١١٩].

وصفة الرِّضى مِن صفات الله -تبارك وتعالى- الثابتة في القرآن والسُّنَّة، ودليلها في القرآن ما سبق.

أَمَّا في السُّنَّة فقوله -عليه الصلاة والسلام-: «رَضِيَ لَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ، وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا»[(٢)].

أما أهلُ التَّعطيلِ ففسَّروا الرِّضى بالثواب، وهذا خطأ، لأنَّ الثوابَ نتيجةُ الرضى، والرِّضى وصفٌ في ذاتِ الله عزَّ وجلَّ، والثوابُ مخلوقٌ بائِنٌ عن الله، لكنهم لا يرون قيامَ الصفات بالله عزَّ وجلَّ، لأنه سبق أن قالوا: إننا لو أثبتنا هذه الصفات لزِم قيامُ الحوادث به، والحوادثُ لا تقوم إِلَّا بحادث.

أو يقولون: هذه أعراض، والعَرَضُ لا يقومُ إِلَّا بجسمٍ، أو ما أشبه ذلك مِن التعليلات الباطلة.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاستسقاء، باب الاستسقاء في المسجد الجامع، رقم (١٠١٣)، ومسلم: كتاب صلاة الاستسقاء، باب الدعاء في الاستسقاء، رقم (٨٩٧).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الأقضية، باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة، والنهي عن منع وهات، وهو الامتناع من أداء حق لزمه، أو طلب ما لا يستحقه، رقم (١٧١٥).

المهم أننا نؤمن بأنَّ الله عزَّ وجلَّ يرضى.

وكذلك أيضًا يغضب، قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ﴾ [النساء:٩٣].

وكذلك السخط كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة:٨٠].

لكن هل الرِّضى، والغضب، والضحك، والعَجب، مِن الصفات الفِعلية، أو الذاتية؟

الجواب: مِن الفعلية، فكُلُّ صفةٍ لها سبب فهي فِعلية، لأنها تقتضي أن توجد عند هذا السبب، فتكونُ فعليةً تتعلَّق بمشيئة الله عزَّ وجلَّ.

٤٤١- وَزَعَمْتَ أَنَّ اللهَ يَسْمَعُ صَوْتَهُ ... يَوْمَ الْمَعَادِ بَعِيدُهُمْ وَالدَّانِي

٤٤٢- لَـمَّا يُنَادِيهِمْ: أَنَا الدَّيَّانُ لَا ... ظُلْمٌ لَدَيَّ، فَيَسْمَعُ الثَّقَلَانِ

وهذا حَقٌّ، فالله تعالى ينادي الخلائقَ يوم القيامة، يناديهم بصوت يقول: «أَنَا الدَّيَّان»(١). وثبت أيضًا أنه ينادي آدمَ فيقول: «أَخْرِجْ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعْثًا إِلَى النَّارِ»(٢).

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٤٩٥، رقم ١٦١٣٨)، والبخاري تعليقًا: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ:٢٣].

(٢) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قصة يأجوج ومأجوج، رقم (٣٣٤٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب قوله يقول الله لآدم أخرج بعث النار، رقم (٢٢٢).

٤٤٣- وَزَعَمْتَ أَنَّ اللهَ يُشْرِقُ نُورُهُ   فِي الْأَرْضِ يَوْمَ الْفَصْلِ وَالْمِيزَانِ

لقول الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الزمر:٦٩].

٤٤٤- وَزَعَمْتَ أَنَّ اللهَ يَكْشِفُ سَاقَهُ   فَيَخِرُّ ذَاكَ الْجَمْعُ لِلْأَذْقَانِ

وثبت هذا في الصحيح عن النَّبِيِّ ﷺ مِن حديث أبي سعيد[1] الطويل، وفيه أنَّ الله تعالى يكشِفُ ساقَه، فيسجد لله عزَّ وجلَّ كُلُّ مَن سجد له في الدنيا مخلِصًا في سجوده، ويعجِز عن السجود مَن لم يسجد لله تعالى بإخلاص، قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ [القلم:٤٢-٤٣].

والساق ثابتة بالسُّنَّة، لا إشكال فيها، لكن هل ثبت بالقرآن؟

قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ [القلم:٤٢] وهنا الساق غير مضافة، فلم يقل سبحانه: (عن ساقه)، ولا يجوز لنا أن نُضيفَ إلى الله عزَّ وجلَّ ما لم يُضِفْه لنفسه.

لكن لما كان سياقُ الآيةِ الكريمة يُطابِقُ سياقَ الحديث النَّبوِيِّ، وَجَبَ أن نُفَسِّرَ الآيَةَ بما دلَّ عليه الحديثُ، وهو أنها ساقٌ لله عزَّ وجلَّ تليق بجلاله، لا تُشْبِهُ ساقَ أحدٍ مِن المخلوقين، وهذا هو الحقُّ.

وهناك قول آخر للسلف في الآية نفسها أنَّ المرادَ بالساق: الشِّدَّة، فمعنى

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٣]، رقم (٧٠٠١)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، رقم (١٨٣).

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ أي: تَتبيَّن الشدَّة في ذلك اليوم[١]، لكن ما دام الحديثُ النَّبوِيُّ مطابقًا لسياق الآية، فالواجب أن تُحمَل الآيةُ عليه.

٤٤٥- وَزَعَمْتَ أَنَّ اللهَ يَبْسُطُ كَفَّهُ   لِمُسِيئِنَا لِيَتُوبَ مِنْ عِصْيَانِ

نعم، هذا جاء به الحديث الصحيح: «إِنَّ اللهَ يَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ، وَبِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ»[٢]. ففي الحديث إثباتُ اليد، وإثباتُ بسطِها، وهذا حَقٌّ.

وقد دَلَّ على ذلك القرآنُ الكريمُ في قوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة:٦٤].

٤٤٦- وَزَعَمْتَ أَنَّ يَمِينَهُ تَطْوِي السَّمَا   طَيَّ السِّجِلِّ عَلَى كِتَابِ بَيَانِ

ودليل هذا قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء:١٠٤] فهو عزَّ وجلَّ يطويها بيمينه[٣].

٤٤٧- وَزَعَمْتَ أَنَّ اللهَ يَنْزِلُ فِي الدُّجَى   فِي ثُلْثِ لَيْلٍ آخِرٍ أَوْ ثَانِي

٤٤٨- فَيَقُولُ: هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأُجِيبَهُ   فَأَنَا الْقَرِيبُ أُجِيبُ مَنْ نَادَانِي

يشير إلى الحديث الصحيح عن النَّبيِّ ﷺ أنه قال: «يَنْزِلُ اللهُ تعالى إِلَى السَّمَاءِ

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٣/ ١٨٧) عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «هُوَ يَوْمُ حَرْبٍ وَشِدَّةٍ».

(٢) أخرجه مسلم: كتاب التوبة، باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة، رقم (٢٧٥٩).

(٣) كما في قوله النبي ﷺ قال: «يَقْبِضُ اللهُ الأَرْضَ، وَيَطْوِي السَّمَاءَ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ مُلُوكُ الأَرْضِ». أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب يَقْبِضُ اللهُ الأَرْضَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، رقم (٦١٥٤)، ومسلم: كتاب صفة القيامة، رقم (٢٧٨٧).

الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ -أَوِ الثَّانِي، الَّذِي يَكُونُ بَيْنَ النِّصْفِ وَالسُّدُسِ- فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟»(١).

فمن الذي ينزل أهو الرَّبُّ -جلَّ وعلا- أو رحمتُه، أو مَلَكٌ مِن ملائكته، أو أمْره؟

الجواب: ننظر: (يَنْزِلُ رَبُّنَا)، فالفِعل مضاف إلى الله عزَّ وجلَّ، وكُلُّ فعلٍ مضاف إلى الله، فإنه يعني: ذات الله، وهذه قاعدة لا إشكال فيها مِن الناحية اللغوية، فكل ما أضافه الله لنفسه فهو له ذاته، ولا تُؤوَّلْ، ولا تُحرَّفْ.

وعليه نقول: إن الله ينزل، هو نفسه، لكن هل يجب علينا أن نقول: ينزل بنفسه، أو ينزل بذاته، أو ما أشبه ذلك؟

الجواب: لا يجب علينا إلَّا إذا كان هناك مَن يُحرِّف النزولَ إلى نُزولِ الرحمة، أو الأمر، أو الملائكة، فهنا نُضيف كلمة (ذاته) مِن أجل رَدِّ هذا القول.

وبهذا نعرف أنه لا اعتراض على قول مَن يقول: ينزل (بذاته) كما اعترض بعض الناس على تعبير بعض السلف (ينزل بذاته)، قالوا: ليس لنا أن نزيدَها، فنقول: نعم، الأصل أنه ليس لنا أن نزيدَها، لأنَّ الفعل إذا أُضيف إلى فاعله، فهو له حقيقة، أي: ذاته، لكن إذا كنا نسمع مَن أشاع قولًا بأنَّ المراد: تنزل رحمتُه، أو أمره، أو مَلَكٌ مِن ملائكته، فيجب علينا أن نضيف (بذاته) حتى نُبيِّنَ للناس.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التهجد، باب الدعاء في الصلاة من آخر الليل، رقم (١١٤٥)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل، والإجابة فيه، رقم (٧٥٨).

والكلمات التي لا تخالف الظاهر -وإن لم تكن موجودة- إذا اضطُررنا إليها، فلا حَرجَ علينا فيها كما قلنا في ﴿ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ [الأعراف:٥٤]: هو نفسه استوى على العرش.

وبعض الناس يقول: لا تَقُل: بذاته! بل أقول: (بذاته) ما دام هناك مَنْ يُؤوِّل ويحرِّف، فلا بد أن يُبيَّن.

وهذا النزول يَرِدُ عليه أسئلة:

السؤال الأول: كيف يَنزل؟

الجواب: يَنزل على كيفيةٍ شاءها، ولا تسأل، لأننا نقول لمن سأل: (كيف ينزل؟): أنت مبتدِع.

السؤال الثاني: حال النزول هل يلزم مِنه أن يَخلُو العرشُ منَ الرَّبِّ عزَّ وجلَّ؟

الجواب: أيضًا نقول: لا تسأل، فالسؤال عن هذا بدعة، فالصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ما سألوا عن هذا، وإذا كانوا لم يسألوا، فإنه يَسَعُنَا ما يَسعهم، ومَن لا يَسعه ما وسِع الصحابة فلا وسَّع الله عليه.

السؤال الثالث: هل النزول ينافي عُلوَّ الله؟

الجواب: نَجزم بأنَّ هذا لا ينافيه، لأنَّ (العُلوّ) مِن الصفات الذاتية، فهو عالٍ على الخَلق كُلِّهم، ولو نزل إلى السماء الدنيا، كما هو عالٍ على الخلق كُلِّهم، وهو معهم لكنه في العُلوِّ.

ولا تَقِسِ المعانيَ التي يَحتمِلها اللفظ مما يتعلق بالآدمي على ما يكون لله منها، وذلك لاختلاف ما بين المخلوق والخالق.

إِذَنْ موقفنا مِن هذا أن نقول: إن اللهَ ينزل حقًّا إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلثُ الليل الآخِرُ، أو الثاني الذي يبتدئ مِن النصف فيقول: «مَنْ يَدْعُونِي...» إلى آخره.

أما المُحَرِّفون الذين قالوا: ينزل أمرُه، فنقول: هذا تحريفٌ مخالِفٌ لظاهر اللفظ، ثم إن (أمرَ الله) هل يَختصُّ بنزُوله إلى السماء الدنيا؟ الجواب: لا، لأنَّ الله قال: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ [السجدة:٥].

كذلك (الرحمة) إذا نزلت إلى السماء الدنيا، فماذا نستفيد منها؟!

أيضًا (المَلَكُ) لا يمكن، فهل يمكن لأيِّ مَلَكٍ مِن الملائكة أن يقول للخَلق: مَنْ يدعوني؟ الجواب: لا يمكن، لكنَّ المحرِّفَ -والعياذ بالله- يكون قد تلوَّث بنجاسة التَّحريف، وغَشِيَت قلبَه حتى لا يُبْصِر ما وراءها، فيفسر النزول بهذا التفسير.

قَوْلُهُ: «فَيَقُولُ: هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأُجِيبَهُ» هنا إشكال في كلمة (فَأُجِيبَهُ) هل هي بالرفع، أو بالنصب، أو بالجزم؟

الجواب: بالنصب، لأنها جواب الاستفهام، مسبوقة بـ(فاء) السببية، ولذا قال الناظم[1]:

مُرْ، وَادْعُ، وَانْهَ، وَسَلْ، وَاعْـرِضْ لِـحَضِّهِمُ
تَـمَنَّ، وَارْجُ، كَـذَاكَ النَّفْـيُ قَـدْ كَمُـلَا

(١) انظر: حاشية الآجرومية لعبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي الحنبلي النجدي (ص:٤٩).

٤٤٩- وَزَعَمْــتَ أَنَّ لَــهُ نُــزُولًا ثَانِيًــا   يَــوْمَ الْقِيَامَــةِ لِلْقَضَــاءِ الثَّــانِي

قَوْلُهُ: «وَزَعَمْتَ أَنَّ لَهُ نُزُولًا ثَانِيًا... إلخ» قد ثبتت به السنة، وأشار إليه الرَّبُّ عزَّ وجلَّ في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر:٦٩].

٤٥٠- وَزَعَمْــتَ أَنَّ اللهَ يَبْــدُو جَهْــرَةً   لِعِبَــادِهِ حَتَّــى يُــرَى بِعِيَــانِ

هذه قضية رؤية الله عزَّ وجلَّ، فهل الله يُرَى؟

أمَّا المنافقون فيرونَ اللهَ عزَّ وجلَّ ثُمَّ يَحْتَجِب عنهم، ويُعْطَوْنَ نورًا ثُمَّ ينطفئ، لأنه إذا كان كذلك صاروا أشدَّ حسرةً، وهم في ظاهر أمرهم مستنيرون بِنُور الله، ولكن يُحرَمون بعد أن يروه، فيكون هذا أشدَّ ألـمًا وحسرة.

وأما المؤمنون فهُم عند أهل التعطيل المحرومين مِن رجائهم لرؤية الله، فلا يُرَى.

هؤلاء الذين ينكرون رؤية الله لا يرجون لقاء الله -نسأل الله العافية- لأنهم يقولون: رؤية الله مُحالة، مع أنَّ رؤية الله دلَّ عليها القرآنُ والسُّنَّةُ، وإجماعُ الصحابة رضي الله عنهم.

ففي القرآن الكريم عِدَّةُ آيات: أصرحها وأبْيَنُها قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢-٢٣] وهذه واضحة جدًّا.

ومنها قول الله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦] فسَّر النَّبيُّ ﷺ -وهو أعلم الناس بتفسير كلام الله- الزيادةَ بأنها النظر إلى وجه الله -تبارك وتعالى-[1].

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب صفة الجنة، باب ما جاء في رؤية الرب -تبارك وتعالى-، رقم (٢٥٥٢)، وابن ماجه: كتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب فيما أنكرت الجهمية، رقم (١٨٧).

ومنها قول الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥] وَجْهُ الدلالة أنه لمّا حُجِبَ الفُجَّارُ في حال الغضب، لزِم مِن ذلك ألَّا يُحْجَبَ الأبرارُ عن رؤية الله عزَّ وجلَّ، لأنه لو كان الكُلُّ لا يمكن أن يروا الله، لم يكن لنفي رؤية الله عن الفُجَّار فائدة.

وفي السورة نفسها أيضًا قوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين:٢٣] ينظرون لأيِّ شيء؟ الجواب: ينظرون لكُلِّ ما أعدَّه اللهُ لهم مِن النعيم، وينظرون إلى الله أيضًا بدليل قوله: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥].

المهم أنَّ هذا شيء معلوم في القرآن كثير.

وفي السُّنَّة: تواترت السُّنَّة عن النبيِّ -عليه الصلاة والسلام- أنَّ المؤمنين يَرَوْن ربَّهم رؤيةً حقيقيةً حِسِّيَّة، قال رسول الله ﷺ: «كَمَا تَرَوْنَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَا تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ»[1]. وقال رسول الله ﷺ: «كَمَا تَرَوْنَ الشَّمْسَ عِيَانًا لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ»[2].

فهل يبقى بعد هذا شيءٌ؟! لكن أولئك الذين حُرِموا مِن رجاء رؤية الله -والعياذ بالله- أنكروا هذا، حتى إن بعضهم قال: مَن زعم أن اللهَ عزَّ وجلَّ يُرَى فقد كفر. نسأل الله العافية، ونحن ربما نقول: مَن أنكر رؤية الله عزَّ وجلَّ فقد كفر، لأن الأدلةَ فيها واضحة، ولا يمكن أن تحتمل التأويل.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر، باب (٥٥٤)، مسلم: كتاب المساجد، باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما، رقم (٦٣٣).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢-٢٣]، رقم (٧٤٣٥).

٤٥١- بَـلْ يَسْـمَعُونَ كَلَامَـهُ وَيَرَوْنَـهُ فَالْـمُقْلَتَانِ إِلَيْـهِ نَاظِرَتَـانِ

بقي أن نقول: أليس الله تعالى قال لموسى -عليه السلام- حين قال: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف:١٤٣].

فالجواب: بلى، لكنّ هذا في الدنيا، لأنَّ أجسامنا في الدنيا لا تحتمل رؤية الله عزَّ وجلَّ، ولهذا بيَّن اللهُ عزَّ وجلَّ أنَّ موسى -عليه السلام- لن يتحمَّل، لقوله تعالى: ﴿ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ﴾.

فإذا ادَّعَوْا أن (لن) تفيد التأبيد كما إذا قلت: (لن يقوم زيد) يعني: لا يمكن أن يقوم أبدًا.

فالجواب: أن هذا زعمٌ باطل، ليس بصواب.

وانظر إلى قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوۡهُ أَبَدَۢا بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾ [البقرة:٩٥] حيث أَكَّدَ النفي بقوله: ﴿أَبَدَۢا﴾، ومع ذلك يقول أهل النار لمالك: ﴿يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف:٧٧] فتمنوا الموتَ، فدلَّ هذا على أن (لَن) وإن اقتضت التأبيد في الدنيا، فلن يستمرَّ التأبيدُ إلى الآخرة.

ونحن نقول: في الدنيا لا أحد يراه، ولا يمكن، لكن في الآخرة يراه الناس.

وفي هذا يقول ابنُ مالك -رحمه الله-[1]:

وَمَـنْ رَأَى النَّفْـيَ بِـ(لَنْ) مُؤَبَّـدَا فَقَوْلَـهُ ارْدُدْ، وَسِـوَاهُ فَاعْضُـدَا

هذا ذكره في كتاب المنظومة (الكافية الشافية) التي لَـخَّصَ منها الألفية.

---

(١) انظر: شرح الكافية الشافية (٣/ ١٥١٥).

وأما رؤية الله عزَّ وجلَّ في المنام فقد ورد فيها حديث[١]، وهذا الحديث مختلَف فيه، لكن أكثر أهل العلم صَحَّحوه، ولابن رجب -رحمه الله- شرحٌ[٢] على هذا الحديث.

٤٥٢- وَزَعَمْتَ أَنَّ لِرَبِّنَا قَدَمًا وَأَنْ ... نَ اللهَ وَاضِعُهَا عَلَى النِّيرَانِ

٤٥٣- فَهُنَاكَ يَدْنُو بَعْضُهَا مِنْ بَعْضِهَا ... وَتَقُولُ قَطْ قَطْ حَاجَتِي وَكَفَانِي

إثبات القدم لله أيضًا جاءت به السُّنَّة، وفي لفظ (الرِّجلِ) لله عزَّ وجلَّ قال النبي ﷺ: «لَا تَزَالُ جَهَنَّمُ تَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ». يعني: تطلبُ المزيدَ، «حَتَّى يَضَعَ فِيهَا رَبُّ الْعِزَّةِ، تَبَارَكَ وَتَعَالَى، قَدَمَهُ فَتَقُولُ: قَطْ قَطْ». أي كفى، «وَعِزَّتِكَ وَيُزْوَى بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ»[٣]. أي يَنْضَمُّ بعضُها إلى بعضٍ، فَيَصْدُقُ وَعْدُ الله عزَّ وجلَّ إِيَّاهَا بِأَنْ يَمْلأَهَا.

إِذَنْ نُثْبِتُ القدمَ لله عزَّ وجلَّ، وأنه يضعُ قدمَه على النار، فهل هذه القدم مِثل أقدام المخلوق؟ الجواب: لا، لا يمكن أن تكون مثلَها، احتجاجًا بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

ونقول لِـمَن قال: يَلْزَمُ مِن إثبات القدم أن تكون مماثلةً لأقدام المخلوقين،

---

(١) وهو قوله ﷺ: «أَتَانِي رَبِّي فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَبِّي وَسَعْدَيْكَ، قَالَ: فِيمَ يَخْتَصِمُ الـمَلَأُ الأَعْلَى؟ قُلْتُ: رَبِّ لَا أَدْرِي، فَوَضَعَ يَدَهُ بَيْنَ كَتِفَيَّ فَوَجَدْتُ بَرْدَهَا بَيْنَ ثَدْيَيَّ فَعَلِمْتُ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ». أخرجه الترمذي: كتاب التفسير، باب ومن سورة (ص)، رقم (٣٢٣٤).

(٢) هو كتاب: (اختيار الأَوْلَى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الأيمان والنذور، باب الحلف بعزة الله وصفاته وكلماته، رقم (٦٢٨٤)، ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب النار يدخلها الجبارون، رقم (٢٨٤٨).

نقول: سبحان الله! أَفِدْنَا هل قدمُك موافقة لقدَم الحِمار أو لا؟ إن قال: نعم، قلنا: أنت حمار، وإن قال: لا، قلنا: إذن إذًا أمكن إثباتُ القَدمِ للمخلوقين مع التباين العظيم، أفلا يمكن أن نثبتَ القدمَ لربِّ العالمين مع التباين العظيم؟!

والجواب: بلى.

قَوْلُهُ: «**قط**» بمعنى كَفى، ومنه قولنا، فقط، تقول: (عندي مئة ريال فقط) أي: يكفي، لكن أدخَلوا الفاء عليها لتحسين اللفظ.

والحاصل أنَّ المقصودَ بكل ما ذُكِر في الأبيات السابقة إثباتُ صفات الله عزَّ وجلَّ.

وقول المؤلف: (زعمتَ)، و(زعمت)، و(زعمت) هذا قولُ المعطِّل الذي يُنكرُ على المثبِت، وهذه الأشياء المزعومة كلها جاءت في الكتاب والسنّة، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء:١٠٤] والرِّضى عن المؤمنين، والغضب على الكافرين وما أشبه ذلك، لكن كُلُّ هذه الأشياء مُنْكَرَةٌ عند أُولي التعطيل لا يثبتونها، وهم **فيها على مَسلكين**:

المسلك الأول: إذا أمكنهم أن يطعُنوا في الأحاديث ويُكَذِّبوها كذَّبوها، مِثل خبر الآحاد، يقولون: إنه لا تثبُت به العقائد.

وهذه قاعدة باطلة مهدومة.

المسلك الثاني: إذا لم يتمكنوا مِن الرَّدِّ ذهبوا إلى التحريف، لأنهم لا يستطيعون أن يقولوا في قوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة:٦٤]: إنها غير ثابتة، لكن يقولون بالتحريف.

فهُم لهم في النصوص المثبِتة طريقتان: طريقة الرَّدِّ إذا أمكن، وإن لم يمكن فالتحريف، أما الإنكار المطلَق، فهذا لا يمكن في مثل القرآن والمتواتِر، لأنه ثابت، لكن يقولون: نُحَرِّف، فالمراد باليد مثلًا: (القُوة) أو (النعمة)، وإلَّا فلا نُنكر أن لله يدًا، لكن ليست اليد المعروفة الحقيقية، بل هي القُوة، أو النعمة.

وهل لله وجه؟ قالوا: نعم، له وجه، لكن ليس الوجه الحقيقي، بل المراد به الثواب، فقوله -سبحانه وتعالى-: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن:٢٧] أي: ثوابه، لأنَّ الجنَّةَ مُؤَبَّدَةٌ.

هذه طريقتهم في النصوص، ليس أيضًا في الصفات حتى فيما يخالف قولهم في العقائد الأخرى.

فمثلًا: الجَبْرِيَّة يُنكِرون كلَّ حديث يُثبِتُ للعبد إرادة حقيقية، وإذا أمكن أن يَرُدُّوه ردُّوه، وإذا لم يمكن حَرَّفوه، فمثلًا: محاجَّةُ آدم لموسى[1]، قالت القَدَرِيَّة: هذا حديثٌ كَذِبٌ، لا يمكن، ولا نَقبَل أن آدمَ احتجَّ بالقدَر، لأنَّ الإنسانَ له إرادة، فهذا الحديثُ مخالِفٌ للعقل، وطريقُه آحاد فلا نقبله، ورَدُّوه.

والذي لا يمكن أن يردُّوه يُحرِّفونه، فيقولون: المراد به كذا وكذا، بناءً على أصول مذاهبهم.

٤٥٤- وَزَعَمْتَ أَنَّ النَّاسَ يَوْمَ مَزِيدِهِمْ كُلٌّ يُحَاضِرُ رَبَّهُ وَيُدَانِي

---

(١) يعني حديث: «احْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَى، فَقَالَ لَهُ مُوسَى: يَا آدَمُ أَنْتَ أَبُونَا خَيَّبْتَنَا وَأَخْرَجْتَنَا مِنَ الجَنَّةِ، قَالَ لَهُ آدَمُ: يَا مُوسَى اصْطَفَاكَ اللهُ بِكَلَامِهِ، وَخَطَّ لَكَ بِيَدِهِ، أَتَلُومُنِي عَلَى أَمْرٍ قَدَّرَهُ اللهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي بِأَرْبَعِينَ سَنَةً؟ فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى، فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى». أخرجه البخاري: كتاب القدر، باب تحاج آدم وموسى عند الله، رقم (٦٢٤٠)، ومسلم: كتاب القدر، باب، حجاج آدم وموسى -عليهما السلام-، رقم (٢٦٥٢).

٤٥٥- بِالْـحَاءِ مَعْ ضَادٍ وَجَا مَـعْ صَـادِهَا وَجْهَــانِ فِي ذَا اللَّفْــظِ مَحْفُوظَــانِ

قَوْلُهُ: «بِالْـحَاءِ مَعْ ضَادٍ» يعني: يُحَاضِر.

قَوْلُهُ: «وَجَا مَعْ صَادِهَا» (وجا) يعني: (وجاء) مع صادها، يعني: وجاء: يُحَاصِر.

قَوْلُهُ: «وَجْهَانِ فِي ذَا اللَّفْظِ مَحْفُوظَانِ» يعني: إنَّ لفْظ الحديث جاء بهذا وبهذا، يعني: (يُحاضِرُ أو يُحاصِر)، والمعنى متقارب، يعني أنَّ اللهَ تعالى يُكَلِّمُ العبدَ مُحاصرةً يعني: ليس معهما أحدٌ، أو محاضرةً يعني: مناقشةً، أي: أخذًا وردًّا.

٤٥٦- فِي التِّرْمِــذِيِّ وَمُسْــنَدٍ وَسِــوَاهُمَا مِــنْ كُتْــبِ تَجْسِــيمٍ بِــلَا كِــتْمَانِ

قَوْلُهُ: «فِي التِّرْمِذِيِّ» يعني: في جامع الترمذي.

قَوْلُهُ: «مِنْ كُتْبِ تَجْسِيمٍ» فهم يرون أن جميعَ الكتب التي تُثبتُ هذه الصفات كُلّها كتب تجسيم، لأنهم يَدَّعون أن إثباتَ هذه الصفات لله يقتضي التجسيمَ.

٤٥٧- وَوَصَــفْتَهُ بِصِــفَاتِ حَــيٍّ فَاعِــلٍ بِالْإِخْتِيَــارِ وَذَانِــكَ الْأَصْــلَانِ

٤٥٨- أَصْلُ التَّفَرُّقِ بَيْنَ هَـذَا الْـخَلْقِ فِي الْـ ـبَارِي، فَكُنْ فِي النَّفْـيِ غَـيْرَ جَبَـانِ

يعني: وزعمت أنه موصوف بصفات الحيِّ الفاعل الاختيارية، مثل: النزول، والاستواء، والضَّحِك، والفرَح، وما أشبهَ ذلك، فهذه أفعالٌ اختيارية.

وهذه الأفعال الاختيارية موصوف بها الإنسان، أو غير موصوف بها؟

الجواب: موصوف بها الإنسان، فيقول: زعَمْت هذا.

قَوْلُهُ: «وذَانِكَ الأصْلَانِ أَصْلُ التَّفَرُّقِ بَيْنَ هَذَا الْـخَلْقِ فِي البَارِي فَكُنْ فِي

النَّفْيِ غَيْرَ جَبَانِ» يعني: انفِ هذا الشيء، وقُلْ: إن اللهَ -تبارك وتعالى- ليس له فعلٌ اختياري.

ولذلك عند هؤلاء المعطِّلَة لا يستطيع اللهُ عزَّ وجلَّ أن ينزل، ولا أن يأتيَ للفصل، ولا أن يضحك، ولا أن يفرح، لأنهم يَدَّعون أن الأفعال الاختيارية تستلزِمُ حُدوثَ صفةٍ في الله، والحادِثُ لا يكون إلَّا بحادث.

وسبَق أن هذه قاعدةٌ باطلة، وأنَّ قيامَ الحوادث بما هو أَزَلِيٌّ لا يَمْنَعُ منه عقلٌ، ولا شرعٌ.

٤٥٩- أَوْ لَا، فَلَا تَلْعَبْ بِدِينِكَ نَاقِضًا نَفْيًا بِإِثْبَاتٍ بِلَا فُرْقَانِ

يعني: إن لم تكن شجاعًا في النفي، فلا تلعب بِدِينك، فمَرَّةً تنفي، ومَرَّةً تُثْبِت، إنْ حَصَرَكَ المناظر أَثْبَتَّ، وإن خَلَا لك الجوُّ نَفيْتَ، بل كن غير جَبانٍ، يعني: شجاعًا مع مَن يُثبِت لِتَغْلِبَه بالنفي.

٤٦٠- فَالنَّاسُ بَيْنَ مُعَطِّلٍ أَوْ مُثْبِتٍ أَوْ ثَالِثٍ مُتَنَاقِضٍ صِنْفَانِ[1]

٤٦١- وَاللهِ لَسْتَ بِرَابِعٍ لَهُمُ بَلَى إِمَّا حِمَارًا أَوْ مِنَ الثِّيرَانِ

يقول -رحمه الله-: إنَّ الناس ينقسمون إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: نافٍ -أي: مُعَطِّل- اطَّرَدَ نفيُه في كل الصفات.

القسم الثاني: مثبت لكُلِّ ما أثبته اللهُ لنفسه، اطَّرَدَ إثباتُه في كُلِّ الصفات.

القسم الثالث: متناقِض، يُثْبِتُ بعضَ الصفات دون بعض، أو يثبت تارَةً وينفي أخرى.

(١) في بعض النسخ: «صفعان»، وفي نسخة: «صَنْعَان».

وهذا تقسيم حاصل.

إِذَنْ لم يبقَ شيءٌ، ولذا قال: (وَاللهِ لَسْتَ بِرَابِعٍ لَهُمُ بَلَى).

قَوْلُهُ: «بَلَى» هنا بمعنى (بَل)، وابن القيم -رحِمه الله- يستعملها دائمًا بهذا المعنى، ووردت (بَلى) في القرآن في موضع بمعنى (بَل).

قَوْلُهُ: «إِمَّا حِمَارًا أَوْ مِنَ الثِّيرَانِ» علَّه لا يقول شيئًا أبدًا لا إثباتًا، ولا نفيًا، ولا ترددًا.

وذكر الحمار لأنَّ الحمارَ أبلدُ البهائم، ولهذا ضربه الله تعالى مثلًا بالذين ﴿حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾ [الجمعة:٥] ولأجل كونه أبلد الحيوان فهو أدلُّ الحيوان للطريق.

وذكر لنا شيخنا عبد الرَّزَّاق عفيفي -رحِمه الله- أنه لما كان أبلد الحيوان صار أدلّ الحيوان، إذ ليس عنده تفكير، فهو يمشي على هذه الطريقة، وقال: والذكي ليس يدلُّ كثيرًا، لأن مُخَّه دائمًا منشغِلٌ بغير الطريق.

أمَّا كون الحمار يدُلُّ فهذا شيء معلوم، وقد عرفنا هذا لما كنا فلاحين، وأما كون الذكي ما يدُلُّ كثيرًا، فهذا يحتاج إلى نظر، فقد لا نُسَلِّم، أنا أرى أن السائقين مِن أدلِّ الناس، فإذا ذهب معك إلى البيت ولو مرة واحدة فإنه يعرفُ البيتَ، لكن الراكب معه لا يعرف أبدًا، لأن السائق عنده تركيز بخلاف مَن معه.

بقي قَوْلُهُ: «أَوْ مِنَ الثِّيرَانِ» ما وجهه؟

هل نقول: إن ابن القيِّم -رحِمه الله- قالها تكميلًا للبيت، أو هناك ملاحظة؟

الجواب: فيه ملاحظة، فالثور ليس عنده حكمة، فهو يعيث بقرونه، ولا يبالي في مناسبة، أو غير مناسبة.

وذكروا لنا أن رجلًا -رحِمه الله- دخل إلى حَوْشِ البقر، فَعَدَا عليه الثور، ولا يستطيع أن يهرب الآن لأنه محاطٌ بالجدران، حتى ألجأه الثَّوْرُ إلى الجدار، يريدُ أَنْ يقتُلَه، فاتَّكَأَ الرجلُ على الجدار، وأمسك برأس الثور، ولفَّه حتى كسر رقبته وسقط.

وقصدي بهذا أن الثَّوْرَ ليس عنده تصرف، فالحِمار بليد ليس عنده عِلم، والثَّوْرُ -وإن كان عنده عِلم- لكن ليس عنده حكمةٌ، فالظاهر أن هذا مراده -رحمه الله-، وليس مراده أن يكمل شَطر البيت فقط.

* * *

٤٦٢- فَاسْمَحْ[1] بِإِنْكَارِ الجَمِيعِ وَلَا تَكُنْ	مُتَنَاقِضًا، رَجُلًا لَهُ وَجْهَانِ
٤٦٣- أَوْ لَا فَفَرِّقْ بَيْنَ مَا أَثْبَتَّهُ	وَنَفَيْتَهُ بِالنَّصِّ وَالْبُرْهَانِ
٤٦٤- فَالْبَابُ بَابٌ وَاحِدٌ فِي النَّفْيِ وَالْـ	إِثْبَاتِ فِي عَقْلٍ وَفِي مِيزَانِ
٤٦٥- فَمَتَى أَقَرَّ بِبَعْضِ ذَلِكَ مُثْبِتٌ	لَزِمَ الْجَمِيعَ أَوِ ائْتِ بِالْفُرْقَانِ
٤٦٦- وَمَتَى نَفَى شَيْئًا وَأَثْبَتَ مِثْلَهُ	فَمُجَسِّمٌ مُتَنَاقِضٌ دَيْصَانِي
٤٦٧- فَذَرُوا المِرَاءَ وَصَرِّحُوا بِمَذَاهِبِ الْـ	ـقُدَمَاءِ وَانْسَلِخُوا مِنَ الْإِيمَانِ
٤٦٨- أَوْ قَاتِلُوا مَعْ أُمَّةِ التَّجْسِيمِ وَالتْـ	ـتَشْبِيهِ تَحْتَ لِوَاءِ ذِي الْقُرْآنِ
٤٦٩- أَوْ لَا فَلَا تَتَلَاعَبُوا بِعُقُولِكُمْ	وَكِتَابِكُمْ وَبِسَائِرِ الْأَدْيَانِ
٤٧٠- فَجَمِيعُهَا قَدْ صَرَّحَتْ بِصِفَاتِهِ	وَكَلَامِهِ وَعُلُوِّهِ بِبَيَانِ

(١) في نسخة الشرح: «فاسمع».

٤٧١- وَالنَّـاسُ بَـيْنَ مُصَـدِّقٍ أَوْ جَاحِـدٍ أَوْ بَـيْنَ ذَلِـكَ أَوْ شَـبِيهُ أَتَـانِ

الشَّرحُ

٤٦٢- فَاسْمَحْ بِإِنْكَارِ الجَمِيعِ وَلَا تَكُـنْ مُتَنَاقِضًـا، رَجُـلًا لَـهُ وَجْهَـانِ

قَوْلُهُ: «**فَاسْمَحْ بِإِنْكَارِ الجَمِيعِ**» يعني: أَنْكِرِ الجميع، ويريد بذلك الأسماء والصفات كُلَّها، وحينئذٍ يكون البابُ عنده مطَّردًا، لا يثبت، لا الأسماء، ولا الصفات، ولا شَكَّ أن قاعِدتَهم هذه مُطَّردة، لكن هل هي صحيحة، أو غير صحيحة؟ المهم أنَّ قاعدتهم مُطَّردة.

قَوْلُهُ: «**وَلَا تَكُنْ مُتَنَاقِضًا**» التناقُض هو أن يُثبتَ البعضَ، وينفي البعضَ، فمثلًا المعتزِلة: أثبتوا الأسماءَ، وأنكروا الصفات، إذن تناقضوا، أيّ فرق بين هذا وهذا؟! فمَنْ أثبت الأسماء لزِمه أن يُثبت الصفات.

والأشاعرة -مثلًا- أثبتوا الأسماء، ولم يثبتوا مِن الصفات إلَّا سبعَ صفاتٍ فقط، هذا المعروف عنهم، وربما يكون هناك فِرَق أخرى أثبتت أكثر مِن السبع، أو فسرتها بتفاسير أخرى، فالأشاعرة أثبتوا الحياة، والعلم، والقدرة، والسمع، والبصر، والكلام، والإرادة، كما قال السفاريني -رحمه الله-[1]:

لَهُ الحَيَـاةُ، وَالكَـلَامُ، وَالبَصَـرْ، سَـمْعٌ، إِرَادةٌ، وَعِلْـمٌ وَاقْتَـدَرْ
بِقُـدَرةٍ تَعَلَّقَـتْ بِمُمْكِـنِ كَـذَا، إِرَادةٌ، فَـعِ وَاسْـتَبِنِ

(١) انظر كتابه: (لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية) (١/ ١٣٠).

فهؤلاء متناقضون، نقول لهم: لماذا أثبتم السبع الصفات، ولم تثبتوا غيرها؟! إما أن تثبتوا الجميع فتُوافقوا أهلَ السُّنَّة، وإما أن تنفوا الجميع فتُوافقوا المعتزِلة الذين تزعمون أنكم أنتم الذين تصدَّيتم للرَّدِّ عليهم، ولهذا نقول: المعتزلة أطردُ في القاعدة مِن الأشاعرة، وإن كانوا أخطئوا في إثبات الأسماء دون الصفات.

وقد قرأنا لبعض كُتَّابهم أنه لم يَرُدَّ أحد على المعتزِلة كما رَدَّ عليهم الأشاعرةُ. وهذا كذِبٌ وبُهتانٌ.

المهم أنَّ الاضطراد إما بإنكار الجميع، وإما بإثبات الجميع، ولهذا قال:

٤٦٣- أَوْ لَا فَفَرِّقْ بَيْنَ مَا أَثْبَتَّهُ ... وَنَفَيْتَهُ بِالنَّصِّ وَالْبُرْهَانِ

قَوْلُهُ: «**أَوْ لَا**» يعني: لا تُنْكر الجميعَ، أنكِر بعضها.

قَوْلُهُ: «**فَفَرِّقْ بَيْنَ مَا أَثْبَتَّهُ وَنَفَيْتَهُ بِالنَّصِّ والبُرْهَانِ**» هل يقدر أو لا يقدر؟ الجواب: لا يقدر أن يفرِّق بين ما أثبته وما نفاه.

فالأشاعرة -كما سبق- لا يُثبِتون لله إلَّا سبع صفاتٍ، والباقي لا يثبتونه، فالرحمة، والرضى، والغضب، والسخط، والكراهة، والبُغض، والمحبة، والوجه، وما أشبه ذلك، كُلُّ هذا -عندهم- ليس بثابتٍ لله على وجه الحقيقة، ويَجب أن يُؤوَّل، لماذا؟

منهم مَنْ قال: لأنَّ العقل لا يدل عليه، ونحن لا نُثْبِت إلَّا ما دلَّ عليه العقل.

ومنهم مَنْ قال: لأنَّ إثباته يَسْتَلْزِمُ التجسيمَ، لأننا لا نشاهد ما يتصف بذلك إلَّا ما هو جسم، فإذا أثبتنا حقيقته لله لزِم أن يكون جسمًا، ثُمَّ قالوا: الأجسام متماثِلة، وكل ما استَلْزَمَ باطلًا فهو باطل، لأنَّ المماثَلة باطلةٌ.

نقول لهم: ما دليلكم على إثبات العقل لهذه الصفات السبع؟ قالوا: الإيجاد يدلُّ على القدرة، فالسموات والأرض والبشر والحيوان كُلُّها مُوجَدٌ لله، فهذا دليل على القدرة، وهذا صحيح.

والتخصيص يدلُّ على الإرادة، ومعنى التخصيص أن يقول: هذه سماء، وهذه أرض، وهذا إنسان، وهذا جمل، وهذه شمس، وهذا قمر، فهذا يدلُّ على أنَّ هناك إرادةً فَرَّقَتْ بين الموجودَيْنِ، ولولا الإرادة لكان الخَلْقُ كُلُّهم شيئًا واحدًا، إذن تخصيصُ كُلِّ واحدٍ مِن المخلوقات بما يختصُّ به دليلٌ على الإرادة، وهذا صحيح.

لو نظرنا إلى هذه المخلوقات وجدنا أنها مُحكَمةٌ متقَنةٌ، قال الله تعالى:﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ [يس:٤٠] قالوا: إحكامُ هذه الأشياء وإتقانُها يَدُلُّ على العلم، لأنَّ الجاهل لا يُتْقِنُ، فلو أعطيت شخصًا مسجِّلًا لِفكِّه وتركيبه وهو لا يعرف ذلك، فإنه لا يستطيع ذلك، لأنه لا دراية ولا عِلم له بذلك، حتَّى لو قام بتركيبه على غير انتظام، فإنّ المسجلَ لا يعمل.

قالوا: فهذا النظام البديع، والإحكام الغريب يدلُّ على العِلم.

وهذا صحيح، فنوافقهم على ذلك، فاجتمع عندنا الآن ثلاث صفات، وهي: القدرة، والإرادة، والعلم.

قالوا: وهذه الصفات لا تقوم إلَّا بِحَيٍّ، لأنَّ الميت لا يستطيع، فليس عنده قدرة، ولا إرادة، ولا عِلم، إذن نثبت صفةَ الحياة بهذه الطريقة بأنها مِن لازم كونه عليمًا قادرًا مُريدًا أن يكون حيًّا. وهذا صحيح.

والحيُّ إمّا أن يكون أعمى أصمَّ أخرسَ، أو بصيرًا سميعًا متكلِّمًا، والأول

ممتنِع على الله، فلا يمكن أن يكون بهذا العيب، فبقِي الثاني، ولزم أن يكون سميعًا بصيرًا متكلِّمًا.

فنقول: وهذا أيضًا صحيح، وليتهم قالوا: والمريد إما أن يكون سفيهًا، وإمّا أن يكون حكيمًا، وهذا صحيح، والأول ممتنِع، فلزم الثاني، وهو الحكمة، لكن لم يقولوا هذا، وما هُدوا إليه، مع العِلم بأن هذا مِن أظهر ما يكون، فمثال المريد للشيء: الصبي الذي يمسك فنجان الشاي ويضرب به البيت، فهو هنا مريدٌ، لكن فِعله هذا سَفَهٌ، وليس بِحِكْمَة.

إِذَنْ كُلُّ مُرِيدٍ فإما أن يكون حكيمًا، وإما أن يكون سفيهًا، والثاني ممتنِعٌ على الرَّبِّ عزَّ وجلَّ، فلزِم أن يكون حكيمًا، ولهذا يقولون: فِعلُ الله، وحُكم الله، وتشريع الله لغير حكمة، لكن لمطلق الإرادة.

فالآن هذا دليل العقل لإثبات هذه الصفات السبع، والباقي -وهو كل ما حوى مِن قاموس الكتاب والسنّة- لم يثبتوه، وهذا مِن أعظم التناقض، فنحن نردُّ عليهم بأشياء كثيرة، بوجوه عقلية، فنقول:

أولًا: اعتمادكم على العقل فيما يُثْبَتُ لله، وفيما يُنْفَى عنه، هذا باطلٌ مِن أصله، لأنَّ الرسولَ ﷺ والصحابةَ والخلفاءَ والأئمةَ مِن بعدِهم ما جعلوا مَدار هذه الأشياء على العقل، فالاعتمادُ على العقل طريقٌ مُحْدَثٌ بِدْعِيٌّ وضلال، لقول الرسول -عليه الصلاة والسلام-: «كُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلُّ ضَلَالةٍ فِي النَّارِ»[1].

ثانيًا: نقول: اعتمادُكم على العقل مخالِفٌ للعقل، ولا نقول: العقل لا يثبته، بل نقول: هو مخالفٌ للعقل، وبين هذه والتي قبلها فرق، كيف يكون مخالفًا

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب تخفيف الصلاة والخطبة، رقم (٨٦٧).

للعقل؟ لأنَّ مِن المعلوم لكلِّ أحد أنَّ طريق الإثبات في هذه الأمور هو السمع، فليس لنا طريق أن نثبت لله تعالى مِن ذلك شيئًا، أو نَنفيَه إلَّا عن طريق السمع، فالعقل إذن يؤيد أننا لا نعتمد في إثبات هذه الأمور، أو نفيها إلَّا على السمع، لا على العقل، فصار تحكيم العقل في هذه الأمور مخالفًا للعقل.

ثالثًا: أن نقول: يمكن أن نثبت ما نفيتموه بالعقل، كما أثبتُّم ما أثبتموه بالعقل، مع أن نفي الأمور الخبرية لا مدخل للعقل فيها، إذ إن موقف العقل سيكون التوقف.

ونقول مثلًا: جلبُ النِّعَمِ، ودفعُ النِّقمِ دليلٌ على الرحمة، فَلْتُثْبَت، كما استدللتم بالتخصيص على الإرادة، بل ودلالة ذلك على الرحمة أقوى مِن دلالة التخصيص على الإرادة الذي زعمت أيها الأشعريّ أنه دليل عقلي على إثبات الإرادة.

هم يقولون: الإرادة تُثْبَتُ بالعقل، لأننا نشاهد المخلوقات لها خصائص، كلّ واحد له خصيصة، فتخصيصُ كُلِّ شيء بما يختص به يدلُّ على أنَّ هناك إرادة.

نقول: سبحان الله! هذا الدليل الخفيّ الذي قد يَعْسُرُ فَهْمُه على طالب العلم هل هو أقوى مِن دليل الغيث على الرحمة؟ الجواب: لا والله، ليس بأقوى.

ونقول: عقوبةُ المجرمين ومثوبةُ الطائعين دليلٌ على كراهة الأوَّلين ومحبَّةِ الآخرين، إذ لا يمكن لشخص أن يمسكَ إنسانًا ويجلده، ويضربه ضربًا مُبَرِّحًا، ويقول له: (والله إني أُحِبُّك، فأنت أحبُّ إليَّ مِن كثير مِن الناس)، وهو يضربه، فالعقوبة تدلُّ على الكراهة.

لكن واحد يضرب شخصًا ضربًا مبرِّحًا ويجلده، ويقول له: (والله إني أكرهك) فهذا صادق، وإنسان آخر دعا شخصًا إلى بيته، وأكرمه غاية الإكرام،

وألبسه مِن خير اللِّباس، وأركبه مِن خير المركوب، وقال: تدري لِـمَ فعلتُ بك هذا؟ قال: نعم، قال: لأني أكرهك. فلا يمكن هذا.

إِذَنْ مثوبة الطائعين وعقوبة المجرمين دليلٌ واضح على أن الله يُحِبُّ الأوَّلين ويكرهُ الآخرين.

فنقول لهم: يمكن أن نُثْبِتَ ما نفيتموه بطريق العقل كما أثبتم أنتم ما أثبتموه بطريق العقل، بل إِنَّ إثباتنا قد يكونُ أوضح.

رابعًا: أن نقول: هَبْ أن العقلَ لا يدلُّ على ما نَفَيْتم، هب أن العقلَ لا يدل على إثبات الرحمة لله، أو إثبات الرِّضى، أو الغضب، أو ما أشبه ذلك، ولكن السمع أثبته، فإذا انتفى الدليلُ العقلِيُّ على زعمكم، فقد أثبته الدليلُ السمعيُّ، والقاعدة التي أطبق عليها جميع العقلاء أنَّ انتفاءَ الدليلِ المُعَيَّن لا يستلزمُ انتفاءَ المدلول، لأنَّ المدلول قد يَثْبُت بدليل آخر، فإذا انتفى هذا الدليل، فهناك دليل آخر، فهب أن هذا الدليل قد انتفى، لكن هناك دليلٌ آخر.

وكما أن هذا في المعقولات فهو أيضًا في المحسوسات، أرأيت لو كان لِـمَكَّةَ ثلاثة طرق، فأردتُ أن أسافر إليها، فجاءني رجل فقال: إنَّ الطريق الشمالي مغلق، فقلت: إذن أذهبَ مِن الطريق الوسط، فقال: مغلق، فأقول: أذهب مِن الطريق الجنوبي، فهل إذا انسدَّ طريقان يوصلان إلى مكة، ولها ثلاثة طرق، يستلزم انسداد الطريق الثالث؟ الجواب: لا.

فإذا كانت هذه الصفات -كما زعمتم- لا يدلُّ عليها العقل، فالسمع يدلُّ عليها، فوجب إثباتُها بالدليل السَّمْعِيِّ القائمِ السالمِ عن المُعارِض المقاوِم.

فتبيَّن بهذا أنَّ المؤلف -رحِمه الله- يقول لهؤلاء الجماعة: أنتم متناقِضون،

والمعتزِلة أكثر اضطرادًا منكم في القاعدة، لأنَّ المعتزِلةَ يُنكِرون كُلَّ الصفات، فيقولون: أريحونا مِن التناقض، فليس لله صفة، فلا عِلم، ولا قُدرة، ولا حياة، ولا حكمة، ولا كلام، وأما الجهمية فينكرون الأسماء والصفات.

انظر -والعياذ بالله- فكُلٌّ أخذ قسمًا، فالجهمية قالوا: دعُونا مِن التناقض، لا تقولوا: لماذا أثبتم الأسماء ونفيتم الصفات؟ فالكُلُّ نَفرٌّ منه جميعًا، فلا اسمَ، ولا صفة.

فاحمدوا الله على أنْ عافاكم مما ابتلاهم به.

وأمَّا أهل السنة فقالوا: نُثبِت كل ما أثبته الله لنفسه في كتابه، أو على أَلْسِنة رُسُله.

وهذا هو الحقّ، لأنَّ هذه أمور غيبية لا تُدْرَكُ بالعقل، فوجب تلقيها مِن السمع **(الكتاب والسنَّة)**.

فالمهم أنَّ الأشاعرةَ متناقِضون لا شكَّ، فما هو الطريق السليم الصحيح؟

الجواب: الطريق هو إثبات الجميع، فكلُّ ما سَمَّى الله به نفسه فثابتٌ، وكُلُّ ما وصف به نفسه فثابتٌ على الوجه الحقيقي، لكن يجب أن نلاحظَ قولَ الله عزَّ وجلَّ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، ولهذا قال المؤلف -رحمه الله-:

٤٦٤- فَالْبَابُ بَابٌ وَاحِدٌ فِي النَّفْيِ وَالْـ ... إِثْبَاتِ فِي عَقْلٍ وَفِي مِيزَانِ

نحن الآن في سياق الرَّدِّ على الأشاعرة الذين يُثبتون بعضًا، وينفون بعضًا، فهو يقول: كيف تُثبتُ شيئًا، وتنفي مِثله والبابُ بابٌ واحد؟! إما أن تُثبتَ الجميعَ، وإما أنْ تنفيَ الجميعَ، وهذا هو العدل.

٤٦٥- فَمَتَـى أَقَـرَّ بِـبَعْضِ ذَلِـكَ مُثْبِـتٌ   لَـزِمَ الْـجَمِيعَ أَوِ ائْـتِ بِالْفُرْقَـانِ

قَوْلُهُ: «فَمَتَى أَقَرَّ بِبَعْضِ ذَلِكَ مُثْبِتٌ» لو قال المؤلف: «**فمتى أَقَرَّ ببعض ذلك مُثْبِتًا**» لكان أحسن، والمعنى: إذا أَقَرَّ ببعض ذلك مُثبتًا له لزِمه الجميعُ، أو أن يأتيَ بالفرقان، فيقول: أَثْبَتُّ كذا لكذا، ونَفَيْتُ كذا لكذا.

وقد تقدَّم أنَّ الأشاعرة لهم شُبْهَة فيما أثبتُوه، ولهم شُبهة فيما نَفَوْهُ، وسَبَقَ أن شُبْهَتَهُمُ التي احتجوا بها باطلةٌ مِن عدة أوجه:

أولًا: الاعتماد على العقل غير صحيح.

ثانيًا: العقل يقتضي عدم الاعتماد على العقل.

ثالثًا: إذا قُدِّرَ أن العقل لم يدلّ فقد دَلَّ عليه السمع، وانتفاء الدليل المُعَيَّن لا يَسْتَلْزِم انتفاء المدلول.

رابعًا: أنَّ العقل قد دلَّ على ما نفَوْه بالعقل.

خامسًا: ويمكن أيضًا أن نستدلَّ على بطلان مذهبهم بالتناقض، فنقول: مذهبكم متناقض أيضًا، إذ لا فرق بين ما نفيتموه وبين ما أثبتموه.

سادسًا: نقول: إنَّ نفيَكم يَلْزَمُ منه أنكم فررتم مما أثبته الله لنفسه، ووقعتم في نظير ما فررتم منه، وضربنا مثلًا فيما سبق بـ(اليد)، قالوا: لا نثبتها، لأنَّ للإنسان يدًا، وإثبات اليد يَسْتَلْزِمُ التشبيه، قلنا: قلتم: إنها بمعنى القوة، وللإنسان قوة، فإثبات القوة عندكم يستلزم التشبيه، فوقعتم في مِثل ما فررتم منه، ولكن على وجهٍ أقبحَ، وهو تحريفكم للنصوص عن ظاهرها إلى هذا المعنى الذي أبديتموه.

إذا أقرُّوا بثبوت السبع الصفات يلزمهم إثبات البقية، وإلَّا فليأتوا بالبرهان، ولا برهانَ لهم والحمد لله، وقد أبانَ اللهُ -سُبحانَه وتعالَى- الحقَّ على يد أهل العلم الربَّانيين.

٤٦٦- وَمَتَى نَفَى شَيْئًا وَأَثْبَتَ مِثْلَهُ فَمُجَسِّمٌ مُتَنَاقِضٌ دَيْصَانِي

قَوْلُهُ: «مُجَسِّم»، لأنه أثبت، وهو يدَّعي أنَّ الإثبات يَستلزِم التشبيه.

قَوْلُهُ: «مُتَنَاقِضٌ» حيث نفى شيئًا قد أثبت مِثلَه، فهو مُجَسِّمٌ مُتَنَاقِض.

قَوْلُهُ: «دَيْصَانِي» نسبة إلى طائفة الدَّيْصانية[1].

٤٦٧- فذَرُوا المِرَاءَ وَصَرِّحُوا بِمَذَاهِبِ الْـ ـقُدَمَاءِ وَانْسَلِخُوا مِنَ الْإِيمَانِ

قَوْلُهُ: «ذَرُوا المِرَاءَ» يعني: اتركوا الجدال، والجدال بغير الحقِّ، أو لغير الحقِّ مِراء، وأمَّا الجدال بالحقِّ، فليس بِمِراء، بل هو لإثبات الحقِّ، فلا يُذَمُّ الإنسانُ عليه.

قَوْلُهُ: «وَصَرِّحُوا بِمَذَاهِبِ الْقُدَمَاءِ» يعني بذلك الفلاسفةَ الذين انسلخوا مِن الأديان.

---

(١) الديصانية: أصحاب ديصان، أثبتوا أصلين نورًا، وظلامًا، فالنور يفعل الخير قصدًا واختيارًا، والظلام يفعل الشر طبعًا واضطرارًا، فما كان مِن خير، ونفع، وطيب، وحسن، فمن النور. وما كان من شر وضرر، ونتن، وقبح، فمن الظلام، وزعموا أن النور: حي، عالم، قادر، حساس، دراك، ومنه تكون الحركة والحياة، والظلام: ميت، جاهل، عاجز، جماد، موات، لا فعل له ولا تمييز. وزعموا أن الشر يقع منه طباعًا وخرقًا، وزعموا أن النور جنس واحد، وكذلك الظلام جنس واحد، وأن إدراك النور إدراك متفق، فإن سمعه وبصره وسائر حواسه شيء واحد، فسمعه هو بصره، وبصره هو حواسه، وإن ما قيل سميع بصير، لاختلاف التركيب، لا لأنها في نفسها شيئان مختلفان. انظر: الملل والنحل (٢/ ٥٥).

يقول: إذا كان الأمرُ على هذا الوجه، والعقيدة على هذا الوجه المتناقِض فاتركوها، دعونا لنكونَ مطَّرِدين في القاعدة، انسلخوا مِن الإيمان.

وبهذا نعرف ضلال مَن قال مِن الناس: إنَّ الأشاعرة الذين حَكَّموا العقل هم الذين سَدُّوا البابَ على الفلاسفة والمناطقة، وابن القيم على العكس مِن هذا الرأي، إذ يرى أن هؤلاء هم الذين فتحوا البابَ للفلاسفة والمناطقة والملحدين.

قال: إذا كنتم متناقضين في عقيدتكم -وهذه عقيدة فليست بهينة، فليست بكلامٍ يُقال، بل عقيدة، كيف تُثبتون الإرادة وتنفون الرحمة والباب واحد؟! إذن هذه عقيدة باطلة متناقضة لا نرضاها، فنرضى على زعمهم النفيَ في كُلِّ شيء، والكفر- فانسلخوا مِن الإيمان، وهذه العقائد المتناقضة الفاسدة، وقولوا: لا نؤمن بشيء أبدًا.

فَتَبَيَّن بهذا أَنَّ تناقضَ هؤلاء واضطرابهم هو الذي فتح للملاحدة الباب، قالوا: كيف يبني إنسان عقيدتَه -التي عليها محياه ومماته- على أمورٍ متناقضة؟! هذا لا يمكن.

وهذه نقطة مهمة في كلام ابن القيم -رحمه الله-.

٤٦٨- أَوْ قَاتِلُوا مَعْ أُمَّةِ التَّجْسِيمِ وَالتْـ ـــتَشْبِيهِ تَحْتَ لِوَاءِ ذِي الْقُرْآنِ

قَوْلُهُ: «**قَاتِلُوا مَعْ أُمَّةِ التَّجْسِيمِ**» يعني: على زعمهم، والمراد بهم أهل السُّنَّة حتى عند الأشاعرة، فهم يقولون: أنتم يا أهل السنّة مُجَسِّمَة.

فإذا رأيت في كتبهم: (مُجَسِّمة) فاعلَمْ أنهم يقصدون بذلك أهلَ السنة والجماعة.

فالفلاسفة يقولون: لكم أحد أمرين: إما أن تنسلخوا مِن الأديان كُلِّيَّةً، وإلَّا كونوا مع أهل التجسيم والتشبيه، قاتلوا مع هؤلاء الأئمة الذين تعتقدون أنهم مُشَبِّهة مُجَسِّمة، لأنَّ كلامَ أهل التجسيم والتشبيه -على زعمهم- غيرُ متناقِض، فكلامهم مُطَّرِد، وهو إثبات ما أثبته لنفسه مِن غير فرق بين صفة وصفة.

قَوْلُهُ: «تحتَ لِوَاءِ ذِي القُرْآنِ» أي: تحت لواء صاحب القرآن.

٤٦٩- أَوْ لَا فَلَا تَتَلَاعَبُوا بِعُقُولِكُمْ وَكِتَابِكُمْ وَبِسَائِرِ الْأَدْيَانِ

٤٧٠- فَجَمِيعُهَا قَدْ صَرَّحَتْ بِصِفَاتِهِ وَكَلَامِهِ وَعُلُوِّهِ بِبَيَانِ

يعني: إذا لم تكونوا مع أُمة التشبيه والتجسيم، فأنتم مُتَلاعبون بكتابكم وعقولكم وبسائر الأديان، لأنَّها كُلَّها قد صَرَّحَت بصفاته وكلامه وعلوِّه ببيان.

انظر الآن إلى الفلاسفة والملاحدة الذين يرون أن الذين يُنكِرون بعضًا ويُثبتون بعضًا لم يُحَكِّموا العقلَ، وأنَّ هذا التناقضَ تلاعبٌ بالعقول.

٤٧١- وَالنَّاسُ بَيْنَ مُصَدِّقٍ أَوْ جَاحِدٍ أَوْ بَيْنَ ذَلِكَ أَوْ شَبِيهُ أَتَانِ

قَوْلُهُ: «أتان» الأتان: أنثى الحمار.

فالناس على أربعة أقسام:

الأول: «مصَدِّقٍ» كأهل السنة، أي: مُقِرّ بما أثبته اللهُ لنفسه، وأثبته له رسولُه.

الثاني: «أَوْ جَاحِدٍ» كأهل التعطيل، يعني: منكرًا.

الثالث: «أَوْ بَيْنَ ذَلِكَ» كالأشاعرة مُصَدِّق ببعض وجاحد ببعض.

الرابع: البليد: الذي ليس عنده عقيدة إطلاقًا، لا هذا ولا هذا، فيقول: إن هذا يُشبه الأتان، أي: الحمارة، والعياذ بالله.

* * *

٤٧٢- فَاصْنَعْ مِنَ التَّنْزِيهِ تُرْسًا مُحْكَمًا ... وَانْفِ الْجَمِيعَ بِصَنْعَةٍ وَبَيَانِ

٤٧٣- وَكَذَاكَ لَقِّبْ مَذْهَبَ الْإِثْبَاتِ بِالتْـ ... ـتَجْسِيمِ، ثُمَّ احْمِلْ عَلَى الْأَقْرَانِ

٤٧٤- فَمَتَى سَمَحْتَ لَهُمْ بِوَصْفٍ وَاحِدٍ ... حَمَلُوا عَلَيْكَ بِحَمْلَةِ[1] الْفُرْسَانِ

٤٧٥- فَصُرِعْتَ صِرْعَةَ مَنْ غَدَا مُتَلَبِّطًا ... وَسْطَ الْعَرِينِ مُمَزَّقَ اللُّحْمَانِ

٤٧٦- فَلِذَاكَ أَنْكَرْنَا الْجَمِيعَ مَخَافَةَ التْـ ... ـتَجْسِيمِ إِنْ صِرْنَا إِلَى الْقُرْآنِ

٤٧٧- وَلِذَا خَلَعْنَا رِبْقَةَ الْأَدْيَانِ مِنْ ... أَعْنَاقِنَا فِي سَالِفِ الْأَزْمَانِ

الشرحُ

٤٧٢- فَاصْنَعْ مِنَ التَّنْزِيهِ تُرْسًا مُحْكَمًا ... وَانْفِ الْجَمِيعَ بِصَنْعَةٍ وَبَيَانِ

قَوْلُهُ: «التَّنْزِيه» يعني: أَنْ تُنَزِّه اللهَ عزَّ وجلَّ عن مشابهة المخلوقين، وهم بإنكارهم ما أنكروه مِن الأسماء والصفات كلِّها، أو بعضها إنما يريدون -على زعمهم- التنزيه، وأنه لو وُصِفَ اللهُ تعالى بما وُصِفَ به لكان مشابهًا للمخلوق.

فيقول: «**اصْنَعْ مِنَ التَّنْزِيهِ تُرْسًا مُحْكَمًا**» يعني: تَتَرَّسْ بالجحد، والتُّرْس ما يَتَتَرَّسُ به المقاتل، حتى لا تصيبَه السهام، فخذْ مِن التنزيه الذي هو الجحد تُرسًا محكمًا، وقلْ: نُنَزِّه الله أن نثبت له شيئًا، لأننا إذا أثبتنا له شيئًا شبَّهناه بالأجسام.

(١) في نسخة الإفتاء وبرلين السفارينية: «بجملة» بجيم تحتانية.

٤٧٣- وَكَذَاكَ لَقِّبْ مَذْهَبَ الْإِثْبَاتِ بِالتْـ ـتَجْسِيمِ، ثُـمَّ احْمِـلْ عَـلَى الْأَقْـرَانِ

قَوْلُهُ: «**وَكَذَاكَ لَقِّبْ مَذْهَبَ الإِثْبَاتِ بِالتَّجْسِيم**» إذن أَثْبِتْ وانْفِ، أثبت بأَنَّك مُنزِّه، وانفِ بأنَّ المُثْبِتَ مُجَسِّمٌ، فيكون لك مَقتلان:

الأول: أنك تريد التنزيهَ بهذا التعطيل.

الثاني: أنَّ المثبِتَ مُجَسِّمٌ.

قَوْلُهُ: «**ثُمَّ احْمِلْ عَلَى الأَقْرَانِ**» الأقران جمع (قِرْن) وهو المماثل للإنسان، ولهذا يُقَال: فلانٌ قِرْنُ فلانٍ، أو قَرينه، أي: مماثل له.

٤٧٤- فَمَتَى سَمَحْتَ لَـهُمْ بِوَصْفٍ وَاحِدٍ حَمَلُـوا عَلَيْـكَ بِحَمْلَـةِ الْفُرْسَـانِ

يعني: لو أنك أَثْبَتَّ وصفًا واحدًا حَمَلُوا عليك، لكن كيف يحملون عليك؟

الجواب: بأن يقولوا: أنت أَثْبَتَّ كذا، فما الفَرق بينه وبين ما نفيتَ؟

إِذَنْ لا تُثْبِت شيئًا حتى تَسْلَمَ مِن الإيراد والتناقض.

وهذه وصية غير مقبولة، لكن هم يُوصي بعضُهم بعضًا، ويقول: إيَّاك أن تُقِرَّ بوصف واحد، إِنْ أقررتَ لله بوصفٍ واحد قالوا لك: ما الفرق؟ أثبِتِ الباقيَ، أو انفِ الكُلَّ.

٤٧٥- فَصُرِعْتَ صِرْعَةَ مَـنْ غَـدَا مُتَلَبِّطًـا وَسْـطَ الْعَـرِينِ مُـمَزَّقَ اللُّحْـمَانِ

يعني أنك إذا فعلتَ هذا، وأقررتَ بوصفٍ، وحَمَلُوا عليك صرعوك «**صِرْعَةَ مَنْ غَدَا مُتَلَبِّطًا وَسْطَ العَرِينِ**»، والعَرِين هو مَسكن الأسد، والأسد معروف أنه يأكلُ الآدميَّ، ويُمَزِّقُ لحمَه في مكانه.

٤٧٦- فَلِذَاكَ أَنْكَرْنَا الْـجَمِيعَ مَخَافَـةَ التْـ ـــتَجْسِيمِ إِنْ صِرْنَــا إِلَى الْقُـــرْآنِ

قَوْلُهُ: «**أَنْكَرْنَا الْـجَمِيعَ**» يعني: جميع الصفات على رأي المعتزِلة، أو الأسماء والصفات على رأي غُلاةِ الجهمية، «**مَخَافَةَ التَّجْسِيمِ إنْ صِرْنَا إلى القُرْآنِ**».

وسبحان الله! أنا لا أظنهم يُعبِّرون بهذا التعبير «**مَخَافَةَ التَّجْسِيمِ إنْ صِرْنَا إلى القُرْآنِ**» إلَّا إذا أراد المؤلفُ -رحمه الله- بقوله: «**إنْ صِرْنَا إلى القُرْآنِ**» أي: إلى ظاهر القرآن، أمَّا أن يُعلنوا أنهم على خلاف القرآن فلا أظنهم يفعلون هذا، لكن يجب أن يُحمَل كلام المؤلف على أن المعنى: إنْ صِرْنَا إلى ظاهر القرآن، لأنهم يَرَوْنَ أنَّ ظاهر القرآن فيما يتعلق بالصفات يَسْتَلْزِمُ التجسيمَ والتشبيهَ.

٤٧٧- وَلِـذَا خَلَعْنَـا رِبْقَـةَ الْأَدْيَـانِ مِـنْ أَعْنَاقِنَــا فِي سَــالِفِ الْأَزْمَــانِ

فهم خَلَعُوا رِبْقَةَ الأديان مِن أعناقهم -والعياذ بالله- وعلى زعمهم أنهم تَحَرَّرُوا، ولكنهم في الحقيقة لم يتحرَّروا، فهم غَلُّوا أيديَهم إلى أعناقهم بِرِقِّ الشيطان، والنفسِ الأمَّارة بالسوء.

* * *

٤٧٨- وَلَنَـا مُلُـوكٌ قَـاوَمُوا الرُّسْـلَ الأُلَى جَـاءُوا بِإِثْبَـاتِ الصِّـفَاتِ كَـمَانِي

٤٧٩- فِي آلِ فِرْعَــونٍ وَهَامَــانٍ وَقَــا رُونٍ وَنُمْــــرُودٍ وَجِنْكِزْخَـــانِ

٤٨٠- وَلَنَــا الْأَئِمَّــةُ كَالْفَلَاسِــفَةِ الْأُلَى لَــمْ يَعْبَئُـوا أَصْـلًا بِـذِي الْأَدْيَـانِ

٤٨١- مِــنْهُمْ أَرِسْــطُو ثُــمَّ شِــيعَتُهُ إِلَى هَــذَا الْأَوَانِ وَعِنْــدَ كُــلِّ أَوَانِ

٤٨٢- مَــا فِــيهُمُ مَــنْ قَــالَ إِنَّ اللهَ فَــوْ قَ الْعَـرْشِ خَـارِجَ هَـذِهِ الْأَكْـوَانِ

٤٨٣- كَـــلَّا وَلَا قَـــالُوا بِـــأَنَّ إِلَـــهَنَا مُـــتَكَلِّمٌ بِـــالْوَحْيِ وَالْقُـــرْآنِ

٤٨٤- وَلِأَجْـــلِ هَـــذَا رَدَّ فِرْعَـــونٌ عَـــلَى مُوسَـى وَلَـمْ يَقْـدِرْ عَـلَى الْإِيـمَانِ

٤٨٥- إِذْ قَـــالَ مُوسَـــى: رَبُّنَـــا مُـــتَكَلِّمٌ فَـــوْقَ السَّـــمَاءِ وَإِنَّـــهُ مُتَـــدَانِي

الشـرحُ

٤٧٨- وَلَنَـا مُلُـوكٌ قَـاوَمُوا الرُّسْـلَ الأُلَى جَـاءُوا بِإِثْبَـاتِ الصِّـفَاتِ كَـمَانِي

٤٧٩- فِي آلِ فِرْعَـــونٍ[1] وَهَامَـــانٍ[2] وَقَـــا رُونٍ[3] وَنُمْـرُودٍ[4] وَجِنْكِزْخَـانِ[5]

كُلُّ هؤلاء الذين ذُكِروا طُغاة، والعياذ بالله.

على كُلِّ حال هو يتكلَّم عن هؤلاء الذين عطَّلوا الصفات، مثل: ابن سينا وأتباعه، وأئمَّة الكفر، وقال: إنهم يستدلون بقول فرعون وهامان، والله عزَّ وجلَّ يقول عن قوم فرعون: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ [القصص:٤١].

قال المؤلف -رحمه الله-:

٤٨٠- وَلَنَـــا الْأَئِمَّـــةُ كَالْفَلَاسِـــفَةِ الْأُلَى لَـــمْ يَعْبَئُـوا أَصْـلًا بِـذِي الْأَدْيَـانِ

---

(١) فرعون: ملك مصر الجبار الذي أُرسل إليه موسى -عليه السلام-.

(٢) وهامان: وزيره. [الشارح].

(٣) قارون: كان من بني إسرائيل لكنه كان غنيًّا، ويَدين بدين فرعون. [الشارح].

(٤) نمرود: هو ابن كنعان ملك بابل، كان على زمن الخليل إبراهيم -عليه السلام-، ذكروا أنه هو الذي حاجَّ إبراهيم في ربه، وكان جبارًا طاغية. [الشارح].

(٥) جنكزخان، سبق ذكره. [الشارح].

الفلاسفة يُقال: إنهم الحكماء، وأصل الفلسفة يعني: الحكمة.

هؤلاء الفلاسفة لا يؤمنون بالرَّبِّ حسَبَ ما يُظهِرون، ويقولون: إن الكونَ يتفاعل، وينتقل حسب قوانين ونُظُم يَدَّعُونها، ولذلك «**لَمْ يَعْبَئُوا أَصْلًا بِذِي الأَدْيَانِ**» منهم: أرسطو.

ولذا قال:

٤٨١- مِنْهُمْ أَرِسْطُو[1] ثُمَّ شِيعَتُهُ إِلَى   هَذَا الْأَوَانِ وَعِنْدَ كُلِّ أَوَانِ

٤٨٢- مَا فِيهِمُ مَنْ قَالَ إِنَّ اللهَ فَوْ   قَ الْعَرْشِ خَارِجَ هَذِهِ الْأَكْوَانِ

٤٨٣- كَلَّا وَلَا قَالُوا بِأَنَّ إِلَهَنَا   مُتَكَلِّمٌ بِالْوَحْيِ وَالْقُرْآنِ

٤٨٤- وَلِأَجْلِ هَذَا رَدَّ فِرْعَونُ عَلَى   مُوسَى وَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى الْإِيمَانِ

٤٨٥- إِذْ قَالَ مُوسَى: رَبُّنَا مُتَكَلِّمٌ   فَوْقَ السَّمَاءِ وَإِنَّهُ مُتَدَانِي

قَوْلُهُ: «مِنْهُمْ» أي: مِن أئمة الفلاسفة.

وأرسطو كان تلميذًا لأفلاطون، ولكنه خالفه في كثير مِن المسائل.

قَوْلُهُ: «مُتَدَانِي» وفي نسخة «نَادَانِي»، والظاهر أَنَّ «ناداني» أحسن، وعلى نسخة «متداني» يعني: كأنه قال: إنَّ الله -سُبحانَه وتعالَى- فوق السماء، وإنه كَلَّمني عن قُربٍ، كقوله تعالى: ﴿وَقَرَّبْنَهُ نَجِيًّا﴾ [مريم:٥٢].

---

(١) أرسطو: هو الفيلسوف اليوناني المشهور، واضع علم المنطق، ولد قبل الميلاد سنة (٣٨٤ ق.م)، ومات قبل الميلاد سنة (٣٢٢ ق.م)، وكان معلمًا للإسكندر الأكبر، وكان يحاضر وهو ماش فسمي هو وأتباعه بالمشائين، وكان له أثرٌ كبيرٌ في علم الفلسفة، فكان يلقب (المعلم الأول)، وأبو نصر الفارابي (المعلم الثاني)، وأبو علي بن سينا (المعلم الثالث). [الشارح].

٤٨٦- وَكَذَا ابْنُ سِينَا لَمْ يَكُنْ مِنْكُمْ وَلَا ... أَتْبَاعُهُ، بَلْ صَانَعُوا بِدِهَانِ

٤٨٧- وَكَذَلِكَ الطُّوسِيُّ لَـمَّا أَنْ غَدَا ... ذَا قُدْرَةٍ لَمْ يَخْشَ مِنْ سُلْطَانِ

٤٨٨- قَتَلَ الخَلِيفَةَ، وَالقُضَاةَ، وَحَامِلِي الْـ ... ـقُرْآنِ، وَالْفُقَهَاءَ، فِي الْبُلْدَانِ

٤٨٩- إِذْ هُمْ مُشَبِّهَةٌ مُجَسِّمَةٌ وَمَا ... دَانُوا بِدِينِ أَكَابِرِ الْيُونَانِ

٤٩٠- وَلَنَا الْـمَلَاحِدَةُ الْفُحُولُ أَئِمَّةُ التَّـ ... ـعْطِيلِ وَالتَّشْبِيهِ[1] آلُ سِنَانِ

٤٩١- وَلَنَا تَصَانِيفٌ بِهَا غَالَيْتُمُ ... مِثْلُ: (الشِّفَا) وَ(رَسَائِلِ الإِخْوَانِ)

الشرحُ

٤٨٦- وَكَذَا ابْنُ سِينَا لَمْ يَكُنْ مِنْكُمْ وَلَا ... أَتْبَاعُهُ، بَلْ صَانَعُوا بِدِهَانِ

يعني أن ابن سِينا وأتباعَه ليسوا مِن هؤلاء المُثْبِتَة، ولا مِن أهل السُّنَّة، لكنهم صانَعوا، وأظهروا الإسلامَ مُداهنةً، وإِلَّا فهُم زنادِقَة منافقون كُفَّار، إلَّا أَنَّهم أظهروا أنَّهم مسلمون، ولهذا يفخر أهلُ القومية العربية بأن ابنَ سينا منهم، وهو طبيب مشهور، فتجدهم يترفَّعون به، حتى إننا سمِعنا أن بعضَ المدارس والمستشفيات تُسَمَّى باسمه، مع أنه زِنْدِيقٌ مُلْحِدٌ.

٤٨٧- وَكَذَلِكَ الطُّوسِيُّ[2] لَـمَّا أَنْ غَدَا ... ذَا قُدْرَةٍ لَمْ يَخْشَ مِنْ سُلْطَانِ

الطُّوسِيُّ كان وزيرًا لآخر خلفاء بني العباس، وكان خبيثًا ماكرًا مخادعًا،

---

(١) في نسخة: «والتسكين».

(٢) الطوسي: هو محمد بن محمد الطوسي الفيلسوف، كان وزيرا لهولاكو ملك التتر، وكان معه في واقعة بغداد التي قتل فيها الخليفة العباسي، يلقب نصير الدين، لكن لقبه ابن القيم في (إغاثة اللهفان) نصير الشرك والكفر، وسماه مُلحدا، وذكر له فظائع، ولد بطوس قرب نيسابور سنة (٥٩٧هـ)، ومات ببغداد سنة (٦٧٢هـ) عن (٧٥) سنة [الشارح]. انظر ترجمته في: البداية والنهاية (١٣/ ٣١٣).

طلب مِن التتر أن يَقْدَمُوا إلى بغداد عاصمة المُلك، وسَهَّلَ لهم الطريقَ، ووصف لهم كيف يأتون زمنًا ومكانًا، وحصل ما حصل مِن المصيبة العُظمى، كما يقول المؤلف -رحمه الله-:

٤٨٨- قَتَلَ الخَلَيفَةَ[1]، وَالقُضَاةَ، وَحَامِلِي الْـ ـــقُرْآنِ، وَالْفُقَهَـاءَ، فِي الْبُلْـدَانِ

قتل أممًا عظيمة مِن العلماء، قتلهم لأنَّهم مُشَبِّهة ومجسِّمَة، لأنَّ بغداد هي العاصمة التي فيها العلماء والفقهاء ووجهاء الأُمّة كلها، حصدهم، والعياذ بالله.

وقصتهم معروفة في كتب التاريخ كـ(**البداية والنهاية**) لابن كثير، و(**النهاية**) لابن الأثير.

الذي يقرأ كيف كان الأمر يجد فظائع، والعياذ بالله، نسأل الله السلامة.

وهو قد خدعَ السلطانَ الخليفة العبَّاسِيَّ.

٤٨٩- إِذْ هُـمْ مُشَـبِّهَةٌ مُجَسِّـمَةٌ وَمَـا دَانُـوا بِـدِينِ أَكَـابِرِ الْيُونَـانِ

إِذَنْ هو الآن يُقاتل لإحقاقِ الباطل، ورسوخِ الكفر، وهو يَدَّعِي أنه مُسْلِمٌ.

٤٩٠- وَلَنَا الْـمَلَاحِدَةُ الْفُحُولُ أَئِمَّـةُ التْـ ـــتَعْطِيلِ وَالتَّشْـبِيهِ آلُ سِـنَانِ

قَوْلُهُ: «**آل سنان**»: هذه قبيلة أشار إليها الهرّاس في شرحه[2] بقوله: (آل سِنان هي أُسرة قوية مِن أهل فارس، كانت تحكم في خُراسان، وفي كَنَفِها تَرَبَّى ابن سِينا، وعلى كُتُبهم تَخَرَّجَ، وكان لهم مكتبات حافِلة بشتَّى المؤلَّفات في جميع فروع العلم، ولا سيما علوم الفرس واليونان).

(١) المراد بالخليفة المذكور هو: المستعصم بالله، آخر خلفاء بني العباس، وُلد سنة (٦٠٩هـ) وبويع له بالخلافة سنة (٦٤٠هـ)،و قتل في (١٤) صفر سنة (٦٥٦هـ). [الشارح]

(٢) انظر: شرح نونية ابن القيم لمحمد خليل هراس (ص:٩٥).

قَوْلُهُ: «والتشبيه» في نسخة (التسكين) أي: أنهم يُسَكِّنون الناسَ ويُسقِطون عنهم الفرائض، وأما (التشبيه) فلها وجه، لأنه لما ذكر أئمة التعطيل قال: (التشبيه)، لكنه الآن يتكلَّم عن المعطِّلة.

٤٩١- وَلَنَــا تَصَــانِيفٌ بِهَــا غَــالَيْتُمُ   مِثْلُ: (الشِّفَا) وَ(رَسَائِلِ الْإِخْـوَانِ)

قَوْلُهُ: «الشِّفَا»: لابن سينا.

* * *

٤٩٢- وَكَذَا (الْإِشَارَاتُ) الَّتِي هِـيَ عِنْـدَكُمْ   قَـدْ ضُـمِّنَتْ لِقَوَاطِـعِ الْبُرْهَـانِ

٤٩٣- قَدْ صَرَّحَتْ بِالضِّدِّ[1] مِمَّا جَاءَ فِي التَّـ   ـوْرَاةِ وَالْإِنْجِيـلِ وَالْفُرْقَـانِ

٤٩٤- هِيَ عِنْدَكُمْ مِثْلُ النُّصُوصِ وَفَوْقَهَا   فِي حُجَّـةٍ قَطْعِيَّـةٍ وَبَيَـانِ

٤٩٥- وَإِذَا تَحَاكَمْنَـا فَـإِنَّ إِلَـيْهِمُ   يَقَـعُ التَّحَـاكُمُ لَا إِلَى الْقُـرْآنِ

٤٩٦- إِذْ قَـدْ تَسَـاعَدْنَا بِـأَنَّ نُصُوصَـهُ   لَفْظِيَّـةٌ عُزِلَـتْ عَـنِ الْإِيقَـانِ

٤٩٧- فَلِـذَاكَ حَكَّمْنَـا عَلَيْـهِ وَأَنْـتُمُ   قَـوْلَ[2] الْـمُعَلِّمِ أَوَّلًا وَالثَّـانِي

الشرحُ

٤٩٢- وَكَذَا (الْإِشَارَاتُ) الَّتِي هِـيَ عِنْـدَكُمْ   قَـدْ ضُـمِّنَتْ لِقَوَاطِـعِ الْبُرْهَـانِ

قَوْلُهُ: «الإِشَارَاتُ» وهو كتاب لابن سينا.

---

(١) في نسختي التيمورية والسفارينية: «بالصد» بمهملة.

(٢) في نسخة الحلبي: «فوق».

وهذه كتب الفلاسفة التي هي عندهم أعظم مِن القرآن والسُّنة، نسأل الله العافية.

فهؤلاء يقولون: عليكم بهذه الكتب، واتركوا الكتابَ والسُّنَّة، وسيأتي السببُ في ذلك.

٤٩٣- قَدْ صَرَّحَتْ بِالضِّدِّ مِمَّا جَاءَ فِي التْـ تَـوْرَاةِ وَالْإِنْجِيـلِ وَالْفُرْقَـانِ

قَوْلُهُ: «الفُرْقَانِ» يعني: القرآن.

٤٩٤- هِيَ عِنْدَكُمْ مِثْلُ النُّصُوصِ وَفَوْقَهَا فِي حُجَّـةٍ قَطْعِيَّـةٍ وَبَيَـانِ

قَوْلُهُ: «مِثْلُ النُّصُوصِ» أي: نصوص الشريعة في حُجَّةٍ قَطْعِيَّة وبيَانِ.

٤٩٥- وَإِذَا تَحَاكَمْنَـا فَـإِنَّ إِلَـيْهِمُ يَقَـعُ التَّحَـاكُمُ لَا إِلَى الْقُـرْآنِ

وهذا تصريح واضح بالكفر، والعياذ بالله.

٤٩٦- إِذْ قَـدْ تَسَـاعَدْنَا بِـأَنَّ نُصُوصَـهُ لَفْظِيَّـةٌ عُزِلَـتْ عَـنِ الْإِيقَـانِ

وهذا غير صحيح، بل إن دلالة القرآن منها ما هو قَطْعِيّ، ومنها ما هو ظَنِّيّ، وكذلك السُّنَّة، ولا تقل: إن دلالةَ القرآنِ كلَّها لفظيةٌ معزولةٌ عن اليقين كما زعموا.

٤٩٧- فَلِـذَاكَ حَكَّمْنَـا عَلَيْـهِ وَأَنْـتُمُ قَـوْلَ الْـمُعَلِّمِ أَوَّلًا وَالثَّـانِي[1]

والمعلم الأول: أرسطو، والثاني: الفارابي، والثالث: ابن سينا.

---

(١) المعلم الثاني (الفارابي)، وهو محمد بن طرخان، تركي الأصل، سمي بذلك لشرحه مؤلفات أرسطو (المعلم الأول) وُلد في فاراب على نهر جيحون سنة (٢٦٠هـ)، كان فيلسوفًا، وتوفي بدمشق سنة (٣٣٩هـ). [الشارح]. انظر ترجمته في: مرآة الجنان (٢/ ٢٤٦).

٤٩٨- يَا وَيْحَ جَهْمٍ وَابْنِ دِرْهَمَ وَالْأُلَى قَالُوا بِقَوْلِهِمَا مِنَ الْخَوَرَانِ

٤٩٩- بَقِيَتْ مِنَ التَّشْبِيهِ فِيهِ بَقِيَّةٌ نَقَضَتْ قَوَاعِدَهُ مِنَ الْأَرْكَانِ

٥٠٠- يَنْفِي الصِّفَاتِ مَخَافَةَ التَّجْسِيمِ لَا يَلْوِي عَلَى خَبَرٍ وَلَا قُرْآنِ

٥٠١- وَيَقُولُ: إِنَّ اللهَ يَسْمَعُ أَوْ يَرَى وَكَذَاكَ يَعْلَمُ سِرَّ كُلِّ جَنَانِ

٥٠٢- وَيَقُولُ: إِنَّ اللهَ قَدْ شَاءَ الَّذِي هُوَ كَائِنٌ مِنْ هَذِهِ الْأَكْوَانِ

٥٠٣- وَيَقُولُ: إِنَّ الْفِعْلَ مَقْدُورٌ لَهُ وَالْكَوْنَ يَنْسُبُهُ إِلَى الْحِدْثَانِ

٥٠٤- وَبِنَفْيِهِ التَّجْسِيمَ يَصْرُخُ فِي الْوَرَى وَاللهِ مَا هَذَانِ مُتَّفِقَانِ

٥٠٥- لَكِنَّنَا قُلْنَا: مُحَالٌ كُلُّ ذَا حَذَرًا مِنَ التَّشْبِيهِ[1] وَالْإِمْكَانِ

الشرحُ

٤٩٨- يَا وَيْحَ جَهْمٍ وَابْنِ دِرْهَمَ وَالْأُلَى قَالُوا بِقَوْلِهِمَا مِنَ الْخَوَرَانِ

قَوْلُهُ: «يَا وَيْحَ جَهْمٍ وابْنِ دِرْهَمَ» أي: جَهْمِ بْنِ صَفْوَانَ تلميذِ الجَعْدِ بنِ دِرْهَمٍ، وهما رأسا التعطيل.

قَوْلُهُ: «الخَوَرَانِ» يعني: الضعف.

٤٩٩- بَقِيَتْ مِنَ التَّشْبِيهِ فِيهِ بَقِيَّةٌ نَقَضَتْ قَوَاعِدَهُ مِنَ الْأَرْكَانِ

لأنه معروف أن الجهمية يُثْبِتونَ الأسماءَ، وينكرون الصفات، وأولئك

---

(١) في نسخة الحلبي: «التجسيم».

الملاحدة لا يُقِرُّون بأسماء، ولا صفات، فيقولون: إن الجهمية فيهم شيءٌ مِن التشبيه حيث أثبتوا الأسماء.

٥٠٠- يَنْفِي الصِّفَاتِ مَخَافَةَ التَّجْسِيمِ لَا يَلْوِي عَلَى خَبَرٍ وَلَا قُرْآنِ

وَقَوْلُهُ: «يَنْفِي الصِّفَاتِ» أي: الجهميّ ينفي الصفات، لكنه يثبت الأسماء.

وَقَوْلُهُ: «يَنْفِي الصِّفَاتِ مَخَافَةَ التَّجْسِيمِ» تكلَّم المؤلفُ -رحِمه الله- الآن عن مذاهب هؤلاء المعطِّلة، وذَكر مستنداتٍ مِن القائلين، والكُتُب التي عدّدها، وأئمتهم، وقال: إنهم نَفَوُا الصفاتِ مخافةَ التجسيم.

فهم في الحقيقة وقعوا في التجسيم، ووقعوا في التشبيه، لأنهم ظنُّوا أنَّ مدلولَ النصوص هو التجسيم والتشبيه، ولما ظنُّوا هذا الظنَّ صاروا ينفُون ذلك، فقالوا: إنه لو ثبت أن له كذا لكان هذا جسمًا، والأجسام متماثلة.

فنقول: أنتم الآن فهمتم النصوص على وجه التجسيم والتمثيل، وهذا خطأ، فالنصوص لم تدلّ على هذا، فالنصوص دَلَّتْ على صفاتٍ لله عزَّ وجلَّ تليق به، ولا تماثِلُ صفاتِ المخلوقين، وذلك لأنَّ الصفةَ تابعةٌ للموصوف، فأنت إذا أضفت أيَّ صفةٍ إلى موصوفها فإنَّ ذلك يمنع أن تكون مِثل الصفة المضافة إلى موصوف آخر، لأنها مُقَيَّدة.

نقول مثلًا: وجه الله، ولم نقل: (وجه) وأطلقنا، فـ(وجه الله) يكون لائقًا بذاته كما لو قلت: **(وجه الفرس)**، و**(وجه القط)**، هل تفهم مِن قولك: **(وجه الفرس)** أنه مثل **(وجه القط)**؟ الجواب: أبدًا، لأنَّ هذا ليس وجهًا مطلقًا، بل هو وجهٌ مضاف.

فإثبات الصفات إذن لا يستلزم التمثيل أبدًا، ووجه ذلك أنها صفاتٌ مضافةٌ إلى الله، أو إلى موصوف مُعَيّن، والصفات تتبع الموصوف، ولا يمكن أن يفهم أحدٌ مِن الناس أن صفات فُلان كصفات الحيوان الآخر، لأنه مِن غير جنسه.

لكن لو أقول: (**يد فلان**) و(**يد فلان**) نفهم التمثيل، لأنَّ الجنس واحد والاختلاف هنا بالعين، أما الخالق والمخلوق، فبينهما أكبر مِن أيِّ مباينة فيما بين المخلوقات بعضها مع بعض، فإذا كانت المخلوقات بعضها مع بعض متباينة ومتفرِّقة، فالبَيْنُ والتَّفَرُّق بين الخالق والمخلوق أعظم وأعظم.

٥٠١- وَيَقُـولُ: إِنَّ اللهَ يَسْـمَعُ أَوْ يَـرَى   وَكَـذَاكَ يَعْلَـمُ سِرَّ كُـلِّ جَنَـانِ

٥٠٢- وَيَقُـولُ: إِنَّ اللهَ قَـدْ شَـاءَ الَّـذِي   هُـوَ كَـائِنٌ مِـنْ هَـذِهِ الْأَكْـوَانِ

لكنه يقول: إنَّ الله عزَّ وجلَّ يسمعُ بلا سمعٍ، ويرى بلا بصر، أما العِلم فإنه مذهب الجهمية.

ولا أدري عن مذهب الجهم نفسه، بعضهم يُنكره، وبعضهم ينفيه، لكن مقتضى قولهم بالجبر أنَّ الله يعلمُ، فَيُثْبِتُ العِلم.

٥٠٣- وَيَقُـولُ: إِنَّ الْفِعْـلَ مَقْـدُورٌ لَـهُ   وَالْكَـوْنَ يَنْسُـبُهُ إِلَى الـحِدْثَانِ

يقول: إنَّ الله -سُبحانَه وتعالَى- قادرٌ على أن يفعل، وهذا الكونُ كُلُّه حادثٌ بعد أن لم يكنْ، وهذا حقٌّ، لكنَّ الفلاسفة الأُلَى لا يُقِرُّون بهذا، ويُنكرونه عليهم.

٥٠٤- وَبِنَفْيِهِ التَّجْسِيمَ يَصْـرُخُ فِي الْـوَرَى وَاللهِ مَـــا هَـــذَانِ مُتَّفِقَـــانِ

قَوْلُهُ: «وَبِنَفْيِهِ التَّجْسِيمَ» يعني: هو ينفي التجسيم، ويُثْبِت هذه الصفات، أو الأفعال، أو الإرادة، أو ما أشبهَ ذلك، ثُمَّ قال: (مَا هَذَانِ مُتَّفِقَانِ).

٥٠٥- لَكِنَّنَـــا قُلْنَـــا: مُحَـــالٌ كُـــلُّ ذَا حَـــذَرًا مِـــنَ التَّشْـــبِيهِ وَالْإِمْكَـــانِ

قَوْلُهُ: «لَكِنَّنَا قُلْنَا» أي: الفلاسفة، فالفلاسفة قالوا: كُلُّ هذا مُحَالٌ.

* * *

فصل
في قُدُومِ رَكْبِ الإِيمَانِ وَعَسْكَرِ القُرْآنِ

٥٠٦- وَأَتَى فَرِيقٌ ثُمَّ قَالَ: أَلَا اسْمَعُوا ... قَدْ جِئْتُكُمْ مِنْ مَطْلَعِ الْإِيمَانِ

٥٠٧- مِنْ أَرْضِ طَيْبَةَ مِنْ مُهَاجَرِ أَحْمَدٍ ... بِالْحَقِّ وَالْبُرْهَانِ وَالتِّبْيَانِ

٥٠٨- سَافَرْتُ فِي طَلَبِ الْإِلَهِ فَدَلَّنِي الْـ ... ـهَادِي عَلَيْهِ وَمُحْكَمُ الْقُرْآنِ

٥٠٩- مَعْ فِطْرَةِ الرَّحْمَنِ جَلَّ جَلَالُهُ ... وَصَرِيحِ عَقْلِي فَاعْتَلَى[1] بِبَيَانِ[2]

٥١٠- فَتَوَافَقَ الْوَحْيُ الصَّرِيحُ وَفِطْرَةُ الرْ ... رَحْمَنِ وَالْمَعْقُولُ فِي إِيمَانِي

٥١١- شَهِدُوا بِأَنَّ اللهَ -جَلَّ جَلَالُهُ- ... مُتَفَرِّدٌ بِالْمُلْكِ وَالسُّلْطَانِ

٥١٢- وَهُوَ الْإِلَهُ الْحَقُّ لَا مَعْبُودَ إِلْـ ... ـلَا وَجْهُهُ الْأَعْلَى الْعَظِيمُ الشَّانِ

٥١٣- بَلْ كُلُّ مَعْبُودٍ سِوَاهُ فَبَاطِلٌ ... مِنْ عَرْشِهِ حَتَّى الْحَضِيضِ الدَّانِي

الشرحُ

ذكر المؤلفُ -رحمه الله- في هذا الفصل قُدُومَ رَكْبِ الإيمانِ وعسكرِ القرآن، وهذا نِعْمَ الفريق، يقول -رحمه الله-:

٥٠٦- وَأَتَى فَرِيقٌ ثُمَّ قَالَ: أَلَا اسْمَعُوا ... قَدْ جِئْتُكُمْ مِنْ مَطْلَعِ الْإِيمَانِ

(١) في نسخة مطبوعة: «فاعقلي».

(٢) في نسخة الحلبي: «بُنْيَانِي».

قَوْلُهُ: «أَلَا اسْمَعُوا» يحتمل المعنى: اسمعوا بالآذان، أو اسمعوا سمعَ إجابة، ولا مانع أن نحمله على الوجهين: اسمعوا بالآذان، واسمعوا بالإجابة، وهذا الأسلوب جاء به القرآنُ، قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ﴾ [الحج:٧٣] فاستنصتنا اللهُ عزَّ وجلَّ.

والنَّبِيُّ -عليه الصلاة والسلام- أحيانًا يقول لأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فيرسل واحدًا ويقول: «اسْتَنْصِتِ النَّاسَ»[1]. أي: يُنْصِتُون.

ولا حرج أن يقول المُعَلِّم، أو مَن أراد أن يُعَلِّم: أنصِتوا، أو اقتربوا، أو تجمَّعوا، أو ما أشبهَ ذلك، ولا يُعَدُّ هذا مِن باب الخُيَلَاء، بل هذا مِن باب النُّصحِ والإرشاد.

قَوْلُهُ: «قَدْ جِئْتُكُمْ مِنْ مَطْلَعِ الإِيمَانِ» أي: مكان طلوعه، وبيَّن ذلك بقوله:

٥٠٧- مِنْ أَرْضِ طَيْبَةَ مِنْ مُهَاجَرِ أَحْمَدٍ بِالْحَقِّ وَالْبُرْهَانِ وَالتِّبْيَانِ

المؤلف -رحِمه الله- ذكر أنَّ هذا الرَّكْبَ جاء مِن أرض طَيْبَة، وهي المدينة مهاجر أحمد -عليه الصلاة والسلام-، وتسميتها بيثرب إنما جاء مِن قِبَلِ المنافقين كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾ [الأحزاب:١٣]، وقال النَّبِيُّ ﷺ: «يَقُولُونَ: يَثْرِبُ، وَهِيَ الْمَدِينَةُ»[2].

ونرى بعض كُتَّاب العصر الذي يرى نفسه فوق الناس إذا أراد أن يُعَبِّرَ عن المدينة يقول: يثرب، وهذا غلط، فاسم المدينة: المدينة.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب الإنصات للعلماء، رقم (١٢١)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان معنى قول النبي ﷺ: «لا ترجعوا بعد كفارا...»، رقم (٦٥).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب فضائل المدينة، باب فضل المدينة وأنها تنفي الناس، رقم (١٧٧٢)، ومسلم: كتاب الحج، باب المدينة تنفي شرارها، رقم (١٣٨٢).

وهل يقال: المُنَوَّرة أو بوصفٍ آخر؟

الجواب: اشتُهِر عند الناس الآن اسم المدينة المنورة، ولا شكَّ أنَّ المدينةَ مُنَوَّرةٌ بالرسالة، ولكنَّ هذا التنوير لا يَخُصُّها، فكُلُّ بلدٍ يدخله الإسلامُ فهو مُنَوَّرٌ بالإسلام. فأحسن وصف أن تقول: المدينة النبوية، فإذا كان ولا بدَّ أن تصفَها فقل: المدينة النبوية، أو المدينة مُهَاجَر النَّبِيِّ ﷺ، لكن هذا يطول، فقل: النبوية، ولم أسمع في كتب الأقدمين المدينة المنورة، ولا أدري متى حدث هذا اللقب؟

قَوْلُهُ: «مِنْ أَرْضِ طَيْبَةَ مِنْ مُهَاجَرِ أَحْمَدِ» أي: مكان هجرته.

قَوْلُهُ: «أَحْمَد»: هو النَّبِيّ ﷺ، وله أسماء في القرآن، أحمد، ومحمد، واختار اللهُ عزَّ وجلَّ أن ينطقَ عيسى لبني إسرائيل بقوله: ﴿ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُ﴾ [الصف:٦] لأن (أَحْمَدَ) اسمُ تفضيل، بخلاف (مُحَمَّد)، فأراد اللهُ عزَّ وجلَّ أن ينطق عيسى بهذا الاسم الدالّ على التفضيل، كأنه يقول: سيأتيكم رسولٌ هو أحمدُ النَّاسِ لله عزَّ وجلَّ، وهو أحمدُ النَّاسِ خِصَالًا، وهو أيضًا أعظمُ النَّاس حمدًا، أي: أن يحمدوه.

قَوْلُهُ: «بِالحَقِّ» ضد الباطل.

قَوْلُهُ: «وَالبُرْهَانِ»: الدليل القاطع.

قَوْلُهُ: «والتِّبْيَانِ» الدليل الواضح، فهذه ثلاثة أوصاف.

٥٠٨- سَافَرْتُ فِي طَلَبِ الْإِلَـهِ فَدَلَّنِي الْـ ـــهَادِي عَلَيْــهِ وَمُحْكَــمُ الْقُــرْآنِ

قَوْلُهُ: «فَدَلَّنِي الْـهَادِي عَلَيْهِ» الـهادي إلى الله هو النبيُّ ﷺ، يعني بذلك: السُّنة.

قَوْلُهُ: «ومُحْكَمُ القُرْآنِ» هذا دليل آخر.

٥٠٩- مَـعْ فِطْـرَةِ الـرَّحْمَنِ جَـلَّ جَلَالُـهُ وَصَرِيـحِ عَقْـلِي فَـاعْتَلَى بِبَيَـانِ

قَوْلُهُ: «مَعْ فِطْرَةِ الرَّحْمَنِ جَلَّ جَلَالُهُ» هذا دليل ثالث.

قَوْلُهُ: «وَصَرِيحِ عَقْلِي فَاعْتَلَى بِبَيَانِ» هذه أربعة أدلة على الإله الحقِّ عزَّ وجلَّ: الأول: القرآن، الثاني: السُّنّة، الثالث: الفطرة، الرابع: العقل.

٥١٠- فَتَوَافَقَ الْوَحْيُ الصَّرِيحُ وَفِطْرَةُ الرْ رَحْمَـنِ وَالْـمَعْقُولُ فِي إِيـمَانِي

قَوْلُهُ: «الوَحْيُ الصَّرِيحُ» هنا يشمل: القرآن والسنَّة.

فهو طلب منّا أن نستمعَ إليه في شرح مذهبه الذي عليه، وبَيَّن أن مذهبه مَبْنِيٌّ على القرآن والسنة والعقل والفطرة، وأنَّ هذه الأربعة كُلَّها توافقت عليه.

٥١١- شَـهِدُوا بِـأَنَّ اللهَ -جَـلَّ جَلَالُـهُ- مُتَفَـرِّدٌ بِالْـمُلْكِ وَالسُّـلْطَانِ

قَوْلُهُ: «شَهِدُوا بِأَنَّ اللهَ جَلَّ جَلَالُهُ» أي: عظُمت عظمته عزَّ وجلَّ.

قَوْلُهُ: «مُتَفَرِّدٌ بِالْمُلْكِ وَالسُّلْطَانِ» أي: لا مالكَ غيره، ولا سلطان على الإطلاق لغيره عزَّ وجلَّ.

٥١٢- وَهُـوَ الْإِلَـهُ الْـحَقُّ لَا مَعْبُـودَ إِلْـ لَا وَجْهُـهُ الْأَعْـلَى الْعَظِـيمُ الشَّـانِ

هذا معنى لا إله إلا الله، وعبادتُه -سبحانه- هي الحقُّ، وعبادة ما سواه عبادة باطلة، ولذا قال:

٥١٣- بَـلْ كُـلُّ مَعْبُـودٍ سِـوَاهُ فَبَاطِـلٌ مِنْ عَرْشِهِ حَتَّى الْـحَضِيضِ الـدَّانِي

قَوْلُهُ: «بَلْ كُلُّ مَعْبُودٍ سِوَاهُ فَبَاطِلٌ مِنْ عَرْشِهِ» أي: عرش الله.

قَوْلُهُ: «حَتَّى الحَضِيضِ الدَّانِي» أي: الأسفل.

وهذا الذي قاله -رحمه الله- هو معنى قول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج:٦٢].

***

٥١٤- وَعِبَادَةُ الرَّحْمَنِ غَايَةُ حُبِّهِ ... مَعَ ذُلِّ عَابِدِهِ هُمَا قُطْبَانِ

٥١٥- وَعَلَيْهِمَا فَلَكُ الْعِبَادَةِ دَائِرٌ ... مَا دَارَ حَتَّى قَامَتِ الْقُطْبَانِ

٥١٦- وَمَدَارُهُ بِالْأَمْرِ، أَمْرِ رَسُولِهِ ... لَا بِالْهَوَى وَالنَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ

٥١٧- فَقِيَامُ دِينِ الله بِالْإِخْلَاصِ وَالْـ ... إِحْسَانِ، إِنَّهُمَا لَهُ أَصْلَانِ

٥١٨- لَمْ يَنْجُ مِنْ غَضَبِ الْإِلَهِ وَنَارِهِ ... إِلَّا الَّذِي قَامَتْ بِهِ الْأَصْلَانِ

٥١٩- وَالنَّاسُ بَعْدُ فَمُشْرِكٌ بِإِلَهِهِ ... أَوْ ذُو ابْتِدَاعٍ أَوْ لَهُ الْوَصْفَانِ

٥٢٠- وَاللهُ لَا يَرْضَى بِكَثْرَةِ فِعْلِنَا ... لَكِنْ بِأَحْسَنِهِ مَعَ الْإِيمَانِ

٥٢١- فَالْعَارِفُونَ مُرَادُهُمْ إِحْسَانُهُ ... وَالْجَاهِلُونَ عَمُوا عَنِ الْإِحْسَانِ

الشرحُ

بَيّنَ المؤلفُ -رحِمه الله- في هذه الأبيات معانيَ عظيمة: أولًا عبادة الله، مَنْ هو العبد في الأصل؟

الجواب: العبد في الأصل الذليل، ومنه قولهم: (طريق مُعَبَّد)، أي: مُذَلَّل، ذللته الأقدام أو ذَلَّ له البناء، المهم أنه مِن الذُّلِّ، ولذا قال -رحمه الله-:

٥١٤- وَعِبَادَةُ الرَّحْمَنِ غَايَةُ حُبِّهِ ... مَعَ ذُلِّ عَابِدِهِ هُمَا قُطْبَانِ

قَوْلُهُ: «غَايَةُ حُبِّهِ مَعْ ذُلِّ عَابِدِهِ» يعني: لا بد مِن أمرين: أن تعبد الله محبةً، وأن تعبدَه تذلُّلًا له عزَّ وجلَّ، تعتقد بقلبك أنك عبدٌ ذليل، لا تملك لنفسك شيئًا، بل أنت عند الله تعالى أَذَلّ مِن كُلِّ شيء.

يعني: أن يكون الإنسان محبًّا لله عزَّ وجلَّ طالبًا الوصولَ إليه، فبالحُبِّ يتقدَّم الإنسانُ في طاعة الله، وبالذُّل يتهيب معصيةَ الله عزَّ وجلَّ، لأنَّ الإنسانَ إذا وقع في المناهي يخشى أن يأخذه اللهُ تعالى بذنْبِه، فإذا اجتمع في قلب الإنسان المحبة التامة لله مع التعظيم استقام تمامًا على شرع الله، لأنه بحُبِّه لربِّه يطلبُ ربَّه، وبتعظيمه لله يخافُ منه، فيكون فاعلًا للمأمور تاركًا للمحظور.

فلا بدَّ مِن هذين الأمرين: تمام المحبة، وتمام الذل لله عزَّ وجلَّ، أمَّا أن تعبدَ اللهَ وتقول: أنا أُحبُّه، ولكن في قلبك استكبار واستغناء عن الله، فهذا ناقص جدًّا.

فالمستكبِر عن عبادة الله هل يمكن أن يعبُد الله؟ الجواب: لا، لأنه لا يعبُد وهو لا يذلُّ له أبدًا، بل مَن رأى نفسَه استغنى عن الله، فإنه لن يعبدَ اللهَ، قال تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ [العلق:٦-٧].

وأكثرُ الناس الذين أُترفوا في الدنيا يرون أنهم استغنَوْا، وأنَّ هذا هو الغاية التي يقصدونها، ومِن ثَمَّ جاءت النصوص بالحذر مِن التَّرَف في الدنيا، والتنعم فيها، لا بما أباح الله منها، فما أباح الله منها، فإن الله يُحِبُّ منّا أن نفعله، وأن نأتيَه، لكن الانغماس في التَّرَف، حتى يكون الإنسانُ كأنما خُلِق لتَرَف نفسه، فهذا لا شكَّ أنه سوف يكون في قلبه مِن الاستكبار عن عبادة الله بقدْر ما في قلبه مِن عبادة الدنيا.

قَوْلُهُ: «مَعَ ذُلِّ عَابِدِهِ هُمَا قُطْبَانِ» القُطب هو ما عليه المدار، وفي السماءِ قُطْبَان:

شمال وجنوب، كُلُّ واحدٍ منهما له أفلاكٌ تدورُ حولَه، نجوم وكواكب تدور حوله.

يقول العلماء عن القطب: إنه نجمٌ خَفِيٌّ جدًّا، لا يراه إلَّا حديدو البصَر في غير ليالي القمر. هذا هو تعبيرهم، وهو لا يتجاوز مكانه، لأن النجومَ تدور عليه، ولهذا كلَّما كان النَّجْمُ أقربَ إليه صارت دائرتُه ضيِّقةً.

الآن مثلًا الجَدْي قريب مِن القطب، ولهذا لا يتزحزح عن مكانه إلا يسيرًا، لأنه قريب، وبَنَات نَعْشٍ[1] الصغرى تدور حول القُطب، ولا تغيب بالنسبة لنا نحن في هذا المكان، لأنها تدور ودورانها ضيّق، وبَنَاتُ نعش الكبرى تدور، لكنها تختفي في جانب السماء، ثُمَّ تظهر بقُرْب، يعني بسرعة حوالي سِتّ، أو سَبْع ساعات، ثم تبدو.

فالحاصل أن القُطبَ هو ما عليه مدارُ الشيء، ولذا قال -رحمه الله-:

٥١٥- وَعَلَيْهِمَا فَلَكُ الْعِبَادَةِ دَائِرٌ ... مَا دَارَ حَتَّى قَامَتِ الْقُطْبَانِ

وهذا صحيح، فلولا القطب ما دار، لكن يدور على أيِّ شيء؟

قال -رحمه الله-:

٥١٦- وَمَدَارُهُ بِالْأَمْرِ، أَمْرِ رَسُولِهِ ... لَا بِالْهَوَى وَالنَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ

المدار هو أمر الله ورسوله، (فافعل ولا تفعل) هذا هو المدار، لا الهوى، فمن دار أو حام حول الحمى مِن غير الكتاب والسنة فقد ضلَّ.

---

(١) بنات نعْش: سبعة كواكبَ: أربعة منها نعْش لأنها مُربعة، وثلاثة بنات نعْش، الواحد ابن نعش لأن الكوكب مذكَّر فيذكرونه على تذكيره، وإذا قالوا ثلاث أو أربع ذهبوا إلى البنات، وكذلك بنات نعش الصغرى. انظر: لسان العرب، مادة: نعش.

٥١٧- فَقِيَـامُ دِيـنِ الله بِـالْإِخْلَاصِ وَالْـ إِحْسَـانِ، إِنَّهُـمَا لَـهُ أَصْـلَانِ

قَوْلُهُ: «بالإِخْلَاصِ» يعني: بالتوحيد، الذي ضده الشرك.

قَوْلُهُ: «وَالإِحْسَانِ» أي: على السُّنة، الذي ضده البدعة.

فلا بدَّ مِن إخلاص، ولا بدَّ مِن إحسان، وهو الاتِّباع.

فالإخلاص ضده الشرك، والإحسان ضده البدعة، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ [الكهف:١١٠] والعمل الصالح ما كان لله خالصًا ولرسوله تابعًا.

٥١٨- لَـمْ يَنْجُ مِـنْ غَضَـبِ الْإِلَـهِ وَنَـارِهِ إِلَّا الَّـذِي قَامَـتْ بِـهِ الْأَصْـلَانِ

قَوْلُهُ: «الأَصْلَانِ» أي: الإخلاص والإحسان.

٥١٩- وَالنَّـاسُ بَعْـدُ فَمُشْـرِكٌ بِإِلَـهِهِ أَوْ ذُو ابْتِـدَاعٍ أَوْ لَـهُ الْوَصْـفَانِ

قَوْلُهُ: «وَالنَّاسُ بَعْدُ» يعني: الذي ليس بمخلص ولا محسن.

قَوْلُهُ: «فَمُشْرِكٌ بِإِلَهِهِ» وهذا فَقَدَ الإخلاص.

قَوْلُهُ: «أَوْ ذُو ابْتِدَاعٍ» وهذا فَقَدَ الإحسان الذي هو الاتِّبَاع.

قَوْلُهُ: «أَوْ لَهُ الوَصْفَانِ» يعني: يكون مشركًا مبتدِعًا.

٥٢٠- وَاللهُ لَا يَـرْضَى بِكَثْـرَةِ فِعْلِنَـا لَكِـنْ بِأَحْسَـنِهِ مَـعَ الْإِيـمَانِ

٥٢١- فَالْعَـارِفُونَ مُـرَادُهُمْ إِحْسَـانُهُ وَالْـجَاهِلُونَ عَمُوا عَـنِ الْإِحْسَـانِ

قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك:٢] ولم يقل: أكثر، لكن لا شكَّ أن الأكثرَ مع الإحسان أفضل.

وهنا مَثَلٌ، لو قال قائل: مِن العبادات ما تخفيفُه أفضل مِن إطالته، إما دائمًا، وإما لعارض؟ قلنا: نعم، وهو كذلك، فسُنَّةُ الفجر الأفضل تخفيفها دائمًا، وابتداء التهجد بركعتين خفيفتين كذلك، وتحية المسجد والإمام يخطب يوم الجمعة تخفيفها عارض، لأنَّ الأصل في تحية المسجد أنها كغيرها مِن العبادات، كُلَّما طالت فهو أفضل مع الإحسان.

فأنت ترى الآن أن الإنسانَ الذي يصلي سُنَّةَ الفجر بسرعة أفضل مِن الذي يُصلِّيها بطول قراءة وطول ركوع وسجود، لأن هذا هو السُّنَّة، فهو أحسن، والذي يصوم يومًا ويفطر يومًا أفضل مِن الذي يصوم كلَّ الأيام، لأنه أحسنُ عملًا.

* * *

٥٢٢- وَكَذَاكَ قَدْ شَهِدُوا بِأَنَّ اللهَ ذُو ... سَمْعٍ وَذُو بَصَرٍ، هُمَا صِفَتَانِ

٥٢٣- وَهُوَ الْعَلِيُّ يَرَى وَيَسْمَعُ خَلْقَهُ ... مِنْ فَوْقِ عَرْشٍ فَوْقَ سِتٍّ ثَمَانِ[1]

٥٢٤- فَيَرَى دَبِيبَ النَّمْلِ فِي غَسَقِ الدُّجَى ... وَيَرَى كَذَاكَ تَقَلُّبَ الْأَجْفَانِ

٥٢٥- وَضَجِيجُ أَصْوَاتِ الْعِبَادِ بِسَمْعِهِ ... وَلَدَيْهِ لَا يتَشَابَهُ الصَّوْتَانِ

٥٢٦- وَهُوَ الْعَلِيمُ بِمَا يُوَسْوِسُ عَبْدُهُ ... فِي نَفْسِهِ مِنْ غَيْرِ نُطْقِ لِسَانِ

٥٢٧- بَلْ يَسْتَوِي فِي عِلْمِهِ الدَّانِي مَعَ الْـ ... ـقَاصِي وَذُو الْإِسْرَارِ وَالْإِعْلَانِ

٥٢٨- وَهُوَ الْعَلِيمُ بِمَا يَكُونُ غَدًا وَمَا ... قَدْ كَانَ وَالْمَعْلُومِ فِي ذَا الْآنِ

٥٢٩- وَبِكُلِّ شَيْءٍ لَمْ يَكُنْ لَوْ كَانَ كَيْـ ... ـفَ يَكُونُ مَوْجُودًا لِذِي الْأَعْيَانِ

---

(١) قال الحلبي في نسخته: «في هامش الأصل: أي: ست وثمان، وهي السموات والأرض».

الشـرحُ

في هذه الأبيات ذكر المؤلف -رحِمه الله- بعضًا مِن صفات الله عزَّ وجلَّ وأسمائه، فقال:

٥٢٢- وَكَـذَاكَ قَـدْ شَـهِدُوا بِـأَنَّ اللهَ ذُو سَـمْعٍ وَذُو بَصَـرٍ، هُمَـا صِـفَتَانِ

قَوْلُهُ: «وَكَذَاكَ قَدْ شَهِدُوا» أي: أهل السنة والجماعة.

قوله: «بِأَنَّ اللهَ ذُو سَمْعٍ وَذُو بَصَرٍ هُمَا صِفَتَانِ» دليلهما قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١] وهذا كثير في القرآن، فهو سميعٌ ذو سمعٍ، وبصيرٌ ذو بصرٍ.

ولقد ذكرنا دليل ذلك في (**شرح العقيدة الواسطية**)[١]، ومِن ذلك قول الله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة:١].

قالت عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا: «الْـحَمْدُ لله الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الْأَصْوَاتَ، لَقَدْ جَاءَتِ الْـمُجَادِلَةُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَأَنَا فِي نَاحِيَةِ الْبَيْتِ، تَشْكُو زَوْجَهَا، وَمَا أَسْمَعُ مَا تَقُولُ، فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ [المجادلة:١]»[٢]. كذلك البصير، ثُمَّ فَصَّلَ فقال:

٥٢٣- وَهُوَ الْعَلِـيُّ يَـرَى وَيَسْـمَعُ خَلْقَـهُ مِنْ فَوْقِ عَـرْشٍ فَـوْقَ سِـتِّ ثَـمَانِ

(١) انظر: شرح العقيدة الواسطية، للشارح (ص:٣٢).
(٢) أخرجه البخاري معلقًا: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء:١٣٤]، وابن ماجه: كتاب المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية، رقم (١٨٨).

قَوْلُهُ: «وَهُو العَلِـيُّ» أي: بذاته وصفاته، أما العَلِيُّ بذاته فأدلته كثيرة، فالكتابُ والسنةُ والإجماعُ والعقلُ والفِطْرَةُ، كُلُّها تدلُّ على أنَّ اللهَ -سبحانه وتعالى- عَلِـيٌّ بذاته.

وأما علوُّ صفاته، فقد دلَّ عليه السمعُ والعقلُ، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل:٦٠] المَثَل: يعني: الوصف، الأعلى: الذي ليس فوقه شيء، بل ولا مِثله شيء، فله الوصف الأعلى الكامل مِن كُلِّ وجه.

قَوْلُهُ: «يَرَى وَيَسْمَعُ خَلْقَهُ» يرى عزَّ وجلَّ برؤية حقيقية، وقد ثبت في القرآن الكريم أنَّ له -سبحانه وتعالى- عينًا، فجاءت بلفظ الإفراد، ولفظ الجمع، ودلَّت السنّةُ على أنَّ له عينين اثنتين.

فبصيغة الإفراد كقوله تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ [طه:٣٩]، وبصيغة الجمع كقوله تعالى: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر:١٤] وبصيغة التثنية التي دلَّت عليها السُّنة قول النَّبيِّ ﷺ في الدَّجَّال: «إِنَّهُ أَعْوَرُ، وإِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ»[١].

وأما قول المؤلف -رحمه الله-: «يَسْمَعُ» فالسمع لا نستطيع أن نقول فيه: إنَّ له أذنين كما نقول في البصر: إن له عينين، لأنه لم يَرد في الكتاب والسنة إثباتُ الأُذن لله عزَّ وجلَّ ولا نَفْيُها.

والسمع قد يكون مِن غير ذي أُذن، أرأيتم الأرض يوم القيامة تُحَدِّثُ أخبارها بما سمعت مِن قول، أو رأت مِن فِعل، وهي ليس لها أذن، وليس لها عين، لكن يُنْطِقُها اللهُ عزَّ وجلَّ، فلا يجوز لنا أن نثبتَ الأذنَ لله عزَّ وجلَّ مِن أجْل أنه

(١) أخرجه البخاري: كتاب الفتن، باب ذكر الدجال، رقم (٦٧١٢)، ومسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذِكر الدجال وصفته، رقم (٢٩٣٣).

ثَبَتَ له السمع، لأنه لا تلازم، بل نقول: إنه تعالى يسمعُ بسمعٍ حقيقيٍّ، ولا ندري بأيِّ شيء.

قَوْلُهُ: «مِنْ فَوْقِ عَرْشٍ فَوْقَ سِتِّ ثَمَانِ» يعني: السموات سبع، والأَرَضون سبع، فالجميع أربعة عشر، فالذي في أسفل الأرض السابعة يراه عزَّ وجلَّ ويسمعه وهو فوق عرشه الذي هو فوق ست وثمان، يعني: أربعة عشر، وعلى هذا يكون قوله: (ست ثمان) على تقدير حرف العطف أي: ست وثمان.

٥٢٤- فَيَرَى دَبِيبَ النَّمْلِ فِي غَسَقِ الدُّجَى وَيَـرَى كَـذَاكَ تَقَلُّـبَ الْأَجْفَـانِ

قَوْلُهُ: «فَيَرَى دَبِيبَ النَّمْلِ في غَسَقِ الدُّجَى» أي: في ظُلمته.

قَوْلُهُ: «وَيَرَى كَذَاكَ تَقَلُّبَ الأَجْفَانِ» أي: أجفان العيون، يرى عزَّ وجلَّ تَقَلُّبَها، سواء عند الكلام، أو عند النوم، أو عند أيِّ سبب، فكُلُّ أجفانِ الخَلق يراها.

٥٢٥- وَضَجِيجُ أَصْـوَاتِ الْعِبَـادِ بِسَـمْعِهِ وَلَدَيْـــهِ لَا يتَشَـــابَهُ الصَّـــوْتَانِ

سبحان الله! ضجيج أصوات العباد في كُلِّ مكان، وعند كُلِّ سبب يسمعُها عزَّ وجلَّ، ولا تشتبه عليه الأصواتُ -سبحانه وبحمده- مما يدلُّ على سَعَة سَمْعِه -تبارك وتعالى- وعلى أنه محيطٌ إحاطةً تامة بكُلِّ مسموع.

٥٢٦- وَهُـوَ الْعَلِـيمُ بِـمَا يُوَسْـوِسُ عَبْـدُهُ فِي نَفْسِـهِ مِـنْ غَـيْرِ نُطْـقِ لِسَـانِ

يعلم عزَّ وجلَّ بما توسوسُ به نفسُك، أي: ما تُحَدِّثُ به نفسَك دون أن تنطق، فإيَّاك أن يعلمَ منك ما لا يرضاه منك، يعني: لا تُحَدِّثْ نفسَك إلَّا بما هو مُرْضٍ لله -تبارك وتعالى-.

ولكن هل حديث النفس يُؤاخَذ به الإنسان؟

الجواب: إن كان استقرَّ في ذهنه هذا، فإنه يؤاخَذَ به، لأنه اطمأنَّ إليه واستقرَّ في نفسه، وإن كان يُحَدِّث -ولكن لم يستقر في ذهنه- فإنه لن يضره شيئًا، دليلُ هذا قولُ النَّبِيِّ ﷺ: «إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا، مَا لَـمْ تَعْمَلْ أَوْ تَتَكَلَّمْ»[1]. وهذه مِن نعمة الله -سُبحانَه وتعالَى- أنَّ ما يُفكِّر فيه الإنسانُ إذا لم يَرْكَنْ إليه ويُثْبِتْه، فإنه لا يؤاخَذ به مهما عظُم، لكن إذا ألقى الشيطان في قلبك مثل هذه الوساوس الشديدة، فما موقفك؟ نقول: إن موقفك أن تستشفيَ بما أخبر به النَّبِيُّ ﷺ، وذلك بأمرين:

الأول: الاستعاذة بالله مِن الشيطان الرجيم.

الثاني: الانتهاء والإعراض عن هذا الذي وقع في قلبك.

وإذا مارستَ هذا العملَ فإن الشيطان يَنْدَحِرُ، ثم لا يعود إليك مرة أخرى، وجَرِّبْ تَجِدْ، والشيطان لا يأتي بمثل هذه الوساوس العظيمة الفظيعة إلَّا لقلبٍ ممتلئٍ إيمانًا وصريحٍ في إيمانه، ليس فيه شكٌّ، ولا قلقٌ، ولا ارتياب، لأنَّ الشيطان إنما يُسَلَّطُ على قلبٍ عامرٍ ليدمِّره، أما المدُمَّر فلا يأتي إليه، لأنه قد كُفِي.

ذُكِرَ لابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ اليهودَ قالوا للمسلمين: إِنَّا نُصَلِّي ولا نوسوَس في صلاتنا -يعني: لا نُحَدِّثُ أنفُسَنَا. فكأنَّهم يقولون: نحن خيرٌ منكم- فقال: «نعم، صَدَقوا، ومَا يَصْنَعُ الشيطانُ بقلبٍ خَرَابٍ؟!»[2].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب العتق، باب الخطأ والنسيان في العتاقة والطلاق ونحوه، رقم (٢٥٢٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر بالقلب، إذا لم تستقر، رقم (١٢٧).

(٢) انظر: الوابل الصيب (ص:٤٠).

وهذا جواب عجيب، فالشيطان لا يأتي إلى شيء مُنْهَدِم ليدمِّرَه، ولكن يأتي إلى العامر ليدمره، ولكن الحمد لله ما مِن داء إلَّا وله دواء، والعليم بدواء هذا الداء هو الرسول ﷺ، علَّمنا أن نستعيذ بالله مِن الشيطان الرجيم[1]، وننتهي.

٥٢٧- بَلْ يَسْتَوِي فِي عِلْمِهِ الدَّانِي مَعَ الْـ قَـاصِي وَذُو الْإِسْرَارِ وَالْإِعْـلَانِ

قَوْلُهُ: «الإِسْرَارِ» في نسخةٍ الهمزةُ فوق الألف، والصواب (**الإِسرار**) بدليل أنه مقابل (**الإعلان**).

٥٢٨- وَهُوَ الْعَلِيمُ بِمَا يَكُونُ غَدًا وَمَا قَدْ كَانَ وَالْمَعْلُومِ فِي ذَا الْآنِ

قَوْلُهُ: «وَهُوَ العَلِيمُ بِمَا يَكُونُ غَدًا» هذا المستقبل.

قَوْلُهُ: «وَمَا قَدْ كَانَ» هذا الماضي.

قَوْلُهُ: «وَالمعْلُومِ فِي ذَا الآنِ» هذا الحاضر.

والأزمان بالنسبة للإنسان ثلاثة: ماضٍ وحاضر ومستقبل.

فاللهُ عزَّ وجلَّ عليمٌ بالماضي وبالمستقبل وبالحاضر، واسمع إلى قول الله -تبارك وتعالى- عن موسى -عليه الصلاة والسلام- لما سأله فرعون: ﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَـٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ [طه:٥١-٥٢] أي: لا يجهلُ المستقبل ﴿وَلَا يَنسَى﴾ أي: لا ينسى الماضي، بل هو -جلَّ وعلا- عليمٌ بالحاضر والماضي والمستقبل، واقرأ قول الله -سبحانه وتعالى- في آية الكرسيِّ:

(١) كما في حديث: «يَأْتِي الشَّيْطَانُ أَحَدَكُمْ فَيَقُولُ: مَنْ خَلَقَ كَذَا، مَنْ خَلَقَ كَذَا، حَتَّى يَقُولَ: مَنْ خَلَقَ رَبَّكَ؟ فَإِذَا بَلَغَهُ فَلْيَسْتَعِذْ بِالله وَلْيَنْتَهِ». أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، رقم (٣١٠٢)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة في الإيمان وما يقوله من وجدها، رقم (١٣٤).

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [البقرة:٢٥٥].

٥٢٩- وَبِكُلِّ شَيْءٍ لَمْ يَكُنْ لَوْ كَانَ كَيْـ ـفَ يَكُونُ مَوْجُودًا لِذِي الْأَعْيَانِ

قَوْلُهُ: «وَبِكُلِّ شَيْءٍ لَمْ يَكُنْ لَوْ كَان كَيْفَ يَكُونُ» أي: عليم بكُلِّ شيء لم يكن لو كان كيف يكون، فكُلُّ شيءٍ لم يكن يعلمُه عزَّ وجلَّ كيف يكون إذا كان، لأنه محيطٌ بكُلِّ شيءٍ علمًا.

* * *

٥٣٠- وَهُوَ الْقَدِيرُ فَكُلُّ شَيْءٍ فَهْوَ مَقْـ ـدُورٌ لَهُ طَوْعًا بِلَا عِصْيَانِ

٥٣١- وَعُمُومُ قُدْرَتِهِ تَدُلُّ بِأَنَّهُ هُوَ خَالِقُ الْأَفْعَالِ لِلْحَيَوَانِ

٥٣٢- هِيَ خَلْقُهُ حَقًّا وَأَفْعَالٌ لَهُمْ حَقًّا، وَلَا يَتَنَاقَضُ الْأَمْرَانِ

٥٣٣- لَكِنَّ أَهْلَ الْجَبْرِ وَالتَّكْذِيبِ بِالْـ أَقْدَارِ مَا انْفَتَحَتْ لَهُمْ عَيْنَانِ

٥٣٤- نَظَرُوا بِعَيْنَيْ أَعْوَرٍ إِذْ فَاتَهُمْ نَظَرُ الْبَصِيرِ وَغَارَتِ الْعَيْنَانِ

٥٣٥- فَحَقِيقَةُ الْقَدَرِ الَّذِي حَارَ الْوَرَى فِي شَأْنِهِ هُوَ قُدْرَةُ الرَّحْمَنِ

٥٣٦- وَاسْتَحْسَنَ ابنُ عَقِيلَ ذَا مِنْ أَحْمدٍ لَمَّا حَكَاهُ عَنِ الرِّضَا الرَّبَّانِي

٥٣٧- قَالَ: الإِمَامُ شَفَا الْقُلُوبَ بِلَفْظَةٍ ذَاتِ اخْتِصَارٍ وَهْيَ ذَاتُ بَيَانِ

الشرحُ

٥٣٠- وَهُوَ الْقَدِيرُ فَكُلُّ شَيْءٍ فَهْوَ مَقْـ ـدُورٌ لَهُ طَوْعًا بِلَا عِصْيَانِ

مِن أسماء الله تعالى: القدير، والقدير هو الفاعل بلا عجز، دليل ذلك

قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر:٤٤] فبِقُدْرَته لا يُعْجِزُه شيءٌ.

ومِن أسمائه: القَويُّ، الفاعل بلا ضَعف، لأنَّ ضد القوة الضعف، وضد القُدْرَة العَجْزُ.

قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ [الروم:٥٤].

إِذَنْ هو القدير، والقدير هو الفاعل بلا عجز، ولنضرب مثلًا يبين هذا وهذا.

رجل قيل له: احمِلْ هذه الصخرة، فحاوَل فعجَز، ولم تتزحزح، نقول عنه: إنه عاجز، يعني: ضد القادر، وآخر قلنا له: احمل هذه الصخرة، فحمَلَها، لكن بمشقة، فنقول: هذا ضعيف، وضده القوي.

رجل ثالث قيل له: احمل هذه الصخرة، فأخذَها وكأنها رِيشة، فنقول: هذا قوي.

قَوْلُهُ: «**فَكُلُّ شَيْءٍ فَهْوَ مَقْدُورٌ لَهُ**» يعني: إنْ كان موجودًا، فهو قادرٌ على إعدامِه، وإنْ كان معدومًا، فهو قادر على إيجاده، ولما قال -سبحانه وتعالى- للسموات والأرض ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت:١١] فَكُلُّ شيءٍ فهو مُنْقَادٌ لِقُدرة الله -تبارك وتعالى-.

٥٣١- وَعُمُومُ قُدْرَتِهِ تَدُلُّ بِأَنَّهُ ... هُوَ خَالِقُ الأَفْعَالِ لِلْحَيَوَانِ

عمومُ قدرة الله عزَّ وجلَّ تدلُّ على أنه خالقٌ لأفعال الحيوان، ويريد بالحيوان: الإنسان وما سواه.

ووجه ذلك: أنَّ هذه الأفعال لن تخرج عن إرادته، وإرادتُه هي قدرتُه، ولذلك نستدل بعمومِ قُدرةِ الله على أنه خالقٌ لأفعال العباد مِن عاقلٍ، وغيرِ عاقل.

وانظر إلى تحليل المؤلف لهذا حيث قال:

٥٣٢- هِـيَ خَلْقُـهُ حَقًّـا وَأَفْعَـالٌ لَـهُمْ حَقًّـا، وَلَا يَتَنَـاقَضُ الْأَمْـرَانِ

قَوْلُهُ: «هِيَ خَلْقُهُ حَقًّا» قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات:٩٦].

وهي «أفْعَالٌ لَـهُمْ»، ولهذا يضيفُ اللهُ تعالى أعمالَ العباد إليهم فيقول: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [النور:٤١] فهي أفعال لهم، فمَن الصائم؟ الجواب: الإنسان هو الفاعل، مَن القائم؟ الإنسان، مَن القارئ؟ الإنسان، مَن المتوضئ؟ الإنسان... وهكذا.

فهي أفعال لهم، وهي في نفس الوقت مخلوقةٌ لله عزَّ وجلَّ، ووجه هذا: أن فِعلَ العبدِ ناتجٌ عن شيئين، هما: الإرادة الجازمة، والقدرة التامة.

فمَن خَلق الإرادة في الإنسان؟ الجواب: الله عزَّ وجلَّ هو الذي جعله مُريدًا، الله هو الذي جعله قادرًا، فالفعل الناتج عن إرادة الإنسان وقُدرته مخلوقٌ لله عزَّ وجلَّ، لأنَّ الإرادةَ والقُدرةَ مخلوقةٌ لله، والأمر واضح الآن، لكن مع هذا يقول ابن القيم -رحمه الله-:

٥٣٣- لَكِنَّ أَهْلَ الْـجَبْرِ وَالتَّكْـذِيبِ بِالْـ أَقْـدَارِ مَـا انْفَتَحَـتْ لَـهُمْ عَيْنَـانِ

قَوْلُهُ: «أَهْل الـجَبْرِ» أهل الجبر هم الذين قالوا: إن الإنسانَ مُـجْبَرٌ على أفعاله لله، فالإنسان مُجْبَر عليها.

قَوْلُهُ: «**وَالتَّكْذِيبِ بِالأَقْدَارِ**» المراد بذلك القَدَرِيَّة الذين يقولون: إن أفعالَ العباد يفعلُها الإنسانُ مستقِلًّا عن الله عزَّ وجلَّ، فانظر الآن: طرفان متناقضان:

أهلُ الجبر يقولون: الإنسانُ ليس له إرادة، وليس له قُدْرَة، أفعالُه كاهتزاز الأشجار في الهواء، وأما القَدَرِيَّة فقالوا: إنَّ الإنسان مستقلٌّ بعَمَله، ليس لله فيه إرادة، وليس له تدخُّل فيه، فتأمَّل التناقض بين الطرفين!

الجبرية والقدرية إخوان في شيء، ولكنهم أعداء في شيء، ففي مسألة الصفات إخوان، كلهم يُنكرون الصفات، وفي مسألة القدَر أعداء، وفي مسألة الإيمان أعداء، لأنَّ الجَبرية مُرْجِئَة، والمعتزِلة وَعِيدِيَّة يرون أن فاعلَ الكبيرة مخلَّدٌ في النار، فأهل الباطل دائمًا يفترقون ويتفقون على غير هُدًى.

٥٣٤- نَظَـرُوا بِعَيْنَـيْ أَعْـوَرٍ إِذْ فَـاتَهُمْ   نَظَـرُ الْبَصِـيرِ وَغَـارَتِ الْعَيْنَـانِ

قَوْلُهُ: «**أعْوَرٍ**» هنا مصروفة لضرورة الشعر.

قَوْلُهُ: «**نَظَرُوا بِعَيْنَيْ أَعْوَرٍ**» واحد نظر مِن يمين، وواحد نظر مِن يسار، فالأعور الذي عينه اليسرى عوراء ينظر مِن اليمين، والذي عينه اليمنى عوراء ينظر مِن اليسار، ولهذا جاء الحديث أنَّ العَوْرَاء البيِّنَ عَوَرُهَا لا تَجْزِي[1]، عَلَّلَه الفقهاء فقالوا: لأنَّ العوراءَ لا تُدرِكُ الرَّعيَ كامـلًا، ولا تستطيعُ الدفاعَ عن نفسها،

---

(١) وهو حديث: «أَرْبَعٌ لَا تَجُوزُ فِي الْأَضَاحِيِّ: الْعَوْرَاءُ الْبَيِّنُ عَوَرُهَا، وَالْـمَرِيضَةُ الْبَيِّنُ مَرَضُهَا، وَالْعَرْجَاءُ الْبَيِّنُ ظَلْعُهَا، والعَجْفَاءُ -يعني الهزيلة- التي لا تُنْقِي». أخرجه أحمد (٤/ ٢٨٤)، وأبو داود: كتاب الضحايا، باب ما يكره من الضحايا، رقم (٢٨٠٢)، والترمذي: كتاب الأضاحي، باب ما لا يجوز من الأضاحي، رقم (١٤٩٧)، والنسائي: كتاب الضحايا، باب ما نهي عنه من الأضاحي العوراء، رقم (٤٣٦٩)، وابن ماجه: كتاب الأضاحي، باب ما يكره أن يضحى به، رقم (٣١٤٤).

إذا جاءها الذئب مِن اليمين وهي عوراء مِن اليمين أكلها قَبل أن تنظر إليه.

فهؤلاء نظروا بعَين أعور، كيف؟

فالجبرية نظروا إلى عُموم مشيئة الله وخَلقه، وغفلوا عن أن للإنسان إرادةً وفِعلًا، والآخرون نظروا بالعَين الصحيحة إلى أن الإنسانَ مختارٌ فاعلٌ، لا يرى أحدًا يُجبِره، وغفلوا عن أن كلَّ ما في الكون خَلْقٌ لله ومِلْكٌ له.

قَوْلُهُ: «وَغَارَتِ العَيْنَانِ» واحد منهم غارت عَينه اليمنى، وواحد غارت عَينه اليسرى.

٥٣٥- فَحَقِيقَةُ الْقَدَرِ الَّـذِي حَـارَ الْـوَرَى ... في شَـأْنِهِ هُـوَ قُـدْرَةُ الـرَّحْمَنِ

ما دام اللهُ قادرًا، فكُلُّ شيء واقِعٌ بقَدَرِه عزَّ وجلَّ، هذا وجه قول المؤلف: حقيقة القَدَر هو قدرة الرحمن، لأَنَّه إذا كان هذا يقع بإرادة الله وقدرتِه فهذا هو القَدَر.

٥٣٦- وَاسْتَحْسَنَ ابنُ عَقِيلَ[1] ذَا مِنْ أَحْمدٍ ... لَـمَّا حَكَـاهُ عَـنِ الرِّضَـا الرَّبَّـانِي

يعني أن ابن عقيل -رحمه الله، وهو مِن مشاهير أصحاب الإمام أحمد- حكى عن الإمام أنه قال: (القَدَرُ قُدْرَةُ الله). فاستحسن هذا وأعجبه، لأنه واضح، ودليله واضح.

وابن عقيل هذا له (كتاب الفنون)، وقد قيل: إنه يبلغ ثمانمئة مجلدة.

(١) ابن عقيل: هو علي بن عقيل بن محمد بن عقيل، ولد سنة (٤٣١هـ)، وتوفي سنة (٥١٣هـ)، له مصنفات جمة، أهمها (الفنون)، قال الذهبي: لم يصنف في الدنيا أكبر منه، حدثني -يقوله الذهبي- حدثني مَن رأى منه المجلد الفلاني بعد الأربعمئة مجلدا -أي: مِن الفنون- انتهى. [الشارح]. انظر ترجمته في: البداية والنهاية (١٢/ ٢٢٨).

الله أكبر، كتاب واحد في ثمانمئة مجلدة، لكن على اسمه، الفنون، فكُلُّ فنون العلم موجودة فيه.

كان له أبناء، أكبرهم عقيل، طالب علم، وأبوه يَعْقِدُ عليه آمالًا، تُوفي وحزن عليه أبوه، وكانوا في المقبرة، فقام رجل مِن الناس وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف:٧٨] يريد هذا القائل أن يَفدِيَ عقيلًا بنفسه.

فبكى كُلُّ الذين في المقبرة، فقال ابن عقيل: «**إِنَّ القرآنَ لتسكين الأحزانِ لا لتهييج الأحزان**». انظر كيف الجواب العجيب؟!

نأخذ مِن هذا أن أولئك الذين يأتون للعزاء، ويُهَيِّجون أهل الميت، أنهم ليسوا على صواب، لأن المقصودَ بالعزاء تقويةُ الإنسان على تحمُّل المصاب، لا أن يُهَيِّج الحزن، ويُبْقِي الإنسان دائمًا في همٍّ وحزن.

المهم أن ابن عقيل -رحمه الله- استحسن قول الإمام أحمد -رحِمه الله-: «القَدَرُ قُدْرَةُ الله».

٥٣٧- قَالَ: الإِمَامُ شَفَا القُلُوبَ بِلَفْظَةٍ ذَاتِ اخْتِصَارٍ وَهْيِ ذَاتُ بَيَانِ

قَوْلُهُ: «قَالَ» القائل: ابن عقيل.

قَوْلُهُ: «**الإِمَامُ شَفَا القُلُوبَ بلَفْظَةٍ**» شفاها أي: أبرأها مما فيها مِن الشك في القَدَر الذي حار فيه الوَرَى.

قَوْلُهُ: «**بلَفْظَةٍ ذَاتِ اخْتِصَارٍ وَهْيَ ذَاتُ بَيَانِ**» أي: مختصرة وبيِّنة، وصدَق -رحمه الله-.

ثم إن النبيَّ ﷺ شفا القلوبَ وأحياها، لَـمَّا أخبر فقال: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ الجَنَّةِ، وَمَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ». فكُلٌّ واحدٍ مكتوبٌ مقعده مِن الجنة ومقعده مِن النار، قالوا: يا رسول الله، أفلا نَدَعُ العملَ ونَتَّكِل على ما كُتب؟ قال: «لَا، اعْمَلُوا كُلٌّ مُيَسَّرٌ لِـمَا خُلِقَ لَهُ».

فانظر إلى هذا الجواب البَيِّن الواضح مِن الرسول -عليه الصلاة والسلام- الذي لو اجتمع الناس على أن يأتوا بمثله ويشفوا الصدورَ ما استطاعوا، «فكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِـمَا خُلِقَ له، أَمَّا أَهْلُ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا أَهْلُ الشَّقَاوَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ»، ثُمَّ تلا قول الله عزَّ وجلَّ مستدِلًّا لذلك: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾[1] [الليل:٥-١٠].

وقوله تعالى: ﴿لِلْيُسْرَىٰ﴾ يعني: لكُلِّ فِعلة يُسرى، ومنها أن يُيَسِّرَ له فعل الطاعات.

* * *

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ﴾، رقم (٤٩٤٥)، ومسلم: كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته، رقم (٢٦٤٧).

فصل

٥٣٨- وَلَـهُ الْـحَيَاةُ كَمَالُـهَا فَلأَجْلِ ذَا ... مَا لِلْمَمَاتِ عَلَيْهِ مِنْ سُلْطَانِ

٥٣٩- وَكَذَلِكَ الْقَيُّومُ مِنْ أَوْصَافِهِ ... مَا لِلْمَنَامِ لَدَيْهِ مِنْ غَشَيَانِ

٥٤٠- وَكَذَاكَ أَوْصَافُ الْكَمَالِ جَمِيعُهَا ... ثَبَتَتْ لَهُ وَمَدَارُهَا الْوَصْفَانِ

٥٤١- فَمُصَحِّحُ الْأَوْصَافِ وَالْأَفْعَالِ وَالْـ ... أَسْمَاءِ حَقًّا، ذَانِكَ الْوَصْفَانِ(١)

٥٤٢- وَلِأَجْلِ ذَا جَاءَ الْـحَدِيثُ بِأَنَّهُ ... فِي آيَةِ الْكُرْسِي وَذِي عِمْرَانِ

٥٤٣- اسْمُ الْإِلَهِ الْأَعْظَمُ اشْتَمَلَا عَلَى اسْـ ... ـمِ الْـحَيِّ وَالْقَيُّومِ مُقْتَرِنَانِ

٥٤٤- فَالْكُلُّ مَرْجِعُهَا إِلَى الْإِسْمَيْنِ يَدْ ... رِي ذَاكَ ذُو بَصَرٍ بِهَذَا الشَّانِ

الشرحُ

٥٣٨- وَلَـهُ الْـحَيَاةُ كَمَالُـهَا فَلأَجْلِ ذَا ... مَا لِلْمَمَاتِ عَلَيْهِ مِنْ سُلْطَانِ

قَوْلُهُ: «وَلَهُ الحَيَاةُ كَمَالُـهَا» أي: حياة كاملة ليس فيها نقص بوجه مِن الوجوه.

قَوْلُهُ: «فَلأَجْلِ ذَا مَا لِلمَمَاتِ عَلَيهِ مِنْ سُلْطَانِ» يعني: أنه لا سلطان للموت عليه -جَلَّ وعلا-، كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان:٥٨] فلا يموت، لكَمال حياته، فله الحياة الكاملة.

---

(١) في أكثر الأصول الخطية: «الأصلان».

٥٣٩- وَكَــذَلِكَ الْقَيُّــومُ مِــنْ أَوْصَــافِهِ مَــا لِلْمَنَــامِ لَدَيْــهِ مِــنْ غَشَــيَانِ

قَوْلُهُ: «**وَكَذَلِكَ القَيُّومُ مِنْ أَوْصَافِهِ**» وهو أيضًا مِن أسمائه.

وابن القيم -رحِمه الله- عَبَّر عن القيُّوم بأنه مِن أوصافه، ولكن لا مانع، لأنَّ كُلَّ اسم متضمنٌ لصِفَة.

قَوْلُهُ: «**مَا لِلمَنَامِ لَدَيْهِ مِنْ غشَيَانِ**»، فمِن أوصافه القيوميَّة التي تَضَمَّنَها قوله تعالى: ﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة:٢٥٥] وهذه القيوميَّة تمنع النوم، فالنوم مستحيل في حقِّ الله عزَّ وجلَّ، قال الله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة:٢٥٥] لماذا؟

لأنه عزَّ وجلَّ القيُّوم، والقيُّومُ هو القائم بنفسه، القائم على غيره، قال الله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد:٣٣] يعني: كمن لا يملك هذا.

فاللهُ قائمٌ بنفسه مستغنٍ عن غيرِه، وغيرُه قائمٌ به -جلَّ وعلا-، فلأجل ذلك لا تأخذه سِنَةٌ ولا نوم، لكمال حياته، وكمال قيوميَّته.

أرأيتم لو أنَّ أحدًا مِن الخلق له سُلطة على جماعة مِن الناس، وهو كثير النُّعَاس، هل يمكن أن يقوم بمصالحهم؟ الجواب: لا، فالإنسان إذا كان ينعُس، فإنه لو تكَلَّم فربما تجده يهذي، فكيف يُصلح غيرَه؟!

فلِكمال حياته -سبحانه وتعالى- وكمال قَيُّومِيَّته لا تأخذه سِنَةٌ ولا نوم، وغيرُه تأخذه السِّنَةُ والنوم قهرًا.

٥٤٠- وَكَــذَاكَ أَوْصَــافُ الْكَــمَالِ جَمِيعُهَــا ثَبَتَــتْ لَــهُ وَمَــدَارُهَا الْوَصْــفَانِ

أوصافُ الكمال كُلُّها ثبتتْ لله، والدليل قولُ الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل:٦٠].

وَقَوْلُهُ: «وَمَدَارُهَا الوَصْفَانِ»، يشير إلى الحياة والقيوميَّة، فكُلُّ أوصاف الكمال تدور على هذين الوصفين، فالحيُّ فيه كمالُ الأوصاف، والقيُّوم فيه كمالُ الأفعال.

٥٤١- فَمُصَحِّحُ الْأَوْصَافِ وَالْأَفْعَالِ وَالْـ أَسْـمَاءِ حَقًّـا، ذَانِـكَ الْوَصْـفَانِ

كُلُّ الأسماء والأوصاف والأفعال تدور على هذين الاسمين: الحيّ والقيُّوم، فما مِن كمالٍ لحيٍّ إلا دخل تحت قوله: (الحيّ)، وما مِن كمالٍ في فِعل، ولا سلطان إلَّا دخل تحت قوله: (القيُّوم).

٥٤٢- وَلِأَجْلِ ذَا جَاءَ الْـحَدِيثُ بِأَنَّـهُ فِي آيَـةِ الْكُـرْسِي وَذِي عِمْـرَانِ

٥٤٣- اسْمُ الْإِلَهِ الْأَعْظَمُ اشتَمَلَا عَلَى اسْـ ـمِ الْـحَيِّ وَالْقَيُّـومِ مُقْتَرِنَـانِ

يعني: جاء في الحديث أنَّ اسمه الأعظم، الذي إذا دُعِي اللهُ به أَجاب، وإذا سُئِلَ به أَعطى تضمَّن: الحيّ القيُّوم[1].

قوله -رحمه الله-: «فِي آيَةِ الكُرْسِي وَذِي عِمْرَانِ» يعني: في سورة البقرة وسورة آل عِمران، فقال الله عزَّ وجلَّ في سورة البقرة: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وقال في سورة آل عمران: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ [آل عمران:٢].

---

(١) وذلك في قوله ﷺ: «اسْمُ الله الْأَعْظَمُ فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾، وَفَاتِحَةِ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ: ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾. أخرجه أبو داود: كتاب الوتر، باب الدعاء، رقم (١٤٩٦)، والترمذي: كتاب الدعوات، بعد باب جامع الدعوات عن النبي ﷺ، رقم (٣٤٧٨)، وابن ماجه: كتاب الدعاء، باب اسم الله الأعظم، رقم (٣٨٥٥).

بقي موضع ثالث في سورة طه، وهو قوله تعالى: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ [طه:١١١].

٥٤٤- فَالْكُـلُّ مَرْجِعُهَـا إِلَى الْإِسْـمَيْنِ يَـدْ ... رِي ذَاكَ ذُو بَصَـــرٍ بِهَـذَا الشَّـــانِ

لأن هذين الاسمين يتضمَّنان جميعَ معاني أسماءِ الله، ووجه ذلك ما سبق، وهو أنَّ الحيَّ يتضمَّنُ كمالَ الأوصاف، والقيُّومَ كمالَ الأفعال.

* * *

٥٤٥- وَلَـهُ الْإِرَادَةُ وَالْكَرَاهَـةُ وَالـرِّضَى ... وَلَـهُ الْـمَحَبَّةُ وَهْـوَ ذُو الْإِحْسَـانِ

٥٤٦- وَلَهُ الْكَمَالُ الْمُطْلَقُ الْعَارِي عَنِ التْـ ... تَشْـــبِيهِ وَالتَّمْثِيـــلِ بِالْإِنْسَـــانِ

٥٤٧- وَكَمَالُ مَنْ أَعْطَى الْكَـمَالَ لِنَفْسِـهِ[1] ... أَوْلَى وَأَقْـدَمُ، وَهْـوَ أَعْظَـمُ شَـانِ

٥٤٨- أَيَكُونُ قَدْ أَعْطَـى الْكَـمَالَ وَمَـا لَـهُ ... ذَاكَ الْكَــمَالُ، أَذَاكَ ذُو إِمْكَـانِ؟!

٥٤٩- أَيَكُـونُ إِنْسَـانٌ سَـمِيعًا مُبْصِـرًا ... مُـــتَكَلِّمًا بِمَشِـــيئَةٍ وَبَيَـــانِ؟

٥٥٠- وَلَــهُ الْـــحَيَاةُ وَقُـــدْرَةٌ وَإِرَادَةٌ ... وَالْعِلْـــمُ بِـــالْكُلِّيِّ وَالْأَعْيَـــانِ

٥٥١- وَاللهُ قَـدْ أَعْطَـاهُ ذَاكَ وَلَـيسَ هَــ ... ـذَا وَصْفَهُ، فَاعْجَـبْ مِـنَ الْبُهْتَـانِ

٥٥٢- بِخِـلَافِ نَـوْمِ الْعَبْـدِ ثُـمَّ جِمَاعِـهِ ... وَالْأَكْـلِ مِنْـهُ وَحَاجَـةِ الْأَبْـدَانِ

٥٥٣- إِذْ تِلْكَ مَلْزُومَاتُ كَوْنِ الْعَبْـدِ مُحْـ ... تَاجًـا، وَتِلْـكَ لَـوَازِمُ النُّقْصَـانِ

٥٥٤- وَكَـذَا لَـوَازِمُ كَوْنِـهِ جَسَـدًا نَعَـمْ ... وَلَـوَازِمُ الْإِحْـدَاثِ وَالْإِمْكَـانِ[2]

---

(١) في نسخة الحلبي: «بنفسه».

(٢) في نسخة برلين هنا حاشية: «لعن الله من نسب الحنابلة إلى التجسيم».

٥٥٥- يَتَقَـدَّسُ الـرَّحْمَنُ جَـلَّ جَلَالُـهُ   عَنْهَـا وَعَـنْ أَعْضَـاءِ ذِي جُـثْمَانِ

الشـرحُ

٥٤٥- وَلَـهُ الْإِرَادَةُ وَالْكَرَاهَـةُ وَالـرِّضَى   وَلَـهُ الْـمَحَبَّةُ وَهْـوَ ذُو الْإِحْسَـانِ

هذه مِن صفاتِهِ عزَّ وجلَّ، **فله الإرادة**، ودليلها موجود في كتاب الله بكثرة، قال تعالى: ﴿يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة:١]، وقال: ﴿يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة:٢٥٣]، وقال: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود:١٠٧] وقال: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥] والإرادة عند أهل العلم تنقسم إلى قسمين: إرادة كونية، وإرادة شرعية، والفَرق بينهما مِن وجهين:

الوجه الأول: الإرادة الكونية تكون فيما يُحِبُّ الله، وفيما لا يُحبُّ، ولهذا نقول: إن الله تعالى قد أراد إيمانَ المؤمن كونًا، وأراد كُفْرَ الكافر كونًا، فالأول فيما يُحِبُّ، والثاني فيما لا يحبُّ.

الوجه الثاني: الإرادة الكونية لا بدَّ فيها مِن وقوع المراد، والإرادة الشرعية قد يقع المراد وقد لا يقع، فقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء:٢٧] هذه إرادة شرعية، لأنها لو كانت إرادةً قَدَرِيَّة لوجب أن تقع، أي: أن يقع مرادُه، وهو التوبة، ولكنَّ الله تعالى يتوب على مَن تاب فقطْ، والإرادة الكونية لا بدَّ فيها مِن وُقُوع المراد، لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة:٢٥٣].

وله الكراهة، كقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ﴾ [التوبة:٤٦] فالله تعالى يكره ما يَسْتَحِقُّ الكراهة مِن أفعالٍ وأقوالٍ، ففي قوله: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ﴾ المكروه هنا فِعل، وهو الانبعاث، وفي قول النَّبِيِّ ﷺ: «إِنَّ اللهَ كَرِهَ

لَكُمْ قِيلَ وَقَالَ»[1]. المكروه هنا قول.

وله الرَّضَى، كقولِه تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ [المائدة:١١٩] فهو يَرْضَى عن الأقوال، ويرضى عن الأفعال، ويرضى عن المؤمنين.

وله المَحَبَّة: فهو يُحِبُّ ويُحَبُّ، كقول تعالى: ﴿فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة:٥٤].

قَوْلُهُ: «وهوَ ذُو الإِحْسَانِ» يعني: النِّعَم، وإحسان الله تعالى لا يمكن أن يُعَدَّ ولا يحصى، ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾ [النحل:١٨].

أشار بهذا إلى أن هذه الأوصاف: الإرادة، والكراهة، والرِّضى، والمحبَّة، ليست هي الإحسان، بل الإحسان مِن لوازمها، أي: مِن لوازم المحبَّة والرِّضى.

أما أصحاب التعطيل فيُنكِرون الكراهة والرِّضى والمحبَّة، ويفسرون الكراهة بالعقوبة، والرِّضى بالمثوبة، والمحبَّة كذلك بالمثوبة، فتجدهم إذا فسَّروا قولَ الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [آل عمران:١٣٤] قالوا: يعني: يُثِيب المحسنين، وأنكروا أن يكون له محبَّة، وقالوا: إن المحبَّة لا تكون إلَّا بين متناسِبَيْنِ.

وهم أخطئوا في تحريف المنقول، وأخطئوا أيضًا في الواقع.

فالمحبَّة تكون بين متناسِبَيْن، كما بين الرجل وابنه وأبيه، وما أشبَهَ ذلك، وتكون بين المتبايِنَيْن، كمحبَّة الجهاد للإنسان، والإنسان للجهاد.

قال النبيُّ ﷺ في أُحُدٍ: «إِنَّهُ جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ»[1]. أين التناسب بين الأحجار

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاستقراض، باب ما ينهى عن إضاعة المال، رقم (٢٢٧٧)، ومسلم: كتاب الأقضية، باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة، رقم (٥٩٣).

والصخرات والإنسان؟ الجواب: لا تناسب، الإنسان في نفسه يُحِبُّ البَعير الفلاني، ولا يحبُّ البعيرَ الفلاني، كذلك الناقة تُحِبُّ صاحبَها وتَرُومه، وتختاره مِن بين الناس، كذلك أيضًا الجمادات: تجد الرجلَ -مثلًا- يشتري ساعة وأخرى، ويحبُّ هذه أكثر مِن هذه، وكذا قَلَم، كتاب، فقولهم مردودٌ بالحِسِّ، ومردودٌ بالشرع.

ثُمَّ نقول تنزُّلًا معهم: إذا فسَّرتمُ المحبَّة بالمَثُوبة، فهل يمكن أن يُثيبَ مَن لا يُحِبّ؟ الجواب: لا يمكن، كيف يثيب هذا ويعطيه ويرضيه وهو لا يحبُّه؟! هذا لا يمكن.

فالحمد لله الذي فتح عُقول أهل السنّة والجماعة لِـمَا يوافق المنقول والمعقول.

٥٤٦- وَلَهُ الْكَمَالُ الْمُطْلَقُ الْعَارِي عَنِ التْـ   تَشْـبِيهِ وَالتَّمْثِيـلِ بِالْإِنْسَـانِ

قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، وقال تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم:٦٥]، أي: مشابهًا، وقال تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص:٤]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٢] أي: أنه لا نِدَّ له.

قَوْلُهُ: «التَّشْبِيهِ والتَّمْثِيلِ» هذا مِن باب عطف المترادِفَيْنِ بعضهما على بعض، مع أن التعبيرَ بنفي التمثيل أحسن مِن التعبير بلفظ نفي التشبيه.

ثم ذكر المؤلف دليلًا عقليًّا على أن اللهَ له الكمال، فقال:

٥٤٧- وَكَمَالُ مَـنْ أَعْطَـى الْكَـمَالَ لِنَفْسِـهِ   أَوْلَى وَأَقْـدَمُ، وَهْـوَ أَعْظَـمُ شَـانِ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب خرص الثمر، رقم (١٤١١)، ومسلم: كتاب الحج، باب أحد جبل يحبنا ونحبه، رقم (١٣٩٢).

يعني: أن المؤلفَ -رحِمه الله- استدلَّ بثُبُوت الكمال لله عزَّ وجلَّ بأنه أعطى الكمال، فيكون هو أَوْلَى به، فكمالُه سابقٌ على مَن أعطاه الكمال، وهذا واضح، لأنَّ مِن كماله أن أعطى ولا شكَّ، وهذا دليلٌ عقليٌّ، ولهذا قال: (**أَوْلَى وَأَقْدَمُ وَهْوَ أعظَمُ شَانِ**).

٥٤٨- أَيَكُونُ قَدْ أَعْطَى الْكَمَالَ وَمَا لَهُ ذَاكَ الْكَمَالُ، أَذَاكَ ذُو إِمْكَانِ؟!

قَوْلُهُ: «أَيَكُونُ قَدْ أَعْطَى الكَمَالَ... إلخ» ؟

الجواب: أبدًا، لا يمكن، لأنَّ مِن كماله أنْ يُعْطِيَ الكمالَ، أما أن يكون ناقصًا ثم يُعْطِي الكمالَ، فهذا مستحيل، إذ كيف يُعطِي الكمالَ مَن ليس بكامل؟! فكمال الله قد دَلَّ عليه السمعُ والعقلُ، ومِن الأدلة العقلية على كمال الله أنه معطٍ الكمالَ، ومُعطي الكمال أولى بالكمال.

٥٤٩- أَيَكُونُ إِنْسَانٌ سَمِيعًا مُبْصِرًا مُتَكَلِّمًا بِمَشِيئَةٍ وَبَيَانِ؟

هذا وصف للإنسان، فالإنسان سميع وبصير، والدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان:٢].

قَوْلُهُ: «مُتَكَلِّمًا»، والدليل قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عمران:١٦٧].

قَوْلُهُ: «بِمَشِيئَةٍ»، لأنَّ الإنسانَ يتكلَّم بإرادة.

قَوْلُهُ: «بَيَان» أي: فصاحة، ولهذا تجد بعض الناس إذا تكلَّم سَلَبَ العقولَ، وتحقَّقَ بهذا قولُ الرسول ﷺ: «إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا»(١).

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب الخطبة، رقم (٤٨٥١)، ومسلم: كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، رقم (٨٦٩).

٥٥٠- وَلَــهُ الْــحَيَاةُ وَقُــدْرَةٌ وَإِرَادَةٌ وَالْعِلْــمُ بِــالْكُلِّيِّ وَالْأَعْيَــانِ

قَوْلُهُ: «وَلَهُ الحَيَاةُ» أي: الإنسان له الحياة، لقوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ [الأنعام:٩٥].

قَوْلُهُ: «وَقُدْرَةٌ» يعني: وله القُدرة، والدليل قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟﴾ [البقرة:٢٦٤] ونفيُ قُدرة هؤلاء يدلُّ على ثبوت القُدرة لغيرهم، وقال تعالى: ﴿وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ﴾ [القلم:٢٥].

قَوْلُهُ: «وَإِرَادَةٌ»، فللإنسان إرادة، قال تعالى: ﴿فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة:٢٢٣] أي: مِن حيثُ أردتم، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٢٧].

قَوْلُهُ: «وَالعِلْمُ» يعني أنَّ الإنسانَ له عِلم، والدليلُ قولُه تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق:٥]، وقوله: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران:٣].

قَوْلُهُ: «والعِلْمُ بالكُلِّيِّ وَالأَعْيَانِ»: (الكُلِّي) يعني: المعانيَ، و(الأعيان): الأجسام، فالإنسان له عِلم بالمعاني الكُلِّيَّة، وكذلك بالأعيان.

٥٥١- وَاللهُ قَــدْ أَعْطَــاهُ ذَاكَ وَلَــيسَ هَــ ـذَا وَصْفَهُ، فَاعْجَـبْ مِـنَ الْبُهْتَـانِ

قَوْلُهُ: «وَلَيسَ هَذَا وَصْفَهُ» أي: وصْف الله، يعني: كيف يكون إنسان متصفًا بهذه الصفات الكاملة، والله هو الذي أعطاه إيَّاها، وليس هذا وصفًا لله؟!

هؤلاء يقولون على كلامهم: إنَّ الله تعالى أعطى السمعَ والبصرَ، ولكن ليس له سمعٌ ولا بصرٌ، فيكون المخلوقُ أكملَ مِن الخالق.

٥٥٢- بِخِلَافِ نَوْمِ الْعَبْدِ ثُمَّ جِمَاعِهِ وَالْأَكْلِ مِنْهُ وَحَاجَةِ الْأَبْدَانِ

٥٥٣- إِذْ تِلْكَ مَلْزُومَاتُ كَوْنِ الْعَبْدِ مُحْـ تَاجًا، وَتِلْكَ لَوَازِمُ النُّقْصَانِ

لما ذكر الكمال لله عزَّ وجلَّ وأنَّ الإنسان له كمال، فلا يمكن أن يكون الخالق دونه في الكمال، أجاب عن شيء قد يتوهَّمه الإنسانُ، وهو نوم العبد، هل هو كمالٌ أو نقص؟

الجواب: هو كمالٌ مِن جهةٍ، ونقصٌ مِن جهةٍ أخرى، فمن جهة أنَّ الإنسانَ إذا كان صحيحَ البدن، وليس فيه آلامٌ ولا أوجاع، ونام، فهذا كمال، لكن مِن جهة أنه مِن لوازم النقص يكون نقصًا، فالإنسان لنقصانه يحتاج إلى نومٍ يستريح به مِمَّا مضى، ويستجد نشاطه لما يستقبل.

كذلك الجِماعُ كمالٌ في الإنسان، لكنه مِن لوازم النقص، إذ إن الإنسانَ محتاجٌ إلى بقاءِ النَّسل الذي طريقه الجِماع.

والأكل كذلك كمالٌ مِن وجهٍ، ونقصٌ مِن وجهٍ آخر، فالإنسانُ الصحيحُ يأكل بشهوةٍ ونَهْمَةٍ، ولذة في الأكل، والمريضُ بالعكس، لكن كونه يأكل مِن لوازم النقص، لأنه محتاج.

لَـمَّا كانت هذه الأشياء حاجةً، فقد تَنَزَّهَ اللهُ عزَّ وجلَّ عن الحاجة، فهو ليس بحاجةٍ إلى أكلٍ، ولا شربٍ، ولا جِماع، ولا غير ذلك، أما العبدُ فهذا مِن كماله، لاحتياجه إليه ليقوم به كماله.

٥٥٤- وَكَذَا لَوَازِمُ كَوْنِهِ جَسَدًا نَعَمْ وَلَوَازِمُ الْإِحْدَاثِ وَالْإِمْكَانِ

يعني: أيضًا مِن لوازم كونه جسدًا أن يحتاج إلى هذه الأشياء للبقاء والإمكان.

فالجسد يحتاج إلى شيء يُنَمِّيه ويُبْقِيه، وكذلك الإحداث والإمكان، فالإنسان حادثٌ ممكن الوجود، وليس بواجب الوجود، والله عزَّ وجلَّ ليس بحادث، وهو واجب الوجود.

٥٥٥- يَتَقَدَّسُ الرَّحْمَنُ جَلَّ جَلَالُهُ عَنْهَا وَعَنْ أَعْضَاءِ ذِي جُثْمَانِ

قَوْلُهُ: «يَتَقَدَّسُ الرَّحْمَنُ... عَنْهَا» أي: عن هذه اللوازم، ويتقدَّس أيضًا عن أعضاء ذي جُثمان.

وكلامُ المؤلف -رحمه الله- هنا مُوهِمٌ ما ليس بمرادٍ له قطعًا، لأنَّ قولَه: «عَنْ أَعْضَاءِ ذِي جُثْمَانِ» يشملُ الوجهَ، واليدَ، والعينَ، والقدَمَ، والساقَ، فإنَّ هذه مِن أعضاء الجسم، فهل الله مُنَزَّهٌ عنها؟

الجواب: إنْ نَظَرْنا إلى ظاهر كلام المؤلف قلنا: إنه يدلُّ على ذلك، لكن لِعِلْمِنَا بحال المؤلف، وأنه يُثْبِتُ هذه الصفات لله عزَّ وجلَّ، وهي: الوجه، والعين، واليد، والساق، والقَدَم، لِعِلْمِنَا بذلك كما نعلمُ الشمسَ في رابِعَةِ النهار، فإننا نقول: إنه لم يُرِدْ نفيَ هذا عن الله، وإنما أراد نفيَ خصائصِ هذه الأعضاءِ بالنسبة للإنسان، فخصائصُ هذه الأعضاء بالنسبة للإنسان يجوز أن تنفصل مِن جسمه، وألا تنفصل، لكن اليد بالنسبة لله عزَّ وجلَّ، والساق، والقَدَم، والعين، لا يجوز أن يكون فيها هذا، ولهذا قال العلماء: لا يجوز أن تُطْلِقَ على يد الله أنها بعض الله، لأنَّ البعض ما جاز انفصالُه عن الكُلِّ، وهذا بالنسبة إلى الله أمر مستحيل.

ولهذا نجد دقةَ تعبير شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- حيث قال في (التَّدْمُرِيَّة)[1]: وبيان هذا، أن صفاتنا منها ما هي أعيان وأجسام، وهي أبعاض

---

(١) انظر: الرسالة التدمرية (ص:٧٧).

لنا، كالوجه واليد، ومنها ما هي معان وأعراض، وهي قائمة بنا، كالسمع والبصر والكلام والعلم والقدرة، ثم إن من المعلوم أن الرب لما وصف نفسه بأنه حي عليم قدير، لم يقل المسلمون: إن ظاهر هذا غير مراد، لأن مفهوم ذلك في حقه مثل مفهومه في حقنا، فكذلك لما وصف نفسه بأنه خلق آدم بيديه، لم يوجب ذلك أن يكون ظاهره غير مراد، لأن مفهوم ذلك في حقه كمفهومه في حقنا، بل صفة الموصوف تناسبه، فإذا كانت نفسه المقدسة ليست مثل ذوات المخلوقين، فصفاته كذاته ليست مثل صفات المخلوقين، ونسبة صفة المخلوق إليه، كنسبة صفة الخالق إليه، وليس المنسوب كالمنسوب، ولا المنسوب إليه كالمنسوب إليه. اهـ

إِذَنْ كلامُ ابن القيم يجب أن يُحْمَل على أعضاء ذي الجثمان، أي: خصائص هذه الأعضاء، وهي جواز انفصالها عن الكُلِّ، فأعضاءُ الإنسان يجوز أن تنفصلَ عن الكُلِّ، أما بالنسبة لهذه الأسماء، أو هذه الصفات -بالنسبة إلى الله- فإنه لا يمكن أن يكونَ فيها ذلك.

* * *

٥٥٦- وَاللهُ رَبِّي لَـمْ يَـزَلْ مُتَـكَلِّمًا ... وَكَلَامُـهُ الْـمَسْمُوعُ بِـالآذَانِ

٥٥٧- صِـدْقًا وَعَـدْلًا أُحْكِمَـتْ كَلِمَاتُـهُ ... طَلَبًـا وَإِخْبَـارًا بِـلَا نُقْصَـانِ

٥٥٨- وَرَسُـولُهُ قَـدْ عَـاذَ بِـالْكَلِمَاتِ مِـنْ ... لَـدْغٍ وَمِـنْ عَـيْنٍ وَمِـنْ شَـيْطَانِ

٥٥٩- أَيُعَاذُ[1] بِالْـمَخْلُوقِ؟ حَاشَاهُ مِنَ الْـ ... إِشْرَاكِ، وَهْـوَ مُعَلِّـمُ الْإِيـمَانِ

٥٦٠- بَـلْ عَـاذَ بِـالْكَلِمَاتِ وَهْـيَ صِـفَاتُهُ ... -سُـبْحَانَهُ- لَيْسَـتْ مِـنَ الْأَكْـوانِ

(١) في بعض الأصول: «أفعاذ».

٥٦١- وَكَذَلِكَ الْقُرْآنُ عَيْنُ كَلَامِهِ الْـ ... مَسْمُوعِ مِنْهُ حَقِيقَةً بِبَيَانِ

٥٦٢- هُوَ قَوْلُ رَبِّي كُلُّهُ لَا بَعْضُهُ ... لَفْظًا وَمَعْنًى، مَا هُمَا خَلْقَانِ

٥٦٣- تَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَقَوْلُهُ ... اللَّفْظُ وَالْمَعْنَى بِلَا رَوَغَانِ

الشرحُ

ذكر المؤلف -رحِمه الله- في هذه الأبيات ما يتعلَّق بصِفَةٍ مِن صفات الله عزَّ وجلَّ وهي صفة الكلام، فقال:

٥٥٦- وَاللهُ رَبِّي لَمْ يَزَلْ مُتَكَلِّمًا ... وَكَلَامُهُ الْمَسْمُوعُ بِالآذَانِ

إنَّ الله تعالى لم يزل مُتَكلِّمًا، يعني: ولا يزال متكلِّمًا، اقرأ قولَ الله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ﴾ [يس:٨٢] فقوله: «لَمْ يَزَلْ» يعني: فيما مضى، ولا يزال كذلك في المستقبل، حتى قال الرَّبُّ عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان:٢٧].

الله أكبر! لو كلّ ما في الأرض صار أقلامًا يُكْتَبُ به، والبحرُ يمُدُّه مِن بعده سبعة أبحُر ما نَفِدَتْ كلماتُ الله، ولا نَفاد لها، لأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لم يزلْ ولا يزالُ مُرِيدًا خالقًا، وكُلَّما أراد شيئًا قال له: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ فلا نفادَ لكلمات الله -سبحانه وتعالى-، ولهذا قال: (لَمْ يَزَلْ مُتَكَلِّمًا).

واعلم أنَّ الكلمات تحدُث في الأزل، والتسلسل فيها باقٍ كما سبق، وكذلك في الماضي، فمن يحصي هذه الكلمات؟ الجواب: لا يحصيها إلَّا اللهُ عزَّ وجلَّ، وهو -سُبحانَه وتعالَى- لم يزل متكلِّمًا بكلامٍ بحرفٍ وصوت.

فإن قال قائل: الحروف هي الحروف التي تتكون منها كلمات الناس، أفلا يقتضي هذا أن يكونَ مماثِلًا للخَلق؟

فالجواب: لا يمكن، لأنَّ الصوت يختلف، فكما أنَّ الخالقَ والمخلوقَ يتفقان في الوجود ومع ذلك يختلفان في صفته، فوجودُ الخالقِ غيرُ وجودِ المخلوق، كذلك صوتُ الخالقِ عزَّ وجلَّ ليس كصوتِ المخلوق، أما الحروفُ فالحروف هي الحروف التي يتكلَّم بها الناس، وهذا لا يقتضي المشابَهة.

قَوْلُهُ: «**وَكَلَامُهُ المَسْمُوعُ بِالآذَانِ**» فكلامه يُسمَع، وليس يَخْلُقُ أصواتًا تُسْمَع تُعبِّرُ عن كلامه، بل كلامُه عزَّ وجلَّ مسموعٌ بالآذان.

أرأيتم حين كَلَّم موسى -عليه السلام-، فسمع موسى -عليه السلام- بآذانه، وصار يخاطِبُ اللهَ عزَّ وجلَّ، وكذلك النبيُّ ﷺ في المعراج كان يسمعُ كلامَ الله عزَّ وجلَّ ويخاطبُه، وسمِعَه مِن قَبْلِهما آدمُ -عليه الصلاة والسلام- وغيرُ ذلك.

فكلام الله مسموعٌ يُسْمَعُ بالآذان، لكنَّ صوتَه لا يُشبه أصواتَ المخلوقين، فلا يقومُ له إلَّا مَنْ ثَبَّتَه اللهُ عزَّ وجلَّ، ولهذا إذا تكلَّم بالوحي ارتجفت السمواتُ وصَعِقَت الملائكة: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [سبأ:٢٣].

٥٥٧- صِـدْقًا وَعَـدْلًا أُحْكِمَـتْ كَلِمَاتُـهُ ... طَلَبًـا وَإِخْبَـارًا بِـلَا نُقْصَـانِ

قَوْلُهُ: «**طَلَبًا وَإِخْبَارًا**» فيه لف ونشر غير مُرَتَّب.

وَقَوْلُهُ: «**صِدْقًا وَعَدْلًا**» الصدقُ بالنسبة للإخبار، والعدلُ بالنسبة للأحكام، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗا﴾ [الأنعام:١١٥]، وفي قراءة:

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ﴾، فهي صدقٌ ليس فيها كَذِبٌ بِوَجْهٍ مِن الوجوه، وهي عدلٌ ليس فيها جَوْرٌ بِوَجْهٍ مِن الوجوه، ولهذا قال: (**طَلَبًا**)، وهذا يعود على العدل، (**وإخبارًا**) على الصدق (**بِلَا نُقْصَانِ**).

٥٥٨- وَرَسُولُهُ قَدْ عَاذَ بِالْكَلِمَاتِ مِنْ ... لَدْغٍ وَمِنْ عَيْنٍ وَمِنْ شَيْطَانِ

قَوْلُهُ: «**وَرَسُولُهُ**» يعني: محمدًا صلى الله عليه وسلم.

قَوْلُهُ: «**قَدْ عَاذَ بالكَلِمَاتِ مِنْ لَدْغٍ وَمِنْ عَيْنٍ ومِنْ شَيْطَانِ**» يعني: قال: «**أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ الله التَّامَّاتِ**»[١]. مِن اللَّدْغ ومِن السامَّة، والهامَّة، والشيطان.

ومن قول النبيِّ ﷺ: «**أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ الله**» استدلَّ الإمامُ أحمدُ -رحمه الله- بهذا على أنَّ كلامَ الله غيرُ مخلوقٍ، لأنَّ المخلوقَ لا يُسْتَعَاذُ به، هكذا قرَّر الإمامُ أحمدُ -رحمه الله-.

والحقيقة أنَّ المخلوق يُسْتَعاذ به فيما يَقْدِر عليه هذا المخلوقُ الحيُّ أمامك، كما جاء ذلك في عدة أحاديث، حيث قال النَّبِيُّ ﷺ لـَمَّا تحدَّث عما تحدَّث عنه مِن الفتن: «**وَمَنْ وَجَدَ مَلْجَأً، أَوْ مَعَاذًا فَلْيَعُذْ بِهِ**»[٢].

وأخبر أنَّ جيشًا عائِذٌ بالحَرَم[٣].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب في التعوذ من سوء القضاء ودرك الشقاء وغيره، رقم (٢٧٠٨).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم (٣٤٠٦)، ومسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب نزول الفتن كمواقع القطر، رقم (٢٨٨٦).

(٣) يعني قوله ﷺ: «يَعُوذُ عَائِذٌ بِالْبَيْتِ، فَيُبْعَثُ إِلَيْهِ بَعْثٌ، فَإِذَا كَانُوا بِبَيْدَاءَ مِنَ الْأَرْضِ خُسِفَ بِهِمْ». أخرجه مسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب الخسف بالجيش الذي يؤم البيت، رقم (٢٨٨٢).

لكنَّ الشيءَ الذي هو غيرُ مُحسوسٍ لا يمكنُ الاستعاذةُ إلَّا بصفةٍ مِن صفات الله، وأما بالمخلوق استعاذة محسوسة فهو كالاستغاثة تمامًا، والاستغاثة فيما يقدر عليه جائزة.

٥٥٩- أَيُعَاذُ بِالْـمَخْلُوقِ؟ حَاشَاهُ مِنَ الْـ إِشْرَاكِ، وَهْوَ مُعَلِّمُ الْإِيمَانِ

المعنى: أنَّ النبيَّ ﷺ لا يمكن أن يستغيثَ بمخلوقٍ غير حاضرٍ قادرٍ على إعاذته، لأنه لو فعل هذا لكان ذلك شِركًا، والنبيُّ ﷺ يتحاشى أن يُشرِك، وهو -عليه الصلاة والسلام- مُعَلِّمُ الإخلاص والإيمان.

٥٦٠- بَلْ عَاذَ بِالْكَلِمَاتِ وَهْيَ صِفَاتُهُ -سُبْحَانَهُ- لَيْسَتْ مِنَ الْأَكْوانِ

قَوْلُهُ: «بَلْ عَاذَ بِالكَلِمَاتِ وَهْيَ صِفَاتُهُ» أي: صفات الله عزَّ وجلَّ.

قَوْلُهُ: «لَيْسَتْ مِنَ الأَكْوانِ» خلافًا للجهمية الذين قالوا: إن كلامَ الله مخلوقٌ مِن جملة المخلوقات.

٥٦١- وَكَذَلِكَ الْقُرْآنُ عَيْنُ كَلَامِهِ الْـ مَسْمُوعِ مِنْهُ حَقِيقَةً بِبَيَانِ

هذا القرآن الذي بين أيدينا -نسأل الله أن يجعلنا ممن يتلونه حقَّ تلاوته- هذا كلام الله، تكلَّم به -جلَّ وعلا- حقيقةً، وسَمِعَه جبريلُ -عليه السلام- ثُمَّ ألقاه على قلب النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم.

٥٦٢- هُوَ قَوْلُ رَبِّي كُلُّهُ لَا بَعْضُهُ لَفْظًا وَمَعْنًى، مَا هُمَا خَلْقَانِ

هو قولُ الله عزَّ وجلَّ كله لا بعضه، خلافًا لِـمَن قال: إن الكلامَ مخلوقٌ، والمعنى القائم بالنفس غيرُ مخلوق، فجعل بعضَ الكلام مخلوقًا، وجعل بعضَه غيرَ مخلوقٍ، مثل الأشاعرة.

أَمَّا المعتزلة: فقالوا: كلامُ الله مخلوقٌ مِن الأصل، وليس له كلامٌ هو قائم بنفسه، بل هو مخلوق.

وكلامُ المعتزلة أقربُ إلى المعقول مِن كلام الأشاعرة، لأننا إذا جعلنا الكلام هو المعنى القائم بالنفس فمعناه: أنه لا كلام لله حقيقة.

وبريءٌ منهما قول السلف: إنَّ كلام الله هو المعنى واللفظ.

فالله عزَّ وجلَّ يتكلَّم بها في نفسه متى شاء كيف شاء.

٥٦٣- تَنْزِيــلُ رَبِّ الْعَالَــمِينَ وَقَوْلُــهُ اللَّفْـظُ وَالْـمَعْنَى بِـلَا رَوَغَـانِ

معلوم أن الناس انقسموا في الكلام إلى ثلاثة أقسام:

الأول: مَن قالوا: إن كلامَ الله صفةٌ مِن صفاته، شاملٌ للمعنى واللفظ، وهذا قول السلف، فالقرآنُ كلامُ الله لفظًا ومعنًى.

الثاني: مَن قال: كلامُ الله مخلوقٌ، بائِنٌ منه، لا يُوصَفُ به إلَّا على سبيل التشريف والتكريم، وهذا قول المعتزِلة، وهذا القول أدَّى إلى القول بأنَّ كُلَّ كلام في الوجود كلامُ الله عزَّ وجلَّ، كما قال الناظم:

وَكُلُّ كَلَامٍ فِي الْوُجُودِ كَلَامُـهُ سَـواءٌ عَلَيْنَـا نَثْـرُهُ وَنِظَامُـهُ

وهذا القول يؤدِّي إلى القول بوَحْدَة الوجود، وهي سلسلة خبيثة.

الثالث: مَن قال: إن كلام الله عزَّ وجلَّ هو المعنى القائم بنفسه، وخلق أصواتا تعبِّر عمَّا في نفسه، وهذا قول الأشاعرة.

سبحانه وتعالى! أيكون ما في النفس كلامًا؟! لو كان كلامًا لم يكن فرقٌ بين

العِلم والكلام، لأنَّ العِلم أيضًا معنًى قائمٌ بالنفْس، وكُلُّ أحدٍ يعرف الفَرق بين العِلم والكلام.

لهذا أشار المؤلف -رحمه الله- إلى أن كلًّا مِن اللفظ والمعنى كلامُ الله.

* * *

٥٦٤- لَكِنَّ أَصْوَاتَ الْعِبَادِ وَفِعْلَهُمْ ... كَمِدَادِهِمْ وَالرَّقِّ مَخْلُوقَانِ

٥٦٥- فَالصَّوْتُ لِلْقَارِي وَلَكِنَّ الْكَلَا ... مَ كَلَامُ رَبِّ الْعَرْشِ ذِي الْإِحْسَانِ

٥٦٦- هَذَا إِذَا مَا كَانَ ثَمَّ وَسَاطَةٌ ... كَقِرَاءَةِ الْمَخْلُوقِ لِلْقُرْآنِ

٥٦٧- فَإِذَا انْتَفَتْ تِلْكَ الْوَسَاطَةُ مِثْلَمَا ... قَدْ كَلَّمَ الْمَوْلُودَ مِنْ عِمْرَانِ[1]

٥٦٨- فَهُنَالِكَ الْـمَخْلُوقُ نَفْسُ السَّمْعِ لَا ... شَيْءٌ مِنَ الْمَسْمُوعِ، فَافْهَمْ ذَانِ

٥٦٩- هَذِي مَقَالَةُ أَحْمَدٍ وَمُحَمَّدٍ[2] ... وَخُصُومُهُمْ مِنْ بَعْدُ طَائِفَتَانِ

٥٧٠- إِحْدَاهُمَا[3] زَعَمَتْ بِأَنَّ كَلَامَهُ ... خَلْقٌ لَهُ أَلْفَاظُهُ وَمَعَانِي

٥٧١- وَالْآخَرُونَ[4] أَبَوْا وَقَالُوا: شَطْرُهُ ... خَلْقٌ، وَشَطْرٌ قَامَ بِالرَّحْمَنِ

٥٧٢- زَعَمُوا الْقُرَانَ عِبَارَةً وَحِكَايَةً ... قُلْنَا[5] كَمَا زَعَمُوهُ قُرْآنَانِ

---

(١) قال الحلبي في نسخته: في هامش الأصل: «أي: موسى».

(٢) قال الحلبي في نسخته: في هامش الأصل «أي: البخاري».

(٣) قال الحلبي في نسخته: في هامش الأصل «أي: الجهمية والمعتزلة».

(٤) قال الحلبي في نسخته: في هامش الأصل «أي: الأشاعرة».

(٥) في نسخة: «فَلَنَا».

٥٧٣- هَـذَا الَّـذِي نَتْلُـوهُ مَخْلُـوقٌ كَـمَا   قَـالَ الْوَلِيـدُ وَبَعْـدَهُ الْفِئَتَـانِ

٥٧٤- وَالْآخَـرُ الْـمَعْنَى الْقَـدِيمُ فَقَـائِمٌ   بِـالنَّفْسِ لَـمْ يُسْـمَعْ مِـنَ الـدَّيَّانِ

الشـرحُ

٥٦٤- لَكِـنَّ أَصْـوَاتَ الْعِبَـادِ وَفِعْلَهُـمْ   كَمِـدَادِهِمْ وَالـرَّقِّ مَخْلُوقَـانِ

هذه أربعة أشياء: الصوت، والفعل، والرَّق، والمِدَاد، فالصوت: النطق، والفعل: حركات الفم واللسان، والمداد: الحِبر، والرَّق: الورق المكتوب عليه، قال تعالى: ﴿فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ﴾ [الطور:٣] فهذه الأربعة مخلوقة، ولهذا قال:

٥٦٥- فَالصَّـوْتُ لِلْقَـارِي وَلَكِـنَّ الْكَـلَا   مَ كَلَامُ رَبِّ الْعَرْشِ ذِي الْإِحْسَـانِ

٥٦٦-هَـذَا إِذَا مَـا كَـانَ ثَـمَّ وَسَـاطَةٌ   كَقِـرَاءَةِ الْمَخْلُـوقِ لِلْقُـرْآنِ

يعني: فالصوت للقارئ، والكلام كلام الباري عزَّ وجلَّ.

٥٦٧- فَإِذَا انْتَفَـتْ تِلْـكَ الْوَسَـاطَةُ مِـثْلَمَا   قَـدْ كَلَّـمَ الْمَوْلُـودَ مِـنْ عِمْـرَانِ

٥٦٨- فَهُنَالِكَ الْـمَخْلُوقُ نَفْسُ السَّمْعِ لَا   شَيْءٌ مِـنَ الْمَسْـمُوعِ، فَـافْهَمْ ذَانِ

قَوْلُهُ: «الْمَوْلُودَ مِنْ عِمْرَانِ» يعني: موسى بن عمران -عليه السلام-، حيث كلَّمه اللهُ تكليمًا.

هنا إذا كلَّم اللهُ عزَّ وجلَّ أحدًا بلا وساطة، فكلامُ الله غيرُ مخلوق، وهو المسموع، والسمعُ الذي أدرك الكلامَ مخلوقٌ.

٥٦٩- هَـذِي مَقَالَـةُ أَحْمَـدٍ[١] وُمُحَمَّـدٍ[٢] وَخُصُـومُهُمْ مِـنْ بَعْـدُ طَائِفَتَـانِ

قَوْلُهُ: «أَحْمَدٍ وُمُحَمَّدٍ» يعني: أحمد بن حنبل -رحمه الله-، ومحمد بن إسماعيل البُخاري -رحمه الله-.

فأحمد بن حنبل، ومحمد بن إسماعيل البخاري قالا: إن هناك فَرْقًا بين المقروء والقراءة، وبين القارئ والمتكلِّم بالمقروء، فالمقروُء غيرُ مخلوق، والقراءةُ مخلوقةٌ، والقارئُ مخلوقٌ، والمتكلِّم بالمقروء وهو الله عزَّ وجلَّ طبعًا غيرُ مخلوق، فكلامُه غيرُ مخلوق، وبهذا التفصيل يزول الإشكال.

فهنا فرق بين الكلام والمتكلِّم، وبين القارئ والمقروء، ولهذا قال بعض السلف كما أشرت إليه مِن قبل: (**الصوتُ صوتُ القارئ، والكلامُ كلامُ الباري**).

ففَرْقٌ بين المفعولِ وبين الفِعل، وهذا التفصيل تزول به إشكالات كثيرة.

ولهذا لو قال قائل -سمع شخصًا يقرأ القرآن-: إنه مخلوق، فهذا غلط، لأنه يحتاج إلى تفصيل.

فيقال: صوت القارئ وحركاته مخلوقة لا شكَّ، أما المقروء فليس بمخلوق.

بالنسبة للسمع نقول: عندنا سامع وسمع ومسموع، فالسامع مخلوق، والسمع مخلوق، والمسموع فيه تفصيل: إن كان المسموع صوت القارئ فهو مخلوق، وإن قُصِدَ به ما يَلْفِظُ به القارئ، فهو غير مخلوق.

و هذا هو تحرير مذهب أهل السنّة والجماعة في هذه المسألة.

---

(١) أحمد: هو أحمد ابن حنبل، وقد سبق الكلام عن ترجمته. [الشارح].

(٢) محمد: هو محمد بن إسماعيل البخاري، صاحب الصحيح، وُلِد في بخارى سنة (١٩٤هـ)، وتوفي في خرتنك مِن أعمال سمرقند سنة (٢٥٦هـ)، فيكون عمره ثنتين وستين سنة (٦٢). [الشارح].

واعلموا أيضًا أن العلماء مِن أهل السنّة والجماعة ما لجئوا لهذه التفاصيل إلَّا للضرورة، فلمَّا تكلَّم أهل البِدع في هذا الباب قالوا: لا بدَّ أن نتكلَّم، وإلَّا لكنا نقول: (**القرآن كلام الله**) فقط، وكفى، قال الله تعالى: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٦] لكنهم اضطروا إلى هذه التفاصيل لأجل مقاومة أهل البدع ومقارعتهم.

والإمام أحمد -رحِمه الله- رُوِيَ عنه أنه قال: مَن قال: لَفْظِي بالقرآن مخلوق فهو جَهْمِيّ، ومَنْ قال: غيرُ مخلوق فهو مبتدِع، لأنَّ كلمةَ (لفظ) مصدرٌ يَصِحّ أن يُعَبَّرَ بها عن اسمِ المفعول، وعن الفعل، فإذا قال: (لفظي بالقرآن مخلوق) يريد اسم المفعول ماذا يكون؟ الجواب: يكون جهميًّا.

وإذا قال: (لفظي) يريد حركات الإنسان والصوت المسموع مِن هذه الحركات، لو قال: (إنه مخلوق) فصحيح، لكن إذا قال: (غير مخلوق) يكون مبتدعًا.

نقول: إذا قال: (لفظي بالقرآن غير مخلوق) فهو مبتدع، لماذا؟ لأنه لا حاجة إلى قول ذلك، فمعروف أن الملفوظَ به غيرُ مخلوق، فلا يحتاج، فإذا قال: (لفظي مخلوق)، وأراد الملفوظ به فهو جهمي، وإن قال: (غير مخلوق) وأراد الملفوظ به أيضًا فيقال: هذا صحيح، ولكنه مبتدِع.

لما ذكر المؤلفُ قولَ الإمام أحمدَ وقولَ الإمامِ البخاريِّ -رحِمهما الله- قال: «**وَخُصُومُهُمْ مِنْ بَعْدُ طَائِفَتَانِ**»، ثُمَّ ذكر الطائفة الأُولى، وهي المعتزِلة والجَهْمِيَّة، فقال:

٥٧٠- إِحْدَاهُمَا زَعَمَتْ بِأَنَّ كَلَامَهُ ... خَلْقٌ لَهُ أَلْفَاظُهُ وَمَعَانِي

هذه هي الطائفة الأولى، وهم المعتزلة والجهمية، قالوا: إنَّ كلامَ الله مخلوقٌ ألفاظه ومعانيه، ولم يقم بذاته -سبحانه وتعالى-، فهو خلَق أصواتًا، وسمِعها

جبريلُ، فهي كأصوات الرعد والصواعق، سمعها وتلقَّاها، وحكاها إلى محمد صلى الله عليه وسلم.

فهم يقولون: إنَّ الله -سُبحانَه وتعالَى- لم يتكلَّم بكلام هو وصفُه، وليس له كلام هو وصفُه، ولكنه خلقَ كلامًا، ونَسَبَ هذا الكلام إليه، كما خلق ناقةً فنسبها إليه، وكما خلق بيتًا، ونسبه إليه، فنِسبة الكلام إلى الله ليست نِسبة صفة إلى الموصوف، ولكنها نِسبةُ خَلق إلى خالق.

فهؤلاء جعلوا القرآنَ ألفاظَه ومعانيَه مخلوقةً، وقالوا: القرآنُ كغيره مِن سائر المخلوقات، فهو مخلوقٌ لله عزَّ وجلَّ، وناظروا على ذلك، وحصَلت فيه مِحَنٌ كثيرة في زمن الإمام أحمد وبَعده وقَبْله.

٥٧١- وَالْآخَـرُونَ أَبَـوْا وَقَـالُوا: شَـطْرُهُ خَلْـقٌ، وَشَـطْرٌ قَـامَ بِـالرَّحْمنِ

الآخرون أبوا هذا القول، وهؤلاء هُم الأشاعرة، وقالوا: لا يمكن، فكلامُ الله صفةٌ مِن صفاته، ولكن جعلوا الألفاظَ مخلوقةً، والمعنى هو الصفة.

فصار كلامُ الله -على رأي هؤلاء- شطرين: شطرًا مخلوقًا، وشطرًا غيْرَ مخلوق، فالشطر المخلوق هو الألفاظ، يعني: الحروف والأصوات، والشطر غير المخلوق هو المعنى، وهو الذي قام بالرحمن، ولهذا يقولون: إن كلام الله هو المعنى القائم بنفسه. فشطروا الكلام، وقالوا: الألفاظ مخلوقة، خلقها الله عزَّ وجلَّ في الهواء، فسمعها جبريل، فنزل بها إلى الرسول ﷺ، أما المعاني فهي قائمةٌ بنَفْس الله، وليست مخلوقة.

هؤلاء في الحقيقة تناقضوا فجعلوا اللفظَ له جهة، والمعنى له جهة، والمعتزلة خيرٌ منهم في الاضطراد، لأنهم جعلوا الكلامَ مضطردًا، وقالوا: الكُلُّ مخلوقٌ،

ولا يُتَصَوَّر أن ينفصل لفظٌ عن معناه، ولا معنًى عن لفظه، كيف نقول: هذا المعنى غير مخلوق، واللفظ مخلوق، والمعنى كلام، واللفظ حدث؟! هذا لا يصحُّ، بل الكُلُّ مُحْدَثٌ، والكُلُّ مخلوقٌ، وانتهينا.

فمذهب المعتزلة في القرآن أنه مخلوق، وعلى هذا فتكون كُلُّ هذه الأربعة: (القارئ، والقراءة، والصوت، والمقروء) مخلوقةً عندهم، ويرون أنَّ كلامَ الله مِن جملة المخلوقات.

فأيها أقعد؟ الجواب: مذهب المعتزلة أقعد، لأنه مُطَّرِد، ولا يُعْقَل أنَّ كلامًا مِن متكلِّم واحدٍ يكون لفظُه له وجه، ومعناه له وجهٌ آخر.

وقد أَلَّف شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- كتابًا سماه (التسعينية)، رَدَّ عليهم مِن تسعين وجهًا.

وانظر إلى بَلِيَّة ما ذكروا:

٥٧٢- زَعَمُوا الْقُرَانَ عِبَارَةً وَحِكَايَةً قُلْنَا كَمَا زَعَمُوهُ قُرْآنَانِ

زعموا القرآن عبارة وحكاية عن كلام الله.

قَوْلُهُ: «**فَلَنَا كَمَا زَعَمُوهُ قُرْآنَانِ**» يعني: قرآن حكاية، وقرآن قول وصِفة، فأمَّا القرآن الذي هو الصفة فالمعنى، والقرآن الذي هو حكاية وعبارة فاللفظ.

إِذَنْ عندنا قرآنان: القرآن الذي هو المعنى القائم بنفس الرَّبِّ عزَّ وجلَّ، والقرآن الذي هو المسموع، ولهذا قال: (**فَلَنَا كَمَا زَعَمُوهُ قُرْآنَانِ**).

٥٧٣- هَـذَا الَّـذِي نَتْلُـوهُ مَخْلُـوقٌ كَـمَا قَـالَ الْوَلِيـدُ[١] وَبَعْـدَهُ الْفِئَتَـانِ

يقولون: الذي نتلوه مخلوق، والمعنى القائم بنفس الله -وهو الصفة- غير مخلوق.

فهذا هو مذهبهم، ولهذا قال بعض المحققين مِن الأشاعرة المتكلمين: نحن والمعتزلة على حدّ سواء، كُلُّنا متفقون على أن ما بين دَفَّتَي المصحف مخلوق.

هم متفقون على هذا، لكنَّ الأشعريةَ -وهم أصحاب هذا القول الذي يقول: المعنى هو الصفة واللفظ مخلوق- يقولون: هذا عبارةٌ عن كلام الله، وليس كلامَ الله، والمعتزلة يقولون: هذا -يعني الذي في المصحف- كلامُ الله.

سبحان الله! واتفق الجميع على أنه مخلوق، لكن أيهما أقْوَم؟ الجواب: المعتزلة، فهم يقولون: هذا كلامُ الله مخلوقٌ، والأشاعرة يقولون: هذا مخلوقٌ، وليس كلامَ الله.

والحقيقة أنه ليس كُلُّ أحدٍ يتفطن لهذا المعنى، فالأشاعرة يقولون: هذا ليس كلام الله وهو مخلوق، والمعتزلة يقولون: هذا كلام الله وهو مخلوق.

ونحن نقول: كلام الله غير مخلوق، فالأشاعرة قالوا: هذا عبارة عن كلام الله، وليس كلامَ الله، أو حكاية، والفَرق بين العبارة والحكاية أن العبارة يخلق الله أصواتًا تُعَبِّر، والحكاية حكاية القول، مثل ما يكون في الصَّدَى.

أنتم إذا تكلَّمتم مثلًا بين الجبال يكون صدًى يحكي الصوت، فهم يقولون:

---

(١) الوليد بن المغيرة: هو أبو خالد بن الوليد، ولد قبل الهجرة بخمس وتسعين سنة، ومات بعدها بثلاثة أشهر، كان من زعماء قريش، وممن حرم الخمر في الجاهلية، ولكنه عادى الإسلام حين ظهر الإسلام. [الشارح].

إن الله تعالى تكلَّم بكلامٍ لا يُسمَع، لكن أصابه الصَّدَى، حكايةً عن الكلام، لكن المعروف عند الأشاعرة أنهم يقولون: إنه عبارة، والكُلَّابِيَّة يقولون: إنه حكاية.

قَوْلُهُ: «كَمَا قَالَ الوَلِيدُ» هو الوليد بن المغيرة أبو خالد بن الوليد، فالوليد بن المغيرة قال: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ [المدثر:٢٤-٢٥] فقال الله تعالى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ [المدثر:٢٦].

فهم يقولون: هذا قول البشر، فهم يقولون: مخلوق مِثلما أنَّ كلامي أنا مخلوق وكلام الثاني مخلوق، فهذا مخلوق أيضًا كما قال الوليد.

قَوْلُهُ: «وَبَعْدَهُ الفِئَتَانِ» الفئتان هما الأشاعرة والمعتزلة، فكلاهما يقول: هذا الكلامُ الذي بين أيدينا -وهو القرآن- مخلوقٌ.

٥٧٤- وَالْآخَـرُ الْـمَعْنَى الْقَـدِيمُ فَقَـائِمٌ بِـالنَّفْسِ لَـمْ يُسْـمَعْ مِـنَ الـدَّيَّانِ

هذا المسموع الذي يُسمع ويُتْلَى مخلوقٌ، وليس كلامَ الله، بل هو عبارة عن كلام الله، هذا كلام الله عند الأشاعرة، المعنى القديم، ولهذا يقولون: كلام الله قديم.

انتبِهوا لهذه الكلمة فهي خطأ، وليست صوابًا، فلا يجوز أن نقول: (كلام الله قديم) بل كلامُ الله مُتَعَلِّقٌ بمشيئته، متى شاء تكلَّم.

قَوْلُهُ: «لَـمْ يُسْمَعْ مِنَ الدَّيَّانِ» يعني: ما سمعه لا جبريل، ولا موسى، ولا محمّد، لأنه هو المعنى القائم بالنفس.

وكلُّ أحدٍ يعرف أنَّ المعنى القائم بالنفس لا يُسَمَّى كلامًا أبدًا، أنت الآن لو أردتَ أن تخطُب خُطبةً، وفي نَفْسِك تُكَوِّن عناصرها، وتقول: أقول كذا، وأقول

كذا، وأقول كذا، وأقول كذا، هل يُقَال: إنك تكلَّمت؟ الجواب: لا، فليس هذا بكلام، ولا يُعْرَف في اللغة العربية أنَّ هذا كلام.

هم يقولون: إن هذا هو الكلام، ولهذا قالوا: إن كلامَ الله قديم، لأنَّ الله عزَّ وجلَّ يعلم عِلمًا قديمًا أنه سيتكلَّم بهذا الكلام إلى يوم القيامة.

* * *

٥٧٥- وَالْأَمْرُ عَيْنُ النَّهْيِ، وَاسْتِفْهَامُهُ ... هُوَ عَيْنُ إِخْبَارٍ وَذُو وِحْدَانِ

٥٧٦- وَهْوَ الزَّبُورُ وَعَيْنُ تَوْرَاةٍ وَإِنْـ ... ـجِيلٍ وَعَيْنُ الذِّكْرِ وَالْفُرْقَانِ

٥٧٧- الْكُلُّ شَيْءٌ[1] وَاحِدٌ فِي نَفْسِهِ ... لَا يَقْبَلُ التَّبْعِيضَ فِي الْأَذْهَانِ

٥٧٨- مَا إِنْ لَهُ كُلٌّ وَلَا بَعْضٌ وَلَا ... حَرْفٌ وَلَا عَرَبِي وَلَا عِبْرَانِي

الشرحُ

٥٧٥- وَالْأَمْرُ عَيْنُ النَّهْيِ، وَاسْتِفْهَامُهُ ... هُوَ عَيْنُ إِخْبَارٍ وَذُو وِحْدَانِ

قَوْلُهُ: «وَالأَمْرُ عَيْنُ النَّهْيِ» يعني: قوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء:٣]، هو عين قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ [الإسراء:٣٢]، وقوله: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ هو عين قوله: ﴿وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء:٣٦].

نقول: هل هذا الكلام معقول؟ هل الأمر هو عين النهي؟!

والله، لا أعتقد أنَّ عاقلًا يقول هذا المعنى، سبحان الله! عينُ الأمر هو عينُ

(١) في نسخة الحلبي: «معْنًى».

النهي؟! يقول: نعم، لأنَّ الكلام معنًى، لكن إنْ عَبَّرتَ عنه بالأمر صار أمرًا، وإن عبَّرت عنه بالنهي صار نهيًا.

سبحان الله! المتكلِّم نفسُه هل يُقَدِّر الأمرَ أمرًا، أو يقدِّره نهيًا؟ الجواب: يقدِّره أمرًا، ولا يقدِّره نهيًا، أمَّا هو فيقول: لا، المعنى واحد لا يتجزَّأ ولا يتبعَّض، وليس هناك أمرٌ، ولا نهيٌ، لكن الصورة التي تُخْلَقُ لتُعَبِّرَ عن هذا هي التي يُقال عنها: إنها أمرٌ أو نهيٌ.

والله ليس هذا بمعقولٍ إطلاقًا!

قَوْلُهُ: «**واسْتِفْهَامُهُ هُوَ عَيْنُ إِخْبَارٍ**» فالاستفهام مثل: (هل قام زيد؟) فهو بمعنى (قام زيد) فعندهم هذا هو هذا، فالاستفهام هو الخبر، وقوله تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ [فاطر:٣]، هو عين قوله: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد:١٦] فـ (**اسْتَفْهَمَ**) و(**أخبر**) بمعنًى واحدٍ، فيجعلون العالِـمَ كالجاهل، فالعالم الذي يصدر الأخبار كالجاهل الذي يسأل عن الأخبار.

ولهذا قال: «**واسْتِفْهَامُهُ عَيْنُ إِخْبَارٍ وَذُو وحْدَانِ**» يعني: الشيء الواحد لا يتجزَّأ.

وهذا لا أحد يَقْبَلُه لا فِطرةً، ولا عقلًا، ولا لغةً، ولا عُرْفًا.

ولو أنك سألت عامّة الأشعرية في الوقت الحاضر ما ظنوا أنَّ هذا مذهبهم في كلام الله عزَّ وجلَّ، لأنه مذهبٌ يرفضه الذِّهْنُ، ولا يمكن أن يتصوَّرَه، فكيف يُعْقَلُ أنَّ الأمرَ هو النهي، والخبرَ هو الاستفهام، والتوراةَ هي الإنجيل، والإنجيلَ هو القرآن؟! اللهم اهدِنا.

٥٧٦- وَهُوَ الزَّبُورُ وَعَيْنُ تَوْرَاةٍ وَإِنْـ ـجِيلٍ وَعَيْنُ الذِّكْرِ وَالْفُرْقَانِ

٥٧٧- الْكُلُّ شَيْءٌ وَاحِدٌ فِي نَفْسِهِ لَا يَقْبَلُ التَّبْعِيضَ فِي الْأَذْهَانِ

هذه أربعة كتب: الزَّبُور، والتوراة، والإنجيل، والقرآن، يقول: هذه شيء واحد، فالتوراة هي القرآن، والقرآن هو الإنجيل، والإنجيل هو الزَّبور، فكُلُّها شيءٌ واحد، لكن اختلفت في الصورة، فإنْ عُبِّر عنه بالعربية سمَّيناه قرآنا، وبالعِبرية توراةً، وبالسُّرْيَانِيَّة إنجيلًا، بالدَّاوُدِيَّة زَبورًا، وإلَّا فهي شيءٌ واحد.

نقول: سبحان الله! ففَرْقٌ بين القرآن والتوراة مِن آلاف الوجوه: في الشمول، وفي الصلاحية لكُلِّ زمان ومكان، فالتوراة نزلت لقومٍ مُعيَّنين لبني إسرائيل، وكل تشريعاتها تليقُ ببني إسرائيل، شُدِّد عليهم، ووُضعت عليهم الآصار والأغلال، وحُرِّمَ عليهم بعضُ الحلال في شريعتهم، لكن في القرآن بالعكس.

أمَّا الإنجيل ففيه تسامُحٌ كثير جدًّا، لكن في القرآن لا، فالقرآن جمع بين الحزم واليُسْر.

فالحاصل كيف نقول: إن التوراةَ والإنجيلَ والقرآنَ والزَّبُورَ كُلَّ هذه شيء واحد لكن تختلف بالأساليب؟!

ولذلك فإن تَصَوُّرَ هذا القولِ كافٍ في ردِّه -نسأل الله الهداية- فالذين يذهبون إلى هذا -سبحان الله!- ليسوا بالعلماء الذين ليسوا بشيء، بل علماء معتبَرون عندنا، نُجِلُّهم ونشهد لهم بالخير، لكن -سبحان الله!- الهِداية بيد الله عزَّ وجلَّ، وبهذا يُعرَف أن الإنسان مهما كان فهو ضعيف، وإلَّا فيوجد أُناسٌ أجِلَّاء اعتنقوا هذا القولَ، نشهد لهم بالخير، وبمحبة عِزِّ الإسلام وشأنه.

ولذلك إذا قال قائل: ما موقفنا مِن العلماء الذين لهم قَدَم صِدق في العِلم، وهُم قد خدموا الكتاب والسنّة، مع تَلَبُّسِهِم بهذه الضلالات في العقيدة؟

نقول: موقفنا منهم أننا نُعَظِّمهم، ونُكرمهم ونحبُّهم على ما قاموا به مِن نصر السُّنَّة، لكن لا نَحمدهم على ما فعلوه مِن مخالفة السلف، بل نعاملهم بالعدل، والعدل أن نُعطيَ كُلَّ ذي حَقٍّ حَقَّه، ومِن مذهب أهل السُّنَّة والجماعة أن الإنسان يكون فيه خَصلة خير، وخَصلة شرّ، خَصلة طاعة، وخَصلة معصية، خَصلة إيمان، وخَصلة كُفر، وقد يكون فيه جانبُ صوابٍ، وجانبُ خطأ، لكن الأصل أن يُعتبَر بأكثر أحواله، وأكثر أقواله، فإذا كان يُنسَبُ إلى أهل السُّنَّة، ويقول مثلًا: إمامِي في ذلك إمامُ أهل السُّنة الإمام أحمد بن حنبل، وما أشبه ذلك، ويخرج في بعض الأحيان عن مذهب أهلِ السُّنة، فهذا يُعتبَرُ مِن أهل السُّنة، ولكن يُقال: هو في هذه المسألة المعيَّنة مِن أهل البدعة.

وأمَّا مَن ينتسب إلى أهل البدعة، فهو بِدْعيٌّ حتى لو قال قولًا لأهل السُّنة، لأنَّ العِبرةَ بأصله وانتمائه، ويُقال: هو بِدعيٌّ، لكن له قولٌ يُوافِق أهل السُّنة في كذا.

إِذَنْ إذا علِمنا أن الرجلَ له مَقامُ صِدْقٍ في الشريعة، وأنه حسَن النية والقصد، وأنَّ بدعته ليست مُكَفِّرَة، فهذا يجب علينا أن نسأل الله له العفوَ والرحمةَ، ونتبرّأ مِن مقاله، ولا نتبرأ منه.

٥٧٨- مَـا إِنْ لَـهُ كُـلٌّ وَلَا بَعْـضٌ وَلَا ... حَـرْفٌ وَلَا عَـرَبِي وَلَا عِـبْرَانِي

قَوْلُهُ: «**مَا إِنْ لَهُ كُلٌّ وَلَا بَعْضٌ... إلخ**» لماذا قالوا ذلك؟

الجواب: لأنهم يرون أنَّ الكلامَ هو المعنى القائم بالنفس، وأنه ليس له كُلٌّ،

ولا بعضٌ، ولا حرفٌ، ولا صوتٌ، ولا يوجد وصفٌ بأنه عربِيٌّ، ولا عِبراني، فالكلام هو المعنى القائم بالنفس، وهو شيء واحد، لا يقبل التَّجَزُّؤَ، ولا يقبل أن هذا أمر، وهذا نهي، فالكلُّ شيءٌ واحد.

* * *

٥٧٩- وَدَلِيلُهُمْ فِي ذَاكَ بَيْتٌ قَالَهُ ... فِيمَا يُقَالُ الْأَخْطَلُ النَّصْرَانِي

٥٨٠- يَا قَوْمِ قَدْ غَلِطَ النَّصَارَى قَبْلُ فِي ... مَعْنَى الْكَلَامِ ومَا اهْتَدَوْا لِبَيَانِ

٥٨١- وَلِأَجْلِ ذَا جَعَلُوا الْـمَسِيحَ إِلَهَهُمْ ... إِذْ قِيلَ كِلْمَةُ خَالِقٍ رَحْمَنِ

٥٨٢- وَلِأَجْلِ ذَا جَعَلُوهُ نَاسُوتًا وَلَا ... هُوتًا قَدِيمًا بَعْدُ مُتَّحِدَانِ

٥٨٣- وَنَظِيرُ هَذَا مَنْ يَقُولُ: كَلَامُهُ ... مَعْنًى قَدِيمٌ غَيْرُ ذِي حِدْثَانِ

٥٨٤- والشَّطْرُ مَخْلُوقٌ وَتِلْكَ حُرُوفُهُ ... نَاسُوتُهُ لَكِنْ هُمَا غَيْرَانِ

٥٨٥- فَانْظُرْ إِلَى ذَا الِاتِّفَاقِ فَإِنَّهُ ... عَجَبٌ، وَطَالِعْ سُنَّةَ الرَّحْمَنِ

الشرحُ

٥٧٩- وَدَلِيلُهُمْ فِي ذَاكَ بَيْتٌ قَالَهُ ... فِيمَا يُقَالُ الْأَخْطَلُ[1] النَّصْرَانِي

وأعجب مِن هذا قولُهم: عندنا دليل على أن الكلامَ هو المعنى القائم بالنفس، والدليل هو هذا البيت الذي قاله الأَخْطَل النصرانيُّ، والأَخْطَل معروف

(١) الأخطل النصراني: هو غياث بن غوث، من بني تغلب، من شعراء بني أمية، نشأ على المسيحية في أطراف الحيرة بالعراق، ثم اتصل ببني أمية في دمشق، ولد سنة (١٩هـ) واختلف في سنة وفاته، وفي تاريخ ابن كثير أنه سنة (٩٢هـ) إذن عمر ثلاثًا وسبعين سنة. [الشارح].

أنه مِن الشعراء، وهذا البيت يقول[1]:

إِنَّ الكَـلَامَ لَفِـي الفُـؤَادِ وَإِنَّـمَا ‏ ‏ ‏ ‏ جُعِلَ اللِّسَانُ عَلَى الفُـؤَادِ دَلِـيلا

هذا هو البيت، فالكلام محَلّه الفؤاد.

لكن هل الأخطل أراد بذلك ما أراد هؤلاء؟ أم أراد أن الكلام المُنَظَّم الذي يحمل المعنى هو ما يفكر فيه الإنسان أولًا في قَلبه، ثم يُعَبّر عنه باللسان؟ هو أراد هذا لا شك، ولم يكن يعرف هذا المذهب الحادث المبتدَع.

والحقيقة أنه استدلالٌ بها لا دليلَ فيه مِن وجهين:

الوجه الأول: هل يُستدَلّ بقول إنسان على اللغة العربية بعد اختلافها؟ الجواب: لا.

الوجه الثاني: أنَّ هذا البيت لا يُراد به المعنى الذي يقولونه، بل معنى قوله: (إِنَّ الكلامَ لفي الفؤادِ) أن الإنسانَ الذي يتكلَّم بعقْلٍ يُقَدِّر الشيءَ في فؤاده أولًا، ثم بعد ذلك يُعَبِّرُ عنه.

فكُلُّ إنسانٍ عاقلٍ يريد أن يكونَ لقوله وزنٌ ومعنًى لا يمكن أن ينطقَ بكلمة حتى يُقَدِّرَها في قلبه ويَزِنَها، وينظر هل يَتكلَّم بها، أو لا يَتكلَّم؟ فإذا نَضِجَت عنده حينئذٍ يُعَبِّر، هذا هو معنى البيت الذي لا يَحتمل غيرَه.

ونظير استدلالهم بهذا البيت استدلالهم بأنَّ (استوى) بمعنى (استولى) في قول الرجل المجهول[2]:

---

(١) انظر: البيان والتبيين للجاحظ (١/ ١٨٧).

(٢) انظر: الأزمنة والأمكنة لأبي علي الأصفهاني (١/ ٣٦).

قَدِ اسْتَوَى بِشْرٌ عَلَى الْعِرَاقِ مِنْ غَيْرِ سَيْفٍ وَدَمٍ مُهْرَاقِ

وليس معنى: (اسْتَوَى بِشْرٌ عَلَى الْعِراقِ) أنه رَكِب فوقَه، لكن المعنى قد استولى عليه، إذن حَوِّل كُلَّ كلمات (اسْتَوَى) التي في القرآن إلى (استولى) لهذا البيت!

على كُلِّ حالٍ دليل الأشاعرة في أنَّ الكلام هو المعنى القائم بالنفس قول النصراني، وسبحان الله أنْ جَعَل اللهُ إمامَهم نصرانيًّا!

ثُمَّ قال ابن القيم -رحمه الله-:

٥٨٠- يَا قَوْمِ قَدْ غَلِطَ النَّصَارَى قَبْلُ فِي مَعْنَى الْكَلَامِ ومَا اهْتَدَوْا لِبَيَانِ

قَوْلُهُ: «**يَا قَوْمِ**» إمَّا أن يخاطبَ ابنُ القيم -رحمه الله- أهلَ السُّنَّة، أو يخاطبَ هؤلاء ليبيِّنَ لهم أنَّ استدلالَهم بما يقوله النصراني خطأٌ، لأنَّ النصارى غلِطوا في أمر أعظمَ مِن هذا.

قَوْلُهُ: «**قَدْ غَلِطَ النَّصَارَى**» يريد أنهم غلِطوا في معنى قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ [النساء:١٧١] فقالوا: إن عيسى هو كلمة الله، والكلمة وصفُ المتكلِّم، فالمسيحُ جزءٌ مِن المتكلِّم، أي: جزء مِن الله، لأنه كلمته.

لكننا نقول: إن عيسى ليس كلمة الله، لكنه كان بكلمة الله عزَّ وجلَّ، ودليل هذا قول الله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران:٥٩].

فهم غلِطوا في تفسير (**كلمة الله**) يعني: عيسى -عليه الصلاة والسلام-.

٥٨١- وَلِأَجْلِ ذَا جَعَلُوا الْـمَسِيحَ إِلَـهَهُمْ إِذْ قِيــلَ كِلْمَــةُ خَــالِقٍ رَحْمَــنِ

يعني: جعلوا المسيحَ إلـهًا لهم لما قيل: إنه كلمةُ الله، قالوا: لما كان كلمة الله فهو إذن وصفٌ مشتقٌّ منه، والوصفُ لازمٌ للموصوف، فهو إذن إلهٌ فَلْيُعْبَد.

٥٨٢- وَلِأَجْــلِ ذَا جَعَلُــوهُ نَاسُــوتًا وَلَا هُوتًــا قَــدِيمًا بَعْــدُ مُتَّحِــدَانِ

قَوْلُهُ: «**ناسوتًا**» الناسوت: عبارة عن الناس، فهو مِن الإنسان.

قَوْلُهُ: «**لاهوتًا**» اللاهوت: عبارة عن إله.

فقالوا: إن الناسوتَ -وهو حادِثٌ- حلَّ في اللاهوت، وهو قديم، وقالوا: إنَّ عيسى -عليه السلام- اتَّحد مع الله -تبارك وتعالى- وصارا واحدًا.

فهم قالوا: إن إلههم مُرَكَّبٌ مِن ناسوت ولاهوت، والناسوت حلَّ في اللاهوت كالكلام، فالمعنى قديم، واللفظ حادث مخلوق، وسُمِّي الكلامُ كلامَ الله، مع أنه مُرَكَّبٌ مِن شيئين: معنًى ولفظٌ، واللفظ مخلوق، والمعنى صفة، ولذا قال:

٥٨٣- وَنَظِـيرُ هَـذَا مَـنْ يَقُـولُ: كَلَامُـهُ مَعْنًــى قَــدِيمٌ غَــيْرُ ذِي حِــدْثَانِ

٥٨٤- والشَّـطْرُ مَخْلُـوقٌ وَتِلْـكَ حُرُوفُـهُ نَاسُــوتُهُ لَكِــنْ هُمَــا غَــيْرَانِ

ابن القيم -رحمه الله- قارَنَ بين قول النصارى في عيسى بن مريم: إنه كلمة، والكلمة صِفة، فهو إلهٌ بهذا المعنى، مخلوقٌ جسدًا، لكنه صِفة لله عزَّ وجلَّ، وبين قول الأشاعرة في الكلام حيث يقولون: اللفظ مخلوق، والحروف مخلوقة، والمعنى صفة، فابن القيم يقول: هذا نظير هذا.

وَقَوْلُهُ: «**وَنَظِيرُ هَذَا مَنْ يَقُولُ كَلَامُهُ مَعْنًى قَدِيمٌ... إلخ**» مَن هؤلاء؟ الجواب: الأشاعرة، فيقولون: المعنى صفة، والشطر مخلوق وهي الحروف.

والحروف ناسُوتُه، فالحروف عند الأشاعرة في الكلام كالناسوت عند النصارى في الإله (لَكِنْ هُمَا غَيْرَانِ)، لأنَّ اللفظَ غيرُ المعنى، وعيسى -عليه الصلاة والسلام- غيرُ الله، لكن اتَّحدا.

٥٨٥- فَانْظُرْ إِلَى ذَا الاتِّفَاقِ فَإِنَّهُ عَجَبٌ، وَطَالِعْ سُنَّةَ الرَّحْمَنِ

قَوْلُهُ: «فَانْظُرْ إِلَى ذَا الاتِّفَاقِ» صحيح أنَّ هذا اتفاق عجيب بين النصارى، وبين هؤلاء، وذلك في استدلالهم على الكلام بقول نصراني، ثُمّ إذا طَبَّقْتَ هذا وهذا وجدتَ أنهما متشابهان، إن لم يكونا مِثْلَيْن.

فقول النصارى في المسيح بأنَّ جسدَه مخلوق، ومعناه (حقيقته) غير مخلوق، لأنه كلمة الله، وهؤلاء يقولون: اللفظ مخلوق، والمعنى غير مخلوق.

فقضيةُ الكلام تُشْبِهُ مِن بعض الوجوه قضيةَ عيسى بن مريم -إن لم تكن تماثلها- في معتقد النصارى، يقول: جسدُ عيسى مخلوقٌ أُحادي، وليس هناك إشكال، لكن هو (كلمة الله) فالمعنى لهذا الجسد إله صفة مِن صفاته، فاتَّحدا بعد أن كانا مُفْتَرِقَيْن مُتَغَايِرَيْن، اتَّحدا وصارا شيئًا واحدًا، ولهذا الإله مُركَّب مِن ثلاثة.

وَقَوْلُهُ: «فَإِنَّهُ عَجَبٌ وَطَالِعْ سُنَّةَ الرَّحْمَنِ» الله أكبر! كُلُّ مَن ضَلَّ عن الحقِّ فيه شَبَهٌ مِن غير المُسْلم، وهذه قاعدة عامة، لأنَّ الرسولَ ﷺ قال: «إِنَّ الْيَهُودَ افْتَرَقُوا عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَالنَّصَارَى عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَهَذِهِ الْأُمَّةُ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً»[1]. إذن ما مِن شيء في هؤلاء إلَّا سيحدث في هذه الأُمَّة، يركبون سَنَن مَنْ كان قبلهم.

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب السنة، باب شرح السنة، رقم (٤٥٩٦)، والترمذي: كتاب الإيمان، باب افتراق الأمة، رقم (٢٦٤٠) وقال: حسن صحيح. وابن ماجه: كتاب الفتن، باب افتراق الأمم، رقم (٣٩٩١).

فكُلُّ مَنْ خالَفَ ما عليه الرسول وأصحابه سوف يأخذ بنصيبٍ مِن موافقة اليهود والنصارى، فالحسد والكذب والخِداع، كل هذا موجود في اليهود والنصارى.

وَقَوْلُهُ: «**وَطَالِعْ سُنَّةَ الرَّحْمنِ**» يعني: اطلِّع عليها، وسنة الرحمن يعني: طريقه الذي يَبْتَلِي به العِبَاد، كما قال -جلَّ وعلا-: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [الفتح:٢٣].

فعلى كُلِّ حالٍ ابنُ القيم -رحِمه الله- شدَّد في هذا الموضوع، لأنَّ كلامهم بما يَطْلُونَه مِن الزخارف قد يغترُّ به بعضُ الناس، وفي الحقيقة أنَّ الإنسان لا يعقل إطلاقًا هذا القول الذي ذهب إليه هؤلاء، مَن يعقل الفَرق بين اللفظ والمعنى؟! اللفظ في الحقيقة هو دلالة المعنى، وكيف يمكن لأيِّ عاقل أن يقول: إنَّ الأمرَ هو النهي، بل هو عينُ النهي، هل هذا معقول؟!

* * *

٥٨٦- وَتَكَايَسَتْ أُخْرَى وَقَالَتْ: إِنَّ ذَا	قَوْلٌ مُحَالٌ وَهْوَ خَمْسُ مَعَانِ
٥٨٧- تِلْكَ الَّتِي ذُكِرَتْ وَمَعْنًى جَامِعٌ	لِجَمِيعِهَا كَالْأُسِّ لِلْبُنْيَانِ
٥٨٨- فَتَكُونُ أَنْوَاعًا وَعِنْدَ نَظِيرِهِمْ	أَوْصَافُهُ، وَهُمَا فَمُتَّفِقَانِ
٥٨٩- إِنَّ الَّذِي جَاءَ الرَّسُولُ بِهِ لَمَخْـ	ـلُوقٌ وَلَمْ يُسْمَعْ مِنَ الدَّيَّانِ
٥٩٠- وَالْخُلْفُ بَيْنَهُمُ فَقِيلَ: مُحَمَّدٌ	أَنْشَاهُ تَعْبِيرًا عَنِ الْقُرْآنِ
٥٩١- وَالآخَرُونَ[1] أَبَوْا، وَقَالُوا: إِنَّمَا	جِبْرِيلُ أَنْشَاهُ عَنِ الْمَنَّانِ

(١) قل الحلبي في نسخته: «في هامش الأصل: أي: الأشاعرة والكُلاَّبية».

٥٩٢- وَتَكَايَسَـتْ أُخْـرَى وَقَالَـتْ: إِنَّـهُ نَقْـلٌ مِـنَ اللَّـوْحِ الرَّفِيـعِ الشَّـانِ

٥٩٣- فَـاللَّوْحُ مَبْـدَؤُهُ وَرَبُّ اللَّـوْحِ قَـدْ أَنْشَـاهُ خَلْقًـا فِيـهِ ذَا حِـدْثَانِ

٥٩٤- هَذِي مَقَالَاتٌ لَـهُمْ، فَـانْظُرْ تَـرَى فِي كُتْـبِهِمْ يَـا مَـنْ لَـهُ عَيْنَـانِ

٥٩٥- لَكِـنَّ أَهْـلَ الْـحَقِّ قَـالُوا: إِنَّـمَا جِبْرِيـلُ بَلَّغَـهُ عَـنِ الـرَّحْمَنِ

٥٩٦- أَلْقَـاهُ مَسْـمُوعًا لَـهُ مِـنْ رَبِّـهِ لِلصَّـادِقِ الْـمَصْدُوقِ بِالْبُرْهَـانِ

الشرحُ

٥٨٦- وَتَكَايَسَـتْ أُخْـرَى وَقَالَـتْ: إِنَّ ذَا قَـوْلٌ مُحَـالٌ وَهْـوَ خَمْـسُ مَعَـانِ

قَوْلُهُ: «وَتَكَايَسَتْ أُخْرَى» تكايَسَت يعني: ادَّعت الكَيْس، والكَيْس هو الفِطنة والجِدّ والعزم، كما في قوله ﷺ: «الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ، وَعَمِلَ لِـمَا بَعْدَ الْـمَوْتِ»[1]. فـ(تكايست) يعني: قالت: أنا التي أعرف، أنا التي عندي الحِذْق، عندي الذكاء.

قَوْلُهُ: «وَقَالَتْ: إِنَّ ذَا قَوْلٌ مُحَالٌ» الإشارة إلى قول الأشاعرة: إن الأمر والنهي والخبر والاستفهام شيءٌ واحد، وإنَّ القرآن والتوراة والإنجيل والزبور شيءٌ واحد.

قالوا: هذا الشيء مُحالٌ، كيف يكون (**افعل**) هو عين: (**لا تفعل**)؟! وكيف يكون (**هل أنت؟**) عين (**مثل أنت**)، هذا لا يمكن، هذا الأمر غير معقول ومُحَال،

---

(١) أخرجه الترمذي، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع، باب ما جاء في صفة آنية الحوض، رقم (٢٤٥٩).

ولكنَّ الكلامَ (خَمْسُ مَعَانِي)، ثم ذكَرَها بقوله:

٥٨٧- تِلْكَ الَّتِي ذُكِرَتْ وَمَعْنًى جَامِعٌ لِجَمِيعِهَا كَالْأُسِّ لِلْبُنْيَانِ

قَوْلُهُ: «تِلْكَ الَّتِي ذُكِرَتْ» المراد: الأمر، والنهي، والاستفهام، والخبر، فهذه أربعة.

قَوْلُهُ: « وَمَعْنًى جَامِعٌ لِجَمِيعِهَا كَالأُسِّ لِلْبُنْيَانِ» وهذا الخامس وهو المعنى الجامع لها، مثل الأصل، يعني: كأنَّ الكلامَ شجرةٌ له أصلٌ، وله فُروع، الأصل: المعنى الجامع، والفروع أربعة، وهي: أمرٌ، ونهيٌ، وخبرٌ، واستفهام.

وهذا التقسيم -في الحقيقة- تقسيمٌ ذهنيٌّ، لا يمتُّ إلى الحقيقة بِصِلَة، كلام يقوله حتى هؤلاء الذين تكايسوا بالحقيقة، فهم ما أتوا بطائل، لأنَّ هذا التقدير الذي قَدَّروه وَهْمٌ، فهو تقدير ذهني، لا حقيقة له في الخارج، إذ ما معنى أن يكونَ الكلامُ له أصلٌ، ويتفرع عن هذا الأصل أربعة: أمرٌ ونهيٌ وخبرٌ واستفهام؟! هذا لا معنى له، ولذلك ما أحسن ما يُقال: إن كلامَ أهل الكلام كلامٌ في كلام، ليس فيه فائدة.

ولهذا يقول:

٥٨٨- فَتكُونُ أَنْوَاعًا وَعِنْدَ نَظِيرِهِمْ أَوْصَافُهُ، وَهُمَا فَمُتَّفِقَانِ

قَوْلُهُ: «فَتكُونُ أَنْوَاعًا» يعني: تكون هذه الأربعة أنواعه، وعند نظيرهم أوصافه.

انظر الخلاف! هؤلاء يقولون: أمرٌ ونهيٌ وخبرٌ واستخبار، هذا وصف للكلام، وليس نوعًا، ومعلوم أن الصفات تتعدد على موصوفٍ واحد، لكن أنواع

لا تتنوع على شيء واحد، لأن قولك: هذا نوع وهذا نوعٌ، يعني: التباين.

فصار الأوَّلون الذين جعلوه شيئًا واحدًا، قالوا: إنَّ الأمر والنهي والخبر والاستخبار أوصافُ الكلام، أمَّا الذين قالوا: هذا خطأ، فقد جعلوا هذه الأربعة أنواعًا للكلام، فيكون كلُّ واحد منها قسيمًا للآخَر، وليس هو الآخَر.

قَوْلُهُ: «**وَهُمَا فَمُتَّفِقَانِ**» يعني: ومع ذلك فالطائفتان متفقتان، على ماذا؟

قال -رحمه الله-:

٥٨٩- إِنَّ الَّذِي جَاءَ الرَّسُولُ بِهِ لَمَخْـ ـلُوقٌ وَلَمْ يُسْمَعْ مِنَ الدَّيَّانِ

إِذَنْ كُلُّ الخلاف الآن شبيهٌ باللفظي، فانْصَبَّ في أن القرآنَ المكتوبَ في المصاحف المسموع بالآذان مخلوقٌ، كما قالت المعتزلة، ثم اختلفوا أيضًا إذا كان مخلوقًا، فمن أين مصدره؟ الجواب: على ثلاثة أقوال، ولذا قال:

٥٩٠- وَالْخُلْفُ بَيْنَهُمُ فَقِيلَ: مُحَمَّدٌ أَنْشَاهُ تَعْبِيرًا عَنِ الْقُرْآنِ

قَوْلُهُ: «**أَنْشَاهُ تَعْبِيرًا عَنِ الْقُرْآنِ**» يعني: محمدًا -عليه الصلاة والسلام-.

فهو الذي تكلَّم بالقرآن تعبيرًا عن كلام الله، أما هذا المسموع الذي سمعناه مِن رسول الله ﷺ فليس كلامَ الله.

٥٩١- وَالآخَرُونَ أَبَوْا، وَقَالُوا: إِنَّمَا جِبْرِيلُ أَنْشَاهُ عَنِ الْمَنَّانِ

أَلْـهَم اللهُ -سبحانه وتعالى- جبريلَ -عليه السلام- فتكلَّم بهذا القرآن.

إِذَنْ الأول يقول: أُلْـهِمَ إِيَّاه محمدٌ، وعبَّر عن كلام الله الذي في نفس الله، والثاني يقول: لا، جبريل، لأنَّ جبريل ينزل بكلام، فالذي أنشأه جبريلُ.

٥٩٢- وَتَكَايَسَتْ أُخْرَى وَقَالَتْ: إِنَّهُ   نَقْلٌ مِنَ اللَّوْحِ الرَّفِيعِ الشَّانِ

قَوْلُهُ: «تكايست» يعني: ادَّعت الكَيْسَ لنفسها.

قَوْلُهُ: «**وَقَالَتْ: إِنَّهُ نَقْلٌ مِنَ اللَّوْحِ الرَّفِيعِ الشَّانِ**» يعني: مِن اللوح المحفوظ، قالوا: لأنَّ الله قال: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج:٢١-٢٢]، إذن ليس مِن محمد، ولا مِن جبريل، بل مِن اللوح المحفوظ.

فجبريل أخذه مِن اللوح المحفوظ، وتكلَّم به على محمد، فإنه نُقِلَ مِن اللوح الرفيع الشَّان.

٥٩٣- فَاللَّوْحُ مَبْدَؤُهُ وَرَبُّ اللَّوْحِ قَدْ   أَنْشَاهُ خَلْقًا فِيهِ ذَا حِدْثَانِ

قالوا: إن الله خلق كلامًا في اللَّوح المحفوظ، فجاء جِبريلُ فأخذ الكلامَ مِن اللوح المحفوظ، ثُمَّ نزل به إلى محمد.

فإذن الخلاف بينهم: هل أنشأه محمد؟ هل أنشأه جبريل؟ هل أخذه جبريل مِن اللوح المحفوظ بدون إنشاء؟ يعني وجده مخلوقًا في اللوح المحفوظ، وأخذه مِن اللوح المحفوظ، ونزل به؟ ثلاثة أقوال.

٥٩٤- هَذِي مَقَالَاتٌ لَهُمْ، فَانْظُرْ تَرَى   فِي كُتْبِهِمْ يَا مَنْ لَهُ عَيْنَانِ

يقول: نحن ما كذَبْنَا عليهم، وهذا الكلام موجود في كُتبهم، وإذا شئت أن تنظر، فإنْ كان لك عينان فانظر، وإنْ كان لك عينٌ واحدة فانظر أيضًا، لكن تأكَّد.

٥٩٥- لَكِنَّ أَهْلَ الْحَقِّ قَالُوا: إِنَّمَا   جِبْرِيلُ بَلَّغَهُ عَنِ الرَّحْمَنِ

٥٩٦- أَلْقَاهُ مَسْمُوعًا لَهُ مِنْ رَبِّهِ لِلصَّادِقِ الْمَصْدُوقِ بِالْبُرْهَانِ

هذا هو الحق أن القرآنَ صَدَرَ مِن عند الله عزَّ وجلَّ، تكلَّم به رَبُّ العزة والجلال، وسمِعه جبريل، ونقله بأمانة إلى محمد ﷺ، ولهذا أضافه الله إلى الرسول البشريِّ، وإلى الرسول المَلَكِيِّ.

فأضافه إلى الرسول الملكي فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير:١٩-٢١] فهذه أوصاف عظيمة، وكُلُّها مِن أجْل حماية القرآن.

فقَوْلُهُ: ﴿رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ ﴿ذِى قُوَّةٍ﴾ يحفظ ولا أحد يقربه.

وَقَوْلُهُ: ﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ﴾ يعني: له مكانة، يُسمع مِن الرَّبِّ عزَّ وجلَّ مباشرة.

وَقَوْلُهُ: ﴿مَكِينٍ﴾ يعني: له مكانة هناك، وقوله: ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾، ولهذا يقول للملائكة: «إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ»(١).

ووصفه تعالى بأنه قوِيٌّ وأمين، وهذان الوصفان هما الرُّكنان اللذان يتمُّ بهما الشيء، قال تعالى: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص:٢٦].

وأضافه إلى الرسول البشريِّ في قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ﴾ [الحاقة:٤٠-٤٢].

وأضافه إلى نفسه كما قال: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٦].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب كلام الرب مع جبريل، ونداء الله الملائكة، رقم (٧٠٤٧)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب إذا أحب الله عبدًا حببه لعباده، رقم (٢٦٣٧).

ومِن المعلوم أنه لا يمكن أن يكون كلامَ الرسول، وكلامَ جبريل، وكلامَ الله، والكلام شيء واحد، لا يمكن أن يكون الكلامُ الواحدُ لثلاثة متكلِّمين، إذن إلى مَن يُنسب حقيقة؟

الجواب: إلى الأول، إلى الله، ويكون منسوبًا إلى جبريل، لأنه بلَّغه عن الله، وإلى محمد، لأنه بلَّغه عن جبريل إلى الأمة.

فهم يقولون: ألقاه مسموعًا له، ألقاه إلى مَن؟ الجواب: للصادق المصدوق بالبرهان، مسموعًا له مِن الله عزَّ وجلَّ، هذا مذهب أهل السنَّة والجماعة.

فهو ألقاه على أيِّ شيء؟ الجواب: لم يُلْقِهِ على أُذُن الرسول -عليه الصلاة والسلام-، وإنما ألقاه على قَلبه، يعني: بلغ قَلْبَه.

ثُمَّ مِن هذا الرسول؟ هو الرسول الكريم الأمين.

فلذلك لم يبقَ أيُّ شَكٍّ في أنَّ هذا القرآن الذي نقرؤه كلامُ رَبِّنا عزَّ وجلَّ، سمِعه جبريل، وألقاه على قلب النَّبِيِّ ﷺ، والنَّبِيُّ ﷺ ألقاه على أُمَّته، وتلقَّاه الصحابةُ -وهم أُمَنَاء على وَحْيِ الله، سواء كان قرآنًا أم سنة- فألقَوْهُ إلى مَن بعدهم صافيًا نقيًّا، ثم تفرَّقت الأُمَّة.

قَوْلُهُ: «**الصَّادِق**» أي: في مقاله.

قَوْلُهُ: «**المَصْدُوقِ**» أي: فيما أُوحِيَ إليه، فهو صادق ومصدوق.

* * *

فصــل

في مَجَامِعِ طُرُقِ أَهْلِ الأَرْضِ وَاخْتِلَافِهِمْ فِي القُرْآنِ

٥٩٧- وَإِذَا أَرَدْتَ مَجَامِعَ الطُّرُقِ الَّتِي ... فِيهَا افْتِرَاقُ النَّاسِ فِي الْقُرْآنِ

٥٩٨- فَمَدَارُهَا أَصْلَانِ قَامَ عَلَيْهِمَا ... هَذَا الْخِلَافُ، هُمَا لَهُ رُكْنَانِ

٥٩٩- هَلْ قَوْلُهُ بِمَشِيئَةٍ أَمْ لَا؟ وَهَلْ ... فِي ذَاتِهِ أَمْ خَارِجٌ هَذَانِ

٦٠٠- أَصْلَا اخْتِلَافِ جَمِيعِ أَهْلِ الأَرْضِ فِي الْـ ... ـقُرْآنِ فَاطْلُبْ مُقْتَضَى الْبُرْهَانِ

٦٠١- ثُمَّ الْأُلَى قَالُوا بِغَيْرِ مَشِيئَةٍ ... وَإِرَادَةٍ مِنْهُ فَطَائِفَتَانِ

٦٠٢- إِحْدَاهُمَا جَعَلَتْهُ مَعْنًى قَائِمًا ... بِالنَّفْسِ، أَوْ قَالُوا بِخَمْسِ مَعَانِ

٦٠٣- وَاللهُ أَحْدَثَ هَذِهِ الْأَلْفَاظَ كَيْ ... تُبْدِيهِ مَعْقُولًا إِلَى الْأَذْهَانِ

٦٠٤- وَكَذَاكَ قَالُوا: إِنَّهَا لَيْسَتْ هِيَ الْـ ... ـقُرْآنَ، بَلْ دَلَّتْ عَلَى الْقُرْآنِ

٦٠٥- وَلَرُبَّمَا سُمِّي بِهَا الْقُرْآنُ تَسْـ ... ـمِيَةَ الْمَجَازِ، وَذَاكَ وَضْعٌ ثَانِ

٦٠٦- وَكَذَلِكَ اخْتَلَفُوا فَقِيلَ: حِكَايَةٌ ... عَنْهُ، وَقِيلَ: عِبَارَةٌ لِبَيَانِ

٦٠٧- إِذْ كَانَ مَا يُحْكَى كَمَحْكِيٍّ وَهَـ ... ـذَا اللَّفْظُ وَالْمَعْنَى فَمُخْتَلِفَانِ

٦٠٨- وَلِذَا يُقَالُ: حَكَى الْحَدِيثَ بِعَيْنِهِ ... إِذْ كَانَ أَوَّلُهُ نَظِيرَ الثَّانِي

٦٠٩- فَلِذَاكَ قَالُوا: لَا نَقُولُ: حِكَايَةٌ ... وَنَقُولُ: ذَاكَ عِبَارَةُ الْفُرْقَانِ

٦١٠- وَالْآخَرُونَ يَرَوْنَ هَذَا الْبَحْثَ لَفْـ ـــظِيًّا وَمَــا فِيــهِ كَبِــيرُ مَعَــانِ

الشــرحُ

٥٩٧- وَإِذَا أَرَدْتَ مَجَــامِعَ الطُّــرُقِ الَّتِــي فِيهَــا افْــتِرَاقُ النَّــاسِ فِي الْقُــرْآنِ

٥٩٨- فَمَــدَارُهَا أَصْــلَانِ قَــامَ عَلَــيْهِمَا هَــذَا الْــخِلَافُ، هُمَــا لَــهُ رُكْنَــانِ

٥٩٩- هَــلْ قَوْلُــهُ بِمَشِــيئَةٍ أَمْ لَا؟ وَهَــلْ فِي ذَاتِــــهِ أَمْ خَــــارِجٌ هَــــذَانِ

٦٠٠- أَصْلَا اخْتِلَافِ جَمِيعِ أَهْلِ الأَرْضِ فِي الْـ ـقُرْآنِ فَاطْلُـبْ مُقْتَضَـى الْبُرْهَـانِ

ذكر في هذا الفصل مَجَامِعَ طُرُقِ أهل الأرض، واختلافهم في القرآن الكريم، يعني: على أيِّ شيء يدور؟ وذكر أن أصلَ اختلاف الناس في القرآن ينبني على هذين الأصلين: هل هو بمشيئة أو غير مشيئة؟ وهل هو في ذاته أم خارجٌ عن ذاته؟ هذان هما الأصلان اللذان انبنى عليهما الخلاف.

وعقيدة أهل السُّنَّة أنه بمشيئة، وأنه ليس خارجَ ذاته، لأننا إذا قلنا: خارج ذاته لزِم أن يكون مخلوقًا، بل هو في ذاته تَكَلَّم به نَفسه -سبحانه وتعالى-، وسمِعه جبريلُ، وألقاه على قلب النبيِّ -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-.

ثُمَّ فَرَّع المؤلفُ -رحمه الله- فقال:

٦٠١- ثُــمَّ الْأُلَى قَــالُوا بِغَــيْرِ مَشِــيئَةٍ وَإِرَادَةٍ مِنْــــــهُ فَطَائِفَتَــــــانِ

٦٠٢- إِحْــدَاهُمَا جَعَلَتْــهُ مَعْنًــى قَــائِمًا بِــالنَّفْسِ، أَوْ قَــالُوا بِخَمْـسِ مَعَـانِ

الفِرقة الأخرى قالت: إنه لفظ ومعنى... إلخ، وستأتي في كلام المؤلف.

أما هذا الفَصل فذَكَر فيه مذهبَ الأشاعرة والكُلَّابِيَّة فقط، فقال: إن الذين

قالوا بغير المشيئة طائفتان: إحداهما جعَلَتْه المعنى القائم بالنفس، وهؤلاء هم الأشاعرة، لكن اختلف الأشاعرة كما سبق، فقالوا: إنه معنًى واحد، وقال آخرون: إنه خَمس معانٍ.

والذين جعلوه معنًى واحدًا يقولون: الأمر والنهي والخبر والاستخبار شيءٌ واحد، والقرآن والتوراة والإنجيل والزَّبُور شيءٌ واحد، وإذا أمَر الله بالشيء كونًا فقال: (كن) فهو كالذي في القرآن بمعنى: ﴿أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الأنعام:٧٢]، وكُلُّها شيءٌ واحد.

٦٠٣- وَاللهُ أَحْـدَثَ هَـذِهِ الْأَلْفَـاظَ كَـيْ ... تُبْدِيـــهِ مَعْقُـــولًا إِلَى الْأَذْهَـــانِ

إِذَنْ فالألفاظ والأصوات المسموعة مخلوقة.

٦٠٤- وَكَذَاكَ قَالُوا: إِنَّهَا لَيْسَـتْ هِـيَ الْـ ... ـقُرْآنَ، بَـلْ دَلَّـتْ عَـلَى الْقُـرْآنِ

وقالوا: إنها ليست هي القرآن، وإنما هي مخلوقة لتَدُلَّ على القرآن.

إِذَنْ لماذا سُمِّي القرآنُ كلامَ الله؟ فقالوا: إنه مجاز، ولهذا قال:

٦٠٥- وَلَـرُبَّمَا سُـمِّي بِهَـا الْقُـرْآنُ تَسْـ ... ـمِيَةَ الْـمَجَازِ، وَذَاكَ وَضْـعٌ ثَـانِ

٦٠٦- وَكَـذَلِكَ اخْتَلَفُـوا فَقِيـلَ: حِكَايَـةٌ ... عَنْـهُ، وَقِيـلَ: عِبَـارَةٌ لِبَيَـانِ

ثُمَّ اختلفوا على قولين:

فالأول: مذهب الكُلَّابِيَّة، وهم أتباع عبد الله بن سعيد بن كُلَّاب[1]، يقولون: إنه حكاية، ولا نقول: إنه كلام الله حقًّا، ولا إنه عبارة عنه.

---

(١) هو أبو محمد عبد الله بن سعيد بن كلاب القطان، البصري، رأس المتكلمين بالبصرة في زمانه، صاحب التصانيف في الرد على المعتزلة، وربما وافقهم، أخذ عنه الكلام: داود الظاهري، وكان يلقب كُلَّابا لأنه كان يجر الخصم إلى نفسه ببيانه وبلاغته. انظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء (١١/ ١٧٤).

الثاني: مذهب الأشاعرة، قالوا: إنه عبارة عن كلام الله.

والفَرق بين الحكاية والعبارة أن الحكاية كما تسمعون إذا كنتم بين الجبال وتَكَلَّم الإنسانُ بصوت مرتفع، فإنه يسمع صدًى.

أما العبارة فتختلف، يعني أنَّ الله خلَق أصواتًا تُعَبِّر عمَّا في نفسه، فانظر إلى التكلُّف والتَّهَوُّك:

وإذا قلنا: إن الكلام هو صوت الرَّبِّ عزَّ وجلَّ متعلِّقًا بمشيئته، ماذا يكون؟ الجواب: لا يكون شيئًا، هذا هو الحقُّ الموافق للطبيعة والفطرة.

٦٠٧- إِذْ كَانَ مَا يُحْكَى كَمَحْكِيٍّ وَهَـ ـذَا اللَّفْظُ وَالْـمَعْنَى فَمُخْتَلِفَانِ

٦٠٨- وَلِذَا يُقَالُ: حَكَى الْـحَدِيثَ بِعَيْنِهِ إِذْ كَانَ أَوَّلُهُ نَظِيرَ الثَّانِي

٦٠٩- فَلِذَاكَ قَالُوا: لَا نَقُولُ: حِكَايَةٌ وَنَقُولُ: ذَاكَ عِبَارَةُ الْفُرْقَانِ

فالأشاعرة قالوا: هو عبارة عن كلام الله، لأنك إذا قلت: حكاية، فإنَّ الحكاية تقتضي أن يكون المَحْكِيُّ هو المُحْكَى، وهذا لا يمكن، لأنَّ الكلام معنًى، والمسموع لفظٌ غير معنى، فالكلام غير مخلوق، والمسموع مخلوق، فلا يمكن أن نقول: إنه حكاية، لعدم الاتفاق، فأنا مثلًا إذا حكيتُ كلامَك فإني أَنقُلُه بلفظه بدون زيادة، ولا نقصان، كما يقال: حكى الحديثَ بعَيْنِه إذ كان أَوَّلُه -وهو المَحْكِيّ- نظيرَ الثاني، وهو ما يُحْكَى، وعلى هذا فلا يصح أن نقول: إنه حكاية.

٦١٠- وَالْآخَرُونَ يَرَوْنَ هَذَا الْبَحْثَ لَفْـ ـظِيًّا وَمَا فِيهِ كَبِيرُ مَعَانِ

فجاء قوم آخرون، وهم أهل الإصلاح، وقالوا: كُلُّ هذا النزاع نِزاعٌ لفظيّ، إن قلت: حكاية، أو عبارة فالمعنى واحد، لا تجعلوا بَأْسَكم بينكم فتُسَلِّطوا عليكم

خصومَكم، اصطلحوا، انحلَّت المشكلة، الآن يجري الصلح بين الأشاعرة والكُلَّابية، لا تنازعوا، فكُلُّ هذا الخلافِ لفظيٌّ، وما تحته كبيرُ مَعانٍ، وإذا كان لفظيًّا صار البحث فيه مُتْعِبًا للأفكار، مُضَيِّعًا للأوقات، فلا حاجة.

اتفقتم الآن أنَّ هذا المسموعَ ليس كلامَ الله، واتفقتم أنَّ كلامَ الله هو المعنى القائم بنفْسه، وتصالحوا، ولا تقولوا: هذا عبارة، وهذا حكاية، فقولوا: المعنى واحد، فالحكاية والعبارة معناهما واحد، لأننا جميعًا متفقون على أن ما يُسْمَع ليس كلامَ الله، بل هو مخلوقٌ، وعلى أنَّ كلام الله هو المعنى القائم بنفسه، وحينئذ يُجْرَى الصلح بيننا، ولا نختلف.

هؤلاء في الحقيقة أقربُ للصواب، يقولون: قل: عبارة، أو حكاية، لأنَّ المعنى عندهم واحد، وهو أنَّ كلامَ الله هو المعنى القائم بنفْسه فقط، والغريب أنك إذا تحدَّثْتَ هذا الحديث عند قوم لم يسمعوا به مِن قبلُ سيقولون: كيف يُتَصَوَّر أنَّ الكلام هو الذي في النفس؟! أين الكلام؟! لكن سبحان الله، كما قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور:٤٠].

ولا تظنوا أنَّ هذا الخلافَ -أي: اختلاف الناس في كلام الله- شيءٌ هَيِّن، فالخلاف في كلام الله مهم جدًّا، لأنه يترتب عليه الأحكام الكونية، والأحكام الشرعية، فكُلُّ الأحكام الكونية والأحكام الشرعية إنما ثبتت بكلام الله، فالأحكام الشرعية بالوحي، والأحكام الكونية بالتقدير ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة:١١٧] فكُلُّها ثبتت بالكلام، فعلى كلام الله مَدار الأحكام الكونية ومَدار الأحكام الشرعية، فمعرفته ومعرفة اختلاف الناس فيه أمر مهم جدًّا.

* * *

فصل

فِي مَذْهَبِ الاقْتِرَانِيَّةِ

٦١١- وَالْفِرْقَةُ الأُخْرَى فَقَالَتْ: إِنَّهُ ... لَفْظٌ وَمَعْنًى لَيْسَ يَنْفَصِلَانِ

٦١٢- وَاللَّفْظُ كَالْمَعْنَى قَدِيمٌ قَائِمٌ ... بِالنَّفْسِ لَيْسَ بِقَابِلِ الْحِدْثَانِ

٦١٣- فَالسِّينُ عِنْدَ الْبَاءِ لَا مَسْبُوقَةٌ ... لَكِنْ هُمَا حَرْفَانِ مُقْتَرِنَانِ

٦١٤- وَالْقَائِلُونَ بِذَا يَقُولُوا: إِنَّمَا ... تَرْتِيبُهَا فِي السَّمْعِ بِالْآذَانِ

٦١٥- وَلَهَا اقْتِرَانٌ ثَابِتٌ لِذَوَاتِهَا ... فَاعْجَبْ لِذَا التَّخْلِيطِ وَالْهَذَيَانِ

٦١٦-لَكِنَّ زَاغُونِيَّهُمْ قَدْ قَالَ: إِنْ ... نَ ذَوَاتِهَا وَوُجُودَهَا غَيْرَانِ

٦١٧- فَتَرَتَّبَتْ بِوُجُودِهَا لَا ذَاتِهَا ... يَا لَلْعُقُولِ وَزَيْغَةِ الْأَذْهَانِ

٦١٨- لَيْسَ الْوُجُودُ سِوَى حَقِيقَتِهَا لِذِي الْ ... أَذْهَانِ بَلْ فِي هَذِهِ الْأَعْيَانِ

٦١٩- لَكِنْ إِذَا أَخَذَ الْحَقِيقَةَ خَارِجًا ... وَوُجُودَهَا ذِهْنًا فَمُخْتَلِفَانِ

٦٢٠- وَالْعَكْسُ أَيْضًا مِثْلُ ذَا فَإِذَا هُمَا اتْ ... تَحَدَا اعْتِبَارًا لَمْ يَكُنْ شَيْئَانِ

٦٢١- وَبِذَا تَزُولُ جَمِيعُ إِشْكَالَاتِهِمْ ... فِي ذَاتِهِ وَوُجُودِهِ الرَّحْمَنِ

الشرحُ

٦١١- وَالْفِرْقَةُ الأُخْرَى فَقَالَتْ: إِنَّهُ ... لَفْظٌ وَمَعْنًى لَيْسَ يَنْفَصِلَانِ

٦١٢- وَاللَّفْظُ كَالْمَعْنَى قَدِيمٌ قَائِمٌ   بِالنَّفْسِ لَيْسَ بِقَابِلِ الْحِدْثَانِ

٦١٣- فَالسِّينُ عِنْدَ الْبَاءِ لَا مَسْبُوقَةٌ   لَكِنْ هُمَا حَرْفَانِ مُقْتَرِنَانِ

هذه فِرْقَة الاقتِرَانِيَّة، قالوا أيضًا: إن الكلام لا يتعلَّق بمشيئته وإرادته، وإن اللفظ والمعنى قديمان، وإذا جعلوا اللفظ والمعنى قديمين لَزِمَ أن تكون الكلمات بعضُها لا يسبق بعضًا، لأنه لو سبق بعضُها بعضًا صار المتأخِّرُ حادثًا بعد الأول، وبطَلَ قولنا: إنه قديم.

لذلك قالوا: إن الكلمات مقترِنة، فالسينُ مِن قولك: (بسم الله الرحمن الرحيم) عند الباء، يعني: لم تَسبِقْها، فهي لاصِقة بها، لا تكون قَبلها، ولا بَعْدَها، لأنك لو قلت: إن السينَ بعد الباء لزِم أن يكونَ كلامُ الله حادثًا، فبَطَل قولُنا: إنه قديم.

قَوْلُهُ: «حَرْفَانِ مُقْتَرِنَانِ» أي: لا تستطيع حتى في الإمالة، فالذي يقول: ﴿مَجْرٜىٰهَا﴾ [هود:٤١] بين الألف والياء صعب، ولا هي بياءٍ ولا ألفٍ.

إِذَنْ نقول على هذا القول المضحك: كُلُّ الكلمات مِن أول ما تكلَّم اللهُ إلى ما لا نهاية له جاءت واحدةً، لا يتقدَّم بعضُها على بعض، فالله عزَّ وجلَّ في القرآن قاله بحروفه، قاله بحرف واحد، لم يتقدَّمْ بعضُها على بعض، فـ(**بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**) في أول سورة البقرة وقوله: ﴿وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٢٥٠] وما بينهما كلّه جاء دفعةً واحدةً، فليس بعضٌ متقدِّمًا على بعضٍ، حَذَرًا مِن أن نقول: إنه حادث، بل نقول: إنه قديم.

وهؤلاء في الحقيقة أبعدُ وأبعدُ عن المعقول مِن الذين قَبْلَهم، ولهذا قال المؤلف -رحمه الله-: (**فَاعْجَبْ لِذَا التَّخْلِيطِ وَالْهَذَيَانِ**)، فهذا والله عَجَبٌ،

وهؤلاء يُسَمَّوْنَ بالاقترانية الذين يَرَوْنَ أن حروف الكلمات والكلمات بعضها مقترِنٌ ببعض، لا يتقدَّم، ولا يتأخَّر.

إِذَنْ هؤلاء الاقترانية، الذين قالوا: إنه حكاية، والذين قالوا: إنه عبارة، والذين قالوا: إنه معنًى واحدٌ، أو خمسةُ مَعانٍ، كُلُّهم فرُّوا مِن شيء واحد، قالوا: لو قلنا: إن الكلامَ حادِثٌ لزِم قيامُ الحوادث بذات الله عزَّ وجلَّ، وما قامت به الحوادث فهو حادث.

انظر كيف يقول الشيطان لـهم؟! ما قامت به الـحوادث فهو حادث، وحدوث الله ممتنِع، فلزِم أن تقوم به الحوادث.

وهل هذه القاعدة صحيحة أو باطلة؟

الجواب: هذه باطلة، فلا يلزم إذا قلنا: إن القرآنَ كلامُ الله باللفظ والمعنى، أن يكون حادثًا باعتبار أصله وجِنسه، لأن أصلَ الكلام وجنسَه أَزليٌّ قديم، لأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لم يزَل، ولا يَزَال متكلِّمًا، ثُمَّ على فرض أننا قُلنا بالحدوث، فإنه لا يلزم مِن قيام الحادث بالموصوف به أن يكون الموصوف به حادثًا، فضرورةٌ أنَّ الموصوف بالكلام، أو بالفِعل متقدِّم على الوصف، ولهذا الآن أنا أتكلَّمُ، هل كلامي الذي حدَث الآن يَلزَم أن يكون موجودًا معي حين الولادة؟

الجواب: لا يلزم، فإذا كان لا يَلْزَمُ تَبَيَّنَ أن الحوادثَ قد تَقُوم بشيء سابق لها، هذا السابق أزليٌّ، فإذا قامت الحوادثُ بالله -بمعنى أنه حدَث منه فِعل أو قَول- لم يَلْزَمْ مِن ذلك أن تكون ذاتُ الله حادثةً.

٦١٤- وَالْقَـائِلُونَ بِـذَا يَقُولُـوا: إِنَّـمَا تَرْتِيبُهَـا فِي السَّـمْعِ بِـالْآذَانِ

قَوْلُهُ: «وَالْقَائِلُونَ بِذَا يَقُولُوا» هل في كلام المؤلف -رحمه الله- لَحْنٌ، حيث قال: (يَقُولُوا) لأنه ليس فيها ناصب ولا جازم، ونون الأفعال الخمسة لا تُحْذَفُ إلَّا مع الناصب، أو الجازم، أو مع نُون الوِقاية، أو ما أشبه ذلك، يعني: لا بدّ مِن سبب؟

فأجابوا عنه بأن المؤلف -رحمه الله- حَذَفها لسبب، وهو ضرورةُ الشِّعر، لأن الشِّعر يُضطر الشاعر إلى أن يُغَيِّر، فقد يرفعُ المنصوبَ، وقد ينصبُ المرفوعَ، وقد يَصرف ما لا ينصرف، وقد يَحذف ما لا يُحْذَفُ، ولهذا قال الحريري في مُلحة الإعراب[1]:

وَجَائِزٌ فِي صَنْعَةِ الشِّعْرِ الصَّـلِفْ أَنْ يَصْرِفَ الشَّاعِرُ مَا لَا يَنْصَرِفْ

الشاهد قوله: (وَجَائِزٌ فِي صَنْعَةِ الشِّعْرِ الصَّلِفْ) فالشعر صَلِفٌ، يجعلك تَصرِف ما لا يَنصرِف.

قَوْلُهُ: «إِنَّمَا تَرْتِيبُهَا بِالسَّمْعِ بِالآذَانِ» يعني: نحن نسمعها مرتَّبةً، ولكن حقيقتها أنها غير مرتبة، لكن سمعك هو الذي يسمعها مرتبة، كيف هذا؟! هذا رأيهم.

٦١٥- وَلَـهَا اقْـتِرَانٌ ثَابِـتٌ لِـذَوَاتِهَا فَاعْجَبْ لِـذَا التَّخْلِيطِ وَالْـهَذَيَانِ

قَوْلُهُ: «وَلَـهَا اقْتِرَانٌ ثَابِتٌ لِذَوَاتِهَا» هي باعتبار الذات والحقيقة مقترِنة، لكن الترتيب باعتبار السمع.

---

(١) انظر: ملحة الإعراب (ص:٧٢).

٦١٦- لَكِنَّ زَاغُونِيَّهُمْ[1] قَدْ قَالَ: إِنْ نَ ذَوَاتِهَا وَوُجُودَهَا غَيْرَانِ

قَوْلُهُ: «لَكِنَّ زَاغُونِيَّهُم قَدْ قَالَ» الزاغوني: أحد علماء الكلام، اسمه ابن الزاغوني، لكنه ليس عليًّا ابن الزاغوني الفقيه المعروف بالأصول، الذي مِن أصحاب الإمام أحمد، ينقُلون عنه في الفقه فيقولون: قال ابن الزاغوني كذا، فهذا غيره.

قَوْلُهُ: «قَدْ قَالَ: إِنَّ ذَوَاتِهَا وَوُجُودَهَا غَيْرَانِ» هذا أيضًا غريب، يقول: إنَّ ذواتها ووجودها متغاير.

٦١٧- فَتَرَتَّبَتْ بِوُجُودِهَا لَا ذَاتِهَا يَا لَلْعُقُولِ وَزَيْغَةِ الْأَذْهَانِ

قَوْلُهُ: «فَتَرَتَّبَتْ بِوُجُودِهَا لَا ذَاتِهَا» الأوَّلُون يقولون: ترتَّبت بالسمع، أما وجودها وذاتها فلم تترتب، لكن هذا جعل لها ذاتًا ووجودًا وسمعًا، لم يتكلَّم عن السمع، بل تكلَّم عن الذات والوجود.

وَقَوْلُهُ: «فَتَرَتَّبَتْ بِوُجُودِهَا لَا ذَاتِهَا» ويجوز: ذاتُها، فيجوز الوجهان.

قَوْلُهُ: «يَا لَلْعُقُولِ وَزَيْغَةِ الأَذْهَانِ» يَرْثِي لهم -رحمه الله- بأنَّ عقولهم هواء، وأذهانهم زائغة.

٦١٨- لَيْسَ الْوُجُودُ سِوَى حَقِيقَتِهَا لِذِي الْأَ ذْهَانِ بَلْ فِي هَذِهِ الْأَعْيَانِ

وجود هذه الحروف هو حقيقة في الواقع، فكيف تفرِّق يابن الزاغوني بين الوجود والحقيقة، والواقع أنَّ حقيقتها وجود؟! ولا يقال: هذه تاء إلَّا إذا وُجِدَتْ، كيف نقول: لها حقيقة وهي لم توجد؟ فوجودُها وحقيقتُها سواء.

(١) الزاغوني: لم أعرفه، وأستبعد أن يكون هو علي بن عبيد الله، أحد أعيان الحنابلة، المولود سنة (٤٥٥هـ)، المتوفى سنة (٥٢٧هـ). [الشارح].

ولهذا قال المؤلف: «**لَيْسَ الْوُجُودُ سِوَى حَقِيقَتِهَا لِذِي الأَذْهَانِ بَلْ فِي هَذِهِ الأَعْيَانِ**» يعني أنَّ وجود الحرف هو حقيقته، سواء قَدَّرتَه في الذهن، أم رأيته في الخارج.

يقول المؤلف -رحمه الله-:

٦١٩- لَكِنْ إِذَا أَخَذَ الْـحَقِيقَةَ خَارِجًا وَوُجُودَهَا ذِهْنًا فَمُخْتَلِفَانِ

٦٢٠- وَالْعَكْسُ أَيْضًا مِثْلُ ذَا فَإِذَا هُمَا اتْـ ـتَحَدَا اعْتِبَارًا لَمْ يَكُنْ شَيْئَانِ

يقول المؤلف -رحمه الله-: يمكن أن نُفَرِّق بين الحقيقة والوجود بأن نقول: إن الحقيقة قد تكون في الذهن والخارج في العين، بمعنى أن الإنسان قد يُقَدِّر في ذهنه حرفًا، فإذا بَرَز ونَطَق به، أو كتَبه، صار الآن موجودًا.

يقول: يمكن أن نُفَرِّق بين الحقيقة والوجود باعتبار الذهن والخارج، أَمَّا باعتبار الحقيقة، فلا يمكن أن نُفَرِّق، بل نقول: وجود الشيء هو عينُ ذاتِه، لكن باعتبار الذهن والوجود عَيْنًا.

فالمؤلف -رحِمه الله- منصِف، لما أنكر على ابن الزاغوني جَعْلَ الوجود غير الحقيقة، قال: ممكن أن نجعل الوجود غير الحقيقة باعتبار الذهن والخارج، لكن ما معنى الذهن والخارج؟

الذهن يعني: الذي عندك، وأما الخارج فهو ما وُجِدَ عينًا، يعني: عينَ الشيء، لأنَّ الشيءَ له وجودٌ في الذهن، ووجودٌ في الخارج، وُجودُه في الذهن هو تصوُّر الإنسان له، ووجوده في الخارج أن يكون مقروءًا إِنْ كان قولًا، أو مكتوبًا إِنْ كان كتابةً، أو مخلوقًا إِنْ كان مخلوقًا، المهم أنه يَبْرُز.

فهنا يقول: «**لَكِنْ إِذَا أَخَذَ الْـحَقِيقَةَ خَارِجًا وَوُجُودَهَا ذِهْنًا فَمُخْتَلِفَانِ**» صار الوجود غير الحقيقة إذا جعَلت المراد بالوجود وُجودَها في الذهن، والحقيقة وُجودها في الخارج.

قَوْلُهُ: «**وَالْعَكْسُ أَيْضًا مِثْلُ ذَا**» يعني: وجودها خارجًا، وحقيقتها ذهنًا، أيضًا ربما نقول: مختلفان.

قَوْلُهُ: «**فَإِذَا هُمَا اتَّحَدَا اعْتِبَارًا لَـمْ يَكُنْ شَيْئَانِ**» وهذا هو الذي أراد ابن الزاغوني، وأنكر عليه ابن القيم باعتبار الحقيقة والوجود، لا الذِّهن والخارج، هل يمكن أن نقول: هما شيئان؟ الجواب: لا.

٦٢١- وَبِـذَا تَـزُولُ جَمِيـعُ إِشْـكَالَاتِهِمْ ... فِي ذَاتِـهِ وَوُجُـودِهِ الـرَّحْمَنِ

يعني أنَّ الفلاسفة اختلفوا واضطربوا: هل وجودُ الله عينُ حقيقته، أو خلافُ حقيقته (الموجود شيء، والحقيقة شيء آخر)؟ فهُم اضطربوا في هذا وألَّفوا المجلدات والكتب، والذي يُراجِعُ كتب شيخ الإسلام ينظر كيف الخلاف في هذا؟

نقول: أما إذا أردت الأمر الواقع فالوجود هو الحقيقة، أما إذا أردت الذهن والخارج، فهما شيئان، وكذلك لو نَضرِب مثلًا في الإنسان: وُجوده هل هو حقيقته، أو لا؟

الجواب: نقول: في هذا تفصيل، إنْ أردتَ اعتبار الحقيقة، فهما شيء واحدٌ، لا يختلفان، فوجودك هو أنت، وإن أردتَ في الذهن بمعنى أن تُقَدِّر أن شيئًا يُوجد، ثم وُجد، فهما شيئان.

انتهى الكلام على القائلين بأنَّ الكلام لا يتعلَّقُ بالمشيئة، فصاروا ثلاث طوائف: الأشاعرة والكُلَّابِيَّة والاقترانية.

والفَرق بينهم أن الأشاعرة يقولون: إن الكلامَ المسموع عبارةٌ عن كلام الله، والكُلَّابيَّة يقولون: حكاية.

إِذَنْ ما هو الكلام؟

اتفقوا على أن الكلام هو المعنى الأَزَلِيّ القديمُ القائِمُ بنفس الله عزَّ وجلَّ، وما يُسْمَعُ فهو إما عبارة، وإما حكاية، ثم اختلفوا أيضًا هل هو شيء واحد، أو أشياء مختلِفة؟ وهل هذه أنواعٌ، أو أوصافٌ كما سبق؟

الاقترانية قالوا: كلام الله هو اللفظ والمعنى، لكن اللفظ والمعنى كلاهما قديم، ولما أَسَّسُوا هذه القاعدة اضطروا إلى أن يقولوا بالاقتران، لأنهم لو قالوا بالترتيب لَلَزِمَ الحدوث، إذن يقع الحرف الثاني بعد الأول، والكلمة الثانية بعد الأولى، فقالوا: نَسْلَمُ مِن هذا كلِّه، ونقول بقول المجانين، نقول: مقترنان، فالباء والسين شيء واحد، فهما مقترنان، ولا يمكن أن تكون السين بعد الباء.

فتقول لهم: لكن الآن في (بسم الله الرحمن الرحيم) وهي مكتوبة، الباء فيها قبل السين؟! فيقولون: هذا باعتبار الكتابة، فنقول: نسمع القارئ يقرأ، والرسول سمع جبريل، فقالوا: هذا باعتبار السمع.

أما ابن الزاغوني الذي تحذلق فقال: هذا باعتبار الحقيقة والوجود، فالوجود مترتِّب والحقيقة مقترِنة.

وهل هناك فرق بين الحقيقة والوجود؟

الجواب: لا فرق في الحقيقة إلَّا إذا اعتبرنا الوجود الذهني، والحقيقة خارجًا، أو بالعكس، فهذا يمكن أن يكون فيه اختلاف.

* * *

فصل

فِي مَذْهَبِ الْقَائِلِينَ بِأَنَّهُ مُتَعَلِّقٌ بِالْمَشِيئَةِ وَالإِرَادَةِ

٦٢٢- وَالْقَائِلُونَ بِأَنَّهُ بِمَشِيئَةٍ ... وَإِرَادَةٍ أَيْضًا، فَهُمْ صِنْفَانِ

٦٢٣- إِحْدَاهُمَا جَعَلَتْهُ خَارِجَ ذَاتِهِ ... كَمَشِيئَةٍ لِلْخَلْقِ وَالْأَكْوَانِ

٦٢٤- قَالُوا: وَصَارَ كَلَامُهُ بِإِضَافَةِ التْـ ... ـتَشْرِيفِ مِثْلَ الْبَيْتِ ذِي الْأَرْكَانِ

٦٢٥- مَا قَالَ عِنْدَهُمُ وَلَا هُوَ قَائِلٌ ... وَالْقَوْلُ لَمْ يُسْمَعْ مِنَ الدَّيَّانِ

٦٢٦- فَالْقَوْلُ مَفْعُولٌ لَدَيْهِمْ قَائِمٌ ... بِالْغَيْرِ كَالْأَعْرَاضِ وَالْأَكْوَانِ(١)

٦٢٧- هَذِي مَقَالَةُ كُلِّ جَهْمِيٍّ وَهُمْ ... فِيهَا الشُّيُوخُ مُعَلِّمُو الصِّبْيَانِ

٦٢٨- لَكِنَّ أَهْلَ الْإِعْتِزَالِ قَدِيمَهُمْ ... لَمْ يَذْهَبُوا ذَا الْمَذْهَبَ الشَّيْطَانِي

٦٢٩- وَهُمُ الْأُلَى اعْتَزَلُوا عَنِ الْحَسَنِ الرِّضَى الْـ ... ـبَصْرِيِّ ذَاكَ الْعَالِمِ الرَّبَّانِي

٦٣٠- وَكَذَاكَ أَتْبَاعٌ عَلَى مِنْهَاجِهِمْ ... مِنْ قَبْلِ جَهْمٍ صَاحِبِ الْحِدْثَانِ

٦٣١- لَكِنَّمَا مُتَأَخِّرُوهُمْ بَعْدَ ذَ ... لِكَ وَافَقُوا جَهْمًا عَلَى الْكُفْرَانِ

٦٣٢- فَهُمُ بِذَا جَهْمِيَّةٌ أَهْلُ اعْتِزَا ... لٍ، ثَوْبُهُمْ أَضْحَى لَهُ عَلَمَانِ

٦٣٣- وَلَقَدْ تَقَلَّدَ كُفْرَهُمْ خَمْسُونَ فِي ... عَشْرٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ فِي الْبُلْدَانِ

---

(١) في نسخة الحلبي: «والألوان».

٦٣٤- وَاللَّالَكَائِيُّ الْإِمَامُ حَكَاهُ عَنْـ ـهُمْ بَلْ حَكَاهُ قَبْلَهُ الطَّبَرَانِي

الشرحُ

٦٢٢- وَالْقَائِلُونَ بِأَنَّهُ بِمَشِيئَةٍ وَإِرَادَةٍ أَيْضًا، فَهُمْ صِنْفَانِ

٦٢٣- إِحْدَاهُمَا جَعَلَتْهُ خَارِجَ ذَاتِهِ كَمَشِيئَةٍ لِلْخَلْقِ وَالْأَكْوَانِ

٦٢٤- قَالُوا: وَصَارَ كَلَامُهُ بِإِضَافَةِ التْـ ـتَشْرِيفِ مِثْلَ الْبَيْتِ ذِي الْأَرْكَانِ

٦٢٥- مَا قَالَ عِنْدَهُمْ وَلَا هُوَ قَائِلٌ وَالْقَوْلُ لَمْ يُسْمَعْ مِنَ الدَّيَّانِ

هؤلاء القائلون بأنَّ القرآن يتعلَّق بمشيئة الله صنفان: صنف جعلته مخلوقًا بائنًا عن الله عزَّ وجلَّ كسائر المخلوقات، وقالوا: إنَّ مشيئته لكلامه كمشيئته لخَلق السموات والأرض والجبال، وغير ذلك، قالوا: والإضافة في الكلام إضافة تشريف، كإضافة البيت إلى الله في قوله: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ﴾ [الحج:٢٦] وإضافة الناقة إلى الله في قوله: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا﴾ [الشمس:١٣].

فعن هؤلاء يقول المؤلف: (**مَا قَالَ عِنْدَهُمْ وَلَا هُوَ قَائِلٌ**) إذن لا أَمْرَ، ولا نَهْيَ، لأنَّ الأمر والنهي مِن صفات القول، وليس مِن صفات الفِعل، ولهذا إذا قالوا بهذا بطلت الشريعة كُلُّها، لأنه ليس بها أَمْرٌ، ولا نهي، إذ إنَّ الأمر معلوم مِن أوصاف القول، وكذلك النهي، والقول بمعنى مقول، فهو عندهم مفعول (مخلوق).

وحقيقة الأمر أنَّ هؤلاء نَفَوْا قول الله، لأنهم إذا جعلوه شيئًا بائنًا منفصِلًا عنه متعلِّقًا بمشيئته صار لا يُنسَب إلى الله على اعتبار أنه صِفة، فإذا كان لا يُنْسَبُ إليه على اعتبار أنه صِفة صار الله تعالى لم يقُل، ولا يقُول.

إِذَنْ فهو عندهم مُعَطَّل عن الكلام، لأنَّ الكلامَ شيءٌ منفصِلٌ بائِنٌ عن الله، وليس مِن وَصْف الله.

قَوْلُهُ: «**وَالْقَوْلُ لَمْ يُسْمَعْ مِنَ الدَّيَّانِ**» إنما سُمِعَ مِن مخلوقات، فَسُمِعَ مِن جبريل، إذ خَلَقَ اللهُ فيه الصوت، أو مِن الشجرة حين نادى منها موسى، أو ما أشبهَ ذلك.

٦٢٦- فَالْقَوْلُ مَفْعُولٌ لَدَيْهِمْ قَائِمٌ بِالْغَيْرِ كَالْأَعْرَاضِ وَالْأَكْوَانِ

قَوْلُهُ: «**فَالْقَوْلُ مَفْعُولٌ لَدَيْهِمْ قَائِمٌ**» القول مفعول لديهم.

وَقَوْلُهُ: «**مَفْعُولٌ لَدَيْهِمْ**» يعني: القول بمعنى مَقول أي: مخلوق.

قَوْلُهُ: «**قَائِمٌ بِالْغَيْرِ كَالأَعْرَاضِ وَالأَكْوَانِ**» يعني: ليس قائمًا بالله، بل هو قائم بغَيْرِه.

لكن مِن أين سَمِعَ موسى الصوت؟ قالوا: سمِعه مِن الشجرة.

ومِن أين سمع محمدٌ الصوت؟ الجواب: مِن جبريل، خلق الله صوتًا في جبريل.

ومِن أين سمع جبريل الصوت؟ الجواب: مِن الهواء، خلق الله تعالى أصواتًا في الهواء، فسمِعها جبريل، أما قولٌ يُنْسَبُ إلى الله فلا، نسأل الله العافية.

٦٢٧- هَذِي مَقَالَةُ كُلِّ جَهْمِيٍّ وَهُمْ فِيهَا الشُّيُوخُ مُعَلِّمُو الصِّبْيَانِ

ذكر المؤلف -رحمه الله- أنَّ هذا القولَ قولُ كُلِّ جهمي، فكُلُّ جهمي فهو يقول بهذا القول.

والجهمية أتباع الجَهْمِ بنِ صَفْوَانَ، تلميذ الجَعْدِ بْنِ دِرْهَمٍ، وأصلُ مقاله في

التعطيل مِن الجَعد بن دِرْهم، فإنَّ الجعد خرج بمقالته البدعية، وقال: (إنَّ الله لم يُكَلِّم موسى تكليمًا، ولا اتخذ إبراهيمَ خليلًا)، وهذا ليس بصحيح، فالله -سبحانه وتعالى- لا يُحِبُّ ولا يتكلَّم! إنما خَلَق كلامًا سمِعه موسى! والخُلَّة التي أثبتها الله لإبراهيم هي خُلَّة الفقْر، ففي قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ يعني: اتخذه فقيرًا إليه!

ولما أظهر هذه المقالة، لم يجعل له وُلاة الأمر فُسْحَة يَنشُرها، فحبسُوه، ثُمَّ قَتَلُوه، فخرج به خالد بن عبد الله القَسْرِيّ في يوم العيد، وخطب الناس، وأَعْلَمهم بالأُضْحِيَّة وأحكامها، وقال في آخر خطبته: «ضحوا تَقَبَّلَ اللهُ ضحاياكم، فإني مُضَحٍّ بالجَعْدِ بنِ دِرْهَمٍ، فإنه زعم أنَّ الله لم يتخذ إبراهيمَ خليلًا، ولم يُكَلِّم موسى تكليمًا»[1]، ثم نزل فذبحه.

وهذا شأنُ وُلاة الأمور مِن الأمراء والسلاطين -فيما سبق- يخرجون بالضحايا في الخارج كما كان الرسول ﷺ يفعل[2]، وتُذْبَح في مُصلَّى العيد، وقد مضى قول ابن القيم في هذا:

وَلِأَجْلِ ذَا ضَحَّى بِجَعْدٍ خَالِدُ الْـ ... ـقَسْرِيُّ يَوْمَ ذَبَائِحِ القُرْبَانِ

إِذْ قَالَ: إِبْرَاهِيمُ لَيْسَ خَلِيلَهُ ... كَلَّا وَلَا مُوسَى الكَلِيمَ الدَّانِي

شَكَرَ الضَّحِيَّةَ كُلُّ صَاحِبِ سُنَّةٍ ... لله دَرُّكَ مِنْ أَخِي قُرْبَانِ

---

(١) الحكاية أوردها الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٩/ ٣٨٢).

(٢) كما في خطبة النبي ﷺ يوم العيد: «إِنَّ أَوَّلَ مَا نَبْدَأُ مِنْ يَوْمِنَا هَذَا أَنْ نُصَلِّيَ، ثُمَّ نَرْجِعَ، فَنَنْحَرَ فَمَنْ فَعَلَ فَقَدْ أَصَابَ سُنَّتَنَا». أخرجه البخاري: كتاب العيدين، باب سنة العيدين لأهل الإسلام، رقم (٩٠٨).

صحيح، كل صاحبِ سُنَّةٍ يشكر الله أن جعل الله موت هذا الرجل على يد هذا الشجاع البطل.

والحاصل أن الـجَعْدَ بنَ دِرْهَمٍ نبا[1] بهذه الكلمة، والعياذ بالله، وأصلُ التعطيل مبنيٌّ على هاتين الكلمتين: نفيُ المحبة، ونفيُ الكلام، ثم أخذها عنه الجهم بن صفوان، وكان فصيحًا بليغًا، ونشر المذهب، فذهبت الجهمية إليه مع أنه ثاني مَن قال به.

قَوْلُهُ: «**فِيهَا الشُّيُوخُ مُعَلِّمِو الصِّبْيَانِ**» انظر كيف الانتقاد البليغ على مَن تَبِع الجهمية في قولهم؟!

قَوْلُهُ: «**صبيان**» يعني: ليس عندهم عقول، مثل الذي يقرأ في ألِف باء تاء ثاء، لأنهم تبعوا هؤلاء، فصاروا بمنزلة البَبَّغاء يقول ما يُقال له، فهم معلمو الصبيان.

فهو -رحمه الله- لم يُرِدْ أن هؤلاء يُعَلِّمون الصبيان الصغار أبناءَ سبع سنين، وعشر سنين، بل يريد -رحمه الله- أنَّ الذين أخذوا بهذا القول صبيان، ما عندهم عقول، فهم كالصبي يقول ما قاله الأستاذ حسنًا كان أو سيِّئًا.

وَقَوْلُهُ: «**مُعَلِّمِو الصِّبْيَانِ**» يجوز فيها وجهان: (**مُعَلِّمُو**) و(**مُعَلِّمِي**)، فإن قلنا: (**مُعَلِّمُو**) صارت خبرًا ثانيًا، وإن قلنا: (**مُعَلِّمِي**) صارت حالًا، يعني: وهم الشيوخ حَالَ كَونِهم مُعَلِّمي الصبيان.

٦٢٨-لَكِـنَّ أَهْـلَ الْإِعْتِـزَالِ قَـدِيمَهُمْ ... لَـمْ يَذْهَبُوا ذَا الْـمَذْهَبَ الشَّـيْطَانِي

(١) أي تَجافَى وتَباعَد. انظر: لسان العرب، مادة: نبا.

٦٢٩- وَهُمُ الْأُلَى اعْتَزَلُوا عَنِ الحَسَنِ الرِّضَى الْـ ـبَصْرِيِّ[1] ذَاكَ الْعَالِمِ الرَّبَّانِي

عمرُو بنُ عُبَيْد وواصِلُ بنُ عَطَاءٍ مِن أهل الاعتزال لم يذهبا هذا المذهَب في أَوَّل الأمر، يعني: ما ذهبوا إلى هذا التعطيل (تعطيل الكلام وتعطيل المحبة)، ولكن فيما بعد نَحَوَا هذا المنحى مثل الرافضة.

فالرافضة كانوا أول أمرهم مُشَبِّهة، فهِشام بنُ الحَكَم الرافضي هو أول مَن قال بالتشبيه، لكن فيما بعد تركوا التشبيه، وهو الغلو في الإثبات، وذهبوا إلى التعطيل، وهو الغُلُوُّ في التنزيه، وصاروا على مذهب المعتزِلة في نفي الصفات.

قَوْلُهُ: «الْـمَذْهَبَ الشَّيطَانِي» يعني: مذهب جَهْم في أنَّ كلامَ الله مخلوقٌ.

٦٣٠- وَكَـذَاكَ أَتْبَـاعٌ عَـلَى مِنْهَـاجِهِمْ مِنْ قَبْلِ جَهْمٍ صَاحِبِ الْـحِدْثَانِ

يعني: أتباع الذين قبل جَهْم مِن أهل الاعتزال لم يقولوا بقول جَهْم بأنَّ كلامَ الله مخلوقٌ.

٦٣١- لَكِـنَّمَا مُتَـأَخِّرُوهُمْ بَعْـدَ ذَ لِـكَ وَافَقُـوا جَهْـمًا عَـلَى الْكُفْـرَانِ

قَوْلُهُ: «مُتَأَخِّرُوهُم» أي: متأخرو المعتزِلة.

قَوْلُهُ: «وَافَقُوا جَهْمًا عَلَى الْكُفْرَانِ» يدلُّ على أن ابنَ القَيِّم -رحِمه الله- يرى أنَّ مَنْ قال: (كلامُ الله مخلوقٌ) فهو كافر، وقد صرَّح بذلك الأئمةُ كالإمام أحمدَ -رحِمه الله- وغيرِه، أطلقوا على أن مَنْ قال: (القرآن مخلوق) فإنه كافر.

---

(١) **الحسن البصري**: أبو سعيد الحسن بن يسار، إمام أهل البصرة، وحَبر الأُمة في زمنه، ولد بالمدينة سنة (٢١هـ)، وشب في كنف علي بن أبي طالب، وتوفي بالبصرة سنة (١١٠هـ). [الشارح]. انظر ترجمته في: تهذيب الكمال (٦/ ٣٦٣).

وقولهم هذا يقصدون به الحُكْم دون الشخص، أما الشخص المعَيَّن فلا بدَّ أن تقومَ عليه الحُجَّة.

وقد سبَق أَن مَن قال: (إِنَّ القرآنَ مخلوقٌ) أبطَلَ الأمرَ والنهي، يعني: أنه لا أَمْرَ، ولا نَهْي، فالمخلوق مصنوعٌ على شكل مُعيَّن، والأمر (قل) والنهي (لا تقل) هذا مِن أوصاف الكلام، لا مِن أوصاف المخلوق.

٦٣٢- فَهُمُ بِذَا جَهْمِيَّةٌ أَهْلُ اعْتِزَا ... لٍ، ثَوْبُهُمْ أَضْحَى لَهُ عَلَمَانِ

قَوْلُهُ: «**فَهُمُ بِذَا جَهْمِيَّةٌ أَهْلُ اعْتِزَالٍ**» يعني: إذن هم معتزِلة مِن وَجه، وهُم أيضًا جهمية مِن وجهٍ آخر.

وَقَوْلُهُ: «**عَلَمَانِ**» أي: خطَّان: خط أحمر، وخط أسود، ولهذا كان المعتزِلة يوافقون الجهميةَ في نفي الصفات، لكن يخالفونهم في مسألة الوعيد والأحكام، ولذلك يفترق الجهمية والمعتزلة في مسألة القَدَر افتراقًا عظيمًا، وفي مسألة أسماء الإيمان والدين.

فالجهمية يَرَوْنَ في القَدَر أن الإنسانَ مُجبَرٌ على عمله، والمعتزِلة على العكس مِن ذلك، والجهمية يرون أن الأعمالَ لا تزيدُ في الإيمان، ولا تَنْقُص، وليست داخلة في الإيمان، وأن الإيمان هو مجرد الاعتراف.

فالجهمية يقولون: كُلُّ فاسقٍ ماردٍ شيطانٍ فهو مؤمنٌ كاملُ الإيمان، ولن يَمَسَّه عذابٌ.

وقولهم هذا يَصْلُحُ لفُسَّاق أهل العصر.

أَمَّا المعتزلة فيقولون: لو فَعَل الإنسانُ كبيرةً واحدةً لَصَارَ مِن أهل النار.

فبينهما فَرْقٌ عظيم، هؤلاء يقولون: مؤمن كامل الإيمان، ولن يَمسَّه العذاب، وهو في الجنة، وهؤلاء يقولون: خارجٌ مِن الإيمان ومستوجِبٌ للخلود في النيران، والعياذ بالله.

فصار لهم ثوبان: ثوبُ جهمٍ في الصفات مُعَطِّلة، وثوبُ اعتزالٍ في مسألة الأسماء والأحكام.

والمعتزلة على العكس يقولون: الأعمال شرط في صحة الإيمان، ولهذا مَن فَعَل كبيرةً عندهم أخرجوه مِن الإيمان، إلَّا أنهم يقولون: في منزلةٍ بين المنزلتين، أما في الآخرة فمُخَلَّد في النار.

٦٣٣- وَلَقَدْ تَقَلَّدَ كُفْرَهُمْ خَمْسُونَ فِي عَشْرٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ فِي الْبُلْدَانِ

٦٣٤- وَاللَّالَكَائِيُّ[1] الْإِمَامُ حَكَاهُ عَنْـ ـهُمْ بَلْ حَكَاهُ قَبْلَهُ الطَّبَرَانِي[2]

قَوْلُهُ: «**تَقَلَّدَ كُفْرَهُمْ**» أي: حَكَمَ بكفرهم.

«**خَمْسُونَ فِي عَشْرٍ**» أي: خمسمئة عالمٍ، فخمسمئة عالمٍ كَفَّروا أهل الاعتزال والجهمية بقولهم: إن كلامَ الله مخلوق.

إِذَنْ الآن نقول مَن قال: (إن كلام الله مخلوق) فهو -على ما نقله ابن القيم- كافرٌ.

* * *

---

(١) **اللالكائي**: هو هبة الله بن الحسن بن منصور الطبري، الرازي، حافظ للحديث، من فقهاء الشافعية، توفي كهلا في الدِّينَوَر سنة (٤١٨هـ). [الشارح]. انظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء (١٣/ ١٣٦).

(٢) **الطبراني**: هو أبو القاسم سليمان بن أحمد اللخمي، الطبراني، صاحب المعاجم الثلاثة، ولد في عكا في الشام سنة (٢٦٠ هـ)، وتوفي بأصبهان سنة (٣٦٠هـ) إذن عمره -رحمه الله- مئة سنة. [الشارح]. انظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء (١٢/ ٢٠١).

فصـــل

فِي مَذْهَبِ الْكَرَّامِيَّةِ

٦٣٥- وَالْقَـــائِلُونَ بِأَنَّـــهُ بِمَشِـــيئَةٍ ... فِي ذَاتِـهِ أَيْضًـا، فَهُـمْ نَوْعَـانِ

٦٣٦- إِحْـدَاهُمَا: جَعَلَتْـهُ مَبْـدُوءًا بِـهِ ... نَوْعًـا حِـذَارَ تَسَلْسُـلِ الْأَعْيَـانِ

٦٣٧- فَيَسُـدُّ ذَاكَ عَلَـيْهِمُ فِي زَعْمِهِـمْ ... إِثْبَـاتَ خَـالِقِ هَـذِهِ الْأَكْـوَانِ

٦٣٨- فَلِـذَاكَ قَـالُوا: إِنَّـهُ ذُو أَوَّلٍ ... مَـا لِلْفَنَـاءِ عَلَيْـهِ مِـنْ سُـلْطَانِ

٦٣٩- وَكَلَامُـــهُ كَفِعَالِـــهِ، وَكِلَاهُمَـــا ... ذُو مَبْـدَأٍ، بَـلْ لَـيْسَ يَنْتَهِيَـانِ

٦٤٠- قَالُوا وَلَـمْ يُنْصِفْ خُصُومٌ جَعْجَعُوا ... وَأَتَـوْا بِتَشْـنِيعٍ بِـلَا بُرْهَـانِ

٦٤١- قُلْنَـا كَـمَا قَـالُوهُ فِي أَفْعَالِـهِ ... بَـلْ بَيْنَنَـا بَـوْنٌ مِـنَ الْفُرْقَـانِ

٦٤٢- بَلْ نَحْـنُ أَسْعَدُ مِنْهُمُ بِالْـحَقِّ إِذْ ... قُلْنَـا: هُمَـا بِـالله قَائِمَتَـانِ

٦٤٣- وَهُـمُ فَقَـالُوا: لَـمْ يَقُـمْ بِـالله لَا ... فِعْـلٌ وَلَا قَـوْلٌ، فَتَعْطِـيلَانِ

٦٤٤- لِفِعَالِـهِ وَمَقَالِـهِ شَرٌّ وَأَبْـ ... ـطَلُ مِـنْ حُلُـولِ حَـوَادِثٍ بِبَيَـانِ

٦٤٥- تَعْطِيلُـهُ عَـنْ فِعْلِـهِ وَكَلَامِـهِ ... شَرٌّ مِـنَ التَّشْـنِيعِ بِالْـهَذَيَانِ

٦٤٦- هَـذِي مَقَـالَاتُ ابْـنِ كَـرَّامٍ وَمَـا ... رَدُّوا عَلَيْـهِ قَـطُّ بِالْبُرْهَـانِ

٦٤٧- أَنَّـى وَمَـا قَـدْ قَـالَ أَقْـرَبُ مِـنْهُمُ ... لِلْعَقْـلِ وَالْآثَـارِ وَالْقُـرْآنِ

٦٤٨- لَكِنَّهُمْ جَاءُوا لَهُ بِجَعَاجِعٍ وَفَرَاقِعٍ وَقَعَاقِعٍ بِشِنَانِ

الشرحُ

٦٣٥- وَالْقَائِلُونَ بِأَنَّهُ بِمَشِيئَةٍ فِي ذَاتِهِ أَيْضًا، فَهُمْ نَوْعَانِ

٦٣٦- إِحْدَاهُمَا: جَعَلَتْهُ مَبْدُوءًا بِهِ نَوْعًا حِذَارَ تَسَلْسُلِ الْأَعْيَانِ

قَوْلُهُ: «وَالْقَائِلُونَ بِأَنَّهُ بِمَشِيئَةٍ» يعني: بأنَّ الله يتكلَّم بمشيئة.

قَوْلُهُ: «إِحْدَاهُمَا»: قال المؤلف -رحمه الله-: (إحداهما)، والصواب في اللغة العربية (أَحَدُهُمَا) لكن هداه إلى ذلك ضِيقُ النَّظْم.

قَوْلُهُ: «جَعَلَتْهُ مَبْدُوءًا بِهِ نَوْعًا حِذَارَ تَسَلْسُلِ الأَعْيَانِ»، وهذا هو النوع الأول، أنها جعلت كلامه -سُبحانَه وتعالَى- له ابتداء، وأنه كان في الأول لا يتكلَّم، لماذا؟ قالوا: لو قلنا بذلك لَزِمَ تسلسلُ الأعيان، وإذا لزِم تسلسلُ الأعيان امتنعَ إثباتُ الخالقِ عزَّ وجلَّ، لأنه يبقى التسلسل دائمًا لا نهاية له، يبقى النوع أَوَّلِيًّا، كما أن اللهَ أَوَّلٌ ليس قبلَه شيءٌ.

هذه الطائفة جعلت كلامَه حادثًا: حادِثَ النوع، ليس حادِثَ الآحاد، ولهذا قال: (مبدوءًا به نوعًا) يعني أنه -سبحانه وتعالى- في الأول لم يكن يتكلَّم، ثُمَّ صار يتكلَّم، فصار الكلام عندهم حادثًا نوعًا.

وهؤلاء لو قالوا: (إنه حادثٌ عينًا) لكان الأمر صحيحًا، لكن قالوا: إنه حادثٌ نوعًا، يعني أنَّ الله لم يكن يتكلَّم ثُمَّ صار يتكلَّم.

فعطَّلوا اللهَ عن كلامه في الأول، وأثبتوه له في ثاني الحال، وجعلوا كلامَه ليس خارجَ ذاتِه، بل في ذاته، فهذا هو الفَرق بينهم، وبين أهل الاعتزال الجهمية

والجهمية السابقة، لأنَّ أولئك جعلوه خارج ذاتِه، جعلوه مخلوقًا منفصلًا، مثل: السماء، والأرض، والشمس، والقمر، أما هؤلاء فقالوا: لا، هو مِن صفاته لكنه حادِثُ النوع والآحاد.

لكن لماذا؟ قال: (**حِذَارَ تَسَلْسُلِ الأَعْيَانِ**) إذن قالوا: لو أثبتنا أنه أزليُّ النوع لزِم أن تكونَ آحادُه أيضا أزليةً، وتسلسل، إذ ما مِن كلامٍ إلَّا وقَبلَه كلام إلى ما لا نهاية له، وظنُّوا أن هذا شيءٌ ممتنِعٌ، لكن ليس بممتنِع كما سيأتي -إن شاء الله- في الفِرقة الثانية.

٦٣٧- فَيَسُــــدُّ ذَاكَ عَلَــيْهِمُ فِي زَعْمِهِــمْ إِثْبَــاتَ خَــالِقِ هَــذِهِ الْأَكْــوَانِ

يقولون: إذا قلنا بالتسلسل الأزلِيِّ للأنواع لم نُثْبِتْ خالقًا، إذ مِن المعلوم أنَّ المخلوق يكون بعد الخالق، وهذا يمنع التسلسل.

فهم يقولون: إذا جعلنا الكلام لم يزل موجودًا نوعًا، وهو متعلِّقٌ بالمشيئة، لَزِمَ أن يكونَ الموصوفُ به أيضًا حادثًا، وجوده بمشيئته، وهذا يَسُدُّ علينا إثبات الله عزَّ وجلَّ، يعني إثبات أزليته -سبحانه وتعالى-.

ولكن هذا ليس بصحيح، لأنَّ مِن المعلوم أن الموصوفَ سابقٌ على الوصف وعلى الصفة، فالمتكلِّمُ لا بدَّ أن يكونَ سابقًا لكلامه، وإذا قلنا بأن الكلامَ أزلِيُّ النوع لم يَلْزَمْ أن يكونَ مقارِنًا للخالق، لأنه لا بدَّ أن يكون المتكلِّم سابقًا عن المسبوق.

فلذلك قالوا: إن الله لا يتكلَّم متى شاء كيف يشاء، ولا نهاية لأوَّله، بل هو مبتدأ، ولذا قال -رحمه الله-:

٦٣٨- فَلِــذَاكَ قَــالُوا: إِنَّــهُ ذُو أَوَّلٍ مَــا لِلْفَنَــاءِ عَلَيْــهِ مِــنْ سُــلْطَانِ

يعني: فرَّقوا بين التسلسل في الابتداء والتسلسل في الانتهاء.

قَوْلُهُ: «ذُو أوَّلٍ» يعني: ليس أزلِيًّا، بل له مبدأ.

قَوْلُهُ: «مَا لِلْفَناءِ عَلَيْهِ مِنْ سُلْطَانِ» أي: أنه أَبَدِيٌّ، وهذا على رأي مَن يرى أنَّ التسلسلَ في الماضي ممنوعٌ، وفي المستقبل جائز، وتقدَّم أنَّ القولَ الراجح أنَّ التسلسل جائز في الماضي والمستقبل.

فصار الفَرق بينه وبين أهل السُّنَّة بسيطًا، والفَرق أن أهل السُّنَّة يقولون: إنَّ كلامَ الله أَزلِيُّ النوع حادثُ الآحاد، وهم يقولون: إنه حادثُ النوع والآحاد، فهُم يتفقون مع أهل السُّنَّة على أنه أَبَدِيٌّ، فإنَّ كلامَ الله لن ينقطع أبدَ الآبدين، ولهذا قال (مَا لِلْفَناءِ عَلَيْهِ مِنْ سُلْطَانِ) إذن هو أَبَدِيٌّ.

٦٣٩- وَكَلَامُــــهُ كَفِعَالِـــهِ، وَكِلَاهُمَـــا ذُو مَبْـــدَأٍ، بَـــلْ لَـــيْسَ يَنْتَهِيَـــانِ

قَوْلُهُ: «وَكِلَاهُمَا ذُو مَبْدَأٍ» أي: ذو مبدأ لكنهما أَبَدِيَّان، ولهذا قال: (بَلْ لَيْسَ يَنْتَهِيَانِ) و(بل) هنا عطف، لكنها ليست للإضراب، إلَّا أن يُقَال: إِنَّها إضرابُ انتقال مِن كلام إلى كلام، لا مِن معنى إلى معنى، والمعنى: ذو مبدأ، وليس ينتهيان.

والخلاصة: أنهم قالوا: إن الله -سُبحانَه وتعالَى- يتكلَّمُ بمشيئته، ولكنَّ كلامَه حادثُ النوع، لئلا يَلْزَمَ مِن ذلك تسلسلُ الأعيان، إذ إنهم يجعلون الكلامَ كالفِعَال، فإذا قالوا بتسلسله في الماضي لزم قِدَمُ هذه الأعيان، وبذلك يَبْطُلُ إثباتُ الخالق.

٦٤٠- قَالُوا وَلَـمْ يُنْصِفْ خُصُومٌ جَعْجَعُـوا وَأَتَـــوْا بِتَشْـــنِيعٍ بِـــلَا بُرْهَـــانِ

الجعجعة: هي الكلام الصاخب الذي لا يُرَادُ به إلَّا التنفير والتشنيع، وهم يَعْنُون بهؤلاء المعتزِلة والجهمية.

٦٤١- قُلْنَــا كَــمَا قَــالُوهُ فِي أَفْعَالِــهِ بَــلْ بَيْنَنَــا بَــوْنٌ مِــنَ الْفُرْقَــانِ

هؤلاء يقولون في أفعاله: إنها ليست أزليَّة، بل كان فاعلًا بعد أن كان مُعَطَّلًا، وهؤلاء قالوا في كلامه كما قال هؤلاء في أفعاله، يعني أنَّ الكلامَ حادِثٌ بعد أنْ لم يكن، والأفعال حادثة بعد أن لم تكن، لكن يختلفون، فهؤلاء يقولون: إن أفعالَه وأقوالَه خارجُ ذاتِه، وهؤلاء يقولون: بل متعلِّقة بذاته.

ولكنَّ ابنَّ القيم -رحِمه الله- ردَّ عليهم فقال:

٦٤٢- بَلْ نَحْـنُ أَسْـعَدُ مِـنْهُمُ بِالْـحَقِّ إِذْ قُلْنَــا: هُمَــا بِــالله قَائِمَتَــانِ

قَوْلُهُ: «هُمَا» هذا الضمير يعود على الأقوال والأفعال.

هؤلاء يقولون: الكلام قائمٌ بالله، والفعل قائمٌ بالله، وأولئك يقولون: قائمٌ بغير الله منفصِل عن الله، فأيهما أقرب للصواب؟ الجواب: الكرَّامِيَّة الذين قالوا: إنَّ الأفعالَ والأقوالَ قائمةٌ بالله.

وَقَوْلُهُ: «أَسْعَدُ بِالحَقِّ» إذ قلنا: إنَّ الأفعالَ قائمةٌ بالله والأقوالَ قائمةٌ بالله، وليست مخلوقةً منفصلة كما قاله مَن يقولون: إن الكلامَ في نفسه، ولا يتعلَّقُ بمشيئته، لكنه يخلُق ما يُعَبِّر عن الكلام، أو يكون حكاية عنه.

٦٤٣- وَهُـمُ فَقَـالُوا: لَــمْ يَقُـمْ بِـالله لَا فِعْـــلٌ وَلَا قَــوْلٌ، فَتَعْطِــيلَانِ

قَوْلُهُ: «فَتَعْطِيلَانِ» أي: تعطيل القول وتعطيل الفعل، لأنَّ السابقين لا يرون أنَّ الكلامَ يتعلَّق بمشيئته، بل هو وصف لازم له، لكن بدون حرفٍ ولا صوتٍ وبدون مشيئة.

٦٤٤- لِفِعَالِــــهِ وَمَقَالِــــهِ شَرٌّ وَأَبْــــ ـــطَلُ مِـنْ حُلُـولِ حَـوَادِثٍ بِبَيَـانِ

٦٤٥- تَعْطِيلُــهُ عَــنْ فِعْلِــهِ وَكَلَامِــهِ شَرٌّ مِــنَ التَّشْــنِيعِ بِالْـــهَذَيَانِ

يعني: تعطيلُ أفعالِهِ وأقوالِهِ أَشَرُّ وأبطلُ مِن حُلول حوادث ببيان، لأنَّ الجهميةَ والمعتزلةَ إنما نَفَوْا قيامَ أفعاله الاختيارية بذاته، خوفًا مِن حُلول الحوادث بذاته، لأنَّ مِن أصول المعطِّلة أنه لا يقوم الحادثُ إلَّا بحادث، فإذا قامت الحوادثُ بذاته لزِم أن يكون حادثًا، ولهذا أنكروا أن تقومَ الأفعالُ الاختياريةُ بذاته، وقالوا: (ليس له فِعل، وليس له قول)، نسأل الله العافية.

وهذا الكلام في الحقيقة لا يستطيع الإنسان أن يتصوَّره، فَضلًا عن الذي يَقبله ويَهضمه.

إِذَنْ هؤلاء الكرَّامِيَّة يقولون: إن تعطيلَ أفعاله ومقاله شرّ وأبطل مِن حلول الحوادث به، يعني لو قالوا: إن الله يفعل فِعلًا يتعلَّق بذاته، ويقول قولًا يتعلَّق بذاته، لكان هذا أهون مِن أن نقول: إن الحوادث تتعلَّق بذاته، لأننا إذا قلنا: إن الحوادث تتعلَّق بذاته لم يلزم عليها شيء، وإذا قلنا: إنه مُعَطَّل مِن الفعل والقول، فهذا مِن أقبح ما يُوصَف به اللهُ عزَّ وجلَّ، وقد تقدَّم لنا القول أن قيامَ الحوادث لا يَستلزمُ حدوثَ مَن قامت به.

٦٤٦- هَـذِي مَقَـالَاتُ ابْـنِ كَـرَّامٍ[1] وَمَـا رَدُّوا عَلَيْــــهِ قَـــطُّ بِالْبُرْهَــــانِ

يرى -رحمه الله- أن الكَرَّامِيَّة أقرب للصواب مِن الأشعرية، لأنَّ الأشعرية

(١) ابن كرام: هو محمد بن كرام بن عراق السجستاني، شيخ الكرامية، ولد بقرية في سِجِسْتان، ودخل خراسان، وكان له أتباع، توفي في القدس سنة (٢٥٥هـ). [الشارح]. انظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء (١١/ ٥٢٣).

لا يُثْبِتُون كلامًا مسموعًا أصلًا، فالكلام عندهم هو المعنى القائم بنفس الله عزَّ وجلَّ، ولا يتعلَّق بمشيئته، لكن الذي يتعلَّق بمشيئته عندهم هو المخلوق.

فالصوت يخلقه الله عزَّ وجلَّ في مكانٍ ما، أو في الهواء، أو في الشجرة حين نادى موسى منها، فهذا هو الكلام عندهم.

ابن القيم -رحمه الله- يقول: ما رَدُّوا عليه قطُّ بالبرهان.

فابن القيم يدافع عن ابن كَرَّام، ولا شك أن المدافعة عن شخص شَرُّه أهون مِن غيره أنها أمر طيِّب، وسيبين -إن شاء الله- في الفصل الثاني أنَّ كلامه ليس بصحيح.

٦٤٧- أَنَّى وَمَا قَدْ قَالَ أَقْرَبُ مِنْهُمُ لِلْعَقْلِ وَالْآثَارِ وَالْقُرْآنِ

قَوْلُهُ: «أَنَّى» يعني: يبعُد جدًّا أن يردُّوا عليه.

قَوْلُهُ: «الآثَار» يعني: آثار السنن.

قَوْلُهُ: «أَنَّى وَمَا قَدْ قَالَ أَقْرَبُ مِنْهُمُ لِلْعَقْلِ وَالآثَارِ وَالْقُرْآنِ» وهذا صحيح، فما قاله ابن كَرَّام أقربُ مما قاله المعتزِلة والجهمية للعقل، والآثار التي هي السنن، والقرآن كلام الله عزَّ وجلَّ، لأنَّ ابنَ كرَّام لم يختلف عن أهل السُّنَّة إلَّا في شيء واحد، وهو (حدوث الكلام نوعًا)، ولو قال: (حدوثه آحادًا) لَوَافَق أهلَ السنَّة، لأنَّ الكلام -كما هو معلوم- مترتِّب بعضُه على بعض.

فهو يخشى مِن القول بأزليته نوعًا تسلسلَ الحوادث، وهذا على ظنِّه يَستلزِم نَفْيَ أزليّة الخالقِ عزَّ وجلَّ، وقد سبق أنَّ هذا لا يستلزم ذلك، وأنه ليس بصحيح.

٦٤٨- لَكِنَّهُمْ جَاءُوا لَهُ بِجَعَاجِعٍ وَفَرَاقِعٍ وَقَعَاقِعٍ بِشِنَانِ

قَوْلُهُ: «الجعاجع»: الأصوات الصاخبة التي يُراد بها التنفير، وإبعاد الناس عن هذا الشيء.

قَوْلُهُ: «وَفَرَاقِعٍ» الفراقع: إما فرقعة الأصابع، وإما الفراقع التي تفرقع مِن الصبيان ليلة العيد.

قَوْلُهُ: «شِنَان» ويُروى بالميم (بشمان)، وشِنان جمع شَنَّة، والشَّنَّة: القِرْبة اليابسة القديمة، يُضرَب عليها باليد فيصير لها صوت.

يعني يقول: هؤلاء ما رَدُّوا على ابن كَرَّام بشيء، بل هو أقرب إلى الحقِّ منهم.

* * *

فصل

فِي ذِكْرِ مَذْهَبِ أَهْلِ الْحَدِيثِ

٦٤٩- وَالْآخَرُونَ أُولُو الْحَدِيثِ كَأَحْمَدٍ ... وَمُحَمَّدٍ وَأَئِمَّةِ الْإِيمَانِ

٦٥٠- قَالُوا بِأَنَّ اللهَ حَقًّا لَمْ يَزَلْ ... مُتَكَلِّمًا بِمَشِيئَةٍ وَبَيَانِ

٦٥١- إِنَّ الْكَلَامَ هُوَ الْكَمَالُ فَكَيْفَ يَخْـ ... ـلُو عَنْهُ فِي أَزَلٍ بِلَا إِمْكَانِ؟!

٦٥٢- وَيَصِيرُ فِيمَا لَمْ يَزَلْ مُتَكَلِّمًا ... مَاذَا اقْتَضَاهُ لَهُ مِنَ الْإِمْكَانِ؟

٦٥٣- وَتَعَاقُبُ الْكَلِمَاتِ أَمْرٌ ثَابِتٌ ... لِلذَّاتِ مِثْلُ تَعَاقُبِ الْأَزْمَانِ

٦٥٤- وَاللهُ رَبُّ الْعَرْشِ قَالَ حَقِيقَةً ... ﴿حمٓ﴾ مَعْ ﴿طه﴾ بِغَيْرِ قِرَانِ

٦٥٥- بَلْ أَحْرُفٌ مُتَرَتِّبَاتٌ مِثْلَمَا ... قَدْ رُتِّبَتْ فِي مَسْمَعِ الْإِنْسَانِ

٦٥٦- وَقْتَانِ فِي وَقْتٍ مُحَالٌ هَكَذَا ... حَرْفَانِ أَيْضًا يُوجَدَا فِي آنِ

٦٥٧- مِنْ وَاحِدٍ مُتَكَلِّمٍ بَلْ يُوجَدَا ... بِالرَّسْمِ أَوْ بِتَكَلُّمِ الرَّجُلَانِ

٦٥٨- هَذَا هُوَ الْمَعْقُولُ، أَمَّا الِاقْتِرَا ... نُ فَلَيْسَ مَعْقُولًا لِذِي الْأَذْهَانِ

٦٥٩- وَكَذَا كَلَامٌ مِنْ سِوَى مُتَكَلِّمٍ ... أَيْضًا مُحَالٌ لَيْسَ فِي إِمْكَانِ

٦٦٠- إِلَّا لِمَنْ قَامَ الْكَلَامُ بِهِ فَذَا ... كَ كَلَامُهُ الْمَعْقُولُ لِلْإِنْسَانِ

الشــرحُ

٦٤٩- وَالْآخَرُونَ أُولُو الْـحَدِيثِ كَأَحْمَـدٍ ... وَمُحَمَّـــدٍ وَأَئِمَّـــةِ الْإِيـــمَانِ

قَوْلُهُ: «وَالآخَرونَ أُولُو الْـحَدِيثِ» يعني: أصحاب الحديث، جعلنا الله وإِيَّاكم منهم، يعني: المُعتَنين بالحديث حِفظًا رِوايةً، وعِلمًا دِرايةً.

قَوْلُهُ: «كَأَحْمَدٍ ومُحَمَّدٍ» أحمد بن حنبل، ومحمد بن إسماعيل البُخَارِي، وغيرهما مِن الأئمة.

فذكر -رحمه الله- مذهبَ أهلِ الحديث، وأهلُ الحديث يُراد بهم صنفان: رُواة الحديث، وفُقَهاء الحديث.

ولا شكَّ أنَّ أحمد بن حنبل مِن رواة الحديث، وفقهاء الحديث، وأمَّا البخاري -رحمه الله- فلا شكَّ أنه مِن رُواة الحديث، ولكنه في فِقه الحديث ليس كالإمام أحمد، ولهذا يُعتبر مِن المُحَدِّثين، والإمام أحمد يعتبر مِن الْـمُحَدِّثين الفقهاء.

٦٥٠- قَـالُوا بِـأَنَّ اللهَ حَقًّـا لَـمْ يَـزَلْ ... مُتَـــكَلِّمًا بِمَشِيئَـــةٍ وَبَيَـــانِ

ولهذا قال: (وَأَئِمَّةِ الإِيمانِ قَالُوا بِأَنَّ اللهَ حَقًّا لَـمْ يَزَلْ مُتكَلِّمًا بِمَشِيئَةٍ وبَيَانِ) لم يزل عزَّ وجلَّ متكلِّمًا بمشيئة، إذا شاء تكلَّم، وإذا شاء لم يتكلَّم، ثم هو يتكلَّمُ ببيان، أي: بحروف، وأصوات مسموعة.

وأفصحُ الكلام، وأحسنُ الكلام، وأصدقُ الكلام كلامُ الله عزَّ وجلَّ، ولهذا قال: (بِبيَانِ) أي: بفصاحة، وإعراب، ووضوح.

ويا حبَّذا لو علمنا أدلة أن اللهَ لم يزل متكلِّمًا، ولا يزالُ متكلِّمًا.

نقول: لم يزل، ولا يزال متكلِّمًا، ودليل دَلالته عقلية، وذلك أن أفعالَ الله لم تَزَل، وكلُّ فِعل مِن أفعال الله، فإنه مقرون بقوله: (كن)، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢].

كذلك الكلام بمشيئة، وليس معنًى قائمًا بنَفْسه لا يتعلَّق بمشيئته، كما قالت الأشاعرة، بل هو بالمشيئة، وفي ذلك أدلة، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا﴾ والمراد يكون بمشيئة.

إِذَنْ الكلام المقترِن بالمراد يكون كذلك بالمشيئة.

وهناك أيضًا أدلة واقعية: قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف:١٤٣] متى كان الكلام؟

الجواب: بعد مجيئه، انظر قوله: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف:١٤٣] ومتى كان القول الثاني؟ الجواب: بعد قول موسى.

ابن القيم يقول: (**وبَيَانِ**) وهذا يقتضي أن يكون كلامُ الله بحَرْفٍ وصوتٍ، لأنه لا يكون بيانًا إلَّا إذا سُمِع الكلام، ولا يُسْمَعُ إلَّا بصوت، ولا يُفْهَمُ إلَّا بحروف، فكلام الله أيضًا يكون بحرف وصوت، أما كونه بحرف فلأنَّ كُلَّ الكلام الذي تكلَّم اللهُ به حروف، فالقرآن حروف، ومَن قرأه فله بكل حرفٍ منه عشر حسنات.

وأيضًا لما قال الله تعالى لموسى: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ اللام، والنون، والتاء، والراء والنون، والياء، هذه حروف بصوت، لأنَّ موسى سمع كلام الله، وكذلك النبيّ ﷺ سَمِعَ كلامَ الله في ليلة المعراج.

إِذَنْ كلام الله -سُبحانَه وتعالَى- بحرفٍ وصوتٍ مُتَعلِّق بمشيئته، ولم يزل، ولا يزال متكلمًا.

أما كونه مخلوقًا فهذا باطل، لأنَّ الله تعالى قال: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف:٥٤]، والخلق والأمر قَسِيمان، وليسا قِسْمَيْن، فالأمرُ غيرُ الخَلق، لأنَّ الأصلَ في العطف المُغايَرة، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى:٥٢] أي: مِن وَحْيِنا، فَدلَّ هذا على أنَّ القولَ ليس مخلوقًا.

هذا ما أردت أن أُبيِّنَه لأجْل أن نعرف أن أَهْلَ السُّنَّة والجماعة بَنَوْا اعتقادَهم على دليل.

٦٥١- إِنَّ الْكَلَامَ هُوَ الْكَمَالُ فَكَيْفَ يَخْـ ـلُو عَنْـهُ فِي أَزَلٍ بِـلَا إِمْكَـانِ؟!

قَوْلُهُ: «إِنَّ الْكَلَامَ هُوَ الكَمَالُ» صَدَق -رحمه الله- ما من أحدٍ يشكُّ في أنَّ المتكلِّمَ كاملٌ والأخرسَ ناقصٌ.

فالمتكلِّم يتكلَّم ليأمُرَ وينهى ويعظَ، فالله عزَّ وجلَّ من كمالِهِ كلامُه، ومن المعلوم أنَّ الأخرسَ لا يُعَدُّ كاملًا، ولذلك طلب زكريا -عليه الصلاة والسلام- من الله آيةً، فقال الله -سبحانه وتعالى-: ﴿ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ [آل عمران:٤١]، ولما كان هذا يُخشى منه العيب -وهو عيب- قال الله له في آيةٍ أخرى: ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [مريم:١٠]، يعني: ليس فيك عيب، لأنه لا شكَّ أنَّ عدمَ الكلام عيب، فالكلام كمال.

قَوْلُهُ: «فَكَيْفَ يَخْلُو عَنْهُ فِي أَزَلٍ بِلَا إِمْكَانِ» يعني: كيف يخلو الله من هذا الكمال في أزل بلا إمكان؟!

هؤلاء الذين قالوا: إنه يتكلَّمُ بغير مشيئةٍ، ومنعوا أن يكونَ أزليًّا، قالوا: إنه تكلَّم بعد أن لم يكن قادرًا على الكلام، وهذا نقص، ولهذا قال المؤلف -رحمه الله-:

٦٥٢- وَيَصِيرُ فِيمَا لَمْ يَزَلْ مُتَكَلِّمًا ... مَاذَا اقْتَضَاهُ لَهُ مِنَ الْإِمْكَانِ؟

يعني: ما الذي اقتضى أن يكون متكلِّمًا بعد أن كان غيرَ متكلِّم إلَّا المشيئة، وهو متى شاء تَكلَّم في أزلٍ وأبدٍ، ومتى شاء لم يتكلَّم، وهذا القول واضح ومعقول، وهو الذي تدلُّ عليه الأدلةُ السمعية.

وفي هذا رَدٌّ على الكَرَّامِيَّة الذين يقولون: في الأول لا يمكن، وفي الثاني صار ممكنًا، فما الذي جعله في الأول مستحيلًا، وفي الثاني ممكنًا؟!

ثم ذكَرَ المؤلف -أيضًا- أنَّ قولَه مترتِّبٌ، خلافًا لمن قال بالاقتران، الباء، والسين، والميم، في (بسم الله الرحمن الرحيم) وما بعدها من كلمات كلُّها واحدةٌ، خرجت بآنٍ واحد، ولا يمكن أن تترتَّب، لأنَّ الكلامَ عندهم ليس بمشيئته.

٦٥٣- وَتَعَاقُبُ الْكَلِمَاتِ أَمْرٌ ثَابِتٌ ... لِلذَّاتِ مِثْلُ تَعَاقُبِ الْأَزْمَانِ

قَوْلُهُ: «**وَتَعَاقُبُ الْكَلِمَاتِ أَمْرٌ ثَابِتٌ لِلذَّاتِ**» أي: لذات الكلمات.

قَوْلُهُ: «**مِثْلُ**»، يجوز فيه أيضًا (**مِثْلَ**).

قَوْلُهُ: «**مِثْلُ تَعَاقُبِ الأَزْمَانِ**» أي: كما أنَّ الأزمانَ متعاقبةٌ الآن، فالصباح، ثُمَّ الضُّحى، ثُمَّ الظهيرة، ثُمَّ العصر، ثُمَّ المغرب متعاقبة، هل يمكن أن تكون ظهيرةٌ في وقت الضحى؟

الجواب: لا، ولا ضحى في وقت الصباح، فتعاقب الكلمات أمرٌ واقع لا بدَّ منه، كتعاقب الأزمان، أي: (**مِثْل تَعَاقُبِ الأَزْمَانِ**)، وفي هذا رَدٌّ على الاقترانية.

٦٥٤- وَاللهُ رَبُّ الْعَـرْشِ قَـالَ حَقِيقَـةً ﴿حمٓ﴾ مَـعْ ﴿طه﴾ بِغَـيْرِ قِـرَانِ

وهذا أيضًا ردٌّ على الجَهْمية والمعتزلة والاقترانية، وقال: (حَقِيقَةً)، أما عند المعتزلة والجهمية فلم يقل: (حَقِيقَةً)، قالوا: إضافة الكلام إليه على سبيل المجاز، لأنه خَلَقَ الكلام.

قَوْلُهُ: «﴿حمٓ﴾ مَعْ ﴿طه﴾ بِغَيْرِ قِرَانِ» صحيح، فـ(طه) في مكانها، و(حم) في مكانها لم تقترن.

و﴿طه﴾ حرفان هِجائيَّان، وليس من أسماء الرسول ﷺ، خلافًا لمن سَمَّاه (طه) وسمَّاه (يس)، فإنَّ هذا كَذِبٌ، وليس بصحيحٍ، فكُلُّ أسماء الرسول ﷺ يجب أن تعرفوا أنها مشتملة على المعاني، أمَّا أسماؤنا فجوامد، ليس فيها إلَّا تعيين المُسَمَّى فقط، فقد نُسَمِّي الرجلَ (صالحًا) وهو غيرُ صالح، أما أسماء الرسول -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- فإنها كلَّها مشتقةٌ من معانيها العظيمة.

فمثلًا (طه) هل هو مشتق أو غير مشتق؟

الجواب: ليس مشتقًا، قالوا: لأنَّ الله قال: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾ [طه:١-٢].

إِذَنْ نقول: سَمِّه (نون)، لأنَّ الله قال: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ﴾ [القلم:١-٢]، وسَمِّه بكُلِّ حرفٍ هِجائِيٍّ جاء بعده خطابٌ للرسول -عليه الصلاة والسلام- قال الله تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ﴾ [إبراهيم:١]، سمِّه إذن (الر)، ولا أحد يقول بهذا.

فالحاصل أنَّ (يس) ليس من أسماء الرسول، وكذلك (طه).

مسألة: نجدُ بعض الناس مَنْ يُكنِّي نفسَه بـ(أبي الحاشر) مثلًا، فنقول: هذا لا يجوز، لأنَّ هذا اللقب للرسول -عليه الصلاة والسلام-.

٦٥٥- بَــلْ أَحْــرُفٌ مُتَرَتِّبَــاتٌ مِــثْلَمَا قَــدْ رُتِّبَــتْ فِي مَسْــمَعِ الْإِنْسَــانِ

قَوْلُهُ: «بَلْ أَحْرُفٌ» يعني: بل هي أحرف.

قَوْلُهُ: «مُتَرَتِّبَاتٌ» يعني: متعاقبة، وليست مقترنة.

الآن عندما أقول: (طه) فأول ما يرد على مسمعك (الطاء) ثُمَّ (الهاء)، فهي مترتِّبة، فهي -أيضا- في كلام الله مترتِّبة، بدأ بالطاء قبل الهاء في مسمع الإنسان.

٦٥٦- وَقْتَــانِ فِي وَقْــتٍ مُحَــالٌ هَكَــذَا حَرْفَــانِ أَيْضًــا يُوجَــدَا فِي آنِ

قَوْلُهُ: «وَقْتَانِ فِي وَقْتٍ مُحَالٌ» يعني: لا يمكن أن يكون الصبح وهو في نفس الوقت ضحى، ولا ضحى وهو في نفس الوقت ظهر، فهذا مستحيل.

قَوْلُهُ: «محالٌ هكذا حرفان أيضًا يوجدا في آن» يعني: وكذلك يستحيل أنْ يوجدَ حرفان في آنٍ واحدٍ، إذن لا بدَّ من ترتيب.

وَقَوْلُهُ: «يُوجَدَا» هكذا، حيث سَبَقَ نظيرُه، وأنَّ ابنَ القيم -رحمه الله- يرى جوازَ حذف النون التي هي علامةُ الرفع من أجل الشِّعر.

٦٥٧- مِــنْ وَاحِــدٍ مُــتَكَلِّمٍ بَــلْ يُوجَــدَا بِالرَّسْــمِ أَوْ بِــتَكَلُّمِ الــرَّجُلَانِ

٦٥٨- هَــذَا هُــوَ الْــمَعْقُولُ، أَمَّــا الِاقْــتِرَا نُ فَلَــيْسَ مَعْقُــولًا لِــذِي الْأَذْهَــانِ

قَوْلُهُ: «مِنْ وَاحِدٍ مُتَكَلِّمٍ» يعني: لا يمكن أن يوجد حرفان في آنٍ واحدٍ من واحد متكلِّم.

قَوْلُهُ: «بَلْ يُوجَدَا بِالرَّسْمِ أَوْ بِتَكَلُّمِ الرَّجُلَانِ» نعم بالرسم، ربما تكتب الحاء فوق النون، كذلك لو كان من رجلين مُتَكَلِّمَيْن، يمكن أن يتكلَّم الرجلان (بسم الله الرحمن الرحيم) في آنٍ واحدٍ، أما مِن متكلِّم واحدٍ ويوجد حرفان في آنٍ واحدٍ، فهذا مستحيل.

وقول المؤلف -رحمه الله-: (بِتَكَلُّمِ الرَّجُلَانِ)، ولم يقل: (الرجُلَيْن) فهذا إمَّا أن يكون للضرورة، وإما أن يكون على لغة من يُلزم المثنى الألف، ولو أتى على اللغة المشهورة، كقول الشاعر:

يَا لَيْتَ عَيْنَاهَا لَنَا وَفَاهَا ... وَاهًا لِرَيَّا ثُمَّ وَاهًا وَاهَا[1]

وهذا صحيح، كيف نقول: القرآن كلام الله من غير متكلِّم؟! فلا يوجد كلامٌ إلَّا من متكلِّم، فمتى أقررتَ بأنَّ القرآنَ كلامُ الله لزمك أن تؤمنَ بأنَّ الله متكلِّمٌ، ولهذا يقول فيما بعد: (لَيْسَ فِي إِمْكَانِ... إِلَّا لَمَن قامَ الكلامُ به) يعني: لا يمكن أن يكون كلامٌ من غير متكلِّم، بل لا يكون إلَّا من المتكلِّم به.

٦٥٩- وَكَذَا كَلَامٌ مِنْ سِوَى مُتَكَلِّمٍ ... أَيْضًا مُحَالٌ لَيْسَ فِي إِمْكَانِ

٦٦٠- إِلَّا لِمَنْ قَامَ الْكَلَامُ بِهِ فَذَا ... كَ كَلَامُهُ الْمَعْقُولُ لِلْإِنْسَانِ

فهو -رحمه الله- لما رَدَّ على مذهب الاقترانية ردَّ على مذهب المعتزلة فقال:

المعتزلة يقولون: إنَّ اللهَ له كلام لكن ليس هو المُتكلِّم، لأنَّ كلامه مخلوقٌ، إمَّا في الشجرة، وإمَّا في الهواء، وإمَّا في جِبْريل، وإمَّا في مُحَمَّد، فكيف يصحُّ أن نقول: هو متكلِّمٌ والكلامُ ليس وصفًا، بل هو بائن منه؟! ولهذا قال:

---

(١) البيت من الرجز، وهو لأبي النجم، انظر: لسان العرب، مادة: ويه.

(لَيْسَ فِي إِمْكَانِ... إِلَّا لِمَنْ قَامَ الْكَلَامُ بِهِ)، فمَنْ قام الكلام به فهو الذي يكون متكلِّمًا.

فإنْ قال قائلٌ: ألستم تقولون: إنَّ السمواتِ، والأرضَ، والإنسانَ، والشجرَ والحجرَ مخلوقٌ، فهو بائِنٌ عن الله عزَّ وجلَّ وليس من صفته؟!

قلنا: بلى، نقول بذلك، لكن هذه أعيانٌ قائمةٌ بنفسها، وأما الكلام فصفة، ولا يمكن أن يكون قائمًا بنفسه، فإذا وصف الله نفسَه بأنه متكلِّم، علمنا أنَّ الكلامَ وَصْفُه، وإذا وصَفَ نفسَه بأنه الخالق فقد يُلَبِّس هؤلاء، ويقولون: خالق يعني به المخلوق، وليس الخلقُ صفةً له.

لكن نقول في الردِّ عليهم: إنَّ المخلوقات أعيانٌ قائمة بنفسها، بخلاف الكلام فلا يمكن أن يُوصَفَ اللهُ بأنه متكلِّمٌ ويُعْنَى به أنَّ هناك كلامًا مخلوقًا خلقه الله، وإِلَّا للزم أن يكون كلامي وكلامُك وكلامُ فلانٍ وفلانٍ كلامًا لله، ولهذا صار قول الجهمية والمعتزلة بأنَّ كلام الله مخلوق سُلَّمًا سهلَ الصعود للقائلين بوَحْدة الوجودِ، قالوا: نحن نقول: كُلُّ كلامٍ في الوجود كلامُ الله.

* * *

٦٦١- أَيَكُونُ حَيًّا[1] سَامِعًا أَوْ مُبْصِرًا ... مِنْ غَيْرِ مَا سَمْعٍ وَغَيْرِ عِيَانِ؟!

٦٦٢- وَالسَّمْعُ وَالإِبْصَارُ قَامَ بِغَيْرِهِ ... هَذَا الْمُحَالُ وَوَاضِحُ الْبُهْتَانِ

٦٦٣- وَكَذَا مُرِيدٌ وَالإِرَادَةُ لَمْ تَكُنْ ... وَصْفًا لَهُ، هَذَا مِنَ الْهَذَيَانِ

٦٦٤- وَكَذَا قَدِيرٌ مَا لَهُ مِنْ قُدْرَةٍ ... قَامَتْ بِهِ مِنْ أَوْضَحِ الْبُطْلَانِ

(١) في نسخة الحلبي: «حيٌّ».

٦٦٥- وَاللهُ جَــلَّ جَلَالُـــهُ مُــتَكَلِّمٌ بِالنَّقْــلِ وَالْــمَعْقُولِ وَالْبُرْهَــانِ

٦٦٦- قَدْ أَجْمَعَتْ رُسُـلُ الإِلَـهِ عَلَيْـهِ لَـمْ يُنْكِـرْهُ مِــنْ أَتْبَـاعِهِمْ رَجُــلَانِ

٦٦٧- فَكَلَامُــهُ حَقًّــا يَقُــومُ بِــهِ وَإِلَّـا لَا لَــمْ يَكُــنْ مُـتَكَلِّمًا بِقُــرَانِ

الشَّرحُ

ضَرَب المؤلف أمثلةً تُبَيِّنُ بطلانَ القول بأنَّ القرآنَ ليس كلامَ الله، وأنَّ الله لم يتكلَّم به، وذلك أنَّ المعتزلة يثبتون لله الأسماء، ولا يثبتون ما دَلَّت عليه من الصفات، فقال:

٦٦١- أَيَكُـونُ حَيًّـا سَـامِعًا أَوْ مُبْصِـرًا مِنْ غَـيْرِ مَـا سَـمْعٍ وَغَـيْرِ عِيَـانِ؟!

أي: من غير معاينة ومن غير بصر، وهل هذا ممكن؟! لا يمكن، كيف يكون سامعًا بلا سمع؟! أو مبصرًا بلا بصر؟! هذا غير ممكن.

ولولا أنه سُوِّدت به الصحائف ما نُقِل ولا ذُكر، لكن مع الأسف أنه وُجد من فِرَق هذه الأمة مَنْ يقول بذلك الهذيان الباطل.

٦٦٢- وَالسَّــمْعُ وَالإِبْصَــارُ قَــامَ بِغَــيْرِهِ هَــذَا الْــمُحَالُ وَوَاضِــحُ الْبُهْتَــانِ

هم يقولون: إنَّ الله سميع، لكن ليس له سمع، وإنما خلق سمعًا في غيره، وبصيرٌ، يعني: خلق بصرًا في غيره.

كيف نقول: هو بصير، والبصير غيره؟! فهذا معناه أنَّ البصر لغيِره، لا له، فكيف تكون صفةٌ مضافة إلى موصوف، ثُمَّ تكون هذه الصفة في غيِره؟! هذا واضح البطلان كما يقول -رحمه الله-: (وَاضِحُ الْبُهْتَانِ).

٦٦٣- وَكَـذَا مُرِيـدٌ وَالإِرَادَةُ لَـمْ تَكُـنْ وَصْـفًا لَـهُ، هَـذَا مِـنَ الْـهَذَيَانِ

هم قالوا: إنَّ اللهَ مريدٌ، لكن ليس له إرادة، كيف؟ قالوا: له مراد، أو المعنى: مريدٌ خالقٌ للإرادة في غيره.

وأنا أعتقد أنَّ مَنْ لم يسمع هذا سيقول بمقتضى الفطرة: هذا لا يكون، ولولا ثقة النقل من ابن القيم، وابن تيمية، ومِن أشباهِهما لقلنا: هذا لا يقوله عاقل، إذ كيف يقول: هو مريد والإرادة لغيره؟! سبحان الله! هذا مستحيل، لكن هذا مذهب لأُناس يَدَّعون الذكاء.

٦٦٤- وَكَـذَا قَـدِيرٌ مَـا لَـهُ مِـنْ قُـدْرَةٍ قَامَـتْ بِـهِ مِـنْ أَوْضَـحِ الْـبُطْلَانِ

قَوْلُهُ: «قَدِيرٌ مَا لَهُ مِنْ قُدْرَةٍ» قدير ولكن ليست له قدرة، وهذا هذيان، فالقدير لا يمكن إلَّا أن تكونَ له قدرة، وهم يقولون: قدير بلا قدرة، لأنهم يَدَّعون أنَّ إثباتَ الصفاتِ القديمةِ يعني الإشراكَ بالله، فيقولون: ساويتم اللهَ تعالى بالقِدَم في هذه الصفات، لأنَّ أخصَّ وصف الإله عندهم هو القِدَم، وهذا من الغرائب.

ألسنا نصف غير الله بالقديم؟! الجواب: بلى، كيف يقولون: أخصُّ وصف الله ما لا يوصف به غيرُه مثل (ربّ العالمين) (الحيّ القيّوم) وما أشبه ذلك؟! وأما أن نقول: أخصُّ وصفٍ في الإله القِدَم، فمَن أثبتَ صفةً قديمة فقد أشرك بالله، لأنك لو أثبت له قدرة كانت القدرة قديمة، ولزم من ذلك تعدد القدماء، قدرة قديمة وقادر قديم، سمع قديم وسميع قديم، بصر قديم وبصير قديم، فصارت الآلهة بذلك ستة، وعلى هذا فقس.

قالوا: أنتم كَفَّرتم النصارى لَـمَّا قالوا: إنَّ اللهَ ثالثُ ثلاثة، وأنتم تقولون:

ملايين الملايين، فأنتم أكفرُ من النصارى إذا أثبتم أنَّ لله صفةً قديمةً، فهذا هو عين الكفر، والعياذ بالله.

والحقيقة أنَّ كلامَهم مخالفٌ للعقل، نقول له: تعالَ، هل أنت سميع؟ سيقول: نعم، نقول: ألك سمع؟ سيقول: نعم، بصير لك بصر، قدير لك قدرة؟ كم أنت؟ فيقول: واحد، فتعدد الأوصاف لا يستلزم تعدد الموصوف، فهذه دعوى لا حُجَّة لها.

٦٦٥-وَاللهُ جَلَّ جَلَالُهُ مُتَكَلِّمٌ بِالنَّقْلِ وَالْمَعْقُولِ وَالْبُرْهَانِ

فهو متكلِّمٌ بالنقل، والأدلة في هذا كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء:١٦٤].

وفي السنة: «مَا مِنْ أَحَدٍ مِنْكُمْ إِلَّا سَيُكَلِّمُه رَبُّه لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَان»[1].

أما العقل، فنقول: أيعقل أن يكون آمرًا ناهيًا بلا كلام؟! لا يُعقل، فالآمِرُ هو الذي يقول: (**افعل**)، والناهي هو الذي يقول: (**لا تفعل**)، وكلام الله تعالى ثابت بالعقل من وجوه منها:

- ما سبق أنَّ الكلام كمال.
- **ومنها**: أننا إذا قلنا بعدم الكلام بَطَلَ الأمرُ والنهيُ، إذ لا أمْرَ ولا نهي إلَّا بكلام، بل يبطل حتى القَدَر، لأنَّ كُلَّ شيءٍ كائنٍ من المخلوقات فهو بقول الله: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة:١١٧].

فالله متكلِّم بالنقل والعقل والبرهان، فالنقل والعقل كلاهما دليل، والبرهان وصف الدليل، ويُعْنَى بالبرهان ما هو برهان على الشيء، وأثبته بدون احتمال،

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ﴾، برقم (٧٠٠٥).

فكُلَّما كان الدليل صريحًا واضح الدلالة سُمِّي برهانًا.

٦٦٦-قَدْ أَجْمَعَتْ رُسُلُ الإِلَهِ عَلَيْهِ لَمْ يُنْكِرْهُ مِنْ أَتْبَاعِهِمْ رَجُلَانِ

ثُمَّ ذكر أنَّ الرسلَ أجمعوا على أنَّ الله متكلِّمٌ، وأنه لم ينكره من أتباعهم رجلان، والمراد بقوله: «لَمْ يُنْكِرْهُ» يعني: لم يختلف فيه رجلان، وإنما قلنا ذلك لئلا يُقال: وأنكره رجل، لأنَّ نفي الاثنين لا يمنع، ولكنَّ مراده بقوله: «لَمْ يُنْكِرْهُ مِنْ أَتْبَاعِهِمْ رَجُلَانِ» أي: لم يختلف فيه رجلان، فكُلُّ أتباعِ الرسل مُجمِعون على أنَّ الله متكلِّم.

٦٦٧-فَكَلَامُهُ حَقًّا يَقُومُ بِهِ وَإِلَا لَا لَمْ يَكُنْ مُتَكَلِّمًا بِقُرَانِ

أي: كلام الله حقٌّ متعلِّقٌ بذاته قائم بذاته، ولو لم نقل: إنَّ كلامَه قائمٌ بذاته، لم يكن متكلِّمًا بالقرآن، وما صَحَّ أن نقول: إنَّ القرآنَ كلامُه، لأنَّ الذين يقولون: إنَّ كلامَه غيرُ قائمٍ به، يجعلون كلامَه إمَّا لجبريل أو مُحمَّد أو الهواء، فلا يجعلون الكلامَ كلامَ الله، وعلى رأيهم نقول: إنَّ القرآنَ ليس كلامَ الله عزَّ وجلَّ.

***

٦٦٨-وَاللهُ قَالَ وَقَائِلٌ وَكَذَا يَقُولُ الْحَقَّ لَيْسَ كَلَامُهُ بِالْفَانِي

٦٦٩-وَيُكَلِّمُ الثَّقَلَيْنِ يَوْمَ مَعَادِهِمْ حَقًّا فَيَسْمَعُ قَوْلَهُ الثَّقَلَانِ

٦٧٠-وَكَذَا يُكَلِّمُ حِزْبَهُ فِي جَنَّةِ الْـ حَيَوَانِ بِالتَّسْلِيمِ وَالرِّضْوَانِ

٦٧١-وَكَذَا يُكَلِّمُ رُسْلَهُ يَوْمَ اللِّقَا حَقًّا فَيَسْأَلُهُمْ عَنِ التِّبْيَانِ

٦٧٢-وَيُرَاجِعُ التَّكْلِيمَ جَلَّ جَلَالُهُ وَقْتَ الْجِدَالِ لَهُ مِنَ الإِنْسَانِ

٦٧٣-وَيُكَلِّمُ الْكُفَّارَ فِي الْعَرَصَاتِ تَوْ ... بِيخًا وَتَقْرِيعًا بِلَا غُفْرَانِ

٦٧٤-وَيُكَلِّمُ الْكُفَّارَ أَيْضًا فِي الْجَحِيـ ... ـمِ أَنِ ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا﴾ بِكُلِّ هَوَانِ

٦٧٥-وَاللهُ قَدْ نَادَى الْكَلِيمَ، وَقَبْلَهُ ... سَمِعَ النِّدَا فِي الْجَنَّةِ الأَبَوَانِ

٦٧٦-وَأَتَى النِّدَا فِي تِسْعِ آيَاتٍ لَهُ ... وَصْفًا فَرَاجِعْهَا مِنَ الْقُرْآنِ

٦٧٧-وَكَذَا يُكَلِّمُ جَبْرَئِيلَ بِأَمْرِهِ ... حَتَّى يُنَفِّذَهُ بِكُلِّ مَكَانِ

٦٧٨-وَاذْكُرْ حَدِيثًا فِي صَحِيحِ مُحَمَّدٍ ... ذَاكَ الْبُخَارِيِّ الْعَظِيمِ الشَّانِ

٦٧٩-فِيهِ نِدَاءُ اللهِ يَوْمَ مَعَادِنَا ... بِالصَّوْتِ يَبْلُغُ قَاصِيًا وَالدَّانِي

٦٨٠-هَبْ أَنَّ هَذَا اللَّفْظَ لَيْسَ بِثَابِتٍ ... بَلْ ذِكْرُهُ مَعْ حَذْفِهِ سِيَّانِ

٦٨١-وَرَوَاهُ عِنْدَكُمُ الْبُخَارِيُّ الْمُجَسِّـ ... ـمُ بَلْ رَوَاهُ مُجَسِّمٌ فَوْقَانِي

٦٨٢-أَيَصِحُّ فِي عَقْلٍ وَفِي نَقْلٍ نِدَا ... ءٌ لَيْسَ مَسْمُوعًا لَنَا بِأَذَانِ

٦٨٣-أَمْ أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ وَالْعُقَلَاءُ مِنْ ... أَهْلِ اللِّسَانِ وَأَهْلِ كُلِّ لِسَانِ

٦٨٤-أَنَّ النِّدَا الصَّوْتُ الرَّفِيعُ وَضِدُّهُ ... فَهُوَ النَّجَاءُ كِلَاهُمَا صَوْتَانِ

٦٨٥-وَاللهُ مَوْصُوفٌ بِذَاكَ حَقِيقَةً ... هَذَا الْحَدِيثُ وَمُحْكَمُ الْقُرْآنِ

الشرحُ

٦٦٨-وَاللهُ قَالَ وَقَائِلٌ وَكَذَا يَقُولُ ... الْحَقَّ لَيْسَ كَلَامُهُ بِالْفَانِي

قَوْلُهُ: «قَالَ» يشير إلى الزمن الماضي، يعني: أنه يتكلَّمُ في الزمن الماضي.

قَوْلُهُ: «قَائِلٌ» يعني: الزمن الحاضر.

قَوْلُهُ: «يَقُولُ» في الزمن المستقبل.

فالمؤلف -رحمه الله- أتى بالفعل والوصف، فالفعل: (قال) و(يقول) والوصف: (قَائِلٌ) فهو -سبحانه- فاعلٌ للقول موصوفٌ به.

قَوْلُهُ: «يَقُولُ الْحَقَّ لَيْسَ كَلَامُهُ بِالْفَانِي»، لأنه كما أنه لا أوَّلَ له يكون لا آخِرَ له، فالله عزَّ وجلَّ لم يزل ولا يزال متكلِّمًا، فالله لا يَفْنَى كلامُه، قال الله: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَـٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَـٰتُ رَبِّى﴾ [الكهف:١٠٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَـٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَـٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان:٢٧]، فلو جُمِعَ كُلُّ ما في الأرض من الأشجار وجُعل أقلامًا، وجُعل البحر ومن ورائه سبعةُ أبْحُر مِدادًا ما نَفِدت كلمات الله، فتتكسر الأقلام، وينفَد المِداد ولم تنفَد كلماتُ الله عزَّ وجلَّ لأنه لم يزل ولا يزال متكلمًا خالقًا بما يشاء.

وقد تقدَّم قولُ ابن القيم -رحمه الله- ما الذي جعله متكلِّمًا بعد أن كان لا يتكلَّم؟ وكذلك ما الذي جعله يشاء الكلام ويتكلَّم بعد أن لم يكن كذلك؟!

٦٦٩- وَيُكَلِّمُ الثَّقَلَيْنِ يَوْمَ مَعَادِهِمْ ... حَقًّا فَيَسْمَعُ قَوْلَهُ الثَّقَلَانِ

قَوْلُهُ: «الثقلان» يعني: الجنَّ والإنسَ، يكلِّمهم اللهُ عزَّ وجلَّ ويَسْمعه الثقلان، وقد ورَدَ ذلك في أحاديث.

٦٧٠- وَكَذَا يُكَلِّمُ حِزْبَهُ فِي جَنَّةِ الـ ... ـحَيَوَانِ بِالتَّسْلِيمِ وَالرِّضْوَانِ

يُكَلِّم عزَّ وجلَّ أهلَ الجنَّة، ويسألُهم كما في الحديث: «إِنَّ اللهَ يَقُولُ لأَهْلِ

الْـجَنَّةِ يَا أَهْلَ الْـجَنَّةِ. فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ. فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَـمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ!! فَيَقُولُ: أَنَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ. قَالُوا: يَا رَبَّنَا فَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ قَالَ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا»[1]. وهذا كلام صريحٌ.

٦٧١- وَكَـذَا يُكَلِّـمُ رُسْـلَهُ يَـوْمَ اللِّقَـا   حَقًّـا فَيَسْأَلُـهُمْ عَـنِ التِّبْيَـانِ

قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف:٦]، يسألُ الرسلَ حتى يقيمَ الحجَّةَ على الأمم، هل بيَّنتُم؟ هل بلَّغتُم؟ فيُجِيبون.

٦٧٢-وَيُرَاجِـعُ التَّكْلِـيمَ جَـلَّ جَلَالُـهُ   وَقْـتَ الْـجِدَالِ لَـهُ مِـنَ الإِنْسَـانِ

فإنَّ الله تعالى يخلو بعبده المؤمن، ويقرره بذنوبه حتى يُقِرَّ بها.

وابن القيم -رحمه الله- هنا لم يذكر الدليل على أنه -سبحانه وتعالى- يراجعُ التكليمَ عند الجدال، لكن لعلنا نذكره فيما بعد إن شاء الله.

٦٧٣-وَيُكَلِّـمُ الْكُفَّـارَ فِي الْعَرَصَـاتِ تَـوْ   بِيخًـا وَتَقْرِيعًـا بِـلَا غُفْـرَانِ

قَوْلُهُ: «يُكَلِّمُ الْكُفَّارَ» أي: يكلمهم عزَّ وجلَّ كما قال: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص:٦٢]، فيوبخهم، أين الشركاء الذين تزعمونهم مع الله؟ قال -سبحانه وتعالى-: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص:٦٥].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب كلام الرب مع أهل الجنة، برقم (٧٠٨٠)، ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب إحلال الرضوان على أهل الجنة، برقم (٢٨٢٩).

٦٧٤- وَيُكَلِّمُ الْكُفَّارَ أَيْضًا فِي الْجَحِيـ ... ـمِ أَنِ اخْسَؤُوا فِيهَا بِكُلِّ هَوَانِ

وذلك حينما يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ [المؤمنون:١٠٧]، فيقول اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون:١٠٨]، اخسئوا: أي ذِلُّوا، حيث يُلْقَى عليهم الهَوانُ والذُّل، والعياذ بالله.

٦٧٥- وَاللهُ قَدْ نَادَى الْكَلِيمَ، وَقَبْلَهُ ... سَمِعَ النِّدَا فِي الْجَنَّةِ الأَبَوَانِ

قَوْلُهُ: «قَدْ نَادَى الْكَلِيمَ» يعني: موسى -عليه السلام- قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾ [مريم:٥٢].

قَوْلُهُ: «وَكَذَلِكَ الأَبَوَانِ» أي: آدمُ وحَوَّاءُ، قال الله تعالى: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ [الأعراف:٢٢].

٦٧٦- وَأَتَى النِّدَا فِي تِسْعِ آيَاتٍ لَهُ ... وَصْفًا فَرَاجِعْهَا مِنَ الْقُرْآنِ

تسع مواضع كلُّها صرَّح الله فيها بالنداء في القرآن.

ابن القيم -رحمه الله- يقول: إنها تسع، وهي وإن كانت عندَ العَدِّ أحد عشر موضعًا، لكن لعلَّه -رحمه الله- يكتفي بمناداة موسى، وإن تعددت الآيات يجعلها واحدًا.

٦٧٧- وَكَذَا يُكَلِّمُ جَبْرَئِيلَ بِأَمْرِهِ ... حَتَّى يُنَفِّذَهُ بِكُلِّ مَكَانِ

يعني: أنَّ الله يناجي جِبْريل بأمره، فينفذه جبريلُ بكل مكان.

٦٧٨- وَاذْكُرْ حَدِيثًا في صَحِيحِ مُحَمَّدٍ ... ذَاكَ الْبُخَارِيِّ الْعَظِيمِ الشَّانِ

قَوْلُهُ: «محمد» يعني: ابن إسماعيل البخاري -رحمه الله- ووصَفَه المؤلف

بقوله: (ذَاكَ الْعَظِيمِ الشَّانِ) ويحتمل أنَّ هذا وصف للصحيح، فإن كان للصحيح فهو وصف للكتاب، وإذا كان الكتابُ عظيمَ الشان فالمؤلف كذلك، وإن كان الوصف للمؤلف بأنه عظيم الشان، فكذلك الكتاب، فهما متلازمان.

٦٧٩- فيـه نِـداءُ الله يَـوْمَ مَعَادِنا ... بالصَّوْتِ يَبْلُغُ قَاصيًا وَالدَّاني

وذلك أنَّ الله -تبارك وتعالى- يقول: «يَا آدَمُ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ. فَيُنَادِي بِصَوْتٍ: إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تُخْرِجَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعْثًا إِلَى النَّارِ. قَالَ: يَا رَبِّ وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَمِئة وَتِسْعةً وَتِسْعِينَ، فَحِينَئِذٍ تَضَعُ الْحَامِلُ حَمْلَهَا، وَيَشِيبُ الْوَلِيدُ، وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى، وَمَا هُمْ بِسُكَارَى، وَلَكِنَّ عَذَابَ الله شَدِيدٌ». والحديث أخرجه البخاري، ولهذا قال ابن القيم في النونية:

يَا سِلْعَةَ الرَّحْمَنِ لَيْسَ يَنَالُهَا ... بِالأَلْفِ إِلَّا وَاحِدٌ لَا اثْنَانِ

قَوْلُهُ: «يا سلعةَ الرَّحْمنِ» يعني: الجنة.

لما حَدَّث النَّبِيُّ -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- بهذا الحديثِ شَقَّ ذَلِكَ عَلَى النَّاسِ حَتَّى تَغَيَّرَتْ وُجُوهُهُمْ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ تِسْعَمِئة وَتِسْعةً وَتِسْعِينَ، وَمِنْكُمْ وَاحِدٌ، ثُمَّ أَنْتُمْ فِي النَّاسِ كَالشَّعْرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جَنْبِ الثَّوْرِ الأَبْيَضِ، أَوْ كَالشَّعْرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي جَنْبِ الثَّوْرِ الأَسْوَدِ، وَإِنِّي لأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ». فَكَبَّرْنَا، ثُمَّ قَالَ: «ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ». فَكَبَّرْنَا، ثُمَّ قَالَ: «شَطْرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ»[1].

والشاهد أنه ينادي بصوت.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب تفسير سورة الحج، برقم (٤٤٦٤).

٦٨٠- هَبْ أَنَّ هَـذَا اللَّفْـظَ لَـيْسَ بِثَابِـتٍ بَـلْ ذِكْـرُهُ مَـعْ حَذْفِـهِ سِـيَّانِ

قَوْلُهُ: «**هَذَا اللَّفْظَ**» يعني: لفظ (**بصوت**) الذين أنكروا أن يكون كلام الله بصوت قالوا: (**فينادي بصوت**) هذا غير ثابت، وأنَّ الثابت (**فينادي**) فقط، لأنَّ الذين يقولون: إنَّ الكلام هو المعنى القائم بالنفس، لا يقولون: بصوت، والذين يقولون: إنه خلقه، لا يقولون: بصوت، هم يَدَّعُون أنَّ الله ليس له صوت.

فابن القيم يقول: «**هَبْ أنه لَيْسَ بِثَابِتٍ بَلْ ذِكْرُهُ مَعْ حَذْفِهِ سِيَّانِ**» يعني: حتى وإن لم يثبت فالصوت معلوم من النداء.

وَقَوْلُهُ: «**هَبْ أَنَّ**» يقول: النحويون -وعلى رأسهم الحريري-: إنَّ هذا من لحن الفقهاء -أي: قولهم: هَبْ أَنَّ- وأن الصوابَ حذفُ (أَنَّ)، يعني: لا تقل: (**هَبْ أَنَّ زيدًا قائم**)، ولكن قل: (**هَبْ زيدًا قائمًا**)، لأنَّ (**هَبْ**) من أخوات (**ظَنَّ**).

لكن هذا مطَّردٌ عند الفقهاء، بل عند العلماء، (**هَبْ أنَّ هذا كذا**) لا ينكره أحد، وإذا قُدِّر أن هذا لا يصحُّ لغةً، فهو حقيقة عرفية في لغة العلماء.

٦٨١- وَرَوَاهُ عِنْدَكُمُ الْبُخَـارِيُّ الْـمُجَسْـ ـسِـمُ بَـلْ رَوَاهُ مُجَسِّـمٌ فَوْقَـانِي

قَوْلُهُ: «**مُجَسِّمٌ فَوْقَانِي**» المُجَسِّم الفَوقانِي هو أعلى طبقات السند، وهو الصحابي، فالصحابي عندهم مُجَسِّم، بل النَّبِيُّ ﷺ مُجَسِّم عندهم، لأنَّ النبيَّ ﷺ هو الذي حدَّث بهذا الحديث.

فهم يقولون: إذا أثبتنا أنَّ كلامَه بصوتٍ صار له جسم، فالبخاري مُجَسِّم.

نقول: لا، البخاري ليس وحْدَه مُجَسِّمًا، بل النَّبِيُّ -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- مُجَسِّمٌ، لأنه هو الذي قال ذلك.

والبخاري مُجَسِّمٌ، ولهذا يَصِفون أهلَ السُّنة بأنهم مُجَسِّمَةٌ حَشْوِيَّةٌ نوابِت والمُجَسِّم هو الذي يقول: إنَّ الله جِسْم، والحَشْويُّ الذي على الحواشي والأطراف، يعني: ليسوا من صُلْب الأمة، بل هم حواشي الأمة لا خير فيهم، والنوابت هي ما يَنْبُتُ في الزرع من الشجيرات التي تُرْمَى وليس فيها خير، ويسمونهم الغُثاء.

لكن هل يُمنع هذا؟ الذين كَذَّبوا الرسلَ قالوا للرسل: (**ساحر ومجنون**) قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات:٥٢]، ولم يضروا الرسلَ شيئًا.

٦٨٢- أَيَصِـحُّ فِي عَقْـلٍ وَفِي نَقْـلٍ نِـدَا ءُ لَـيْسَ مَسْـمُوعًا لَنَـا بِـأَذَانِ

الجواب: لا يَصِحُّ، لو فرضنا أننا حذفنا كلمة: (**بصوت**) وقلنا: (**فَيُنَادِي: إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ**) فهذا كافٍ في إثبات الصوت، وليس لازمًا.

٦٨٣- أَمْ أَجْمَـعَ الْعُلَـمَاءُ وَالْعُقَـلَاءُ مِـنْ أَهْـلِ اللِّسَـانِ وَأَهْـلِ كُـلِّ لِسَـانِ

يعني: لسان العربية، وأهل كل لسان غير العربية.

٦٨٤- أَنَّ النِّـدَا الصَّـوْتُ الرَّفِيـعُ وَضِـدُّهُ فَهْـوَ النَّجَـاءُ كِلَاهُمَـا صَـوْتَانِ

٦٨٥- وَاللهُ مَوْصُـوفٌ بِـذَاكَ حَقِيقَـةً هَـذَا الْـحَدِيثُ وَمُحْكَـمُ الْقُـرْآنِ

فقد وصف الله نفسه بذلك في آيةٍ واحدةٍ، وهي قوله تعالى: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ [مريم:٥٢]، هذا من البُعْد ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ [مريم:٥٢]، هذا من الدُّنُوِّ، وهل يُعقل نداءٌ بلا صوت؟ أو مُناجاةٌ بلا صوتٍ؟ الجواب: لا، لكنَّ النداءَ صوتٌ رفيعٌ، والمناجاة صوتٌ خَفِيٌّ، إذن ثبت أنَّ الله يتكلَّم بصوت.

* * *

٦٨٦-وَاذْكُرْ حَدِيثًا لابْنِ مَسْعُودٍ صَرِيـ ـحًا أَنَّـهُ ذُو أَحْـرُفٍ بِبَيَـانِ

٦٨٧-الْـحَرْفُ مِنْهُ فِي الْـجَزَا عَشْرٌ مِنَ الْـ ـحَسَنَاتِ مَا فِـيهِنَّ مِـنْ نُقْصَـانِ

٦٨٨-وَانْظُرْ إِلَى السُّوَر الَّتِي افْتُتِحَتْ بأَحـ ـرُفِهَا تَـرَى سِرًّا عَظِـيمَ الشَّـان

٦٨٩-لَـمْ يَـأْتِ قَـطُّ بِسُـورَةٍ إِلَّا أَتَـى فِي إِثْرِهَـا خَـبَرٌ عَـنِ الْقُـرْآنِ

٦٩٠- إِذْ كَـانَ إِخْبَـارًا بِـهِ عَنْهَـا، وَفِي هَـذَا الشِّـفَاءُ لِطَالِـبِ الإِيـمَانِ

٦٩١- وَيَـدُلُّ أَنَّ كَلَامَـهُ هُـوَ نَفْسُـهَا لَا غَيْرُهَـا وَالْـحَقُّ ذُو تِبْيَـانِ

٦٩٢- فَانْظُرْ إِلَى مَبْدَا الْكِتَابِ وَبَعْدَهَا الْـ أَعْـرَافُ، ثُـمَّ كَـذَا إِلَى لُقْـمَانِ

٦٩٣-مَعْ تِلْوِهَا أَيْضًـا وَمَـعْ ﴿حمٓ﴾ مَـعْ ﴿يسٓ﴾ وَافْهَـمْ مُقْتَضـى الفرقـان

الشرحُ

٦٨٦-وَاذْكُرْ حَدِيثًا لابْنِ مَسْعُودٍ صَرِيـ ـحًا أَنَّـهُ ذُو أَحْـرُفٍ بِبَيَـانِ

٦٨٧-الْـحَرْفُ مِنْهُ فِي الْـجَزَا عَشْرٌ مِنَ الْـ ـحَسَنَاتِ مَا فِـيهِنَّ مِـنْ نُقْصَـانِ

يقول -رحمه الله- في الاستدلال على أنَّ كلام الله بحرف: اذكر هذا الحديث الذي رواه ابن مسعود[1] أنَّ القرآنَ ذو أحرفٍ، للحرف منه في الجزاء عشر من الحسنات ما فيهن من نقصان، ووجه ذلك أنَّ الحسنةَ بعَشْرِ أمثالها، وهو حديث:

(١) ابن مسعود: هو عبد الله بن مسعود الـهُذَلِيّ، الصحابي الجليل، أسلم قديمًا، ولازم النبيَّ ﷺ، وكان صاحبَ نعليه وسواكِه، ومِن أشبه الناس به في هديه وسمته وكلامه، توفي في المدينة سنة (٣٢هـ)، وذكر في مختصر صفوة الصفوة أنَّ عمرَه ثلاثٌ وستون سنة. [الشارح]. وانظر: تقريب التهذيب (ص:٣٣٥).

«مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ الله فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالْـحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِـهَا، لَا أَقُولُ: ﴿الٓمٓ﴾ حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ، وَلامٌ حَرْفٌ وَمِيمٌ حَرْفٌ»(١)، وهذا صريح في أنَّ القرآن حروف.

٦٨٨- وَانْظُرْ إِلَى السُّوَرِ الَّتِي افْتُتِحَتْ بِأَحـ ـرُفِهَا تَـرَى سِرًّا عَظِـيمَ الشَّـانِ

يعني: انظر إلى السور التي افتُتحت بالأحرف الهجائية ترى سِرًّا عظيمَ الشان، وهذه الأحرف اختلف العلماء فيها على أقوال:

القول الأول: الله أعلم بها، ولا نقول شيئًا.

ومنهم من قال: إنها رموز وإشارات، إما إلى بقاء الأمة الإسلامية، أو إلى حروب، أو غير ذلك.

ومنهم من قال: إنها أسماء للسور التي ابتدأت بها.

ومنهم من قال: إنه لا معنى لها.

والفرق بين هذا القول والأول: أنَّ الأول مُتوقِّف، ويقول: **(الله أعلم بما أراد)**، وهذا يجزم بأنه ليس لها معنى، وهذا القولُ أَصَحُّ الأقوال.

وجه رجحانه: أنَّ القرآن الكريم نزل بلغة العرب كما قال الله تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٥]، وأنَّ العربَ لا يجعلون لهذه الحروف الهجائية معنًى، وعلى هذا فنجزم بأنه لا معنى لها في حدِّ ذاتها، لكن لها مغزى.

أما إذا قلنا: (الله أعلم بما أراد) فمعنى ذلك أنه يحتمل أنَّ لها معنًى، وهذا الاحتمال غير وارد ما دام القرآن باللغة العربية.

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء فيمن قرأ حرفًا من القرآن ما له من الأجر، برقم (٢٩١٠).

فإذا قال قائل: أيُّ فائدةٍ لنا بحروفٍ ليس لها معنى، والقرآنُ الكريم أعظمُ الكلام، فكيف يكون فيه ما ليس له معنى؟

الجواب: هنا يتبيَّن قولُ الناظم رحمه الله: (تَرَى سِرًّا عَظِيمَ الشَّانِ) يعني: أنَّ وجود هذه الحروف الهجائية له سِرٌّ عظيم، أشار إليه بقوله.

٦٨٩-لَمْ يَأْتِ قَطُّ بِسُورَةٍ إِلَّا أَتَى فِي إِثْرِهَا خَبَرٌ عَنِ الْقُرْآنِ

قَوْلُهُ: «لَمْ يَأْتِ قَطُّ بِسُورَةٍ» يعني: لم تأتِ هذه الحروف إِلَّا أتى في إثرها خبرٌ عن القرآن أي: ذكرٌ للقرآن.

ففي البقرة: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة:١-٢]، وفي آل عمران: ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ [آل عمران:١-٣]، وبعدها الأعراف: ﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف:١-٢]، بعد ذلك يونس، وهود، ويوسف، والرعد، وإبراهيم، والحِجْر، كلها يُذْكر بعدها الكتاب.

ثُمَّ في مريم وطه.

ففي مريم قوله تعالى: ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ [مريم:١-٣] هنا قد تقول: أين ذكر القرآن؟

نقول: ذكر القرآن هو بهذا الخبر الذي لا يُعْلَم إِلَّا بالوحي، فلا يعلم أحد قصص الأنبياء في عهد الرسول ﷺ إِلَّا عن طريق الوحي؟!

وفي طه: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ [طه:١-٢].

بعد ذلك (ذوات طس) ففي الشعراء: ﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ [الشعراء:١-٣]، وفي النمل: ﴿طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾

[مريم:١]، وفي القصص: ﴿طسٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ [القصص:١-٢].

وكذلك في العنكبوت: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾ [العنكبوت:١-٢]، فهذا خبر عما مضى لا يُعْلَمَ إِلَّا عن طريق الوحي.

ومثلها في الروم: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الروم:١-٣].

وكذلك لو قال قائل: في ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾ [العنكبوت:١-٢] وكذلك في أول سورة الروم: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الروم:١-٣] لم يأتِ فيها ذكر عن القرآن؟

نقول: نعم، فقوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾ [العنكبوت:٢]، صحيح أنه ليس فيه ذكر القرآن، لكن فيه ذكرُ أهل القرآن أنهم يصبرون على الأذى، ولهذا قال بعد ذلك: ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ [العنكبوت:٣].

أما قوله تعالى: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ ففيه خبرٌ عن أمرٍ غيبي، وهذا لا يكون إِلَّا عن طريق الوحي، والفُرس في ذلك الوقت كانت لهم الدولة والقوة والعزة، فقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَ﴾ [الروم:٣-٤]، وهذا لا يُعْلَم إِلَّا عن طريق الوحي.

وفي لقمان: ﴿الٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [لقمان:١-٢]، وفي تنزيل السجدة: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [السجدة:١-٢] وهلمَّ جرًّا.

إِذَنْ هذا السر هو أنَّ هذا الكلام الذي أعجز العرب -وهم أمراء الفصاحة- والبلغاء إنما جاء بهذه الحروف، لم يأتِ بحروف جديدة، لئلا يقولوا: نحن -والله- لا نعرف الحروف التي جيء بها، بل جاء بهذه الحروف.

قال الناظم -رحمه الله-:

٦٩٠- إِذْ كَانَ إِخْبَارًا بِهِ عَنْهَا، وَفِي ... هَذَا الشِّفَاءُ لِطَالِبِ الإِيمَانِ

٦٩١- وَيَدُلُّ أَنَّ كَلَامَهُ هُوَ نَفْسُهَا ... لَا غَيْرُهَا وَالْحَقُّ ذُو تِبْيَانِ

هذا هو السر العظيم الذي يجهله كثيرٌ من الناس.

٦٩٢- فَانْظُرْ إِلَى مَبْدَا الْكِتَابِ وَبَعْدَهَا الْـ ... أَعْرَافُ، ثُمَّ كَذَا إِلَى لُقْمَانِ

٦٩٣- مَعْ تِلْوِهَا أَيْضًا وَمَعْ ﴿حمٓ﴾ مَعْ ... ﴿يسٓ﴾ وَافْهَمْ مُقْتَضَى الفرقان

قَوْلُهُ: «مَبْدَا الْكِتَابِ» أي: (البقرة).

وَقَوْلُهُ: «بَعْدَهَا الأَعْرَافِ» يعني: انظر إلى الأعرافِ، وليس المعنى أنَّ (الأعراف) بعد البقرة، لأنَّ بينهما (آل عمران).

فالمؤلف ترك بعضًا مثل (آل عمران) إلَّا أن يُقال: إنَّ (آلَ عمران) مثل (البقرة) مبدوءة بـ (الم)، لكن الظاهر أنه -رحمه الله- ما أراد الاستقصاء، فهناك أيضًا في (ق)، و(ص)، و(ن).

إِذَنْ المؤلف -رحمه الله- ما أراد الحصر، إنما أتى بشيء للتمثيل فقط، لكن المعنى: إذا نظرت إلى هذه فانظر إلى هذه.

قَوْلُهُ: «إِلَى لُقْمَان مَعْ تِلْوِهَا أَيْضًا» وهي تنزيل السجدة.

قَوْلُهُ: «وَمَعْ ﴿حمٓ﴾ مَعْ ﴿يسٓ﴾» والمراد بـ (حم) الجنس، فيشمل كل ذوات (حم). وقوله: «مَعْ ﴿يسٓ﴾» أي: ففيها أيضًا.

* * *

فصـــل

فِي إِلْزَامِهِمُ الْقَوْلَ بِنَفْيِ الرِّسَالَةِ إِذَا انْتَفَتْ صِفَةُ الْكَلامِ

٦٩٤- وَاللهُ عَــزَّ وجَــلَّ مُــوصٍ آمِــرٌ ... نَــاهٍ مُنَــبٍّ مُرْسِــلٌ لِبَيَــانِ

٦٩٥- وَمُخَاطِــبٌ وَمُحَاسِــبٌ وَمُنَبِّــئٌ ... وَمُحَــدِّثٌ وَمُخَــبِّرٌ بالشَّــانِ

٦٩٦- وَمُكَلِّــمٌ مُــتَكَلِّمٌ بَــلْ قَائِــلٌ ... وَمُحَــذِّرٌ وَمُبَشِّــرٌ بِأَمَــانِ

٦٩٧- هَـادٍ يَقُـولُ الْـحَقَّ يُرْشِـدُ خَلْقَـهُ ... بِكَلامِــهِ لِلْحَــقِّ وَالإِيــمَانِ

٦٩٨- فَإِذَا انْتَفَتْ صِفَةُ الْكَلامِ فَكُلُّ هَـ ... ــذَا مُنْتَـفٍ مُتَحَقِّــقُ الْـبُطْلَانِ

٦٩٩- وَإِذَا انْتَفَتْ صفَةُ الْكَلام كَذَلكَ الْـ ... إِرْسَــالُ مَنْفِــيٌّ بِــلا فُرْقَــان

٧٠٠- فَرِسَــالَةُ الْــمَبْعُوثِ تَبْلِيــغٌ كَــلا ... مَ الْــمُرْسِلِ الــدَّاعِي بِـلا نُقْصَـانِ

٧٠١- وَحَقِيقَــةُ الإِرْسَـالِ نَفْـسُ خِطَابِـهِ ... لِلْمُرْسَــلِينَ وَأَنَّــهُ نَوْعَــانِ

٧٠٢- نَــوْعٌ بغَــيْرِ وَسَــاطَةٍ كَكَلامِــهِ ... مُوسَــى وَجِبْرِيـلَ الْقَرِيـبِ الـدَّانِي

٧٠٣- مِنْــهُ إِلَيْــهِ مِــنْ وَرَاءِ حِجَابِــهِ ... إِذْ لا تَــرَاهُ هَــا هُنَــا الْعَيْنَــانِ

٧٠٤- وَالآخَــرُ التَّكْلِــيمُ مِنْــهُ بِالْوَسَــا ... طَـةِ، وَهْـوَ أَيْضًـا عِنْـدَهُ ضَرْبَـانِ

٧٠٥- وَحْيٌ وَإِرْسَـالٌ إِلَيْـهِ وَذَاكَ فِي الشْــ ... شُــورَى أَتَــى فِي أَحْسَــنِ التِّبْيَـانِ

الشرحُ

٦٩٤- وَاللهُ عـزَّ وجـلَّ مُـوصٍ آمِـرٌ ... نَـاهٍ مُنَـبٌّ مُرْسِـلٌ لِبَيَـانِ

٦٩٥- وَمُخَاطِـبٌ وَمُحَاسِـبٌ وَمُنَبِّـئٌ ... وَمُحَـدِّثٌ وَمُخَـبِّرٌ بالشَّـانِ

٦٩٦-وَمُكَلِّـمٌ مُـتكَلِّمٌ بَـلْ قَائِـلٌ ... وَمُحَـذِّرٌ وَمُبَشِّـرٌ بِأَمَـانِ

قَوْلُهُ: «وَاللهُ عزَّ وجلَّ مُوصٍ» ففي القرآن قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾ [الأنعام:١٥١].

قَوْلُهُ: «آمِرٌ» والأوامر في القرآن كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة:٤٣].

قَوْلُهُ: «نَاهٍ» أيضا النواهي كثيرة، ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ﴾ [النساء:٣٦].

قَوْلُهُ: «مُنَبٌّ» أي: مُخبِر من نَبَّأه إذا أخبره، وأخبار القرآن كثيرة، وفي نسخة (مُثيب) يعني: أنَّ مَن امتثل أمرَه أثابَه، ولكن (مثيب) لا علاقة لها بالكلام، ففي الواقع الذي يتعلَّق بالكلام هو الإنباء.

وَقَوْلُهُ: «مُنَبٌّ» مثل قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [النبأ:١-٢] وقوله: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ﴾ [ص:٦٧].

قَوْلُهُ: «مُرْسِلٌ» الدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [البقرة:١١٩].

قَوْلُهُ: «وَمُخَاطِبٌ» (مُخَاطِب) ليست في القرآن بلفظها، لكن بمعناها، فهو يَتكلَّم مع موسى، يقول تعالى: ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ۝١٩ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ۝٢٠ قَالَ خُذْهَا﴾ [طه:١٩-٢١] وهذا خطاب.

قَوْلُهُ: «وَمُحَاسِبٌ» (محاسب) هذه -عندي- محل إشكال، لأنَّ المحاسبة ليست في القرآن، يعني: أنه يحاسب الناس في القرآن، لكن قد يقول قائل: المُحاسَبة وإن كانت في الآخرة فهي قول، قال الله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾ [البقرة:٢٨٤].

قَوْلُهُ: «وَمُنَبِّئٌ» حينئذٍ يكون كلام المؤلف فيه تكرار على النسخة التي عندي، لأنَّ (مُنَبٍّ) هي (مُنَبِّئٌ) ولا فرق.

أما على النسخة التي عندنا (مُنَبٍّ) فيكون الفرق بين (مُنْبِئ، ومُنَبٍّ) أنَّ (مُنْبِئ) من أنبأ، و(مُنَبٍّ) من نَبَّأَ، وهما في اللغة العربية معناهما واحد، ولا مانع أن الإنسان يُكَرِّر اللفظةَ إذا اختلف اللفظ، أرأيتم قولَ الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ [الطارق:١٧] هما كلمتان معناهما واحد لكن اختلفا في الحروف.

قَوْلُهُ: «مُحَدِّثٌ» قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء:٨٧] فهو مُحَدِّث، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ﴾ [الطور:٣٤]، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ﴾ [الأنبياء:٢].

لكن من أين أخذنا أنه مُحَدِّث من الآية؟ الجواب: مُحَدِّث مأخوذ من قوله: ﴿مُّحْدَثٍ﴾ أي: جديد، فهذا الذكر إنْ كان مُحْدَثا فقد قاله وحَدَّث به.

قَوْلُهُ: «وَمُخَبِّرٌ بِالشَّانِ» هو أيضا مُخَبِّر ومُخْبِر، لأنَّ جميع الجمل الخبرية تعتبر خبرًا من الله -تبارك وتعالى- مثل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الحج:٥].

قَوْلُهُ: «وَمُكَلِّمٌ مُتَكَلِّمٌ» مُكَلِّم قال الله تعالى بالنسبة لموسى -عليه السلام-: ﴿وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ [الأعراف:١٤٣]، وقال: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء:١٦٤].

والغريب أن الذين ينكرون الكلام يقولون: معنى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ﴾ أي: جَرَحه بمعنى الجَرْح، أي: جَرَحه بمخالب الحكمة.

سبحان الله! وهذا لا شك أنه قولٌ على الله بلا علم، وليس بلائقٍ إطلاقا.

قَوْلُهُ: «مُتَكَلِّم» أيضا هو متكلِّم عمومًا، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢].

قَوْلُهُ: «بَلْ قَائِلٌ» قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ [الفتح:١٥]، ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠]، والآيات في هذا كثيرة.

قَوْلُهُ: «وَمُحَذِّرٌ» قال الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران:٢٨].

قَوْلُهُ: «وَمُبَشِّرٌ» قال الله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات:١٠١]، (وعليم) أيضًا.

قَوْلُهُ: «بِأَمَانٍ» أي: مُؤَمِّن لِمَن بَشَّره.

فإن قال قائل: وهل يجوز أن نُسمِّيَ شخصًا بـ(عبد المُخَبِّر) أو (عبد المبَشِّر) إلى آخر ذلك من هذه الأوصاف السابقة التي يُوصف الله بها؟

الجواب: الظاهر أنَّ هذا للأسماء فقط، إلَّا الوصف الذي لا يُوصف به سوى الله - عزّ وجلَّ- فيجوز كـ(رَبِّ العالمين)، و(أرحم الراحمين)، وما أشبه ذلك.

٦٩٧- هَادٍ يَقُولُ الْحَقَّ يُرْشِدُ خَلْقَهُ بِكَلامِهِ لِلْحَقِّ وَالإِيمَانِ

قَوْلُهُ: «هَادٍ يَقُولُ الْحَقَّ يُرْشِدُ خَلْقَهُ» هادٍ، لقول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة:٢١٣].

قَوْلُهُ: «يَقُولُ الْـحَقَّ» كقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ﴾ [سبأ:٢٣] أي قالوا: قال الحقَّ.

قَوْلُهُ: «يُرْشِدُ خَلْقَهُ» لقوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟﴾ [النساء:١٧٦]، وضد الضلال الرُّشْد.

قَوْلُهُ: «بِكَلامِهِ لِلْحَقِّ وَالإِيمَانِ» يعني: أنه عزَّ وجلَّ يُرشِد الخلقَ بكلامه، فيقول: افعلوا كذا، لا تفعلوا كذا.

٦٩٨- فَإِذَا انْتَفَتْ صِفَةُ الْكَلامِ فَكُلُّ هَـــذَا مُنْتَفٍ مُتَحَقِّقُ الْـبُطْلَانِ

يعني: إذا لم يكن يتكلَّم فليس بمُحَدِّث، ولا مُخْبِر ولا مرشد... إلخ، كل هذا ينتفي عن الله عزَّ وجلَّ.

يقول -رحمه الله تعالى-: إذا انتفت صفة الكلام انتفى الوحي والرسالة، لأنَّ الوحي خبرٌ وإرسال ووصية وغير ذلك، فهذه كُلُّها تنتفي إذا انتفت صفة الكلام، ووجه ذلك: كيف يكون مخبرًا؟ كيف يكون آمرًا ناهيًا بلا كلام؟! هذا لا يمكن.

كذلك أيضا إذا انتفت صفة الكلام انتفت صفة الرسالة، لأنَّ الرسول يُبَلِّغُ كلامَ مَنْ أرسله، فيقول: قال ربكم، قال الله، فإذا انتفت صفة الكلام انتفت الرسالة.

٦٩٩- وَإِذَا انْتَفَتْ صفَةُ الْكَلامِ كَذَلِكَ الْـــإِرْسَــالُ مَنْفِـــيٌّ بِـــلا فُرْقَـــان

يعني: ينتفي أيضا إرسال الرسل، لأنَّ إرسالَ الرسل لا بدَّ أن يكونَ بوحي، والوحي لا يكونُ إِلَّا كلامًا.

٧٠٠- فَرِسَالَةُ الْـمَبْعُوثِ تَبْلِيغُ كَلا ... مَ الْـمُرْسِلِ الدَّاعِي بِلا نُقْصَانِ

هذه هي الرسالة: أن يُبَلِّغَ كلام الذي أرسله بلا نقصان، يعني: وبلا زيادة.

٧٠١- وَحَقِيقَةُ الإِرْسَالِ نَفْسُ خِطَابِهِ ... لِلْمُرْسَلِينَ وَأَنَّـهُ نَوْعَانِ

نعم، حقيقة الإرسال أنه يخاطبُ المرسَلين، ويقول: بَلِّغوا كذا وكذا، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة:٦٧]، لكن يقول: إنه نوعان:

٧٠٢- نَوْعٌ بغَيْرِ وَسَاطَةٍ كَكَلامِهِ ... مُوسَى وَجِبْرِيلَ الْقَرِيبِ الدَّانِي

هذا مثال، والمثال لا يقتضي الحصر، يكون بلا واسطة ككلامه موسى، قال الله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء:١٦٤]، وقال: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾ [مريم:٥٢]، وكذلك أيضا كلام الله تعالى لمحمد -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- ليلةَ المِعْراج، فإنَّ الله كلَّمه بلا واسطة، وفرض عليه الصلوات خمسين صلاة بلا واسطة، وحصلت المراجعةُ بينه وبين الله عزَّ وجلَّ بلا واسطة.

٧٠٣- مِنْهُ إِلَيْهِ مِنْ وَرَاءِ حِجَابِهِ ... إِذْ لا تَرَاهُ هَا هُنَا الْعَيْنَانِ

يعني أنَّ الله -سبحانه وتعالى- يكلِّمهم من وراء حجاب بلا واسطة، يسمعون كلامَه لكن «حِجَابُهُ النُّورُ، لَوْ كَشَفَهُ لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ[1] مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»[2]. أي: أحرقت كُلَّ شيء، لأنَّ بصرَه محيطٌ بكُلِّ شيء،

---

(١) أي: نُوره وَجَلاله وَبَهَاؤُهُ. انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (١/ ٣١٩).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب في قوله عليه الصلاة والسلام: «إن الله لا ينام» وفي قوله: «حجابه النور»، برقم (١٧٩).

فالمعنى أنها أحرقتْ كُلَّ شيء، وليس المعنى أنَّ هناك شيئًا لا ينتهي إليه بصرُ الله، لأننا نعلم علم اليقين أنَّ بصرَ الله محيط بكُلِّ شيء، فهذا من باب المبالغة.

قَوْلُهُ: «إِذْ لا تَرَاهُ هَا هُنَا الْعَيْنَانِ» إشارة إلى الدنيا يعني أنَّه في الدنيا لا يراه الناس، وأما في الآخرة فإنهم يرون الله، كما في الحديث: قَالَ أُنَاسٌ: يَا رَسُولَ الله، هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَقَالَ: «هَلْ تُضَارُّونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟». قَالُوا: لا يَا رَسُولَ الله. قَالَ: «هَلْ تُضَارُّونَ فِي الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَيْسَ دُونَهُ سَحَابٌ؟». قَالُوا: لا يَا رَسُولَ الله. قَالَ: «فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ»[1].

٧٠٤- وَالآخَرُ التَّكْلِيمُ مِنْهُ بِالْوَسَا طَةِ، وَهْوَ أَيْضًا عِنْدَهُ ضَرْبَانِ

٧٠٥- وَحْيٌ وَإِرْسَالٌ إِلَيْهِ وَذَاكَ فِي الشْـ ـشُورَى أَتَى فِي أَحْسَنِ التِّبْيَانِ

الآخر التكليم بواسطة، وهو نوعان: وحي، وإرسال، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ﴾ [الشورى:٥١].

قَوْلُهُ: «وَحْيٌ» أي: يُلْهَمُ الوحيَ بواسطة الرسول.

قَوْلُهُ: «وَإِرْسَالٌ» الإرسال: يأتيه الرسول الذي هو المَلَك يأتيه مباشرة، فأحيانًا يأتيه الملك على صورة إنسان أو على الصورة التي خُلِق عليها، فجبريل -عليه السلام- أتى النبيَّ ﷺ على الصورة التي خُلق عليها مرتين: مرة وهو في غار حراء، ومرة وهو عند سدرة المنتهى، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب الصراط جسر جهنم، برقم (٦٢٠٤).

عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ﴾ [النجم:١٣-١٤]، فصارت أنواع الوحي الآن ثلاثة:

الأول: وحي بلا واسطة.

الثاني: وحي بواسطة لكن بواسطة الرسول من غير أن يرى الرسول.

الثالث: أن يرى الرسول يتمثَّل له ويخاطبه على صفة البشر.

وعلى كُلٍّ فكلها كلام الله سواء أكان بلا واسطة أم كان بواسطة.

***

فصل

فِي إِلْزَامِهِمُ التَّشْبِيهَ لِلرَّبِّ بِالجَمَادِ النَّاقِصِ إِذَا انْتَفَتْ صِفَةُ الكَلَامِ

٧٠٦- فَإِذَا انْتَفَتْ صِفَةُ الْكَلامِ فَضِدُّهَا ... خَرَسٌ وَذَلِكَ غَايَةُ النُّقْصَانِ

٧٠٧- فَلَئِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّ ذَلِكَ فِي الَّذِي ... هُوَ قَابِلٌ مِنْ أُمَّةِ الْحَيَوَانِ

٧٠٨- وَالرَّبُّ لَيْسَ بِقَابِلٍ صِفَةَ الْكَلا ... مِ فَنَفْيُهَا مَا فِيهِ مِنْ نُقْصَانِ

٧٠٩- فَيُقَالُ: سَلْبُ كَلامِهِ وَقَبُولُهُ ... صِفَةَ الْكَلامِ أَتَمُّ لِلنُّقْصَانِ

٧١٠- إِذْ أَخْرَسُ الإِنْسَانِ أَكْمَلُ حَالَةً ... مِنْ ذَا الْجَمَادِ بِأَوْضَحِ الْبُرْهَانِ

٧١١- فَجَحَدْتَ أَوْصَافَ الْكَمَالِ مَخَافَةَ التْـ ... ـتَجْسِيمِ وَالتَّشْبِيهِ بِالإِنْسَانِ

٧١٢- وَوَقَعْتَ فِي تَشْبِيهِهِ بِالْجَامِدَا ... تِ النَّاقِصَاتِ، وَذَا مِنَ الْخِذْلانِ

٧١٣- اللهُ أَكْبَرُ هُتِّكَتْ أَسْتَارُكُمْ ... حَتَّى غَدَوْتُمْ ضُحْكَةَ الصِّبْيَانِ

الشرحُ

يقول -رحمه الله-:

٧٠٦- فَإِذَا انْتَفَتْ صِفَةُ الْكَلامِ فَضِدُّهَا ... خَرَسٌ وَذَلِكَ غَايَةُ النُّقْصَانِ

قَوْلُهُ: «ذَلِكَ» أي: الخرس غاية النقصان.

٧٠٧- فَلَـئِنْ زَعَمْـتُمْ أَنَّ ذَلِـكَ فِي الَّـذِي هُـوَ قَابِـلٌ مِـنْ أُمَّـةِ الْـحَيَوَانِ

قَوْلُهُ: «هُوَ قَابِلٌ مِنْ أُمَّةِ الْـحَيَوَانِ» أي: قابل للكلام من بني الإنسان.

٧٠٨- وَالـرَّبُّ لَـيْسَ بِقَابِـلٍ صِـفَةَ الْكَـلا مِ فَنَفْيُهَـا مَـا فِيـهِ مِـنْ نُقْصَـانِ

يعني: نفي الكلام عن الله ليس فيه نقص، لأنه أصلًا لا يقبل الكلام، فلو قلت: (الجدار لا يتكلَّم) فلا نقص، لأنه غيرُ قابلٍ للكلام.

٧٠٩- فَيُقَـالُ: سَـلْبُ كَلامِـهِ وَقَبُولُـهُ صِـفَةَ الْكَـلامِ أَتَـمُّ لِلنُّقْصَـانِ

قَوْلُهُ: «لِلنُّقْصَانِ» أي: أشد نقصانًا، يعني: كونه يقول مثلًا: إنه لا يتكلَّم، لأنه غيرُ قابل للكلام، هذا أشدُّ من أن نقول: إنه لا يتكلَّم، لأنه أُصيب بالخَرَس، إذ إنَّ من المعلوم أنَّ الإنسان خيرٌ من الجماد.

فمثلا الرجل الأعمى أكمل من الجدار، لأنه قابل للبصر، والجدار غير قابل للبصر، وما يقبل الكمالَ أكملُ من الذي لا يقبل الكمالَ، لا شكَّ، فكُلُّ واحد يعرف، ثُمَّ ضَرَب مثلا فقال:

٧١٠- إِذْ أَخْـرَسُ الإِنْسَـانِ أَكْمَـلُ حَالَـةً مِـنْ ذَا الْـجَمَادِ بِأَوْضَـحِ الْبُرْهَـانِ

الإنسانُ الأخرسُ أكملُ حالًا من الجماد الذي لا يقبلُ الكلام، لأنَّ الإنسانَ الأخرسَ قابلٌ للكلام، وهو صفة كمال، والجماد ليس بقابلٍ أصلًا مهما قُلْتَ، فلا يمكن أن يقبل.

٧١١- فَجَحَدْتَ أَوْصَافَ الْكَمَالِ مَخَافَةَ التْـ ـــتَجْسِيمِ وَالتَّشْـــبِيهِ بِالإِنْسَـــانِ

٧١٢- وَوَقَعْـــتَ فِي تَشْـــبِيهِهِ بِالْـــجَامِدَا تِ النَّاقِصَاتِ، وَذَا مِـنَ الْـخِذْلانِ

صدق -رحمه الله تعالى- هم يقولون: ننفي صفةَ الكلام عن الله، لأنه غيرُ قابل للكلام، فلا يكون نفيُ الكلام عنه نقصًا كما لو نفينا الكلامَ عن الجدار مثلًا.

فيقال: قولكم: (**إنه لا يقبل الكلام**) أشدُّ نقصًا من قولكم: (**إنه يقبل الكلام ولكنه لا يتكلَّم**) بلا شك.

يقول: أنت الآن نفيتَ صفة الكلام مخافةَ أن تُشبِّهُ بالإنسان، ووقعت بتشبيهه بالجماد.

وأيهما أولى أن يُشَبَّه الشيءُ بالإنسان أو يُشَبَّه الشيءُ بالجماد؟ الجواب: بالإنسان، لا شكَّ في هذا، ولهذا يقال: (فلان حجر) فهذا نقص، يعني: صُلْبًا لا يلين أبدًا، فلا يُشَبَّه بالجماد إِلَّا من هو أنقص ممن يُشبَّه بالإنسان.

٧١٣- اللهُ أَكْـــبَرُ هُتِّكَـــتْ أَسْـــتَارُكُمْ حَتَّـى غَـدَوْتُمْ ضُـحْكَةَ الصِّـبْيَانِ

قَوْلُهُ: «**هُتِّكَتْ أَسْتَارُكُمْ**» هَتْكُ الشيء يعني تمزيقَه، والمعنى أنَّ ما كنتم تتسترون به الآن قد انكشف وبان، فقد هتك الله أستارهم حتى صاروا ضحكةً للناس، وعلى هذا فنقول: إذا انتفت صفة الكلام عن الله عزَّ وجلَّ انتفت صفة الكمال.

خلاصة هذا الفصل: أنه إذا انتفت صفة الكلام لله عزَّ وجلَّ لزم أن يكون مشابهًا للجماد الناقص، فالخَرَس نقصٌ، وليس كمالًا.

يقولون: نحن ننفي صفة الكلام ولا يكون نقصًا، لأنَّ كون نفي الكلام نقصًا فيما إذا كان يقبل الكلام، والرَّبُّ عندهم لا يقبل الكلام، ولذلك لو قلت للجدار: (إنه أخرس) ما ضَرَّه، فيقال: إنكم وقعتم في شرٍّ مما فررتم منه، لأنه إذا كان لا يقبل الكلامَ صار مشابهًا للجماد الذي لا يتكلَّم، فوقعتم في شرٍّ مما فررتم منه.

* * *

فصـــل

فِي إِلْزَامِهِم بِالْقَولِ بِأَنَّ كَلامَ الخَلْقِ ـ حَقُّهُ وَبَاطِلُهُ ـ عَيْنُ كَلامِ اللهِ ـ سُبْحَانَه ـ

٧١٤- أَوَلَـيْسَ قَـدْ قَـامَ الـدَّلِيلُ بِـأَنَّ أَفْـ ... ـعَالَ الْعِبَـادِ خَلِيقَـةُ الـرَّحْمَنِ

٧١٥- مِنْ أَلْفِ وَجْهٍ أَوْ قَرِيبِ الأَلْفِ يُحْـ ... ـصِيهَا الَّـذِي يُعْنَـى بِهَـذَا الشَّـانِ

٧١٦- فَيَكُونُ كُلُّ كَلامٍ هَذَا الْـخَلْقِ عَيْـ ... ـنَ كَلامِهِ، سُبْحَانَ ذِي السُّـلْطَانِ!

٧١٧- إِذْ كَـانَ مَنْسُـوبًا إِلَيْـهِ كَلامُـهُ ... خَلْقًـا كَبَيْـتِ الله ذِي الأَرْكَـانِ

٧١٨- هَـذَا وَلازِمُ قَـوْلِكُمْ قَـدْ قَالَـهُ ... ذُو الاتِّحَـادِ مُصَـرِّحًا بِبَيَـانِ

٧١٩- حَـذَرَ التَّنَـاقُضِ إِذْ تَنَاقَضْـتُمْ وَلَـ ... ـكِنْ طَـرْدُهُ فِي غَايَـةِ الْكُفْـرَانِ

٧٢٠- فَلَـئِنْ زَعَمْـتُمْ أَنَّ تَخْصِـيصَ الْقُـرَا ... نِ كَبَيْتِـهِ وَكِلاهُمَـا خَلْقَـانِ

٧٢١- فَيُقَالُ ذَا التَّخْصِيصُ لا يَنْفِي الْعُمُو ... مَ ولا الخصوصَ كَرَبِّ ذِي الأَكْـوَانِ

٧٢٢- وَيُقَـالُ رَبُّ الْعَـرْشِ أَيْضًـا هَكَـذَا ... تَخْصِيصُـهُ لإِضَـافَةِ الْقُـرْآنِ

٧٢٣- لا يَمْنَـعُ التَّعْمِـيمَ فِي الْبَـاقِي وَذَا ... فِي غَايَـةِ الإِيضَـاحِ وَالتِّبْيَـانِ

الشـرحُ

يقول: هذا إلزام، لـمَّا ألزمناهم فيما سبق بأنَّ نفيَ الكلامِ يتضمنُ نفيَ الرسالة، وبأنَّ نفيَ الكلامِ يتضمن النقصَ، ألزمناهم بإلزام ثالث بأنَّ نفي الكلام يتضمن أن

يكونَ كلامُ الناس كلِّهم بل كلامُ الخلق كُلِّهم حتى نُباح الكلاب، ونَهيق الحمير، كلامَ الله، وهذا لازمٌ فاسد، لأنهم إذا قالوا: إنَّ كلامَه مخلوق، نقول: وكلامُ المخلوقات مخلوق، وإذا كان الكلام المخلوق يضاف إلى الله لزم أن يكون كلام المخلوقات كلامًا لله، لأنكم أنتم تقولون: يُضاف الكلامُ إلى الله وإن كان مخلوقًا له.

إِذَنْ كلام البشر، وكلام الطير، وكلام الحمير، وكلام الكلاب، كله كلام الله على زعمكم، لأنه مخلوق لله.

فهم إذا قالوا: إنَّ كلامَ الله عزَّ وجلَّ مخلوق وليس صفةً له. لَزِم أن نقول: كُلُّ كلام في الوجود فهو كلام الله، لأنَّ كُلَّ كلام في الوجود فهو مخلوق لله.

فإذا قلتم: القرآن مخلوق. لَزِم أن نقول: كُلُّ ما خلقه الله فهو كلامُه، وكلام الآدمي مخلوق، فيكون -على قاعدتهم- كلامًا لله عزَّ وجلَّ.

يقول المؤلف -رحمه الله-:

٧١٤- أَوَلَـيْسَ قَـدْ قَـامَ الـدَّلِيلُ بِـأَنَّ أَفْـ ـــعَالَ الْعِبَــادِ خَلِيقَــةُ الـــرَّحْمَنِ

قَوْلُهُ: «**خَلِيقَةُ**» بمعنى: مخلوقة، قد قام الدليل على أنَّ أفعال العباد مخلوقة لله، وهل هو دليل واحد؟ قال المؤلف:

٧١٥- مِنْ أَلْفِ وَجْهٍ أَوْ قَرِيبِ الأَلْفِ يُحْـ ـــصِيهَا الَّـذِي يُعْنَـى بِهَـذَا الشَّــانِ

الله أكبر، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، ألف دليل على أنَّ أفعالَ العباد مخلوقة لله، لو أردنا أن نقرأها فقط لمللنا من ذلك، لكن مِثْل ابن القيم -رحمه الله- وشيخه ابن تيمية قد وهبهما الله عزَّ وجلَّ الفَهْمَ التامَّ والعلمَ والإخلاصَ، فيستطيعون أن يقيموا ألفَ دليلٍ أو قريبًا من الألفِ على أنَّ أفعالَ العباد مخلوقة.

لكننا نقول بكُلِّ بساطة، قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [الرعد:١٦]، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الصافات:٩٦]، يكفينا دليلًا، فقد قام الدليل على هذا.

قَوْلُهُ: «الَّذِي يُعْنَى بِهَذَا الشَّانِ» أي: يقضي به ويلتمس الأدلة النقلية والعقلية من الكتاب والسنة والعقل والحسِّ، فهذا هو الذي يحصيها.

٧١٦- فَيَكُونُ كُلُّ كَلامِ هَذَا الْـخَلْقِ عَيْـ ... ـنَ كَلامِهِ، سُبْحَانَ ذِي السُّـلْطَانِ!

إذا قلتم: إنَّ كلام الله مخلوق، قلنا: وكلامُ الآدمي مخلوقٌ لله عزَّ وجلَّ فيكون عينَ كلامِ الله، فيكون كلامي وكلامُ فلان، وفلان، وفلان هو كلام الله عزَّ وجلَّ لأنه مخلوق، والقرآن كلام الله، لأنه مخلوق.

٧١٧- إِذْ كَـانَ مَنْسُـوبًا إِلَيْـهِ كَلامُـهُ ... خَلْقًـا كَبَيْـتِ الله ذِي الأَرْكَـانِ

يعني: أنَّ كلامَ الله منسوبٌ إلى الله خلقًا لا وصفًا كالبيت ذي الأركان، ويعني بذلك الكعبةَ، قال الله عزَّ وجلَّ لإبراهيمَ وابنه إسماعيل: ﴿أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ﴾ [البقرة:١٢٥].

إِذَنْ كلام الله -على رأيهم- ليس منسوبًا إلى الله وصفًا، بل هو منسوبٌ إلى الله خلقًا، أما كلام الآدميين فمنسوب إلى الله خلقًا، فيكون كلامَه.

قوله: «سبحان ذي السلطان إذ كان منسوبا إليه كلامه -يعني: كلام الخلق- **خلقًا»**، ويجوز أن يكون (كلامه) أي: كلام الله.

يعني: إذا كان كلام الله منسوبًا إليه لأنه خَلَقه، فليكن كلامُ البشر منسوبًا إلى الله، لأنه خَلَقَه.

فهم يقولون: نُسِبَ إلى الله لأنه خَلَقَه، وإضافته إليه كإضافة ناقة الله، وبيت الله إلى الله.

نقول: إذا كان منسوبًا إليه لأنه خلقه، فقولوا: أيضًا بأنَّ كلام الناس كلامُ الله منسوب إليه، لأنه خَلَقَه، فهذا يلزمهم.

فما داموا يجعلون القاعدة أنَّ كُلَّ كلامٍ خَلَقَه الله فهو يُنْسَبُ إليه، فليكن كلامُ الخلق منسوبًا إلى الله.

قَوْلُهُ: «**كَبَيْتِ الله ذِي الأَرْكَانِ**» بيت الله أضافه الله إليه خَلْقًا، لكنه أضافه للتشريف.

لما أضاف اللهُ البيتَ إليه خَلْقًا هل منع أن يكون غيرُ بيت الله خلقًا له؟ فهو خلق المساجد الأخرى، خلق الجبال، خلق الأنهار، فلمَّا أضاف الله البيت إلى نفسه خلقًا لم يكن هذا مانعًا بأن تُنْسَبَ إليه المخلوقات أيضًا، فكُلُّها مخلوقات الله، هذا الجبل خَلْقُ الله، هذه الشمس خَلْقُ الله، هذا البيت خَلْقُ الله.

فلما نُسب إلى الله خلقًا لم يمنع أن يُنْسَبَ إليه الآخر.

٧١٨- هَـذَا وَلازِمُ قَـوْلِكُمْ قَـدْ قَالَـهُ ذُو الاتِّحَـادِ مُصَـرِّحًا بِبَيَـانِ

٧١٩- حَـذَرَ التَّنَاقُضِ إِذْ تَنَاقَضْـتُمْ وَلَـ ـكِنْ طَـرْدُهُ فِي غَايَـةِ الْكُفْـرَانِ

أهل الاتِّحاد الذين قالوا بوحدة الوجود، قالوا: إنَّ كلامَ المخلوق هو كلامُ الخالق، لأنَّ المخلوق هو الخالق، وطردوا هذا، لئلا يكونَ تناقضٌ، لأننا إذا فرَّقنا بين كلام الله الذي هو القرآن وكلام المخلوق صار هناك تناقض، لذلك قال أهل الاتحاد: (**كُلُّ كلامٍ في الوجود كلامُه**)، وفيه بيت يقول:

وَكُلُّ كَلامٍ فِي الوُجُودِ كَلامُـهُ　　　سَوَاءٌ عَلَيْنَـا نَثْـرُهُ ونِظَامُـهُ(١)

أهل الاتِّحاد قالوا: كُلُّ الوجود اتَّحد وصار واحدًا، الرَّبُّ هو المربوب، فكلام المخلوق كلام الله عزَّ وجلَّ.

الجهمية تناقضوا، وأهل الاتِّحاد طردوا الباب، فقالوا: كلام الله هو كلام المخلوق، وكلام المخلوق هو كلام الله، ولا نتناقض.

فالجهمية لا يقولون: إنَّ كلامَ المخلوق كلامُ الله، لكن يقولون: (كلام الله مخلوق) ونلزمهم بأنكم إذا جعلتم كلام الله مخلوقًا أن تجعلوا كلامَ غير الله مخلوقًا، لأنه مخلوق لله عزَّ وجلَّ فأضفه إلى الله خلقًا، لكنهم يأبون ذلك إلا أننا نلزمهم بهذا.

لكنَّ ابن القيم -رحمه الله- احترز احترازًا واجبًا، فقال: (**ولكن طردُه في غاية الكفران**).

طرده بأن نقول: (كُلُّ كلامٍ فهو كلامُ الله) هذا في غاية الكفران.

ولا شك في ذلك، فنحن نكفِّره وأنتم تكفِّرونه، فالاتحاديُّ الذي يقول: (**إنَّ كلامَ الخلق هو عينُ كلامِ الخالق**) كافر، نحن نكفره وهم يكفرونه أيضًا، وهذا الاطِّراد اطِّراد في باطلٍ، وهو غير مقبول.

٧٢٠- فَلَـئِنْ زَعَمْـتُمْ أَنَّ تَخْصِـيصَ الْقُـرَا　　　نِ كَبَيْتِـــهِ وَكِلاهُمَـــا خَلْقَـــانِ

هم يزعمون هذا، فيقولون: إضافةُ الكلام إلى الله عزَّ وجلَّ كإضافة بيت الله، خَصَّصَهُ تشريفًا وتكريمًا له، لا لأنه وصفه.

(١) البيت من الطويل، وهو لابن عربي. انظر: منهاج السنة النبوية (٢/ ١٧٥).

٧٢١- فَيُقَالُ ذَا التَّخْصِيصُ لا يَنْفِي الْعُمُو ... مَ ولا الخصوصَ كَرَبِّ ذِي الأَكْـوَانِ

قَوْلُهُ: «فَيُقَالُ ذَا التَّخْصِيصُ لَا يَنْفِي الْعُمُومَ وَلَا الْخُصُوصَ» يعني: لا ينفي العمومَ، وهو أن يكون كُلُّ كلامٍ في الوجود كلامَ الله.

قَوْلُهُ: «ولا الخصوص» بحيث نقول: إنه مختصٌّ بالله عزَّ وجلَّ كرَبِّ البيت مثلًا، فإذا كان الله عزَّ وجلَّ رَبَّ البيت هل ينفي أن يكون ربًّا لغيره؟ لا ينفي، وإذا كان القرآنُ كلامَ الله، لأنه خَلَقَه فلا ينفي أن يكونَ كلامُ الآدميين كلامَ الله، لأنه خلقه.

قَوْلُهُ: «كَرَبِّ ذِي الأَكْوَانِ» فإنه رَبٌّ للجميع ورَبُّ البيت أيضًا.

٧٢٢- وَيُقَـالُ رَبُّ الْعَـرْشِ أَيْضًـا هَكَـذَا ... تَخْصِيصُـــهُ لإِضَـــافَةِ الْقُـــرْآنِ

هل لما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [التوبة:١٢٩]، هل انتفى أن يكون ربًّا لغيره؟ الجواب: لا، كذلك إذا قلنا: القرآنُ كلامُ الله لا يمنع أن يكون كلامُ غيره كلامَه أيضًا، فيكون كلام زيد وكلام عمرو كلام الله، لأنَّ تخصيص بعض أفراد العموم لا يقتضي التخصيص.

٧٢٣- لا يَمْنَـعُ التَّعْمِـيمَ فِي الْبَـاقِي وَذَا ... فِي غَايَـــةِ الإِيضَـــاحِ وَالتِّبْيَـــانِ

فكذلك إذا أضاف اللهُ الكلامَ -الذي زعمتم أنه مخلوق- إلى نفسه لا يمنع أن يكون غيرُه من الكلام منسوبًا إلى الله أيضًا، لأنه خَلَقَه، فالتخصيص لا يمنع التعميم.

إِذَنْ هؤلاء فرُّوا من شيء، ووقعوا في شيء شرٍّ منه، وهكذا كُلُّ مُبتدِع، بل كل مُخطئ على سبيل العموم فإنه يفرُّ من شيء ويقع في شيء شرٍّ منه.

وخلاصة هذا الفصل: أنه يلزم على قولهم: (إنَّ كلامَ الله مخلوقٌ) أن يكون كُلُّ كلام في الوجود كلامًا لله منسوبًا إليه، لأنَّ العلة في نسبة كلام الله إليه أنه مخلوق له.

فنقول: هذه العلة ثابتة في كلام الناس، فإنَّ كلامَ الناس مخلوقٌ لله، فيلزمكم على هذا أن يكونَ كلامُ الناس كلامًا لله، كما قلتم في الكلام المخلوق: إنه منسوب إلى الله.

نقول أيضًا: هذا كلام مخلوق، فينسب إلى الله.

فإذا قالوا: إنَّ نسبته إلى الله كنسبة البيت إلى الله، قلنا لهم: ونسبة البيت إلى الله لا تقتضي التخصيص، فإنَّ الله تعالى أضاف البيتَ إليه على سبيل التشريف، وأَمَّا على سبيل الخَلْقِ، فإنَّ غيرَ البيت أيضًا داخلٌ في كونه مخلوقًا لله كـ(رَبِّ العرش) هل نقول: إنَّ الله لما أَضاف ربوبيته إلى العرش اقتضى ذلك أَلَّا يكون ربًّا لغيره؟ الجواب: لا، ما نقول هذا، فالتخصيص لا يمنع التعميم.

* * *

فصـــل

فِي التَّفْرِيقِ بَيْنَ الخَلْقِ وَالأَمْرِ

٧٢٤- وَلَقَدْ أَتَى الْفُرْقَانُ بَيْنَ الْـخَلْقِ وَالْـ ... أَمْـرِ الصَّـحِيحِ، وَذَاكَ فِي الْفُرْقَـانِ

٧٢٥- وَكِلَاهُمَـا عِنْـدَ الْـمُنَازِعِ وَاحِـدٌ ... وَالكُـلُّ خَلْـقٌ، مَـا هُنَـا شَـيْئَانِ

٧٢٦-وَالْعَطْفُ عِنْدَهُمُ كَعَطْفِ الْفَرْدِ مِنْ ... نَـوْعٍ عَلَيْـهِ، وَذَاكَ فِي الْقُـرْآنِ

٧٢٧- فَيُقَـالُ: هَـذَا ذُو امْتِنَـاعٍ ظَـاهِرٍ ... فِي آيَـةِ التَّفْرِيـقِ ذُو تِبْيَـانِ

٧٢٨- فَـاللهُ بَعْـدَ الْـخَلْقِ أَخْـبَرَ أَنَّهَـا ... قَـدْ سُـخِّرَتْ بِـالأَمْرِ لِلْجَرَيَـانِ

٧٢٩- وَأَبَانَ عَـنْ تَسْـخِيرِهَا -سُـبْحَانَهُ- ... بِـالأَمْرِ بَعْـدَ الْـخَلْقِ بِالتِّبْيَـانِ

٧٣٠- وَالأَمْـرُ إِمَّـا مَصْـدَرٌ أَوْ كَـانَ مَفْـ ... ـعُولًا، هُمَـا فِي ذَاكَ مُسْـتَوِيَانِ

٧٣١- مَـأْمُورُهُ هُـوَ قَابِـلٌ لِلأَمْـرِ كَالْـ ... ـمَصْنُوعِ قَابِـلُ صَـنْعَةِ الـرَّحْمَنِ

٧٣٢- فَإِذَا انْتَفَى الأَمْرُ انْتَفَى المَأْمُورُ كَالْـ ... ـمَخْلُوقِ يُنْفَى لانْتِفَا الْـحِدْثَانِ

٧٣٣- وَانْظُـرْ إِلَى نَظْـمِ السِّـيَاقِ تَجِـدْ بِـهِ ... سِرًّا عَجِيبًـا وَاضِـحَ الْبُرْهَـانِ

٧٣٤- ذَكَرَ الْـخُصُوصَ وَبَعْـدَهُ مُتَقَـدِّمًا ... وَالْوَصْـفَ وَالتَّعْمِـيمَ فِي ذَا الثَّـانِي

٧٣٥- فَـأَتَى بِنَـوْعَيْ خَلْقِـهِ وَبِـأَمْرِهِ ... فِعْـلًا وَوَصْـفًا مُـوجَزًا بِبَيَـانِ

٧٣٦-فَتَـدَبَّرِ الْقُـرْآنَ إِنْ رُمْـتَ الْـهُدَى ... فَـالْعِلْمُ تَحْـتَ تَـدَبُّرِ الْقُـرْآنِ

الشـرحُ

أراد المؤلف في هذا الفصل أن يُبيِّنَ أنَّ القرآنَ غيرُ مخلوق، وذلك في التفريق بين الخلق والأمر، قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف:٥٤]، والأمر هو الشرع والقرآن، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى:٥٢]، ففَرَّق الله بين الخلق والأمر، فالخلق هو الصُّنع، والأمر هو طلب الفعل على وجه الاستعلاء، فبينهما فرقٌ عظيم، والفرق بين الأمر والخلق يظهر به أيضًا الفرق بين المأمور وبين المخلوق.

٧٢٤- وَلَقَدْ أَتَى الْفُرْقَانُ بَيْنَ الْـخَلْقِ وَالْـ ... أَمْـرِ الصَّـحِيحِ، وَذَاكَ فِي الْفُرْقَـانِ

قَوْلُهُ: «الفرقان» في الشطر الأول والثاني بينهما جِناس تام، وهما في المعنى متباينان، فـ(الفُرفان) الأول بمعنى: التفريق، و(الفُرقان) الثاني بمعنى: القرآن.

واللفظان متفقان في النوع والترتيب، وإذا اتفقت الكلمتان في نوع الحروف وترتيبها مع اختلاف المعنى يُسمَّى عندهم الجِنَاس التام.

٧٢٥- وَكِلَاهُمَـا عِنْـدَ الْـمُنَازِعِ وَاحِـدٌ ... وَالكُـلُّ خَلْـقٌ، مَـا هُنَـا شَـيْئَانِ

قَوْلُهُ: «**وَكِلَاهُمَا عِنْدَ الْـمُنَازِعِ وَاحِدٌ**» المراد بالمنازع هنا: مَنْ يقول: إنَّ القرآن مخلوق، فالأمر والخلق عنده سواء.

قَوْلُهُ: «**وَالكُلُّ خَلْقٌ مَا هُنَا شَيْئَانِ**» الكُلُّ خَلْقٌ أي: مخلوق، يعني: الأمر والخلق.

وأهل السُّنة والجماعة يقولون: هنا شيئان: خلق وأمر، فالأمر هو الوحي وهو صفته، والخلق هو مخلوقه وهو فعله.

٧٢٦- وَالْعَطْفُ عِنْدَهُمُ كَعَطْفِ الْفَرْدِ مِنْ ... نَـــوْعٍ عَلَيْـــهِ، وَذَاكَ فِي الْقُـــرْآنِ

يقول: عطف الأمر على الخلق كعطف الفرد على النوع، يريد بذلك الخاص على العام، وهذا موجود في القرآن يعني: أن يُعْطَفَ شيءٌ على آخر أَعَمَّ منه، فيكون فردًا من أفراده، قال الله تعالى: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ ﴾ [القدر:٤]، والرُّوح مَلك من الملائكة، وليس مباينًا لهم، ومنه قوله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ ﴾ [البقرة:٢٣٨]، مع أنَّ الصلاة الوسطى من الصلوات، فهذا عطف على النوع.

فهم يقولون: قوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف:٥٤]، الخلق عام يشمل القرآن، والأمر: الشرع والقرآن، فهو عطف من باب عطف الخاصِّ على العامِّ، والكُلُّ شيء واحد.

فيُقَال في الرَّدِّ: الأصل في العطف المغايرةُ، يعني أنَّ المعطوفَ غيرُ المعطوف عليه إلَّا بدليل، فإذا وُجد دليلٌ أخذنا به، فهنا في قوله تعالى: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ ﴾ [القدر:٤]، الرُّوح لا يمكن أن يكون غير الملائكة، لأنَّ جِبْريل معروف أنه من الملائكة.

أما قوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ فالأمر غير الخلق، لأنَّ الأصل في العطف المغايرة، ولهذا قال: (**فيُقَال:...**) وهذا جواب عليهم إذا قالوا: هذا من باب عطف الخاص على العام، والأمر مخلوق كالخلق، فقولهم هذا فاسد.

٧٢٧- فَيُقَـــالُ: هَـــذَا ذُو امْتِنَـــاعٍ ظَـــاهِرٍ ... فِي آيَـــةِ التَّفْرِيـــقِ ذُو تِبْيَـــانِ

قَوْلُهُ: «**فِي آيَةِ التَّفْرِيقِ**» التفريق يعني: بين الأمر والخلق في قوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾، فيُقال: هذا ممتنع.

٧٢٨- فَـاللهُ بَعْـدَ الْـخَلْقِ أَخْـبَرَ أَنَّهَـا   قَـدْ سُـخِّرَتْ بِـالأمْرِ لِلْجَرَيَـانِ

يشير إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [الأعراف:٥٤]، و(**النجوم**) معطوفة على السموات التي هي مفعول (خَلَق)، فأتى بالأمر بعد أن خلق، خُلِقْنَ، ثُمَّ أُمِرْنَ، فالأمر توجيه للمخلوق، وهو غير الخلق.

قَوْلُهُ: «قَدْ سُخِّرَتْ بِالأمْرِ لِلْجَرَيَانِ» المراد النجوم تجري بأمر الله عزَّ وجلَّ.

وَقَوْلُهُ: «مُسَخَّراتٍ» حال من النجوم.

فإِذن الأمر صار بعد الخلق، وليس هو الخلق، فإذا كان عندنا خلقٌ سابق وأمر لاحق، هل يمكن أن نجعل الأمرَ من الخلق؟ الجواب: لا يمكن، فهي خُلِقَتْ ثم وُجِّهَتْ وسُخِّرت بأمر الله، فدلَّ هذا على أنَّ الأمرَ غيرُ الخلق.

٧٢٩- وَأَبَانَ عَـنْ تَسْخِيرِهَا -سُـبْحَانَهُ-   بِـالأمْرِ بَعْـدَ الْـخَلْقِ بِالتِّبْيَـانِ

إِذَنْ نقول:

أوَّلًا: جَعْلُنَا الأمرَ من الخلق خطأٌ، لوقوعه بعده، فهي قد خُلِقَتْ وانتهتْ، ثم أُمِرَت أمرًا جديدًا بالتسخير، فسُخِّرَت بأمر الله.

ثانيًا: من الرَّدِّ عليهم أن نقول: إنَّ الأصل في العطف المغايرةُ بالذات والنوع والجِنْس، ولا يمكن أن نجعل العطفَ من باب عطف الفرد على النوع، أو الخاصِّ على العامِّ إلَّا بوجود دليل.

٧٣٠- وَالأَمْـرُ إِمَّـا مَصْـدَرٌ أَوْ كَـانَ مَفْـ ـعُولًا، هُمَـا فِي ذَاكَ مُسْـتَوِيَانِ

قَوْلُهُ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ الأمر هنا هل هو مصدر أو اسم مفعول؟

يقول ابن القيم: اجعلها مصدرًا أو اجعلها اسمَ مفعولٍ، فكلاهما يدلُّ على أنَّ الأمرَ ليس هو الخلق.

وجه ذلك أنك إذا جعلت الأمرَ مصدرًا -وهو واحد الأوامر- إذا جعلته مصدرًا، وهو الأظهر، فإنه يدلُّ على أنَّ هذا الأمر حصل بالقول، يعني: خَلَق، ثُمَّ أَمر، وإِنْ جعلتَ الأمر بمعنى اسم المفعول -والمصدر يأتي بمعنى اسم المفعول- وهو رأي المعطِّلة فإنه ما مِن مأمورٍ إِلَّا وقد وُجِّه إليه أمر، فمن لازم وجود المأمور وجود الأمر.

فإذن عاد التأويل الثاني وهو أن تجعل الأمر اسمَ مفعول إلى المعنى الأول وهو إثبات الأمر لله عزَّ وجلَّ، والأمر كما تقرَّر عندنا الآن هو غير الخلق.

قَوْلُهُ: «هُمَا فِي ذَاكَ مُسْتَوِيَانِ» أي: في المعنى لا يختلفان.

٧٣١- مَـأْمُورُهُ هُـوَ قَابِـلٌ لِلأَمْـرِ كَالْـ ـمَصْنُوعِ قَابِـلُ صَـنْعَةِ الـرَّحْمَنِ

٧٣٢- فَإِذَا انْتَفَى الأَمْرُ انْتَفَى المَأْمُورُ كَالْـ ـمَخْلُوقِ يُنْفَـى لانْتِفَـا الْـحِدْثَانِ

يريد أن يُبيِّنَ أنه لا فرقَ بين أن نقول: الأمر مصدر، أو نقول: اسم مفعول، مثل: صُنْع، يقال: الصُّنْع بمعنى المَصنوع وبمعنى الفعل.

فليس هناك مأمورٌ إِلَّا وقد صَدَرَ إليه الأمرُ، فَقَبِل الأمر، فهو (قَابِلٌ لِلأَمْرِ كَالْـمَصْنُوعِ).

وهل يوجد مصنوع بدون صنعة؟

الجواب: لا، إذن لا يوجد مأمور بدون أمر، فإذا انتفى الأمر انتفى المأمور، وإذا لم يوجد مأمور لم يوجد أمر، فهما متلازمان، يعني لو قلنا: إنَّ الأمر هو الخلق. انتفى المأمور، لأنه حينئذٍ لا يوجد شيء يُوَجَّه إليه الأمر، فلا بُدَّ من إيجاد الشيء، ثُمَّ أمره بما يريد الله عزَّ وجلَّ.

قَوْلُهُ: «**كَالمَخْلُوقِ يُنْفَى لانْتِفا الحِدْثان**» يعني: كما أننا لا يمكن أن نقول: (**مخلوق**) إِلَّا لِـمَا حَدَث وكان، فلا يمكن أن يُؤْمَر إِلَّا إذا كان موجودًا من قَبْلُ، ومخلوقًا من قَبْلُ.

٧٣٣- وَانْظُـرْ إِلَى نَظْـمِ السِّـيَاقِ تَجِـدْ بِـهِ   سِرًّا عَجِيبًـــا وَاضِـــحَ الْبُرْهَـــانِ

قَوْلُهُ: «**نَظْمِ السِّيَاقِ**» يعني الآيةَ التي أشار إليها، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [الأعراف:٥٤]، ما هو السِّرُّ العجيب؟ قال:

٧٣٤- ذَكَرَ الْـخُصُوصَ وَبَعْـدَهُ مُتَقَـدِّمًا   وَالْوَصْـفَ وَالتَّعْمِـيمَ فِي ذَا الثَّـانِي

قَوْلُهُ: «**ذَكَرَ الْـخُصُوصَ**» وهو قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، وهذا خاصٌّ، ولم يقل: خلق كُلَّ شيء.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ خاص أيضًا.

يقول: ذكر الخصوص.

قَوْلُهُ: «**وبعده**» يعني: أيضًا خصوصًا آخرَ متقدِّمًا.

قَوْلُهُ: «وَالْوَصْفَ وَالتَّعْمِيمَ فِي ذَا الثَّانِي»، ثُمَّ ذكر بعد ذلك الوصف والتعميم ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ﴾ ولم يقل: خَلَق كذا. بخلاف الأول أتى بالفعل وخَصَّ المخلوق (المفعول)، وفي الثاني عَمَّ فقال: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾، والأمر في أول الآية مُقَيَّد أو عام؟

الجواب: مُقَيَّدٌ بالنجوم ﴿وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾.

وَقَوْلُهُ: «وَالْوَصْفَ وَالتَّعْمِيمَ فِي ذَا الثَّانِي» يعني: الأمر.

٧٣٥- فَأَتَى بِنَوْعَيْ خَلْقِهِ وَبِأَمْرِهِ ... فِعْلًا وَوَصْفًا مُوجزًا بِبَيَانِ

قَوْلُهُ: «فَأَتَى بِنَوْعَيْ خَلْقِهِ وَبِأَمْرِهِ» ما هما النوعان؟ قال: (فِعْلًا وَوَصْفًا) الفعل هو الخاص، والوصف هو العام.

فقوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ هذا فعل، وقوله تعالى: ﴿وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ هذا أمرٌ مُتَعلِّقٌ بفعل خاص، وقوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ هذا وصف عامٌّ.

فقَوْلُهُ: «فَأَتَى بِنَوْعَيْ خَلْقِهِ» وهما الخلق والتسخير لكن بأمر الله، فدلَّ هذا على أنَّ الأمر ليس داخلًا في الخلق ولا في التسخير.

قَوْلُهُ: «مُوجَزًا»، ويجوز (مُوجِزًا)، فكلاهما صحيح.

ثُمَّ قال -رحمه الله-:

٧٣٦- فَتَدَبَّرِ الْقُرْآنَ إِنْ رُمْتَ الْهُدَى ... فَالْعِلْمُ تَحْتَ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ

هذا بيت عظيم ينبغي أن يحفظه الإنسان، ويُمِرَّه على قلبه دائمًا.

قَوْلُهُ: «فَتَدَبَّرِ الْقُرْآنَ» يعني: تأمَّلْه وفكِّرْ فيه.

قَوْلُهُ: «إِنْ رُمْتَ» يعني: قَصَدْتَ.

قَوْلُهُ: «الـهُدَى» يعني: العلم والتوفيق.

يعني: إنْ كنت تريد الـهُدى فتدبر القرآنَ، ولا تتسرع، ولا تتعجَّل، ولا تَغْفُل، وأكثرُ الناسِ اليوم يقرؤون القرآنَ إمَّا للأجر بتلاوتِه، وإمَّا للتبرك بها، ولكنَّ أكثرهم لا يقرؤونه تدبُّرًا، ولهذا حُرِمُوا فائدتَه، وإلَّا فالقرآن كنز عظيم، لأنه من الله عزَّ وجلَّ، ولا يحيط به أحد إلَّا الله، فهو كنز الكنوز في الواقع.

لو أنك إذا مشيتَ من بيتك إلى المسجد أخذت آية من القرآن تتدبرها وتتأملها لحَصَّلْتَ خيرًا كثيرًا، ومع ذلك أيضا إذا فتح اللهُ لك غُررًا[1] من الآيات لا تعتمد على حِفْظك لها الآن، لأنك ربما تنساها، وفي الأول كان كُلُّ طالب علم معه مفكرة يجعلها في جيبه، ويتأمل القرآن مثلًا، كلَّما فتح الله عليه شيئًا قيَّده بهذه المفكرة، فانتفع، لأنَّ الإنسان في الحقيقة في وقت من الأوقات قد يفتح الله عليه معانيَ كثيرةً من القرآن أو من السُّنة للتأمل والتدبر، ثُمَّ يتَّكل على نفسه، ويقول: هذا لا أنساه، وإن نسيتُها فهي قريبة، أتَذكَّرُ وأراجِعُ ما عندي، لكن سَرْعان ما ينسى، ولهذا لو استعمل الإنسان هذا الشيء لحصَّل خيرًا كثيرًا.

وكان بعض أهل العلم في رمضان وهو في وقت تلاوة القرآن يجعل معه دفترًا خاصًّا، كُلَّما قرأ شيئًا واستوقفته آية من كتاب الله فيها معانٍ كثيرة أو ما أشبه ذلك قيَّدها بالدفتر، فلا يخرج رمضان إلَّا وقد حصَّل خيرًا كثيرًا من معاني القرآن الكريم.

---

(١) جمع غُرة، وهي أول شيء وأكرمه. انظر: لسان العرب، مادة: غرر.

ولقد رأيتُ كُتَيِّبًا صغيرًا للشيخ عبد الرحمن السعدي -رحمه الله- يقول: إنه كتبه في رمضان وهو يقرأ القرآن، تمر به آيةٌ فيقف عندها، ويتدبرها، ويكتب عليها فوائد، لا تجدها في أيِّ تفسير.

فلهذا ابن القيم -رحمه الله- حَثَّ على تدبُّر القرآن لَمن أراد الهدى.

وشيخه ابن تيمية -رحمه الله- قال: «مَن تَدَبَّر القرآنَ طالبًا للهُدَى منه تَبَيَّن له طريقُ الحقِّ»[1].

فاشترط شيخ الإسلام -رحمه الله- شرطين: التدبُّر، وطلبَ الهدى، لأنه ربما تَدَبَّر، ولم يقصد طلب الهدى، لكن يريد معرفة معاني القرآن فقط، ما تريد أن تَهْدِي به وتجعله نِبْراسًا لك تسير عليه، فإذا تدبَّرتَه، وأنت تريد الهدى منه، وتريد أن تجعل القرآن نبراسًا لك تسير عليه، تَبَيَّنَ لك طريقُ الحقِّ.

أما الذي يَتَدبَّر القرآن لينصر به قولَه فهذا على خَطَر عظيم -والعياذ بالله- لأنه يكون مُتَّبعًا للهوى، لكن مَنْ تدبَّره مُتيقِّنًا أنه إذا دلَّ على شيء فإنه سيأخذ به ولو خالف رأيَه، فهذا هو الذي يُوَفَّق ويَتبيَّن له طريقُ الحقِّ، ولا يمكن أن يخفى عليه أبدًا، إنما يخفى علينا إمَّا من قصور عِلْمنا أو تقصيرنا، أو أننا لا نريدُ الاهتداءَ به، بمعنى أننا نعلمُ الشيءَ ولا نعمل به، وهذه قاصمة الظَّهْر، وهي إذا علمنا الشيء ولم نعمل به، والجاهلُ حينئذٍ خيرٌ منا، لأننا إذا علمنا الشيء قامت علينا الحجَّة، ولكن نسأل الله أن يعيننا.

كل يوم نتكلَّم عن مثل هذا، ولا ننظر شيئًا، لكن على الإنسان أن يتقي الله ما استطاع.

---

(١) انظر: العقيدة الواسطية (ص:٨).

فصل

فِي التَّفْرِيقِ بَيْنَ مَا يُضَافُ إِلَى الرَّبِّ تعالى مِن الأَوْصَافِ والأَعْيَانِ

٧٣٧- وَاللهُ أَخْبَرَ فِي الْكِتَابِ بِأَنَّهُ ... مِنْهُ وَمَجْرُورٌ بِـ (مِنْ) نَوْعَانِ:

٧٣٨- عَيْنٌ وَوَصْفٌ قَائِمٌ بِالْعَيْنِ فَالْـ ... أَعْيَانُ خَلْقُ الْخَالِقِ الرَّحْمَنِ

٧٣٩- وَالْوَصْفُ بِالْمَجْرُورِ قَامَ لأَنَّهُ ... أَوْلَى بِهِ فِي عُرْفِ كُلِّ لِسَانِ

٧٤٠- وَنَظِيرُ ذَا أَيْضًا سَوَاءٌ مَا يُضَا ... فُ إِلَيْهِ مِنْ صِفَةٍ وَمِنْ أَعْيَانِ

٧٤١- فَإِضَافَةُ الأَوْصَافِ ثَابِتَةٌ لِمَنْ ... قَامَتْ بِهِ كَإِرَادَةِ الرَّحْمَنِ

٧٤٢- وَإِضَافَةُ الأَعْيَانِ ثَابِتَةٌ لَهُ ... مِلْكًا وَخَلْقًا مَا هُمَا سِيَّانِ

٧٤٣- فَانْظُرْ إِلَى بَيْتِ الإِلَهِ وَعِلْمِهِ ... لَمَّا أُضِيفَا كَيْفَ يَفْتَرِقَانِ؟

٧٤٤- وَكَلامُهُ كَحَيَاتِهِ وَكَعِلْمِهِ ... فِي ذِي الإِضَافَةِ إِذْ هُمَا وَصْفَانِ

٧٤٥- لَكِنَّ نَاقَتَهُ وَبَيْتَ إِلَهِنَا ... فَكَعَبْدِهِ أَيْضًا هُمَا ذَاتَانِ

٧٤٦- فَانْظُرْ إِلَى الْجَهْمِيِّ لَمَّا فَاتَهُ الْـ ... ـحَقُّ الْمُبِينُ وَوَاضِحُ الْفُرْقَانِ

٧٤٧- كَانَ الْجَمِيعُ لَدَيْهِ بَابًا وَاحِدًا ... وَالصُّبْحُ لاحَ لِمَنْ لَهُ عَيْنَانِ

الشـرحُ

قال المؤلف -رحمه الله تعالى- في التفريق بين ما يضاف إلى الله عزَّ وجلَّ من الأوصاف والأعيان: الله -سبحانه وتعالى- أضاف إلى نفسه أوصافًا، وأضاف إلى نفسه أعيانًا، فهل هما بمنزلة واحدة؟ أو بينهما فرق؟

في هذا الفصل بَيَّن -رحمه الله- أنَّ ما يُضاف إلى الله إمَّا أن يكون عَيْنًا قائمة بنفسها، وإمَّا أن يكون وصفًا لا يقومُ إِلَّا بغيره، وهذا نوعان: إمَّا أن يضاف إلى الله بالإضافة المعروفة، وإمَّا أن يضاف إليه بـ(مِنْ)، وهذا المضاف بـ(مِنْ) أو بالإضافة المعروفة إمَّا أن يكون عينًا قائمة بنفسها، وإمَّا أن يكون وصفًا لا يقوم إِلَّا بغيره.

وكُلُّ واحدةٍ من هذه لها حكم.

قال -رحمه الله-:

٧٣٧- وَاللهُ أَخْبَرَ فِي الْكِتَابِ بِأَنَّهُ ... مِنْهُ وَمَجْرُورٌ بِـ (مِنْ) نَوْعَانِ:

٧٣٨- عَيْنٌ وَوَصْفٌ قَائِمٌ بِالْعَيْنِ فَالْـ ... أَعْيَانُ خَلْقُ الْخَالِقِ الرَّحْمَنِ

قَوْلُهُ: «أَخْبَرَ... بِأَنَّهُ مِنْهُ» يعني: القرآن من الله، قال الله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [الجاثية:١-٢]، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [فصلت:٢-٣].

وهنا أضاف القرآن إليه بـ(مِن)، والقرآن كلام، والكلام وصف المُتكلِّم، إذن فيكون المضاف إلى الله بـ(مِن) هنا غير مخلوق، لأنه صفة، والصفة قائمة بالموصوف، والموصوف هو الرَّبُّ عزَّ وجلَّ وهو الخالق، إذن فيكون القرآنُ صفةً من صفاتِه غيرَ مخلوق.

وإذا أضاف الله الشيء إلى نفسه بـ(مِن) وهي أعيان قائمة بنفسها فهي مخلوقة بلا شك، مثاله: قول الله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية:١٣]، أي: من عنده ابتداءً، ولا يمكن أن نجعل (مِنْ) هنا للتبعيض، وأنَّ ما في السموات وما في الأرض بعضٌ من الله، هذا لا يمكن، ولا يمكن أن نجعل هذه الأعيان صفةً من صفات الله، لأنها بائنةٌ من الله، فهي عينٌ قائمةٌ بنفسها، فكيف تكون وصفًا لله؟!

وَقَوْلُهُ: «فَالأَعْيَانُ» يعني: فالأعيان المضافة إلى الله بـ(مِنْ) خلق الخالق الرحمن.

٧٣٩- وَالْوَصْفُ بِالْـمَجْرُورِ قَامَ لأَنَّهُ أَوْلَى بِهِ فِي عُرْفِ كُلِّ لِسَانِ

قَوْلُهُ: «بِالْـمَجْرُورِ» متعلِّق بـ(قَامَ)، وليس متعلِّقًا بـ(الوصف)، يعني: الوصف إذا جُرَّ بـ(مِنْ) فهو بالمجرور قام.

يقول المؤلف -رحمه الله-: إنَّ الوصف قائمٌ بالمجرور، مثاله: **(القرآن)** فالقرآن هل هو شيء منفصلٌ بائِنٌ عن الله؟ أو هو كلام الله؟ فهو ليس عينًا قائمًا بنفسه فيكون قائمًا بالمجرور، والمجرور هو لفظ (الرحمن) وهو اسم الله عزَّ وجلَّ، قال الله تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ [فصلت:٢].

قَوْلُهُ: «أَوْلَى بِهِ فِي عُرْفِ كُلِّ لِسَانِ» يعني أنَّ المضافَ إلى الشيءِ الشيءُ المضافُ إليه أولى به من غيرِه، وهذا وصفٌ أُضيف إلى الله، فيكون الله تعالى أولى به من غيره.

إِذَنْ القاعدة: أنَّ المجرور بـ(مِنْ) المضاف إلى الله إن كان عَينًا قائمة بنفسها فهو مخلوق، وإن كان وصفًا لا يقوم بنفسه بل بغيره فهو صفةٌ من صفات الله غيرُ

مخلوقة، مثل قولنا: (**القرآنُ نازلٌ منه**) أي: من الله، إذن قام بالله عزَّ وجلَّ، فإذا كان قائمًا بالله وهو صفة، لزم أن يكونَ غيرَ مخلوق.

٧٤٠- وَنَظِيرُ ذَا أَيْضًا سَوَاءٌ مَا يُضَا   فُ إِلَيْهِ مِنْ صِفَةٍ وَمِنْ أَعْيَانِ

المشار إليه في قوله: «وَنَظِيرُ ذَا» هو المجرور بـ(مِنْ).

٧٤١- فَإِضَافَةُ الأَوْصَافِ ثَابِتَةٌ لِمَنْ   قَامَتْ بِهِ كَإِرَادَةِ الرَّحْمَنِ

أيضًا الأوصاف والأعيان إذا أُضيفت فعلى ما سبق، انظر إلى قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ [الأنبياء:٩١]، أي: في مريم، الرُّوح هنا مضاف إلى الله، لكن هذه الروح التي حَلَّت في عيسى هل هي جزء من الله؟

الجواب: لا.

هل هي صفة من صفاته؟ الجواب: لا، بل هي مخلوقٌ بائن، لأنها قائمة بعين، بل الصحيح أنَّ الأرواحَ أعيانٌ مُشَاهَدة، تقبضها الملائكة عند الموت وتُحَنِّطها(١) وتُكفنها، والميت ينظر إلى روحه وقد خرجت من جسده.

فالروح ليست وصفًا كالحياة والعلم والقدرة، وليست عَرَضًا كالمرض ونحوه، فالروح عين تتخلَّل هذا الجسد كما يتخلَّل الماءُ المَدَر-يعني: الطين اليابس- أو الفحم تتخلله النار.

إِذَنْ الروح المضافة إلى الله عزَّ وجلَّ بالنسبة إلى عيسى -عليه السلام- مخلوقة، وكذلك بالنسبة لآدم: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر:٢٩]، هي عينٌ قائمة بعين، فهي مخلوقة.

---

(١) أي تُطَيِّبُها بالحَنُوط، وهو طيب يخلط للميت خاصة. انظر: المصباح المنير حنط.

وَقَوْلُهُ: «فَإِضَافَةُ الأَوْصَافِ ثَابِتَةٌ لِـمَنْ قَامَتْ بِهِ كَإِرَادَةِ الرَّحْمَنِ» إذا قلنا: إرادة الله. فالإرادة وصف أضيفت إلى الله، وإذا كانت وصفًا فإنها لا تقوم بنفسها، لأنها ليست عينًا، إِذَنْ تكون صفةً لله عزَّ وجلَّ غيرَ مخلوقة، لأنَّ صفات الخالق غير مخلوقة، ولهذا قال: (فَإِضَافَةُ الأَوْصَافِ ثَابِتَةٌ لِـمَنْ قَامَتْ بِهِ)، ثُمَّ أتى بمثال فقال: (كَإِرَادَةِ الرَّحْمَنِ).

٧٤٢- وَإِضَـــافَةُ الأَعْيَـــانِ ثَابِتَـــةٌ لَـــهُ مِلْكًـــا وَخَلْقًـــا مَـــا هُمَـــا سِـــيَّانِ

يعني: إضافة الأعيان إلى الله ثابتة لله مِلْكًا وخلقًا، يعني: هو الذي ملكها وخلقها، ما هما سِيَّان.

قَوْلُهُ: «مَا هُمَا سِيَّانِ» يعني: الأوصاف والأعيان، فما هما سِيَّان، والفرق أنَّ الأوصاف صفة الله، والأعيان خلق الله، فبينهما فرق عظيم.

إِذَنْ إضافة الأوصاف إلى الله تقتضي أن تكون صفاتٍ له، وإضافةُ الأعيان على أنها خَلْق ومِلْك له، لكن يمتاز المضاف إليه -سبحانه- إضافةَ عينٍ أنه ازداد تشريفًا وتعظيمًا بإضافته إلى الله عزَّ وجلَّ.

٧٤٣- فَـــانْظُرْ إِلَى بَيْـــتِ الإِلَـــهِ وَعِلْمِـــهِ لَـــمَّا أُضِـــيفَا كَيْـــفَ يَفْتَرِقَـــانِ؟

فرق عظيم، فبيتُ الله في قول الله تعالى: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ﴾ [الحج:٢٦]، لما أضيف إلى الله هل أُضيف على أنه صفة له؟ الجواب: لا، لأنه عينٌ قائمة بائنةٌ من الله، فبيت الله مخلوقٌ، بناه إبراهيم، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ﴾ [البقرة:١٢٧]، إذن ما فائدة الإضافة؟ فائدتها التشريف والتعظيم، وأنه من أعظم آياته.

وأمَّا إضافة العلم إلى الله كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾ [النساء:١٦٦]، إضافةُ وصفٍ إلى موصوف، لأنَّ العلمَ ليس شيئًا قائمًا بنفسه، بل هو صفةٌ للعالم، فيكون ما أضافه إلى نفسه من الأوصاف وصفًا لله غيرَ مخلوق.

٧٤٤- وَكَلامُــــهُ كَحَيَاتِـــهِ وَكَعِلْمِـــهِ فِي ذِي الإِضَـافَةِ إِذْ هُمَـا وَصْــفَانِ

كلامُ الله مضافٌ إلى الله إضافةَ صفةٍ إلى موصوفها، حياةُ الله أيضًا مضافةٌ إلى الله إضافةَ صفةٍ إلى موصوفها، علمُ الله مضافٌ إلى الله إضافةَ صفةٍ إلى موصوفها.

قَوْلُهُ: «وَكَلامُهُ كَحَيَاتِهِ» نقول لهؤلاء المعتزلة والجهمية: **(كَلامُ الله كَحَيَاتِه)** هل تقولون: إنَّ حياة الله مخلوقة؟ يقولون: لا، نقول: وكلامُه كذلك غيرُ مخلوق، لأنَّ الكلام صفة، والحياة صفة، والكلام لا يقوم إلَّا بمتكلِّم، والحياة لا تقوم إلَّا بحيٍّ.

فالكلام كالعلم، والكلام كالحياة، لماذا؟ لأنهما وصفان، فالكلام لا يمكن أن يكون إلَّا من متكلِّم.

والحاصل أنَّ القاعدة: ما كان وصفًا غيرَ قائم بنفسه فهو صفةٌ لله غيرُ مخلوقة، وما كان عينًا قائمًا بنفسه فهو مخلوق، وكذلك لو كان وصفًا في عين قائمة بنفسها فهو مخلوق، لأنَّ الأعيانَ القائمة بنفسها كُلَّها مخلوقة وأوصافها مخلوقة.

٧٤٥- لَكِــنَّ نَاقَتَــهُ وَبَيْـــتَ إِلَــهِنَا فَكَعَبْــدِهِ أَيْضًـــا هُمَـــا ذَاتَـــانِ

ناقة الله مضافة إلى الله، والدليل قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا﴾ [الشمس:١٣]، هنا **(ناقة)** عين قائمة بنفسها، فتكون مضافةً إلى الله من باب إضافة المخلوق إلى خالقه.

(بيت الله) كما قال -تبارك وتعالى-: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ﴾ [الحج:٢٦]، بيت الله عين قائمة بنفسها، فيكون إضافتها إلى الله من باب إضافة المخلوق إلى خالقه.

(عبد الله) كذلك مضاف إلى الله إضافة تشريف وتكريم وخلقٍ إلى خالق ومخلوق إلى خالق، وليس العبد من صفات الله عزَّ وجلَّ.

فالمؤلف -رحمه الله- ذكر ثلاثة أمثلة: **(ناقة الله، بيت الله، عبد الله)**.

هل نقول: إنَّ إضافة بيت الله كإضافة علم الله؟

الجواب: لا، لأنَّ البيت عين، والعلم وصف.

هل نقول: إنَّ الناقة كالحياة؟

الجواب: لا، لأنَّ الحياة وصف، والناقة عين.

وهل نقول: إنَّ العبد كالإرادة؟

الجواب: لا، لأنَّ الإرادة وصف، والعبد عين.

إِذَنْ هناك فرق ظاهر، فناقة الله، وبيت الله، وعبد الله يقول المؤلف: **(هما ذاتان)** أي: ذاتان قائمتان بأنفسهما، فلا تكونان وصفًا لله.

٧٤٦- فَانْظُرْ إِلَى الْـجَهْمِيِّ لَـمَّا فَاتَهُ الْـ ... ـحَقُّ الْـمُبِينُ وَوَاضِحُ الْفُرْقَانِ

٧٤٧- كَانَ الْـجَمِيعُ لَدَيْهِ بَابًا وَاحِدًا ... وَالصُّبْحُ لاحَ لِـمَنْ لَـهُ عَيْنَانِ

الجهمي يقول: الباب واحد، كلام الله، وعلم الله، وبيت الله، وناقة الله، كُلُّها سواء، فكُلُّها مضافة إلى الله إضافة خلق إلى خالقه.

وهذا من عماه وجهله، وإلَّا فالفرق واضح، الصفة إذا أُضيفت إلى الله لا يمكن أن تكون قائمةً بنفسها مخلوقة، والأعيان إذا أضيفت إلى الله فهي مخلوقة، لكن أضيفت إلى الله على وجه التشريف.

قَوْلُهُ: «**وَالصُّبْحُ لَاحَ لِـمَنْ لَهُ عَيْنَانِ**» لكن ومَنْ له عين واحدة؟ كذلك، لكنه إذا التفت يسيرًا لم يَتبيَّن له الصبح، ومَنْ لا عينَ له لا يتبينُ له، فالصبح لا يَتبينُ تمامًا إِلَّا لمن له عينان، وأمَّا الأعمى والأعور فلن يتبينَ له على وجه الكمال.

إِذَنْ خلاصة هذا الفصل أنَّ ما أضيف إلى الله بطريق الإضافة المعروفة أو بالجر بـ(مِنْ) ينقسم إلى قسمين: إمَّا عين، وإمَّا وصف، فإن كان عينًا فهو مخلوق وليس من صفات الله، وإنْ كان وصفًا فهو من صفات الله وهو غير مخلوق، والأمثلة ظاهرة (**فالحياة، والعلم، والإرادة، والقدرة، والكلام**) نقول فيها: أوصافٌ غيرُ مخلوقة، أما (**البيت والناقة والعبد والمسجد**) فهي أعيان مخلوقة.

***

فصل

٧٤٨- وَأَتَى ابْنُ حَزْمٍ[١] بَعْدَ ذَاكَ فَقَالَ مَا ... لِلنَّاسِ قُرْآنٌ وَلا إِثْنَانِ

٧٤٩- بَلْ أَرْبَعٌ كُلٌّ يُسَمَّى بِالْقُرَا ... نِ وَذَاكَ قَوْلٌ بَيِّنُ الْبُطْلانِ

٧٥٠- هَذَا الَّذِي يُتْلَى، وَآخَرُ ثَابِتٌ ... فِي الرَّسْمِ يُدْعَى الْمُصْحَفَ الْعُثْمَانِي

٧٥١- وَالثَّالِثُ: الْمَحْفُوظُ بَيْنَ صُدُورِنَا ... هَذِي الثَّلاثُ خَلِيقَةُ الرَّحْمَنِ

٧٥٢- وَالرَّابِعُ: الْمَعْنَى الْقَدِيمُ كَعِلْمِهِ ... كُلٌّ يُعَبَّرُ عَنْهُ بِالْقُرْآنِ

الشرحُ

قَوْلُهُ: «ابن حزم» هو ابن حزمٍ الظاهري، وانتقاده -رحمه الله- شديد لاذع جدًّا، فأحيانا يدعو على العلماء، ويسميه بعض العلماء مَنْجَنيق الغَرْب، والمنجنيق بمنزلة المِدْفع[٢]، وهو ليس هينًا، فكتابه (المُحَلَّى) فيه من الآثار الكثيرة ما لا تجده في كثير من الكتب، بل لا تجده إِلَّا في القليل النادر، فهو في الحقيقة مرجع بقطع

---

(١) ابن حزم: هو عليّ بن أحمد بن سعيد، ابن حزم الظاهري، أحد أئمة الإسلام، ولد بقرطبة سنة (٣٨٤هـ)، كان له ولأبيه رئاسة الوزارة، ولكن زَهِد فيها، وأقبل على العلم، ولقد انتقد كثيرًا من العلماء فطاردته الملوك، فمات في بادية -يعني خارج المدن- ببلدة من بلاد الأندلس سنة (٤٥٦هـ). [الشارح].

(٢) المَنْجَنِيقُ بفتْحِ المِيمِ وكَسْرها، مَع فَتْحِ الجِيم: آلَةٌ تُرْمَى بِها الحِجارةُ على العَدُوِّ، وذَلِك بأَنْ تُشَدَّ سَوارٍ مُرتَفِعَةٌ جِدًّا مِن الخشَب، يُوضَعُ علَيها مَا يُرادُ رَمْيُه، ثُمَّ يُضْرَبُ بسَارِيَةٍ تُوصِله لمَكانٍ بَعيدٍ جِدًّا، انظر: تاج العروس من جواهر القاموس (٢٥/ ١٣٢) مادة: جنق.

النظر عن آرائه، فآراؤه له، وقد يَرى أشياء شاذة جدًّا، لكن كتابه (المُحَلَّى) كنز عظيم لولا سلاطة لسانه لكان يثنى عليه بلا استثناء.

ولذلك تجد الشارح الشيخ أحمد بن إبراهيم بن عيسى -رحمه الله- أطنب عليه، ومدحه مدحًا عظيمًا، ولا شكَّ أنَّ الرجل عنده علمٌ كثير بالآثار، وكتابه (المُحَلَّى) من أجمع ما يكون، لكن عنده شذوذ في الرأي في مسائل كثيرة.

ابن حزم -رحمه الله- أتى بقول عجيب قال: ليس للناس قرآن، ولا قرآنان، بل أربعة قرآنات، فقلنا له: كيف ذلك؟ بَيِّن ذلك؟ فقال:

الأول: هذا الذي يُتْلى فهو قرآن، وهذا محله اللسان.

والثاني: الثابت في الرسم وهو المكتوب، ومحله المصحف.

والثالث: المحفوظ في الصدور يعني: محله القلب.

والرابع: المعنى القديم، وقوله: المعنى القديم. يوافق فيه الأشاعرة.

وكلامه صحيح في الثلاثة الأولى، فكُلُّها قرآن سواء تلوناه بألسنتنا، أو كتبناه في المصاحف، أو حفظناه في الصدور، كُلُّه قرآن.

وأما قوله عنها: (**هَذِي الثَّلاثُ خَلِيقَةُ الرَّحْمَنِ**)، فقد يعجب الإنسان إذا رأى مثل هذا الكلام من ابن حزم -رحمه الله-، لكن قد يقول قائل بالاعتذار عن ابن حزم، بأنه يُريد أن يُبيِّن ما هو المخلوق من غير المخلوق؟

فنقول قوله: «**آخر ثابت في الرسم، والذي في الصدور، والذي يتلى**» قوله: إنَّ هذه مخلوقة فيه نظر ظاهر، لأنَّ المحفوظ في الصدور، والمرسوم في المصحف، والذي يُتلى أي: المتلوُّ باللسان ليس بمخلوق إِلَّا على رأي الأشاعرة.

وأمَّا الرابع وهو قوله: «**المعنى القديم**» فهذا لا يُسَمَّى قرآنًا، المعنى القديم إنْ قلنا به فهو علم الله عزَّ وجلَّ وليس قرآنًا حتى يُسْمِعه اللهُ عزَّ وجلَّ جبريلَ، وجبريل يلقيه على قلب النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم.

قَوْلُهُ: «**الرابع المعنى القديم**» فهو -رحمه الله- ذهب مذهب الأشاعرة، لكن خالفهم في بعض الوجوه، فاتَّفقَ مع الأشاعرة في أنَّ المعنى القديم قائمٌ بالله غير مخلوق، وأنَّ المحفوظَ والمقروءَ والمرسومَ مخلوقٌ.

وهذا تمامًا هو مذهب الأشاعرة، لكن الأشاعرة سبق أنهم يقولون: إِنَّ هناك قرآنين فقط، وهما المعنى واللفظ، أما هو فيقول: إنها أربعة: المعنى القديم، واللفظ، والكتابة، والمحفوظ.

ولكن نقول لابن حزم ولغير ابن حزم: المقروء غير مخلوق، والقراءة مخلوقة، والملفوظ به غير مخلوق، واللفظ مخلوق، والمكتوب غير مخلوق، والكتابة مخلوقة، هذا هو الصواب، وهذا هو الواقع.

وَقَوْلُهُ: «**المعنى القديم كعلمه**» أي: كعلم الله، (**كُلٌّ يُعَبَّرُ عنه بالقرآن**) فجعل كُلَّ واحدة من مراتب الوجود مستقلة، لأنَّ الشيء له وجود في الذهن، ووجود في الخارج، فالتبس عليه الأمر.

* * *

انظر إلى تحليل المؤلف لكلام ابن حزم حيث قال:

٧٥٣- وَأَظُنُّــهُ قَــدْ رَامَ شَــيْئًا لَــمْ يَجِــدْ ... عَنْــهُ عِبَــارَةَ نَــاطِقٍ بِبَيَــانِ

٧٥٤- إِنَّ الْـــمُعَيَّنَ ذُو مَرَاتِـــبَ أَرْبَـــعٍ ... عُقِلَـتْ فَـلا تَخْفَـى عَـلَى إِنْسَـانِ

٧٥٥- فِي الْعَيْنِ، ثُمَّ الذِّهْنِ، ثُمَّ اللَّفْظِ ثُمْـ ـمَ الرَّسْـمِ حِـينَ تَخُطُّـه بِبَنَـانِ

٧٥٦-وَعَلَى الْـجَمِيعِ الاسْمُ يُطْلَقُ لَكِنِ الْ أَوْلَى بِـهِ الْـمَوْجُودُ فِي الأَعْيَـانِ

٧٥٧- بِخِلافِ قَوْلِ ابْـنِ الْـخَطِيبِ فَإِنَّـهُ قَـدْ قَـالَ: إِنَّ الْوَضْـعَ لِلأَذْهَـانِ

٧٥٨- فَالشَّـيْءُ شيْءٌ وَاحِـدٌ لا أَرْبَـعٌ فَـدَهَى ابْـنَ حَـزْمٍ قِلَّـةُ الْعِرْفَـانِ

الشـرحُ

يقول -رحمه الله تعالى-: إِنَّ ابن حزم لما قسَّم القرآنَ إلى أربعة أقسام، وهو شيء واحد في الحقيقة، سواء كُتِب، أو نُطِقَ به، أو أُوحِي به، فهو قرآن.

ثُمَّ قال:

٧٥٣- وَأَظُنُّـهُ قَـدْ رَامَ شَـيْئًا لَـمْ يَجِـدْ عَنْـهُ عِبَـارَةَ نَـاطِقٍ بِبَيَـانِ

وهذا يقع كثيرًا، يكون في قلب الإنسان شيءٌ، لكن يَعْجِز عن التعبير عنه، وهذا يقع كثيرًا، ففي المسائل الذهنية يجد الإنسان في قلبه شيئًا، لكن لا يستطيع أن يُعبِّرَ عنه.

تجده مثلًا إذا قيل: له ما الفرق بين كذا وكذا وهو في نفسه يجد فرقًا، لكن لا يستطيع أن يُعَبِّر، وهذا يدلُّ على عمق تفكير الإنسان، وأنه وصل إلى فكر لا يستطيع أن يُعبِّرَ عنه اللسان.

فيقول ابن القيم: إنَّ ابنَ حزم -رحمه الله- رام شيئًا، يعني قصد شيئًا، ولكن عَجَز عن التعبير عنه، ثُمَّ فَصَّلَ ابن القيم -رحمه الله- فقال:

٧٥٤- إِنَّ الْـمُعَيَّنَ ذُو مَرَاتِـبَ أَرْبَـعٍ عُقِلَـتْ فَـلا تَخْفَـى عَـلَى إِنْسَـانِ

٧٥٥- فِي الْعَيْنِ، ثُمَّ الذِّهْنِ، ثُمَّ اللَّفْظِ ثُـمْـ ـــمَ الرَّسْـمِ حِيـنَ تَخُطُّـه بِبَنَـانِ

قوله: «الـمُعَيَّن» يعني: المُسَمَّى.

قَوْلُهُ: «فِي العَيْنِ» يعني: وجود الشيء بعينه.

الشيء الـمُعَيَّن له أربع مراتب:

الأول: يقول (فِي العَيْنِ) يعني: وجوده عينًا، وهذا بالنسبة للكلام هو الذي يصدر من أول ناطقٍ به، فمثلا أنا إذا قلتُ خطبةً، فقد وُجِدت هذه الخطبة بالعين، وُجدت الآن سُمِعَت وقُرِئت، وتلوتها، فأنا أوجدتها بالعين، هذا يُسَمَّى الوجود العيني.

الثاني: ثُمَّ بعد ذلك (فِي الذِّهْـنِ)، أنتم إذا سمعتم الـخطبة انطبعت في أذهانكم.

الثالث: ثُمَّ بعد ذلك اللفظ، تَلْفِظون بها.

الرابع: ثُمَّ بعد ذلك الرسم، هذا بالنسبة للسامع.

وكذلك هو بالنسبة لمُوجِد للكلام، لكن مُوجِد الكلام يبدأ الكلام في الذهن أولًا، ثُمَّ اللفظ، ثُمَّ الرسم، وهو إذا وُجِدَ في اللفظ وُجد عينًا لا ذهنًا.

ففي الحقيقة أنَّ الوجود عن الكلام إن كان بالنسبة للمتكلِّم فالترتيب كما يلي: الذهن، ثُمَّ اللفظ، وبه تكون العين، ثمَّ الرسم.

وبالنسبة لغيره: أولًا: العين أي: وجوده من المتكلِّم، ثُمَّ انطباعه في الذهن، ثُمَّ نقله وإبلاغه باللفظ أو بالرسم، أي قد يلفظ فيُعبِّر عمَّا في ذهنه، وقد يرسم فيكتب ما في ذهنه.

إذا تأملت الكلام وجدته لا يخرج عن هذه المراتب، لكن هل هذه المراتب تستلزم تعدد العين أو أنها عين واحدة؟

الجواب: هي عين واحدة، لكن لها مراتب، وابن حزم -رحمه الله- ظنَّ أَنَّ اختلاف هذه المراتب كاختلاف الأعيان، وأنَّ كلَّ مرتبة تجعل الشيءَ عينًا مستقلة عن المرتبة التي قبلها، ولكنَّ الصواب: أنَّ المراتب لا تُخْرِج الواحد المعيَّن عن كونه واحدًا، لكن يترتب وجوده.

فالقرآن الكريم تكلَّم الله عزَّ وجلَّ به، فهذا وجوده عينًا، ثُمَّ سمعه جبريلُ ونقله إلى محمد -عليه الصلاة والسلام-، وبلَّغه محمدٌ، هذا وجوده لفظًا، ثُمَّ الناس الذين سمعوه أيضا حفظوه، فكان هذا وجودًا ذِهْنيًا، ثُمَّ تلوه فكان وجودًا لفظيًّا، أو رسموه في المصاحف فصار موجودًا رسمًا، ولكن هذه الأطوار التي تكون للكلام لا تستلزم أن يكون الكلام متعددًا.

فأنت تَتصوَّر إنسانًا، ثُمَّ تقرره في ذهنك، ثُمَّ تعبِّر عنه بلسانك، أو ترسمه ببنانك، وهل هو يتغيَّر باختلاف هذه الصور أو هو شيء واحد؟

الجواب: هو شيءٌ واحد، ولهذا قال.

٧٥٦- وَعَلَى الْـجَمِيعِ الاسْمُ يُطْلَقُ لَكِنِ الْـ ... أَوْلَى بِـهِ الْـمَوْجُودُ فِي الأَعْيَـانِ

قَوْلُهُ: «**الأَوْلَى بِهِ الْـمَوْجُودُ**»، لأنَّ كُلَّ ما بعد الوجود ينبني عليه، وكلها يطلق عليه، فالقرآن هو القرآن حين وجوده، وحين تَصوُّره في الذهن، وحين اللفظ به، وحين الرسم.

٧٥٧- بِخِلافِ قَوْلِ ابْنِ الْـخَطِيبِ[١] فَإِنَّهُ قَـدْ قَـالَ: إِنَّ الْوَضْـعَ لِلأَذْهَـانِ

قَوْلُهُ: «ابن الخطيب» في شرح الهرَّاس أنه هو الفخر الرازي.

قَوْلُهُ: «إِنَّ الْوَضْعَ لِلأَذْهَانِ» يعني: أصل الشيء يكون في الذهن قبل أن يوجد.

وهذا غير صحيح، نعم يكون في الذهن قبل أن يوجد إذا كان ممَّن قاله أو فعله، أما إذا كان قولَ غيرِه أو فِعْلَ غيره فإنه يكون في الوجود في الأعيان قبل أن يكون في الذهن.

٧٥٨- فَالشَّـيْءُ شيْءٌ وَاحِـدٌ لا أَرْبَـعٌ فَـدَهَى ابْـنَ حَـزْمٍ قِلَّـةُ الْعِرْفَـانِ

فابن الخطيب مذهبه مذهب الأشاعرة، يقول: إنَّ الشيءَ شيءٌ واحدٌ، سواء قُرِئ، أو كُتب، أو حُفظ، فهو شيء واحد مخلوق، والمعنى القائم بالنفس غير مخلوق.

ومعنى (دهاه) أي: أصابه بداهية يعني مهلكة، لأنه لم يعرف الفرق بين القراءة والمقروء، والكتابة والمكتوب، والحفظ والمحفوظ، فما عَرَف الفرق، فلذلك فَرَّق، وقال: الجميع أربعة: ثلاثة مخلوقة، وواحد غير مخلوق.

* * *

(١) ابن الخطيب (إن كان هو الرازي، لأنه يقال له: ابن خطيب الرَّي)، فهو محمد بن عمر بن الحسن ابن الحسين التيمي، البكري، فخر الدين، ولد في الرَّي سنة (٥٤٤هـ)، وكان بارعًا في العلوم، مجيدًا للغة الفارسية والعربية، وتوفي في هَراة سنة (٦٠٦هـ). [الشارح]. وانظر: الأعلام للزركلي (٦/ ٣١٣).

٧٥٩- وَاللهُ أَخْــــبَرَ أَنَّــــهُ سُـــبْحَانَهُ مُـــتَكَلِّمٌ بِـــالْوَحْيِ وَالْفُرْقَـــانِ

٧٦٠- وَكَـــذَاكَ أَخْبَرَنَـــا بِـــأَنَّ كلامـــه بِصُـــدُورِ أَهْـــلِ الْعِلْـــمِ وَالإِيـــمَانِ

٧٦١- وَكَـذَاكَ أَخْـبَرَ أَنَّـهُ الْـمَكْتُوبُ فِي صُـــحُفٍ مُطَهَّـــرَةٍ مِـــنَ الـــرَّحْمَنِ

٧٦٢- وَكَـذَاكَ أَخْـبَرَ أَنَّـهُ الْـمَتْلُوُّ وَالْـ ـــمَقْرُوءُ عِنْـدَ تِـلاوَةِ الإِنْسَـانِ

٧٦٣- وَالْكُـــلُّ شَيْءٌ وَاحِـــدٌ لا أَنَّـــهُ هُـــوَ أَرْبَـــعٌ وَثَلاثَـــةٌ وَاثْنَـــانِ

٧٦٤- وَتِـــلاوَةُ الْقُـــرْآنِ أَفْعَـــالٌ لَنَـــا وَكَـذَا الْكِتَابَـةُ فَهْـيَ خَـطُّ بَنَـانِ

٧٦٥- لَكِـنَّمَا الْـمَتْلُوُّ وَالْـمَكْتُوبُ وَالْـ ـمَحْفُوظُ قَـوْلُ الْوَاحِـدِ الـرَّحْمَنِ

٧٦٦- وَالْعَبْـدُ يَقْـرؤُهُ بِصَـوْتٍ طَيِّـبٍ وَبِضِـــدِّهِ فَهُـــمَا لَـــهُ صَـــوْتَانِ

٧٦٧- وَكَـــذَاكَ يَكْتُبُـــهُ بِخَـــطٍّ جَيِّـــدٍ وَبِضِـــدِّهِ فَهُـــمَا لَـــهُ خَطَّـــانِ

٧٦٨- أَصْـــوَاتُنَا وَمِـــدَادُنَا وَأَدَاؤُنَـــا وَالـــرَّقُّ، ثُـــمَّ كِتَابَـــةُ الْقُـــرْآنِ

٧٦٩- وَلَقَـدْ أَتَـى فِي نَظْمِـهِ مَـنْ قَـالَ قَـوْ لَ الْـحَقِّ فيـه وَهْـوَ غَـيْرُ جَبَـانِ

٧٧٠- إِنَّ الَّذِي هُوَ فِي الْـمَصَاحِفِ مُثْبَتٌ بِأَنَامِـــلِ الأَشْـــيَاخِ وَالشُّـــبَّانِ

٧٧١- هُـــوَ قَـــوْلُ رَبِّي آيُـــهُ وَحُرُوفُـــهُ وَمِـــدَادُنَا وَالـــرَّقُّ مَخْلُوقَـــانِ

٧٧٢- فَشَـفَى وَفَـرَّقَ بَـيْنَ مَتْلُـوٍّ وَمَصْـ ـــنُوعٍ وَذَاكَ حَقِيقَـــةُ الْعِرْفَـــانِ

٧٧٣- الْكُـلُّ مَخْلُـوقٌ وَلَـيْسَ كَلامُـهُ الْـ مَتْلُـــوُّ مَخْلُوقًـــا هُمَـــا شَـــيْئَانِ

٧٧٤- فَعَلَيْـكَ بِالتَّفْصِـيلِ وَالتَّمْيِيـزِ فَالْـ إِطْـــلَاقُ وَالإِجْمَـــالُ دُونَ بَيَـــانِ

٧٧٥- قَدْ أَفْسَدَا هَذَا الْوُجُودَ وَخَبَّطَا الْـ أَذْهَانَ وَالآرَاءَ كُلَّ زَمَانِ

الشرحُ

٧٥٩- وَاللهُ أَخْبَرَ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ مُتَكَلِّمٌ بِالْوَحْيِ وَالْفُرْقَانِ

يبيِّنُ المؤلف -رحمه الله- أنَّ الله -سبحانه وتعالى- أخبر أنه متكلِّم بالوحي والفرقان، فقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٦]، وقال: ﴿هَـٰذَا كِتَـٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الجاثية:٢٩].

٧٦٠- وَكَذَاكَ أَخْبَرَنَا بِأَنَّ كلامه بِصُدُورِ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالإِيمَانِ

أخبر الله عزَّ وجلَّ أنَّ الكتاب في صُدور أهل العلم، قال الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ [العنكبوت:٤٩].

٧٦١- وَكَذَاكَ أَخْبَرَ أَنَّهُ الْمَكْتُوبُ فِي صُحُفٍ مُطَهَّرَةٍ مِنَ الرَّحْمَنِ

قال الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ﴾ [عبس:١١-١٤]، يعني: القرآن، كذلك أيضا:

٧٦٢-وَكَذَاكَ أَخْبَرَ أَنَّهُ الْمَتْلُوُّ وَالْـ ـمَقْرُوءُ عِنْدَ تِلاوَةِ الإِنْسَانِ

قَوْلُهُ: «أَخْبَرَ أَنَّهُ الْمَتْلُوُّ» قال الله -سبحانه وتعالى-: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة:١٢١]، ولم يقل -رحمه الله تعالى-: إنه مكتوب في اللوح المحفوظ، فإمَّا أَنْ يُقال: إنَّ ابن القيم -رحمه الله- يرى أنَّ المكتوب في اللوح المحفوظ هو ذِكْرُ القرآن فقط، وأَنَّ قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾ [البروج:٢١-٢٢]، أي: ذكره في اللوح المحفوظ، كما قال الله -تبارك وتعالى- عن

القرآن نفسه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء:١٩٦]، أي: في كتبهم، وليس القرآن هو الذي في كتبهم، ولكن ذكر القرآن والإشادة به.

وأكثر العلماء على أنَّ القرآنَ الكريمَ مكتوبٌ في اللوح المحفوظ، وأَنَّ الله تعالى كتبه في اللوح المحفوظ كما كتب جميع الكائنات إلى يوم القيامة، ثُمَّ لما أراد أن ينزله على محمدٍ -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- تكلَّم به، فسمعه جبريل، فنزل به، وهذا الذي عليه أكثر العلماء.

فإغفال ابن القيم له يحتمل أنه يرى الرأي الأول، ويحتمل أنه أغفله سهوًا ونسيانًا، فالله أعلم.

قَوْلُهُ: «وَكَذَاكَ أَخْبَرَ أَنَّهُ الْـمَقْرُوءُ» يعني: أخبر أنه يُقرأ، قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة:١٨-١٩].

٧٦٣-وَالْكُلُّ شَيْءٌ وَاحِدٌ لا أَنَّهُ هُوَ أَرْبَعٌ وَثَلاثَةٌ وَاثْنَانِ

يعني أنَّ المَتْلُوَّ والمكتوبَ كليهما شيءٌ واحد، لا أنه أربع أو ثلاثة أو اثنان كما ذهَبَ إليه ابن حزم -رحمه الله-.

٧٦٤- وَتِلاوَةُ الْقُرْآنِ أَفْعَالٌ لَنَا وَكَذَا الْكِتَابَةُ فَهْيَ خَطُّ بَنَانِ

يعني أنَّ التلاوة والكتابة هما أفعالنا، وهما مخلوقتان، فعندما آخذ ورقة، وأكتب فيها آية من كتاب الله فهذا فِعْلِي، وعندما أتكلَّم بالقرآن فهذا أيضًا فِعْلِي، فهناك شيء مكتوب، وهناك شيء مقروء، وهناك كتابة وقراءة، فالكتابة والقراءة مخلوقتان، لأنهما أفعالنا.

٧٦٥-لَكِنَّمَا الْـمَتْلُوُّ وَالْـمَكْتُوبُ وَالْـ ـمَحْفُوظُ قَوْلُ الْوَاحِدِ الرَّحْمَنِ

يعني أنَّ المقروء والمكتوب وهو القرآن غير مخلوق.

٧٦٦-وَالْعَبْدُ يَقْرؤُهُ بِصَوْتٍ طَيِّبٍ وَبِضِدِّهِ فَهُمَا لَهُ صَوْتَانِ

والدليل على هذا أنَّ القرآن كُلَّه كاملٌ من كُلِّ وجه، ومع ذلك يقرؤه إنسان بصوت جيد وتلاوة طيبة، وآخر بالعكس، أي: يقرؤه شخص رديء الصوت ولا تلتذ بقراءته، فهل نقول: هذان قرآنان؟ الجواب: لا، أبدًا، لا نقول هذا، فالقرآن شيء واحد تُلي على هذا الوجه أو على هذا الوجه.

٧٦٧-وَكَذَاكَ يَكْتُبُهُ بِخَطٍّ جَيِّدٍ وَبِضِدِّهِ فَهُمَا لَهُ خَطَّانِ

وهو شيء واحد، مع أنه يكتبه شخص بخط جَيِّد، أو يكتبه شخص بخط رديء فلا تكاد تقرؤه، فالذي كان رديئًا هنا هل هو القرآن نفسه أو الصوت؟ الجواب: الصوت، وهل هو القرآن نفسه أو الكتابة؟ الجواب: الكتابة.

ولا نقول: لما اختلفت صورة الخط اختلف القرآن.

إِذَنْ هناك فرق بين الكتابة والمكتوب، وبين القراءة والمقروء.

٧٦٨-أَصْوَاتُنَا وَمِدَادُنَا وَأَدَاؤُنَا وَالرَّقُّ، ثُمَّ كِتَابَةُ الْقُرْآنِ

هذه كُلُّها مخلوقة، فصوتي مخلوقٌ، والمِداد الذي هو الحبر مخلوقٌ، والأداء مخلوقٌ، والرَّق مخلوقٌ.

قَوْلُهُ: «أَدَاؤُنَا» في نسخة (أداتنا) بالتاء، ولعلَّها أحسن، لأنَّ المراد بها القلم الذي يُكْتب به.

٧٦٩-وَلَقَدْ أَتَى فِي نَظْمِهِ مَنْ قَالَ قَوْ ... لَ الْـحَقِّ فيه وَهْوَ غَيْرُ جَبَانِ

ثُمَّ أثنى على مَنْ قال هذا القول الحقِّ، وهو القحطاني[1] -رحمه الله- في نونيته القحطانية المشهورة.

٧٧٠- إِنَّ الَّذِي هُوَ فِي الْـمَصَاحِفِ مُثْبَتٌ ... بِأَنَامِلِ الأَشْيَاخِ وَالشُّبَّانِ

٧٧١- هُوَ قَوْلُ رَبِّي آيُهُ وَحُرُوفُهُ ... وَمِدَادُنَا وَالرَّقُّ مَخْلُوقَانِ

٧٧٢- فَشَفَى وَفَرَّقَ بَيْنَ مَتْلُوٍّ وَمَصْـ ... ـنُوعٍ وَذَاكَ حَقِيقَةُ الْعِرْفَانِ

٧٧٣- الْكُلُّ مَخْلُوقٌ وَلَيْسَ كَلامُهُ الْـ ... مَتْلُوُّ مَخْلُوقًا هُمَا شَيْئَانِ

وهذا صحيح، فالكتابة تحتاج إلى خمسة أشياء: يد، وقلم، ومداد، ورَّق -يعني: قرطاسًا- ومكتوب، الأربعة الأولى مخلوقة، والخامسُ -وهو المكتوب- غيرُ مخلوق.

٧٧٤- فَعَلَيْكَ بِالتَّفْصِيلِ وَالتَّمْيِيزِ فَالْـ ... إِطْلَاقُ وَالإِجْمَالُ دُونَ بَيَانِ

٧٧٥- قَدْ أَفْسَدَا هَذَا الْوُجُودَ وَخَبَّطَا الْـ ... أَذْهَانَ وَالآرَاءَ كُلَّ زَمَانِ

قَوْلُهُ: «فَعَلَيْكَ بِالتَّفْصِيلِ» يعني: لو قال قائل: هل لفظي بالقرآن مخلوق؟ نقول: هذا يحتاج إلى تفصيل: إن قصدتَ لفظي (الملفوظ) فهو غير مخلوق، وإن أردتَ لفظي -أي: تلفُّظي- فهو مخلوق، إنما قلنا بالأول، لأنَّ (لفظي) مصدر،

(١) هو أبو محمد بن عبد الله بن محمد الأندلسي القحطاني السلفي المالكي، كان فقيهًا حافظًا جمع تاريخًا لأهل الأندلس، وقال أبو سعيد الإدريسي في تاريخ سمرقند: إنه كان من أفضل الناس ومن ثقاتهم. وقال السمعاني: كان فقيهًا حافظًا في طلب العلم إلى المشرق والمغرب له قصيدة نونية مطبوعة. المصدر: الموسوعة الشعرية.

والمصدر يجيء بمعناه، ويجيء بمعنى اسم المفعول، فإذا كان لفظي بمعنى ملفوظي فهو غير مخلوق، وإذا كان لفظي بمعنى تلفُّظي فهو مخلوق.

قَوْلُهُ: «فَالإِطْلَاقُ وَالإِجْمَالُ... قَدْ أَفْسَدَا هَذَا الْوُجُودَ» أحيانًا يأتي الإجمال والإبهام فيفسدان، انظر إلى أهل البدع، نَفَوْا تعطيلَ صفات الله عزَّ وجلَّ، بل قرَّروا نفيَ صفات الله بناءً على أنَّ إثباتها يستلزم التجسيمَ، والجسم في حقِّ الله عندهم ممنوع، وهذا فيه إبهام.

فنقول: ما الجسم الذي يكون ممنوعًا عندكم؟ لا بدَّ أن تفصِّلوا، إنْ أردتم بالجسم الجسم المُكَوَّن بعضه إلى بعض الذي قام بعضه ببعض، ولا يبقى بعضه مع فناء البعض الآخر، فهذا ممتنع على الله، وإن أردتم بالجسم ما يتصف بالصفات اللائقة به، فهذا غير مستحيل، فهذا ثابت لله.

فانظر إلى الإجمال كيف أفسد هؤلاء، قالوا: ليس بجسم فقط، كُلُّ شيء يستلزم أن يكون جسمًا فهو عندهم ممنوع.

وإن كنا لا نقول -ابتداءً-: إنَّ لله جسمًا، بل نقول: لله -سبحانه وتعالى- ذاتٌ متصفةٌ بالصفات اللائقة به.

***

٧٧٦- وَتِــلاوَةُ الْقُــرْآنِ فِي تَعْرِيفِهَــا	بِــاللَّامِ قَــدْ يُعْنَــى بِهَــا شَــيْئَانِ
٧٧٧- يُعْنَــى بِهَــا الْــمَتْلُوُّ فَهْــوَ كَلامُــهُ	هُــوَ غَــيْرُ مَخْلُــوقٍ كَــذِي الأَكْــوَانِ
٧٧٨- وَيُــرَادُ أَفْعَــالُ الْعِبَــادِ كَصَــوْتِهِمْ	وَأَدَائِهِــمْ وَكِلاهُمَــا خَلْقَــانِ
٧٧٩- هَذَا الَّـذِي نَصَّـتْ عَلَيْـهِ أَئِمَّـةُ الْـ	إِسْــلامِ أَهْــلُ الْعِلْــمِ وَالْعِرْفَــانِ

٧٨٠- وَهْوَ الَّذِي قَصَدَ الْبُخَارِيُّ الرِّضَا ... لَكِنْ تَقَاصَرَ قَاصِرُ الأَذْهَانِ

٧٨١- عَنْ فَهْمِهِ كَتَقَاصُرِ الأَفْهَامِ عَنْ ... قَوْلِ الإِمَامِ الأَعْظَمِ الشَّيْبَانِي

٧٨٢- فِي اللَّفْظِ لَـمَّا أَنْ نَفَى الضِّدَّيْنِ عَنْـ ... ـهُ وَاهْتَدَى لِلنَّفْيِ ذُو عِرْفَانِ

٧٨٣- فَاللَّفْظُ يَصْلُحُ مَصْدَرًا هُوَ فِعْلُنَا ... كَتَلَفُّظٍ بِتِلاوَةِ الْقُرْآنِ

٧٨٤- وَكَذَاكَ يَصْلُحُ نَفْسُ مَلْفُوظٍ بِهِ ... وَهُوَ الْقُرَانُ فَذَانِ مُحْتَمِلانِ

٧٨٥- فَلِذَاكَ أَنْكَرَ أَحْمَدُ الإِطْلاقَ فِي ... نَفْيٍ وَإِثْبَاتٍ بِلا فُرْقَانِ

الشرحُ

٧٧٦- وَتِلاوَةُ الْقُرْآنِ فِي تَعْرِيفِهَا ... بِاللَّامِ قَدْ يُعْنَى بِهَا شَيْئَانِ

٧٧٧- يُعْنَى بِهَا الْـمَتْلُوُّ فَهْوَ كَلامُهُ ... هُوَ غَيْرُ مَخْلُوقٍ كَذِي الأَكْوَانِ

المؤلف -رحمه الله- هنا يقول: إنَّ تلاوة القرآن في تعريفها باللام -أي: المعرفة بأل (التلاوة) هكذا- يُراد بها المتلو، ويراد بها الفعل -أي: فعل التالي- إن أردتَ بها فعل التالي فهي مخلوقة، وإن أردت بها المتلوَّ فهي غير مخلوقة.

أمَّا إذا قيل: تلاوة القرآن، فهي غير ما أراده ابن القيم هنا.

إذا قيل: تلاوة القرآن، فإنها تنقسم إلى قسمين من وجه آخر: يُراد بتلاوته قراءته، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ [فاطر:٢٩]، وقوله تعالى: ﴿يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ [آل عمران:١١٣].

ويراد بتلاوته اتِّباعه، كما تقول: تلا فلانٌ فلانًا، أي: تابعه، وأتى تاليًا له.

فعندنا الآن تلاوة القرآن، وعندنا التلاوة، فالتلاوة لها معنيان:

تلاوة بمعنى المَتلوِّ، فهي مصدر بمعنى اسم المفعول، فيكون المراد بها القرآن، وهو غير مخلوق.

و(**تلاوة**) بمعنى فعل التالي، وحينئذٍ تكون مخلوقة، لأنَّ الإنسان وأفعاله مخلوقان.

أما تلاوة القرآن بالإضافة، وهي غير محلاة بـ(**أل**) فُيراد بها معنيان: المعنى الأول: قراءته، أي: قراءة القرآن. والمعنى الثاني: اتِّبَاع القرآن.

قَوْلُهُ: «**هُوَ غَيْرُ مَخْلُوقٍ كَذِي الأَكْوَانِ**» التمثيل هنا في قوله: «**كَذِي الأكوانِ**» هل هو للمنفي أو للنفي؟

الجواب: للمنفي، لأنَّ الأكوانَ مخلوقةٌ، والقرآنَ غيرُ مخلوق.

فقَوْلُهُ: «**غَيْرُ مَخْلُوقٍ كَذِي الأَكْوَانِ**» هذا تمثيل للمخلوق، يعني: للمنفي، لا للنفي.

٧٧٨-وَيُرَادُ أَفْعَالُ الْعِبَادِ كَصَوْتِهِمْ وَأَدَائِهِمْ وَكِلاهُمَا خَلْقَانِ

قَوْلُهُ: «**وَيُرَادُ أَفْعَالُ الْعِبَادِ**» يعني: يُراد بالتلاوة أفعالُ العباد.

قَوْلُهُ: «**كَصَوْتِهِمْ وَأَدَائِهِمْ وَكِلاهُمَا خَلْقَانِ**» الصوت معروف، وهو ما يُسْمَع، و(**الأداء**) يعني: حسن القراءة، فهذا كُلُّه مخلوق.

٧٧٩- هَذَا الَّـذِي نَصَّـتْ عَلَيْـهِ أَئِمَّـةُ الْـ إِسْـلامِ أَهْـلُ الْعِلْـمِ وَالْعِرْفَـانِ

٧٨٠- وَهْوَ الَّذِي قَصَدَ الْبُخَـارِيُّ الرِّضَـا لَكِـنْ تَقَـاصَرَ قَـاصِرُ الأَذْهَـانِ

البخاري -رحمه الله- حصل بينه وبين محمد بن يحيى الذهلي(١) مناظرةٌ كبيرةٌ عظيمة في اللفظ في قول الإنسان: **(اللفظ بالقرآن هل هو مخلوقٌ أو غير مخلوق؟)** والبخاري -رحمه الله- فَصَّل كالتفصيل الذي سبق آنفا، وهو أنه إِنْ قُصِدَ باللفظ الملفوظ به فهو غير مخلوق، وإن قُصد باللفظ التلفظ الذي هو فعل الإنسان فهو مخلوق.

قَوْلُهُ: «**الْبُخَارِيُّ الرِّضَا**» هذا المؤلف -رحمه الله- أثنى على البخاري، ووصفه بالرضا، والرضا مصدر بدل عن الراضي أو المَرْضِي عنه.

٧٨١- عَـنْ فَهْمِـهِ كَتَقَـاصُرِ الأَفْهَـامِ عَـنْ قَـوْلِ الإِمَـامِ الأَعْظَـمِ الشَّـيْبَانِي

قَوْلُهُ: «**الإِمَامِ الأَعْظَمِ الشَّيْبَانِي**» هو أحمد بن حنبل -رحمه الله-.

٧٨٢- فِي اللَّفْظِ لَـمَّا أَنْ نَفَى الضِّـدَّيْنِ عَنْـ ـهُ وَاهْتَـدَى لِلنَّفْـيِ ذُو عِرْفَـانِ

يعني يُقال: لا تقل: مخلوق ولا غير مخلوق، فالإمام أحمد -رحمه الله- قال: لا تقل: (لفظي بالقرآن مخلوق)، ولا تقل: (غير مخلوق)، فنفى عنه الضدين، وقال **(مَنْ قال لفظي بالقرآن مخلوق فهو جَهْمِيٌّ، ومَنْ قال: غيرُ مخلوقٍ فهو مبتدع)**.

(١) هو محمد بن يحيى بن عبد الله الذُّهْلي مولاهم النيسابوري، أبو عبد الله، من حُفَّاظ الحديث ثقة، من أهل نيسابور، رحل رحلة واسعة فزار بغداد والبصرة وغيرهما في طلب الحديث، واشتهر. وروى عنه البخاري أربعة وثلاثين حديثا، توفي (٢٥٨هـ). انظر: الأعلام للزركلي (٧/ ١٣٥).

إِذَنْ مقتضى هذا الكلام أَلَّا أقولَ: (مخلوق) ولا غير مخلوق، لأنَّ ذلك يُشكل، فإذا قلتُ: (مخلوق) صرتُ جهميًا، وإن قلت: (غير مخلوق) صرت مبتدعًا، إِذَنْ أسكت، ولا أقول هذا ولا هذا.

٧٨٣- فَاللَّفْظُ يَصْلُحُ مَصْدَرًا هُوَ فِعْلُنَا ... كَتَلَفُّظٍ بِتِلاوَةِ الْقُرْآنِ

٧٨٤- وَكَذَاكَ يَصْلُحُ نَفْسُ مَلْفُوظٍ بِهِ ... وَهُوَ الْقُرَانُ فَذَانِ مُحْتَمِلانِ

٧٨٥- فَلِذَاكَ أَنْكَرَ أَحْمَدُ الإِطْلاقَ فِي ... نَفْيٍ وَإِثْبَاتٍ بِلا فُرْقَانِ

قَوْلُهُ: «**فَاللَّفْظُ يَصْلُحُ مَصْدَرًا هُوَ فِعْلُنَا**» يعني: اللفظ قد يُراد به المصدر الذي هو فعلنا: يعني التلفظ.

قَوْلُهُ: «**وَكَذَاكَ يَصْلُحُ نَفْسُ مَلْفُوظٍ بِهِ**» وهو القرآن، وعلى هذا يكون اللفظ بمعنى الملفوظ به.

وَقَوْلُهُ: «**فَذَانِ مُحْتَمِلانِ**» إذن أنت إذا قلت: (**لَفْظِي بالقرآنِ مَخْلُوقٌ**) قد يفهم السامعُ أنك تريد باللفظ اسمَ المفعول، وحينئذٍ يأخذ برأي الجهمية، لأنَّ الجهمية يقولون: الملفوظ به مخلوق، فهو محتمل لهذا المعنى الفاسد.

ومحتمل لمعنًى صحيحٍ وهو تلفُّظي بالقرآن مخلوق، وهذا صحيح، لكنَّ الإمام أحمد قال: إنه بدعة، لأنَّ السلف ما تكلَّموا به، فليس في كلام الصحابة ولا كلام التابعين أن يُقَال: (لَفْظِي بِالقُرْآنِ مَخْلُوقٌ أو غَيْرُ مَخْلُوقٍ)، فلهذا قال: إنه بدعة، فلا تُطْلِق، لكن عند التفصيل يزول الإشكال، فنقول للقائل: ماذا تريد بقولك: (**لَفْظِي بِالقُرْآنِ مَخْلُوقٌ**)؟ إن قال: أريد ما أَلفِظُ به، نقول: هو جهمي، لأنَّ معناه أنه أراد القرآن، فلا نصحح قولَه.

وإن قال: أريد بـ(**لَفْظِي بِالقُرْآنِ مَخْلُوقٌ**) صوتي وتلفظي بالشيء، وحركاتي، نقول: قولك هذا صحيح، ولكن لا تُطْلِق، لأنك إذا أطلقت أوهمت معنًى فاسدًا، ولهذا منع الإمامُ أحمدُ -رحمه الله- من هذا.

* * *

فصـــل

فِي مَقَالاتِ الفَلاسِفَةِ وَالقَرامِطَةِ فِي كَلامِ الرَّبِّ ـ جَلَّ جَلالُهُ ـ

٧٨٦- وَأَتَى ابْنُ سِينَا الْقُرْمُطِيُّ مُصَانِعًا ... لِلْمُسْلِمِينَ بِإِفْكِ ذِي بُهْتَانِ

٧٨٧- فَرَآهُ فَيْضًا فَاضَ مِنْ عَقْلٍ هُوَ الْـ ... ـفَعَّالُ عِلَّةُ هَذِهِ الأَكْوَانِ

٧٨٨- حَتَّى تَلَقَّاهُ زَكِيٌّ فَاضِلٌ ... حَسَنُ التَّخَيُّلِ جَيِّدُ التِّبْيَانِ

٧٨٩- فَأَتَى بِهِ لِلْعَالَمِينَ خَطَابَةً ... وَمَوَاعِظًا عَرِيَتْ عَنِ الْبُرْهَانِ

٧٩٠- مَا صَرَّحَتْ أَخْبَارُهُ بِالْحَقِّ بَلْ ... رَمَزَتْ إِلَيْهِ إِشَارَةً لِمَعَانِ

٧٩١- وَخِطَابُ هَذَا الْخَلْقِ وَالْجُمْهُورِ بِالْـ ... ـحَقِّ الصَّرِيحِ فَغَيْرُ ذِي إِمْكَانِ

٧٩٢- لَا يَقْبَلُونَ حَقَائِقَ الْمَعْقُولِ إِلْـ ... ـلَا فِي مِثَالِ الْحِسِّ وَالأَعْيَانِ

٧٩٣- وَمَشَارِبَ الْعُقَلاءِ لا يَرِدُونَهَا ... إِلَّا إِذَا وُضِعَتْ لَهُمْ بِأَوَانِ

٧٩٤- مِنْ جِنْسِ مَا أَلِفَتْ طِبَاعُهُمُ مِنَ الْـ ... ـمَحْسُوسِ فِي ذَا الْعَالَمِ الْجُثْمَانِي

٧٩٥- فَأَتَوْا بِتَشْبِيهٍ وَتَمْثِيلٍ وَتَجْـ ... ـسِيمٍ وَتَخْيِيلٍ إِلَى الأَذْهَانِ

٧٩٦- وَلِذَاكَ يَحْرُمُ عِنْدَهُمْ تَأْوِيلُهُ ... لَكِنَّهُ حِلٌّ لِذِي الْعِرْفَانِ

٧٩٧- فَإِذَا تَأَوَّلْنَاهُ كَانَ جِنَايَةً ... مِنَّا وَخَرْقَ سِيَاجِ ذَا الْبُسْتَانِ

٧٩٨- لَكِنْ حَقِيقَةُ قَوْلِهِمْ أَنْ قَدْ أَتَوْا ... بِالْكِذْبِ عِنْدَ مَصَالِحِ الإِنْسَانِ

٧٩٩- وَالْفَيْلَسُوفُ وَذَا الرَّسُولُ لَدَيْهِمُ ... مُتَفَاوِتَانِ، وَمَا هُمَا عِدْلانِ

٨٠٠- أَمَّا الرَّسُولُ فَفَيْلَسُوفُ عَوَامِّهِمْ ... وَالْفَيْلَسُوفُ نَبِيُّ ذِي الْبُرْهَانِ

٨٠١- وَالْحَقُّ عِنْدَهُمُ فَفِيمَا قَالَهُ ... أَتْبَاعُ صَاحِبِ مَنْطِقِ الْيُونَانِ

الشرحُ

هذه المقطوعة حكى فيها المؤلف -رحمه الله- قولَ الفلاسفة والقرامطة في كلام الرَّبِّ -جلَّ جلاله-.

قَوْلُهُ: «الفلاسفة» جمع فيلسوف، وهي كلمة يونانية مأخوذة من (فَيْل) و(سوف)، و(فَيْل) بمعنى: مُحِبّ، و(سوف) بمعنى الحكمة، أي: مُحِبّ الحكمة، هذا الفيلسوف عندهم.

يقول -رحمه الله-:

٧٨٦- وَأَتَى ابْنُ سِينَا الْقُرْمُطِيُّ مُصَانِعًا ... لِلْمُسْلِمِينَ بِإِفْكِ ذِي بُهْتَانِ

أَمَّا القرامطة فهم أتباع القُرْمُطِي المشهور بالإلحاد، هؤلاء يقولون: إنَّ كلام الله عزَّ وجلَّ هو فيضٌ يُفِيضه العقل الفعَّال، والعقل الفعَّال -عندهم- هو علة الموجودات كلها، لأنهم لا يُقِرُّون بالخالق.

يقولون: هذه الموجودات لها علة فاعلة، علة معقولة لا محسوسة، هذه العلة فاض منها فيض على نفسٍ زكية قابلة لهذا الفيض، فانطبع هذا الفائض من العقل الفعَّال في قلب هذا الرجل الزكي.

وإنما قالوا هذا -كما قال ابن القيم- مُصناعةً للمسلمين، لأنهم يَدَّعون الإسلام، وليسوا كذلك.

وقد صرَّح شيخُ الإسلام وابن القيم بأنَّ ابن سينا كافرٌ، ليس من المسلمين، وإن كان مُقَدَّسًا عند القوميين العرب وأشباههم ممن لا يقيمون للدين وزنًا ولا للعقيدة اعتبارًا، فهو عندهم مُقَدَّس حتى إنهم قد يسمُّون بعضَ المدارس باسم هذا الرجل (**ابن سينا**) مع أنه كافر، والكافر لا يجوز أن يُنَوَّه باسمه إطلاقا، بل يُدفن ويُقْبَر، وإذا كان له من دعاية أو نشر كتب مضلة فيُذْكَر على سبيل الذم، لا على سبيل المدح، اسمع ما يقول مصانعة للمسلمين، يقول:

٧٨٧- فَرَآهُ فَيْضًا فَاضَ مِنْ عَقْلٍ هُوَ الْـ ـفَعَّالُ عِلَّةُ هَذِهِ الأَكْوَانِ

العقل الفَعَّال الذي هو علة هذه الأكوان، يعني العلة التي بها حَدَثَتْ الأكوان، وليس هناك رَبٌّ -والعياذ بالله- بل هذه الأكوان حدثت بعلَّة.

٧٨٨- حَتَّى تَلَقَّاهُ زَكِيٌّ فَاضِلٌ حَسَنُ التَّخَيُّلِ جَيِّدُ التِّبْيَانِ

يعني به: الرسول، فالنَّبِيُّ تلقى هذا الفيض.

وَقَوْلُهُ: «**زَكِيٌّ فَاضِلٌ**» أي: صافي العقيدة، حسن التخيل.

قَوْلُهُ: «**جَيِّدُ التِّبْيَانِ**» أي: يستطيع أن يعبرَ ببيان جيد، فيقول: هذا كلامُ رَبِّ العالمين.

٧٨٩- فَأَتَى بِهِ لِلْعَالَمِينَ خَطَابَةً وَمَوَاعِظًا عَرِيَتْ عَنِ الْبُرْهَانِ

يعني: ليس لها برهان ولا أصل إلَّا هذا الفيض الذي فاض من هذا العقل كما يَدَّعون.

٧٩٠- مَا صَرَّحَتْ أَخْبَارُهُ بِالْحَقِّ بَلْ رَمَزَتْ إِلَيْهِ إِشَارَةً لِـمَعَانِ

قال أيضًا: هذا الكلام الذي أتى به هذا الزَّكي، لا يريد بالقرآن ظاهره، بل المراد به إشارات خفيَّة، يعجز عنها عامة الناس، ولا يعرفها إِلَّا الخواصُّ منهم.

٧٩١- وَخِطَابُ هَذَا الخَلْقِ وَالجُمْهُورِ بِالْـ ـحَقِّ الصَّرِيحِ فَغَيْرُ ذِي إِمْكَانِ

يقول: لو أنهم خُوطبوا -وأُرِيدَ بالخطاب صريحُ ما يدلُّ عليه- فإنَّ هذا ممتنع، لماذا؟ قال: لأنهم...

٧٩٢- لَا يَقْبَلُونَ حَقَائِقَ الْـمَعْقُولِ إِلْـ ـلَا فِي مِثَالِ الْـحِسِّ وَالأَعْيَانِ

يعني: هذا القرآن الذي فاضه العقل على نفس هذا الزَّكِي هذا له معانٍ ظاهرة ومعانٍ باطنة مشارٌ إليها إشارة لا يفهمها الخلق ولا العوام، لأنَّ الخلق والعوام لا يفهمون إِلَّا الشيءَ المحسوس، أما الشيء المعقول فإنهم لا يدركونه، ومحالٌ أن يدركوه.

فالعوام لا يفهمون إِلَّا المحسوس، ولهذا قال: (**لَا يَقْبَلُونَ حَقَائِقَ الْـمَعْقُولِ إِلَّا فِي مِثَالِ الْحِسِّ وَالأَعْيَانِ**) يعني: إِلَّا إذا جُعِلَ على صورة شيء محسوس ومعانٍ، فالجنة والنار وما فيهما من عذاب ونعيم كُلُّ هذا غير مُراد، فكُلُّ هذا تخييل وليس بحقيقة، لكن صُوِّر للعامة بصورة المحسوس من أجل أن يقبلوه ويفهموه.

٧٩٣- وَمَشَارِبَ الْعُقَلَاءِ لَا يَرِدُونَهَا إِلَّا إِذَا وُضِعَتْ لَـهُمْ بِـأَوَانِ

٧٩٤- مِنْ جِنْسِ مَا أَلِفَتْ طِبَاعُهُمُ مِنَ الْـ ـمَحْسُوسِ فِي ذَا الْعَالَـمِ الْـجُثْمَانِي

وَقَوْلُهُ: «**وَمَشَارِبَ الْعُقَلَاءِ لَا يَرِدُونَهَا**» من الذين لا يردونها؟ الجواب: عامة الخلق، مشارب العقلاء لا يردونها، لأنَّ مشاربَ العقلاء للعقلاء، أما العامة

الهمج الرَّعاع فهؤلاء لا يمكن أن يَرِدُوا هذا، فَتُضْرَبُ لهم الأمثالُ المحسوسة رمزًا إلى أمورٍ معقولة.

قَوْلُهُ: «إِلَّا إِذَا وُضِعَتْ لَهُمْ بِأَوَانِ» سبحان الله! تمثيل عجيب، يعني: لا يستطيع أن يشرب من الحوض والنهر، لكن إذا جئت له بالماء في آنية استطاع، فيقول: إنَّ المعقولات التي ترمز إليها هذه الكلمات هذه لا يَرِدُها العوام، إنما يرد العوام الأشياء المحسوسة التي يدركونها بحسِّهم.

٧٩٥- فَأَتَوْا بِتَشْبِيهٍ وَتَمْثِيلٍ وَتَجْـ ـسِيمٍ وَتَخْيِيلٍ إِلَى الأَذْهَانِ

يعني: أنَّ هذا الذي جاءت به الرسل من كلام الله ما هو إلا شيء وتخييل للأذهان من أجل تقريبه على العامة، وإلا فحقيقته غير ما يدلُّ عليه اللفظ.

٧٩٦-وَلِذَاكَ يَحْرُمُ عِنْدَهُمْ تَأْوِيلُهُ لَكِنَّهُ حِلٌّ لِذِي الْعِرْفَانِ

قَوْلُهُ: «وَلِذَاكَ يَحْرُمُ عِنْدَهُمْ تَأْوِيلُهُ» يعني: لا يجوز أن يُفَسَّرَ للعامة بالمعاني المعقولة المرادة، لماذا؟

الجواب: لأنَّ العامة لا يستطيعون أن يفهموا هذا، ولا يقبلون إِلَّا بما شهد به الحسُّ.

قَوْلُهُ: «لَكِنَّهُ حِلٌّ لِذِي الْعِرْفَانِ» (ذو العِرْفان) هم علماؤهم الفلاسفة، هؤلاء فَسِّرْه لهم بالمعنى المراد، أما العامة فلا.

مثال: فـ (الحج) هو قصد مكةَ لأداء المناسك، هم قالوا: لا، الحج أن تقصد المشايخَ والأولياءَ، تطلب منهم المغفرة، ومسحةً يمسحون عليك بها تكون سعيدًا إلى يوم القيامة.

(الصيام): التعبد لله بالإمساك عن المفطرات من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، قالوا: لا، ليس هذا الصيام، بل الصيام أن تكتم أسرارنا، ولا تخبر بما وراءنا، لأنَّ الصيام مشتق من الإمساك فأمْسِك أي: **(اسكت)** يعني: صُم عن هذا الكلام، لا تُخبِرْ به أحدًا.

و**(الصلاة)** فهي عبادة ذات ركوع وسجود، مُفْتَتَحة بالتكبير مُخْتَتَمة بالتسليم، هم قالوا: لا، الصلاة أن تعرف أسرارنا، لأنَّ الصلاة من الصلة يعني أن تكون ذا صلة بنا، فالصلاة بداية، والصيام نهاية، فصَلِّ يعني: تعلَّمْ أسرارَنا، و**(صُمْ)** يعني: اكتمها، فهذه الصلاة وهذا الصيام عندهم.

فنقول لهم: الصلاة والصيام معروفان عند المسلمين، فيقولون: لا، هذا الذي تقولون إسلامُ العامَّة، أمَّا نحن فإنَّ الكلمات عندنا رموز لمعانٍ لا يفهمها العامة.

٧٩٧- فَــإِذَا تَأَوَّلْنَــاهُ كَــانَ جِنَايَــةً   مِنَّــا وَخَــرْقَ سِــيَاجِ ذَا الْبُسْــتَانِ

يعني: لو تأوَّلناه عند العامة كان هذا جنايةً، لأنَّ من شروط التَّنَسُّك عندهم أن تَكْتُمَ أسرارَهم، ولهذا العبادة عندهم -فيما أظنُّ- علي عشر مراحل ينزلها الإنسان مرحلةً مرحلةً حتى يَصِل إلى الغاية.

ثم قال:

٧٩٨- لَكِنْ حَقِيقَـةُ قَوْلِــهِمْ أَنْ قَـدْ أَتَـوْا   بِالْكِـذْبِ عِنْـدَ مَصَـالِحِ الإِنْسَـانِ

يعني: قيل لهم: إذا كان الأمر كما قلتم، فما تقولون فيما جاءت به الرسل، فالرسل جاءوا للناس، وقالوا: هذه الصلاة، وهذا الصيام، وهذا الحج، وقالوا: هناك جنة ونار، وعذاب ونعيم؟

قالوا: هذا كُلُّه كذب، فلا جنة ولا نار، ولا نعيم ولا عذاب، ولا شيء أبدًا، لكن هذا كَذِبٌ، كَذَبَ به الرسل من أجل المصلحة -أعوذ بالله- كذبوا لمصلحة؟! قالوا: نعم، لأنَّ الناس إذا قيل لهم: (**افعلوا كذا**)، قد لا يستجيبون، وإذا قيل: (**لا تفعلوا كذا**)، قد لا ينتهون، لكن إذا قيل لهم: إِنْ فعلتم كذا أسكناكم جنة فيها من النعيم المقيم ما لا يَخْطِر على البال، فإنهم يفعلون.

وإذا قيل لهم: إِنْ خالفتم أسكنَّاكم نارًا فيها من العذاب كذا وكذا، فإنهم ينتهون.

فالرسل كَذَبوا من أجل المصلحة كما تقول للصبي: (**افعل هذا أُعطيك حلاوة**)، (**ولا تفعل هذا فأكويك بالجمرة**) فيفعل الصبيُّ، ولا يفعل الثاني، مع أنه لا يعطيه حلاوة، ولن يكويَه بالجمرة.

فهذا هو -والعياذ بالله- رأيهم في الرسل أنهم كذبوا عند مصالح الإنسان.

ثُمَّ قال:

٧٩٩- وَالْفَيْلَسُوفُ وَذَا الرَّسُولُ لَدَيْهِمُ مُتَفَاوِتَانِ، وَمَا هُمَا عِدْلانِ

الفيلسوف والرسول متفاوتان أي: بينهما فرق عظيم، وما هما عدلان، والفرق ذكره بقوله:

٨٠٠- أَمَّا الرَّسُولُ فَفَيْلَسُوفُ عَوَامِّهِمْ وَالْفَيْلَسُوفُ نَبِيُّ ذِي الْبُرْهَانِ

يقولون: هؤلاء الرسل للعوام، أما الفيلسوف الذي هو فيلسوف عندهم فهو نبيٌّ ذي البرهان، فهذا هو النَّبِيُّ الحقيقي، أما ذاك فهو رسول للعوام.

وهذا -والعياذ بالله- أكفر من كفر اليهود والنصارى بلا شك.

فإذا كانوا يقولون: الرسل: محمد -عليه الصلاة والسلام- وإبراهيم، وموسى، وعيسى، هؤلاء رسلُ عوامٍّ كذابون، ما صدقوا، والفلاسفة عندهم هم الأنبياء، هم الذين يتلقون من العقل الفعَّال، ويأتون بما فيه الخير.

٨٠١- وَالْـحَقُّ عِنْـدَهُمُ فَفِيمَا قَالَـهُ ... أَتْبَاعُ صَاحِبِ مَنْطِقِ الْيُونَانِ

يعني: وليس فيما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم.

* * *

٨٠٢- وَمَضَى عَلَى هَذِي الْـمَقَالَةِ أُمَّةٌ ... خَلْفَ ابْنِ سِينَا فَاغْتَذَوْا بِلِبَانِ

٨٠٣- مِنْهُمْ نَصِيرُ الْكُفْرِ فِي أَصْحَابِهِ ... النَّاصِرِينَ لِـمِلَّةِ الشَّيْطَانِ

٨٠٤- فَاسْأَلْ بِهِمْ ذَا خِبْرَةٍ تَلْقَاهُمُ ... أَعْدَاءَ كُلِّ مُوَحِّدٍ رَبَّانِي

٨٠٥- وَاسْأَلْ بِهِمْ ذَا خِبْرَةٍ تَلْقَاهُمُ ... أَعْدَاءَ رُسْلِ اللهِ وَالْقُرْآنِ

٨٠٦- صُوفِيُّهُمْ عَبَدَ الْوُجُودَ الْـمُطْلَقَ الْـ ... ـمَعْدُومَ عِنْدَ الْعَقْلِ فِي الأَعْيَانِ

٨٠٧- أَوْ مُلْحِدٌ بِالاتِّحَادِ يَدِينُ لَا التْـ ... ـتَوْحِيدِ مُنْسَلِخٌ مِنَ الأَدْيَانِ

٨٠٨- مَعْبُودُهُ مَوْطُوءُهُ فِيهِ يَرَى ... وَصْفَ الْـجَمَالِ وَمَظْهَرَ الإِحْسَانِ

٨٠٩- اللهُ أَكْبَرُ كَمْ عَلَى ذَا الْـمَذْهَبِ الْـ ... مَلْعُونِ بَيْنَ النَّاسِ مِنْ شِيخَانِ

٨١٠- يَبْغُونَ مِنْهُمْ دَعْوَةً وَيُقَبِّلُو ... نَ أَيَادِيًا مِنْهُمْ رَجَا الْغُفْرَانِ

٨١١- لَوْ أَنَّهُمْ عَرَفُوا حَقِيقَةَ أَمْرِهِمْ ... رَجَمُوهُمُ لَا شَكَّ بِالصَّوَّانِ

٨١٢- فَابْذُرْ لَـهُمْ إِنْ كُنْتَ تَبْغِي كَشْفَهُمْ ... وَافْرِشْ لَـهُمْ كَفًّا مِنَ الأَتْبَانِ

٨١٣- وَاظْهَـرْ بِمَظْهَـرِ قَابِـلٍ مـنْهُمْ وَلَا ... تَظْهَـرْ بِمَظْهَـرِ صَـاحِبِ النُّكْـرَانِ

٨١٤- وَانْظُـرْ إِلَى أَنْهَـارِ كُفْـرٍ فُجِّـرَتْ ... وَتَهِـمٌّ لَـوْلَا السَّـيْفُ بِالْـجَرَيَانِ

الشـرحُ

يقول -رحمه الله- في هذه المقطوعة:

٨٠٢- وَمَضَـى عَـلَى هَـذِي الْـمَقَالَةِ أُمَّـةٌ ... خَلْـفَ ابْـنِ سِـينَا فَاغْتَـذَوْا بِلِبَـانِ

يعني أنَّ ابنَ سينا -والعياذ بالله- كان قائدًا إلى النار، لأنه مضى على مقالته أمةٌ اغتذوا بلبانٍ، وبئس اللبان فإنه لِبانٌ أنتن من لبان الحمير، لكن:

٨٠٣- مِـنْهُمْ نَصِـيرُ الْكُفْـرِ فِي أَصْـحَابِهِ ... النَّـاصِرِينَ لِـمِلَّةِ الشَّـيْطَانِ

قَوْلُهُ: «نصير الكفر» هذا هو نصير الدين الطوسي، الذي كان وزيرًا لهولاكو ملك التتر، الذي قَتَلَ الخليفةَ العباسي في بغداد، وقتل من العلماء أُمَمًا لا يُحْصِيهم إِلَّا اللهُ، هذا الخبيث يُسمَّى نصير الدين، ولكن ابن القيم وصفه بما هو أهله فقال: (نَصيرُ الْكُفْرِ).

وصدق -رحمه الله-، نصير الكفر على مذهب ابن سينا وأتباعه الناصرين لـمِلَّة الشيطان لا لِمِلَّة مُحَمَّد صلى الله عليه وسلم.

٨٠٤- فَاسْـأَلْ بِهِـمْ ذَا خِـبْرَةٍ تَلْقَـاهُمُ ... أَعْـدَاءَ كُـلِّ مُوَحِّـدٍ رَبَّـانِي

٨٠٥- وَاسْـأَلْ بِهِـمْ ذَا خِـبْرَةٍ تَلْقَـاهُمُ ... أَعْـدَاءَ رُسْـلِ اللهِ وَالْقُـرْآنِ

ومن أهل الخبرة في مذهبهم ابن القيم، فإنَّه درس المللَ والنِّحَلَ والمذاهبَ وعرفها كما درسها قبله شيخه ابن تيمية -رحمهما الله جميعًا-.

إِذَنْ هم أعداء التوحيد وأعداء الرسالة.

أعداء التوحيد يؤخذ من قوله: «أَعْدَاءُ كُلِّ مُوَحِّدٍ»، وأعداء الرسل يؤخذ من قوله: «أَعْدَاءُ رُسْلِ الله».

٨٠٦- صُوفِيُّهُمْ عَبَدَ الْوُجُودَ الْـمُطْلَقَ الْـ ـــمَعْدُومَ عِنْـدَ الْعَقْـلِ فِي الأَعْيَـانِ

قَوْلُهُ: «صوفيهم» يعني الصوفي منهم مَنْ عبد الوجودَ المطلق، كيف عبد الوجودَ المطلق؟ لأنهم يرون أنَّ الله عزَّ وجلَّ هو الوجود المطلق بشرط الإطلاق، ومعنى الوجود المطلق بشرط الإطلاق: أنه لا يمكن أن يُوصف بصفة، فلا تقل: موجود ولا معدوم.

لو قيل لـهم: مَنْ إِلـهكم؟ مَنْ رَبُّكم؟ قالوا: ربنا لا موجود، ولا معدوم، ولا حيّ ولا ميت، ولا عالـم ولا جاهل، ولا سميع ولا أصمّ، ولا بصير ولا أعمى، لا يمكن أن يُوصف بصفة، هل هذا يمكن أن يكون موجودًا ويمكن أن يكون رَبًّا؟

الجواب: أبدًا، ولا يمكن أن يوجد هذا الرَّبُّ إِلَّا في الأذهان فقط، يعني: الذهن قد يفرض ذاتًا ليس لها صفات، أما الوجود في الخارج فلا، ولهذا قال:

(**عَبَدَ الْوُجُودَ الْـمُطْلَقَ الْـمَعْدُومَ عِنْدَ الْعَقْلِ**) فهذا معدوم، فنحن إذا قلنا: إنَّ الرَّبَّ المعبود ليس موجودًا ولا معدومًا، ولا حيًّا ولا ميتًا، ولا سميعًا ولا أصمَّ، ولا بصيرًا ولا أعمى، ولا عالمًا ولا جاهلًا، فإنه يكون عدمًا.

هم يعبدون هذا، يعبدون مَنْ لا يُوصف بسمع ولا بصرٍ، ولا حياة ولا موت، ولا غير ذلك، بل ولا وجود ولا عدم، نسأل الله العافية.

يعني: لولا أنها مذاهب كُتِبَتْ، ونقلها الثقات لقلنا: إنَّ هذا لا يمكن أن يتصوَّره متصوِّر فضلًا أن يجعله مُعتقَدًا، ويطمئن إليه إلى أن يلقى الله، لكن نسأل اللهَ العافية.

٨٠٧- أَوْ مُلْحِدٌ بِالاتِّـحَادِ يَـدِينُ لَا التَّـ ... ـتَوْحِيدِ مُنْسَـلِخٌ مِـنَ الأَدْيَـانِ

قَوْلُهُ: «أَوْ مُلْحِدٌ بِالاتِّحَادِ يَدِينُ لَا التَّوْحِيدِ» يعني: يدين بالاتِّحاد لا التوحيد.

وفرق بين الاتحاد والتوحيد، فالتوحيد: توحيد الخالق، والاتِّحاد: جعلُ الخالق والمخلوق شيئًا واحدًا، هذا مذهبهم.

فهم يقولون: (الخلقُ والمخلوقُ شيءٌ واحدٌ) فالله هو زيد وعمرو وبكر وخالد، هو الجمل والناقة، هو الدجاجة والديك، هو الحمار والبغل -والعياذ بالله- هذا هو الإله عندهم.

يقولون: لأنَّ الخالق اتَّحدَ في المخلوق، فصارا شيئًا واحدًا.

هؤلاء -والله العظيم- أكفر من النصارى، لأنَّ النصارى لم يجعلوه اتِّحادًا عامًّا، بل جعلوه اتِّحادًا خاصًّا، فجعلوا الاتِّحادَ في رسولٍ هو أشرف جنس بني آدم، وهؤلاء جعلوه في الكتاب والحمير وكلِّ شيء، ولم ينزِّهوه عن شيء أبدًا، بل يقولون: زوجته هي الله، وهو الله، والعياذ بالله.

هؤلاء عبدوا الكونَ كُلَّه، ليس عندهم معبود، بل عُبَّادُ البقر أحسنُ من هؤلاء، فالبقر طَيِّب وحلال، وهؤلاء يعبدون الحمير، والكلاب، والخنزير، ولهذا يقول:

٨٠٨- مَعْبُــودُهُ مَوْطُــوءُهُ فِيــهِ يَــرَى ... وَصْفَ الْـجَمَالِ وَمَظْهَرَ الإِحْسَـانِ

قَوْلُهُ: «**مَعْبُودُهُ مَوْطُوءُهُ**» -أعوذ بالله- يعني: زوجته التي هو يطؤها هي معبوده، يطأ امرأةً يقول: هي رَبُّه، نسأل الله العافية.

قال ابن القيم:

٨٠٩- اللهُ أَكْبَرُ كَمْ عَلَى ذَا الْـمَذْهَبِ الْـ مَلْعُونِ بَيْنَ النَّاسِ مِنْ شِيخَانِ

قَوْلُهُ: «**اللهُ أَكْبَرُ**» هذه الكلمة مثل قولنا: (الله حسيبك) يعني أنني أقابلك بكبرياء الله عزَّ وجلَّ وعظمته، كما تقول: (الله أكبر عليك)، ويحتمل أنه لا يريد هذا يعني: لا يريد التحسب عليهم، وإنما يريد تعظيمَ الله، وأنه أعظم مما وصفوه به.

قَوْلُهُ: «**كَمْ عَلَى ذَا الْـمَذْهَبِ الْـمَلْعُونِ بَيْنَ النَّاسِ مِنْ شِيخَانِ**» كم هذه تكثيرية، يعني: هذا المذهب الملعون -وهو أدنى أوصافه أن يكون ملعونًا- كم عليه بين الناس من شيخان.

وَقَوْلُهُ: «**شِيخَانِ**» جمع (**شيخ**).

٨١٠- يَبْغُونَ مِنْهُمْ دَعْوَةً وَيُقَبِّلُو نَ أَيَادِيًا مِنْهُمْ رَجَا الْغُفْرَانِ

قَوْلُهُ: «**يَبْغُونَ مِنْهُمْ دَعْوَةً**» الضمير هنا في (**يَبْغُونَ**) يعود على الناس.

والضمير في (**مِنْهُمْ**) يعود على (**الشِّيخَان**).

ومعنى البيت: أنَّ الشِّيخانَ، والفلاسفةَ، والمَلاحدةَ، والاتِّحاديةَ هؤلاء يُنَصِّبون أنفسهم أولياءَ، وعامة الهمج الرَّعاع يأتون لهم، وينادونهم بـ (سيدي)، والعارف بالله، ولي الله... إلخ من الألقاب، ويهيلون عليهم هالة من الألقاب.

يقول ابن القيم: يأتونهم ويبغون منهم دعوة، وما أبعد إجابة الدعوة لهؤلاء! يقول: يا سيدي ادعُ الله لي، فليس عندي أولاد، وتجيء المرأة، وتقول:

سيدي لم أُخْطَب، وأنا بلغت ثلاثين سنة، ادعُ الله لي... إلخ، وهو يدعو، ولكن كما قال الله تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان:٢٣].

قَوْلُهُ: «**وَيُقَبِّلُونَ أَيَادِيًا مِنْهُمْ رَجَا الْغُفْرَانِ**» يعني: ربما يَمُدُّ الشيخُ يدَه مِن حين ما يُقْبِل العامَّة لأجل أن يقبلوها للتعظيم، وربما ينحنون له ويركعون ويسجدون، ولا يُهِمُّ هذا، قال ابن القيم:

٨١١- لَوْ أَنَّهُمْ عَرَفُوا حَقِيقَةَ أَمْرِهِمْ   رَجَمُوهُمُ لَا شَكَّ بِالصَّوَّانِ

قَوْلُهُ: «**لَوْ أَنَّهُمْ**» الضمير يعود على الناس.

قَوْلُهُ: «**عَرَفُوا حَقِيقَةَ أَمْرِهِمْ**» أي: عرفوا حقيقة أمر الشِّيخانِ.

لو عرفوا أنَّ هؤلاء القوم لا يَعْبدون أحدًا، ولا يعتقدون وجودَ رَبٍّ إلَّا هذا الكون (**رَجَمُوهم بالصَّوَّان**) والصَّوَّان: الحَجَر القوي، وهو ما يُعرف عندنا بالمَرْو، وهم مستحقون لذلك، بل أكثر من هذا، ولهذا يقول -رحمه الله-:

٨١٢- فَابْذُرْ لَهُمْ إِنْ كُنْتَ تَبْغِي كَشْفَهُمْ   وَافْرِشْ لَهُمْ كَفًّا مِنَ الأَتْبَانِ

يعني: إذا كنت تريد أن تكشف حال هؤلاء لا تجادلهم، ولا تُعَنِّفْهم، فإنك إنْ عَنَّفت فهم في مقام رفيع -عند أنفسهم- يخاطبونك من منطق الاستعلاء والقوة، لأنَّ العامة كُلَّهم معهم، تجيء البيت أو المكان الذي حوله تجد عامةً مثل الجراد، لو تأتيه وتعنف عليه يُغري بك هؤلاء، مَنْ يفكك مِنْ هؤلاء العامة؟! والعوام كما يقولون: هوام.

لكن يقول: جادلهم، افرش لهم كفًّا من الأتبان، يعني: من الشيء السهل الليِّن، واستدرج بهم كأنك تريد أن تَفْهَمَ مذهَبَهم.

وهذه من الأساليب الجيدة، إذا أردت أن تستخرج ما عند الإنسان فلا تنكر عليه، إذا أنكرت عليه إن كان هو في مقام يرى نفسه أعلى منك زجرك ورحت بعيدًا، وإن كان لا يشعر بأنه أعلى منك نهرك أو كتم ما عنده، لكن استدرج به، وإن كان بعض الإخوة يقول: هذا من باب التجسُّس.

فنقول: ليس هذا من باب التجسُّس، بل هذا من باب العثور على الحقيقة، وقد فعله نبيٌّ من الأنبياء، كانت امرأتان معهما ابناهما جاء الذئب فذهب بابن إحداهما، فقالت صاحبتها: إنما ذهب بابنك. وقالت الأخرى: إنما ذهب بابنك. فتحاكمتا إلى داود، فقضى به للكبرى، فخرجتا على سليمان بن داود فأخبرتاه فقال: ائتوني بالسكين أشقه بينهما. فقالت الصغرى: لا تفعل -يرحمك الله- هو ابنها. فقضى به للصغرى[1]. لكن لماذا قضى به للصغيرة؟

الجواب: لأنه عرف أن الكبيرة لم ترحمه بدليل أنها وافقت على شقِّه، وأنه سيموت بذلك، فعرف أنها ليست أمَّه، والصغيرة عرف أنها أمُّه.

إِذَنْ هل نقول: هذا تجسس؟

الجواب: لا، أبدًا، إذا عمل الإنسان عملًا يدرك به الحقيقة مع وجود القرينة فهذا طَيِّب، فمثلًا إذا جئنا لإنسانٍ ملحد أو منافق واستدرجناه كأننا نريد أن ندخل في مذهبه فليس في هذا مانع.

الآن الذين يُرَوِّجون المخدرات يوجد بعض الناس الذين يستدرجونهم، ويعطونهم الدراهم حتى يبيعوا لهم، فهذا الاستدراج جائز لاستخراج الحقِّ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾، برقم (٣٢٤٤).

المهم أنَّ ابن القيم أعطانا هذه الطريقة وهي جيِّدة، يقول: (فَابْذُرْ لَـهُمْ إِنْ كُنْتَ تَبْغِي كَشْفَهُمْ) باللِّين، افرش، والناس يقولون: أعطاه فرشه يعني: مَهَّد له الأمر حتى يستمكن منه.

٨١٣- وَاظْهَـرْ بِمَظْهَـرِ قَابِـلٍ مِـنْهُمْ وَلَا تَظْهَـرْ بِمَظْهَـرِ صَـاحِبِ النُّكْـرَانِ

وهذا صحيح، لأنك لو ظهرت بمظهر صاحب النكران -كما سبق- إن كان يرى أنه في مكان أعلى منك زجرك ونهرك حتى تَبْعُد، وإن كان له أتباع فمن يفكك منهم؟ وإن كان لا يرى ذلك فإنه يكتمك ولا يُخبرك، لكن أنت أعطه اللِّين.

٨١٤- وَانْظُـرْ إِلَى أَنْهَـارِ كُفْـرٍ فُجِّـرَتْ وَتَهِـمُّ لَـوْلَا السَّـيْفُ بِالْـجَرَيَانِ

قَوْلُهُ: «وَانْظُرْ إِلَى أَنْهَارِ كُفْرٍ فُجِّرَتْ» متى تنظر إليها؟

الجواب: إذا تَمَكَّنْتَ، ولا تتمكن إِلَّا بالطريقة التي ذكرها ابنُ القيم -رحمه الله-.

قَوْلُهُ: «وَتَهِمُّ لَوْلَا السَّيْفُ بِالْـجَرَيَانِ» يعني: لولا أنَّ هؤلاء الفلاسفة يخشون سيف الولاة لجرت أنهارُ الكفر من أفواههم وكتبهم، لكنهم يتسترون، ويتعاملون مع الزمن، إن وجدوا فرصةً لإظهار باطلهم أظهروه، وإن لم يجدوا فرصة كتموه.

هذا هو مذهب ابن سينا وأتباعه والاتِّحاديين، الكفر البواح بالله عزَّ وجلَّ الذي هو أكفر من كفر اليهود والنصارى، وكما علمتم مذهب الاتِّحاديين كيف يؤدي إلى هذا اللازم الخبيث، وهم مقرون بهذا، ولا ينكرونه، والعياذ بالله.

* * *

فصــل

فِي مَقَالاتِ طَوائِفِ الاتِّحَادِيةِ فِي كَلامِ الرَّبِّ ـ جَلَّ جَلالُهُ ـ

٨١٥- وَأَتَــتْ طَوَائِــفُ الاتِّحَــادِ بِمِلَّــةٍ   طَمَّــتْ عَــلَى مَــا قَــالَ كُــلُّ لِسَــانِ

٨١٦- قَــالُوا: كَــلامُ اللهِ كُــلُّ كَــلامِ هَــ   ذا الْـخَلْقِ مِــنْ جِــنٍّ وَمِــنْ إِنْسَــانِ

٨١٧- نَظْــمًا وَنَثْــرًا زُورُهُ وَصَــحِيحُهُ   صِــدْقًا وَكِــذْبًا وَاضِــحَ الْـبُطْلانِ

٨١٨- فَالسَّبُّ وَالشَّتْمُ الْقَبِـيحُ وَقَـذْفُهُمْ   لِلْمُحْصَنَاتِ وَكُلُّ نَوْعِ أَغَانِ

٨١٩- وَالنَّوْحُ وَالتَّعْزِيمُ وَالسِّحْرُ الْـمُبِيـ   ـنُ وَسَــائِرُ الْبُهْتَــانِ وَالْــهَذَيَانِ

٨٢٠- هُــوَ عَــيْنُ قَــوْلِ اللهِ جَــلَّ جَلالُــهُ   وَكَلامُــــهُ حَقًّـــا بِـــلا نُكْــرَانِ

٨٢١- هَــذَا الَّــذِي أَدَّى إِلَيْــهِ أَصْــلُهُمْ   وَعَلَيْــهِ قَــامَ مُكَسَّــحُ الْبُنْيَــانِ

٨٢٢- إِذْ أَصْــلُهُمْ أَنَّ الإِلَــهَ حَقِيقَــةً   عَيْنُ الْوُجُــودِ وَعَــيْنُ ذِي الأَكْــوَانِ

٨٢٣- فَكَلامُهَــا وَصِــفَاتُهَا هُــوَ قَوْلُــهُ   وَصِــفَاتُهُ مَــا هَــا هُنَــا قَــوْلانِ[1]

٨٢٤- وَكَذَاكَ قَالُوا: إِنَّهُ الْمَوْصُوفُ بِالضِّـ   ـضِدَّينِ مِــنْ قُــبْحٍ وَمِــنْ إِحْسَــانِ

٨٢٥- وَكَذَاكَ قَــدْ وَصَــفُوهُ أَيْضًــا بِــالْكَمَا   لِ وَضِــدِّهِ مِــنْ سَــائِرِ النُّقْصَــانِ

٨٢٦- هَــذِي مَقَــالاتُ الطَّوَائِــفِ كُلِّهَــا   حُمِلَــتْ إِلَيْــكَ رَخِيصَــةَ الأَثْــمَانِ

(١) في نسخة الحلبي: «غيران».

٨٢٧- وَأَظُنُّ لَوْ فَتَّشْتَ كُتْبَ النَّاسِ مَا ... أَلْفَيْتَهَا أَبَدًا بِذَا التِّبْيَانِ

٨٢٨- زُفَّتْ إِلَيْكَ فَإِنْ يَكُنْ لَكَ نَاظِرٌ ... أَبْصَرْتَ ذَاتَ الْحُسْنِ وَالإِحْسَانِ

الشرحُ

هذه المقطوعة من كلام المؤلف يُبيِّن فيها المذهب الأخير من مذاهب الناس في كلام الله، وهو مذهب أهل الاتِّحاد القائلين بوحدة الوجود، وأنَّ الرَّبَّ عينُ المربوب، والخالقَ عينُ المخلوق.

قالوا: فإذا كان الرَّبُّ عينَ المربوب، والخالقُ عينَ المخلوق لَزِم أن يكون كلامُ المخلوق هو كلام الخالق، فجعلوا كلامَ الله كلامَ المخلوقين، فكلامي وكلامُ زيد وعمرو وغيرهم هو كلام الله، لماذا؟ لأنني وأنت، وزيدًا وغيره، كُلَّنا الله -عياذًا بالله-، ولا فرق بين الخالق والمخلوق، قالوا: إنَّ المخلوق اتَّحد بالخالق فصارا واحدًا، فإذا قيل: كلام الله، فهو كلامُ كُلِّ ذي كلام، واستمع إذ يقول:

٨١٥- وَأَتَتْ طَوَائِفُ الاتِّحَادِ بِمِلَّةٍ ... طَمَّتْ عَلَى مَا قَالَ كُلُّ لِسَانِ

قَوْلُهُ: «وَأَتَتْ طَوَائِفُ الاتِّحَادِ» والاتِّحاد يعني: اتحاد الخالق بالمخلوق، وأنهما شيءٌ واحد.

٨١٦- قَالُوا: كَلامُ الله كُلُّ كَلامِ هَـ ... ـذا الْخَلْقِ مِنْ جِنٍّ وَمِنْ إِنْسَانِ

هذا كلام الله، فكلام الخلق هو كلام الله، يقول -رحمه الله-:

٨١٧- نَظْمًا وَنَثْرًا زُورُهُ وَصَحِيحُهُ ... صِدْقًا وَكِذْبًا وَاضِحَ الْبُطْلانِ

قَوْلُهُ: «نَظْمًا وَنَثْرًا» النظم كلام الله، والنثر كلام الله.

قَوْلُهُ: «زُورُهُ وَصَحِيحُهُ» يعني: الباطل والصحيح كله كلام الله.

قَوْلُهُ: «صِدْقًا وَكِذْبًا وَاضِحَ الْبُطْلانِ» أي: الصدق والكذب كُلُّه كلام الله.

٨١٨- فَالسَّبُّ وَالشَّتْمُ الْقَبِيحُ وَقَذْفُهُمْ لِلْمُحْصَنَاتِ وَكُلُّ نَوْعِ أَغَانِ

٨١٩- وَالنَّوْحُ وَالتَّعْزِيمُ وَالسِّحْرُ الْمُبِيـ ـنُ وَسَائِرُ الْبُهْتَانِ وَالْهَذَيَانِ

٨٢٠- هُوَ عَيْنُ قَوْلِ الله جَلَّ جَلالُهُ وَكَلامُهُ حَقًّا بِلا نُكْرَانِ

أعوذ بالله، قذف المحصنات هو كلام الله، فالرجل إذا قال لشخصٍ: يا زاني، فقوله: (يا زاني) هذا كلامُ الله، السَّبُّ والأغاني والشتم والسحر والعزائم كلها كلام الله.

٨٢١- هَذَا الَّذِي أَدَّى إِلَيْهِ أَصْلُهُمْ وَعَلَيْهِ قَامَ مُكَسَّحُ الْبُنْيَانِ

قَوْلُهُ: «هَذَا الَّذِي» يعني: كأنه قيل: لماذا؟ قال: هذا الذي أدَّى إليه أصلهم وعليه قام مُكَسَّح البنيان، يعني: البنيانُ الْمُكَسَّحُ الذي لا يستطيع أن يقوم، هذا قام على هذا الأصل.

٨٢٢- إِذْ أَصْلُهُمْ أَنَّ الإِلَهَ حَقِيقَةً عَيْنُ الْوُجُودِ وَعَيْنُ ذِي الأَكْوَانِ

هذا أصلهم أنَّ الإلهَ -سبحانه وتعالى- هو عينُ الوجود وعينُ هذه الأكوانِ، فالشمس هي الله، والقمر، والسماء، والأرض، والإنسان، والجن، كُلُّ شيء في الوجود فهو الله، فكلامه يكون هو كلام الله.

٨٢٣- فَكَلامُهَا وَصِفَاتُهَا هُوَ قَوْلُهُ وَصِفَاتُهُ مَا هَا هُنَا قَوْلانِ

قَوْلُهُ: «فَكَلامُهَا وَصِفَاتُهَا هُوَ قَوْلُهُ وَصِفَاتُهُ» يعني: كلامها هو قوله، وصفاتها هي صفاته.

قَوْلُهُ: «مَا هَا هُنَا قَوْلانِ» يعني: وما ها هنا صفتان، فما ها هنا قولان، لأنه قول واحد، كله قول الله، ولا هنا صفتان، لأنها كلها صفة لموصوف واحد.

٨٢٤- وَكَذَاكَ قَالُوا: إِنَّهُ الْمَوْصُوفُ بِالضْـ ـضِدَّينِ مِنْ قُبْحٍ وَمِنْ إِحْسَانِ

الموجودات فيها شيء قبيح، وفيها شيء حسن، كلها الله، إذن يوصف الله بالضدين: الحسن والقبح.

٨٢٥- وَكَذَاكَ قَدْ وَصَفُوهُ أَيْضًا بِالْكَمَا لِ وَضِدِّهِ مِنْ سَائِرِ النُّقْصَانِ

هذا مذهب الاتِّحاديين القائلين بأنَّ المخلوقَ والخالقَ شيءٌ واحد، فكلامُ المخلوق هو كلامُ الخالق، وكلامُ الخالق هو كلامُ المخلوق.

وهذا المذهب لولا أنه كما قال المؤلف ولولا أنه ذُكِر ما صَدَّقنا أنَّ أحدًا يذهب إليه.

٨٢٦- هَـذِي مَقَالاتُ الطَّوَائِفِ كُلِّهَا حُمِلَتْ إِلَيْكَ رَخِيصَةَ الأَثْمَانِ

٨٢٧- وَأَظُنُّ لَوْ فَتَّشْتَ كُتْبَ النَّاسِ مَا أَلْفَيْتَهَا أَبَدًا بِذَا التِّبْيَانِ

٨٢٨- زُفَّتْ إِلَيْكَ فَإِنْ يَكُنْ لَكَ نَاظِرٌ أَبْصَرْتَ ذَاتَ الْحُسْنِ وَالإِحْسَانِ

نقول: جزى الله المؤلف خيرًا، جمعها لنا وَزَفَّها إلينا، ولو فتَّشنا في غير هذا الكتاب لم نجدها مجموعة هذا الجمع، لكن هذا من نعمة الله على المؤلف، ومن نعمة الله على مَن انتفع بمُؤلَّفه أن جُمِعت الأقاويل وحُصِرَت.

* * *

ثُمَّ شرع المؤلف يَرُدُّ على هذه المذاهب، فقال:

٨٢٩- فَاعْطِفْ عَلَى الجَهْمِيَّةِ الْـمُغْلِ الأُلَى ... خَرَقُوا سِيَاجَ الْعَقْلِ وَالْقُرْآنِ

٨٣٠- شَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ وَاكْسِرْهُمُ ... بَلْ نَادِ فِي نَادِيهِمُ بِأَذَانِ

٨٣١- أَفْسَدْتُمُ الْـمَنْقُولَ وَالْـمَعْقُولَ وَالْـ ... ـمَسْمُوعَ مِنْ لُغَةٍ بِكُلِّ لِسَانِ

٨٣٢- أَيَصِحُّ وَصْفُ الشَّيْءِ بِالْـمُشْتَقِّ لِلْـ ... ـمَسْلُوبِ مَعْنَاهُ لِذِي الأَذْهَانِ

٨٣٣- أَيَصِحُّ صَبَّارٌ وَلَا صَبْرٌ لَهُ؟! ... وَيَصِحُّ شَكَّارٌ بِلَا شُكْرَانِ؟!

٨٣٤- وَيَصِحُّ عَلَّامٌ وَلَا عِلْمٌ لَهُ؟! ... وَيَصِحُّ غَفَّارٌ بِلَا غُفْرَانِ؟!

٨٣٥- وَيُقَالُ: هَذَا سَامِعٌ أَوْ مُبْصِرٌ ... وَالسَّمْعُ وَالإِبْصَارُ مَفْقُودَانِ

٨٣٦- هَذَا مُحَالٌ فِي الْعُقُولِ وَفِي النُّقُو ... لِ وَفِي اللُّغَاتِ وَغَيْرُ ذِي إِمْكَانِ

٨٣٧- فَلَئِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّهُ مُتَكَلِّمٌ ... لَكِنْ بِقَوْلٍ قَامَ بِالإِنْسَانِ

٨٣٨- أَوْ غَيْرِهِ، فَيُقَالُ: هَذَا بَاطِلٌ ... وَعَلَيْكُمُ فِي ذَاكَ مَحْذُورَانِ

٨٣٩- نَفْيُ اشْتِقَاقِ اللَّفْظِ لِلْمَوْجُودِ مَعْـ ... ـنَاهُ بِهِ وَثُبُوتُهُ لِلثَّانِي

٨٤٠- أَعْنِي الَّذِي مَا قَامَ مَعْنَاهُ بِهِ ... قَلْبُ الْـحَقَائِقِ أَقْبَحُ الْبُهْتَانِ

٨٤١- وَنَظِيرُ ذَا أَخَوَانِ: هَذَا مُبْصِرٌ ... وَأَخُوهُ مَعْدُودٌ مِنَ الْعُمْيَانِ

٨٤٢- سَمَّيْتُمُ الأَعْمَى بَصِيرًا إِذْ أَخُو ... هُ مُبْصِرٌ وَبِعَكْسِهِ فِي الثَّانِي

٨٤٣- فَلَئِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّ ذَلِكَ ثَابِتٌ ... فِي فِعْلِهِ كَالْـخَلْقِ لِلأَكْوَانِ

٨٤٤- وَالْفِعْلُ لَيْسَ بِقَائِمٍ بِإِلَهِنَا ... إِذْ لَا يَكُونُ مَحَلَّ ذِي حِدْثَانِ

٨٤٥- وَيَصِحُّ أَنْ يُشْتَقَّ مِنْهُ خَالِقٌ ... فَكَذَلِكَ الْمُتَكَلِّمُ الْوَحْدَانِ

٨٤٦- هُوَ فَاعِلٌ لِكَلَامِهِ وَكِتَابِهِ ... لَيْسَ الْكَلَامُ لَهُ بِوَصْفِ مَعَانِ

الشرحُ

شرع المؤلف -رحمه الله- في هذه المقطوعة يَرُدُّ على هؤلاء المنحرفين في عقيدتهم في كلام الله، فبدأ أولًا بالجهمية، وهم أتباع الجهم بن صفوان أول مَنْ قال بالتعطيل حينما قال: إنَّ الله لم يتخذ إبراهيم خليلًا، ولم يكلِّم موسى تكليمًا.

فالجهمية يقولون: إنَّ الله متكلِّم، أي: خالقٌ للكلام في غيره، أما هو نفسه فلم يتكلَّم، لكن يَخْلُقُ الكلام، فيضيفه إلى نفسه تشريفًا وتعظيمًا كما خلق الناقة وأضافها إلى نفسه، فقال: ﴿نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف:٧٣] تشريفًا وتعظيمًا، وكما خلق البيت وأضافه إلى نفسه، فقال: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ [الحج:٢٦] تشريفًا وتكريمًا، وكما أضاف محل عبادته إلى نفسه وهي المساجد، فقال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١١٤].

إِذَنْ كلام الله هو كلامٌ مخلوق خلقه في غيره، لكن أضافه إلى نفسه من باب التشريف، أما الله نفسه فلا يمكن أن يتكلَّم، وسيأتي بيان علتهم.

إِذَنْ كلامُ الله -عندهم- هو كلام مخلوق في غيره، أُضيف إلى نفسه على وجه التشريف والتعظيم، أما الله فلا يمكن أن يتكلَّم، فلا يمكن أن يقول الله أبدًا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢]، ولا يمكن أن يقول: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠]، لكن خلق كلامًا بهذه الحروف، سمعه جبريل، فنزل به إلى محمد، وليس الله هو الذي قال لموسى: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠

﴿فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه:١٤]، لكنه خلقه في شيء، إما في الهواء، وإما في الشجرة، وإما في كذا وكذا، وسمعه موسى، أما الله فلم يتكلَّم.

يقول ابن القيم -رحمه الله-:

٨٢٩- فَاعْطِفْ عَلَى الجَهْمِيَّةِ الْـمُغْلِ الأُلَى ... خَرَقُوا سِيَاجَ الْعَقْلِ وَالْقُرْآنِ

قَوْلُهُ: «فَاعْطِفْ عَلَى الْـجَهْمِيَّةِ الْـمُغْلِ الأُلَى» (الْـمُغْلِ): يعني: المغول، المغول هم التتار الذين خرجوا على المسلمين، فأفسدوا الدنيا والدين، وأصل طامَّة المغول من الجهمية، لأنَّ كُلَّ تعطيل فأصله من الجهمية، كما أنَّ كُلَّ خروج على الأئمة فأصله من الخوارج، وكما أن كُلَّ غلو في آل البيت فأصله من الرافضة، وهكذا فأصول البدع كلها معروفة والحمد لله.

فالجهمية هم أصل التعطيل، وكان على مذهبهم هؤلاء المغول الذين أفسدوا الدنيا والدين.

قَوْلُهُ: «خَرَقُوا سِيَاجَ الْعَقْلِ وَالْقُرْآنِ» سياج الشيء: ما أحاط به من سورٍ، فهم خرقوا سياج العقل والنقل.

نأخذ أنهم خرقوا سياج النقل من قوله: «**وَالْقُرْآنِ**».

٨٣٠- شَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ وَاكْسِرْهُمُ ... بَلْ نَادِ فِي نَادِيهِمُ بِأَذَانِ

قَوْلُهُ: «شَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ وَاكْسِرْهُمُ» يعني: نَكِّل بهم نكالًا يهرب به مَنْ خلفهم، كما قال الله تعالى: ﴿فَشَرِّدۡ بِهِم مَّنۡ خَلۡفَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأنفال:٥٧] فمعنى تشريد مَن خلفهم أن يُنكِّلَ بهم حتى يُشَرِّد مَنْ خلفهم من شدة ما يرى من التنكيل بهم، يخشى أن يصيبه ما أصابهم.

قَوْلُهُ: «بَلْ نَادِ فِي نَادِيهِمُ بِأَذَانِ» (نَادِيهم) أي: مجتمعهم، وقوله: «بأذان» أي: بإعلام.

٨٣١- أَفْسَدْتُمُ الْـمَنْقُولَ وَالْـمَعْقُولَ وَالْـ ـــمَسْمُوعَ مِـنْ لُغَـةٍ بِكُـلِّ لِسَـانِ

يعني: كلامكم هذا أفسد المعقولَ والمنقولَ والمسموعَ من اللغات.

إِذَنْ أفسد العقل والنقل واللغة، ثُمَّ بَيَّن فسادَه فقال:

٨٣٢- أَيَصِحُّ وَصْفُ الشَّيْءِ بِالْـمُشْتَقِّ لِلْـ ـــمَسْلُوبِ مَعْنَـاهُ لِـذِي الأَذْهَـانِ

يعني: كيف يصحُّ أن تصف الشيء بمشتق وهو لا يتضمن معناه؟! هل يصحُّ أن تقول للقاعد: (أنت قائم)؟ الجواب: لا، لأنك لو قلت للقاعد: قائم، وصفت هذا القاعد بوصف مسلوب منه، يعني منتفيًا عنه، فهل يصحُّ أن يوصف الشيء بالمشتق للمسلوب معناه لذي الأذهان؟ الجواب: كلا، لا يَصِحُّ أبدًا.

٨٣٣- أَيَصِـحُّ صَـبَّارٌ وَلَا صَـبْرٌ لَـهُ؟! وَيَصِـحُّ شَـكَّارٌ بِـلَا شُـكْرَانِ؟!

٨٣٤- وَيَصِـحُّ عَـلَّامٌ وَلَا عِلْـمٌ لَـهُ؟! وَيَصِـحُّ غَفَّـارٌ بِـلَا غُفْـرَانِ؟!

يعني: هل يصحُّ أن يوصف الشيء بالمشتق وليس فيه ذلك المشتقُّ فضلًا عن أن يُوصَفَ به غيرُه؟!

الجواب: لا يَصِحُّ أبدًا.

٨٣٥- وَيُقَـالُ: هَـذَا سَـامِعٌ أَوْ مُبْصِـرٌ وَالسَّـمْعُ وَالإِبْصَـارُ مَفْقُـودَانِ

لو رأيت أصمَّ فضربت المدفع عند أذنه ما سمع، فإذا قلت: ما شاء الله، هذا الرجل سَمْعُه يخرق الجدران، فلا يصحُّ هذا، فلا يصحُّ أن نقول: إنه سميع.

أيضًا هل يصح أن يقال: هذا مبصر، والبصر مفقود منه؟

فلو عندك رجل أعمى، فقلت: ما شاء الله، هذا الرجل يبصر النملة السوداء في الليلة الظلماء، نقول: هذا غير صحيح، فلو قلت هذا لرماك الناس بالجنون، لأنَّ هذا لا يمكن، ولهذا قال:

٨٣٦- هَـذَا مُحَـالٌ فِي الْعُقُـولِ وَفِي النُّقُـو　　　لِ وَفِي اللُّغَـاتِ وَغَـيْرُ ذِي إِمْكَـانِ

مستحيل أن تصف شخصًا بالبصر وهو أعمى، وبالسمع وهو أصمٌّ، وبالصبر وهو جزوع، وبالشكر وهو كفور، لا يمكن هذا أبدًا.

٨٣٧- فَلَـئِنْ زَعَمْـتُمْ أَنَّـهُ مُـتَكَلِّمٌ　　　لَكِـنْ بِقَـوْلٍ قَـامَ بِالإِنْسَـانِ

٨٣٨- أَوْ غَـيْرِهِ، فَيُقَـالُ: هَـذَا بَاطِـلٌ　　　وَعَلَـيْكُمُ فِي ذَاكَ مَحْـذُورَانِ

إذا قالوا نحن نقول: الله متكلِّم بكلامٍ قامَ بالإنسان، أو قامَ بغيرِ الإنسان مثل: جبريل، الشجرة، الهواء، المهم إذا قلتم: نُقِرُّ بأنَّ اللهَ متكلِّم لكن بكلامٍ قامَ بغيرِه، هل هذا صحيح؟!

يعني: لو قيَّد وقال: متكلِّم هو نفسه بكلامٍ قامَ بغيرِه، فيُقال: هذا باطل، يعني: هذا الكلام باطل، ولا يمكن أن نقول: إنه متكلِّم بكلامٍ قام بغيره.

قَوْلُهُ: «وَعَلَيْكُمُ فِي ذَاكَ مَحْذُورَانِ» في أيِّ شيء؟ يعني: إذا قلتم: إنه متكلِّم بكلامٍ قامَ بغيره عليكم بذلك محذوران: الأول: قال -رحمه الله-:

٨٣٩- نَفْيُ اشْتِقَاقِ اللَّفْظِ لِلْمَوْجُـودِ مَعْـ　　　ـنَاهُ بِـهِ وَثُبُوتُـهُ لِلثَّـانِي

قَوْلُهُ: «نَفْيُ اشْتِقَاقِ اللَّفْظِ لِلْمَوْجُودِ مَعْنَاهُ بِهِ» هذا واحد، لأنهم نَفَوْا أن يكونَ الكلامُ قائمًا بالله.

قَوْلُهُ: «وَثُبُوتُهُ لِلثَّانِي» أي: جعلوا الكلام ثابتًا للمخلوق، يعني: لغيرِ الله فهو إِمَّا للإنسان، وإمَّا لجبريل أو لغيره، فصار في ذلك محذوران:

المحذور الأول: أنكم نَفَيْتُم الكلام عن الله، مع أنه هو الموصوف به.

المحذور الثاني: أنكم أثبتم الكلام لغير الله وهو لم يتكلَّم به.

فأخطأوا في الأمرين.

٨٤٠- أَعْنِـي الَّـذِي مَـا قَـامَ مَعْنَـاهُ بِـهِ قَلْـبُ الْـحَقَائِقِ أَقْـبَحُ الْبُهْتَـانِ

وهذه قاعدة مفيدة وهي: (قلب الحقائق أقبح البهتان)، وهذا الكلام الذي قاله الجهمية قلبٌ للحقائق، وليس مطابقًا لها.

فقلب الحقائق أقبح البهتان، وما أكثرَ قلبَ الحقائق في إذاعات العرب اليوم! يقولون أشياء ليس لها أصل، يقلبون الحقائق، فالحقائق تشاهد، وهم يقلبونها إلى أمور مخالفة للمُشَاهِد، لكن هذه القاعدة تفيدهم، ولهذا يحسن أن تستشهد بهذا الشطر على إذاعاتِ كثيرٍ من العرب اليوم، فتقول: (**قَلْبُ الْـحَقَائِقِ أَقْبَحُ الْبُهْتَانِ**).

ثُمَّ أراد المؤلف أن يمثل المعقول بالمحسوس فقال:

٨٤١- وَنَظِـيرُ ذَا أَخَـوَانِ: هَـذَا مُبْصِـرٌ وَأَخُـوه مَعْـدُودٌ مِـنَ الْعُمْيَـانِ

وأخوه إذا كان معدودًا من العميان فإنه يكون أعمى.

٨٤٢- سَـمَّيْتُمُ الأَعْمَـى بَصِـيرًا إِذْ أَخُـو هُ مُبْصِـرٌ وَبِعَكْسِـهِ فِي الثَّـانِي

قَوْلُهُ: «وَبِعَكْسِهِ فِي الثَّانِي» يعني: سمَّيتم البصيرَ أعمى.

فعندنا أخوان: أحدهما أعمى، والثاني: مبصر، فقلنا للأعمى: هَنَّأَكَ الله بالبصر القوي، وقلنا للبصير: جَبَرَ الله مصيبتك بالعمى، فوصفنا البصير بأنه أعمى، فقال: لستُ أعمى، فأنا بصير أرى، قالوا: لا، نقلنا الوصف من أخيك إليك، ونقلنا وصفك إلى أخيك، فأخوك نسمِّيه مبصرًا، وأنت نسمِّيك أعمى.

فهذا يقيم دعوى علينا، وأما أخوه فإنه يفرح، ويجعله عيدًا.

على كل حال ابن القيم -رحمه الله- يقول: هل هذا معقول أنك تسمِّي الأعمى بصيرًا والبصير أعمى؟!

الجواب: غير معقول، أنتم الآن تقولون: إنَّ الله متكلِّم والكلام لغيره! فإذا كان غير الله يتكلَّم فالله لا يتكلَّم، وإذا كان الله هو الذي يتكلَّم فغيرُه لا يتكلَّم، أمَّا أن تقول: الله متكلِّم وكلامه هو ما سُمِعَ من جبريل، وما سمع من الشجرة، وما سمع في الهواء، أما ذات الله فلا.

يقول ابن القيم:

٨٤٣- فَلَئِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّ ذَلِكَ ثَابِتٌ ... فِي فِعْلِهِ كَالْخَلْقِ لِلأَكْوَانِ

٨٤٤- وَالْفِعْلُ لَيْسَ بِقَائِمٍ بِإِلَهِنَا ... إِذْ لَا يَكُونُ مَحَلَّ ذِي حِدْثَانِ

هم قالوا: أنتم تقولون: لا يمكن أن يُوصفَ بالكلامِ الذي كان قائمًا بغيره، ولكننا لا نُسَلِّم بهذا، وعندنا مثال: الخَلْق فعل قائم بالمخلوق، انتبه للتنظير لتعرف هل هذا التنظير صحيح أو غير صحيح؟

هم يقولون: عندنا قاعدة، وهي: أنَّ الحوادث لا تقوم بالله، فكلُّ شيء حادث لا يمكن أن يقوم بالله، يعني: لا يمكن أن يَتَّصِف به الله، فكلُّ شيء

حادث، والكلام عندهم حادث، كما هو عند أهل السُّنة، يتعلَّق بالمشيئة، والخلق حادث يتعلَّق بالمشيئة لقوله تعالى: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ [آل عمران:٤٧].

يقولون: الخلق لا يقوم بالله، والكلام لا يقوم بالله، والاستواء على العرش لا يقوم بالله، فكُلُّ شيء يتضمن الحدوث فإنه لا يقوم بالله، لماذا؟ قالوا: لأنَّ ما قام به الحادث فهو حادث، وهذه قاعدة عندهم.

فنقول: هذا غير صحيح، فهذه القاعدة باطلة من أصلها، لأنكم إذا قلتم بقيام الحوادث بالله لَزِم أن يكون الله حادثًا، فالحوادث فعل المُحْدِث، والفاعل لا بدَّ أن يَتقدَّم على الفعل، والفعل لا بدَّ أن يتقدَّم على المفعول أو على الأقل يكون مقارنًا له، أمَّا أن نقول: كُلُّ ما قام به حادث فهو حادث، فهذا ليس بصحيح.

وعندنا أيضًا دليل -من أنفسنا- مِنَّا مخلوق منذ عشرين سنة، ثُمَّ قام الآن الساعة السابعة والربع فهل يلزم أن يكون حادثًا الساعة السابعة والربع وهو منذ عشرين سنة؟

الجواب: لا يلزم، فصحَّ أنَّ الفاعلَ يسبقُ الفعلَ، وأنه لا يلزم من حدوث الفعل أن يكون الفاعلُ حادثًا، فهذا الإنسان بالنسبة لفعله قديم، لأنَّ له عشرين سنة، والفعل لم يحصل إِلَّا في هذا الوقت.

إِذَنْ لا يلزم من حدوث الشيء أن يكون ما حدث به الشيءُ حادثًا، فليتقدم هذا بالزمان، فالله عزَّ وجلَّ تقوم به الحوادث بمعنى أنه يفعل ما يشاء فعلًا متجددًا حادثًا بعد أن لم يكن، ومع ذلك هو بنفسه قديم أزليٌّ.

قَوْلُهُ: «**وَالْفِعْلُ لَيْسَ بِقَائِمٍ بِإِلَـهِنَا... إلخ**» هذا قول الجهمية.

٨٤٥- وَيَصِــحُّ أَنْ يُشْــتَقَّ مِنْــهُ خَــالِقٌ فَكَـــذَلِكَ الْـــمُتَكَلِّمُ الْوَحْـــدَانِ

يعني: الفعل (الخلق) متعلِّق بالمخلوق، ويَصِحُّ أن يُشْتَقَّ منه خالق مع أنَّ الفعلَ قائمٌ بغيره، إذ إنَّ المخلوقَ منفصلٌ عن الله، فيقول: وكذلك الكلام، ولذا قال:

٨٤٦- هُــوَ فَاعِــلٌ لِكَلَامِــهِ وَكِتَابِــهِ لَـيْسَ الْكَـلَامُ لَـهُ بِوَصْـفِ مَعَـانِ

فيدَّعون أنه إذا قيل: متكلِّم يعني: خالقًا للكلام، كما إذا قيل: خالق، فالمخلوق منفصل بائن.

ونحن نُجِيبهم على هذا بأنَّ الخلقَ غيرُ المخلوق، فالخلقُ فعلُ الخالق، والمخلوق مفعول الخالق، أنت الآن لو صنعت شيئًا فهذا مصنوع، وفعله صُنْع، ولو بنيت بيتًا، فهذا مَبْنِيٌّ وفعله بناء، إذن فالخلق بمعنى المخلوق منفصل بائن عن الخالق، والخلقُ وصفه القائم به، لكن لَـمَّا كان الكلام لا يتعدَّى، والخلق يتعدَّى، فيقال: خلق كذا، أما الكلام فصِفةٌ لازمة للمتكلِّم، لا يتعدَّى، صار لا يتعلَّق به مفعول، مع أنه يمكن أن نقول: إنَّه قد يتعلَّق به المفعول فيقال: إنَّ الله متكلِّم والرسول ﷺ مُكَلَّم، كما جاء في الحديث عن آدم: «أنه نَبِيٌّ مُكَلَّم»[1]، وحينئذٍ تكون (مُكَلَّم) من حيث المعنى على وزن مخلوق.

فعندنا متكلِّم وهو الله، وكلام وهو فعله، ومُكَلَّم وهم المخلوقون، ولا فرق بين الخلق وبين الكلام.

* * *

(١) أخرجه أحمد في المسند، حديث أبي ذر الغفاري، برقم (٢٢١٦٧).

٨٤٧- وَمُخَالِفُ الْـمَعْقُولِ وَالْـمَنْقُولِ وَالْـ ـــفِطْرَاتِ وَالْـمَسْمُوعِ لِلإِنْسَانِ

٨٤٨- مَنْ قَالَ إِنَّ كَلَامَهُ سُبْحَانَهُ وَصْفٌ قَدِيمٌ أَحْرُفٌ وَمَعَانِ

٨٤٩- وَالسِّينُ عِنْدَ الْبَاءِ لَيْسَتْ بَعْدَهَا لَكِنْ هُمَا حَرْفَانِ مُقْتَرِنَانِ

٨٥٠- أَوْ قَالَ: إِنَّ كَلَامَهُ سُبْحَانَهُ مَعْنًى قَدِيمٌ قَامَ بِالرَّحْمَنِ

٨٥١- مَا إِنْ لَهُ كُلٌّ وَلَا بَعْضٌ وَلَا الْـ ـعَرَبِي حَقِيقَتُهُ وَلَا الْعِبْرَانِي

٨٥٢- وَالأَمْرُ عَيْنُ النَّهْيِ وَاسْتِفْهَامُهُ هُوَ عَيْنُ أَخْبَارٍ بِلَا فُرْقَانِ

٨٥٣- وَكَلَامُهُ كَحَيَاتِهِ مَا ذَاكَ مَقْـ ـدورًا لَهُ بَلْ لَازِمُ الرَّحْمَنِ

٨٥٤- هَذَا الَّذِي قَدْ خَالَفَ المَعْقُولَ وَالْـ ـمَنْقُولَ وَالْفِطْرَاتِ لِلإِنْسَانِ

٨٥٥- أَمَّا الَّذِي قَدْ قَالَ: إِنَّ كَلَامَهُ ذُو أَحْرُفٍ قَدْ رُتِّبَتْ بِبَيَانِ

٨٥٦- وَكَلَامُهُ بِمَشِيئَةٍ وَإِرادةٍ كَالْفِعْلِ مِنْهُ كِلَاهُمَا سِيَّانِ

٨٥٧- فَهْوَ الَّذِي قَدْ قَالَ قَوْلًا يَعْلَمُ الْـ ـعُقَلَاءُ صِحَّتَهُ بِلَا نُكْرَانِ

٨٥٨- فَلِأَيِّ شَيْءٍ كَانَ مَا قَدْ قُلْتُمُ أَوْلَى وَأَقْرَبَ مِنْهُ لِلْبُرْهَانِ؟!

٨٥٩- وَلِأَيِّ شَيْءٍ دَائِمًا كَفَّرْتُمُ أَصْحَابَ هَذَا الْقَوْلِ بِالْعُدْوَانِ؟!

٨٦٠- فَدَعُوا الدَّعَاوَى وَابْحَثُوا مَعْنا بِتَحْـ ـقِيقٍ وَإِنْصَافٍ بِلَا عُدْوَانِ

٨٦١- وَارْفُوا مَذَاهِبَكُمْ وَسُدُّوا خَرْقَهَا إِنْ كَانَ ذَاكَ الرَّفْوُ فِي الإِمْكَانِ

٨٦٢- فَاحْكُمْ -هَدَاكَ اللهُ- بَيْنَهُمُ فَقَدْ أَدْلَوْا إِلَيْكَ بِحُجَّةٍ وَبَيَانِ

٨٦٣- لَا تَنْصُرَنَّ سِوَى الْـحَدِيثِ وَأَهْلِهِ هُـمْ عَسْـكَرُ الْقُـرْآنِ وَالإِيـمَانِ

٨٦٤- وَتَحَيَّـزَنَّ إِلَـيْهِمُ لَا غَـيْرِهِمْ لِتكُـونَ مَنْصُـورًا لَـدَى الـرَّحْمَنِ

٨٦٥- فَنَقُولُ: هَـذَا الْقَـدْرُ قَـدْ أَعْيَا عَـلَى أَهْـلِ الْكَـلَامِ وقـاده أصـلان

٨٦٦- إِحْـدَاهُمَا: هَـلْ فِعْلُـهُ مَفعُولُـهُ أَوْ غَـيْرُهُ فَهُـمَا لَـهُمْ قَـوْلَانَ

٨٦٧- وَالْقَـائِلُونَ بِأَنَّـهُ هُـوَ عَيْنُـهُ فَـرُّوا مِـنَ الأَوْصَـافِ بِالْـحِدْثَانِ

٨٦٨- لَكِـنْ حَقِيقَـةُ قَوْلِـهِمْ وَصَرِيحُـهُ تَعْطِيـلُ خَـالِقِ هَـذِهِ الأَكْـوَانِ

٨٦٩- عَـنْ فِعْلِـهِ إذ فِعْلُـه مَفْعُولُـه لكنَّـه مـا قـامَ بـالرَّحْمنِ

٨٧٠- فَعَلَى الْـحَقِيقَةِ مَا لَـهُ فِعْـلٌ إِذِ الْـ ـمَفْعُولُ مُنْفَصِـلٌ عَـنِ الـدَّيَّانِ

الشرحُ

لما بَيَّن المؤلف -رحمه الله- أنَّ كلام الجهمية مخالفٌ للمعقول والمنقول والفطرة ذكَرَ أنَّ الجهمية قالوا: ليس كلامنا بمخالفٍ للفطرة، المخالف للفطرة مَنْ قال: إنَّ كلامه -سبحانه- هو وصف قديم، قال المؤلف:

٨٤٧- وَمُخَالِفُ الْـمَعْقُولِ وَالْـمَنْقُولِ وَالْـ ـفِطْرَاتِ وَالْـمَسْمُوعِ لِلإِنْسَانِ

قَوْلُهُ: «وَالْـمَنْقُولِ» الكتاب، والسُّنة، وإجماع السلف.

قَوْلُهُ: «الْفِطْرَاتِ»: الفطرة التي فُطِرَ الإنسان عليها، وهي ما يهتدي الإنسان بها إلى الأمور البديهية.

قَوْلُهُ: «الْـمَسْمُوعِ لِلإِنْسَانِ» يعني: اللغة، لأنَّ اللغة ألفاظ تُنْقَل وتُسْمَع.

المخالف لهذه الأشياء الأربعة مَنْ هو؟ قال:

٨٤٨- مَــنْ قَــالَ إِنَّ كَلَامَــهُ سُــبْحَانَهُ   وَصْــفٌ قَـدِيمٌ أَحْـرُفٌ وَمَعَـانِ

٨٤٩- وَالسِّينُ عِنْـدَ الْبَـاءِ لَيْسَـتْ بَعْـدَهَا   لَكِــنْ هُمَــا حَرْفَــانِ مُقْتَرِنَــانِ

يشير إلى مذهب الاقترانية الذين قالوا: إنَّ كلام الله وصفٌ قديم لا يتعلَّق بمشيئته ولا بإرادته، وأنه أحرف ومعانٍ، لكن الأحرف مقترنة، فالسين في قولك (**بسم الله الرحمن الرحيم**) عند الباء مقارنة لها، ليست بعدها، لكن هما حرفان مقترنان.

هل هذا متصور؟!

كُلٌّ يعرف أنَّ السين بعد الباء في (**بسم الله الرحمن الرحيم**)، هم يقولون: لا، السين والباء واحدة.

هذا غير ممكن لا في العقل، ولا في النقل، ولا في اللغات كلها.

إِذَنْ هذا مذهب الاقترانية الذين يقولون: إنَّ كلام الله وصف قديم لا يتعلَّق بمشيئته، كلام الله معنًى وحرف، لكن الحروف مقترنة، كُلُّ كلامِ الله يخرج مقترنًا، فالباء، والسين، والميم، والألف، واللام، والراء، والحاء، والميم، والألف، والنون، كُلُّ الكلام يخرج مقترنًا، ولا يوجد فيه حرف قبل حرف.

وهذا مخالف للمعقول والمنقول والفطرة واللغات، كُلٌّ إذا خاطبته أو إذا قرأ كلام الله عَرَف أنَّ كُلَّ حرف يتلو الحرفَ الآخَرَ.

القول الثاني: الذي خالف المعقولَ، والمنقولَ، والفطرات، والكلام للجهمية الذين يريدون أن ينكروا على الاقترانية وعلى الطائفة الثانية وهم الأشاعرة.

٨٥٠- أَوْ قَـالَ: إِنَّ كَلَامَـهُ سُـبْحَانَهُ مَعْنًـى قَـدِيمٌ قَـامَ بِـالرَّحْمَنِ

هؤلاء الأشاعرة يقولون: كلام الله معنى قديم قام به كقيام الحياة والعلم، الحياةُ والعلمُ معنًى قديم، لم يزل الله حيًّا عليمًا، هم يقولون: الكلام معنى قديم ليس بحرف، لم يتكلَّم الله بحروف إطلاقًا، ولا تكلَّم بكلامٍ يُسْمَعُ إطلاقًا، إنما كلامه هو المعنى القديم القائم بنفسه.

وهذا ضلال، ومذهب خاطئ، فهم يقولون: كلام الله هو المعنى القديم القائم بنفسه، أمَّا إنَّه المسموع بالآذان فكَلَّا، وأما إنه الحروف المتتابعة فكلَّا، فهو المعنى القائم بنفسه.

حقيقة الأمر أنهم فسَّروا الكلام بالعلم، هذا هو حقيقة مذهبهم، لأنه إذا كان الكلام هو المعنى القائم بنفسه، يعني المعنى الذي عَلِم الله أنه سيتكلَّم في يوم كذا، فهذا هو العلم حقيقةً، ولهذا مِنْ أَبْطَلِ ما يكون قولُ الأشاعرة في كلام الله، لأنَّ هذا ليس بكلام بل هذا علم، وانظر ماذا قال:

٨٥١- مَـا إِنْ لَـهُ كُـلٌّ وَلَا بَعْـضٌ وَلَا الْـ ـعَـرَبِـي حَقِيقَتُـهُ وَلَا الْعِبْرَانِـي

قَوْلُهُ: «مَا إِنْ لَهُ كُلٌّ وَلَا بَعْضٌ» يعني: لا تقل: (قرأتُ كُلَّ الفاتحة أو بعضها)، على أنها هي كلام الله، هذا مستحيل، فكلام الله لا يَتبَعَّض، وليس له كُلٌّ، وليس له بعض، لأنه معنًى قائم بالنفس، هذا هو السبب أنه لا يَتجزَّأ، يعني: ما له كُلٌّ ولا بعض، لأنه معنى قائم بالنفس، فهو وصف، هو متكلِّم، لكن بدون كلام يَتجزَّأ أو يَتبعَّض أو يُسْمَع.

قَوْلُهُ: «وَلا الْعَرَبِي حَقِيقَتُهُ وَلا الْعِبْرَانِي» أيضا العربي هو الذي نزل على محمد ﷺ، والعبراني هو التوراة، يقول: لا نقول: كلام الله عربي ولا كلام الله عبراني،

لأنَّ وصف العربي والعبراني إنما هو للمسموع، وكلام الله معنًى قائم بنفسه ولا يُسْمَع، فلا نقول: كلام الله عربي، ولا نقول عبراني، ولا سُرْياني، لأنَّ هذا الوصف إنما ينطبق على المسموع، وكلام الله لا يسمع، لأنه معنًى قائم بنفسِه.

٨٥٢- وَالأَمْـرُ عَـيْنُ النَّهْـيِ وَاسْـتِفْهَامُهُ هُـوَ عَـيْنُ أَخْبَـارٍ بِـلَا فُرْقَـانِ

قَوْلُهُ: «وَالأَمْرُ عَيْنُ النَّهْيِ»: فقوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الإسراء:٧٨] وقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ [الإسراء:٣٢] هما شيء واحد.

الأمر عين النهي، سبحان الله! إذا قال الله: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الإسراء:٧٨]، أو ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ [الإسراء:٣٢] فهما شيء واحد، إذا قرأت القرآن والتوراة فهما شيء واحد، لأنه لا يوصف بعربي ولا عبراني، إذ هو شيء واحد، ولا بأمر ولا بنهي.

قَوْلُهُ: «وَاسْتِفْهَامُهُ هُوَ عَيْنُ أَخْبَارٍ» ويجوز أيضًا: (إِخْبَارٍ).

قَوْلُهُ: «وَالأَمْرُ عَيْنُ النَّهْيِ وَاسْتِفْهَامُهُ... هُوَ عَيْنُ أَخْبَارٍ بِلَا فُرْقَانِ» هذه أربعة أشياء: الأمر، والنهي، والاستفهام، والرابع: الخبر، كُلُّها عندهم شيء واحد، فقوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الإسراء:٧٨] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت:٤٥] هاتان آيتان أو جملتان، الأولى: أمر، والثانية: خبر، فهما شيء واحد.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:١٣] هذا استفهام، وهو كقوله تعالى: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ [الرحمن:٥٠] خبر، فالخبر والاستفهام شيء واحد، والأمر والنهي شيء واحد، والأربعة كُلُّها شيء واحد.

وهذا بالنسبة لكلام الله شيء واحد، لأنهم يقولون: إنَّ الكلام وصف أو معنًى قائم بنفسه، والمعنى لا يتجزَّأ ولا يتنوَّع، كما أنَّ حياة الله هل هي تتبعَّض أو تتجزَّأ ؟ الجواب: لا، وهل هي تَتَنوَّع؟ الجواب: لا، كلامه كذلك هو معنى فقط، ويقال: متكلِّم لكن حقيقة الأمر أنْ لا كلام، ولهذا كان الجهمية خيرًا منهم من وجه، لأنهم يقولون: كلام الله حروف وأصوات متعلِّق بمشيئته، والقرآن الذي نقرؤه هو كلام الله، هؤلاء يقولون: لا، كلام الله لا يتعلَّق بمشيئته، وليس حروفًا ولا مسموعًا، ولا الذي تقرؤه كلام الله، بل هو عبارة عن كلام الله، أما كلام الله فهو المعنى القائم بنفسه.

٨٥٣- وَكَلَامُــهُ كَحَيَاتِــهِ مَــا ذَاكَ مَقْــ ـــدورًا لَــهُ بَــلْ لَازِمُ الــرَّحْمَنِ

قَوْلُهُ: «مَقْدُورًا»، وفي نسخة (مَقْدُورٌ)، والظاهر أنَّ الصواب (مقدورًا)، لأنَّ ابنَ القيم قرشِيُّ اللسان، وليس تَميمِيَّ اللسان، وقريش تقول: (ما زيدٌ قائمًا) وتميم تقول: (ما زيدٌ قائمٌ) وهم كلُّهم عرب، لأنَّ قريشًا تُعْمِل (ما) عمل (ليسَ)، وتميمٌ تقول: (ما) نافية، ولا يمكن أن تعمل، فيقولون: (ما زيدٌ قائمٌ)، واسمع إلى قول الشاعر في معشوقته: قال:

وَمُهَفْهَفِ الأَعْطَافِ قُلْتُ لَهُ: انْتَسِــبْ فَأَجَــابَ مَــا قَتْــلُ المُحِــبِّ حَــرَامُ[1]

فهو تميميٌّ، وليس قرشيًّا، إذ لو كان قرشيًا لقال: (مَا قَتْلُ المُحِبِّ حَرَامًا).

وهذا من ذكاء العرب أن يستدلوا على نسب الإنسان بلغته، وإلى وقتنا هذا الآن تعرف لهجة القصيمي، من الرياضي، من الشرقي، فكما كان الأولون يَعرفون باللهجات فنحن الآن نَعرف باللهجات.

---

(١) البيت من الكامل، وقد ورد ذكره في كتاب نفح الطيب غير منسوب (٥/ ٢٢٧).

نرجع إلى كلام المؤلف -رحمه الله- **(وَكَلَامُهُ كَحَيَاتِهِ مَا ذَاكَ مَقْدُورًا لَهُ)** هذا هو الصواب، لأنَّ العلماء مثل ابن القيم بعد تَغيُّر اللسان، وإذا كان بعد تغيُّر اللسان فلا يمكن للإنسان أن يخرج عن اللغة الفصحى، ولهذا لو قال قائل: **(ضربتُ الزيدان)** لقلنا: هذا غلط، فإن قال: أنا على لغة من يلزم المثنى الألف، قلنا: لا نقبل منك هذا.

نقول له: لو جئنا للغتك فهي لغة عرفية لا تعرف رفعًا ولا نصبًا، فالمهم بعد تغيّر اللسان لا بد أن تكون الكتابة والنطق على لغة قريش خاصة، ولهذا جاء القرآن على لغة قريش، قال الله تعالى: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ [يونس:٣١].

فحياة الله عزَّ وجلَّ لازمة.

وقول المؤلف: **(مَا ذَاكَ مَقْدُورًا لَهُ)**، لأنَّ الشيء المستحيل لا تتعلَّق به القدرة، فهل يمكن أن يكون اللهُ عزَّ وجلَّ حيًّا ميتًا؟

الجواب: كلا، فالموت مستحيل عليه، بل هو الحي الذي لا يموت، وأمَّا الكلام فيقول: الكلام مثل الحياة، ولا يمكن ألَّا يكون متكلِّمًا، لأنه وصفٌ لازمٌ لا يتعلَّق بمشيئته، ليس إن شاء تكلَّم وإن شاء لم يتكلَّم، إن كنت تقول: إن شاء صار حيًّا وإن شاء صار ميتًا، فقل: إنْ شاء تكلَّم وإن شاء لم يتكلَّم.

فانظر إلى كلام المؤلف يقول: **(وَكَلَامُهُ كَحَيَاتِهِ مَا ذَاكَ مَقْدُورًا لَهُ)** يعني: لا يُقَدَّر أن يتكلَّم إن شاء، وإن شاء لم يتكلَّم، كما لا يقدر أن يكون حيًّا وأن يكون ميتًا، فهو حيٌّ حياة لازمة له، وهو متكلِّم كلامًا لازمًا له، لأنه معنى.

فمذهب الأشاعرة أنَّ الكلامَ ليس مسموعًا، ولا هو بحروف، ولا صوت، ولكنه معنى يتصف به، كما هو حيّ نقول: هو متكلِّم، وقالوا: كلامه هو المعنى

القائم بنفسه، وليس بالذي يُسْمع، لكن هذا الذي سمعه محمد وسمعه موسى؟ قالوا: هذا عبارة عن كلام الله، خلقه الله ليعبر عمَّا في نفس الله، كما لو وضعت كلامًا مكتوبًا ووضعت مرآة فيخرج هذا الكلام المكتوب بالمرآة.

هم يقولون: هذا المعنى القائم بنفس الله ينطبع في الهواء، وينطبع في أيِّ مكان كان، ثم يُسْمع، أما أنه كلام يُسمع من الله نفسه فلا.

٨٥٤- هَذَا الَّذِي قَدْ خَالَفَ المَعْقُولَ وَالـ ـــمَنْقُولَ وَالْفِطْرَاتِ لِلإِنْسَانِ

قائل هذا هم الجهمية.

فيقولون: كيف تقولون: كلامنا مخالف للمعقول والمنقول والفطرات واللغات؟! بل كلامكم هو المخالف للمعقول والمنقول والفطرات واللغات.

وصَدَقوا في هذا، نحن مع الجَهْمية في أنَّ هذا الذي ذهب إليه الأشاعرة لا يُسمَّى كلامًا، فالمعنى القائم بالنفس لا يُسَمَّى كلامًا أبدًا، فنحن نوافق الجهمية، لأنَّ الحقَّ يجب أن يُقْبَلَ مِمَّن قاله ولو كان كافرًا مشركًا، قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ﴾ [الأعراف:٢٨]، فهم قالوا شيئين: الأول: ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا ﴾، الشيء الثاني: ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾، فقال الله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾ [الأعراف:٢٨]، فكذَّبَ قولَهم: ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾، لأنه باطل، وأقرَّهم على قولِهم: ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا ﴾.

إِذَنْ الحق يُقبل ولو مِن كافرٍ، والباطل يُرَدُّ ولو من مؤمن، وهذا هو العدل.

فقولُ الجهمية للأشاعرة: إنَّ قولهم خالفَ المعقولَ والمنقولَ والفطراتِ للإنسان هو قولٌ حقٌّ، فإنَّ هذا الذي ذَهَبوا إليه غيرُ معقولٍ، فلا يُعقل أن يُسمَّى

كلامًا وهو معنًى قائمٌ في النفس، ولا يُعقل أن يكون كلامًا غيرَ مُترتِّبٍ، فالباء والسين والجيم كلها في آن واحد، ولا هو منقول، وليس موافقًا للمنقول من الكتاب والسُّنة، ولا الفطرات تهتدي إليه، ولا واللغات تُقِرُّه.

فأيُّ إنسان تُحدِّثه -ولو كان عاميًّا بحتًا- عن الكلام والقول يَعرِف أنه الحروفُ المترتبةُ التي تأتي شيئًا فشيئًا.

٨٥٥- أَمَّـا الَّـذِي قَـدْ قَـالَ: إِنَّ كَلَامَـهُ ذُو أَحْـرُفٍ قَـدْ رُتِّبَـتْ بِبَيَـانِ

قائل هذا هم الجهمية، يقولون: كلامُه ذو أحرف مُرتبةٍ.

وقولُهم: (قَدْ رُتِّبَتْ) رَدٌّ على الاقترانية الذين يقولون: هو أحرف غير مرتبة.

٨٥٦-وَكَلَامُـهُ بِمَشِـيئَةٍ وَإِرادةٍ كَالْفِعْـلِ مِنْـهُ كِلَاهُمَـا سِـيَّانِ

وهذا ردٌّ على الأشاعرة الذين يقولون: كلامُه ليس بإرادةٍ ومشيئةٍ منه، بل هو مثلُ الحياةِ والعِلْمِ.

فالحياة والعِلْم لا تتعلَّق بهما المشيئةُ.

أمَّا السلفُ الصالحُ ومَن تَبِعهم من الأئمة، وهو مذهبُ أهل السُّنة والجماعة فيقولون: إنَّ كلامَ الله -سبحانه وتعالى- أحرفٌ مرتبة، فقولُه تعالى: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ نعلم أنَّ الباء قبل السين، وأنَّ السين قبل الميم... وهكذا، ثُمَّ نعلم أيضا أَنَّ الله لا مُكْرِهَ له، وأنه يتكلَّم متى شاء، وبما شاء، وكيف شاء، لأنَّ الكلام تتعلَّق به المشيئة، وهذا -والله- تمامُ الرُّبوبيةِ والسلطان، وهو أن يفعل ما يشاء، وأن يقول ما يشاء، على أنَّ القول في الحقيقة هو فعل، فالقول فعل، لأنه كلام مسموع بحروف مرتبة، فهو نوع من الأفعال.

ثُمَّ قال على لِسان الجهمية:

٨٥٧- فَهْوَ الَّذِي قَدْ قَالَ قَوْلًا يَعْلَمُ الْـ ـعُقَلَاءُ صِحَّتَهُ بِلَا نُكْرَانِ

من الذي قال قولًا يعلم العقلاءُ صِحَّتَه؟

الجواب: الجهمية القائلون بأنَّ كلامه ذو أحرف قد رُتِّبت، لكن كيف نُقِرُّهم على أنهم قد قالوا قولا يعلمُ العقلاءُ صحتَه؟ نعم، نحن نوافقهم على أنَّ كلام الله متعلِّق بمشيئته، وأنه مُرَتَّب، لكن نخالفهم في قولهم: إنه مخلوق، فهذا باطل، لأنَّ الكلام الذي يخلقه الله ليس كلامَ الله، بل كلام مَنْ تَكَلَّم به، قالوا:

٨٥٨- فَلأَيِّ شَيْءٍ كَانَ مَا قَدْ قُلْتُمُ أَوْلَى وَأَقْرَبَ مِنْهُ لِلْبُرْهَانِ؟!

يقولُ لهؤلاءِ الأشاعرةِ والاقترانيةِ: لأيِّ شيء كان ما قد قلتم أولى وأقرب منه للبرهان؟! وهذا صحيح، هذا الاستفهام للإنكار، يعني: ما قلتم ليس أقربَ للبرهانِ.

٨٥٩- وَلأَيِّ شَيْءٍ دَائِمًا كَفَّرْتُمُ أَصْحَابَ هَذَا الْقَوْلِ بِالْعُدْوَانِ؟!

لأنَّ الأشاعرة يرون الجهمية كفرة في قولهم في كتاب الله.

يقول:

٨٦٠- فَدَعُوا الدَّعَاوَى وَابْحَثُوا مَعْنا بِتَحْـ ـقِيقٍ وَإِنْصَافٍ بِلَا عُدْوَانِ

هذا البيت حَقٌّ، أنَّ الإنسان يَدَع الدعاوى ويَحْكُمُ أو يبحث للتحقيقِ والإنصافِ، أما أن يقول: إنَّ الصوابَ معي، وقولي هو التحقيق، وقولي هو الإجماع، فهذه دعوى بلا دليلٍ لا تُقْبل، فابحث بإنصافٍ وعدلٍ.

فالتحقيق هو العلم، والإنصافُ هو العدل، فلا بدَّ من هذين الأمرين:

الأول: العلم، والثاني: الإنصاف والعدل.

فالجاهل كيف يحكم بأنَّ هذا هو الصواب وهذا هو الخطأ؟! والجاهل لا يمكن أن يحكم إلا بما يَرَى أنه صواب وإن كان باطلا.

فابن القَيِّم يقول: تعالوا نتحاكم وإِيَّاكم بالعلم والإنصاف.

٨٦١- وَارْفُوا مَذَاهِبَكُمْ وَسُدُّوا خَرْقَهَا   إِنْ كَانَ ذَاكَ الرَّفْوُ فِي الإِمْكَانِ

قَوْلُهُ: «**ارْفُوا**» يعني: رَقِّعوها وسُدُّوا الخَرْق.

قَوْلُهُ: «**إِنْ كَانَ ذَاكَ الرَّفْوُ**» يعني: إن كان الترقيع بالإمكان، وأنتم الآن هل تقولون: إنَّ الترقيع بالإمكان؟

الجواب: لا يمكن أبدًا، ما داموا يقولون: إنَّ الكلام هو المعنى القائم بالنفس، أو إنَّ الكلام هو المعنى المتعلِّق بالمشيئةِ، ولكنه مقترنٌ لا يسبق بعضُه بعضًا، فإنَّ هذا لا يمكن أن يُرفأ أبدًا.

ولكن هذا من باب التنزل مع الخصم، وعند المخاصمة لا بأس أن يقول قولًا غيرَ مقبول، تنزيلًا للخصم عن عليائه وكبريائه، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل:٥٩]، وهل هناك مفاضلة بين الله وشركائهم؟ الجواب: لا، لكن نظرًا، لأنهم يعتقدون أنهم آلهة، يتكلَّم معهم بشيء يُنزلهم إلى الأسفل، هكذا أيضًا نحن مع هؤلاء المبتدعة نتكلَّم معهم.

ثُمَّ طلب المؤلف أن نحكم بينهم، فقال:

٨٦٢- فَاحْكُمْ -هَدَاكَ اللهُ- بَيْنَهُمُ فَقَدْ   أَدْلَوْا إِلَيْكَ بِحُجَّةٍ وَبَيَانِ

احكم بين هؤلاء المختلفين في كلام الله.

والمذاهب الآن التي أمامنا ثلاثة، وقد سبق بيانها، وأنها ثمانية مذاهب، لكن الذي أمامنا الآن ثلاثة وهي مذهب الجهمية، ومذهب الاقترانية، ومذهب الأشاعرة، والفرق بينها سبق، فإذا حكمنا بينهم قلنا: أمَّا مذهب الاقترانية والأشعرية فهو غير معقول.

وأما مذهب الجهمية فهو معقول من وجهٍ مُنْكَرٌ من وجهٍ، أما كونه معقولًا فمن جهة أنه مُرَتَّبٌ مسموعٌ بصوتٍ مُتعلِّقٌ بمشيئتِه، كُلُّ هذا حقٌّ، فكلامُ الله بحرفٍ وصوتٍ مسموعٍ متعلِّقٍ بمشيئتِه، وأما ما هو مُنْكَرٌ من قولهم فقولُهم: إنه مخلوق، يعني: مثلًا إذا أراد الله أن يتكلَّم خَلَق كلامًا في أيِّ مَحَلٍّ كان، في الشجرة، في جبريل، في الهواء، في المكان الذي سُمِعَ منه كلامُ الله، فيقولون: هذا كلام الله.

وهذا لا شكَّ أنه مُنكَرٌ وباطلٌ، لأنه إذا خَرَج الكلامُ من هذا فهو وَصْفٌ لِـمَنْ خَرَجَ منه، لا للهَّ، وإلَّا لقلنا: إنَّ جميعَ كلامِ الناس من كلامِ الله، وهذا باطل، وهذا ليس إلَّا مذهبَ الاتِّحادية.

إِذَنْ نحكم بينهم فنقول: أمَّا ما ذهبت إليه الأشاعرة والاقترانية فهو مذهب باطل لا نُقِرُّه، وأمَّا ما ذهبتْ إليه الجهمية فهو مذهب باطل -أيضًا- لا نُقِرُّه بمَجموعِه، أما بعض فقرات منه فهي حقيقة وحق، ويأتي -إن شاء الله- التفصيل في هذا.

وَقَوْلُهُ: «فَاحْكُم... بينَهم» أي: بالحقِّ، وما هو الحقُّ؟ الحقُّ ما أشار إليه في قوله:

٨٦٣- لَا تَنْصُرَنَّ سِوَى الْـحَدِيثِ وَأَهْلِـهِ ... هُـمْ عَسْـكَرُ الْقُـرْآنِ وَالإِيـمَانِ

قَوْلُهُ: «لا تَنْصُرَنَّ» النصرُ: يعني: المساعدة والموالاة.

قَوْلُهُ: «سِوَى الْـحَدِيثِ وَأَهْلِهِ» يعني: حديث النَّبِيِّ -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- ومن المعلوم أنَّ القرآن أولى، ونَصْرُ الحديثِ نصرٌ للقرآن بلا شَكٍّ، لأنَّ الحديث فيه تعظيمُ القرآنِ من عِدَّة وُجوه، ووجوبُ التمسك به من عِدَّة وجوه، فنصرُ الحديث نصرٌ للقرآن.

قَوْلُهُ: « هُمْ عَسْكَرُ الإِيمَانِ وَالقُرْآنِ» (هم) يعني: أهل الحديث.

(عَسْكَرُ الإِيمَانِ) الذين يَذُودون عنه ويُدافعون عنه.

وهذا هو الواجب على كُلِّ مسلم أَلَّا ينصر قولَ أحدٍ إِلَّا قولَ أهلِ الحديثِ، لأنهم عسكر الإيمان والقرآن.

٨٦٤- وَتَحَيَّزَنَّ إِلَيْهِمُ لَا غَيْرِهِمْ   لِتَكُونَ مَنْصُورًا لَدَى الرَّحْمَنِ

قَوْلُهُ: «وَتَحَيَّزَنَّ» فعلُ أمرٍ مُؤَكَّدٌ بالنون، ولهذا بُنِي على الفتح، ومعنى تَحَيَّز: أي مِلْ إليهم، وكُنْ من حِزْبِهم (لِتَكُونَ مَنْصُورًا لَدَى الرَّحْمَنِ) فإنَّ الله تعالى يقول في القرآنِ الكريمِ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾ [غافر:٥١]، فإنَّ أهل القرآن والحديثِ هم أهلُ الله وخاصَّتُه، وهم أهل نُصْرتِه.

٨٦٥- فَنَقُولُ: هَذَا الْقَدْرُ قَدْ أَعْيَا عَلَى   أَهْلِ الْكَلَامِ وقاده أصلان

٨٦٦-إِحْدَاهُمَا: هَلْ فِعْلُهُ مَفْعُولُهُ   أَوْ غَيْرُهُ فَهُمَا لَهُمْ قَوْلَانَ

قَوْلُهُ: «هَذَا الْقَدْرُ» يعني -والله أعلم- أنه يريد هذا التقدير.

قَوْلُهُ: «**قد أعيا على أهل الكلام**» يعني: أتعبهم وأعجزهم.

قَوْلُهُ: «**وقاده أصلان**» يعني: هذا الخلاف بينَ الأشاعرةِ وبينَ المعتزلةِ والجهمية مَبْنِيٌّ على أصلينِ:

الأول: هل فعل الله هو مفعولُه أو غيرُه؟

فمنهم مَن قال: إنَّ الفعل هو المفعول، وليس للهِ فعلٌ هو فعلُه.

ومنهم مَنْ قال: إنَّ المفعول غيرُ الفِعْل.

إِذَنْ الأصلان هما:

١- هل الفِعْلُ عينُ المفعولِ؟

٢- هل الفِعْلُ غيرُ المفعول؟

نحن نعلَم بفطرتنا أنَّ المفعول غيرُ الفعلِ، يعني المصنوع غير صُنع الصانع، فالإنسان إذا بنى بيتًا فهذا البيت هل هو بناؤه أو أثرُ بنائِه؟

الجواب: أثر بنائه، فلا شكَّ أنَّ الفعل غير المفعول، لكن أهل البِدَع يُعْمِيهم الله عزَّ وجلَّ.

إِذَنْ فالصواب: أنَّ فعلَه غيرُ مفعولِه، ولكن المصدر قد يُطلق على المفعول كقوله تعالى: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ ﴾ [لقمان:١١] أي: مخلوقُه، وإِلَّا فالأصل أنَّ الفعل غيرُ المفعولِ.

وأضرب لكم مثلًا: رجُلٌ نَجَرَ خشبًا وصَنَعَه بابًا، فعندَنا فاعل، وعندنا فعل، وعندنا مفعول، الفاعل هو النَّجَّار، والفعل النجارة، والمفعول الباب.

إِذَنْ فلا شكَّ أنَّ المفعول ليسَ هو الفعلَ، بل هو شيء آخر، لكن قد يطلق الفعلُ لفظًا على المفعول -كما مَثَّلْتُ لكم- في مثل قولِه تعالى: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ ﴾ [لقمان:١١].

٨٦٧-وَالْقَائِلُونَ بِأَنَّهُ هُوَ عَيْنُهُ فَرُّوا مِنَ الأَوْصَافِ بِالْحِدْثَانِ

قَوْلُهُ: «وَالْقَائِلُونَ بِأَنَّهُ هُوَ عَيْنُهُ» أي بأنَّ الفعل هو عينه، أي: عين المفعول، وهذا هو القول الأول.

قَوْلُهُ: «فَرُّوا مِنَ الأَوْصَافِ بِالْحِدْثَانِ» هذه حُجَّتهم، فهم يقولون: إنَّ الفعلَ عينُ المفعول، ولا نقول: إنَّ هناك فعلًا ومفعولًا، وحُجَّتهم: قالوا: لو قلنا: إنَّ الفعلَ غيرُ المفعول لَزِم أن تقوم الحوادثُ بالله، يعني أن يكون الله مَحلا للحوادثِ، ولا تقوم الحوادث إِلَّا بحادث، وحدوث الباري عزَّ وجلَّ ممتنع عقلًا وشرعًا وفطرةً وكل شيء.

إِذَنْ قُل: إِنَّ الفعلَ هو المفعول من أجل أن تسلم من حلول الحوادث بالله.

كُلنا يعلم أنَّ الفعل مقارن للمفعول، يعني: عندما أصنع شيئًا، فصُنْعي إِيَّاه وعملي إِيَّاه مقارِنٌ له، والمفعولات تتجدد.

إِذَنْ لو قلنا: إنَّ مفعول الله غيرُ فعله لكان الفعل حادثًا متعلقا بذات الله فتتعلق به الحوادث، وهذا ممتنع، إذن نستريح من هذا، ونقول: إنَّ فعلَ الله هو مفعوله، والمفعول منفصلٌ بائنٌ عن الله.

فهم يقولون ذلك، وقالوا: نحن نقول ذلك، لأجل أَلَّا نصف الله تعالى بالحوادث، لأننا إذا قلنا: إنَّ الله يتكلَّم متى شاء، لَزِم من هذا قيام الحوادث به، وأنه إذا شاء تكلَّم، وإذا شاء لم يتكلَّم.

وهذا عندهم محالٌ بناءً على قاعدة فاسدة وهي أنَّ الحادث لا يقوم إلَّا بحادث.

٨٦٨- لَكِنْ حَقِيقَةُ قَوْلِهِمْ وَصَرِيحُهُ ... تَعْطِيلُ خَالِقِ هَذِهِ الأَكْوَانِ

٨٦٩- عَنْ فِعْلِهِ إذ فِعْلُه مَفْعُولُه ... لكنَّه ما قامَ بالرَّحْمنِ

يعني: إذا قلنا: إنّ المفعول هو الفعل، لَزِم من هذا تعطيل الله عن الفعل، لأنه ليسَ في الله وصفٌ هو الفعل، لأنَّ الفعلَ -لو قدرنا أنَّ الفعلَ غيرُ المفعول- متجدِّد على هذا التقدير، والله تعالى يمتنع أن تتعلقَ به الحوادث، لأنَّ الحوادث لو تعلَّقت به لَزِم أن يكون حادثًا.

إذا قلتم هكذا لَزِم ألَّا يكون لله فعل، لأنكم تقولون: إنَّ الفعل هو عين المخلوق.

مثلًا السموات يقول: الله ليس له فعل هو الخلق، بل له مفعول وهو السموات، أَمَّا أنَّ هناك فعلًا خلق به السموات فلا، بل فِعْلُه هو عينُ المفعول لئلا تقوم الحوادث بالله، لأنَّ قيام الحوادث بالشيء تجعله حادثًا، هذا الأصل مهم، يقولون: إنَّ الفعل عينُ المفعول، فَفِعْلُ الله يعني مفعوله، وليس لله فعلٌ يقوم به، لأنه لو كانت الأفعال تقوم به لكان محَلًّا للحوادث، وإذا كان محلا للحوادث لَزِم أن يكون حادثًا، وحدوث الله ممتنع.

فهم جعلوه لا يفعل، ولا يتكلَّم، ولا يخلق، وجعلوا الكلامَ مفعولًا، لأنه مخلوق عندهم، والسموات والأرض والجبال والنجوم كلها مخلوقة، لكن لا يوصف الله بالخلق، لأنَّ هذه المشاهدات متجددة، فإذا وصفنا الله بالخلق لَزِم أن يكون خلقُه متجددًا فيكون حادثًا قام به، والحادث لا يقوم إلَّا بحادث.

وكُلُّ هذا الكلام الذي قالوه هو كلامٌ في كلام، يعني لا داعي له، ولا يلزم إثباتُ الخالق عزَّ وجلَّ عليه، لكن أهل الكلام أطالوا الكلام، ولهذا نقول: إنَّ أهل الكلام ضَلُّوا بهذه التقديرات، ولو سلكوا مسلك الصحابة لَسَلِمُوا من هذا كلِّه، أعني لَسَلِمُوا من هذا الذي قد لا يكون مفهومًا، فضلًا عن أن يكون معقولًا، وفضلًا عن أن يكون مُعْتَقَدًا، لكن الحمد لله الذي نَجَّانا من ذلك.

فابن القَيِّم يردُّ عليهم، فيقول: إذا جعلتم الفعلَ عينَ المفعول فلازمه ألَّا يكون لله فعل، لأنَّ المفعول مخلوق مُنْفصل عن الله، وليس من صفاتِه، فيلزمكم على تقديركم هذا ألَّا يكون لله فعلٌ.

٨٦٩-عَنْ فِعْلِهِ إذ فِعْلُه مَفْعُولُه   لكنَّه ما قامَ بالرَّحْمنِ

يعني: ما قام بالرحمن فعل، وإنما هو مفعول، فإذا قيلَ: خَلَق السموات فإنه لم يقم به خَلْق، لكن حَدَث له مخلوق.

فيقال بكل سهولة: مَنْ أحدثَ هذا المخلوق؟ الجواب: الله، إذن هل يمكن أن يُوجِدَ مخلوقًا بدون أن يَخْلُق؟! الجواب: مستحيل.

إِذَنْ هل يمكن أن نَرُدَّ على قولِهم: **(لو قام به فعل لكان مَحَلًا للحوادث، وما قامت به الحوادث فهو حادث)؟**

نعم، رَدَدْنا عليهم فيما سبق، وقلنا: لا يلزم من قيام الحوادث به أن يكون حادثًا، لأنَّ الفاعلَ متقدِّمٌ على فعله، ونحن الآن نفعل اليوم شيئًا، ونحن قد خُلِقنا قبل ذلك بسنوات، فالله تعالى يفعلُ الشيء، ويُحْدِثُ الشيء، ويقوم الفعل الحادث به، وهو ليس بحادث، وهذا شيء ظاهر ليس فيه إشكال، فكلامهم هذا غير صحيح.

٨٧٠- فَعَلَى الْـحَقِيقَةِ مَا لَـهُ فِعْـلٌ إِذِ الْـ ـمَفْعُولُ مُنْفَصِـلٌ عَـنِ الـدَّيَّانِ

قَوْلُهُ: «مَا لَهُ فِعْلٌ» يعني: ليس له فعل، والمعنى: إذا قلنا: الفعل هو المفعول، فعلى الحقيقة ليسَ لله فعل، لأنَّ المفعول مخلوق مُنفصِل عن الله، فالسموات منفصلة، والأرض منفصلة، والآدمي منفصل، فكل المخلوقات منفصلة عن الله، فليس لله فعلٌ يقوم به.

* * *

٨٧١- وَالْقَـائِلُونَ بِأَنَّـهُ غَـيْرٌ لَـهُ مُتَنَـازِعُونَ وَهُـمْ فَطَائِفَتَـانِ

٨٧٢- إِحْـدَاهُمَا قَالَـتْ قَـدِيمٌ قَـائِمٌ بِالـذَّاتِ وَهْـوَ كَقُـدْرَةِ الْـمَنَّانِ

٨٧٣- سَـمَّوْهُ تَكْوِينًـا قَـدِيمًا قَالَـهُ أَتْبَـاعُ شَـيْخِ الْعَالِـمِ الـنُّعْمَانِ

٨٧٤- وَخُصُـومُهُمْ لَـمْ يُنْصِـفُوا فِي رَدِّهِ بَـلْ كَـابَرُوهُمْ مَـا أَتَـوْا بِبَيَـانِ

٨٧٥- وَالآخَـرُونَ رَأَوْهُ أَمْـرًا حَادِثًـا بِالـذَّاتِ قَـامَ، وَأَنَّهُـمْ نَوْعَـانِ:

٨٧٦- إِحْـدَاهُمَا جَعَلَتْـهُ مُفْتَتَحًـا بِـهِ حَـذَرَ التَّسَلْسُـلِ لَـيْسَ ذَا إِمْكَـانِ

٨٧٧- هَـذَا الَّـذِي قَالَتْـهُ كَرَّامِيَّـةٌ فَفِعَالُـهُ وَكَلَامُـهُ سِـيَّانِ

٨٧٨- وَالآخَرُونَ أُولُو الْـحَدِيثِ كَأَحْمَـدٍ ذَاكَ ابْـنُ حَنْبَـلٍ الرِّضَـا الشَّـيْبَانِي

٨٧٩- قَـدْ قَـالَ: إِنَّ اللهَ حَقًّـا لَـمْ يَـزَلْ مُتَـكَلِّمًا إِنْ شَـاءَ ذُو إِحْسَـانِ

٨٨٠- جَعَلَ الْكَـلامَ صِـفَاتِ فِعْـلٍ قَـائِمٍ بِالـذَّاتِ لَـمْ يُفْقَـدْ مِـنَ الـرَّحْمَنِ

٨٨١- وَكَذَاكَ نَصَّ عَلَى دَوَامِ الْفِعْـلِ بِالْـ إِحْسَـانِ أَيْضًـا فِي مَكَـانٍ ثَـانِ

٨٨٢- وَكَـذَا ابْـنُ عَبَّـاسٍ فَرَاجِـعْ قَوْلَـهُ ... لَـمَّا أَجَـابَ مَسَـائِلَ الْقُـرْآنِ

٨٨٣- وَكَذَاكَ جَعْفَرٌ الإِمَامُ الصَّـادِقُ الْـ ... ـمقبولُ عِنْدَ الْـخَلْقِ ذُو الْعِرْفَـانِ

٨٨٤- قَدْ قَالَ لَـمْ يَـزَلِ الْـمُهَيْمِنُ مُحْسِنًا ... بَـرًّا جَـوَادًا عِنْـدَ كُـلِّ أَوَانِ

٨٨٥- وَكَـذَا الإِمَـامُ الـدَّارِمِيُّ فَإِنَّـهُ ... قَـدْ قَـالَ مَـا فيـهِ هُـدَى الْـحَيْرَانِ

٨٨٦- قَـالَ الْـحَيَاة مَـعَ الْفِعَـالِ كِلاهُمَـا ... مُتَلازِمَـانِ فَلَـيْسَ يَفْتَرِقَـانِ

٨٨٧- صَدَقَ الإِمَامُ فَكُلُّ حَيٍّ فَهْـوَ فَعْـ ... ـالٌ، وَذَا فِي غَايَـةِ التِّبْيَـانِ

٨٨٨- إِلَّا إِذَا مَـا كَـانَ ثَـمَّ مَوَانِـعٌ ... مِـنْ آفَـةٍ أَوْ قَـاسِرِ الْـحَيَوَانِ

٨٨٩- وَالـرَّبُّ لَـيْسَ لِفِعْلِـهِ مِـنْ مَـانِعٍ ... مَـا شَـاءَ كَـانَ بِقُـدْرَةِ الـدَّيَّانِ

الشـرحُ

٨٧١- وَالْقَـائِلُونَ بِأَنَّـهُ غَـيْرٌ لَـهُ ... مُتَنَـازِعُونَ وَهُـمْ فَطَائِفَتَـانِ

٨٧٢- إِحْـدَاهُمَا قَالَـتْ قَـدِيمٌ قَـائِمٌ ... بِالـذَّاتِ وَهْـوَ كَقُـدْرَةِ الْـمَنَّانِ

القائلون بأنَّ الفعل غير المفعول تنازعوا على قولين: هل الفعل مُقارِنٌ للمفعول؟ أو الفعل قديم كقِدَم القدرة، والعلم، والسمع، والبصر؟

قَوْلُهُ: «قَدِيم» خبر لمبتدأ محذوف أي: هو قديم، والضمير يعود على الفعل، لا على المفعول.

قَوْلُهُ: «**إِحْدَاهُمَا قَالَتْ قَدِيمٌ قَائِمٌ... بِالذَّاتِ وَهْوَ كَقُدْرَةِ الْـمَنَّانِ**» القدرة لله قديمة، وليست حادثة، قالوا: أيضا الفعل قديم، لماذا قالوا: قديم؟

الجواب: مداهنةً للمعتزلة والجهمية، لأنَّ الجهمية والمعتزلة يقولون: إذا كان الفعلُ حادثًا وقام بالله، لَزِم أنَّ يكون اللهُ حادثًا، وهؤلاء قالوا: الفعل قائم بالله لكنه قديم لئلا تقوم به الحوادث.

فهؤلاء قالوا: نعم الفعل غير المفعول، والفعل قائمٌ به قديم والذي حَدَث هو المفعول، يقولون: الفعل قائم بالله أزلِيّ، والذي تأخَّر المفعول.

مثال ذلك: إنسان أوقَد نارًا في الساعة الواحدة، وجعل دونكم ودونها حاجبًا، وفي الساعة الخامسة أزال هذا الحاجب فصار الفعل سابقًا، ومشاهدتكم إيَّاها حادثة.

فهم قالوا: قدرة الله قديمة، وليست حادثة، لكن تعلُّقها بالمقدور يكون عند وجود المقدور، ولم يزل عزَّ وجلَّ قادرًا على كلِّ شيء، لكن إذا فعل شيئًا تعلَّقت القدرة بهذا المفعول في حينها لا قبلها.

هم قالوا: إنَّ الفعل الذي هو فعله قديم أزليّ كالعلم والقدرة، والمُتَأخِّر المفعول، فالخلق قديم كالقدرة تمامًا.

وهذا -أيضًا- غير معقول، لأنه إذا وُجِدَ الفعل، لا بدَّ أن يوجد المفعول، ما الذي يؤخِّره؟! فإنَّ الفعل إذا كان قديمًا لَزِم أن يكون المفعول قديمًا، لأنَّ الفعل لا بدَّ أن يُنْتِج مفعولًا، فيَلْزَم على قولكم بأنَّ الفعل قديم أن يكون المفعولُ -أيضًا- قديمًا، هل يمكن أن يصنع الإنسان بابًا، ثُمَّ إذا أَتَمَّ صُنْعه لا يمكن أن يكون بابًا إِلَّا بعدَ مدة؟! لا يمكن، لكن نظرًا لأنهم يمنعون قيام الحوادث بالله صاروا إلى الذي ليسَ بمعقولٍ.

وقولهم: إنَّ الخلق قديم كالقدرة تمامًا، فهذا غير معقول، لأنَّ الخلق فعل، والفعل هو الذي يترتب عليه المفعول، والقدرة وصف.

لكن ماذا قالوا؟ يقول المؤلف:

٨٧٣- سَمَّوْهُ تَكْوِينًا قَدِيمًا قَالَهُ أَتْبَاعُ شَيْخِ الْعَالِمِ النُّعْمَانِ

قَوْلُهُ: «سَمَّوْهُ تَكْوِينًا قَدِيمًا»: (سَمَّوْهُ) يعني: سَمَّوا الفعل.

قالوا: لا نسميه فعلًا، بل نسميه التكوين، والتكوين: إن أردتم التقدير - يعني أنه قَدَّر أن يفعل كذا وكذا في يوم كذا وكذا مثلًا- فأنتم لم تُقِرُّوا بالفعل، بل جعلتم الفعلَ التقدير والقضاء، وإن جعلتم التكوين معناه فعل الشيء أو العمل بالشيء حتى يكون، فهذا لا بدَّ أن يكون المفعول مقارنًا للفعل، أي: المُكَوَّن مقارنًا للتكوين، ولذلك فهم متناقضون في الحقيقة.

وممن اشتهر عنه هذا القول الطحاوي[1] صاحب الطحاوية المشهورة.

يقول:

٨٧٤- وَخُصُومُهُمْ لَمْ يُنْصِفُوا فِي رَدِّهِ بَلْ كَابَرُوهُمْ مَا أَتَوْا بِبَيَانِ

قَوْلُهُ: «خصومهم»، أي: الذين قالوا: إِنَّ الفعلَ عينُ المفعول، ولا نوافقكم على أنَّ الفعلَ غيرُ المفعول، ثُمَّ تقولون: إِنَّ الفعلَ قديمٌ والمفعول حادث، حتى لو سميتموه تكوينًا فإننا لا نوافقكم، لكن لم ينصفوا في رَدِّه لماذا؟ لأنهم في ردِّهم على هؤلاء، وقولهم: **(إنه لا يمكن تكوينٌ بلا كائن)** هذا صحيح، لكن كيف تقولون: إِنَّه يمكن أن يوجد مفعول بلا فعل؟

---

(١) أحمد بن محمد بن سلامة بن سلمة الأزدي الطحاوي، أبو جعفر: فقيه انتهت إليه رياسة الحنفية بمصر، ولد ونشأ في (طحا) من صعيد مصر، وتفقه على مذهب الشافعي، ثم تحول حنفيًا، ورحل إلى الشام سنة (٢٦٨ هـ)، فاتصل بأحمد بن طولون، فكان من خاصته، وتوفي بالقاهرة (٣٢١هـ).

فخصومهم هم القائلون بأنَّ المفعولَ عينُ الفعل، أو الفعل عين المفعول سواء عبَّر بهذا أو بهذا، لم ينصفوهم لما ردُّوا عليهم، كيف؟ أولًا: لا بد أن نعرف ما وجه الرَّدِّ؟

وجه الرَّدِّ عليهم: أنهم قالوا: أنتم تقولون: إنَّ الفعلَ غيرُ المفعول، ثُمَّ تقولون: إنَّ الفعل قديم كقدم القدرة، ولا يمكن أن يكون الفعل قديمًا والمفعول حادثًا.

وردُّهم هذا صحيح، لكنهم ما أنصفوا، لأنهم إذا قالوا: إنه لا يمكن أن يكون المفعولُ متأخرًا والفعلُ متقدمًا، قالوا أيضًا: لا يمكن أن يكون المفعول هو عين الفعل.

ولكنهم كابروا، أبوا إِلَّا أن يقولوا: إنَّ المفعول هو عين الفعل، فلم ينصفوا في الواقع.

٨٧٥- وَالآخَـــرُونَ رَأَوْهُ أَمْـــرًا حَادِثًـــا بِالـــذَّاتِ قَـــامَ، وَأَنَّهُـــمْ نَوْعَـــانِ:

قَوْلُهُ: «**وَالآخَرُونَ**» يعني بهم الذين قالوا: إنَّ الفعلَ غيرُ المفعول، لأنه قال في الأول: (**وَهُمْ فَطَائِفَتَانِ**):

فالطائفة الأولى: قالت: إِنَّ الفعلَ غيرُ المفعول، لكنَّ الفعلَ قديمٌ قائم بالذات والمفعول متأخر، وهذا لا يُتَصَوَّر.

الطائفة الثانية: رأوه أمرًا حادثًا بالذات قام، قالوا: إنَّ الفعلَ قام بالذات، وهو حادث بعد أن لم يكن، فإذا أراد الله تعالى أن يخلق جنينًا، متى يتعلَّق الفعل بهذا الجنين؟

الجواب: عند خلقه، وهذا الفعل حادث.

إِذَنْ فيقولون: الفعلُ غيرُ المفعول، والفعلُ حادثٌ عند إرادة فعل المفعول، أو مقارنٌ لفعل المفعول، وهذا معقول، وأيُّ مانعٍ يمنع أن يكون فعلُ الله حادثًا بعد أن لم يكن، لكن باعتبار هذا الشيء المعيَّن؟! ولهذا قال:

٨٧٦- إِحْـــدَاهُمَا جَعَلَتْـــهُ مُفْتَتَحًـــا بِـــهِ ... حَـــذَرَ التَّسَلْسُـــلِ لَـــيْسَ ذَا إِمْكَـــانِ

قَوْلُهُ: «إِحْدَاهُمَا جَعَلَتْهُ مُفْتَتَحًا بِهِ» يعني: جعلت الفعلَ ممكنًا بعد أن كان مستحيلًا.

فقالوا: إنَّ الله صار يفعل بعد أن لم يكن يفعل، هذا معنى قوله: (مُفْتَتَحًا بِهِ)، يعني: مبتَدَءًا به، فجعلت الفعلَ حادثًا في نوعه بعد أن لم يكن، وليس حادثًا في آحاده، ولهذا قال: (مُفْتَتَحًا بِهِ حَذَرَ التَّسَلْسُلِ لَيْسَ ذَا إِمْكَانِ).

يعني: لئلا نقول: إذا قلنا: إنَّه لم يزل يفعل، لزم من هذا التسلسل، وهو مستحيل، فالتسلسل فيما مضى مستحيل، وهؤلاء هم الكَرَّامِيَّة.

لكننا نقول: هل الله عزَّ وجلَّ لم يَزَل فاعلًا؟ الجواب: نعم، لم يزل فاعلًا، لكن يقولون: إنه لم يزل فاعلًا إِلَّا أنَّ فعلَه لا يتسلسل، لأننا لو قلنا: لم يزل فَعَّالًا لزم أن يكون المفعولُ مقارِنًا للفعل، وحينئذٍ تكون مفعولاتُه قديمة، وهذا -أيضًا- غيرُ معقول.

يعني يقولون: إذا قلنا: (لم يزل فَعَّالًا) لزم أن تكون المفعولات قديمة كالوصف، فيقال: لا يمكن، لأنه من المعلوم بالترتيب العقلي الواقع أنَّ هناك فاعلًا، ثُمَّ فعلًا، ثُمَّ مفعولًا، حتى لو قلنا: إنَّ المفعولات لم تزل فإنه لا يمكن أن تكون مقارنةً للفاعل أبدًا، فلا بدَّ أن يكون الفِعلُ بعد الفاعل والمفعولُ بعد الفعل.

٨٧٧-هَــذَا الَّــذِي قَالَتْــهُ كَرَّامِيَّــةٌ   فَفِعَالُــهُ وَكَلَامُــهُ سِــيَّانِ

يعني: كما قالوا في الكلام -كما سبق-: إنه حادث بعد أن لم يكن مقدورًا عليه، قالوا: أيضًا: إنَّ الفعل حادث بعد أن لم يكن مقدورًا عليه.

فهذه الطائفة قالت: إنَّ فعلَ الله غيرُ المفعول، وهو فعل قائم بنفسه حادثٌ بعد أن لم يكن، لكنهم انقسموا قسمين:

قسم قالوا: إنه حادث بعد أن لم يكن مقدورًا عليه، بل قالوا: إنه حادث بعد أن كان مستحيلًا، وهؤلاء هم الكَرَّاميَّة.

قالوا: لأننا لو قلنا: إنَّ الله لم يزل فَعَّالًا لزم تسلسل الحوادث، لأنَّ (لم يزل) معناه في الأزل الذي لا نهاية له، فيلزم تسلسل الحوادث، وهذا ممتنع على رأيهم.

والقسم الثاني من هذه الطائفة قالوا: إنَّه حادثٌ قائم به، ولم يزل يفعل، والتسلسل ليس بممتنع، يعني: أنَّ الله تعالى لم يزل ولا يزال فَعَّالًا، ولا نقول: إنه كان غيرَ قادرٍ على الفعل، ثُمَّ كان قادرًا عليه.

فخلاصة الكلام الآن قبل أن ندخل في كلام أهل الحديث: أنَّ أهل الكلام اختلفوا في فعل الله، أولًا: هل فعله مفعوله أو غيره؟

فجميع أتباعهم قالوا: فعله هو مفعوله، يعني: أنَّ الفعل عينُ المفعول، لماذا؟ قالوا، لأننا لو قلنا: إنَّ الفعلَ غيرُ المفعول، ونحن نشاهد تجدد المفعولات لزم أن يكون الفعل حادثًا قائمًا بالله، ولو قامت الحوادث بالله لزم أن يكون اللهُ حادثًا، لأنَّ الحوادث لا تقوم إِلَّا بحادث، وهؤلاء هم الجهمية والمعتزلة وأتباعهم.

القول الثاني في المسألة: أنَّ الفعلَ غيرُ المفعول، ثُمَّ اختلف هؤلاء، فقالت

طائفة منهم: إنَّ الفعل قديمٌ كقدم القدرة والعلم، والمفعول متأخِّر عن الفعل، فقيل لهم: لا يمكن أن يكون الفعلُ قديمًا ويتأخر المفعول، لأنَّ الفعلَ مقارنٌ للمفعول، فعندما تصنع بابًا صار الحكم مقارنًا لتكوين هذا الباب، قالوا: نسمي هذا تكوينًا سابقًا، لكن هذا لا يخرجون به عن الإشكال.

الطائفة الثانية: من الذين قالوا: إنَّ الفعلَ غيرُ المفعول، انقسموا أيضًا إلى قسمين:

قسم قالوا: إنَّ الفعلَ غيرُ المفعول، لكنه ليس أزليًّا، فالفعل كان ممتنعًا، ثُمَّ كان ممكنًا، وهذا رأي الكرَّامِيَّة.

وقسم قالوا: لا، كان الفعل قائمًا به، وهو غيرُ المفعول، ولكنه يتجدد وهو أزلِـيّ، فلم يزل الله ولا يزال فعَّالًا، وهذا هو مذهب أهل الحديث، ولهذا **قال**:

٨٧٨- وَالآخَرُونَ أُولُو الْـحَدِيثِ كَأَحْمَـدٍ ... ذَاكَ ابْـنُ حَنْبَـلٍ الرِّضَـا الشَّـيْبَانِي

٨٧٩- قَـدْ قَـالَ: إنَّ الله حَقًّـا لَـمْ يَـزَلْ ... مُتَـكَلِّمًا إنْ شَـاءَ ذُو إحْسَـانِ

٨٨٠- جَعَلَ الْكَـلامَ صِـفَاتِ فِعْـلٍ قَـائِمٍ ... بِالـذَّاتِ لَـمْ يُفْقَـدْ مِـنَ الـرَّحْمَنِ

فالكلام صفةُ فعل، وإذا كان لم يُفْقَدْ من الله معناه أنه لم يأتِ عليه زمن إِلَّا وهو يتكلَّم كما أنه لم يأتِ زمن إِلَّا وهو يفعل.

فالكلام صفة من صفاته الفعلية، وأنَّه متى شاء تكلَّم، ومتى شاء سكت، وأنه عزَّ وجلَّ يتكلَّم بما شاء، قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، والمراد بالسكوت ليس عدم النطق، لأننا لا نستطيع أن

نثبت هذا، لكن هو ترك الكلام في شيء معيَّن، وأَمَّا أن نقول: إِنَّ الله يُوصف بالسكوت فلا، وأمَّا الحديث: «وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ»[١]. فالمعنى أنه لم يشرعها، أو لم يمنعها، ولا يلزم من هذا أن يكون ساكتًا، أو يقال: سكوت مُعَيَّن لا ينافي الكمال.

٨٨١- وَكَذَاكَ نَصَّ عَلَى دَوَامِ الْفِعْلِ بِالْـ ... إِحْسَانِ أَيْضًا فِي مَكَانٍ ثَانِ

قَوْلُهُ: «وَكَذَاكَ نَصَّ» كذاك نَصَّ أي: الإمام أحمد على دوام الفعل بالإحسان أيضًا.

قَوْلُهُ: «فِي مَكَانٍ ثَانِ» يعني: في قولٍ آخر له.

٨٨٢- وَكَذَا ابْنُ عَبَّاسٍ[٢] فَرَاجِعْ قَوْلَهُ ... لَـمَّا أَجَابَ مَسَائِلَ الْقُرْآنِ

يعني: أنَّ ابنَ عباس نصَّ على أنَّ الفعلَ أزليٌّ، وأنَّ الله لم يزل ولا يزال فَعَّالًا، دائم الإحسان.

٨٨٣- وَكَذَاكَ جَعْفَرٌ[٣] الإِمَامُ الصَّادِقُ الْـ ... ـمقبولُ عِنْدَ الْـخَلْقِ ذُو الْعِرْفَانِ

٨٨٤- قَدْ قَالَ لَـمْ يَزَلِ الْـمُهَيْمِنُ مُحْسِنًا ... بَـرًّا جَـوَادًا عِنْـدَ كُـلِّ أَوَانِ

---

(١) أخرجه الدارقطني، كتاب الرضاع، برقم (٤٤٤٥).

(٢) **ابن عباس**: هو عبد الله بن عباس الصحابي الجليل، ترجمان القرآن، وحبر الأمة، ولد بمكة قبل الهجرة بثلاث سنين، ولازم النبيَّ ﷺ، وكان من مكثري الحديث، سكن الطائف في آخر عمره، ومات بها سنة (٦٨هـ). [الشارح].

(٣) **جعفر الصادق**: هو جعفر بن محمد الباقر بن علي زيد العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من أجلاء التابعين، أخذ عنه أبو حنيفة ومالك، لُقِّب بالصادق، لأنه لم يعرف عنه أنه كذب، كان جريئًا صدَّاعًا بالحق، ولد بالمدينة سنة (٨٠ هـ)، ومات بها سنة (١٤٨هـ). [الشارح].

٨٨٥- وَكَـذَا الإِمَـامُ الـدَّارِمِيُّ[1] فَإِنَّـهُ ... قَـدْ قَـالَ مَـا فيـهِ هُـدَى الْـحَيْرَانِ

قَوْلُهُ: «قد قال ما فيه هدى الحيران» يعني: أنَّ الدَّارمي -رحمه الله- أتى بقول يهتدي به الحيران، أي: المُتَحَيِّر.

٨٨٦- قَـالَ الْـحَيَاة مَـعَ الْفِعَـالِ كِلاهُمَـا ... مُتَلازِمَـانِ فَلَـيْسَ يَفْتَرِقَـانِ

الدَّارِمِيُّ -رحمه الله- قال: متى قلتَ: إنَّ الله حيٌّ، لزم أن يكون فَعَّالًا، وإذا كانت الحياة أزلية فالفعل أزليٌّ، إذ لا يُتَصَوَّر حيٌّ بدون فعل.

وهذا كلام جيد من الدارمي إذ يقول: إنَّ الفعلَ ملازمٌ للذات، فكما أنَّ الله لم يزل حيًّا فإنه لم يزل فَعَّالًا.

٨٨٧- صَدَقَ الإِمَامُ فَكُلُّ حَـيٍّ فَهْـوَ فَعْـ ... ـالٌ، وَذَا فِي غَايَـةِ التِّبْيَـانِ

٨٨٨- إِلَّا إِذَا مَـا كَـانَ ثَـمَّ مَوَانِـعٌ ... مِـنْ آفَـةٍ أَوْ قَـاسِرِ الْـحَيَوَانِ

قَوْلُهُ: «صَدَقَ الإِمَامُ» يعني: الدَّارِمِيَّ.

يقول: القاعدة أنَّ كُلَّ حيٍّ فَعَّال، إِلَّا إذا كان هناك مانعٌ من آفة مثل أن يكون في الإنسان شلل، أو (قاسر الحيوان) كمكسور لا يقدر على الحركة، فهنا لا يلزم من الحياة الفعل.

٨٨٩- وَالـرَّبُّ لَـيْسَ لِفِعْلِـهِ مِـنْ مَـانِعٍ ... مَـا شَـاءَ كَـانَ بِقُـدْرَةِ الـدَّيَّانِ

قَوْلُهُ: «وَالرَّبُّ لَيْسَ لِفِعْلِهِ مِنْ مَانِعٍ» إذن فلم يَزَل فَعَّالًا كما أنه لم يَزَل حيًّا، فما شاء كان بقدرة الدَّيَّان.

---

(١) الدارمي: هو عثمان بن سعيد بن خالد الدارمي السجستاني، مُحَدِّث هَرَاة، له تصانيف في الرَّدِّ على الجهمية، ولد سنة (٢٠٠ هـ)، وتوفي بهراة سنة (٢٨٠ هـ). [الشارح].

الخلاصة: أننا نؤمن بأنَّ الله متكلِّمٌ بكلامٍ هو فعلُه بحرفٍ وصوتٍ، متى شاء بما شاء، هذا هو عقيدتنا، وهو الموافق تمامًا لما قاله السلف -رحمهم الله- وهو الموافق تمامًا لفطرة الإنسان، فكُلُّ إنسانٍ يعرِف أنَّ كُلَّ حَيٍّ فَعَّال، وكَلَّ فَعَّال متكلِّم إِلَّا أن يكون هناك مانِعٌ من خَرَس أو خوف أو ما أشبه ذلك، والله عزَّ وجلَّ ليس له مانع، فلا أحدَ يمنعه، بل هو يفعل ما يشاء، هذا هو العقيدة السليمة السلفية القوية.

* * *

٨٩٠- وَمَشِيئَةُ الرَّحْمَنِ لازِمَةٌ لَهُ ... وَكَذَاكَ قُدْرَةُ رَبِّنَا الرَّحْمَنِ

٨٩١- هَذَا وَقَدْ فَطَرَ الإِلَهُ عِبَادَهُ ... أَنَّ الْمُهَيْمِنَ دَائِمُ الإِحْسَانِ

٨٩٢- أَوَلَسْتَ تَسْمَعُ قَوْلَ كُلِّ مُوَحِّدٍ ... يَا دَائِمَ الْمَعْرُوفِ وَالسُّلْطَانِ

٨٩٣- وَقَدِيمَ الاحْسَانِ الْكَثِيرِ وَدَائِمَ الْـ ... جُودِ الْعَظِيمِ وَصَاحِبَ الْغُفْرَانِ

٨٩٤- مِنْ غَيْرِ إِنْكَارٍ عَلَيْهِمْ فِطْرَةً ... فُطِرُوا عَلَيْهَا لا تَوَاصٍ ثَانِ

٨٩٥- أَوَلَيْسَ فِعْلُ الرَّبِّ تَابِعَ وَصْفِهِ ... وَكَمَالِهِ أَفَذَاكَ ذُو حِدْثَانِ؟!

٨٩٦- وَكَمَالُهُ سَبَبُ الْفِعَالِ وَخَلْقُهُ ... أَفْعَالَهُمْ سَبَبُ الْكَمَالِ الثَّانِي

٨٩٧- أَوَمَا فِعَالُ الرَّبِّ عَيْنُ كَمَالِهِ ... أَفَذَاكَ مُمْتَنِعٌ عَلَى الْمَنَّانِ

٨٩٨- أَزَلًا إِلَى أَنْ صَارَ فِيمَا لَمْ يَزَلْ ... مُتَمَكِّنًا وَالْفِعْلُ ذُو إِمْكَانِ

٨٩٩- تَاللهِ قَدْ ضَلَّتْ عُقُولُ الْقَوْمِ إِذْ ... قَالُوا بِهَذَا الْقَوْلِ ذِي الْبُطْلانِ

٩٠٠- مَاذَا الَّذِي أَضْحَى لَهُ مُتَجَدِّدًا ... حَتَّى تَمَكَّنَ فَانْطِقُوا بِبَيَانِ

٩٠١- وَالـرَّبُّ لَـيْسَ مُعَطَّـلًا عَـنْ فِعْلِـهِ ... بَـلْ كُـلَّ يَـوْمٍ رَبُّنَـا فِي شَـانِ

٩٠٢- وَالأَمْـرُ وَالتَّكْـوِينُ وَصْـفُ كَمَالِـهِ ... مَـا فَقْـدُ ذا وَوُجُـودُهُ سِـيَّان

٩٠٣- وَتَـخَلُّفُ التَّأْثِـيرِ بَعْـدَ تَـمَامِ مُـو ... جِبِـهِ مُحَـالٌ لَـيْسَ فِي الإِمْكَـانِ

٩٠٤- وَاللهُ رَبِّي لَـمْ يَـزَلْ ذَا قُـدْرَةٍ ... وَمَشِـيئَةٍ وَيَلِـيهِمَا وَصْـفَانِ

٩٠٥- الْعِلْمُ مَـعْ وَصْـفِ الْـحَيَاةِ وَهَـذِهِ ... أَوْصَـافُ ذَاتِ الْـخَالِقِ الْـمَنَّانِ

٩٠٦- وَبِهَـا تَمَـامُ الْفِعْـلِ لَـيْسَ بِـدُونِهَا ... فِعْـلٌ يَـتِمُّ بِوَاضِـحِ الْبُرْهَـانِ

٩٠٧- فَـلأَيِّ شَيءٍ قَـدْ تَـأَخَّرَ فِعْلُـهُ ... مَـعْ مُوجِـبٍ قَـدْ تَـمَّ بِالأَرْكَـانِ

٩٠٨- مَا كَـانَ مُمْتَنِعًـا عَلَيْـهِ الْفِعْـلُ؟ بَـلْ ... مَـا زَالَ فِعْـلُ اللهِ ذَا إِمْكَـانِ

الشرحُ

في هذه المقطوعة أراد المؤلف أن يردَّ على طائفة الكَرَّامِيَّة الذين قالوا: إنَّ فِعْلَ الله تعالى حادثٌ متعلِّق بمشيئته، لكنه حادثٌ بعد أن لم يكن، فكان بالأول ممتنعًا، ثُمَّ صار حادثًا.

فنقول: ما الذي جعله في الأول مستحيلًا، وفي الثاني ممكنًا؟ قد يحتجون بهذا علينا أيضًا، ويقولون: إذا كان الله تعالى قبل خلق السموات والأرض لم يخلقها، فهل حدث له كمال فخلقها؟

الجواب: لا، هو كاملٌ من قبل أن يخلقها، لكن حيث اقتضت الحكمة أن يَخْلُقها خَلَقها، فكان إيجادُها كمالًا، وحيث لم تقتضِ الحِكْمة وُجودَها لم يخلقها، فكان عدمُ خلقها كمالًا، وفي هذا ينجلي عنك الإشكال.

فابن القيم -رحمه الله- رَدَّ عليهم بهذه الأبيات، وفيها شيء من التَّكرارِ لكن من أجل التوضيح، فقال:

٨٩٠- وَمَشِيئَةُ الرَّحْمَنِ لازِمَةٌ لَهُ وَكَذَاكَ قُدْرَةُ رَبِّنَا الرَّحْمَنِ

يعني: أنَّ الله لم يزل شائيًا، لم يزل مُريدًا للأشياء، ولم يزل قادرًا عليها، والقدرة باتفاق الجميع ليست حادثةً، والمشيئة كذلك ليست حادثةً.

٨٩١- هَذَا وَقَدْ فَطَرَ الإِلَهُ عِبَادَهُ أَنَّ الْمُهَيْمِنَ دَائِمُ الإِحْسَانِ

ثمَّ استدلَّ -رحمه الله- على أنَّ الله لم يزل ولا يزال فَعَّالًا بما فَطر الله عليه العباد، وهو أنَّ الله دائمُ الإحسان، والدوام يقتضي التسلسلَ في الأزَلِ والتسلسل في المستقبل، في الأزل يعني: في الماضي، وفي المستقبل ما دام دائمًا فإنه يقتضي أن يكون فاعلًا، ولم يزل فَعَّالًا في الماضي كما لا يزال فَعَّالًا في المستقبل.

٨٩٢- أَوَلَسْتَ تَسْمَعُ قَوْلَ كُلِّ مُوَحِّدٍ يَا دَائِمَ الْمَعْرُوفِ وَالسُّلْطَانِ

قَوْلُهُ: «أَوَلَسْتَ تَسْمَعُ»؟ هذا الاستفهام للتقرير، والجواب: بلى، نسمع، فكُلُّ واحد من أهل التوحيد يقول: يا دائم المعروف والسلطان، والدوام يقتضي التسلسلَ في الماضي والتسلسلَ في المستقبل وإلَّا لم يكن دائمًا.

٨٩٣- وَقَدِيمَ الاحْسَانِ الْكَثِيرِ وَدَائِمَ الْـ جُودِ الْعَظِيمِ وَصَاحِبَ الْغُفْرَانِ

كلُّ هذا نسمعه من المسلمين، وكلُّه يقتضي أنَّ الله لم يزل ولا يزال فَعَّالًا محسنًا.

٨٩٤- مِنْ غَيْرِ إِنْكَارٍ عَلَيْهِمْ فِطْرَةً فُطِرُوا عَلَيْهَا لا تَوَاصٍ ثَانِ

قَوْلُهُ: «مِنْ غَيْرِ إِنْكَارٍ عَلَيْهِمْ» يعني: لا أحد يُنكِر عليهم.

قَوْلُهُ: «فِطْرَةً فُطِرُوا عَلَيْهَا» ويجوز أن تقول: (فِطْرَةٌ فُطِرُوا عَلَيْهَا) فعلى الأول تكون (فطرة) مصدرًا مفعولا مطلقا لـ(فطروا)، وعلى الثاني تكون خبرًا لمبتدأ محذوف، والتقدير (هي فطرةٌ).

قَوْلُهُ: «لا تَوَاصٍ ثَانِ» يعني: لا أحد وَصَّاهم، يعني: ليس بعضُهم يوصِي بعضًا ويقول: قل: يا دائم المعروف، قل: يا دائم السلطان، بل هي أمرٌ فطري.

٨٩٥- أَوَلَـيْسَ فِعْـلُ الـرَّبِّ تَـابِعَ وَصْـفِهِ ... وَكَمَالِـــهِ أَفَـــذَاكَ ذُو حِـــدْثَانِ؟!

الجواب: بلى، فِعْلُ الرَّبِّ تابعٌ لكمالِه، وإذا كان تَابِعَ كمالِه، فهل كمالُه حادثٌ؟

الجواب: لا، الفَعَّال أكملُ ممن لا يفعل، وإذا كان كمالُ الله تعالى لازمًا له أزلًا وأبدًا لَزِم أن يكون فعلُه لازمًا له أزلًا وأبدًا، فالله لم يَزَل ولا يَزَال فَعَّالًا.

٨٩٦-وَكَمَالُـــهُ سَـــبَبُ الْفِعَـــالِ وَخَلْقُـــهُ ... أَفْعَالَـــهُمْ سَـــبَبُ الْكَـــمَالِ الثَّـــانِي

قَوْلُهُ: «وَكَمَالُهُ سَبَبُ الْفِعَالِ» يعني: أنه لما كان كاملًا كان كمالُه سببًا لفعله، ومن المعلوم أن المُسَبَّب لا يتأخر عن السبب، فالكمال لازمٌ أبدًا، إذن الفعل لازمٌ أبدًا.

قَوْلُهُ: «وَخَلْقُه أَفْعَالَـهُمْ» أي: وخَلْقُ أفعالِ العباد.

قَوْلُهُ: «سَبَبُ الْكَمَالِ الثَّانِي» يعني مثلًا: الله تعالى لم يزل خالقًا فاعلًا، فإذا خلَقَ الشيءَ صار هذا كمالًا ثانيًا تَبَيَّنَ به الكمالُ الأولُ، لأنه لا يظهر هنا كمالُ الله عزَّ وجلَّ إلَّا بمخلوقاتِه، فهذه المخلوقات إذا رأيناها كاملةً وهي من أثرِ فعلِه فهذا كمالٌ ثانٍ غيرُ الكمالِ الأولِ الذي هو وصفُه الدائمُ.

٨٩٧- أَوَمَا فِعَالُ الرَّبِّ عَيْنُ كَمَالِهِ   أَفَذَاكَ مُمْتَنِعٌ عَلَى الْمَنَّانِ

الجواب: لا، ليس بمُمتنعٍ، فإذا كانَ فعلُ الله هو عينَ كمالِه فهو لم يَزَل كاملًا.

٨٩٨- أَزَلًا إِلَى أَنْ صَارَ فِيمَا لَمْ يَزَلْ   مُتَمَكِّنًا وَالْفِعْلُ ذُو إِمْكَانِ

وهذا رأي الكَرَّاميَّة يقولون: إنَّ الله كان في الأزل لا يتمكن من الفعل، ثُمَّ صار متمكنًا، لأنهم يخشون إذا قالوا: بأنه لم يزل فاعلًا أن يُلْزَموا بتسلسل الحوادث في الماضي، وهذا يقتضي أنَّ هذا الكون لا خالقَ له.

وهذا خطأ، لأننا حتى لو قلنا بقدم الفعلِ، فإنَّ المفعول يكون بعد الفاعل أو معه؟

الجواب: بعده قطعًا، يعني: لو قلنا بأنَّ المخلوقات لم تَزَلْ فيما مضى، لكن نحن لا نعلم إِلَّا السموات والأرض فإنه لا يلزم أن تكون قديمةً قِدَمَ الله، لأنه من المعلوم أنَّ الفعل لا يكون إِلَّا بعد الفاعل، والمفعول لا يكون إِلَّا بعد الفعل، فكيف تقولون: إنَّ هذا ممتنع؟!

٨٩٩- تَاللهِ قَدْ ضَلَّتْ عُقُولُ الْقَوْمِ إِذْ   قَالُوا بِهَذَا الْقَوْلِ ذِي الْبُطْلَانِ

قَوْلُهُ: «تَاللهِ قَدْ ضَلَّتْ عُقُولُ الْقَوْمِ» أي: الكَرَّامِيَّة.

قَوْلُهُ: «إِذْ قَالُوا بِهَذَا الْقَوْلِ» يعني أنَّ الفعلَ كان بالأول ممتنعًا، ثُمَّ صار ممكنًا.

٩٠٠- مَاذَا الَّذِي أَضْحَى لَهُ مُتَجَدِّدًا   حَتَّى تَمَكَّنَ فَانْطِقُوا بِبَيَانِ

يعني: ما السبب أنه كان ممتنعًا، ثُمَّ صار ممكنًا؟

٩٠١- وَالـرَّبُّ لَـيْسَ مُعَطَّـلًا عَـنْ فِعْلِـهِ بَـلْ كُـلَّ يَـوْمٍ رَبُّنَـا فِي شَـانِ

يعني: لو قلنا إنَّ الله في الأزل لم يكن قادرًا على الفعل، ثُمَّ كان قادرًا لَزِم أن يكون في الأول مُعَطَّلًا عن الفعل.

٩٠٢- وَالأَمْـرُ وَالتَّكْـوِينُ وَصْـفُ كَمَالِـهِ مَـا فَقْـدُ ذا وَوُجُـودُهُ سِـيَّان

قَوْلُهُ: «وَالأَمْرُ وَالتَّكْوِينُ» ذكَرَه الله تعالى في قولِه: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف:٥٤]، التكوين: الخلق، والأمر هو الأمر، فالله له الأمر، وله التكوين، وهذان وصفان لكماله، ولهذا قال: (**وَصْفُ كَمَالِهِ ما فَقْدُ ذا وَوُجُودُهُ سِيَّانِ**)، لكن أيهما أكمل؟ الجواب: وجوده لا شكَّ.

٩٠٣- وَتَخَلُّـفُ التَّـأْثِيرِ بَعْـدَ تَمَـامِ مُـو جِبِـهِ مُحَـالٌ لَـيْسَ فِي الإِمْكَـانِ

يَردُّ عليهم، ويقول: إذا قلتم: إنَّ الله تعالى لا مفعولَ له في الأزل، ثُمَّ صار له مفعول، إن قلتم: إنَّ الله قادر، ثُمَّ تَخَلَّفَ المقدور، فهذا مستحيل، لأنَّ تخلُّف التأثير بعد تمام موجِبِه مستحيلٌ، فإذا وُجد الموجِب لا بدَّ أن يوجد الموجَب ولا يتخلَّف، فإذا كان الله قادرًا فاعلًا فلماذا لا يكون المفعولُ أزليًّا كما كان الفعلُ أزليًّا؟! لكن معنى ذلك لو قلنا: بأنه أزلِيٌّ لا يلزم أن يكون مساويًا للفاعل، لأنَّ الفعل بعد الفاعل، والمفعول بعد الفعل.

٩٠٤- وَاللهُ رَبِّي لَـمْ يَـزَلْ ذَا قُـدْرَةٍ وَمَشِـيئَةٍ وَيَلِـيهِمَا وَصْـفَانِ

٩٠٥- الْعِلْمُ مَـعْ وَصْـفِ الْـحَيَاةِ وَهَـذِهِ أَوْصَـافُ ذَاتِ الْـخَالِقِ الْـمَنَّانِ

فهذه أربعة: الحياة، والعلم، والمشيئة، والقدرة، فهذه أوصاف ذات الخالق المنان.

٩٠٦- وَبِهَا تَمَامُ الْفِعْلِ لَيْسَ بِدُونِهَا فِعْلٌ يَتِمُّ بِوَاضِحِ الْبُرْهَانِ

وهذا صحيح، فلا يمكن أن يَتِمَّ فعلُ الفاعل إِلَّا بهذه الأوصاف الأربعة: وهي الحياةُ، والعلمُ، والمشيئةُ، والقدرةُ، فالميت لا يفعلُ، والجاهل لا يفعلُ، لو جاءنا إنسانٌ وقال: أريد أن أصنعَ لكم مُسَجِّلًا الآن، وهو جاهل ما درس ولا جَرَّب هل يمكن أن يُنْتِج؟

الجواب: لا، بسببِ جهلِه.

الإرادة وهي المشيئة، أيضًا لو كان إنسانٌ حيًّا عالمًا قديرًا لكن لم يشأ أن يصنع هذا المسجل، هل يمكن أن يوجد؟

الجواب: لا.

ومثلًا إنسان حيٌّ عليمٌ شائيٌّ لكنه أشلُّ، لا يقدر، يعني: هذا الرجل قد درس وتعلَّم كيف يصنع، وأراد أن يصنع لكنه أشلُّ، لا يقدر، هل يمكن أن يُوجِد المصنوع؟

الجواب: لا يُوجِد.

فإذا تمت هذه الأوصاف الأربعة: الحياة، والعلم، والمشيئة، والقدرة فلا بدَّ أن يُوجَد المفعولُ.

وهل الله عزَّ وجلَّ فَقَدَ الحياةَ في يوم من الأيام؟

الجواب: لا، هل فقد العلم، أو فقد المشيئة، أو فقد القدرة؟ أبدًا.

فإذا كانت هذه الأوصاف تامةً في حقِّ الله فلماذا لا يوجد المفعول؟! لا بدَّ أن يوجد، ولهذا قال: (**وَبِهَا تَمَامُ الْفِعْلِ لَيْسَ بِدُونِهَا فِعْلٌ يَتِمُّ بِوَاضِحِ الْبُرْهَانِ**).

٩٠٧- فَــلِأَيِّ شَيْءٍ قَــدْ تَــأَخَّرَ فِعْلُــهُ ... مَــعْ مُوجِــبٍ قَــدْ تَــمَّ بِالأَرْكَــانِ

٩٠٨- مَا كَــانَ مُمْتَنِعًــا عَلَيْــهِ الْفِعْــلُ؟ بَــلْ ... مَــا زَالَ فِعْــلُ اللهِ ذَا إِمْكَــانِ

قَوْلُهُ: «فَلأَيِّ شَيْءٍ» يعني: إذا كانت قد تمَّت أسبابُ الفعل.

وخلاصة هذه الأبيات أنه أقام الدليل على الكَرَّامِيَّة بأنَّ الله لم يزل حيًّا، لم يزل عالمًا، لم يزل قادرًا، لم يزل شائيًا، فإذا تمت هذه الأمور الأربعة فلا بدَّ من وجود المقدور عليه، فلأي شيءٍ يتخلف؟!

إذ كيف نقول: الموجِب تامٌّ سابق، ثُمَّ لا يُوجَد الموجَب؟! هذا شيءٌ غير ممكن.

كُلُّ هذه الأبيات لتقريرِ هذه القاعدة: أنه متى تمت شروط الفعل وجَبَ وجود الفعل.

* * *

٩٠٩- وَاللهُ عَــابَ الْــمُشْرِكِينَ بِــأَنَّهُمْ ... عَبَدُوا الْحِجَارَةَ فِي رِضَـا الشَّيْطَانِ

٩١٠- وَنَعَى عَلَيْهِمْ كَوْنَهَـا لَيْسَـتْ بِخَـا ... لِقَــةٍ، وَلَيْسَــتْ ذَاتَ نُطْــقِ بَيَــانِ

٩١١- فَأَبَــانَ أَنَّ الْفِعْــلَ وَالتَّكْلِيمَ مِــنْ ... أَوْثَــانِهِمْ لا شَــكَّ مَفْقُــودَانِ

٩١٢- فَــإِذَا هُمَــا فُقِــدَا فَــمَا مَسْــلُوبُهَا ... بِإِلَــهِ حَــقٍّ وَهْــوَ ذُو بُطْــلانِ

٩١٣- وَاللهُ فَهْــوَ إِلَــهُ حَــقٍّ دَائِــمًا ... أَفَعَنْــهُ ذَا الْوَصْــفَانِ مَسْــلُوبَانِ

٩١٤- أَزَلًا؟! وَلَــيْسَ لِفَقْــدِهَا مِــنْ غَايَــةٍ ... هَــذَا الْــمُحَالُ وَأَعْظَــمُ الْــبُطْلانِ

الشـرحُ

٩٠٩- وَاللهُ عَـابَ الْـمُشْرِكِينَ بِـأَنَّهُمْ عَبَدُوا الْحِجَارَةَ فِي رِضَـا الشَّـيْطَانِ

٩١٠- وَنَعَى عَلَـيْهِمْ كَوْنَهَـا لَيْسَـتْ بِخَـا لِقَـةٍ، وَلَيْسَـتْ ذَاتَ نُطْـقِ بَيَـانِ

يقول المؤلف -رحمه الله-: إنَّ الله عابَ المشركين، لأنهم عَبَدوا الحجارةَ في رضا الشيطان، ونَعَى عليهم كونَها ليست بخالقةٍ، يعني: أنها لا تخلق، قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ﴾ [النحل:٢٠].

قَوْلُهُ: «وَلَيْسَتْ ذَاتَ نُطْقِ بَيَانِ» يعني: أنها لا تتكلَّم كما قال إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-: ﴿فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء:٦٣].

٩١١- فَأَبَـانَ أَنَّ الْفِعْـلَ وَالتَّكْلِـيمَ مِـنْ أَوْثَـانِهِمْ لا شَـكَّ مَفْقُـودَانِ

٩١٢- فَـإِذَا هُمَـا فُقِـدَا فَـمَا مَسْـلُوبُهَا بِإِلَـهِ حَـقٍّ وَهْـوَ ذُو بُطْـلانِ

قَوْلُهُ: «مَسْلُوبُهَا» يعني: الذي انتفت عنه، إذا فُقدا من المعبود فليس بإله حقّ، إذن هي ليست بخالقة فلا تفعل، وليست بناطقة فلا تتكلَّم، فإذا فُقِدَ التكليمُ والخلق من المعبود فليس بإلهِ حقٍّ.

٩١٣- وَاللهُ فَهْـوَ إِلَـهُ حَـقٍّ دَائِـمًا أَفَعَنْـهُ ذَا الْوَصْـفَانِ مَسْـلُوبَانِ

٩١٤- أَزَلًا؟! وَلَـيْسَ لِفَقْـدِهَا مِـنْ غَايَـةٍ هَـذَا الْـمُحَالُ وَأَعْظَـمُ الْـبُطْلانِ

الجواب: لا، بل لم يزل فعَّالًا، ولم يزل مُتكلِّمًا، ولهذا قال: (**أَفَعَنْهُ ذَا الْوَصْفَانِ مَسْلُوبَانِ**) أي أفيكون هذان الوصفان مَسْلُوبَيْن عنه أزلًا كما قالت الكرَّامِيَّة؟! لأنَّ الكَرَّامِيَّة يقولون: في الأزل ليس بمتكلِّم، وليس بفاعل، ثُمَّ حَدَث له ذلك، وإذا

قلنا بهذا فإلى متى كان لا يتكلَّم ولا يفعل؟ ولهذا قال: (وَلَيْسَ لِفَقْدِهَا مِنْ غَايَةٍ) إلى أي زمنٍ لم يكن يتكلَّم، ولم يكن يفعل، ثُمَّ صار يتكلَّم ويفعل؟

* * *

٩١٥- إِنْ كَانَ رَبُّ الْعَرْشِ حَقًّا لَمْ يَزَلْ ... أَبَدًا إِلَهَ الْحَقِّ ذَا سُلْطَانِ

٩١٦- فَكَذَاكَ أَيْضًا لَمْ يَزَلْ مُتَكَلِّمًا ... بَلْ فَاعِلًا مَا شَاءَ ذَا إِحْسَانِ

٩١٧- وَاللهِ مَا فِي الْعَقْلِ مَا يَقْضِي لِذَا ... بِالرَّدِّ وَالإِبْطَالِ وَالنُّكْرَانِ

٩١٨- بَلْ لَيْسَ فِي الْمَعْقُولِ غَيْرُ ثُبُوتِهِ ... لِلْخَالِقِ الأَزَلِيِّ ذِي الإِحْسَانِ

٩١٩- هَذَا وَمَا دُونَ الْمُهَيْمِنِ حَادِثٌ ... لَيْسَ الْقَدِيمُ سِوَاهُ فِي الأَكْوَانِ

٩٢٠- وَاللهُ سَابِقُ كُلِّ شَيْءٍ غَيْرِهِ ... مَا رَبُّنَا وَالْخَلْقُ مُقْتَرِنَانِ

٩٢١- وَاللهُ كَانَ ولَيْسَ شَيْءٌ غَيْرُهُ ... سُبْحَانَهُ جَلَّ الْعَظِيمُ الشَّانِ

الشرحُ

قال المؤلف -رحمه الله-: إنَّ الله عزَّ وجلَّ ما كان حادثًا بل هو القديم، وهذا مُتابعةً للمناطقة، وإلَّا فليس من أسماء الله القديم، لأنَّ القديم لا يتضمَّن ما وصف الله به أسماءه في قولِه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف:١٨٠].

فالقديم قد يكون غيرُه أقدمَ منه، فلا يصحُّ أن يكون اسمًا، ثُمَّ القديم قد يكون في شيء مخلوق كما في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يس:٣٩]، ولذلك لم يكن من أسمائه القديم، ويغني عنه قوله -تبارك وتعالى-: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد:٣] فاسمه (الأوَّل) يغني عن القديم، لأنَّ (الأوَّل)

يدلُّ على أنه ليس شيءٌ قبله ولا شيءٌ معه، ويدلُّ على معنًى آخر وهو أنَّ مآلَ الأشياء إليه، فهو مشتقٌّ من الأولية، والآيلية، ولكن لا بأس أن نخاطب هؤلاء المتكلِّمين بما يقولون بدون أن نوافقهم عليه.

* * *

٩٢٢- لَسْنَا نَقُولُ كَمَا يَقُولُ الْـمُلْحِدُ الزْ ... زِنْـدِيقُ صَـاحِبُ مَنْطِـقِ الْيُونَـانِ

٩٢٣- بِدَوَامِ هَذَا الْعَالَـمِ الْـمَشْهُودِ وَالْـ ... أَرْوَاحِ فِي أَزَلٍ وَلَـيْسَ بِفَـانِ

٩٢٤- هَـذِي مَقَـالاتُ الْـمَلاحِدَةِ الأُلَى ... كَفَـرُوا بِخَـالِقِ هَـذِهِ الأَكْـوَانِ

٩٢٥- وَأَتَى ابْـنُ سِـينَا بَعْـدَ ذَاكَ مُصَـانِعًا ... لِلْمُسْـلِمِينَ فَقَـالَ بِالإِمْكَـانِ

٩٢٦- لَكِنَّـهُ الأَزَلِيُّ لَـيْسَ بِمُحْـدَثٍ ... مَـا كَـانَ مَعْـدُومًا وَلا هُـوَ فَـانِ

٩٢٧- وَأَتَـى بِصُـلْحٍ بَـيْنَ طَـائِفَتَيْنِ بَيْـ ... ـنَهُمَا الْـحُرُوبُ وَمَـا هُمَـا سِلْمَانِ

٩٢٨- أَنَّى يَكُونُ الْـمُسْلِمُونَ وَشِـيعَةُ الْـ ... ـيُونَانِ صُـلْحًا قَـطُّ فِي الإِيـمَانِ

٩٢٩- والسَّـيْفُ بَـيْنَ الأَنبِيَـاءِ وَبَيْـنَهُمْ ... وَالْـحَرْبُ بَيْـنَهُمُ فَحَـرْبُ عَـوَانِ

٩٣٠- وَكَذَا أَتَى الطُّوسِيُّ بِالْحَرْبِ الصَّرِيـ ... ـحِ بِصَـارِمٍ مِنْـهُ وَسَـلِّ لِسَـانِ

٩٣١- وَأَتَـى إِلَى الإِسْـلامِ يَهْـدِمُ أَصْـلَهُ ... مِـنْ أُسِّـهِ وَقَوَاعِـدِ الْبُنْيَـانِ

٩٣٢- عَمَـرَ الْـمَدَارِسَ لِلْفَلاسِـفَةِ الأُلَى ... كَفَـرُوا بِـدِينِ اللهِ وَالْقُـرْآنِ

٩٣٣- وَأَتَى إِلَى أَوْقَـافِ أَهْـلِ الـدِّينِ يَنْـ ... ـقُلُهَا إِلَـيْهِمْ فِعْـلَ ذِي أَضْـغَانِ

٩٣٤- وَأَرَادَ تَحْوِيـلَ الإِشَـارَاتِ الَّتِـي ... هِـيَ لابْـنِ سِينَا مَوْضِعَ الْفُرْقَـانِ

٩٣٥- وَأَرَادَ تَحْوِيلَ الشَّرِيعَةِ بِالنَّوَا مِيسِ الَّتِي كَانَتْ لَدَى الْيُونَانِ

٩٣٦- لَكِنَّهُ عَلِمَ اللَّعِينُ بِأَنَّ هَـ ـذَا لَيْسَ فِي الْمَقْدُورِ وَالإِمْكَانِ

٩٣٧- إِلَّا إِذَا قَتَلَ الْخَلِيفَةَ وَالْقُضَا ةَ وَسَائِرَ الْفُقَهَاءِ فِي الْبُلْدَانِ

٩٣٨- فَسَعَى لِذَاكَ وَسَاعَدَ الْمَقْدُورُ بِالْ أَمْرِ الَّذِي هُوَ حِكْمَةُ الرَّحْمَنِ

٩٣٩- فَأَشَارَ أَنْ يَضَعَ التَّتَارُ سُيُوفَهُمْ فِي عَسْكَرِ الإِيمَانِ وَالْقُرْآنِ

٩٤٠- لَكِنَّهُمْ يُبْقُونَ أَهْلَ صَنَائِعِ الدُّ نْيَا لأَجْلِ مَصَالِحِ الأَبْدَانِ

٩٤١- فَغَدَا عَلَى سَيْفِ التَّتَارِ الأَلْفُ فِي مِثْلٍ لَهَا مَضْرُوبَةً بِوِزَانِ

٩٤٢- وَكَذَا ثَمَانِ مِئِينِهَا فِي أَلْفِهَا مَضْرُوبَةً بِالْعَدِّ وَالْحُسْبَانِ

٩٤٣- حَتَى بَكَى الإِسْلامَ أَعْدَاهُ الْيَهُو دُ كَذَا الْمَجُوسُ وَعَابِدُو الصُّلْبَانِ

٩٤٤- فَشَفَى اللَّعِينُ النَّفْسَ مِنْ حِزْبِ الرَّ سُولِ وَعَسْكَرِ الإِيمَانِ وَالْقُرْآنِ

٩٤٥- وَبِوُدِّهِ لَوْ كَانَ فِي أُحُدٍ وَقَدْ شَهِدَ الْوَقِيعَةَ مَعْ أَبِي سُفْيَانِ

٩٤٦- لأَقَرَّ أَعْيُنَهُمْ وَأَوْفَى نَذْرَهُ أَوْ أَنْ يُرَى مُتَمَزِّقَ اللَّحْمَانِ

الشرحُ

٩٢٢- لَسْنَا نَقُولُ كَمَا يَقُولُ الْمُلْحِدُ الزْ زِنْدِيقُ صَاحِبُ مَنْطِقِ الْيُونَانِ

قَوْلُهُ: «الْمُلْحِدُ الزِّنْدِيقُ صَاحِبُ مَنْطِقِ الْيُونَانِ» وهو أرسطو، لأَنَّ أرسطو هو المعلم الأول للفلسفة اليونانية، يقول:

٩٢٣- بِدَوَامِ هَذَا الْعَالَـمِ الْـمَشْهُودِ وَالْـ أَرْوَاحِ فِي أَزَلٍ وَلَـيْسَ بِفَـانِ

هذا العالَـمُ المشهودُ الذي هو السمواتُ، والأرضُ، والأفلاكُ، والأرواحُ -وهي عَالَـمٌ خفيٌّ- يقول: إنه دائمٌ أزلًا، وليس بفانٍ، إذن فهو دائمٌ أزلًا وأبدًا.

وهذا الوصف لا يصحُّ إلا لله وحدَه، فهم يقولون -أعنى الفلاسفة-: هذا العالَـمُ ليس له أوَّل وليس له آخِر، يبقى ولا يَفْنَى أبدًا، وهو أزليٌّ فيما سبق، لم يسبقه عَدَم.

٩٢٤- هَـذِي مَقَـالاتُ الْـمَلاحِدَةِ الأُلَى كَفَـرُوا بِخَـالِقِ هَـذِهِ الأَكْـوَانِ

قَوْلُهُ: «هذي» الإشارة إلى القول بدوام العالَم المشهود أزلًا وأبدًا.

قَوْلُهُ: «مقالات الملاحدة الأُلَى» الألى يعني: الذين، فـ(الأُلَى) جمع (الذي) كما قال ابنُ مالكٍ في ألفيته: جَمْعُ الَّذِي: (الأُلَـى) (الَّذِينَ) مُطْلَقَا

إِذَنْ الفلاسفة يقولون: هذا الكون المشهود -وهو السموات، والأرض، والشمس، والقمر، والنجوم- أزليٌّ أَبَدِيٌّ، وكذلك العالَـمُ غير المشهود -وهي الأرواح- أزليٌّ أَبَدِيٌّ، لكن من أين يؤخذ أنه (الأزلي)؟ الجواب: من قوله: «بِدَوَامِ هَذَا الْعَالَـمِ... فِي أَزَلٍ»، وهو أيضًا أبديٌّ لقوله: «وَلَيْسَ بِفَانِ».

٩٢٥- وَأَتَى ابْـنُ سِـينَا بَعْـدَ ذَاكَ مُصَـانِعًا لِلْمُسْـلِمِينَ فَقَـالَ بِالإِمْكَـانِ

قَوْلُهُ: « مُصَانِعًا» أي: للمسلمين، يعني: مُتقرِّبًا إليهم، لأنَّ ابنَ سِينا يَدَّعِي أنه مسلم، وإذا كان مسلمًا بدعواه، فإنه لن يأتيَ بقولٍ يناقض ما عليه المسلمون، فأتى بقولٍ يُصانِعُهم فيه، فقال بالإمكان، يعني: بإمكان حُدوثِ هذا العالَم، وأَنَّ العالَمَ يمكن أن يكون حادثًا.

والفلاسفة الذين قبل أرسطو وأتباعه يقولون: إنَّ العالَـمَ أَزِليٌّ، لا يمكن أن يكون حادثًا، أما ابنُ سِينا فأتى (**فقال بالإمكان**).

٩٢٦- لَكِنَّــهُ الأَزَلِيُّ لَــيْسَ بِمُحْــدَثٍ مَـا كَـانَ مَعْـدُومًا وَلا هُـوَ فَـانِ

يقول: إنه ممكن أن يكون حادثًا لكنه أزليٌّ.

فما الفرق بينه وبين الفلاسفة؟ الجواب: الفلاسفة يقولون: يمتنع أن يكون حادثًا، وهو يقول: يمكن أن يكون حادثًا.

وأما المسلمون فيقولون: يجب أن يكون حادثًا، لأنَّ كُلَّ ما سوى الله فهو حادثٌ بعد أن كان عدمًا.

فصار هذا الرجل كالمنافقين لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، فلا هو بالذي يقول بقول الفلاسفة بأنَّ كونَه حادثًا ممكنٌ، ولا بقول المسلمين بأنَّ كونَه حادثًا واجبٌ، بل قال: يمكن، لكن مع ذلك هو أزليٌّ ليس بمُحْدَث.

قَوْلُهُ: «**مَا كَانَ مَعْدُومًا**» هذا التسلسل في الأول.

قَوْلُهُ: «**وَلا هُوَ فَانِ**» هذا التسلسل في المستقبل.

٩٢٧- وَأَتَـى بِصُـلْحٍ بَـيْنَ طَـائِفَتَيْنِ بَيْــ ـنَهُمَا الْــحُرُوبُ وَمَـا هُـمَا سِـلْمَانِ

قَوْلُهُ: «**وَأَتَى بِصُلْحٍ**» أي: بين المسلمين الذين قالوا: بوجوب حدوث العالَمِ، وبين الفلاسفة الذين قالوا باستحالة حدوث العالَم، وأنَّ العالَـمَ أَزَلِيٌّ، فقال: نجمع بينكما.

فقال: نقول: يمكن أن يكون حادثًا ولكن ليس بحادث، فقال: (**يمكن**) لأجل أن يدفع قول الفلاسفة، وقال: (**وليس بحادث**) ليدفع قول المسلمين.

فيقول: نصلح بينكما، نقول: الأمر أَزَلِيٌّ لأجل أن نوافق الفلاسفة، ونقول: إنه ممكن، وليس بواجب الأزلية ليوافق المسلمين.

لكن ابن القيم يقول: (**وَأَتَى بِصُلْحٍ بَيْنَ طَائِفَتَيْنِ بَيْنَهُمَا الْـحُرُوبُ وَمَا هُمَا سِلْمَانِ**) فليس بين المسلمين والفلاسفة سِلْمٌ، بل بينهما حرب طاحنة، فكيف يقول: نجمع بينكما؟!

٩٢٨- أَنَّى يَكُونُ الْـمُسْلِمُونَ وَشِيعَةُ الْـ ... ـيُونَانِ صُلْحًا قَطُّ فِي الإِيمَانِ

هل يمكن أن يصطلح المسلمون الذين يؤمنون بالله وأنه خالقُ الأكوانِ مع اليونان الذين يقولون: إنَّ هذه الأكوان أزليةٌ أَبَدِيَّة ولا مُوجِدَ لها؟

الجواب: لا يمكن، ولهذا قال:

(**أَنَّى يَكُونُ الْـمُسْلِمُونَ وَشِيعَةُ الْيُونَانِ صُلْحًا قَطُّ فِي الإِيمَانِ**) لا يمكن أن يصطلحوا في الإيمان، فبينهما فرق عظيم.

ثُمَّ قال:

٩٢٩- والسَّيْفُ بَيْنَ الأَنْبِيَاءِ وَبَيْنَهُمْ ... وَالْـحَرْبُ بَيْنَهُمُ فَحَرْبُ عَوَانِ

يعني أنَّ الحربَ بينهم ثائرة دائمة، ولذا لا يمكن الصُّلح.

٩٣٠- وَكَذَا أَتَى الطُّوسِيُّ بِالْحَرْبِ الصَّرِيـ ... ـحِ بِصَارِمٍ مِنْهُ وَسَلِّ لِسَانِ

قَوْلُهُ: «**الطُّوسِيُّ**» هو الخواجة نصير الدين الطوسي الذي استوزره هولاكو خان ملك التتر، هذا هو المُسَمَّى عندهم بنصير الدين، ولكن شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم يسمِّيانه نصير الكفر، وصدقا، فهو نصير الكفر مع مَنْ

وازره وهو ابن العلقمي[1]، وكانا من الرافضة.

والمعنى أنه أتى بسِلاحين: (**الصارم**) وهو السيف، و(**اللسان**) وهو القول لما عنده من الوِشاية حتى قضى على المسلمين في بغدادَ.

٩٣١- وَأَتَــى إِلَى الإسْــلامِ يَهْـدِمُ أَصْـلَهُ   مِــنْ أُسِّــهِ وَقَوَاعِــدِ الْبُنْيَــانِ

٩٣٢- عَمَـرَ الْــمَدَارِسَ لِلْفَلاسِـفَةِ الأُلَى   كَفَــرُوا بِــدِينِ الله وَالْقُــرْآنِ

هذا الرجل الخبيث عَمَرَ المدارسَ لكن للفلاسفةِ، وصار يُدَرَّسُ فيها عِلْمُ الفلسفة الذي هو صَدٌّ عن سبيلِ الله، كما يوجد الآن في بلاد المسلمين من أدخل على منهج المسلمين وثقافتهم فلسفة الغرب، وشطحات الغرب، وفساد الغرب، حتى أُضْعِفَت المواد الشرعية من أجل إقحام هذه المعلومات التي تُدَمِّرُ الأديانَ والأخلاق، بل فُقِدت العلوم الشرعية من بعض البلاد الإسلامية، فلم تكن في مناهجهم، والله أعلم، ربما لو حصل لهؤلاء الذين أَقحموا هذه العلوم في المناهج والمدارس أن يقضوا على المواد الدينية في البلاد التي فيها المواد الدينية لقضوا عليها، لكنهم يخشون من سطوة العامة، فَأَبْقَوْا شيئًا من المواد الدينية وأضعفوها، ثم أحلُّوا محلَّها هذه المقررات التي في بعضها كفر صريح -دعونا من المقررات التي تدعو إلى التحلل من الأخلاق، وإلى صور بعض النساء العاريات، وبعض الرجال الذين هم شبه عراة- لكن فيها أفكار مدمرة أفسدت العالم، فهذا في الحقيقة امتدادٌ لما سبق.

---

(١) هو محمد بن محمد بن أحمد بن علي أبو طالب، مؤيد الدين الأسدي البغدادي المعروف بابن العلقمي: وزير المستعصم العباسي، وصاحب الجريمة النكراء، في ممالاة (هولاكو) على غزو بغداد، في رواية أكثر المؤرخين، توفي سنة (٦٥٦هـ). انظر: الأعلام للزركلي (٥/ ٣٢١).

هذا الرجل الذي يُسمَّى نصير الدين عَمَر المدارس للفلاسفة الذين كفروا بدين الله والقرآن.

٩٣٣- وَأَتَى إِلَى أَوْقَافِ أَهْلِ الدِّينِ يَنْـ ـقُلُهَا إِلَـيْهِمْ فِعْلَ ذِي أَضْغَانِ

أوقاف المسلمين التي وُقِفَتْ على المدارس الدينية التي فيها علم الحديث، والفقه، والنحو، أخذ هذه الأوقاف وصرفها إلى المدارس التي يُدَرَّس فيها علم الفلسفة.

٩٣٤- وَأَرَادَ تَحْوِيلَ الإِشَارَاتِ الَّتِي هِيَ لابْنِ سِينَا مَوْضِعَ الْفُرْقَانِ

أراد أن يجعل كتاب (الإشارات) لابن سينا يُدَرَّس بدل القرآن وألا يُدَرَّس القرآن، ومعلوم أنَّ الطُّغاة يريدون هذا.

٩٣٥- وَأَرَادَ تَحْوِيلَ الشَّرِيعَةِ بِالنَّوَا مِيسِ الَّتِي كَانَتْ لَدَى الْيُونَانِ

قَوْلُهُ: «**النواميس**» يعني: النُّظُم، وتُسَمَّى في عرفنا الحاضر بالقوانين، يعني: أراد أن يرفع الشريعة ويُحِلَّ محلَّها القانون.

وهذا واقع من أمثاله في عصرنا، فكثير من البلاد الإسلامية التي يُنادَى فيها بالأذان، وترسم في قانونها أنها دولة إسلامية حَلَّت فيها القوانين الوضعية مَحَلَّ الأحكام الشرعية، فرُفِعَت الأحكام الشرعية منها، وحَلَّت القوانين.

فنسأل الله أن ينجِّي المسلمين من هؤلاء وأمثالهم.

٩٣٦- لَكِنَّــهُ عَلِــمَ اللَّعِــينُ بِــأَنَّ هَــ ـذَا لَـيْسَ فِي الْــمَقْدُورِ وَالإِمْكَـانِ

٩٣٧- إِلَّا إِذَا قَتَــلَ الْــخَلِيفَةَ وَالْقُضَــا ةَ وَسَــائِرَ الْفُقَهَــاءِ فِي الْبُلْــدَانِ

قَوْلُهُ: «عَلِمَ اللَّعِينُ» يعني: نصير الدين الطوسي، ووصفه باللعين، لأنه ملعون في الحقيقة، لأنَّ فعله هذا فعل الشياطين.

وَقَوْلُهُ: «اللعين» يحتمل أن تكون دعاءً أو خبرًا، فَإِنْ كانت دعاءً فقد استحقَّ اللعنة، لأنه مات على الكفر، وإن كانت خبرًا فهو أهلٌ لذلك.

وقد يريد ابن القيم بـ(اللعين) البعيد عن رحمة الله وعن رضا الناس له، لأنَّ الرسول -عليه الصلاة والسلام- قال: «إِنَّ مِنْ أَكْبَرِ الكَبَائِرِ أَنْ يَلْعَنَ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ»، قِيلَ: يَا رَسُولَ الله، وَكَيْفَ يَلْعَنُ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ؟ قَالَ: «يَسُبُّ الرَّجُلُ أَبَا الرَّجُلِ فَيَسُبُّ أَبَاهُ وَيَسُبُّ أُمَّهُ»[١] فجعل السَّبَّ لعنًا.

٩٣٨- فَسَعَى لِذَاكَ وَسَاعَدَ الْـمَقْدُورُ بِالْـ أَمْـرِ الَّـذِي هُـوَ حِكْمَـةُ الَّـرحْمَنِ

قَوْلُهُ: «فَسَعَى لِذَاكَ» يعني: سعى لقتل الخليفة والقضاة والفقهاء، وقد أشار هو وابن العلقمي بأن يَتقدَّم الخليفة ومعه القضاة والأشراف والأعيان، وأنه لما أقبل على الملك هولاكو فصل بين الخليفة وبين هؤلاء القضاة والأشراف، وقضى عليهم، ثُمَّ فاوض الملك، ثُمَّ رجع، ثُمَّ حَصَلَت النهاية في الجولة الثانية.

قَوْلُهُ: «سَاعَدَ الْـمَقْدُورُ» أي: مقدور الله عزَّ وجلَّ الذي هو حكمة الرحمن، والله عزَّ وجلَّ لا يفعل شيئًا إِلَّا لحكمة، يعني: قد تقع المكاره والمصائب العظيمة، لكن الذي قَدَّرَها هو الله، والله عزَّ وجلَّ لا يُقَدِّر شيئًا إِلَّا لحكمة.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب لا يسب الرجل والديه برقم (٥٦٢٨).

٩٣٩- فَأَشَارَ أَنْ يَضَعَ التَّتَارُ سُيُوفَهُمْ ... فِي عَسْكَرِ الإِيمَانِ وَالْقُرْآنِ

٩٤٠- لَكِنَّهُمْ يُبْقُونَ أَهْلَ صَنَائِعِ الدْ ... دُنْيَا لأَجْلِ مَصَالِحِ الأَبْدَانِ

أشار أن يوضع السيف في أهل الإيمان، وأما أهل صنائع الدنيا مثل أصحاب الحرف، ومثلما سبق أنه أبقى اليهود والنصارى والرافضة وبعض التجار، فأهل صنائع الدنيا والحرف أبقاهم، واليهود والنصارى والرافضة أبقاهم، لأنَّ هؤلاء لا ضرر منهم، لأنهم لا يمكن أن يقوموا ضد عدوِّ الإسلام أبدًا، فلذلك أبقاهم.

٩٤١- فَغَدَا عَلَى سَيْفِ التَّتَارِ الأَلْفُ فِي ... مِثْلٍ لَـهَا مَضْرُوبَةً بِـوِزَانِ

قَوْلُهُ: « **الأَلْفُ فِي مِثْلٍ لَـهَا**»: ألف في ألف بمليون، يعني قتل ألف ألف، هذا واحد.

٩٤٢- وَكَذَا ثَمَانِ مِئِينِهَا فِي أَلْفِهَا ... مَضْرُوبَةً بِالْعَدِّ وَالْحُسْبَانِ

قَوْلُهُ: «**ثَمَانِ مِئِينِهَا فِي أَلْفِهَا**» أي: ثمانمئة ألف.

يعني: مليونين إِلَّا مائتي ألف، كلهم قُتلوا في بلدٍ واحد وفي هجومٍ واحد مع أنَّ البشرَ في ذلك الوقت أقلُّ من البشر في هذا الوقت، يعني: يمكن أن يكون هذا العدد يُمَثِّل النصف أو أكثر من أهل بغداد كلهم قُتلوا، نسأل الله العافية.

٩٤٣- حَتَى بَكَى الإِسْلامَ أَعْدَاهُ الْيَهُو ... دُ كَذَا الْمَجُوسُ وَعَابِدُو الصُّلْبَانِ

قَوْلُهُ: «**أَعْدَاهُ**» يعني: أعداء الإسلام، والمعنى أنَّ أعداء الإسلام بكوا عليه من شدة ما وقع به.

وأمرٌ يحزن له الأعداء فادحٌ ما بعده فداحة، أعداء الإسلام صاروا يبكون الإسلام وأهله، كذا المجوس، وعابدو الصلبان، يعني النصارى.

٩٤٤- فَشَفَى اللَّعِينُ النَّفْسَ مِنْ حِزْبِ الرَّ ... سُولِ وَعَسْكَرِ الإِيمَانِ وَالْقُرْآنِ

قَوْلُهُ: «شَفَى النَّفْسَ» يعني: نفسَه، (مِنْ حِزْبِ الرَّسُولِ وَعَسْكَرِ الإِيمَانِ وَالقُرْآنِ).

٩٤٥- وَبِوُدِّهِ لَوْ كَانَ فِي أُحُدٍ وَقَدْ ... شَهِدَ الْوَقِيعَةَ مَعْ أَبِي سُفْيَانِ[1]

يعني: هو يَوَدُّ أنه كان في أحد مع أبي سفيان مع المشركين، ويُحارب مَنْ؟

الجواب: الرسول -عليه الصلاة والسلام-.

٩٤٦- لأَقَرَّ أَعْيُنَهُمْ وَأَوْفَى نَذْرَهُ ... أَوْ أَنْ يُرَى مُتَمَزِّقَ اللَّحْمَانِ

يعني: أنه تمنَّى أن يكون في أُحُد حتى يُقِرَّ أعينهم، ويشفي صدرَه بقتل النَّبيِّ -عليه الصلاة والسلام- أو أن يتمزَّق لحمه دونهم.

نسأل الله العافية.

* * *

٩٤٧- وَشَوَاهِدُ الأَحْدَاثِ ظَاهِرَةٌ عَلَى ... ذَا الْعَالَمِ الْمَخْلُوقِ بِالْبُرْهَانِ

٩٤٨- وَأَدِلَّةُ التَّوْحِيدِ تَشْهَدُ كُلُّهَا ... بِحُدُوثِ كُلِّ مَا سِوَى الرَّحْمَنِ

٩٤٩- لَوْ كَانَ غَيْرُ اللهِ جَلَّ جَلالُهُ ... مَعَهُ قَدِيمًا كَانَ رَبًّا ثَانِي

---

(١) أبو سفيان: هو صخر بن حرب بن أُميَّة بن عبد شمس بن عبد مناف، من سادات قريش في الجاهلية ومن رؤساء المشركين في حرب الإسلام أول ظهوره، ثُمَّ أسلم عام الفتح، وشهد الطائف، ففُقئت عينه، ثم فُقئت الأخرى في اليرموك، ولد بمكة قبل الهجرة بـ(٧٥) سنة، ومات بالمدينة أو الشام سنة (٣١ هـ). [الشارح].

٩٥٠- إِذْ كَانَ عَنْ رَبِّ الْعُلَى مُسْتَغْنِيًا فَيَكُونَ حِينَئِذٍ لَنَا رَبَّانِ

٩٥١- وَالرَّبُّ بِاسْتِقْلالِهِ مُتَوَحِّدٌ أَفَمُمْكِنٌ أَنْ يَسْتَقِلَّ اثْنَانِ؟

٩٥٢- لَوْ كَانَ ذَاكَ تَنَافَيَا وَتَسَاقَطَا فَإِذَا هُمَا عَدَمَانِ مُمْتَنِعَانِ

٩٥٣- وَالْقَهْرُ وَالتَّوْحِيدُ يَشْهَدُ مِنْهُمَا كُلٌّ لِصَاحِبِهِ هُمَا عِدْلانِ

٩٥٤- وَلِذَلِكَ اقْتَرَنَا جَمِيعًا فِي صِفَا تِ الله، فَانْظُرْ ذَاكَ فِي الْقُرْآنِ

٩٥٥- فَالْوَاحِدُ الْقَهَّارُ حَقًّا لَيْسَ فِي الْـ إِمْكَانِ أَنْ تَحْظَى بِهِ ذَاتَانِ

الشرحُ

يَتحدَّث المؤلف -رحمه الله- في هذه المقطوعة عن أدلة وَحْدانية الله عزَّ وجلَّ وأنَّه سابقٌ على كلِّ موجود، فقال:

٩٤٧- وَشَوَاهِدُ الأَحْدَاثِ ظَاهِرَةٌ عَلَى ذَا الْعَالَمِ الْمَخْلُوقِ بِالْبُرْهَانِ

يعني أنَّها ظاهرةٌ بالدليل القاطع على أنَّ هذا العالَمَ مخلوقٌ.

٩٤٨- وَأَدِلَّةُ التَّوْحِيدِ تَشْهَدُ كُلُّهَا بِحُدُوثِ كُلٍّ مَا سِوَى الرَّحْمَنِ

قَوْلُهُ: «بِحُدُوثِ كُلٍّ» أي: كُلِّ الموجودات، ويجوز (بِحُدُوثِ كُلِّ مَا سِوَى الرَّحْمَنِ) بالإضافة، لكن كيف ذلك؟ بَيَّنَ فقال:

٩٤٩- لَوْ كَانَ غَيْرُ الله جَلَّ جَلالُهُ مَعَهُ قَدِيمًا كَانَ رَبًّا ثَانِي

نعم، لو كان مع الله أحدٌ قديمٌ لكان رَبًّا ثانيًا، لأنه يجتمع عندنا قديمان: الرَّبُّ، وهذا القديم الثاني.

والقديم عند الفلاسفة وفي اصطلاح المتكلِّمين: هو ما ليس له أوَّل، وليس هو قديم في اللغة العربية، القديم في اللغة العربية: ما سبق غيرَه ولو كان مسبوقًا، والقديم عند الفلاسفة والمتكلِّمين هو ما ليس له أوَّل، فمثلًا الشيء العتيق يُسَمَّى في اللغة قديمًا كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يس:٣٩]، وعند الفلاسفة: ليس كذلك، لأنه حادث، فالقديم عندهم هو الأزليُّ الذي ليس له أوَّل.

يقول ابن القيم: (لَوْ كَانَ غَيْرُ الله جَلَّ جَلَالُهُ مَعَهُ قَدِيمًا كَانَ رَبًّا ثَانِي) يعني: يكون ربَّان إذا كان كُلٌّ منهما قديمًا.

٩٥٠- إِذْ كَـانَ عَـنْ رَبِّ الْعُـلَى مُسْـتَغْنِيًا فَيَكُـونَ حِينَئِـذٍ لَنَـا رَبَّـانِ

لأنه إذا قُدِّر شيئان قديمان كان كُلٌّ واحدٍ منهما مستغنيًا عن الآخر، لأنَّ هذا قديم لا يحتاج إلى مُحْدِث، والثاني قديم لا يحتاج إلى مُحْدِث، فحينئذٍ يكون لنا رَبَّان، كُلٌّ منهما قديم مُستَغْنٍ عن الآخر.

٩٥١- وَالـرَّبُّ بِاسْـتِقْلَالِهِ مُتَوَحِّـدٌ أَفَمُمْكِـنٌ أَنْ يَسْـتَقِلَّ اثْنَـانِ؟

الجواب: لا، فالرَّبُّ لا بُدَّ أن يكون مستقلًا واحدًا، لا يمكن أن يكون رَبَّان ودليل ذلك ما يُعْرَفُ عند العلماء بدليل التمانع، مثاله: قال:

٩٥٢- لَـوْ كَـانَ ذَاكَ تَنَافَيَـا وَتَسَـاقَطَا فَـإِذَا هُمَـا عَـدَمَانِ مُمْتَنِعَـانِ

قَوْلُهُ: «**لَوْ كَانَ ذَاكَ**» يعني: لو كان هناك اثنان.

قَوْلُهُ: «**تَنَافَيَا وَتَسَاقَطَا**» يعني: لو كان هناك رَبَّان تنافيا، يعني تعاكسا وتساقطا.

قوله: «**فَإِذَا هُمَا عَدَمَانِ مُمْتَنِعَانِ**» لكن كيف ذلك؟ لو كان هناك رَبَّان اثنان مستقلان، لانفرد كُلُّ واحدٍ بمملكتِه ومخلوقاتِه، وحينئذٍ لا بدَّ أن يقع النزاع

بينهما، فإمَّا أن يَعْجِز كُلٌّ منهما عن الآخر، وإمَّا أن يغلب أحدُهما الآخر، فإن عجز كُلُّ واحدٍ منهما عن الآخر تساقطا، وصار كُلٌّ منهما لا يَصْلُح أن يكون رَبًّا، لأنَّ الرَّبَّ لا بدَّ أن يكون قاهرًا غالبًا، وإن غلب أحدُهما الآخرَ صار هو الرَّبَّ، والثاني ليس بِرَبٍّ.

فالحاصل أنه لو كان للعالَم خالقان للَزِم أحدُ أمرين: إما انتفاء الرُّبوبية عنهما جميعًا، وإما ثبوتها لأحدهما، أَمَّا أن تَثْبُتَ لهما جميعًا فهذا محال، وإلى هذا يشير قوله تعالى: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [المؤمنون:٩١]، وإذا علا بعضُهم على بعض، فالعالي منهما هو الرَّبُّ، وهذا هو الذي أشار إليه ابن القيم -رحمه الله- بقوله: (**لَوْ كَانَ ذَاكَ تَنَافَيَا وَتَسَاقَطَا فَإِذَا هُمَا عَدَمَانِ مُمْتَنِعَانِ**).

بَقِي احتمال واحد وهو أن يغلب أحدُهما الآخر، فإذا غلب أحدُهما الآخر فهو الرَّبُّ.

٩٥٣- وَالْقَهْــرُ وَالتَّوْحِيــدُ يَشْــهَدُ مِــنْهُمَا كُــلٌّ لِصَــاحِبِهِ هُمَــا عِــدْلانِ

القهر والوَحْدانية كُلُّ واحدٍ منهما يَشْهَد على انفراد الله تعالى بذلك، فالقهَّار الذي يَقْهَر كُلَّ شيء يَدُلُّ على أنه لا يساويه شيء، لأنَّه لو ساواه شيءٌ لم يكن قهَّارًا على الإطلاق، لأنَّ مَنْ لا يقهر كُلَّ شيء، بل يُقْهَرُ أحيانًا لا يُوصف بأنَّه القهَّار على الإطلاق.

والواحد أيضًا القهرُ يشهد له، فإذا كان الله قاهرًا لكلِّ شيء لَزِم أن يكون متوحِّدًا في مُلكه، ونحن نرى الكون الآن أنَّه مقهورٌ بِرَبٍّ، فأيُّ واحدٍ في الدنيا من أوَّلِها إلى آخرها هل يمكنه أن يخرج عن تقدير الله وقضائه؟

الجواب: لا، إذن هو مقهور على كل حال، فلا يَصْلُح شيء من المخلوقات رَبًّا، ولهذا يقول: (**وَالْقَهْرُ وَالتَّوْحِيدُ يَشْهَدُ مِنْهُمَا كُلٌّ لِصَاحِبِهِ هُمَا عِدْلانِ**) أو (عَدْلان).

وَقَوْلُهُ: «**هُمَا عِدْلانِ**» أي: متعادلان، و(**هُمَا عَدْلانِ**) أي: في شهادتهما، وهذا مأخوذ من العدالة.

٩٥٤- وَلِـذَلِكَ اقْتَرَنَـا جَمِيعًـا في صِـفَا تِ الله، فَـانْظُرْ ذَاكَ فِي الْقُـرْآنِ

قَوْلُهُ: «**اقْتَرَنَا**» يعني: الوحدانية والقهر.

٩٥٥- فَالْوَاحِدُ الْقَهَّـارُ حَقًّـا لَـيْسَ فِي الْـ إِمْكَـانِ أَنْ تَحْظَـى بِـهِ ذَاتَـانِ

قَوْلُهُ: «**فَالْوَاحِدُ الْقَهَّارُ**» وَرَدَ ذلك في القرآن، قال الله تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر:١٦]، وفي قوله: ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم:٤٨]، فالواحد القهار حقًّا ليس في الإمكان أن تَحْظَى به ذاتان.

خلاصة هذا الباب كلِّه: أنَّ مذهب أهل السُّنَّة والجماعة أنَّ الله تعالى لم يَزَل ولا يزال فَعَّالًا، وهذا يَستلزِمُ التسلسلَ في الماضي كما يَستلزمَ التسلسل في المستقبل.

أما التسلسل في المستقبل فقد دَلَّ عليه القرآن والسُّنَّة دَلالةً صريحةً، فكُلُّ نصٍّ فيه أبديَّة النار وأبديَّة الجنَّة فهو دليل على التسلسل في المستقبل، يعني: أنه لا نهاية له، فلا نهاية للجنة ونعيمها، ولا نهاية للنار وجحيمها، وهذا في القرآن.

وأمَّا التسلسل في الماضي فاشتبه على كثيرٍ من علماء السُّنَّة، فقالوا: لا يمكن التسلسل في الماضي، لأننا لو قلنا بجواز التسلسل في الماضي، للزم أن تكون

المخلوقاتُ أزليَّةٌ مقارنة للخالق، ومعلوم أنَّ هذا مستحيل، ومن قال: إِنَّ المخلوقات مقارِنَةٌ للخالق وأزليَّةٌ بأزليته كان كافرًا مشركًا.

لكنَّ شيخَ الإسلام -رحمه الله- وجماعةً من أهل العلم قالوا: نحن نقول بالإمكان، بل بوجوب أنَّ الله لم يزل ولا يزال فَعَّالًا، ولكن من المعقول الذي يدركه كُلُّ عاقل أنَّ المفعولَ نتيجةُ الفعل، وأنَّ الفعلَ صفةُ الفاعل، إذن فالفاعل متقدِّم حتى لو قلنا: بأزليَّة الحوادث، فإنَّ ذلك لا يلزم أن تكون مقارِنةً لله الواحد القهَّار، لأنَّ الله (فاعل)، ثُمَّ فِعْل، ثُمَّ مفعول، إذن فالحوادث غيرُ مقارنة لله في الوجود.

فهذا المحذور الذي فررتم منه ليس بلازم، لكن لو قلنا: إِنَّ الله تعالى مُعَطَّلٌ عن الفعل أزلًا، ثُمَّ فَعَل، فهذا تحكُّم من وجهين:

الوجه الأول: أنَّه في الوقت الذي يكون معطَّلًا عن الفعل يكون ناقصًا، فإن قالوا: لا نقص، لأنَّ الفعلَ يَتْبَعُ الحكمةَ، فإذا اقتضت الحكمةُ أَلَّا يفعل فلم يفعل صار ذلك كمالًا لا نقصًا.

فنقول: نعم، أنتم إذا سَلَّمتم بهذا، وقلتم بجواز التسلسل لعذرناكم، لكن أنتم تقولون بامتناع التسلسل، فيكون الفعل في الأول ممتنعًا وليس متأخِّرًا، فنقول: ما الذي جعله ممتنعًا عن الله، ثُمَّ صار ممكنًا؟ وإلى متى كان ممتنعًا؟ ألف سنة، ألفي سنة، آلاف السنين، ثُمَّ صار ممكنًا؟!

إن قلتم: ألف سنة، ثُمَّ صار ممكنًا قلنا: أين الدليل؟ إن قلتم: عشر سنوات، ثُمَّ صار ممكنًا قلنا: أين الدليل؟ إن قلتم سنة، ثُمَّ صار ممكنًا قلنا: أين الدليل؟ إن قلتم: يومًا، ثُمَّ صار ممكنًا، قلنا: أين الدليل؟

إِذَنْ قولوا: بأنَّ الله لم يزل ولا يزال فعَّالًا، وأنَّ تسلسل الحوادث في الماضي ممكن بل هو من مقتضى كماله، وحينئذٍ لا يمكن أن تقولوا خطأً أو زللًا، لأننا نقول بذلك.

ولكننا نحن وأنتم نعلم أنَّ المفعول يقع بعد الفعل، وأنَّ الفعلَ وصف الفاعل فلا بدَّ أن يكون الموصوف متقدِّمًا.

وهذا في الحقيقة لا إشكال فيه مع أنه لما برز شيخ الإسلام -رحمه الله- في تقريره ثارت عليه الدنيا، وقالوا: هذا مشرك أشرك بالله، جعل مع الله إلهًا ثانيًا، وقامت عليه الدنيا، وقد قيل فيه قصائد ذُكِرَت في الطبعة الأولى من منهاج أهل السنة والجماعة، منها قصيدة طويلة فيها الرَّدُّ على شيخ الإسلام في هذا الرأي، وتوجد قصيدة أخرى مُعارِضة لها مناقضة لها.

لكن على كُلِّ حال إذا لم ندخل في هذه المعمعة فإنَّ فِطَرَنا تقتضي أنَّ الله لم يزل، ولا يزال فعَّالًا، هذا واحد.

عقولنا أيضًا تقتضي بأننا لو قلنا: بأزليَّة الحوادث فليست مقارِنةً للمُحْدِث وهو الله عزَّ وجلَّ، فهي لا بدَّ أن تكون بعده، وحينئذٍ ننفصل عن القول بأننا إذا قلنا: بأزليَّة الحوادث أثبتنا مع الله غيرَه أثبتنا رَبَّيْن.

وبعد هذا كلِّه فالبحث في هذا يُعتبر من فضول العلم إلَّا إذا خشي الإنسانُ على نفسه أن يعتقد في الله نقصًا، فيجب عليه أن يُحَقِّق، لأنَّ الإنسان الذي لم تطرأ على باله المسألة لم تشكل عليه، لكن الذي يقرأ بحث العلماء، ثُمَّ يخشى إذا لم يقل بالقول حصل في قلبه شيءٌ من تنقُّص الخالق حينئذٍ يَجِب أن يبحث ويحقِّق.

* * *

فصل

فِي اعْتِرَاضِهِمْ عَلَى القَوْلِ بِدَوَامِ فَاعِلِيَّهِ الرَّبِّ تعالى وكَلامِهِ، والانْفِصَالِ عَنْهُ

٩٥٦- فَلِئِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّ ذَاكَ تَسَلْسُلٌ ... قُلْنَا: صَدَقْتُمْ، وَهْوَ ذُو إِمْكَانِ

٩٥٧- كَتَسَلْسُلِ التَّأْثِيرِ فِي مُسْتَقْبلٍ ... هَلْ بَيْنَ ذَيْنِكَ قَطُّ مِنْ فُرْقَانِ

٩٥٨- وَاللهِ مَا افْتَرَقَا لِذِي عَقْلٍ، وَلَا ... نَقْلٍ، وَلَا نَظَرٍ، وَلَا بُرْهَانِ

٩٥٩- فِي سَلْبِ إِمْكَانٍ وَلَا فِي ضِدِّهِ ... هَذِي الْعُقُولُ، وَنَحْنُ ذُو أَذْهَانِ

٩٦٠- فَلْيَأْتِ بِالْفُرْقَانِ مَنْ هُو فَارِقٌ ... فَرْقًا يَبِينُ لِصَالِحِ الأَذْهَانِ

٩٦١- وَكَذَاكَ سَوَّى الجَهْمُ بَيْنَهُمَا كَذَا الْـ ... ـعَلَّافُ فِي الإِنْكَارِ وَالْبُطْلَانِ

٩٦٢- وَلأَجْلِ ذَا حَكَمَا بِحُكْمٍ بَاطِلٍ ... قَطْعًا عَلَى الْجَنَّاتِ وَالنِّيرَانِ

٩٦٣- فَالْجَهْمُ أَفْنَى الذَّاتَ وَالْعَلَّافُ لِلْـ ... ـحَرَكَاتِ أَفْنَى قَالَهُ الثَّوْرَانِ

٩٦٤- وَأَبُو عَلِيٍّ وَابْنُهُ وَالأَشْعَرِيْ ... يُ وَبَعْدَهُ ابْنُ الطَّيِّبِ الرَّبَّانِي

٩٦٥- وَجَمِيعُ أَرْبَابِ الْكَلَامِ الْبَاطِلِ الْـ ... ـمَذْمُومِ عِنْدَ أَئِمَّةِ الإِيمَانِ

٩٦٦- فَرَقُوا وَقَالُوا: ذَاكَ فِيمَا لَمْ يَزَلْ ... حَقٌّ وَفِي أَزَلٍ بِلَا إِمْكَانِ

٩٦٧- قَالُوا لأَجْلِ تَنَاقُضِ الأَزَلِيِّ وَالْـ ... إِحْدَاثِ: مَا هَذَانِ يَجْتَمِعَانِ

٩٦٨- لَكِنْ دَوَامُ الْفِعْلِ فِي مُسْتَقْبَلٍ ... مَا فِيهِ مَحْذُورٌ مِنَ النُّكْرَانِ

٩٦٩- فَانْظُرْ إِلَى التَّلْبِيسِ فِي ذَا الْفَرْقِ تَرْ   وِيجًا عَلَى العُورَانِ وَالْعُمْيَانِ

٩٧٠- مَا قَالَ ذُو عَقْلٍ بِأَنَّ الْفَرْدَ ذُو   أَزَلٍ لِذِي ذِهْنٍ وَلَا أَعْيَانِ

٩٧١- بَلْ كُلُّ فَرْدٍ فَهْوَ مَسْبُوقٌ بِفَرْ   دٍ قَبْلَهُ أَبَدًا بِلا حُسْبَانِ

٩٧٢- وَنَظِيرُ هَذَا كُلُّ فَرْدٍ فَهْوَ مَلْـ   ـحُوقٌ بِفَرْدٍ بَعْدَهُ حُكْمَانِ

٩٧٣- النَّوْعُ وَالآحَادُ مَسْبُوقٌ وَمَلْـ   ـحُوقٌ وَكُلٌّ فَهْوَ مِنْهَا فَانِ

٩٧٤- وَالنَّوْعُ لَا يَفْنَى أَخِيرًا فَهْوَ لَا   يَفْنَى كَذَلِكَ أَوَّلًا بِبَيَانِ

٩٧٥- وَتَعَاقُبُ الآنَاتِ أَمْرٌ ثَابِتٌ   فِي الذِّهْنِ وَهْوَ كَذَاكَ فِي الأَعْيَانِ

٩٧٦- فَإِذَا أَبَيْتُمْ ذَا وَقُلْتُمْ: أَوَّلُ الْـ   آنَاتِ مُفْتَتَحٌ بِلا نُكْرَانِ

٩٧٧- مَا كَانَ ذَاكَ الآنَ مَسْبُوقًا يُرَى   إِلَّا بِسَلْبِ وُجُودِهِ الْحَقَّانِي

٩٧٨- فَيُقَالُ: مَا تَعْنُونَ بِالآنَاتِ؟ هَلْ   تَعْنُونَ مُدَّةَ هَذِهِ الأَزْمَانِ

٩٧٩- مِنْ حِينِ إِحْدَاثِ السَّمَوَاتِ الْعُلَى   وَالأَرْضِ وَالأَفْلاكِ وَالْقَمَرَانِ

٩٨٠- وَنَظُنُّكُمْ تَعْنُونَ ذَاكَ وَلَمْ يَكُنْ   مِنْ قَبْلِهَا شَيْءٌ مِنَ الأَكْوَانِ

٩٨١- هَلْ جَاءَكُمْ فِي ذَاكَ مِنْ أَثَرٍ وَمِنْ   نَصٍّ وَمِنْ نَظَرٍ وَمِنْ بُرْهَانِ؟

٩٨٢- هَذَا الْكِتَابُ وَهَذِهِ الآثَارُ وَالْـ   ـمَعْقُولُ فِي الْفِطَرَاتِ وَالأَذْهَانِ

٩٨٣- إِنَّا نُحَاكِمُكُمْ إِلَى مَا شِئْتُمُ   مِنْهَا فَحُكْمُ الْحَقِّ فِي تِبْيَانِ

٩٨٤- أَوَلَيْسَ خَلْقُ الْكَوْنِ فِي الأَيَّامِ كَا   نَ، وَذَاكَ مَأْخُوذٌ مِنَ الْقُرْآنِ

٩٨٥- أَوَلَيْسَ ذَلِكُمُ الزَّمَانُ بِمُدَّةٍ لِحُدُوثِ شَيْءٍ وَهْوَ عَيْنُ زَمَانِ؟

٩٨٦- فَحَقِيقَةُ الأَزْمَانِ نِسْبَةُ حَادِثٍ لِسِوَاهُ تِلْكَ حَقِيقَةُ الأَزْمَانِ

٩٨٧- وَاذْكُرْ حَدِيثَ السَّبْقِ لِلتَّقْلِيلِ وَالتْـ تَوْقِيتِ قَبْلَ جَمِيعِ ذِي الأَعْيَانِ

٩٨٨- خَمْسِينَ أَلْفًا مِنْ سِنِينٍ عَدَّهَا الْـ مُخْتَارُ سَابِقَةً لِذِي الأَكْوَانِ

٩٨٩- هَذَا وَعَرْشُ الرَّبِّ فَوْقَ الْمَاءِ مِنْ قَبْلِ السِّنِينَ بِمُدَّةٍ وَزَمَانِ

٩٩٠- وَالنَّاسُ مُخْتَلِفُونَ فِي الْقَلَمِ الَّذِي كُتِبَ الْقَضَاءُ بِهِ مِنَ الدَّيَّانِ

٩٩١- هَلْ كَانَ قَبْلَ الْعَرْشِ أَوْ هُوَ بَعْدَهُ قَولانِ عِنْدَ أَبِي الْعَلا الْهَمَذَانِي

٩٩٢- وَالْحَقُّ أَنَّ الْعَرْشَ قَبْلُ لأَنَّهُ قَبْلَ الْكِتَابَةِ كَانَ ذَا أَرْكَانِ

٩٩٣- وَكِتَابَةُ الْقَلَمِ الشَّرِيفِ تَعَقَّبَتْ إِيجَادَهُ مِنْ غَيْرِ فَصْلِ زَمَانِ

٩٩٤- لَمَّا بَرَاهُ اللهُ قَالَ: اكْتُبْ كَذَا فَغَدَا بِأَمْرِ اللهِ ذَا جَرَيَانِ

٩٩٥- فَجَرَى بِمَا هُوَ كَائِنٌ أَبَدًا إِلَى يَوْمِ الْمَعَادِ بِقُدْرَةِ الرَّحْمَنِ

٩٩٦- أَفَكَانَ رَبُّ الْعَرْشِ جَلَّ جَلالُهُ مِنْ قَبْلُ ذَا عَجْزٍ وَذَا نُقْصَانِ؟!

٩٩٧- أَمْ لَمْ يَزَلْ ذَا قُدْرَةٍ وَالْفِعْلُ مَقْـ ـدُورٌ لَهُ أَبَدًا وَذُو إِمْكَانِ؟

٩٩٨- فَلَئِنْ سَأَلْتَ وَقُلْتَ: مَا هَذَا الَّذِي أَدَّاهُمُ لِخِلافِ ذَا التِّبْيَانِ؟

٩٩٩- وَلأَيِّ شَيْءٍ لَمْ يَقُولُوا: إِنَّهُ -سبحانه- هُوَ دَائِمُ الإِحْسَانِ

١٠٠٠- فَاعْلَمْ بِأَنَّ الْقَوْمَ لَمَّا أَسَّسُوا أَصْلَ الْكَلامِ عَمُوا عَنِ الْقُرْآنِ

١٠٠١- وَعَنِ الحَدِيثِ وَمُقْتَضَى الْـمَعْقُولِ ... بَـل عَـنْ فِطْـرَةِ الـرَّحْمَنِ وَالْبُرْهَـانِ

١٠٠٢- وبَنَـوْا قَوَاعِـدَهُمْ عَلَيْـهِ فَقَـادَهُمْ ... قَسْــرًا إلى التَّعْطيــلِ والــبُطْلانِ

١٠٠٣- نَفْـيُ القِيـامِ لكـلِّ أمـرٍ حـادثٍ ... بـالربِّ خَـوْفَ تَسَلْسُـلِ الأعيـانِ

١٠٠٤- فَيَسُــدُّ ذَاكَ عَلَـيْهِمُ فِي زَعْمِهِــمْ ... إِثْبَـاتَ صَـانِعِ هَـذِهِ الأَكْـوَانِ

١٠٠٥- إِذْ أَثْبَتُوهُ بِكَـوْنِ ذِي الأجْسَـادِ حَـا ... دِثَـةً فَـلا تَنْفَـكُّ عَـنْ حِـدْثَانِ

١٠٠٦- فَإِذَا تَسَلْسَلَتِ الْـحَوَادِثُ لَـمْ يَكُنْ ... لِــحُدُوثِهَا إِذْ ذَاكَ مِــنْ بُرْهَــانِ

١٠٠٧- فَلأَجْلِ ذَا قَـالُوا: التَّسَلْسُـلُ بَاطِـلٌ ... وَالْـجِسْمُ لا يَخْلُـو عَـنِ الْـحِدْثَانِ

١٠٠٨- فَيَصِحُّ حينَئِذٍ حدوثُ الجِسْـمِ مِـن ... هــذا الــدَّليلِ بوَاضِــحِ البُرْهــانِ

١٠٠٩- هَـذِي نِهَايَـاتٌ لإِقْـدَامِ الْـوَرَى ... فِي ذَا الْــمَقَامِ الضَّــيِّقِ الأَعْطَــانِ

١٠١٠- فَمَــنِ الَّــذِي يَــأْتِي بِفَــتْحٍ بَــيِّنٍ ... يُنْجِي الْوَرَى مِنْ غَمْـرَةِ الْـحَيْرَانِ

١٠١١- فَــاللهُ يَجْزِيــهِ الَّــذِي هُــوَ أَهْلُــهُ ... مِنْ جَنَّـةِ الْـمَأْوَى مَـعَ الرِّضْـوَانِ

الشـرحُ

قَوْلُهُ: «اعْتِرَاضِهِمْ» يعني: أنهم اعترضوا على القول بدوام فاعليَّة الله عزَّ وجلَّ وقالوا: لا يمكن أن يكون الله دائم الفعل.

وَقَوْلُهُ: «وَالانْفِصَالِ عَنْهُ» أي: الانفصال عن هذا الاعتراض، وهو بمعنى كلمة الإجابة عنه.

وهذا الفصل فصلٌ عظيم، وقد تكلَّم فيه المؤلف -رحمه الله- عن التسلسل في الحوادث، وذكَرَ فيه للناس ثلاثةَ أقوالٍ:

القول الأول: بأنَّ التسلسل ممنوع في الماضي والمستقبل، وهذا قول الجهمية ومَن تَبِعهم من المعتزلة.

القول الثاني: جوازه في الماضي والمستقبل، وهذا الذي أَيَّده ابن القيم -رحمه الله- وذكَرَ أدلَّتَه.

القول الثالث: جواز التسلسل في المستقبل وامتناعُه في الماضي، وهذا هو الذي عليه عامَّة علماءِ الكلام، وهو الذي لا يكاد يُعرف سواه عند المتأخرين، ولكنَّ الأدلة التي ذكرها ابُن القيم -رحمه الله- أدلةٌ واضحة.

وليس قولنا بإمكان التسلسل هو قولنا بوجوب التسلسل، يعني: إذا قلنا بجواز التسلسل فليس معناه أننا نقول بوجوبه، إذ لا شك أنَّ كُلَّ ما سوى الله فهو حادثٌ بعد أن لم يكن، فالأعيان ليست متسلسلةً إلى ما لا نهايةَ له، فكُلُّ شيء حادثٌ، والله تعالى قبل كُلِّ شيء.

وقد تقدَّم في أول الكلام على هذا هذه المسألة أنَّ لدينا فاعلًا وفعلًا ومفعولًا، وأنَّ ترتيبها هكذا: فاعلٌ سابقٌ على الفعل، وفعل سابقٌ على المفعول، وأننا وإن قلنا بجواز تسلسل الحوادث في الماضي، لا يمكن أن نقول: إنها مقارنةٌ لوجود الله أبدًا، بل لا بدَّ أن تكون مسبوقةً بوجوده، لكنها إلى ما لا نهايةَ له.

وابن القيم -رحمه الله- تكلَّم كلامًا كثيرًا حول هذا الموضوع، ثُمَّ قال: إنَّ هؤلاء القوم الذين قالوا: إنه ممكن في المستقبل، مستحيلٌ في الماضي، بَنَوا هذا على

قواعدَ أصَّلوها من علم الكلام، ليس عليها دليلٌ من معقولٍ ولا منقولٍ ولا فطرةٍ، وهذا هو الحقُّ، فإنَّ أهل الكلام بَنَوا عقيدتَهم في الله على عقولٍ ليست عاقلةً، بل هي عقول مضطربةٌ متناقضةٌ يَنْقُض بعضُها بعضًا، ويُفْسِد بعضُها بعضًا، وهي كما قيل:

حُجَجٌ تَهَافَتُ كَالزُّجَاجِ تَخَالُـهَا   حَقًّـا وكـلٌّ كَـاسِرٍ مَكْسُـورُ

حتى إِنَّ زعماءهم ورُؤَساءهم أقرُّوا بالحَيْرة وبالرجوع إلى الحقِّ، يقول الرازي -وهو من عظمائهم وكبرائهم وأئمتهم- يقول: «لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفي عليلا، ولا تروي غليلا، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن، أقرأ في الإثبات ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه:٥]، ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر:١٠]، وأقرأ في النفي ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [الشورى:١١] ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا﴾ [طه:١١٠] ومن جَرَّب مِثْلَ تَجْرِبتي عَرَف مثل مَعْرِفتي»[١]. هذا وهو من رؤسائهم.

وقال أبو المعالي الجويني: «لقد خُضْتُ البحر الخضم، وغصت في الذي نهي أهل الإسلام منها، كل ذلك في طلب الحق، وكنت أهرب في سالف الدهر من التقليد، والآن رجعت من الكل إلى كلمة الحقّ، عليكم بدين العجائز»[٢]. رجع إلى عقيدة العجائز، فالعجائز لا تتكلَّم بهذا الكلام وهذا التنطع، وهذا مِصداق قول النَّبِيِّ -عليه الصلاة والسلام-: «**هَلَكَ المُتَنَطِّعُون**[٣]»[٤]. قالها ثلاث مرات،

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٢١/ ٥٠١).
(٢) انظر: تاريخ الإسلام للذهبي (٧/ ٣٣٢).
(٣) هم المتعمقون المغالون في الكلام المتكلمون بأقصى حلوقهم. انظر: النهاية (نطع).
(٤) أخرجه مسلم: كتاب العلم، باب هلك المتنطعون، برقم (٢٦٧٠).

ولهذا لا تجد أحْسَنَ من عِلْم السلف، فعِلْمُ السلف بسيطٌ هادئ، ليس فيه تعمُّق ولا تكلُّف أبدًا.

جاء رجلٌ إلى ابنِ عُمَرَ وَسَأَلَهُ عَنْ دَم الْبَعُوضِ. فَقَالَ: مِـمَّنْ أَنْتَ؟ فَقَالَ: مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ. قَالَ: انْظُرُوا إِلَى هَذَا، يَسْأَلُنِي عَنْ دَم الْبَعُوضِ وَقَدْ قَتَلُوا ابْنَ النَّبِيِّ ﷺ وَسَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «هُمَا رَيْحَانَتَايَ مِنَ الدُّنْيَا»[1].

هذا ورع عظيم، أن يَسْأل عن دم البعوض ويَقْتُل مَنْ جدُّه رسولُ الله ﷺ!! فالتعمق هذا يفسد على الإنسان، ويوجب له الشك والقلق، بل كن بسيطًا في الأمور كلها حتى المسائل التي لم نُكَلَّف بها ولم يأتِ بها نصٌّ إذا أعيتك فاتركها ولا تُتْعِب نفسك بها حتى لا تتضرر.

فابن القيم -رحمه الله- ذكر أنَّ هؤلاء بَنَوْا عقيدتَهم على ما يدَّعونه معقولًا، ولكنها في الحقيقة جهالات، وضلالات، وشبهات، لا تُغْنِي من الحقِّ شيئًا أبدًا، بل هي توقع الإنسان في الحَيْرة، والشك، والقلق.

يقول -رحمه الله-:

٩٥٦- فَلِـئِنْ زَعَمْـتُمْ أَنَّ ذَاكَ تَسَلْسُـلٌ قُلْنَـا: صَـدَقْتُمْ، وَهْـوَ ذُو إِمْكَـانِ

قَوْلُهُ: «أَنَّ ذَاكَ تَسَلْسُلٌ» المشار إليه هو دوام فاعلية الرَّبِّ في الماضي، وقد سبق أنَّ للناس في التسلسل ثلاثةَ أقوالٍ:

القول الأول: جوازه في الماضي والمستقبل.

القول الثاني: امتناعه في الماضي والمستقبل.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، برقم (٥٦٤٨).

القول الثالث: امتناعه في الماضي دون المستقبل.

قَوْلُهُ: «فَلَئِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّ ذَاكَ تَسَلْسُلٌ» يعني: أنَّ دوام فاعلية الرَّبِّ عزَّ وجلَّ في المستقبل أو في الماضي تسلسل.

قَوْلُهُ: «قُلْنَا: صَدَقْتُمُ» يعني: التزمنا هذا، (وَهْوَ ذُو إِمْكَانِ) يعني: صدقتم، وهذا ممكن، ما الذي يمنع منه؟!

٩٥٧- كَتَسَلْسُلِ التَّأْثِيرِ فِي مُسْتَقْبَلٍ هَلْ بَيْنَ ذَيْنِكَ قَطُّ مِنْ فُرْقَانِ

يعني: كما أنكم تقولون: إنه يمكن التسلسل في المستقبل، وأنَّ الله لا يزالُ فَعَّالًا، لأنَّ الله قال في الجنة: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [النساء:٥٧] وكذلك في النار، فأيُّ فرقٍ بين القول بإمكان التسلسل في المستقبل وإمكانه في الماضي؟

الجواب: لا فرق، لأنَّ من المعلوم أنَّ الله هو الأوَّل الذي ليس قبله شيء، وأنه الآخِر الذي ليس بعده شيء، فإذا قلنا بالتسلسل في المستقبل مع أنَّ الله هو الآخِر، فلماذا لا نقول بالتسلسل في الماضي مع أنَّ الله هو الأوَّل؟! فأيُّ فرق؟!

وهذا في الحقيقة قياسٌ لا مَحِيدَ عنه، مع أنه سبق أنَّ القول بدوام فاعلية الله عزَّ وجلَّ في الماضي هو من كماله وأنه لم يزل فَعَّالًا، والمحذور الذي يجبُ الحذرُ منه أن نقول بدوام عين المخلوق في الماضي، يعني مثلًا أن نقول: الخلق (الكون) لم يزل موجودًا فهذا غلط، فالكون مُحْدَث لا شك.

إِذَنْ المؤلف -رحمه الله- أورد اعتراضًا، وأجاب عنه، فقال: كما أنَّ التسلسل ممكن في المستقبل فما الذي يمنعه في الماضي؟!

ثُمَّ قال -رحمه الله-:

٩٥٨- وَاللهِ مَا افْتَرَقَا لِذِي عَقْلٍ، وَلَا نَقْلٍ، وَلَا نَظَرٍ، وَلَا بُرْهَانِ

٩٥٩- فِي سَلْبِ إِمْكَانٍ وَلَا فِي ضِدِّهِ هَذِي الْعُقُولُ، وَنَحْنُ ذُو أَذْهَانِ

قَوْلُهُ: «سَلْبِ إِمْكَانٍ» يعني: نفي إمكان، يعني: ما افترقا في نفي الإمكان، ولا في ضدِّه، وهو إثبات الإمكان.

وكلام المؤلف يعني أنه لا فرق بين القول بدوامِ فاعلية الله في الماضي ودوامِ فاعليته في المستقبل، فالله لم يزل ولا يزال فَعَّالًا.

قَوْلُهُ: «هَذِي الْعُقُولُ وَنَحْنُ ذُو أَذْهَانِ» يعني: هاتوا الدليل العقلي.

قَوْلُهُ: «وَنَحْنُ ذُو أَذْهَانِ» يعني: عندنا أذهان نعرف كما تعرفون.

وهذا البحث -أعني في التسلسل- هو بحثٌ حادث لم يكن معروفًا عند السلف، وإنما أحدثه أهلُ المَنطِق، وأجلبوا عليه[1] وأجنبوا[2]، وأهل السنة لا بدَّ أن يدافعوا، لا بدَّ أن يخوضوا غمار الوغى، وإلَّا فالسلامة -بلا شك- أسلم من هذا ونقول: إنَّ الله عزَّ وجلَّ فَعَّال لما يريد في ماضي الأمر وحاضره ومستقبله، لكن إذا بُلينا بقومٍ يتكلَّمون في هذا، فلا بدَّ أن نجيب وندخل في غمار المعركة، والحقُّ منصورٌ ولا بدَّ، وإلَّا ما فائدة أن نقول: إنَّ الله لم يزل فَعَّالا في الأزل الذي لا ندري ما أوَّله، وكذلك في المستقبل الذي لا ندري ما آخره؟

إِذَنْ البحث في التسلسل في الماضي والمستقبل من فضول العلم، ومما لا دَاعِي

---

(١) أي: تجمعوا. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: جلب.

(٢) أي: دخلوا في ريح الجنوب. انظر: لسان العرب، مادة: جنب.

له، ولكن إذا حَلَّت الضرورة حَلَّ المُحرَّم، إذا اضطررنا إلى أنَّ هؤلاء عَطَّلوا الله عزَّ وجلَّ فيما مضى، وقالوا: إنه لم يكن قادرًا على أن يفعل شيئًا، ثُمَّ حَدَث له الفعل، سبحان الله ما الذي جعله ممكنًا بعد أن كان ممتنعًا؟!

٩٦٠- فَلْيَأْتِ بِالْفُرْقَانِ مَنْ هُو فَارِقٌ فَرْقًا يَبِينُ لِصَالِحِ الأَذْهَانِ

اللام في قوله: «فَلْيَأْتِ» هنا للأمر الذي يُقْصَدُ به التحدِّي، يعني: إنْ كان لديك فرقٌ بين التسلسل في الماضي والتسلسل في المستقبل فائتِ به.

قَوْلُهُ: «فَرْقًا يَبِينُ لِصَالِحِ الأَذْهَانِ» يعني: لا فرقًا دعويًّا، يَدَّعِي الفرق فقط، لأنه -مثلًا- إذن قال: لو جاز التسلسل في الماضي لَزِم قِدَمُ المخلوقات، نقول أيضًا: لو جاز التسلسل في المستقبل يلزم تأخر المخلوقات حتى تكون مثل الله، فإن امتنع هذا فليمتنع هذا، وإنْ جاز هذا فليَجُزْ هذا.

٩٦١- وَكَذَاكَ سَوَّى الجَهْمُ بَيْنَهُمَا كَذَا الْـ ـعَلَّافُ فِي الإِنْكَارِ وَالْـبُطْلانِ

الجهم بن صفوان وكذلك العَلَّاف وأظنه من المعتزلة، سَوَّيا بينهما، أي: بين الماضي والمستقبل، فقالا: لا فَرْقَ بينهما، إنْ أمكن التسلسل في الماضي لم يمتنع في المستقبل، وإن أمكن في المستقبل لم يمتنع في الماضي.

لكنهما مَنَعَا من التسلسل في الماضي والمستقبل، ويقولان بأنَّ الله تعالى لم يكن فَعَّالًا في الماضي ولا يكون فَعَّالًا في المستقبل، وقالا بفناء الجنة وفناء النار، وعدم كل شيء إِلَّا الله عزَّ وجلَّ فقالا بمنع التسلسل في الماضي ومنعه في المستقبل، فقولهما مطَّرد، لأنهما لم يُفَرِّقا بينهما، لكن المشكلة فيمن فَرَّق.

٩٦٢- وَلأَجْـلِ ذَا حَكَـمَا بِحُكْـمٍ بَاطِـلٍ   قَطْعًـا عَـلَى الْـجَنَّاتِ وَالنِّـيرَانِ

٩٦٣- فَالْـجَهْمُ أَفْنَى الذَّاتَ وَالْعَلَّافُ لِلْـ   ـحَرَكَاتِ أَفْنَـى قَالَـهُ الثَّـوْرَانِ

جعلهما ثَوْرَيْنِ، لأنهما حكما بحكمٍ باطل على الجنات والنيران، فحكما بأنَّ الجنةَ تفنى، والنارَ تفنى، طردًا للقاعدة، وهي امتناع التسلسل في المستقبل كما يمتنع في الماضي.

لكن الجهم أفنى الذات، والعلَّاف أفنى الحركات، والفرق أنَّ الجهم يقول: هذا العالَـم بجنته وناره، وإنسه وجِنِّه، وملائكتِه، وكلِّ شيء سيفنى، ولا يبقى إلَّا اللهُ عزَّ وجلَّ.

وأما العلَّاف فقال: لا، ما يفنى، بل تفنى الحركات فقط، وأمَّا الذوات فتبقى حتى إنه قال: إنَّ الرجل إذا كان في الجنة، وقد أخذ شيئًا ليأكله فقَدَّر اللهُ الفنَاء فنيت حركاتُه، وبقي هذا الشيء بيده بين مكانه وبين فمه، هكذا إلى أبد الآبدين، وأنه لو كان على أهله في الجنة وقَدَّر اللهُ الفنَاء فَنِي، وَبقي على أهله أبد الآبدين، كأنهما حَجَران لاصقان.

وهذا غير معقول، فهذا الكلام يضحك منه السفهاء فضلًا عن العلماء، فأين عقول هؤلاء الرجال؟!

ولكن الله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأعراف:١٨٦].

٩٦٤- وَأَبُــو عَــلِيٍّ[١] وَابْنُــهُ وَالأَشْــعَرِيْ ... يُ[٢] وَبَعْدَهُ ابْنُ الطَّيِّــبِ[٣] الرَّبَّـانِي

قَوْلُهُ: «أَبُو عَلِيٍّ» هو الجُبَّائِي، معتزلي.

قَوْلُهُ: «وَابْنُهُ» هو: أبو هاشم معتزليٌّ أيضًا.

قَوْلُهُ: «وَالأَشْعَرِي» هو أبو الحسن، وهو معروف، هؤلاء الثلاثة وبعدهم (ابنُ الطَّيِّب) وهو الباقلاني.

٩٦٥- وَجَمِيعُ أَرْبَـابِ الْكَـلَامِ الْبَاطِـلِ الْـ ... ـمَذْمُومِ عِنْــدَ أَئِمَّــةِ الإِيــمَانِ

٩٦٦- فَرَقُوا وَقَـالُوا: ذَاكَ فِـيمَا لَــمْ يَـزَلْ ... حَـــقٌّ وَفِي أَزَلٍ بِـــلا إِمْكَـــانِ

٩٦٧- قَـالُوا لأَجْـلِ تَنَـاقُضِ الأَزَلِيِّ وَالْـ ... إِحْـدَاثِ: مَــا هَــذَانِ يَجْتَمِعَــانِ

٩٦٨- لَكِــنْ دَوَامُ الْفِعْــلِ فِي مُسْــتَقْبَلٍ ... مَــا فِيــهِ مَحْـذورٌ مِــنَ النُّكْـرَانِ

هؤلاء فَرَّقوا، فكُلُّ أئمة الكلام فَرَّقوا بين التسلسل في الماضي والتسلسل في المستقبل، فقالوا: التسلسل في الماضي ممنوع، لماذا؟ قالوا: لأننا لو قلنا بالتسلسل لامتنع الحدوث، فلا يجتمع القول بالتسلسل والقول بالحدوث.

---

(١) أبو عليٍّ: هو الجُبَّائي: محمد بن عبد الوهاب من أئمة المعتزلة، ورئيس علماء الكلام في عصره، نسبته إلى جبى من قرى البصرة، ولد سنة (٢٣٥هـ)، وتوفي سنة (٣٠٣هـ) في جبى. [الشارح].

(٢) الأشعري: هو عليُّ بن إسماعيل، أبو الحسن، من نسل أبي موسى الأشعري، كان من أئمة المتكلِّمين المجتهدين، أَسَّس مذهب الأشاعرة، ولد سنة (٢٦٠هـ) في البصرة، وتلقَّى مذهب المعتزلة، وتقدَّم فيهم، ثُمَّ رجع وجاهر بخلافهم، والتزم مذهب أحمد بن حنبل، وتوفي ببغداد سنة (٣٢٤هـ). [الشارح].

(٣) ابن الطيب: هو محمد بن الطَّيِّب بن محمد، أبو بكر الباقلاني، من كبار علماء الكلام، انتهت إليه الرئاسة في مذهب الأشاعرة، ولد في البصرة سنة (٣٣٨هـ)، وتوفي في بغداد سنة (٤٠٣هـ). [الشارح].

قَوْلُهُ: «قالوا: لأَجْلِ تَنَاقُضِ الأَزَلِيِّ وَالإِحْدَاثِ» كيف نقول: إنه أزليٌّ ونقول: إنه مُحْدَثٌ؟! لأنَّ الأزليَّ لا يمكن أن يكون مُحْدَثًا، فلذلك يمتنع التسلسل في الماضي، أما التسلسل في المستقبل فلا بأس، لأنَّ التسلسل في المستقبل يمنع الحدوث، ولكن سَيَرُدُّ عليهم ابن القيم.

إِذَنْ فالأقوال ثلاثة:

القول الأول: إمكان التسلسل في الماضي والمستقبل، أي: إمكانه أزلًا وأبدًا، وهذا قول أهل الحقِّ.

القول الثاني: امتناع التسلسل فيهما، أي: امتناع التسلسل أزلًا وأبدًا.

القول الثالث: التفصيل، وهو مذهب الأشاعرة وجميع أهل الكلام، وهو أنه يمكن في المستقبل، ولا يمكن في الماضي، يعني: إمكانه أبدًا لا أزلًا.

ولكن -الحمد لله- الحقُّ واضحٌ بأنَّ الله عزَّ وجلَّ لم يزل ولا يزال فَعَّالًا، لكن من متى؟

الجواب: لا نهاية، لكن نعلم أنه لم يَزَل ولا يزال فَعَّالًا، كذلك أيضًا لا يزال فَعَّالًا، لأنَّ أهلَ الجنَّة خالدون فيها أبدًا، وكذلك أهل النار.

٩٦٩- فَانْظُرْ إِلَى التَّلْبِيسِ فِي ذَا الْفَـرْقِ تَـرْ ... وِيجًـا عَـلَى العُـورَانِ وَالْعُمْيَـانِ

قَوْلُهُ: «فَانْظُرْ إِلَى التَّلْبِيسِ» أي: انظر أيها المخاطب إلى التلبيس، والتلبيس معناه: التخليط وعدم التبيين.

قَوْلُهُ: «فِي ذَا الْفَرْقِ» الفرق يعني: بين التسلسل في الماضي والمستقبل.

قَوْلُهُ: «تَرْوِيـجًا عَلَى العُـورَانِ وَالْعُـمْيَانِ» مَنْ له عينان فإنه لا يُرَوَّج عليه

هذا، إنـما يُـرَوَّج هذا على رجلٍ أعـور لا ينظر إِلَّا بعينٍ واحـدة، أو رجلٍ أعمى لا ينظر أبدًا.

وأهل الكلام في الحقيقة من باب العُورَان، لأنهم نظروا بعينٍ واحدة، وهي التسلسل في المستقبل، وعَمُوا عن التسلسل في الماضي.

٩٧٠- مَـا قَـالَ ذُو عَقْـلٍ بِـأَنَّ الْفَـرْدَ ذُو أَزَلٍ لِــذِي ذِهْــنٍ وَلَا أَعْيَــانِ

يقول ابن القيم في الجواب عن كلامهم: نحن لا نقول بِقِدَم الشيء المعيَّن (**مَا قَالَ ذُو عَقْلٍ بِأَنَّ الْفَرْدَ**) يعني: الشيء المعيَّن.

قَوْلُهُ: «**ذُو أَزَلٍ لِذِي ذِهْنٍ وَلا أَعْيَانِ**» يعني: ما أحد قال لا في ذهنه ولا في عين الشيء لا تصوُّرًا ولا تحقيقًا: إنه أزليٌّ، فلم يَدَّعِ أحد بأنَّ الأعيان أزليَّة أبديَّة، فهذا لا يمكن، فنحن إذا قلنا بالتسلسل فليس معنى ذلك أنَّ الأفراد أعيان متسلسلة، لأنَّ هذا يكذبه الواقع، فابن عشرين سنة قبل عشرين سنة لم يكن شيئًا، وإذا مات لم يكن شيئًا إلا خبرًا من الأخبار.

٩٧١- بَـلْ كُـلُّ فَـرْدٍ فَهْـوَ مَسْـبُوقٌ بِفَـرْ دٍ قَبْلَــهُ أَبَــدًا بِــلا حُسْــبَانِ

فخلق السموات مسبوق بخلقٍ آخر ما نعلمه، والخلق الآخر مسبوق بخلق آخر إلى ما لا نهاية له، وكان عرش الله على الماء، فكانت أرض، ثُمَّ السموات.

فنحن لا نقول: إنَّ الشيءَ المعيَّن من المخلوقات أَزَلِيٌّ، بل نقول: إِنَّ فعل الله الذي هو وَصْفُه أزليٌّ كذاتِ الله وحياة الله، أما المخلوقات فإنها حادثة، لكن كُلُّ مخلوق فهو مسبوق، مسبوق بمخلوقٍ قبلَه إلى ما لا نهايةَ له، ولا نَعْرِف، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٨٥].

كما أننا نقول:

٩٧٢- وَنَظِيرُ هَذَا كُلُّ فَرْدٍ فَهْوَ مَلْـ ـحُوقٌ بِفَرْدٍ بَعْدَهُ حُكْمَانِ

قَوْلُهُ: «وَنَظِيرُ هَذَا كُلُّ فَرْدٍ فَهْوَ مَلْحُوقٌ بِفَرْدٍ» هذا التسلسل في المستقبل، كُلُّ فردٍ فهو ملحوقٌ بفرد، يعني: يلحقه فردٌ، ويلحقه فرد، ويلحقه فرد، ويلحقه فرد، إلى ما لا نهاية له، بلا حسبان.

فإذا كنتم تُقِرُّون بأنَّ كُلَّ فردٍ يلحقه فردٌ آخر، فلماذا لا تُقِرُّون بأنَّ كُلَّ فردٍ يسبقه فردٌ آخر، وهل البابان إلَّا شيءٌ واحد؟!

٩٧٣- النَّوْعُ وَالآحَادُ مَسْبُوقٌ وَمَلْـ ـحُوقٌ وَكُلٌّ فَهْوَ مِنْهَا فَانِ

قَوْلُهُ: «النَّوْعُ» يعني: نوع المخلوقات، مثلًا: الآدمي نوع باعتبار بقية الحيوان، والحيوان جنس، والآدمي نوعٌ منه، أنا، وأنت، وزيد، وعمرو، هذا فرد.

قَوْلُهُ: «النَّوْعُ وَالآحَادُ مَسْبُوقٌ وَمَلْحُوقٌ» وهذا صحيح، فنحن قبلنا ناس، وبعدنا ناس (وَكُلٌّ فَهْوَ مِنْهَا فَانِ).

٩٧٤- وَالنَّوْعُ لَا يَفْنَى أَخِيرًا فَهْوَ لَا يَفْنَى كَذَلِكَ أَوَّلًا بِبَيَانِ

النوع لا يفنى أخيرًا، كذلك لا يفنى أوَّلًا، فما هو النوع؟ يعني نوع الفعل فعلِ الله عزَّ وجلَّ لا نهايةَ له لا أولًا، ولا آخرًا، أما النوع من الآحاد فلا شكَّ أنَّ له أوَّلًا بمعنى أنه مسبوقٌ بعدم.

فنحن -بني آدم- قد سُبقنا بعدم وسنفنى، والحور والولدان في الجَنَّة مسبوقة بعدم لكنها ستبقى، والأرواح مسبوقة بعدم لكنها ستبقى.

٩٧٥- وَتَعَاقُبُ الآنَاتِ أَمْرٌ ثَابِتٌ فِي الذِّهْنِ وَهْوَ كَذَاكَ فِي الأَعْيَانِ

هذا -أيضًا- دليلٌ لا محيصَ عنه، فالآناتُ -أي: الأوقات- هل هي متعاقبة أو غير متعاقبة؟

الجواب: متعاقبة، حتى لو فرضنا أنه لا شمس ولا قمر فهي متعاقبة، وهل لها بداية؟

الجواب: لم يزل الله عزَّ وجلَّ قد خلقها من الأزل، وهل تنتهي أو لا؟

الجواب: الأوقات لا تنتهي حتى إلى أبد الآبدين، لكن تَتَغيَّر الأحوال بلا شك من دنيا، إلى برزخ، إلى آخرة، إلى جنة أو نار.

قَوْلُهُ: «**أَمْرٌ ثَابِتٌ فِي الذِّهْنِ وَهْوَ كَذَاكَ فِي الأَعْيَانِ**»، يعني: يَتصَوَّر الإنسان ذهنًا ويراه عينًا أنَّ الأوقات تتعاقب، وهل هي مخلوقة أو غير مخلوقة؟

الجواب: مخلوقة، وهل لها أوَّل؟

الجواب: أبدًا، لم تزل الأوقات موجودة، ولا تزال كذلك، والذي خلق الوقت هو الله عزَّ وجلَّ.

٩٧٦- فَإِذَا أَبَيْتُمْ ذَا وَقُلْتُمْ: أَوَّلُ الْـ آنَاتِ مُفْتَتَحٌ بِلا نُكْرَانِ

يقول: إن أبيتم وقلتم: أَوَّلُ الآنات مُفْتَتَحٌ بلا نكران، يعني: أَوَّلُ الأوقات إن كان شيئًا لا نتصوَّره قبل أن توجد الأوقات، كانت الأوقات معدومة، ثُمَّ افُتتحت، وهذا نتصوَّره ذهنًا في الواقع، وإلَّا لا بدَّ من وقت، لكن اسمع الجواب:

٩٧٧- مَا كَانَ ذَاكَ الآنَ مَسْبُوقًا يُرَى إِلَّا بِسَلْبِ وُجُودِهِ الْحَقَّانِي

٩٧٨- فَيُقَالُ: مَا تَعْنُونَ بِالآنَاتِ؟ هَلْ تَعْنُونَ مُدَّةَ هَذِهِ الأَزْمَانِ

٩٧٩- مِنْ حِينِ إِحْدَاثِ السَّمَوَاتِ الْعُلى وَالأَرْضِ وَالأَفْلاكِ وَالْقَمَرَانِ

٩٨٠- وَنَظُنُّكُمْ تَعْنُونَ ذَاكَ وَلَمْ يَكُنْ مِنْ قَبْلِهَا شَيْءٌ مِنَ الأَكْوَانِ

إذا قالوا: الآناتُ مُحْدَثَة فهي غير متسلسلة.

يقول: ما تعنون بالآنات؟ هل تعنون بالآنات الأوقات منذ خُلقت السموات والأرض والشمس والقمر، أو تعنون الأوقات من قبل؟ لكن ابن القيم يقول: (**وَنَظُنُّكُمْ تَعْنُونَ ذَاكَ**) يعني: ما كان بعد خلق السماوات والأرض ولكن، (**وَلَمْ يَكُنْ مِنْ قَبْلِهَا شَيْءٌ مِنَ الأَكْوَانِ**) فتنفون أن يكون شيءٌ من الأكوان موجودًا قبل خلق السموات والأرض.

فهو يقول: وأظنكم تعنون هذا، فليس الكلام في ذلك، الكلام في الآنات السابقة على خلق السموات والأرض لسنا نبلغ أولها، وهذا واضح.

أما الآنات التي وُجِدت بعد الشمس والقمر والسموات والأرض هذه نحن معكم أنها ليست قديمة، فالليل والنهار بتعاقب الشمس على الأرض وهي حادثةٌ لا شَكَّ، لكن هناك أشياء أخرى مخلوقة من قبل.

٩٨١- هَلْ جَاءَكُمْ فِي ذَاكَ مِنْ أَثَرٍ وَمِنْ نَصٍّ وَمِنْ نَظَرٍ وَمِنْ بُرْهَانِ؟

٩٨٢- هَذَا الْكِتَابُ وَهَذِهِ الآثَارُ وَالْـ ـمَعْقُولُ فِي الْفِطْرَاتِ وَالأَذْهَانِ

٩٨٣- إِنَّا نُحَاكِمُكُمْ إِلَى مَا شِئْتُمُ مِنْهَا فحُكْمُ الْحَقِّ فِي تِبْيَانِ

يقول: هل عندكم دليل على امتناع شيء قبل خلق السموات والأرض؟

الجواب: ليس عندهم دليل، وهذا هو الذي نريده.

٩٨٤- أَوَلَيْسَ خَلْقُ الْكَوْنِ فِي الأَيَّامِ كَا   نَ، وَذَاكَ مَأْخُوذٌ مِنَ الْقُرْآنِ

هل خلق الكون في الأيام مأخوذ من القرآن؟

الجواب: نعم، موجود في القرآن، قال الله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الأعراف:٥٤]، قبل أن توجد الأيام المقدرة بالشمس يعني: قبل أن يوجد أحد واثنين وثلاثاء وأربعاء وخميس وجمعة، ومع ذلك قدَّر الله خَلْقها في ستة أيام.

٩٨٥- أَوَلَيْسَ ذَلِكُمُ الزَّمَانُ بِمُدَّةٍ   لِحُدُوثِ شَيْءٍ وَهْوَ عَيْنُ زَمَانِ؟

الجواب: بلى، فالزمان الذي خُلِقَت فيه السموات والأرض قبل أن توجد السموات والأرض، وقبل أن توجد الشمس كان موجودًا زمانًا ومُدَّة، ولا شكَّ في هذا، إذن ما المانع؟!

٩٨٦- فَحَقِيقَةُ الأَزْمَانِ نِسْبَةُ حَادِثٍ   لِسِوَاهُ تِلْكَ حَقِيقَةُ الأَزْمَانِ

نعم، حقيقة الأزمان نسبةُ حادثٍ لسواه، أي: لغيره، لأنَّ كُلَّ لحظة تأتي من الزمن فهي خَلَفٌ عن لحظة سابقة إلى ما لا نهاية، ولهذا لا تجدك تتصور أنَّ للزمن نهاية أبدًا مع أنَّ الزمنَ مخلوق من مخلوقات الله عزَّ وجلَّ ومع ذلك لا تَتَصوَّر له نهاية، حتى قبل خلق السموات والأرض يوجد زمن ومدَّة، ثُمَّ خُلِقَت السمواتُ والأرضُ في ستة أيام كما قال عزَّ وجلَّ.

٩٨٧- وَاذْكُرْ حَدِيثَ السَّبْقِ لِلتَّقْلِيلِ وَالتْـ   تَوْقِيتِ قَبْلَ جَمِيعِ ذِي الأَعْيَانِ

٩٨٨- خَمْسِينَ أَلْفًا مِنْ سِنِينٍ عَدَّهَا الْـ   مُخْتَارُ سَابِقَةً لِذِي الأَكْوَانِ

قَوْلُهُ: «حَدِيثَ السَّبْقِ» هو قول النبيِّ ﷺ: «كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الخَلائِقِ قَبْلَ

أَنْ يَخْلُقَ السَّمَواتِ وَالأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ»[١]. إذن توجد مُدَّة قبل خلق السموات والأرض، والمدة مخلوقة، والقلم أيضًا مخلوق، واللوح المكتوب فيه مخلوق.

٩٨٩- هَذَا وَعَرْشُ الرَّبِّ فَوْقَ الْـمَاءِ مِـنْ قَبْـلِ السِّـنِينَ بِمُـدَّةٍ وَزَمَـانِ

عرش الله عزَّ وجلَّ قبل الكتابة فوق الماء من قبل السنين التي هي خمسون ألفَ سنةٍ، فالأزمان لا تتناهى في الماضي، لكن إذا عنيتم بالأزمان التي تقدَّرت بخلق السموات والأرض فنحن معكم أنها ليست أزليَّة.

٩٩٠- وَالنَّـاسُ مُخْتَلِفُـونَ فِي الْقَلَـمِ الَّـذِي كُتِـبَ الْقَضَـاءُ بِـهِ مِـنَ الـدَّيَّانِ

٩٩١- هَلْ كَانَ قَبْلَ الْعَرْشِ أَوْ هُـوَ بَعْـدَهُ قولان عِندَ أَبِي الْعَـلا الْـهَمَذَانِي[٢]

يعني: أنَّ أهل العلم اختلفوا: هل العرش سابقٌ على خلق القلم أو القلم سابقٌ على خلق العرش؟ قولان لأهل السنة:

القول الأول: أنَّ الله تعالى كتب المقادير قبل العرش.

القول الثاني: أنَّ الله كتب المقادير بعد العرش.

لكن ابن القيم يقول:

٩٩٢- وَالْـحَقُّ أَنَّ الْعَـرْشَ قَبْـلُ لأَنَّـهُ قَبْـلَ الْكِتَابَـةِ كَـانَ ذَا أَرْكَـانِ

قَوْلُهُ: «وَالْـحَقُّ أَنَّ الْعَرْشَ قَبْلُ» أي: قبل القلم، لأنه قبل الكتابة كان ذا أركان، وإذا كان ذا أركان فهو سابق بلا شك.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام، برقم(٢٦٥٣).
(٢) لعله الحسن بن أحمد، المولود سنة (٤٨٨هـ)، المتوفي سنة (٥٦٩هـ). [الشارح].

فهذا هو القول الحقُّ لقوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود:٧]، ثُمَّ خلق القلم، وأمره أن يكتب في تلك الساعة عند خلقه ما هو كائن إلى يوم القيامة، فكتب.

وسبحان الله العظيم! أمر الله هذا الجماد أن يكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة، فكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة بأمر الله عزَّ وجلَّ، مع أنَّ القلم لا يعلم ولا يفهم إلَّا ما أمره الله به، فجرى في تلك الساعة بما هو كائنٌ إلى يوم القيامة، فما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئَه، وما أخطأه لم يكن ليصيبَه، وذكر -رحمه الله- أنَّ هذا هو الحقُّ.

أما حديث: «إنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ القَلَمُ»[(١)] فنوجهه على أنَّ المعنى: أَوَّل ما خلق الله القلم قال له: اكتب، فتكون الأَوَّلية بالنسبة لقول الله له، يعني: من حين خلقه قال: اكتب، وهذا ظاهر كلام ابن القيم هنا.

المعنى الثاني: (**أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللهُ القَلَمُ**) أي: بالنسبة للمشاهدات التي نشاهدها نحن.

فإن قيل على هذا القول: إنَّ القلمَ غيرُ مشاهد؟ فنقول: هذا من جنس الاستثناء المنقطع، وقد مَثَّل النُّحَاة له بقولهم: (**جَاءَ القومُ إِلَّا حمارًا**) فالحمار ليس من جنس القوم، فليس منهم، فالاستثناء المنقطع هو أن يكون المستثنى من غير جنس المستثنى منه، فقوله: «**أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللهُ القَلَمُ**» أي: من هذه الموجودات مثل الاستثناء المنقطع، وإن كان القلم لا نشاهده في الواقع.

---

(١) أخرجه أبو داود، كتاب السنة، باب في القدر، برقم (٤٧٠٠)، وأخرجه الترمذي، كتاب تفسير القرآن، سورة ن، برقم (٣٣١٩).

فإن قال قائلٌ: في حديث النَّبِيِّ ﷺ «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ القَلَمُ» بالإفراد، وفي حديث النَّبِيِّ ﷺ في الإسراء قال: «عُرِجَ بِي حَتَّى ظَهَرْتُ لِمُسْتَوًى أَسْمَعُ فِيهِ صَرِيفَ الأَقْلامِ»(١). بالجمع، فما الجواب؟

الجواب: أنَّ هذه هي الأقلام اليومية، يعني: أنَّ اللوح المحفوظ مرجع تُكْتَبُ منه الصحائف اليومية.

٩٩٣- وَكِتَابَةُ الْقَلَمِ الشَّرِيفِ تَعَقَّبَتْ   إِيجَادَهُ مِنْ غَيْرِ فَصْلِ زَمَانِ

يعني: أنَّ الله -سبحانه وتعالى- لما خلق القلم قال له: اكتب، فبمجرد ما خلقه الله أمره أن يكتب فكتب، وفي حديث عِمْران بن الحُصَين: «وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ»(٢). فالكتابة أعقبت خلق القلم، وكان عرش الله على الماء، إذن فالعرش هو السابق.

٩٩٤- لَـمَّا بَرَاهُ اللهُ قَالَ: اكْتُبْ كَذَا   فَغَدَا بِأَمْرِ الله ذَا جَرَيَانِ

٩٩٥- فَجَرَى بِمَا هُوَ كَائِنٌ أَبَدًا إِلَى   يَوْمِ الْمَعَادِ بِقُدْرَةِ الرَّحْمَنِ

الله أكبر، لَـمَّا خلق الله القلم، في نفس الساعة «قال له: اكْتُبْ، فَقَالَ: رَبِّ ومَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَقاديرَ كل شيء حتى تقومَ الساعةُ»(٣)، فجَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُو كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ القِيَامَة لا يتغيَّر ولا يتبدَّل.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب كيف فرضت الصلاة، برقم (٣٤٢)، وأخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ، برقم (١٦٣).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في قول الله: ﴿وَهُوَ الَّذِى يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾، برقم (٣٠١٩).

(٣) أخرجه أبو داود، كتاب السنة، باب في القدر، برقم (٤٧٠٠)، وأخرجه الترمذي، كتاب تفسير القرآن، سورة ن، برقم (٣٣١٩).

٩٩٦- أَفَكَانَ رَبُّ الْعَرْشِ جَلَّ جَلالُهُ مِنْ قَبْلُ ذَا عَجْزٍ وَذَا نُقْصَانِ؟!

وهذا السؤالُ سؤالُ تقريرٍ، يسأل: هل كان الله قبل ذلك عاجزًا؟ لأننا إذا قلنا: يستحيل التسلسل في الماضي لَزِم أن تكون هذه الاستحالة من صفات الله، ويكون الله عاجزًا عن أن يخلق، ثُمَّ صار يخلق، وهذا شيء مستحيل ونقصٌ لله.

٩٩٧- أَمْ لَمْ يَزَلْ ذَا قُدْرَةٍ وَالْفِعْلُ مَقْـ ـدُورٌ لَهُ أَبَدًا وَذُو إِمْكَانِ؟

ماذا نقول؟ هل نقول: (بلى) أو نقول: نعم؟

الجواب: نقول: (بلى) لم يزل ذا قدرة، والفعل مقدور له أبدًا وذو إمكان.

٩٩٨- فَلَئِنْ سَأَلْتَ وَقُلْتَ: مَا هَذَا الَّذِي أَدَّاهُمُ لِخِلافِ ذَا التِّبْيَانِ؟

قَوْلُهُ: «فَلَئِنْ سَأَلْتَ» يعني: أيها المخاطب: وقلت ما هذا الذي أدَّاهم لخلاف ذا التبيان؟ الضمير في (أدَّاهم) يعود على أهل الكلام، ومنهم الأشاعرة.

٩٩٩- وَلأَيِّ شَيْءٍ لَمْ يَقُولُوا: إِنَّهُ -سبحانه- هُوَ دَائِمُ الإِحْسَانِ

١٠٠٠- فَاعْلَمْ بِأَنَّ الْقَوْمَ لَمَّا أَسَّسُوا أَصْلَ الْكَلامِ عَمُوا عَنِ الْقُرْآنِ

١٠٠١- وَعَنِ الْحَدِيثِ وَمُقْتَضَى الْمَعْقُولِ بَلْ عَنْ فِطْرَةِ الرَّحْمَنِ وَالْبُرْهَانِ

قَوْلُهُ: «فَاعْلَمْ بِأَنَّ الْقَوْمَ» هذا الجواب لما أَسَّسُوا أصل الكلام عَمُوا عن القرآن، فهؤلاء لما صاروا يرجعون في عقائدهم إلى علم الكلام ويُحَكِّمون العقولَ التي ليست بعقول في الحقيقة، ولكنها تَعْقِل الإنسان عن الوصول إلى الحقيقة، عَمُوا عن القرآن وعن الحديث ومقتضى المعقول بل عن فطرة الرحمن والبرهان.

١٠٠٢-وبَنَـوْا قَوَاعِـدَهُمْ عَلَيْـهِ فَقَـادَهُمْ   قَسْـرًا إلى التَّعْطيـلِ والـبُطْلانِ

هذا هو البلاء أنهم أسَّسوا عقائدهم على الكلام، فأسَّسوا علم الكلام، وجعلوه هو الأصل الذي عليه المدار.

فهم حكَّموا العقول، وأعرضوا عن الكتاب والسنة، فضلوا -والعياذ بالله- قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه:١٢٣] اللهم اجعلنا منهم يا ربِّ.

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه:١٢٤]، قوله: ﴿فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ أي: لا يضل علمًا، ولا يشقى عملًا، وقيل: لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة، والمعنيان صحيحان.

هؤلاء لَـمَّا أعرضوا عن الكتاب والسنة في أسماء الله وصفاته ضلُّوا وشَقُوا -والعياذ بالله- ضلُّوا عِلْمًا، وشَقُوا عملًا، فما اهتدوا لا في أسماء الله وصفاته، ولا في قَدَر الله -سبحانه وتعالى-، هذا هو السبب.

فالسبب إعراضهم عن الكتاب والسنة، واشتغالهم بعلم الكلام، فجدير بهم أن يُفْعَلَ بهم ما قاله الشافعي -رحمه الله- أن يُطافَ بهم في العشائر، ويُضْرَبوا بالجريد والنعال، ولو كانوا كبار العمائم وطوال الأردان، ويُقال: (هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة، وأقبل على علم الكلام).

١٠٠٣-نَفْـيُ القِيـامِ لكـلِّ أمـرٍ حـادثٍ   بـالربِّ خَـوْفَ تَسَلْسُـلِ الأعيـانِ

يقول: كُلُّ أمر حادث فإنه لا يقوم بالرَّبِّ، مثل الاستواء على العرش، والنزول إلى السماء الدنيا، والمجيء إلى الفصل بين العباد، والفرح بتوبة العبد إذا تاب، والضحك إلى رجلين يقتل أحدهما صاحبه كلاهما يدخل الجنة، وهكذا كلُّ شيء

حادث فهو ممنوع أن يقوم بالرَّبِّ، قالوا: لأننا لو قلنا بقيامه بالرَّبِّ، للزم قِدمُ الحوادث أو حدوث الواجب بالقدم.

فهم يقولون: لو قلنا بأنَّ الحوادث تقوم به لزم أحد أمرين: إمَّا أن تكون هذه الحوادث لا أوَّل لها، وإمَّا أن يكون الله محلًّا للحوادث، وكُلُّ هذا -عندهم- ممتنع.

١٠٠٤- فَيَسُدُّ ذَاكَ عَلَيْهِمُ فِي زَعْمِهِمْ ... إِثْبَاتَ صَانِعِ هَذِهِ الأَكْوَانِ

١٠٠٥- إِذْ أَثْبَتُوهُ بِكَوْنِ ذِي الأَجْسَادِ حَا ... دِثَةً فَلا تَنْفَكُّ عَنْ حِدْثَانِ

١٠٠٦- فَإِذَا تَسَلْسَلَتِ الْحَوَادِثُ لَمْ يَكُنْ ... لِحُدُوثِهَا إِذْ ذَاكَ مِنْ بُرْهَانِ

يقولون: إننا لا نُثبتُ قِدَم الرَّبِّ إلَّا إذا أثبتنا حدوث الحوادث، وإلَّا فإننا لا نستطيع أن نثبت قِدَم الرَّبِّ.

فيُقال: إنَّ قِدَم الرَّبِّ لا شك ثابتٌ، فالله تعالى ليس قبلَه شيء، فهو لم يلد ولم يولد، والحوادث كلها كائنةٌ بعد أن لم تكن وإنْ تسلسلت في الأزل فإنها حادثة ولا بد.

١٠٠٧- فَلأَجْلِ ذَا قَالُوا: التَّسَلْسُلُ بَاطِلٌ ... وَالْجِسْمُ لا يَخْلُو عَنِ الْحِدْثَانِ

١٠٠٨- فَيَصِحُّ حينَئِذٍ حدوثُ الجِسْمِ مِن ... هذا الدَّليلِ بوَاضِحِ البُرْهانِ

هذا الجسم لا يخلو عن الحدثان، وهذا صحيح، لكن بالنسبة للرَّبِّ العظيم لا يمكن أن نقول هذا، لأنَّ الكلامَ على الجسم نفيًا أو إثباتًا بالنسبة لله ممنوع، فلا نقول: إنَّ الله جسم، ولا نقول: إنه ليس بجسم، لكن نقول: إنَّ الله عزَّ وجلَّ ذاتٌ عَلِيَّة مَلِكٌ، قُدُّوسٌ، سلامٌ، عزيزٌ، حكيم إلى آخر ما وصفَ اللهُ به نفسَه.

١٠٠٩- هَذِي نِهَايَاتٌ لإِقْدَامِ الْوَرَى ... فِي ذَا الْمَقَامِ الضَّيِّقِ الأَعْطَانِ

١٠١٠- فَمَنِ الَّذِي يَأْتِي بِفَتْحٍ بَيِّنٍ   يُنْجِي الْوَرَى مِنْ غَمْرَة الْـحَيْرَانِ
١٠١١- فَاللهُ يَجْزِيهِ الَّذِي هُوَ أَهْلُهُ   مِنْ جَنَّةِ الْـمَأْوَى مَعَ الرِّضْوَانِ

انظر إلى وصف ابن القيم -رحمه الله- لهذا البحث بأنَّه مقامٌ ضيِّق الأعطان، والأعطان جمع عَطَن[1]، فإذا كان العَطَنُ ضيِّقًا لَزِم من ذلك الضِّيق، والانحصار والتعب.

وهذه الأبيات الثلاثة تحتمل أنَّ ابن القيم -رحمه الله- بعد أن رجَّح ما رجَّح من تسلسل الحوادث في الماضي كأنه لم يطمئن إليها تلك الطمأنينة، فلهذا قال: (**فَمَن الَّذِي يَأْتِي بِفَتْحٍ بَيِّنٍ يُنْجِي الْوَرَى مِنْ غَمْرَة الْـحَيْرَانِ**)، ويحتمل أنه يريد بذلك أنَّ ما أتى به فهو صريحٌ بَيِّنٌ يُنْجِي الوَرَى من غمرة الحيران.

فكلامه -رحمه الله- محتمل أن يكون بعد هذا البحث والمناقشة الطويلة صار عنده شيءٌ من التردد كما يوجد الآن تردد في هذه المسألة من بعض طلبة العلم، سواء من طلبة العلم الصغار أم من طلبة العلم الكبار.

ويحتمل أنه يريد أنه أتى -رحمه الله- بفتحٍ بَيِّن في هذه المسألة واضح كما يدلُّ على ذلك تأييده للقول بجواز أو بإمكان التسلسل للحوادث في الماضي.

قَوْلُهُ: « **فَمَن الَّذِي يَأْتِي بِفَتْحٍ بَيِّنٍ... فَاللهُ يَجْزِيهِ الَّذِي هُوَ أَهْلُهُ**». هذا من إخلاص ابن القيم -رحمه الله- ونصحه أنه دعا لمن أتى للمسلمين بالفتح البَيِّن والدليل الواضح، لأنَّ كُلَّ ناصح لله ولكتابه ولرسوله يحب أن يُبَيِّن للخلق ما جاء به النبيُّ ﷺ من الهدى ودين الحقِّ.

* * *

(١) هو مبرك الإبل حول الماء، النهاية عطن.

فصـــل

١٠١٢- فَاسْـمَعْ إِذَنْ وَافْهَـمْ فَـذَاكَ مُعَطِّـلٌ ... وَمُشَــبِّهٌ وَهَــذَاكَ ذُو الْغُفْــرَانِ

١٠١٣- هَـذَا الـدَّلِيلُ هُـوَ الَّـذِي أَرْدَاهُـمُ ... بَـلْ هَــدَّ كُـلَّ قَوَاعِـدِ الْقُــرْآنِ

١٠١٤- وَهْوَ الدَّلِيلُ الْبَاطِلُ الْـمَرْدُودُ عِنْــ ... ــدَ أَئِمَّــةِ التَّحْقِيــقِ وَالْعِرْفَــانِ

١٠١٥- مَـا زَالَ أَمْـرُ النَّـاسِ مُعْتَـدِلًا إِلَى ... أَنْ دَارَ فِي الأَوْرَاقِ وَالأَذْهَـــانِ

١٠١٦- وَتَــمَكَّنَتْ أَجْــزَاؤُهُ بِقُلُــوبِهِم ... فأتَـــت لَوَازِمُــهُ إِلَى الإِيــمَانِ

١٠١٧- رَفَعَــتْ قَوَاعِــدَهُ وَنَحَّــتْ أُسَّــهُ ... فَهَــوَى الْبِنَــاءُ وَخَــرَّ لِلأَرْكَــانِ

١٠١٨- وَجَنَـوا عـلَى الإِسْـلامِ كُـلَّ جِنَايَـةٍ ... إِذْ سَــلَّطُوا الأَعْــدَاءَ بِالْعُــدْوَانِ

١٠١٩- حَمَلُوا بِأَسْلِحَةِ الْـمُحَالِ فَخَـانَهُمْ ... ذَاكَ السِّـلاحُ فـما اشْـتَفَوْا بِطِعَـانِ

١٠٢٠- وَأَتَـى الْعَـدُوُّ إِلَى سِـلاحِهِمُ فَقَـا ... تَلَهُــمْ بِــهِ فِي غَيْبَــةِ الْفُرْسَــانِ

١٠٢١- يَـا مِحْنَـةَ الإِسْـلامِ وَالْقُـرْآنِ مِـنْ ... جَهْلِ الصَّـدِيقِ وبَغْـيِ ذي طُغْيـانِ

١٠٢٢- وَاللهِ لَــوْلا اللهُ نَــاصِرُ دِينِــهِ ... وَكِتَابِــهِ بِالْــحَقِّ وَالْبُرْهَــانِ

١٠٢٣- لَتَخَطَّفَـــتْ أَعْــدَاؤُهُ أَرْوَاحَنَــا ... وَلَقُطِّعَــتْ مِنَّــا عُــرَى الإِيــمَانِ

١٠٢٤- أَيَكُونُ حَقًّا ذَا الدَّلِيلُ وَمَـا اهْتَـدَى ... خَــيْرُ الْقُــرُونِ لَـهُ؟! مُحَـالٌ ذانِ!

١٠٢٥- وُفِّقْتُمُ لِلْحَقِّ إِذْ حُرِمُوه في ... أَصْلِ الْيَقِينِ وَمَقعدِ الْعِرْفَانِ؟!

١٠٢٦- وَهَدَيْتُمُونَا لِلَّذِي لَمْ يَهْتَدُوا ... أَبَدًا بِهِ؟! وَاشِدَّةَ الْحِرْمَانِ!

١٠٢٧- وَدَخَلْتُموا لِلْحَقِّ مِنْ بَابٍ وَمَا ... دَخَلُوهُ؟! وَاعَجَبًا لِذَا الْخِذْلانِ!

١٠٢٨- وَسَلَكْتُمُ طُرُقَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ دُو ... نَ الْقَوْمِ؟! وَاعَجَبًا لِذَا الْبُهْتَانِ!

١٠٢٩- وَعَرَفْتُمُ الرَّحْمَنَ بالأَجْسَامِ وَالْـ ... أَعْرَاضِ وَالْحَرَكَاتِ وَالأَلْوَانِ

١٠٣٠- وَهُمُ فَمَا عَرَفُوهُ مِنْهَا بَلْ مِنَ الْـ ... آيَاتِ وَهْيَ غَيْرُ ذِي بُرْهَانِ

١٠٣١- اللهُ أَكْبَرُ أَنْتُمُ أَوْ هُمْ عَلَى ... حَقٍّ وَفِي غَيٍّ وَفِي خُسْرَانِ

الشرحُ

ذكر المؤلف -رحمه الله- في هذه المقطوعة أنَّ هذا الدليل الذي استدلوا به على نفي قيام الأفعال بالله عزَّ وجلَّ وهو أنَّ الأفعال حادثة، والحادث لا يقوم إلَّا بحادث، إذن فلا تقوم الأفعالُ به، ذكر أنَّ هذا دليل باطل.

قال -رحمه الله-:

١٠١٢- فَاسْمَعْ إِذَنْ وَافْهَمْ فَذَاكَ مُعَطِّلٌ ... وَمُشَبِّهٌ وَهَدَاكَ ذُو الْغُفْرَانِ

١٠١٣- هَذَا الدَّلِيلُ هُوَ الَّذِي أَرْدَاهُمُ ... بَلْ هَدَّ كُلَّ قَوَاعِدِ الْقُرْآنِ

١٠١٤- وَهْوَ الدَّلِيلُ الْبَاطِلُ الْمَرْدُودُ عِنْـ ... ـدَ أَئِمَّةِ التَّحْقِيقِ وَالْعِرْفَانِ

فالقرآن مملوء بإثبات الأفعال لله عزَّ وجلَّ، ولو تدبَّرتموه لوجدتم فيه مئات الأدلة على إثبات الأفعال لله -سبحانه وتعالى-، وأنَّ الله لم يزل ولا يزالُ فَعَّالًا.

ولكنَّ ابن القيم -رحمه الله- يقول: إنَّ هذا الدليل باطل ومردودٌ عند أئمة التحقيق والعرفان.

١٠١٥- مَـا زَالَ أَمْـرُ النَّـاسِ مُعْتَـدِلًا إِلَى ... أَنْ دَارَ فِي الأَوْرَاقِ وَالأَذْهَـانِ

١٠١٦- وَتَـمَكَّنَتْ أَجْـزَاؤُهُ بِقُلُـوبِهِم ... فأتـت لَوَازِمُـهُ إِلَى الإِيـمَانِ

١٠١٧- رَفَعَـتْ قَوَاعِـدَهُ وَنَحَّـتْ أُسَّـهُ ... فَهَـوَى الْبِنَـاءُ وَخَـرَّ لَلأَرْكَـانِ

١٠١٨- وَجَنَـوا عـلَى الإِسْـلامِ كُـلَّ جِنَايَـةٍ ... إِذْ سَـلَّطُوا الأَعْـدَاءَ بِالْعُـدْوَانِ

ويقول: إنَّ الناس كانوا على الحقِّ، وأمْرُهم معتدلٌ حتى دار هذا الدليل في الأوراقِ والأذهانِ، فاضطرب الناس، وإلا فلو تُرِكَ الناسُ وفِطْرتَهم لكان كُلُّ إنسان يعلم بفطرتِه أنَّ الله لم يزل فعَّالًا، وأنَّ الفعلَ لم يكن مستحيلًا عليه في آنٍ، ثُمَّ صار ممكنًا بعد الاستحالة.

فلو تُرِكَ الناسُ وفطرتَهم ما عدلوا عن الحقِّ، لكن جاءت هذه العقول وأفسدت المنقول.

يقول: إنها تمكنت أجزاؤه بقلوبهم فأتت لوازمُه إلى الإيمان، فرفعت قواعده ونَحَّت أسَّه -أي: أساسه- حتى خَرَّ للأركان.

ثُمَّ ذكر أنهم جنوا على الإسلام كُلَّ جناية، لأنهم سَلَّطوا الأعداء، حيث صار كُلُّ إنسان يتكلَّم بها عنده، ويقول لخَصْمِه: هذا الذي قلت إنه محال.

فصار أهل التعطيل والتخييل الذين ينكرون البعث يقولون: هذا محال، مَنْ يُحيي العظام وهي رميم؟ وصار كُلُّ إنسانٍ مبطلٍ يقول لخَصْمه الذي يثبت ما ينفيه يقول: هذا محال، ولهذا يقول:

١٠١٩-حَمَلُوا بِأَسْلِحَةِ الْـمُحَالِ فَخَانَهُمْ ذَاكَ السِّلاحُ فَـمَا اشْتَفَوْا بِطِعَانِ

يعني: لم ينفعهم، بل غرَّهم حيث يقولون لِـمَا يُرِيدون: إِنَّ هذا ممكن، ولِـمَا لا يريدون: إِنَّ هذا محال، ولو أثبته الله ورسوله.

١٠٢٠-وَأَتَى الْعَدُوُّ إِلَى سِلاحِهِمُ فَقَا تَلَهُمْ بِهِ فِي غَيْبَةِ الْفُرْسَانِ

قَوْلُهُ: «وَأَتَى الْعَدُوُّ إِلَى سلاحِهِمُ...» كيف ذلك؟

قال أهل التخييل الذين يرون أنَّ اليوم الآخر ليس له حقيقة، فأجابهم أهل التعطيل في الصفات قالوا: كيف لا يكون له حقيقة وقد جاءت به الرسل، وليس هناك ما يمنعه، فوُجِدَ الدليلُ الموجِب، وانتفى المانع، وإذا وُجد الدليل الموجب وانتفى المانع وَجَبَ القولُ بما يقتضيه الدليل؟

فقال لهم أهل التخييل: توافقون على هذه القاعدة؟ قالوا: نعم، ونحتج بها عليكم. قالوا: إذن نحن نحتج عليكم بها، فإِنَّ القرآن والسُّنَّة جاءا بإثبات الصفات، وهو دليل مُوجِب، وليس هناك مانعٌ مقاوِم، فيجب عليكم أن تقولوا بإثبات الصفات.

فأنتم إِمَّا أن تقولوا بإثبات الصفات، وتجعلوا البابَ واحدًا، وإما أن تنفوا المعاد، ونحن لم ننفِ المعاد ونقول: إنه عبارة عن تخييل أو مجاز أو ما أشبه ذلك إِلَّا حيث وجدناكم نفيتم الصفات، مع أنَّ نصوص الصفات في القرآن والسنة أكثر بكثير من نصوص المعاد.

فكيف سوَّغتم لأنفسكم إنكارَ الصفات وتأويل نصوصها، بل على الأصحِّ وتحريف نصوصها، ومنعتمونا من تأويل آيات المعاد؟!

انظر كيف تسلط الأعداء الذين هم كفار بالإجماع، أخذوا سلاح المعتزلة وطعنوهم به.

فهذا معنى قول المؤلف -رحمه الله-: (**وَأَتَى الْعَدُوُّ إِلَى سِلاحِهِمُ فَقَاتَلَهُمْ بِهِ فِي غَيْبَةِ الْفُرْسَانِ**)، مَنْ هم الفرسان في هذا الباب؟

الجواب: أهل السنة الذين يثبتون هذا وهذا، ويقولون: نحن لا نتناقض، الكُلُّ حقٌّ، فصفاتُ ربِّنا حقٌّ، واليوم الآخر حقٌّ.

ثُمَّ قال نادبًا محنة الإسلام:

١٠٢١-يَـا مِحْنَـةَ الإِسْـلامِ وَالْقُـرْآنِ مِـنْ   جَهْلِ الصَّـدِيقِ وبَغْـيِ ذي طُغْيَـانِ

وهذا صحيح، فما يُبْتَلى الناس إِلَّا بهذا، فصديق جاهل يضرك أكثر مما ينفعك، صديق يحبك مثلما يحب نفسه قال لك: لا تذهب من هذا الطريق، لكن اذهب من هذا الطريق، وهو لا يدري أي الطريقين أحسن أو أسوأ؟ وبناءً على ما بينكما من الصداقة أطعته، وإذا في هذا الطريق قطَّاع طريق، ومَهْلَكة، ومَفازة[1] ورَمْضاء[2]، وعَطَش، وكلُّ شيء، والطريق الأول سليم، هذا الصديق هل نيته سيئة؟

الجواب: لا، ولكنه جاهل، فجهل الصديق بلاء، ولذلك يجب أن يكون الإنسان على ثقةٍ مِمَّن أشار إليه بشيء أن يكون عالمًا مخلصًا لك.

فإذا كان الصديقُ جاهلًا والعدوُّ باغيًا فعلى الإسلام السَّلام، وإذا كان الصديق عالمًا والعدوُّ مبغوتًا حصل المراد، ولهذا جعل ابن القيم -رحمه الله تعالى-

(١) هي البَرِّية القَفْر. انظر: النهاية في غريب الحديث الأثر، مادة: فوز.

(٢) هي شدة الحر. انظر: لسان العرب، مادة: رمض.

هذا من المحنة أن يسكت المسلمون عن هؤلاء المتكلِّمين ولا يبينوا عوارهم، جعل هذا من المحنة، وهو حقيقة، لكن نسأل الله تعالى أن ينصر الإسلام في كلِّ مكان.

قَوْلُهُ: «**وبغي ذِي طُغْيَانِ**» هذا العدو يبغي ولا يبالي وإن كان عالمًا.

١٠٢٢- وَاللهِ لَـوْلا اللهُ نَـاصِرُ دِينِـهِ ... وَكِتَابِـهِ بِالْـحَقِّ وَالْبُرْهَـانِ

١٠٢٣- لَتَخَطَّفَـتْ أَعْـدَاؤُهُ أَرْوَاحَنَـا ... وَلَقُطِّعَـتْ مِنَّـا عُـرَى الإِيمَانِ

وهذا صحيح، فلولا أنَّ اللهَ ناصرُ دينِه كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر:٩] لتقطَّعت عُرَى الإيمان، ولكنَّ الله قيَّض لدينه -ولله الحمد- مَنْ يُدافِعُ عنه ويَنْصُره.

ثُمَّ قال مُتَحدِّيًا:

١٠٢٤- أَيَكُونُ حَقًّا ذَا الدَّلِيلُ وَمَا اهْتَدَى ... خَـيْرُ الْقُـرُونِ لَـهُ؟! مُحَـالٌ ذانِ!

قَوْلُهُ: «**أَيَكُونُ حَقًّا ذَا الدَّلِيلُ وَمَا اهْتَدَى خَيْرُ الْقُرُونِ لَهُ**»؟!

الجواب: (**مُحَالٌ ذَانِ**) والمشار إليه اثنان:

الأول: وهو كون هذا الدليل حقًّا.

والثاني -وهو مبنيٌّ عليه-: عدم اهتداء القرون المفضلة إليه، هل القرون المُفَضَّلة سلكوا هذا المسلك واستدلوا بهذا الدليل؟

الجواب: لا، إذن محال أن يكون حقًّا ولم يهتدوا إليه، وهذا حقٌّ، إذن كيف يكون دليلًا والسلف كلُّهم على خلافه؟!

١٠٢٥- وُفِّقْتُمُ لِلْحَقِّ إِذْ حُرِمُوه في أَصْلِ الْيَقِينِ وَمَقعدِ الْعِرْفَانِ؟!

ما الجواب؟ الجواب: لا، فلا يمكن أن تُوَفَّقُوا -وأنتم الخلف- للحقِّ ويُحْرَمُ منه السلف، هذا مستحيل، ولهذا لما أجاب بعض العلماء لشخصٍ مُعَطِّل في أمر من الأمور فقال له: هل قاله النبيُّ ﷺ وأصحابُه؟ قال: لا، قال: إذن يسعك ما وسع النبيَّ ﷺ وأصحابَه، ومن لم يسعه ما وسع رسول الله ﷺ وأصحابه فلا وسَّع الله عليه.

أما هؤلاء فيقولون: مَنْ لم يدرك علم الكلام فلا يقين له في عقيدته ويقولون: لا يمكن الوصول إلى اليقين إلَّا بطرق علم الكلام.

فيقال: أين هذه الطرق؟ أين هي من الصحابة والتابعين؟ ولكن كما قال ابن القيِّم -رحمه الله- سُلِّطوا على أهل الإسلام وحَصَلَ ما حصل من المحن.

١٠٢٦-وَهَدَيْتُمُونَا لِلَّذِي لَمْ يَهْتَدُوا أَبَدًا بِهِ؟! وَاشِدَّةَ الْحِرْمَانِ!

كذلك نقول: لا، هم لا يمكن أن يهدونا لشيءٍ لم يهتدِ إليه السلف الصالح.

١٠٢٧-وَدَخَلْتُموا لِلْحَقِّ مِنْ بَابٍ وَمَا دَخَلُوهُ؟! وَاعَجَبًا لِذَا الْخِذْلانِ!

قَوْلُهُ: «وَدَخَلْتُموا لِلحَقِّ مِنْ بَابٍ وَمَا دَخَلُوهُ»؟

الجواب: لا، لا يمكن، فكُلُّ بابٍ يدخله الخلف ولم يدخله السلف فهو باب شر، ولهذا قال: (**وَاعَجَبًا لِذَا الخِذْلَانِ!**).

١٠٢٨-وَسَلَكْتُمُ طُرُقَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ دُونَ الْقَوْمِ؟! وَاعَجَبًا لِذَا الْبُهْتَانِ!

قَوْلُهُ: «وَسَلَكْتُمُ طُرُقَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ دُونَ الْقَوْمِ؟!» الجواب: لا، ولهذا قال: (**وَاعَجَبًا لِذا الْبُهْتَانِ**).

أهل التعطيل يقولون: الحقُّ معنا، وأما السَّلف فهم جهَّال مفوِّضة، تسألهم ما معنى قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾؟ [طه:٥]، يقولون لك: لا ندري، لأنَّ عندهم أنَّ مذهب السلف هو التفويض والجهل، حتى الرسول ﷺ يتكلَّم بالكلام وهو لا يعرفُ معناه، يقول: «يَنْزِلُ رَبُّنَا -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا»[(١)]. ولو سألته: يا رسول الله ما معنى ينزل؟ يقول: والله ما أدري، ينزل فقط، و«يَضْحَكُ اللهُ إِلَى رَجُلَيْنِ يَقْتُلُ أَحَدُهُمَا الآخَرَ»[(٢)]. ما معناه؟ فيقول: ما أدري، فهذا هو المذهب السَّلفي عند هؤلاء القوم.

وكذبوا -والله- على السلف، فالسلف يقولون: نحن نعرف المعنى، ولا يمكن أن يخاطبنا اللهُ عزَّ وجلَّ ورسولُه ﷺ بما لا نعلمه، لكننا نجهل الكيفية والحقيقة، لأننا أعجز من ذلك، ولم نُخْبَر عن الكيفية.

١٠٢٩- وَعَــرَفْتُمُ الــرَّحْمَنَ بالأَجْسَــامِ وَالْــ   أَعْــرَاضِ وَالْــحَرَكَاتِ وَالأَلْــوَانِ

هم يقولون: إنَّ الله ليس بجسم، ولا عَرَض، ولا متحرِّك، وليس له لون، وليس له ريح، وليس له ملمس، ولا... إلخ.

عندهم أنَّ هذه هي الصفات الكاملة التي يُثْنَى على الله بها، لا يقولون: ﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص:١-٤] يقرؤونها، لكن يُحَرِّفونها، أحسن شيء عندهم في الأوصاف هذه السلوب، يكيلون لك كيلًا، لكنه كيل لا حصر له من هذه السلوب.

---

(١) أخرجه البخاري: أبواب التهجد، باب الدعاء والصلاة من آخر الليل، برقم (١٠٩٤)، وأخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في الدعاء والذكر، برقم (٧٥٨).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب الكافر يقتل المسلم ثم يسلم، برقم (٢٦٧١)، وأخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب بيان الرجلين يقتل أحدهما الآخر يدخلان الجنة، برقم (١٨٩٠).

والسلوب يعني: النفي، ليس بكذا، ليس بكذا، ليس بكذا، وقد بَيَّنا لكم فيما سبق أنَّ التفصيل في السلوب مَنْقَصة وسُخْرِيَة.

فلو جئت لمَلِك من الملوك وقلت: والله أنت رجل لست بامرأة، ولست بَكسَّاح ولا كَنَّاس ولا حجَّام ولا بَيْطار، ولا شقاقًا لبطون الغنم إذا تعسرت في الولادة، وما أشبه ذلك من هذه الصفات، ماذا يقول لك؟

يقول: هات السيف، لكن لو تقول: أنت ملكٌ لا يساميك ملكٌ من ملوك الدنيا، فهذه كلمة واحدة، فيملأ جيبك وما معك من الدراهم، ويثني عليك.

فالحاصل أنَّ هؤلاء الجماعة لم يعرفوا الله إِلَّا بهذه السلوب.

يقول -رحمه الله-:

١٠٣٠- وَهُمُ فَمَا عَرَفُوهُ مِنْهَا بَلْ مِنَ الْـ   آيَاتِ وَهْيَ غَيْرُ ذِي بُرْهَانِ

قَوْلُهُ: «**وَهُمُ فَمَا عَرَفُوهُ مِنْهَا بَلْ مِنَ الآيَاتِ**»، عرفوا ربَّهم بآياته الكونية والشرعية.

قَوْلُهُ: «**وَهْيَ غَيْرُ ذِي بُرْهَانِ**» عند مَنْ؟

الجواب: عند الخلف، يقولون: دلالة القرآن والسنة غير برهان، وليست قاطعة، فإذا أتيتَهم بدليل قالوا: هذا الدليل يحتمل عشرة أوجهٍ، ومع الاحتمال يسقط الاستدلال، هذا إذا كان لا يمكنهم دفع الدليل بالسند.

فإن كان يمكن دفع الدليل بالسند قالوا: هذا سنده ضعيف، هذا خبر آحاد لا نقبله في العقائد، لكن إذا جاء من القرآن يقولون: هذا يحتمل عدة معانٍ، ومع الاحتمال يبطل الاستدلال.

فجعلوا نصوص الكتاب والسُّنَّة مهزلة، طعنوا أحيانًا في الدلالة، وأحيانًا في الدليل، إن أمكنهم أن يطعنوا في الدليل بعدم ثبوته فعلوا، وإذا لم يمكنهم، لأنَّ القرآن لا يمكن أن يقدحوا فيه، طعنوا في الدلالة.

فصار طعنهم إما في الدليل ويتبعه الطَّعن في الدلالة، وإما في الدلالة إذا عجزوا عن الطعن في الدليل.

١٠٣١-اللهُ أَكْبَرُ أَنْتُمُ أَوْ هُمْ عَلَى حَقٍّ وَفِي غَيٍّ وَفِي خُسْرَانِ

الجواب: أنَّ السلف (أهل السُّنَّة) واللهِ على الحقِّ، وأنَّ الخلق المخالفين لهم على ضلال وفي خسران.

لكن إذا قال قائل: كيف يقول ابن القيم -رحمه الله تعالى-: «**أَنْتُمُ أَوْ هُمْ عَلَى حَقٍّ**»؟

نقول: نعم، هذا من تعليم الله، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [سبأ:٢٤]، وهذا هو الإنصاف، الإنصاف أن تقول: أنا أو أنت مخطئ، ثُمَّ الخطأ والصواب يتبيَّن، لأننا خَصْمَانِ مثلًا، لا يمكن أن أحكم بقولي عليك، ولا أنت تحكم بقولك عليَّ، فالحقُّ إما معي أو معك، ويكون المُرَجِّحَ دليلٌ من الخارج.

قال الله تعالى: ﴿قُلۡ ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة:١٤٠] في باب المناظرة أو باب المخاصمة فلا مانع، ونحن أعلم أنَّ الله أعلم.

وكقوله: ﴿ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [النمل:٥٩] ومعلوم أنَّ الله خير، ولا خير فيما أشركوا به.

وكقوله تعالى: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ [غافر:٢٨] هذا صحيح، فهو إما كاذب وإما صادق.

هذا هو الإنصاف، وليس الإنصاف أن يقول الواحد: القول قولي أنا، قولي هو الصواب، والقول الثاني خطأ، حتى يكون الحكم.

* * *

١٠٣٢- دَعْ ذَا أَلَيْسَ اللهُ قَدْ أَبْدَى لَنَا	حَقَّ الأَدِلَّةِ؟ وَهْيَ فِي القُرْآنِ
١٠٣٣- مُتَنَوِّعَاتٌ صُرِّفَتْ وَتَظَاهَرَتْ	فِي كُلِّ وَجْهٍ فَهْيَ ذُو أَفْنَانِ
١٠٣٤- مَعْلُومَةٌ لِلْعَقْلِ أَوْ مَشْهُودَةٌ	لِلْحِسِّ أَوْ فِي فِطْرَةِ الرَّحْمَنِ
١٠٣٥- أَسَمِعْتُمُ لِدَلِيلِكُمْ فِي بَعْضِهَا	خَبَرًا أَوَ احْسَسْتُم لَهُ بِبَيَانِ؟
١٠٣٦- أَيَكُونُ أَصْلُ الدِّينِ مَا تَمَّ الْهُدَى	إِلَّا بِهِ وَبِهِ قُوَى الإِيمَانِ
١٠٣٧- وَسِوَاهُ لَيْسَ بِمُوجِبٍ مَنْ لَمْ يُحِطْ	عِلْمًا بِهِ لَمْ يَنْجُ مِنْ كُفْرَانِ
١٠٣٨- وَاللهُ ثُمَّ رَسُولُهُ قَدْ بَيَّنَا	طُرُقَ الْهُدَى فِي غَايَةِ التِّبْيَانِ
١٠٣٩- فَلِأَيِّ شَيْءٍ أَعْرَضَا عَنْهُ وَلَمْ	نَسْمَعْهُ فِي أَثَرٍ وَلَا قُرْآنِ؟
١٠٤٠- لَكِنْ أَتَانَا بَعْدَ خَيْرِ قُرُونِنَا	بِظُهُورِ أَحْدَاثٍ مِنَ الشَّيْطَانِ
١٠٤١- وَعَلَى لِسَانِ الْجَهْمِ جَاءُوا حِزْبُهُ	مِنْ كُلِّ صَاحِبِ بِدْعَةٍ حَيْرَانِ
١٠٤٢- وَلِذَلِكَ اشْتَدَّ النَّكِيرُ عَلَيْهِمُ	مِنْ سَائِرِ الْعُلَمَاءِ فِي الْبُلْدَانِ

١٠٤٣-صَاحُوا بِهِمْ مِنْ كُلِّ قُطْرٍ بَلْ رَمَوْا ... فِي إِثْرِهِمْ بِثَوَاقِبِ الشُّهْبَانِ

١٠٤٤- عَرَفُوا الَّذِي يُفْضِي إِلَيْهِ قَوْلُهُمْ ... وَدَلِيلُهُمْ بِحَقِيقَةِ الْعِرْفَانِ

١٠٤٥-وَأَخُو الْجَهَالَةِ فِي خَفَارَةِ جَهْلِهِ ... وَالْجَهْلُ قَدْ يُنْجِي مِنَ الْكُفْرَانِ

الشرحُ

١٠٣٢-دَعْ ذَا أَلَيْسَ اللهُ قَدْ أَبْدَى لَنَا ... حَقَّ الأَدِلَّةِ؟ وَهْيَ فِي القُرْآنِ

١٠٣٣- مُتَنَوِّعَاتٌ صُرِّفَتْ وَتَظَاهَرَتْ ... فِي كُلِّ وَجْهٍ فَهْيَ ذُو أَفْنَانِ

١٠٣٤-مَعْلُومَةٌ لِلْعَقْلِ أَوْ مَشْهُودَةٌ ... لِلْحِسِّ أَوْ فِي فِطْرَةِ الرَّحْمَنِ

المؤلف -رحمه الله- يقول: دَعْ هذا النظر أو هذه المجادلة، وأسألك: هل قد أبدى الله لنا حقَّ الأدلة؟ لأنَّ الاستفهام في قوله: «أَلَيْسَ اللهُ»؟ للتقرير.

والجواب: بلى، فقد بَيَّن الله لنا الأدلة على وجوه متنوعة: أدلة عقلية، وحسِّية، وفطرية، فلهذا كان القرآن أحيانًا يحيل على العقل، وأحيانًا يحيل على الحِسِّ المشاهَد، وأحيانًا يحيل على الفطرة.

فمثلًا: (البعث) أحال الله -سبحانه وتعالى- فيه على الشيء الواقع المُشَاهَد، فأخبر -سبحانه وتعالى- في سورة (فُصِّلت) أنه يُنَزِّلُ الماءَ على الأرض الميتة الخاشعة فإذا هي حيَّة، فقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت:٣٩]، فهذا دليلٌ حسيٌّ نُشاهِدُه.

ومثال الدليل العقلي قول الله -سبحانه وتعالى-: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ

﴿فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق:١٥]، يعني: هل عجزنا عن الخلق الأول؟ فإذا لم نعجز فإنَّ الخلق الثاني من باب أولى كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم:٢٧].

أما الفطرة فإنَّ الإنسانَ مجبولٌ بفطرته على أن يعرف ربَّه -سبحانه وتعالى- كما قال النبيُّ عليه الصلاة والسلام: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُولَدُ إِلَّا عَلَى الفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ»(١). ثُمَّ قال -رحمه الله-:

١٠٣٥- أَسَمِعْتُمُ لِدَلِيلِكُمْ فِي بَعْضِهَا ... خَبَرًا أَوَ احْسَسْتُم لَهُ بِبَيَانِ؟

ما الجواب؟

الجواب: لا، فأدلتهم التي استدلوا بها لا تستند على وحي، ولا على عقل، ولا على حِسٍّ، ولا على فطرة.

١٠٣٦- أَيَكُونُ أَصْلُ الدِّينِ مَا تَمَّ الْهُدَى ... إِلَّا بِهِ وَبِهِ قُوَى الإِيمَانِ

١٠٣٧- وَسِوَاهُ لَيْسَ بِمُوجِبٍ مَنْ لَمْ يُحِطْ ... عِلْمًا بِهِ لَمْ يَنْجُ مِنْ كُفْرَانِ

هذا يردُّ به على المنطقيين الذين قالوا: إنَّ مَنْ لم يُحِط علمًا بالمنطق فليس على يقينٍ من أمره، وهذا المنطق يقول عنه شيخُ الإسلام -رحمه الله-: «قد كنتُ أعلمُ دائمًا أنَّ المنطق اليونانيَّ لا يحتاج إليه الذكيُّ، ولا ينتفع به البليد»(٢). إذن لا خير فيه ما دام البليد لا ينتفع به والذكي لا يحتاج إليه، إذن فلا ينبغي للإنسان أن يُضَيِّع عمره فيه.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي هل يصلى عليه، برقم (١٢٩٢)، وأخرجه مسلم: كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة، برقم (٢٦٥٨).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (٩/ ٨٢).

١٠٣٨-وَاللهُ ثُـــمَّ رَسُـــولُهُ قَــدْ بَيَّنَــا طُـرقَ الْــهُدَى فِي غَايَـةِ التِّبْيَــانِ

١٠٣٩-فَـلأَيِّ شَيْءٍ أَعْرَضَـا عَنْـهُ وَلَــمْ نَسْــمَعْهُ فِي أَثَــرٍ وَلا قُــرْآنِ؟

قَوْلُهُ: «عَنْهُ» يعني: عن الدليل الذي استندوا إليه فيما سبق، وهو الاعتماد على العقل والجدل، لماذا أعرض الله ورسوله عنه فلم يستدلا به؟!

١٠٤٠- لَكِــنْ أَتَانَــا بَعْــدَ خَـيْرِ قُرُونِنَـا بِظُهُـورِ أَحْـدَاثٍ مِـنَ الشَّــيْطَانِ

١٠٤١- وَعَلَى لِسَانِ الْـجَهْمِ جَـاءوا حِزْبُـهُ مِـنْ كُـلِّ صَـاحِبِ بِدْعَـةٍ حَـيْرَانِ

قَوْلُهُ: «أَحْدَاثٍ»، ويجوز أيضًا (إِحْدَاث).

الجهم بن صفوان هو أصل التعطيل في الحقيقة، وهو تلميذٌ للجعد بن درهم، لكن نُسِبت المقالة للجهم، لأنه نشرها في العالم وأظهرها، فنسبت إليه.

١٠٤٢- وَلِــذَلِكَ اشْــتَدَّ النَّكِــيرُ عَلَــيْهِمُ مِــنْ سَــائِرِ الْعُلَــمَاءِ فِي الْبُلْــدَانِ

١٠٤٣- صَاحُوا بِهِمْ مِنْ كُلِّ قُطْرٍ بَـلْ رَمَـوْا فِي إِثْــرِهِمْ بِثَوَاقِــبِ الشُّــهْبَانِ

١٠٤٤- عَرَفُوا الَّذِي يُفْضِـي إِلَيْـهِ قَوْلُــهُمْ وَدَلِــيلُهُمْ بِحَقِيقَــةِ الْعِرْفَــانِ

١٠٤٥- وَأَخُو الْــجَهَالَةِ فِي خَفَـارَةِ جَهْلِـهِ وَالْـجَهْلُ قَدْ يُنْجِـي مِـنَ الْكُفْـرَانِ

المعنى: أنَّ العلماء صاروا ينكرون على الجهم، وعلى كلِّ مَنْ سار على نهجه من كلِّ الأقطار، وعرفوا أنَّ قولهم هذا يفضي إلى محاذيرَ عظيمة، فيُفضي إلى تعطيل الرَّبِّ عزَّ وجلَّ وإلى كونه كالجماد لا يفعل، ولا يشاء، ولا يتكلَّم، ولا يُنْزِلُ شرعًا، فهو غاية كل بلاء.

قَوْلُهُ: «وَالْـجَهْلُ قَدْ يُنْجِي مِنَ الْكُفْرَانِ» المعنى أنَّ الإنسان قد يصل بعلمه إلى الكفر الذي ينجو منه الجاهل.

وذلك لأنَّ الجاهلَ مُتَمَشٍّ على فطرته، وليس عنده تحريف للقرآن، وهؤلاء الذين يدَّعون أنهم العلماء وأنهم العقلاء بلغ بهم الهوى إلى ما بلغ.

ولهذا تجد عوامَّ المسلمين خيرًا من هؤلاء المُعَطِّلة مع ما عندهم من العلم، لكن لم يُوَفَّقوا للخير، أدركوا العلم ولكن لم ينالوا به خيرًا، أُعطوا علمًا، ولم يُعْطَوا ذَكاءً.

بفضل الله تعالى وتوفيقه تمَّ المجلد الأول

ويليه بمشيئة الله تعالى المجلد الثاني

وأوله: فصلٌ فِي الرَّدِّ عَلَى الجَهْمِيَّةِ المُعَطِّلَةِ، البيت رقم (١٠٤٦)

* * *

فهرس الآيات

* * *

فهرس الأحاديث والآثار

الحديث **الصفحة**

* * *

فهرس الموضوعات والفوائد

الموضوع **الصفحة**

* * *